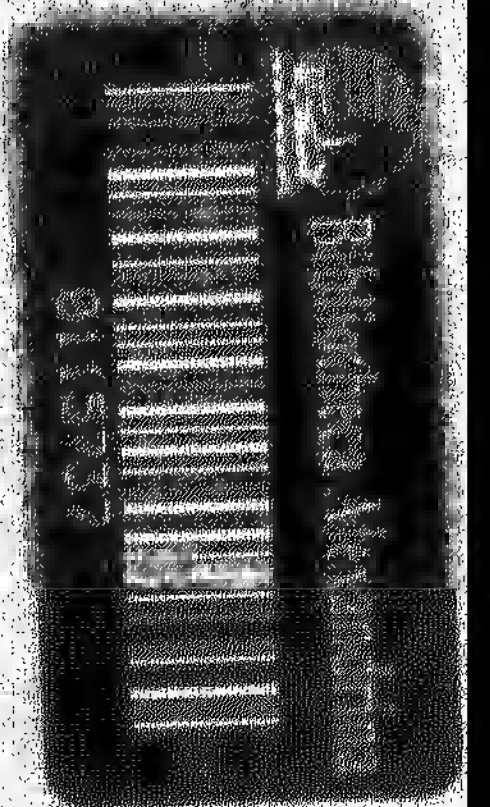


المفصل
في
تاريخ العرب قبل الاسلام

تأليف
الدكتور جواد علي

المجلد الرابع



افصل
فے
تاریخ العرب قبل الاسلام
۴

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف
الدكتور هبّار علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الرابع

○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الفصل الثاني والأربعون

مكة المكرمة

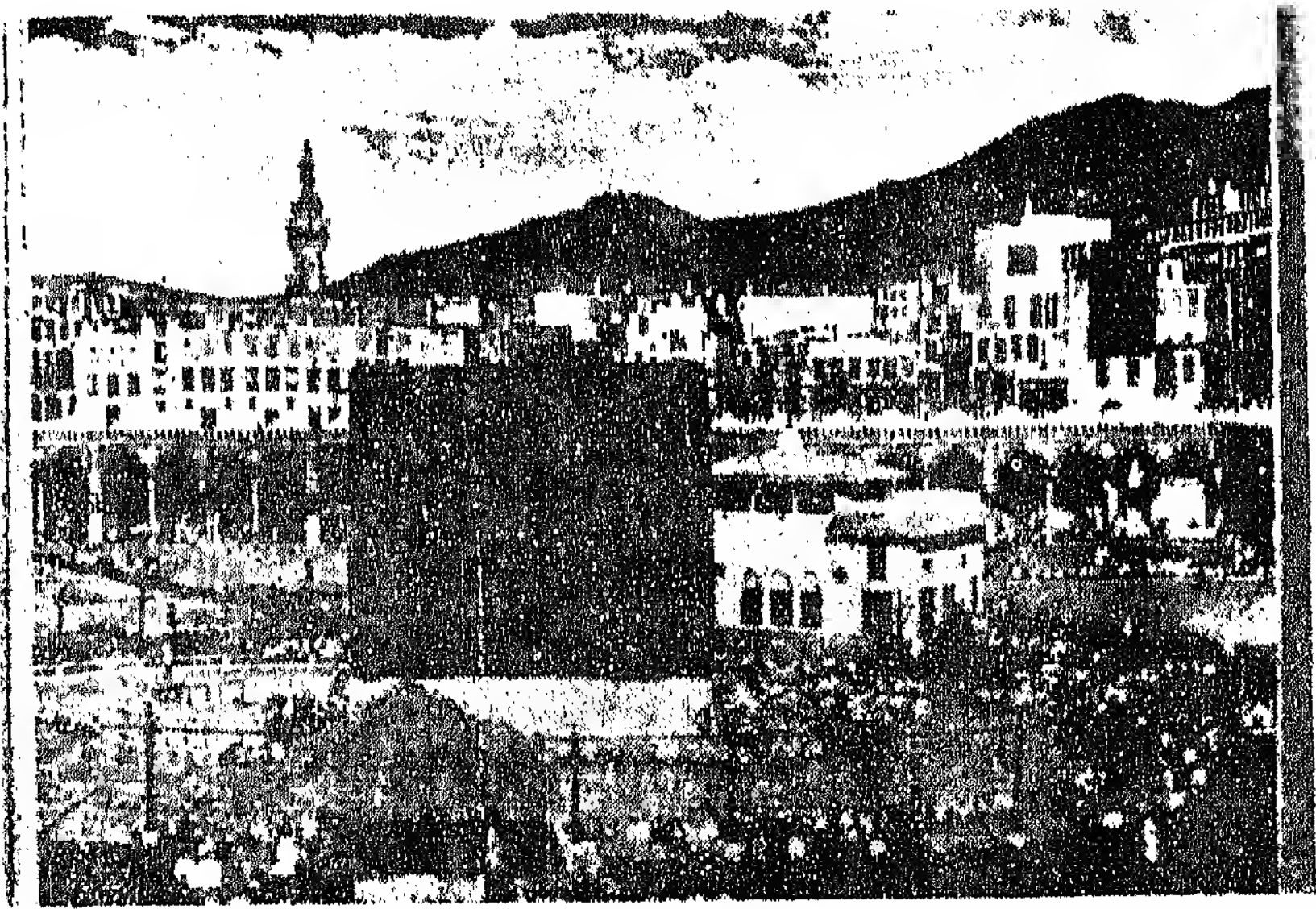
ومكة بلد في وادٍ غير ذي زرع ، تشرف عليها جبال جُرد ، فتزيد في قسوة مناخها . ليس بها ماء ، غير ماء زمزم ، وهي بئر محفورة ، وآبار أخرى حجة حفرها أصحاب البيوت ، أما مياه جارية وعيون غزيرة ، على ما نرى في أماكن أخرى ، فليس لها وجود بهذا المعنى هناك . وكل ما كان يحدث نزول سيول ، قد تكون ثقيلة قوية ، تهبط عليها من شعاب الهضاب والجبال ، فتتزل بها أضراراً فادحة وخصائر كبيرة ، وقد تصل إلى الحرم فتؤثر فيه ، وقد تسقط البيوت ، فتكون السيول نقمة ، لا رحمة تسعف وتغيث أهل البيت الحرام^١ .

لذلك لم تصلح أرض مكة لأن تكون أرضاً ذات نخيل وزرع وحَب ، فاضطر سكانها إلى استيراد ما يحتاجون إليه من الأطراف والخارج ، وأن يكتفوا في حياتهم بالتعيش مما يكسبونه من الحجاج ، وأن يضيفوا إلى ذلك تجارة تسعفهم وتغنيهم ، وتضمن لهم معاشهم ، وأماناً وسلاماً يحفظ لهم حياتهم ، فلا يطمع فيهم طامع ، ولا ينغص عيشهم منغص . (وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات ...)^٢ .

١ تاريخ مكة ، للأزرقى (٣٨/١ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٦٥ وما بعدها) .

٢ البقرة ، الآية ١٢٦ .

ويعود الفضل في بقاء مكة وبقاء أهلها بها الى موقعها الجغرافي ، فهي عقدة تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام ، أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية ، والتي كان لا بد من أن تستريح في هذا المكان ، لينفض رجالها عن أنفسهم غبار السفر ، وليتزودوا ما فيه من رزق . ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل سرّ السفر وفائدته ، فسافروا أنفسهم على هيئة قوافل ، تتولى نقل التجارة لأهل مكة وللتجار الآخرين من



مكة المكرمة

أهل اليمن ومن أهل بلاد الشام . فلما كان القرن السادس للميلاد ، احتكر تجار مكة التجارة في العربية الغربية ، وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشام وبالعراق^١ .

W.M. Watt, Muhammad at Mecca, P. 3.

ولبيت فضل كبير على أهل مكة ، وبفضله يقصدها الناس من كل أنحاء العالم حتى اليوم للحج إليه . وقد عرف البيت بـ (الكعبة) لأنه مكعب على خلقة الكعب . ويقال له : (البيت العتيق) و (قادس) و (بادر) ، وعرفت الكعبة بـ (القرية القديمة) كذلك ^١ .

وبمكة جبل يطل عليها ، يقال له جبل : (أبو قبيس) ، ذكر بعض أهل الأخبار أنه سُمِّيَ (أبا قبيس) برجل حداد لأنه أول من بنى فيه . وكان يسمى (الأمين) لأن الركن كان مستودعاً فيه ^٢ . وأمامه جبل آخر ، وبين الجبلين وادٍ ، فيه نمت مكة ونبتت . فصارت محصورة بين سلسلتين من مرتفعات .

وقد سكن الناس جبل (أبي قبيس) قبل سكنهم بطحاء مكة ، وذلك لأنه موضع مرتفع ولا خطر على من يسكنه من اغراق السيول له . وقد سكنته (بنو جرهم) ، ويذكر أهل الأخبار أنه إنما سُمِّيَ (قبيساً) بـ (قبيس بن شالح) رجل من جرهم . كان في أيام (عمرو بن مضاض) ^٣ .

١ نهاية الأرب (٣١٣/١) .

٢ نزهة الجليس (٢٧/١) .

٣ اللسان (ق ب س) ، (وأبو قبيس مصغراً جبل بمكة . هذه عبارة الصحاح ، وفي التهذيب جبل مشرف على مسجد مكة ، سمي برجل من مذحج حداد ، لأنه أول من بنى فيه . وفي الروض للسهيلي : عرف أبو قبيس بقبيس بن شالح ، رجل من جرهم كان قد وشى بين عمرو بن مضاض وبين ابنه عمه مية . فنذرت أن لا تكلمه . وكان شديد الكلف بها ، فحلف ليفنلن قبيسا ، فهرب منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره ، فاما مات واما نردى منه ، فسمي الجبل أبا قبيس . قال : وله خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب . وكان أبو قبيس الجبل هذا يسمى الأمين ، لأن الركن أي الحجر الأسود كان مستودعاً فيه . كما ذكره أهل السير والمغازي) ، ناج العروس (٢١٢/٤) ، (قبيس) ، (والأخشبان : جبلا مكة ، وفي الحديث في ذكر مكة لا تزول مكة حتى يزول أخشباها ، أي جبلاها . . . الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس وفعيفعان ويسميان : الجبجباب أيضا . ويقال بل هما أبو قبيس والأحمر . وهو جبل مسرف وجهه على قعيقعان . وقال ابن وهب : الأخشبان جبلا منى اللذان تحت العقبة ، وكل خشن غليظ من الجبال ، فهو أخشب . وقال السيد العلوي : الأخشب الشرفي أبو قبيس والأخشب العربي وهو المعروف بجبل الخط . والخط من وادي ابراهيم عليه السلام . وقال الأصمعي : =

ويظهر انه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين ، فقد كان نُسّاك مكة وزهادها ومن يتحنف ويتحنث ويترهب من أهلها في الجاهلية يصعبه ويعتكف فيه . ولعله كان مقام الطبقة المترفة الغنية من أهل مكة قبل نزوح (قريش) الى الوادي ، وسكنها المسجد الحرام المحيط بالبيت .

ويظهر من سكوت أهل الأخبار عن الإشارة الى وجود أطم أو حصون في مكة للدفاع عنها ، ان هذه المدينة الآمنة لم تكن ذات حصون وبروج ولا سور يقيها من احتمال غزو الأعراب أو أي عدو لها . ويظهر ان ذلك إنما كان بسبب ان مكة لم تكن قبل أيام (قصي) في هذا الوادي الذي يتمركزه (البيت) ، بل كانت على المرتفعات المشرفة عليه .

اما الوادي ، فكان حرماً آمناً يغطيه الشجر الذي انبتته السيول ورعته الطبيعة بعنايتها ، ولم يكن ذا دور ولا سكن ثابت متصل بالأرض ؛ بل كان سكن من يأوي اليه بيوت الخيام . واما أهل المرتفعات فكانوا ، إذا داهمهم عدو أو جاءهم غزو ، اعتصموا برؤوس المرتفعات المشرفة على الدروب ، وقاوموا العدو والغزو منها ، وبذلك يصير من الصعب على من يطمع فيهم الوصول اليهم ، ويضطر عندئذ الى التراجع عنهم ، فحمتهم الطبيعة بنفسها ورعتهم بهذه الرؤوس الجبلية التي أقامتها على مشارف الأودية والطرق . فلما أسكن (قصي) أهل الوادي في بيوت ثابتة مبنية ، وجاء ببعض من كان يسكن الظواهر لتزول الوادي ، بقي من فضل السكن في ظواهر مكة ، أي على المرتفعات . يقوم بهمة

= الأخشبان أبو قبيس ، وهو الجبل المشرف على الصفا ، وهو ما بين حرفة أجياد الصغير المشرف على الصفا الى السوداء التي تلي الخندمة . وكان يسمى في الجاهلية الأمين ، والأخشب الآخر الجبل الذي يقال له الأحمر ، وكان يسمى في الجاهلية الأعراف ، وهو الجبل المشرف وحده على فعبقان) ، تاج العروس (٢٣٤ / ١) ، (خشب) ، (قال الزبير بن بكار : الجبابب جبال مكة حرسها الله تعالى ، أو أسواقها أو منحرج . وقال البرقي : حمر بمنى كان يلقي به الكروش ، أي كروش الأضاحي في أيام الحج . أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا . والعرب تعظمها ونفخر بها) ، تاج العروس (١٧٤ / ١) ، (جبب) .

حماية نفسه وحماية أهل البطحاء من تلك المرتفعات ، وهم الذين عرفوا بقريش الظواهر . فلم تعد لأهل مكة سكان الوادي ثمة حاجة الى اتخاذ الأطم والحصون ، وبناء سور يحمي المدينة من الغزو ، لا سيما والمدينة نفسها حرم آمن وفي حماية البيت ورعايته . وقد أكد (قصي) على أهلها لزوم إقراء الضيف ورعاية الغريب والابتعاد عن القتال وحل المشكلات حلاً بالتي هي أحسن . كما نظم أمور الحج ، وجعل الحجاج يقدون الى مكة ، للحج وللاتجار . ثم أكد من جاء بعده من سادة قريش هذه السياسة التي افادت البلد الآمن ، وأمنت له رزقه رغداً .

ولم يرد اسم (مكة) في نص الملك (نبونيد) ملك بابل ، ذلك النص الذي سرد الملك فيه أسماء المواضع التي خضعت لجيوشه ، ووصل هو اليها في الحجاز فكانت (يثرب) آخر مكان وصل اليه حكمه في العريضة الغربية على ما يبدو من النص .

ولم تتمكن من الحصول على اسم (مكة) من الكتابات الجاهلية حتى الآن . اما الموارد التاريخية المكتوبة باللغات الأعجمية ، فقد جاء في كتاب منها اسم مدينة دعيت بـ (مكربة) (مكربا) (Macoraba) ، واسم هذا الكتاب هو (جغرافيا) (جغرافية) (للعالم اليوناني المعروف (بطلميوس) (Ptolemy) الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد . وقد ذهب الباحثون الى ان المدينة المذكورة هي (مكة)^١ . وإذا كان هذا الرأي صحيحاً يكون (بطلميوس) أول من أشار اليها من المؤلفين وأقدمهم بالنظر الى يومنا هذا . ولا أستبعد مجيء يوم قد لا يكون بعيداً ، ربما يعثر فيه المنقبون على اسم المدينة مطموراً تحت سطح الأرض ، كما عثروا على أسماء مدن أخرى وأسماء قرى وقبائل وشعوب .

ولفظ (مكربة) (Macoraba) ، لفظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني ، أصلها (مكربة) أي (مقربة) من التقريب . وقد رأينا في أثناء كلامنا على حكومة (سبأ) القديمة ، ان حكامها كانوا كهاناً ،

Ptolemy, Geography, VI, 7, 32.

أي رجال دين ، حكموا الناس باسم آلهتهم . وقد كان الواحد منهم يلقب نفسه بلقب (مكرب) أي (مقرب) في لهجتنا . فهو أقرب الناس الى الآلهة ، وهو مقرب الناس الى آلهتهم ، وهو مقدس لنطقه باسم الآلهة ، وفي هذا المعنى جاء لفظة (مكربة) ، لأنها (مقربة) من الآلهة ، وهي تقرب الناس اليهم ، وهي أيضاً مقدسة و (حرام) ، فاللفظة ليست علماً لمكة ، وإنما هي نعت لها ، كما في (بيت المقدس) و (القدس) إذ هما نعت لها في الأصل . ثم صار النعت علماً للمدينة .

أما ما ذهب اليه بعض الباحثين من ان المعبد الشهير الذي ذكره (ديودوروس الصقلي) (Diodorus Siculus) في أرض قبيلة عربية دعاها (Bizomeni)^١ ، وقال إنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكة - فهو رأي لا يستند الى دليل مقبول معقول . فالموضع الذي يقع المعبد فيه ، هو موضع بعيد عن مكة بعداً كبيراً ، وهو يقع في (حسمى) في المكان المسمى (رواقه) (غوافة) على رأي (موسل) . وقد كانت في هذه المنطقة وفي المحلات المجاورة لها معابد أخرى كثيرة أشار اليها الكتبة اليونان والرومان ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد وصفها السياح الذين زاروا هذه الأماكن^٢ .

وإذا صح رأينا في ان موضع (Macoraba) هو مكة ، دلّ على انها كانت قد اشتهرت بين العرب في القرن الثاني بعد الميلاد ، وانها كانت مدينة مقدسة يقصدها الناس من مواضع بعيدة من حضر ومن بادين . وبفضل هذه القدسية والمكانة بلغ اسمها مسامع هذا العالم الجغرافي اليوناني البعيد . ودلّ ايضاً على انها كانت موجودة ومعروفة قبل أيام (بطليموس) إذ لا يعقل ان يلمع اسمها وتنال هذه الشهرة بصورة مفاجئة بلغت مسامع ذلك العالم الساكن في موضع بعيد . ما لم يكن لها عهد سابق لهذا العهد .

١ C.H. Oldfather, Diodorus Siculus, Bibliotheca, Book, III, XXXI, Booth, The Historical Library of Diodorus The Sicilian, 105, Gerald De Gury, Rulers of Mecca, London, 1951, P. 12.

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٥٣/٣) .

وقد عرفنا من الكتابات الثمودية أسماء رجال عرفوا بـ (مكى) . ولم تشر تلك الكتابات الى سبب تسمية اولئك الرجال بـ (مكى) . فلا ندرى اليوم إذا كان اولئك الرجال من (مكة) أو من موضع آخر ، أو من عشيرة عرفت بـ (مكت) (مكة) . لذلك لا نستطيع ان نقول ان لهذه التسمية صلة بمكة .

ولم يشر الأخباريون ولا من كتب في تأريخ مكة الى هذا الاسم الذي ذكره (بطلميوس) ، ولا الى اسم آخر قريب منه ، وإنما أشار الى اسم آخر هو (بكة) . وقد ذكر هذا الاسم في القرآن^١ . قالوا إنه اسم مكة ، أبدلت فيه الميم باءً ، وقال بعض الأخباريين : إنه بطن مكة ، وتشدد بعضهم وتزمت ، فقال : بكة موضع البيت ، ومكة ما وراءه ، وقال آخرون : لا . والصحيح البيت مكة وما والاها بكة ، واحتاجوا الى إيجاد اجوبة في معنى اسم مكة وبكة ، فأوجدوا للاسمين معاني وتفسير عديدة تجدها في كتب اللغة والبلدان وأخبار مكة^٢ .

وذكر أهل الأخبار ان مكة عرفت بأسماء أخرى ، منها : صلاح ، لأمنها ، ورووا في ذلك شعراً لأبي سفيان بن حرب بن أمية^٣ ، ومنها أم رحم ، والباسة ، والناسة^٤ . والحاطمة . و (كوئى)^٥ . وذكرت في القرآن الكريم

١ آل عمران : الآية ٦٩ ، (وتسمى بكة ، نبك أعناق البغايا اذا بغوا فيها ، والجبابرة) ، الطبري (٢٨٤/٢) ، نزهة الجليس (٢٧/١) .

٢ المفردات ، للأصفهاني (ص ٥٦ وما بعدها) ، البلدان (٢٥٦/٢ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٢٤٨/٤) ، تاج العروس (١٧٩/٧) ، الصحاح ، للجوهري (١٦٠٩/٤) ، القاموس (٣١٩/٣) ، أخبار مكة (١٨٨/١) ، ابن هشام ، سيرة (١٢٥/١) وما بعدها ، الطبرسي ، مجمع البيان (٤٧٧/٣ وما بعدها) ، البلدان (١٣٤/٨) ، نهاية الأرب (٣١٣/١) .

٣ بلوغ الأرب (٢٢٨/١) ، القاموس المحيط (٢٣٥/١) ، فنوح البلدان (٦٠/١) وما بعدها ، الأحكام السلطانية (١٥٧ وما بعدها) .

٤ بلوغ الأرب (٢٨٨/١) ، الطبري (٢٨٤/٢) ، أخبار مكة (١٨٩/١) وما بعدها ، صبح الأعشى (٢٤٨/٤) ، القاموس (٢٣٩/١) .

٥ القاموس المحيط (٩٧/٣) ، صبح الأعشى (٢٤٨/٤) ، أخبار مكة (١٨٩/١) .

ب (أم القرى) ١ .

ولعلماء اللغة بعد ، تفاسير عديدة لمعنى (مكة) ٢ ، يظهر من غربلتها أنها من هذا النوع المؤلف الوارد عنهم في تفسير الأسماء القديمة التي ليس لهم علم بها ، فلجثوا من ثم الى هذا التفسير والتأويل . ولا استبعد وجود صلة بين لفظة مكة ولفظة (مكربة) التي عرفنا معناها . ولا استبعد ان يكون سكان مكة القدامى هم من أصل يمني في القديم ، فقد أسس أهل اليمن مستوطنات على الطريق الممتد من اليمن الى أعالي الحجاز ، حيث حكموا أعالي الحجاز وذلك قبل الميلاد . وقد سبق ان تحدثت عن ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، فلا يستبعد ان تكون مكة احداها . ثم انضم اليهم العرب العدنانيون ، ولأهل الأخبار روايات تؤيد هذا الرأي .

وقد ذهب (دوزي) الى ان تأريخ مكة يرتقي الى أيام (داود) ففي أيامه — على رأيه أنشأ (الشمعونيون) (السمعونيون) ، الكعبة وهم (بنو جرهم) عند أهل الأخبار ٣ . وهو يخالف بذلك رأي (كيبن) (GIBBON) ، ورأي جماعة من المستشرقين رأيت ان مكة لم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الأول قبل الميلاد ، مستدلة على ذلك بما ورد في تأريخ (ديودورس الصقلي) من وجود معبد ، ذكر عنه انه كان محجة لجميع العرب ، وان الناس كانوا يحجون اليه من أماكن مختلفة . ولم يذكر (ديودورس) اسم المعبد ، ولكن هذه الجماعة من المستشرقين رأيت ان هذا الوصف ينطبق على الكعبة كل الانطباق ، وان (ديودورس) قصدها بالذات ٤ .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار ان (العاليق) كانوا قد انتشروا في البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز ، وعتوا عتوًّا كبيراً . فبعث اليهم موسى جنوداً

١ الأنعام ، السورة ، الرقم ٦ ، الآية ٩٢ ، الكشف (٢٥/٢) ، البيضاوي (١٨٤) ، تفسير ابن عباس (١٠٧) ، نهاية الأرب (٣١٣/١) .

٢ تاج العروس (١٧٩/٧) ، (مك) .

٣ R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, S., 15.

٤ Dozy, Die Israeliten, S., 13. Gibbon, History of the Decline and fall of the Roman Empire, Cha., 50. Cussin De Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes Avant L'Islamisme, I, P. 174.

فقتلوهم بالحجاز . وجاء اليهود فاستوطنوا الحجاز بعد العماليق^١ . ويظهر أنهم أخذوا أخبارهم هذه من اليهود ، ففي التوراة ان العماليق (العمالقة) ، هم أول الشعوب التي حاربت العبرانيين ، لما همّوا بدخول فلسطين ، وقد حاربهم موسى ، فوسع يهود الحجاز هذه القصة ونقلوا حرب موسى مع العمالقة الى الحجاز ليرجعوا زمان استيطانهم في الحجاز الى ذلك العهد .

ثم جاءت (جرهم) فترلت على قطورا ، وكان علي (قطورا) يومئذ (السמידع بن هوثر) ، ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم (مضاض ابن عمر بن الرقيب بن هاني بن نبت بن برهم) فترلوا ب (قعيقعان) . وكانت قطورا بأسفل مكة ، وكان (مضاض) يعثر من دخل مكة من أعلاها ، و (السמידع) من أسفلها . ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب (المضاض) وغلب (السמידع) .

وجرهم قوم من اليمن ، فهم قحطانيون إذن ، جدّهم هو ابن (يقطن بن عابر بن شالخ) : وهم بنو عم (يعرب) . كانوا باليمن وتكلموا بالعربية ، ثم غادروها فجاءوا مكة^٢ .

والعمالقة من الشعوب المذكورة في (التوراة) ، وقد عدّهم (بلعام) (أول الشعوب)^٣ . وقد كانوا يقيمون بين كنعان ومصر وفي (طور سيناء) ، أيام الخروج ، وبقوا في أماكنهم هذه الى أيام (شاؤول) (SAUL)^٤ . وقد تحدثت عنهم في الجزء الأول من هذا الكتاب^٥ .

ومن جرهم تزوج (إسماعيل بن إبراهيم) على رواية الأخباريين ، وبلغتهم تكلم . وكانت (هاجر) قد جاءت به الى (مكة) . فلما شبّ وكبر ، تعلم لغة جرهم ، وتكلم بها . وهم من (اليمن) في الأصل . وكانت لغتهم هي اللغة العربية^٦ . تزوج امرأة أولى قالوا إن اسمها (حرا) وهي بنت (سعد بن

١ ابن رسته ، الاعلاق (٦٠ وما بعدها) .

٢ مروج الذهب (٥٤/١) .

٣ العدد ، الاصحاح ٢٤ ، آية ٢٠ .

٤ فاموس الكتاب المقدس (١١٢/٢ وما بعدها) .

٥ (ص ٣٤٥ وما بعدها) .

٦ اللسان (٩٧/١٢) .

عوف بن هنيء بن نبت بن جرهم) ، ثم طلقها بناءً على وصية أبيه ابراهيم له ، فتزوج امرأة أخرى هي السيدة بنت (الحارث بن مضاض بن عمرو بن جرهم) . وعاش نسله في جرهم ، والأمر على البيت لجرهم الى ان تغلبت عليهم (بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر) ، وهم خزاعة في رأي بعض أهل الأخبار^١ .

وطبقت خزاعة على جرهم قانون الغالب ، فانتزعت منها الملك ، وزحزحتها عن مكة ، وأقامت عمرو بن لحي^٢ - وهو منها - ملكاً عليها ، وكان دخول خزاعة مكة على أثر خروجها من اليمن ، بسبب تنبؤ الكاهن بقرب انفجار السد^٣ ، في قصة يذكرها الأخباريون . وظلت خزاعة صاحبة مكة ، الى ان كانت أيام عمرو بن الحارث وهو (أبو غبشان) (غبشان) ، فانتزع قصي منه الملك ، وأخذه من خزاعة لقريش^٤ .

وكان (عمرو بن لحي^٥) أول من نصب الأوثان وأدخل عبادة الأصنام الى العرب ، وغير دين التوحيد على زعم أهل الأخبار . ويظهر مما يرويه الأخباريون عنه انه كان كاهناً ، حكم قومه ووضع لهم سنن دينهم على طريقة حكم الكهان ، واستبد^٦ بأمر (مكة) وثبت ملك خزاعة بها . فهو مثل (قصي^٧) الذي جاء بعده ، فأقام ملك (قريش) في هذه المدينة . ويظهر من بقاء خبره في ذاكرة أهل الأخبار ان أيامه لم تكن بعيدة عن الإسلام ، وان حكمه لمكة لم يكن بعيد عهد عن حكم (قصي^٨) ، وان اليه يعود فضل تنحية (جرهم) عن مكة ، وانتزاع الحكم منهم ونقله الى قومه من (خزاعة) ، وذلك بمساعدة (بني اسماعيل) أسلاف (قريش) من (بني كنانة)^٩ .

وهو أول رجل يصل إلينا خبره من الرجال الذين كان لهم أثر في تكوين مكة وفي انشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لمكة . حتى صير لهذه

- ١ الطبري (٢٥١/١ وما بعدها) ، أخبار مكة (٤٢/١) ، ابن خلدون (٣٣١/٢ وما بعدها) ، الأحكام السلطانية (١٦٠) .
- ٢ ابن خلدون (٣٣٢/٢ وما بعدها) ، الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (٤٦/١ وما بعدها) ، (طبعة المطبعة المأجدة بمكة المكرمة) ، (ص ٥١ وما بعدها) (طبعة وستنفلد) ، (لايبزك ١٨٥٨ م) .
- ٣ الأصنام (ص ٥) .

المدينة شأن عند القبائل المجاورة . وذلك باتيانه بأصنام نحتت نحتاً جيداً بأيدي فنية
قديرة ، وعلى رأسها الصنم (هبل) ووضعها في البيت ، فجلب بذلك أنظار
أهل مكة وأنظار القبائل المجاورة نحوها ، فصارت تقبل عليها ، وبذلك كوّن
للبيت شهرة بين الأعراب ، فصاروا يقدمون عليه للتقرب الى (هبل) وإلى
بقية الأصنام التي جاء بها من الخارج فوضعها حوله وفي جوفه .

ومن بطون خزاعة : (بنو سلول) و (بنو حُبْشِيَّة بن كعب) ،
و (بنو حليل) ، و (بنو ضاطر) . وكان (حَلِيل) سادن الكعبة ،
فزوج ابنته (حبي) بقصي . و (بنو قير) ومن (بني قير) (الحجاج بن
عامر بن أقوم) شريف ، و (حلحة بن عمرو بن كليب) : شريف ،
و (قيس بن عمرو بن منقذ) الذي يقال له (ابن الحدادية) شاعر جاهلي^١ .
و (المحترش) ، وهو (أبو غبشان) الذي يزعمون انه باع البيت من
(قصي)^٢ . ومن خزاعة (بديل بن ورقاء بن عبد العزّي) ، شريف ،
كتب اليه النبي يدعوه الى الإسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة^٣ .

(وكنانة) التي استعان بها (عمرو بن لحي) في تثبيت حكمه بمكة ، هي
من القبائل العدنانية في عرف أهل الأنساب ، ومن مجموعة (مضر) . ولما استبد
(عمرو بن لحي) ومن جاء بعده بأمر مكة ، وأخذوا بأيديهم أمر مكة ،
تركوا الى (كنانة) أموراً تخص مناسك الحج وشعائره ، وهي الإجازة بالناس
يوم (عرفة) والإضافة والنسي . وهي أمور سأتحدث عنها في أثناء كلامي
عن الحج .

ويذكر أهل الأخبار أن (الإسكندر) الأكبر دخل مكة ، وذلك أنه بعد
أن خرج من السودان قطع البحر فأنتهى الى ساحل (عدن) ، فخرج اليه (تبع
الأقرن) ملك اليمن ، فأذعن له بالطاعة ، وأقرّ بالإتاوة ، وأدخله مدينة (صنعاء) ،
فأنزله ، وألطف له من الطاف اليمن ، فأقام شهراً ، ثم سار الى (تهامة) ،
وسكان مكة يومئذ خزاعة ، قد غلبوا عليها ، فدخل عليه (النضر بن كنانة) ،

١ الاشتقاق (ص ٢٧٦ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ٢٧٧) .

٣ الاشتقاق (ص ٢٨٠) .

فعجب الإسكندر به وساعده ، فأخرج (خزاعة) عن مكة ، وأخلصها للنضر ،
ولبني أبيه ، وحج الإسكندر ، وفرّق في ولد معد بن عدنان صلات وجوائز ،
ثم قطع البحر يؤم الغرب .^١

وإذا كان أهل الأخبار قد أدخلوا (الإسكندر) مكة ، وصيروه رجلاً
مؤمناً ، حاجاً من حجاج البيت الحرام ، فلا غرابة إذن إن جعلوا أسلاف الفرس
فيمن قصد البيت وطاف به وعظمه وأهدى له . بعد أن صيروا (إبراهيم) جداً
من أجدادهم وربطوا نسب الفرس بالعرب العدنانيين . فقالوا : وكان آخر من
حج منهم (ساسان بن بابك) ، وهو جدّ (أردشير) . فكان ساسان إذا أتى
البيت طاف به وزمزم على بشر إسماعيل ، فقبل إنما سميت زمزم لزمزته عليها ،
هو وغيره من فارس . واستدلوا على ذلك بشعر ، قالوا عنه : إنه من الشعر
القديم . وبه افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام ، وقالوا : وقد كان
(ساسان بن بابك) هذا ، أهدى غزالين من ذهب وجوهرًا وسيوفًا وذهبًا
كثيراً ، فقلده ، فدفن في زمزم . وقد أنكروا أن يكون بنو جرهم قد دفنوا
ذلك المال في بشر زمزم ، لأن جرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها .^٢

ويزعم الأخباريون أن (حسان بن عبد كلال بن مثوب ذي حرث الحميري) ،
(أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل أحجار الكعبة
من مكة إلى اليمن ، ليجعل حج الناس عنده بيلاده ، فأقبل حتى نزل بنخلة
فأغار على سرح الناس ، ومنع الطريق ، وهاب أن يدخل مكة . فلما رأت ذلك
قريش وقبائل كنانة وأسد وجذام ومن كان معهم من أفناء مضر ، خرجوا إليه ،
ورئيس الناس يومئذ فهر بن مالك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزمت حمير ،
وأسر حسان بن عبد كلال ملك حمير ، أسره الحارث بن فهر ، وقتل في المعركة —
فيمن قتل من الناس — ابن ابنة قيس بن غالب بن فهر ، وكان حسان عندهم
بمكة أسيراً ثلاث سنين ، حتى اقتدى منهم نفسه ، فخرج به ، فمات بين
مكة واليمن) .^٣

ويشير هذا الحادث إن صحّ وقوعه وصدق ما رواه أهل الأخبار عنه ، إلى

١ الأخبار الطوال (٣٣ وما بعدها) .

٢ مروج (٢٦٥/١ وما بعدها) ، (ذكر ملوك الطوائف) .

٣ الطبري (٢٦٢/٢ وما بعدها) .

طمع الملك (حسان) والى خطة وضعها للاستيلاء عليها . وهو شيء مألوف ، فقد كانت قبائل اليمن تتجه دوماً نحو الشمال ، غير أن أهل مكة قاوموا الملك وتمكنوا من الصمود تجاهه ، بل من التمكن من جيشه ومن الحاق هزيمة به . ويذكر أهل الأخبار حادثاً آخر مشابهاً لهذا الحادث ، بل يظهر أنه الحادث نفسه وقد صيغ في صيغة أخرى ، خلاصته أن (الملوك الأربعة) الذين لعنهم النبي ، ولعن أختهم (أبضعة) ، ولم يذكروا أسماءهم ، لما هموا بنقل (الحجر الأسود) الى صنعاء ليقطعوا حج العرب عن البيت الحرام الى صنعاء ، وتوجهوا لذلك الى مكة ، فاجتمعت (كنانة) الى (فهر بن مالك بن النضر) ، فلقبهم ، فقاتلهم ، فقتل ابن لفهر ، يسمى الحارثة ، وقتل من الملوك الأربعة ثلاثة ، وأسر الرابع ، فلم يزل مأسوراً عند (فهر بن مالك) حتى مات . وأما (أبضعة) ، فهي التي يقال لها (العنقير) ، ملكت بعد اخوتها على زعم أهل الأخبار .^١

ويشير الأخباريون الى احترام التبابعة لمكة ، فيذكرون مثلاً أن التبع (أسعد أبو كرب) الحميري وضع الكسوة على البيت الحرام ، وصنع له باباً ، ومنذ ذلك الحين جرت العادة بكسوة البيت ،^٢ ويذكرون غير ذلك من أخبار تشير الى اهتمام التبابعة بمكة . أما نحن ، فلم يصل الى علمنا شيء من هذا الذي يرويه الأخباريون ، مدوناً بالمسند ، كما أننا لا نعلم أن أصنام أهل اليمن كانت في مكة حتى يتعبد لها التبابعة . ولسنا الآن في وضع نتسكن فيه من إثبات هذا القصص الذي يرويه الأخباريون ، والذي قد يكون أوجد ، ليوحى أن ملوك اليمن كانوا يقدسون الكعبة ، وأن الكعبة هي كعبة جميع العرب قبل الإسلام .

ولا نملك اليوم أثراً جاهلياً استنبط منه علماء الآثار شيئاً عن تأريخ مكة قبل الإسلام ، ولذلك فكل ما ذكره عنها هو من أخبار أهل الأخبار ، وأخبارهم عنها متناقضة متضاربة ، لعبت العواطف دوراً بارزاً في ظهورها . ولا يمكن لأحد أن يكتب في هذا اليوم شيئاً موثقاً معقولاً ومقبولاً عن تأريخ هذه المدينة المقدسة في أيام الجاهلية القديمة ، لأنه لا يملك نصوصاً أثرية تعينه في التحدث عن ماضيها

١ الأخبار الطوال (ص ٣٩ وما بعدها) .

٢ وقد نسبوا الى الرسول أحاديث في هذا المعنى ، اعتقد أنها من الأحاديث الموضوعة ،

راجع الأزرقى ، أخبار مكة (١/١٦٥) .

القديم . وأملنا الوحيد هو في المستقبل ، فلعلّ المستقبل يكون خيراً من الحاضر والماضي ، فيجود على الباحثين بآثار تمكنهم من تدوين تاريخ تلك المدينة ، تدويناً علمياً يفرح نفوس الملايين من الناس الذين يحجون إليها من مختلف أنحاء العالم ، ولكنهم لا يعرفون عن تاريخها القديم ، غير هذا المدوّن عنها في كتب أهل الأخبار .

وإذا كنا في جهل من أمر تاريخ مكة قبل أيام (قصي) وقبل تمرکز قريش في مكة ، فإن جهلنا هذا لا يجوز لنا القول بأن تاريخها لم يبدأ إلا بظهور قريش فيها وبتزعم قصي لها . وإن ما يروى من تاريخها عن قبل هذه المدة هو قصص لا يعبا به . لأن ما يورده أهل الأخبار من روايات تفيد عثور أهل مكة قبل أيام الرسول على قبور قديمة وعلى حليّ وكنوز مطمورة وكتابات غريبة عليهم ، يدل كل ذلك على أن المدينة كانت مأهولة قبل أيام قصي بزمان طويل ، وإن مكة كانت موجودة قبل هذا التاريخ . وإن تاريخها لذلك لم يبدأ بابتداء ظهور أمر قصي ونزول قريش مكة في عهده .

وتاريخ مكة حتى في أيام قصي وما بعدها إلى ظهور الإسلام لا يخلو مع ذلك من غموض ومن لبس وتناقض . شأنه في ذلك شأن أي تاريخ اعتمد على الروايات الشفوية ، واستمد مادته من أقوال الناس ومن ذكرياتهم عن الماضي البعيد . لذلك نجد الرواة يناقضون أنفسهم تناقضاً بيناً في أمر واحد ، ما كان في الإمكان الاختلاف فيه لو كانوا قد أخذوه من منبع قديم مكتوب . وسرى في مواضع من هذا الكتاب وفي الأجزاء التي قد تتلوه عن تاريخ العرب في الإسلام نماذج وأمثلة تشير إلى تباين روايات أهل الأخبار في أخبارهم عن مكة في تلك الأيام .

قريش :

و (قصي) من (قريش) . و (قريش) كلها من نسل رجل اسمه (فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان) . فهي من القبائل العدنانية . أي من مجموعة العرب المستعربة في اصطلاح علماء النسب . ومن (فهر) فما بعده عرف اسم (قريش) في رأي أهل الأخبار . أما ما قبل (فهر) من آباء فلم يعرفوا بقريش . فقريش إذن هم (فهر)

وأبنائه ، من سكان مكة أو من سكان ظواهرها ، أي كل من انحدر من صلبه من أبناء .^١ وما كان فوق (فهر) فليس يقال له (قرشي) ، وإنما يقال له كناني .^٢

ومعارفنا عن (قريش) لا بأس بها بالنسبة الى معارفنا عن نخزاعة وعن من تقدم عليها من قبائل ذكر أهل الأخبار أنها سكنت هذه المدينة . وتبدأ هذه المعرفة بها ، ابتداءً من (قُصَيٍّ) زعيم قريش ومجمّعها ، والذي أخذ أمر مكة فوضعه في يديه ، ثم في أيدي أولاده من بعده ، فصارت (قريش) بذلك صاحبة مكة . وقد اشتهرت قريش بالتجارة ، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل . وتمكن رجالها بفضل ذكائهم وحذقهم بأسلوب التعامل من الاتصال بالدول الكبرى في ذلك العهد : الفرس والروم والحبشة ، وبمحكمة الحيرة والغساسنة ، وبسادات القبائل ، ومن تكوين علاقات طيبة معها ، مع تنافر هذه الدول وتباغضها . كما تمكنوا من عقد أحلاف مع سادات القبائل ، ضمنت لهم السير طوال أيام السنة بهدوء وطمأنينة في كل أنحاء جزيرة العرب . والطمأنينة ، أهم أمنية من أمانى التاجر . وبذلك آمنوا على تجارتهم ، ونشروا تجارتهم في كل أنحاء جزيرة العرب . حتي عرفوا بـ (قريش التجار) . جاء على لسان كاهنة من كهان اليمن قولها : (لله دَرُّ الديار ، لقريش التجار) .^٣

وليس لنا علم بتأريخ بدء اشتغال قريش بالتجارة واشتهارها بها . وروايات أهل الأخبار ، متضاربة في ذلك ، فبينما هي ترجع ظهور (قريش) بمكة الى أيام قصي ، ومعنى ذلك أن تجارة قريش إنما بدأت منذ ذلك الحين ، نراها ترجع تجارتها الى أيام النبي (هود) ، وترغم أنه لما كان زمن (عمرو ذي الأذعار الحميري) ، كشفت الريح عن قبر هذا النبي ، فوجدوا صخرة على قبره كتب عليها بالمسند : (لمن ملك ذمار ؟ لحمير الأخبار . لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار . لمن ملك ذمار ؟ لفارس الأحرار . لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار) .^٤ والرواية أسطورة موضوعة ، ولكنها تشير الى أن اشتغال قريش بالتجارة يرجع

- ١ البلاذري ، أنساب (٣٩/١) ، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار (٩) .
- ٢ ابن سعد ، طبقات (٥٥/١) .
- ٣ رسائل الجاحظ ، (جمع السندوبي) ، (ص ١٥٦) (المطبعة الرحمانية ، ١٩٥٨ م) .
- ٤ الأكليل ، الجزء الخامس (خبر آخر عن قبر هود وقبر قضاة بن مالك بن حمير) .

الى عهد قديم ، عجز اصحاب هذه الرواية عن ادراك وقته ، فوضعوه في أيام هود .

ثم نرى روايات أخرى ترجع بدء اشتهار قريش التجارة الى ايام (هاشم) ، وهي تزعم ان تجارة قريش كانت منحصرة في مكة ، يتاجر اهلها بعضهم مع بعض ، فتقدم العجم عليهم بالسلع ، فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها لمن حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب (هاشم بن عبد مناف) فنزل بقيصر ، وتعاقد معه على ان يسمح له ولتجار قريش بالاتجار مع بلاد الشام ، فوافق على ذلك ، وأعطاه كتاباً بذلك . فلما عاد ، جعل كلما مرّ بجي من العرب بطريق الشام ، أخذ من أشرافهم إيلافاً ، اي عقد امان ، فضمن بذلك لقومه حرية الاتجار بأمن وسلام . واشتهرت قريش بالتجارة منذ ذلك العهد .^١

وقد علمت الأسفار سادة قريش اموراً كثيرة من امور الحضارة والثقافة . فقد أرتهم بلاداً غريبة ذات تقدم وحضارة ، وجعلتهم يحتكون بعرب العراق وبالعرب بلاد الشام ، فتعلموا من (الحيرة) اصول كتابتهم ، وهدتوا لسانهم ، ودوتوا به امورهم . وذكر انهم كانوا من افصح العرب لساناً ، وقد شهد العرب لهم بفصاحة اللسان ، حتى ان الشعراء كانوا يعرضون عليهم شعرهم ، وذكر ان الشاعر (علقمة الفحل) عرض عليهم شعره ، فوصفوه بـ (سمط الدهر) .^٢

وقد علمت الطبيعة أهل مكة انهم لا يتمكنون من كسب المال ومن تأمين رزقهم في هذا الوادي الجاف ، إلا إذا عاشوا هادئين مسالمين ، يدفعون الإساءة بالحسنة ، والشر بالصبر والحلم ، والكلام السيء بالذيء بالكلام الحسن المقنّع المخجل . فتغلب حلمهم على جهل الجاهلية ، وجاءت نجاتهم في نصرة الغريب والذب عن المظلوم والدفاع عن حق المستجير بهم ، بأحسن النتائج لهم ، فصار التاجر والبائع والمشتري يفد على سوق مكة ، يبيع ويشترى بكل حرية ، لانه في بلد آمن ، أخذ سادته على أنفسهم عهداً ألا يتعدى أحد منهم على غريب ، لأن الإضرار به ، يبعد الغرباء عنهم ، وإذا ابتعد الغرباء عن مكة ، خسروا جميعاً مورداً من موارد رزقهم : يعيش عليه كل واحد منهم بلا استثناء . لذلك

١ ذبل الأمالي (ص ١٩٩) ، النعالي ، ثمار الفلوب (١١٥ وما بعدها) .

٢ الأغاني (١١٢/٢١) .

كان الغريب إذا ظلم ، نادى يا آل قريش ، أو يا آل مكة أو يا آل فلان .
ثم يذكر ظلامته ، فيقوم سادة مكة أو من نودي باسمه بأخذ حقه من الظالم له .
وقد اصططلحت قريش على ان تأخذ ممن يتزل عليها في الجاهلية حقاً . دعتة :
(حق قريش) وفي جملة ما كانوا يأخذونه من الغريب القادم اليهم عن هذا
الحق بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر . ويأتي أهل الأخبار بمثل على ذلك ،
هو مثل : (ظويلم ويلقب مانع الحريم ، وإنما سُمي بذلك لأنه خرج في الجاهلية
يريد الحج ، فتزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فأراد المغيرة ان يأخذ
منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ، وذلك سُمي : الحريم .
وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر ، فامتنع عليه ظويلم)^١ .
وظويلم منع عمرو بن صرمة الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان^٢ .

وقد جعلت طبيعة هذا الوادي أهل مكة يميلون الى السلم ، ولا يركنون الى
الحرب والغزو إلا دفاعاً عن نفس . وهو شيء منطقي محترم ، فأهل مكة في
وادي ضيق بين جبلين متقابلين ، وفي استطاعة الأعداء إنزال ضربات موجعة بهم
من المرتفعات المسيطرة عليه ، ويسد منفذيه ، يحصر أهله فتقطع عنهم كل وسائل
المعيشة من ماء وطعام . لذلك لم يجدوا أمامهم من سبيل سوى التجميل بالحلم
والصبر واتباع خطة الدفاع عن النفس ، بالاعتماد على أنفسهم وعلى غيرهم من
أحلافهم كالأحابيش حلفائهم وقريش الظواهر . وقد أدت هذه الخطة الى اتهام
قريش انها لا تحسن القتال ، وانها إن حاربت خسرت ، وانها كانت تخسر في
الحروب - فخسرت ثلاثة حروب من حروب الفجار الأربعة ، الى غير ذلك من
تهم . ولكن ذلك لا يعني ان في طبع رجال قريش جبناً ، وان من سجية قريش
الخوف . وإنما هو حاصل طبيعة مكان ، واملاء ضرورات الحياة ، لتأمين الرزق .
ولو ان أهل مكة عاشوا في موضع آخر ، لما صاروا أقل شجاعة وأقل اقبالاً في
الاندفاع نحو الحرب والغزو من القبائل الأخرى .

وقد تمكنت مكة في نهاية القرن السادس وبفضل نشاط قريش المذكور من
القيام بأعمال هامة ، صيرتها من أهم المراكز المرموقة في العربية الغربية في التجارة

١ الاشتقاق (ص ١٧١ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (١٧٢) .

وفي اقراض المال للمحتاج اليه . كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة ، واتخاذ بيوت مناسبة لائقة لان تكون بيوت أغنياء زاروا العالم الخارجي ورأوا ما في بيوت أغنيائه من ترف وبذخ وخدم واسراف .

وقد ذكر (الثعالبي) ان قريشاً صاروا (أدهى العرب ، وأعقل البرية ، وأحسن الناس بياناً) لاختلاطهم بغيرهم ولاتصالهم بكثير من القبائل فأخذوا عن كل قوم شيئاً ، ثم انهم كانوا تجاراً (والتجار هم أصحاب الترييح والتكسب والتدنيق والتدقيق) ، وكانوا متشددين في دينهم حساً ، (فتركوا الغزو كراهة السبي واستحلال الأموال) الى غير ذلك من أمور جلبت لهم الشهرة والمكانة ^١ . وقد أشيد ايضاً بصحة اجسامهم وبجبالهم حتى ضرب المثل بجبالهم فقيل : (جبال قريش) ^٢ .

وقصيّ رئيس قريش ، هو الذي ثبت الملك في عقبه ، ونظم شؤون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله . فلما أشرق الإسلام ، كانت أمور مكة في يد قريش ، ولها وحدها الهيمنة على هذه المدينة ، حتى عرف سكانها بـ (آل قصي) ، فكان أحدهم اذا استغاث او استنجد بأحد ، صاح : (يا لقصي) ، كناية عن انهم (آل قصي) . جامع قريش ^٣ .

وهو أول رئيس من رؤساء مكة يمكن ان نقول ان حديثنا عنه ، هو حديث عن شخص عاش حقاً وعمل عملاً في هذه المدينة التي صارت قبلة الملايين من البشر فيما بعد . فهو إذن من الممهدين العاملين المكونين لهذه القبلة ، وهو أول رجل نتكلم عن بعض أعماله ونحن واثقون مما نكتبه عنه ونقوله . وهو أول شخص نقض البيوت المتنقلة التي لم تكن تقي أصحابها شيئاً من برد ولا حرّ ، والتي كانت على أطراف الوادي وبين أشجار الحرم ، وكأنها تريد حراسة البيت ، وحوّلتها من خيام مهلهلة الى بيوت مستقرة ثابتة ذات أعمدة من خشب شجر الحرم ، وذات سقوف .

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١ وما بعدها) .

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٢٩) .

٣ يال- قصيّ لظلموم بضاعنه بيطن مكة نائي الدار والنقر

الاحكام السلطانية (ص ٧٨ وما بعدها) .

ولم نعث حتى الآن على اسم قريش أهل مكة. في نص جاهلي . كذلك لم نعث عليه أو على اسم مقارب له في كتب اليونان أو اللاتين أو قدماء السريان ممن عاشوا قبل الإسلام . فليس في امكاننا ذكر زمن جاهلي نقول اننا عثرنا فيه على اسم قريش ، وانها كانت معروفة يومئذ فيه .

وقد وردت لفظة (قريش) اسماً لرجل عرف بـ (حبّسل قريش) . وذلك في نص حضرمي من أيام الملك (العز) ملك حضرموت ^١ .

هذا ، وان لأهل الأخبار كلاماً في سبب تسمية قريش بقريش ، (فقيل : سُميت بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة ، لأن عير بني النضر كانت اذا قدمت ، قالت العرب : قد جاءت عير قريش ، قالوا : وكان قريش هذا دليل النضر في أسفارهم ، وصاحب ميرتهم ، وكان له ابن يسمى بدرأ ، احتضر بدرأ ، قالوا فيه سميت البئر التي تدعى بدرأ ، بدرأ . وقال ابن الكلبي : انما قريش جماع نسب ، ليس بأب ولا بأم ولا حاضن ولا حاضنة ، وقال آخرون : انما سُمي بنو النضر من كنانة قريشاً ، لأن النضر بن كنانة خرج يوماً على نادي قومه ، فقال بعضهم لبعض : انظروا الى النضر ، كأنه جمل قريش .

وقيل : انما سميت بدابة تكون في البحر تأكل دواب البحر ، تدعى القرش ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها ، لأنها أعظم دواب البحر قوة ^٢ .

وقيل : إن النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس ، فيسدها بماله ، والقرش - فيما زعموا - التفتيش وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يلبغهم ^٣ . (وقيل إن النضر بن كنانة كان اسمه قريشاً . وقيل : بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصي بن كلاب ، فقيل لهم : قريش ، من أجل ان التجمع هو القرش ، فقالت العرب : تقرش

١ تاريخ العرب في الاسلام (٤١/١) .

٢ وقريش هي التي نسكن البحر بها سميت قريش قريشاً . تفسير الطبري (٢٥ / ١٩٩) .

٣ الطبري (٢٦٣/٢ وما بعدها) .

بنو النضر ، أي قد تجمعوا . وقيل : إنما قيل قریش من أجل أنها تفرشت
عن الغارات (١) .

وذكر ان قریشاً كانت تدعى (النضر بن كنانة) ، وكانوا متفرقين في
(بني كنانة) ، فجمعهم (قصي بن كلاب) ، فسموا قریشاً ، التفرشت
التجمع . وُسِّمَ قصي مجمَّعاً . فال حذافة بن غانم بن عامر القرشي ثم العدوي :

قُصِي " أبوكم كان يدعى مجمَّعاً به جمع الله القبائل من فهر ^٢

وذكر ان قریشاً إنما قيل لهم (قریش) لتجتمعهم في الحرم من حوالي الكعبة
بعد تفرقهم في البلاد حين غلب عليها (قصي بن كلاب) . يقال تفرشت القوم
إذا اجتمعوا . قالوا وبه سمي قصي مجمَّعاً . أو لأنهم كانوا يتفرشون البياعات
فيشترونها ، أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً ، فقالوا تفرشت ، فغلب
عليه اللقب ، أو لأنه جاء الى قومه يوماً ، فقالوا كأنه جمل قریش أي شديد ،
فلُقب به ، أو لأن قصياً كان يقال له القرشي ، وهو الذي سماهم بهذا الاسم ،
أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خلعتها ، فن كان محتاجاً أغنوه ومن كان
عاريًا كسوه ومن كان معدماً كسوه ومن كان طريداً آووه ، أو سموا بقریش بن
مخلد بن غالب بن فهر ، وكان صاحب عيرهم ، فكانوا يقولون : قدمت عير
قریش وخرجت عير قریش ، فلقبوه به . أو نسبة الى (قریش بن الحرث بن
يخلد بن النضر) ، والد (بلر) ، وكان دليلاً لبني (فهر بن مالك) في
الجاهلية ، فكانت عيرهم إذا وردت (بلراً) ، يقال : قد جاءت عير قریش ،
يضيفونها الى الرجل حتى مات . أو لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب
ضرع وزرع . أو الى قریش بن بلر بن يخلد بن النضر . وكان دليل بني كنانة
في تجارتهم ، فكان يقال : قدمت عير قریش . فسميت قریش بذلك . وأبوه
بلر بن يخلد ، صاحب بلر ، الموضع المعروف ^٣ .

١ الطبري (٢٦٤/٢) ، ابن كير ، البداية (٢٠١/٢) .

٢ العقد الفريد (٣١٢/٣) وما بعدها .

٣ تاج العروس (٣٣٧/٤) ، (فرش) ، كتاب نسب قریش ، للزبيري (ص ١٢) .

ونعتت قريش بـ (آل الله) و (جيران الله) و (سكان حرم الله)^١ .
وبـ (أهل الله)^٢ .

الى غير ذلك من آراء حصرها بعضهم في عشرين قولاً في تفسير معنى لفظة (قريش) ومن أين جاء أصلها . تجدها في بطون الكتب التي أشرت إليها في الحواشي . وفي موارد أخرى . وهي كلها تدل على ان أهل الأخبار كانوا حيارى في أمر هذه التسمية ، ولما كان من شأنهم إيجاد أصل وفصل ونسب وسبب لكل اسم وتسمية ، كما فعلوا مع التسميات القديمة ، ومنها تسميات قديمة تعود الى ما قبل الميلاد ، أوجدوا على طريقتهم تلك التعليقات والتفسيرات لمعنى (قريش) . وقد نجد هذه التعليقات تروى وتنسب الى شخص واحد كابن الكلبي مثلاً ، وهو ينسب روايتها عادة الى رواة تقدموا عليه أو عاصروه ، وقد لا يرجعها الى أحد ، وربما كانت من وضعه وصنعه أو من اجتهاده الخاص في إيجاد علل للمسميات^٣ .
فهذا هو مجمل آراء أهل الأخبار في معنى اسم قريش .

أما رأيهم في أول زمن ظهرت فيه التسمية ، فقد اختلف في ذلك وتباين أيضاً . فذكر قوم (ان عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير : متى سميت قريش قريشاً ؟ قال : حين اجتمعت الى الحرم من تفرقها ، فذلك التجمع القرش . فقال عبد الملك : ما سمعت هذا ، ولكن سمعت ان قصياً كان يقال له القرشي ، ولم تسم قريش قبله) . وورد : (لما نزل قصي الحرم وغلب عليه ، فعل أفعالاً جميلة ، فقبل له : القرشي ، فهو أول من سُمي به) . ورود أيضاً ان (النضر بن كنانة كان يسمى القرشي)^٤ .

وقد نسب الى عليّ وابن عباس قولهما ان قريشاً حي من النبط من أهل كوثى^٥ . وإذا صح ان هذا القول هو منها حقاً ، فإن ذلك يدل على انها قصدا بالنبط (نبايوت) : وهو (ابن اسماعيل) في التوراة . واما (كوثى)

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .

٢ الثعالبى ، ثمار القلوب (١٠) .

٣ نهاية الأرب (١٦/١٦) ، ناج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .

٤ الطبري (٢/٢٦٤ وما بعدها) .

٥ البرفوفي (ص ٢٢٨) .

فقصدنا بذلك موطن ابراهيم ، وهو من أهل العراق على رواية التواراة أيضاً .
ولعلها أخذنا هذا الرأي من أهل الكتاب في يثرب .

ويذكر أن جِذْمَ قريش كلها (فهر بن مالك) فما دونه قريش وما فوقه
عرب ، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر . وأما قبائل قريش ، فأنما
تنتهي الى فهر بن مالك لا تتجاوز^١ . ومن جاوز (فهر) ، فليس من قريش^٢ .
ومعنى هذا ان جذم قريش من أيام (فهر بن مالك) فما فوقه ، كانت متبدية
تعيش عيشة أعرابية ، فلما كانت أيام (فهر) أخذت تميل الى الاستقرار
والاستيطان ، ولما استقرت وأقامت في مواضعها عرفت بـ (قريش) .

وذكر ان قريشاً قبيلة ، وأبوهم النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن
الياس بن مضر ، فكل من كان من ولد (النضر) ، فهو (قرشي) دون ولد
كنانة ومن فوقه . وورد كل من لم يلبده (فهر) فليس بقرشي . وهو
المرجوع اليه^٣ .

وقد صيرت رابطة النسب هذه قريشاً قبيلة تامة تقيم مجتمعة في أرض محدودة ،
وبصورة مستقرة في بيوت ثابتة فيها بيوت من حجر ، بين أفرادها وأسرهم وبطونهم
عصبية ، وبينهم تعاون وتضامن . كما جعلت أهل مكة في تعاون وثيق فيما بينهم
في التجارة ، حتى كادوا يكونون وكأنهم شركاء مساهمون في شركة تجارية
عامة . يساهم فيها كل من يجد عنده شيئاً من مال ، وإن حصل عليه عن طريق
الاقتراض والربا ، ليكون له نصيب من الأرباح التي تأتي بها شركات مكة .

ويقسم أهل الأخبار قريشاً الى : قريش البطاح ، وقريش الظواهر . ويذكرون
ان قريش البطاح بيوت ، منهم : بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار ، وبنو
عبد العزى ، وبنو عبد بن قصي بن كلاب ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو
تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم ، وبنو جمح ابنا عمرو
ابن هصيص بن كعب ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤي ،
وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .

٢ نهاية الأرب (١٥/١٦) .

٣ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .

مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر . وبنو عتيك بن عامر بن لؤي^١ . و (قصي) هو الذي أدخل البطون المذكورة الأبطح ، فسُمّوا البطاح^٢ . ودخل (بنو حسل ابن عامر) مكة بعد ، فصاروا مع قريش البطاح ، فأما من دخل في العرب من قريش فليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء^٣ .

ويذكر أهل الأخبار ان (قريش البطاح) ، الذين يتزلون أبطح مكة وبطحاءها . أو هم الذين يتزلون الشعب بين أخشي مكة . وأخشا مكة جبلاها : أبو قيس والذي يقابله . ويقال لهم قريش الأباطح وقريش البطاح ، لأنهم صبابية قريش وصميمها الذين اختطوا بطحاء مكة ونزلوها^٤ . وهم أشرف وأكرم من قريش الظواهر . ذكروا ان سادة قريش نزول بطن مكة ، ومن كان دونهم ، فهم نزول بظواهر جبالها ، أي قريش الظواهر^٥ .

اما قريش الظواهر : فهم : بنو معيص بن عامر بن لؤي ، وتيم الأدرم بن غالب بن فهر ، والحارث ابنا فهر ، إلا بني هلال بن أهيب بن ضبة ، وبني هلال بن مالك بن ضبة^٦ . وعامة بني عامر بن لؤي ، وغيره^٧ . عرفوا جميعاً بقريش الظواهر ، لأنهم لم يهبطوا مع قصي الأبطح . إلا ان رهط (أبي عبيدة ابن الجراح) ، وهم من (بني الحارث بن فهر) ، نزلوا الأبطح فهم مع المطيبين أهل البطاح^٨ . وورد ان (بني الأدرم من أعراب قريش ليس بمك منهم أحد)^٩ .

- ١ المحبر (ص ١٦٧ وما بعدها) ، العمدة (١٩٣/٢) ، رسائل الجاحظ ، (ص ١٥٦ . (السندوبي) ، (المطبعة الرحمانية ١٩٣٣ م) ، مروج الذهب (٥٨/١ . (١٩٥٨ م) .
- ٢ ابن سعد ، طبقات (٧١/١) .
- ٣ البلاذري ، أنساب (٤٠/١) .
- ٤ فلو شهدتنني من قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر
- ٥ تاج العروس (١٢٥/٢) ، (بطح) .
- ٥ تاج العروس (٣٧٢/٣) ، (ظهر) .
- ٦ المحبر (١٦٨) ، البلاذري ، أنساب (٣٩/١) ، التعالبي ، ثمار القلوب (٩٧) .
- ٧ العمدة (١٩٤/٢) .
- ٨ ابن سعد ، طبقات (٧١/١) .
- ٩ نهاية الأرب (١٧/١٦) .

ويبدو من وصف أهل الأخبار لقريش البطاح ، أنهم إنما سُموا بالبطاح لأنهم دخلوا مع قصي البطاح ، فأقاموا هناك^١ . فهم مستقرون حضر ، وقد أقاموا في بيوت مها كانت فلانها مستقرة ، وقد انصرفوا الى التجارة وخدمة البيت . فصاروا أصحاب مال وغنى ، وملكوا الأملاك في خارج مكة ، ولا سيما الطائف ، كما ملكوا الإبل ، وقد تركوا رعيها للأعراب . وعرفوا أيضاً بقريش الضب للزومهم الحرم^٢ .

وأما قريش الطواهر^٣ ، فهم الساكنون خارج مكة في أطرافها ، وكانوا على ما يبدو من وصف أهل الأخبار لهم أعراباً ، أي أنهم لم يبلغوا مبلغ قريش البطاح في الاستقرار وفي اتخاذ بيوت من مدر . وكانوا يفخرون على قريش مكة بأنهم أصحاب قتال ، وأنهم يقاتلون عنهم وعن البيت . ولكنهم كانوا دون (قريش البطاح) في التحضر وفي الغنى والسيادة والجاه ، لأنهم أعراب فقراء ، لم يكن لهم عمل يعتاشون منه غير الرعي . وكانوا دونهم في مستوى المعيشة بكثير وفي الواجهة بين القبائل . ومع اشتراكهم وقريش البطاح في النسب ، ودفاعهم عنهم أيام الشدة والخطر ، إلا أنهم كانوا يحقدون على ذوي أرحامهم على ما أوتوا من غنى ومال وما نالوه من منزلة ، ويحسدونهم على ما حصلوا عليه من مكانة دون أن يعملوا على رفع مستواهم ، وترقية حالهم ، والاقتداء بذوي رحمتهم أهل الوادي في اتخاذ الوسائل التي ضمنت لهم التفوق عليهم وفي جلب الغنى والمال لهم . كان شأنهم في ذلك شأن الحساد الذين يعيشون على حسدهم ، ولا يبحثون عن وسائل ترفعهم الى مصاف من يحسدونه . ولعل نظرهم الجاهلة الى أنفسهم من أنهم أعلى وأجل شأنًا ممن يحسدونهم ، وإن كانوا دونهم في نظر الناس في المنزلة والمكانة ، حالت دون تحسين حالهم والتفوق على المحسود بالجسد والعمل ، لا بالاكفاء بالحسد وبالتشدد بالقول والمباهاة .

ويذكر أهل الأخبار ان قسماً ثالثاً من قريش ، لم ينزل بمكة ولا بأطرافها ،

-
- ١ المجبر (١٦٨) .
 - ٢ ابن الأثير (٨/٢) ، البلاذري ، أنساب (٣٩/١) .
 - ٣ (قريش الطواهر الذين ينزلون خارج الشعب) ، ناج العروس (١٢٥/٢) ، (بطح) ، البلاذري ، أنساب (٣٩/١) ، (كانوا يفخرون على قريش الطواهر لظهورهم للعدو ، ولقائهم المناسر) ، البلاذري ، أنساب (٤٠/١) .

وانما هبط أماكن أخرى ، فاستقر بها ، وتحالف مع القبائل التي نزلت بينها . من هؤلاء : سامة بن لؤي ، وقع إلى عمان ، فولده هناك حلفاء أزد عمان . والحارث ابن لؤي وقع إلى عُمان ، فولده هناك حلفاء أزد عمان . والحارث بن لؤي ، وقع إلى اليمامة ، فهم في بني هزان من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار . والحارث ، هو جشم . وخزيمة بن لؤي ، وقعوا بالجزيرة إلى بني الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان وسعد بن لؤي ، وبنو عوف بن لؤي ، وقعوا إلى غطفان ولحقوا بهم ، ويقال لبني سعد بن لؤي بنانة ، وبنانة أمهم ، فأهل البادية منهم . وأهل الحاضرة ينتمون إلى قريش . ويقال لبني خزيمة بن لؤي : عائدة قريش . وكان عثمان بن عفان ألحق هذه القبائل ، حين استخلف بقريش^١ .

ويلاحظ أن هذا الصنف من أصناف قريش ، هو من نسل (لؤي) ، أي : من نسل (لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر) . وقد تباعدت مواطنهم عن قريش .

ومن قريش الظواهر : بنو الأدرم من نسل الأدرم ، وهو تيم بن غالب ، ومن رجالهم : عوف بن دهر بن تيم الشاعر ، وهو أحد شعراء قريش . وهلال ابن عبد الله بن عبد مناف ، وهو صاحب التمينتين اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي ، وهو ابن الحطل الذي كان يؤذي النبي وارتد فأهدر النبي دمه يوم الفتح ، قتله أبو برزة الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة ، أو سعد بن حريث المخزومي على رواية قريش^٢ . ومن قريش الظواهر أيضاً : بنو محارب ، والحارث بن فهر وبنو هصيص بن عامر بن لؤي .

ولم يكن أهل مكة كلهم من قريش ، بل ساكنهم أيضاً من كان بها قبلهم ، مثل خزاعة وبنو كنانة . وقريش وإن كانت من (كنانة) ، إلا أنها ميزت نفسها عنها ، وفرقت بينها وبين كنانة . ولكنانة إخوة منهم : أسد وأسده ، ووالدهم هو (خزيمة) وهو جد من أجداد قريش ، كما أن (كنانة) هو

١ المحبر (ص ١٦٨ وما بعدها) ، الطبري (٢/٢٦١) ، (وفي قريش من ليس بأبطحية ولا ظاهرية) ، تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .

٢ الاشتقاق (ص ٦٦) .

جد من أجدادهم . وللأخباريين رأي في معنى كنانة^١ .

وقد عرفت قريش بين أهل الحجاز بسخينة . والسخينة طعام رقيق يتخذ من سمن ودقيق . وقيل دقيق وتمر - وهو دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء . وإنما لقيت قريش بسخينة لاتخاذها إياه ، أي لأنهم كانوا يكثرون من أكلها ولذا كانت تعير به^٢ .

الأحايش :

ومن أهل مكة جماعة عرفت بـ (الأحايش) . ذكر أهل الأخبار أنهم حلفاء قريش ، وهم : بنو المصطلق ، والحياض بن سعد بن عمرو ، وبنو الهون ابن خزيمه . اجتمعوا بذنب حبشي - وهو جبل بأسفل مكة - فتحالفوا بالله إنا ليدّ على غيرنا ما سجا ليل وأوضح نهار ، وما أرسى حبشي مكانه . وقيل : إنما سُمّوا بذلك لاجتماعهم . والتحابش : هو التجمع في كلام العرب^٣ . وذكر أنهم اجتمعوا عند (حبشي) فحالفوا قريشاً . وقيل : أحياء من القارة انضموا إلى (بني ليث) في الحرب التي نشبت بينهم وبين قريش قبل الإسلام ، فقال إبليس لقريش : إني جبارٌ لكم من بني ليث فواقعوا دماً ، سُمّوا بذلك لاسودادهم ، قال :

ليث ودليل وكعب والذي ظأرت جمع الأحايش ، لما احمرت الخدق

١ الاشتقاق (ص ١٨) ، الطبري (٢٦٦/٢) .

٢ (وفي الحديث أنه دخل على حمزة ، رضي الله تعالى عنه . فصنعت لهم سخينة فاكلوا منها . قال كعب بن مالك :

زعمت 'سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب وفي حديث معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، انه مازح الأحنف بن فيس ، فقال : ما الشيء الملفف في البجاد ؟ فقال : هو السخينة يا أمر المؤمنين ! الملفف في البجاد : وطب اللبن يلف به لبحمى ويدرك . وكانت تميم نعر به . والسخينة الحساء المذكور يؤكل في الجذب ، وكانت قريش نعر بها . فلما مازحه معاوية بما نعب به قومه مازحه الأحنف بمثله) ، تاج العروس (٢٣٢/٩) .

٣ العمدة (١٩٤/٢) ، اللسان (٢٧٨/٦) ، (حبش) .

فلما سميت تلك الأحياء (الأحابيش) من قبل تجمعها ، صار التحيش في الكلام كالتجميع .^١

وورد ان (عبد مناف) و (عمرو بن هلال بن معيط الكناني) ، عقدا حلف الأحابيش . والأحابيش ، بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وبنو الهون بن خزيمه بن مدركة ، وكانوا مع قريش .^٢ وقيل ايضاً ان الأحابيش ، هم : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وعضل ، والديش من بني الهون بن خزيمه ، والمصطلق ، والحيا من خزاعة .^٣

وقد وصف (اليعقوبي) (حلف الأحابيش) بقوله : (ولما كبر عبد مناف ابن قصي جاءتة خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، يسألونه الحلف ليعزوا به . فعقد بينهم الحلف الذي يقال له : حلف الأحابيش . وكان مُدبّر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف عمرو بن هلال (هلال) بن معيص ابن عامر . وكان تحالف الأحابيش على الركن . يقوم رجل من قريش والآخر من الأحابيش فيضعان ايديهما على الركن ، فيحلفان بالله القاتل وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وعلى التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ، ما بلّ بحر صوفة ، وما قام حر او ثبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم القيامة . فسمي حلف الأحابيش) .^٤

وقد ذكر أن (المطلب بن عبد مناف بن قصي) ، قاد بني عبد مناف وأحلافها من الأحابيش ، وهم من ذكرت يوم ذات نكيف ، لحرب بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة .^٥ كما ورد ان (الأحابيش) ، الذين ذكرت اسماءهم ، كانوا يحضرون مع من يحضر من طوائف العرب مثل قريش وهوازن ، وغطفان ،

١ اللسان (٢٧٨/٦) .

٢ قال الشاعر :

ان عمراً وان عبد مناف جعلوا الحلف بيننا أسبابا

البلاذري ، أنساب (١/٥٢ ، ٧٦) .

٣ المحبر (ص ٢٤٦) .

٤ اليعقوبي (١/٢١٢) ، (طبعة النجف ١٩٦٤ م) .

٥ المحبر (ص ٢٤٦) .

وأسلم ، و (طوائف من العرب) سوق عكاظ ، فيبيعون ويشترون .^١ كما ذكر انهم كانوا مثل قريش يقدسون اسافاً ونائلة .^٢

وورد في بعض اخبار الأخباريين ، ان يوم (ذات نكيف) ، وقع بين قريش وبني كنانة . فهزمت قريش بني كنانة ، وعلى قريش عبد المطلب .^٣ وقد بقي (الأحابيش) بمكة ، الى ايام الأمويين . فذكر ان (عبد الله المتكبر) ، وكان من اشراف قريش في ايام (معاوية) ومن اغناها مالا ، لما وفد على (معاوية) وكان خليفة إذ ذاك ، كلمه في (قريش) ووجوب الاعتماد عليهم ثم في (الأحابيش) ، إذ قال له عنهم : (وحلفاؤك من الأحابيش) قد عرفت نصرهم ومؤازرتهم ، فاخلطهم نفسك وقومك) .^٤

وقد بحث (لامانس) في موضوع الأحابيش ، فرأى انهم قوة عسكرية ألقت من العبيد السود المستوردين من افريقية ومن عرب مرتزقة ، كونتها مكة للدفاع عنها . وقد بحث مستشرقون آخرون في هذا الموضوع ، فمنهم من ايدته ، ومنهم من توسط في رأيه ، ومنهم من ايد الرواية العربية المتقدمة التي ذكرتها . وعندي رأي آخر ، قد يفسر لنا سبب تسمية (بني الحارث بن عبد مناة) من (كنانة) ومن ايدها من (بني المصطلق) و (بني الهون) بالأحابيش . هو ان من الممكن ان تكون هذه التسمية قد وردت اليهم من اجل خضوعهم لحكم الحبش ، وذلك قبل الإسلام بزمان طويل . فقد سبق ان ذكرت في الجزء الثالث من كتابي : (تاريخ العرب قبل الإسلام) ، وفي اثناء كلامي على (جغرافيا بطلميوس) ،^٥ ان الساحل الذي ذكره (بطلميوس) باسم : (Cinaedocolpita)^٦ اما هو ساحل (تهامة) وهو منازل (كنانة) . وقد بقي الحبش به وقتاً طويلاً . واختلطوا بسكانه . فيجوز ان تكون لفظة (الأحابيش) قد لحقت ببعض (كنانة)

١ المحبر (ص ٢٦٧) .

٢ المحبر (٣١٨) .

٣ اللسان (٣٤٢/٩) ، (نكف) ، قال ابن سغلة الفهري :

فلله عينا من رأى من عصاة غوت غى بكر يوم ذات نكيف
اناخوا الى أبياتنا ونسائنا فكانوا لنا ضيفا لشر مضيف

تاج العروس (٢٦١/٦) ، (نكف) .

٤ نسب قريش (٣٨٩) .

٥ (٣٩٣) .

من خضوعهم للحبش ، حتى صارت اللفظة لقباً لهم ، او علماً لكنانة ومن حالفها . ويجوز ان تكون قد لحقتهم ولحقت الآخرين معهم لتمييزهم عن بقية (كنانة) ومن انضم اليهم ممن سكن خارج تهامة . او لتزوج قسم منهم من نساء حبشيات ، حتى ظهرت السمرة على سحنهم . ولهذا وصفوا بالأحاييش فليس من اللازم اذن ان يكون (الأحاييش) ، هم كلهم من حبش افريقية ، بل كانوا عرباً وقوماً من العبيد والمرترقة ممن امتلكهم اهل مكة . ومما يؤيد رأبي هذا هو ورود (من بني كنانة) مع اهل تهامة في اخبار معارك قريش مع الرسول . ففي معركة (أحد) ، نجد (الطبري) يقول : (فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين فعل ذلك ابو سفيان وأصحاب العير بأحاييشها ومن اطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة) .^١ ونجد مثل ذلك في اخبار معارك اخرى . مما يشير الى ان الأحاييش ، ليسوا عبيد افريقية حسب ، بل هم عرب وحبش ومرترقة . وأن اولئك الأحاييش هم من ساحل تهامة في الغالب من كنانة ، اي ممن اقام بذلك الساحل المستقر به من الحبش واندمج في العرب ، فصار من المستعربة الذين نسوا اصولهم وضاعت انسابهم ، واتخذوا لهم نسباً عربياً ،

وقد كان للأحاييش سادة يديرون امورهم ، منهم (ابن الدغنة) وهو (ربيعة بن رفيع بن حبان بن ثعلبة السلمي) الذي اجار (ابا بكر) . وشهد معركة حنين .^٢ ومن سادات الأحاييش (الحليس بن يزيد) . ويظهر انه كان يتمتع بمنزلة محترمة بمكة . وقد ذكر (محمد بن حبيب) (الحليس) على هذه الصورة : (الحليس بن يزيد) . وذكر انه من (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) . وكان من رؤساء حرب الفجار من قريش .^٣ وذكره غيره على هذه الصورة : (وحليس بن علقمة الحارثي . سيد الأحاييش ورئيسهم يوم أحد . وهو من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) .^٤

وقد حارب الأحاييش مع قريش يوم أحد ، وقد رأسهم (ابو عامر)

١ خبر (غزوة أحد) ، (فخرجت قريش بحدها وجدّها وأحاييشها ، ومن معها من بني كنانة وأهل تهامة) ، الطبري (٥٠١/١٢) .

٢ تاج العروس (٢٠٠/٩) ، (دغن) .

٣ المحبر (١٦٩ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (١٣٠/٤) ، (حلس) .

المعروف بـ (الراهب) .^١ وقاتل بهم ، مع ان رئيسهم وسيدهم اذ ذاك هو (الحليس بن زبان) أخو (بني الحارث بن عبد مناة) . وهو يومئذ (سيد الأحابيش) . وقد مرّ بـ (ابي سفيان) ، وهو يضرب في شذق (حمزة) بزج الرمح ، فلامه على فعله وأنبه .^٢ ولعلّ هذا الحليس هو الحليس المتقدم ، كتب اسم والده بصور مختلفة بحذف اسم والده وإضافة جده او غيره اليه ، فصار وكأنه انسان آخر .

وقد ورد ذكر (الحليس) في خبر (الحديبية) . فقد ذكر الطبري ان قريشاً اوفدت (الحليس بن علقمة) او (ابن زبان) ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو احد (بلحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، الى رسول الله ، فلما رآه الرسول ، قال : ان هذا من قوم يتألهون ، فلما رأى الحليس هديّ المسلمين في قلائده ، وأحس ان الرسول انما جاء معتمراً لا يريد سوءاً لقريش ، قصّ عليهم ما رأى ، فقالوا له : اجلس ، فإنما انت رجل أعرابي لا علم لك . فغضب (الحليس) عند ذلك ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، ان تصدّوا عن بيت الله من بجاءه معظماً له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلّن بين محمد وبين ما جاء له او لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ! فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نوصي به .^٣

وقد ساهم (الأحابيش) في الدفاع عن مكة عام الفتح . وكانوا قد تجمعوا مع (بني بكر) و (بني الحارث بن عبد مناة) ومن كان من الأحابيش ، اسفل مكة . كما امرتهم قريش بذلك . فأمر رسول الله خالد بن الوليد ان يسير عليهم ، فقاتلهم حتى هزموا . ولم يكن بمكة قتال غير ذلك .^٤ ولم يذكر (الطبري) اسم سيد الأحابيش في هذا اليوم .

ويتبين من دراسة اخبار اهل الأخبار عن الأحابيش ، ومن نقدتها وغربلتها ، ان الأحابيش ، كانوا جماعة قائمة بذاتها ، مستقلة في ادارة شؤونها ، يدير امورها رؤساء منهم ، يعرف احدهم بـ (سيد الأحابيش) . وقد ذكرت اسماء

- ١ الطبري (٥١٢/٢) ، (غزوة أحد) .
- ٢ الطبري (٥٢٧/٢) ، (غزوة أحد) .
- ٣ الطبري (٦٢٧/٢) وما بعدها ، (الحديبية) .
- ٤ الطبري (٥٦/٣) ، (فتح مكة) .

بعض منهم قبل قليل . وقد عاشوا عيشة اعرابية ، خارج مكة على ما يظهر من الروايات . وذلك بدليل قول قريش للحليس : (اجلس ، فإنما انت رجل اعرابي ، لا علم لك) .^١ اي انهم كانوا اعراباً ويعيشون عيشة اعرابية . ويظهر من هذه الاخبار ايضاً ان (الحليس) (سيد الأحايش) ، كان من (بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة) ، وأن (ابن الدغنة) ، كان من (بني سليم) . ولم ينص اهل الاخبار فيما اذا كانا عريين صريحين ام انهما كانا من (بني الحارث) ومن (بني سليم) بالولاء ، فنسبهما الى القبيلتين ، هو نسب ولاء . ويظهر من خبر (الحديبية) ، ومن قول النبي لما رأى (الحليس) قادماً اليه : (ان هذا من قوم يتألهون) ، ان الأحايش لم يكونوا على دين مكة اي من عباد الاصنام بل كانوا مؤلهة ، يدينون بوجود إله . وقد يشير الرسول بذلك ان انهم كانوا نصارى ، اخذوا نصرانيتهم من الحبش . ولذلك كانوا من المؤلهة بالنسبة لقريش . وأنا لا استبعد ايضاً ان تكون تلك التسمية قد غلبت على هؤلاء لأنهم كانوا من الساحل الافريقي المقابل لجزيرة العرب . جاؤوا اليها بالفتوح وبالنخاسة ، وأقاموا في تهامة الى مكة ، وعاشوا عيشة اعرابية متبدية ، وتحالفوا مع القبائل العربية المذكورة ، وتخلقوا بأخلاق عربية حتى صاروا اعراباً في كل شيء . وقد لازمتهم اتسمية التي تشير الى اصلهم ، وانما تحالفوا مع (بني الحارث) وبقية المذكورين ، عرف حلفهم بـ (حلف الأحايش) ، ثم عرف المتحالفون بـ (الأحايش) . وقد نسي الأصل وهو الأحايش ، اي اسم الحبش الذين تحالفوا مع (بني الحارث) و (عضل) و (الديش) و (المصطلق) و (الحيا) . لسبب لا نعرفه ، قد يكون بسبب كونهم عبيداً سوداً ، وأطلق الحلف على المذكورين . غير ان روايات اهل الاخبار تشير الى كثير من الأحايش في مثل قولها : (وخرجت قريش بأحايشها) الى ان الأحايش المذكورين كانوا في حكم قريش ، اي جماعة من الحبش من اهل افريقية ، كانت كما ذكرت تكون وحدة قائمة بذاتها ، ولكنها تدين بولائها لقريش ، ولها حلف مع بعض كنانة ومع قبائل اخرى . ولما كان عام الفتح امرتها قريش بالتعاون مع (بني بكر) و (بني الحارث بن عبد مناة) ، للدفاع عن مكة من جهة الجنوب . فامتثلت لأمر قريش ، وأخذت مواضعها هنالك ، حتى زلزلها (خالد بن الوليد) .

١ الطبرى (٦٢٧/٢) ، (الحديبية) .

وقد منح (لامانس) الأحابيش درجة مهمة في الدفاع عن قريش . حتى زعم ان قريشاً ركنت اليهم في دفاعهم عن مكة ، وعهدت اليهم دوراً خطيراً في حروبها مع الرسول . وقد استند في رأيه هذا الى ما رواه أهل الأخبار من اشتراكهم مع قريش في تلك الحروب . غير اننا نجد من دراسة أخبار الحروب المذكورة ، ان الأحابيش وان ساهموا فيها ، الا انهم لم يلعبوا دوراً خطيراً فيها . وانهم لم يكونوا في تلك الحروب سوى فرقة من الفرق التي ساعدت قريشاً ، مقابل مال ورزق ووعود . ولم يكن الأحباش وحدهم قد ساعدوا أهل مكة في حروبهم مع غيرهم ، فقد ساعدهم ايضاً طوائف من الأعراب ، أي من البدو الفقراء الذين كانوا يقاتلون ويؤدون مختلف الخدمات في سبيل الحصول على خبز يعيشون عليه .

وقريش جماعة اسنقرت وتحضرت ، واشتغلت بالتجارة ، وحصلت منها على غنائم طيبة . ومن طبع التاجر الابتعاد عن الحصومات والمعارك والحروب . لأن التجارة لا يمكن ان تزدهر وتثمر إلا في محيط هادئ مستقر . لذلك ، صار من سياستها استرضاء الأعراب وعقد (حبال) مع ساداتهم ، لتأمين جانبهم ، ليسمحوا لقوافلها بالمرور بسلام . كما صار من اللازم عليها عقد أحلاف مع المجاورين لهم من الأعراب مثل (قريش الظواهر) و (الأحابيش) وأمثالهم للاستعانة بهم في الدفاع عن مكة والاشتراك معهم في حروبهم التي قد يجبرون على خوضها مع غيرهم . بالإضافة الى عبيدهم (الحبش) الذين اشترتهم لتمشية أمورهم وليكونوا حرساً وقوة أمن لهم .

ولم تكن قريش تعتمد على القوة في تمشية مصالحها التجارية ، بقدر اعتمادها على سياسة الحلم واللين والقول المعسول والكلام المرضي في الوصول الى غايتها وأهدافها ومصالحها التجارية . وهذه السياسة : سياسة اللين والمفاوضة والمسالة ، كانت تبدأ بكل ما يقع لها من صعوبات مع الناس . ولم يكن من السهل عليها في الواقع إرضاء الأعراب واسكاتهم لولا هذه السياسة الحكيمة التي اختاروها لأنفسهم ، وهي سياسة أكثر سكان القرى العامرة الواقعة في البوادي بين أعراب جاثعين ، سياسة الاسترضاء بالحكمة واللسان الجميل ، واداء المال رشوة لهم بأقل مقدار ممكن ، لأن الاكثار من السخاء يثير في الأعرابي شهوة طلب المزيد . وشهوته هذه متى ظهرت ؛ فسوف لا تنتهى عند حد . وأهل مكة بخبرتهم الطويلة في تجولهم بمختلف أنحاء جزيرة العرب أعرف من غيرهم بنفسية الأعراب .

وكان لأشرافها أحلاف مع سادات القبائل ، تحالفوا معهم لتمشية مصالحهم ولحماية تجارتهم . فكان (زرارة) التميمي مثلاً حليفاً لـ (بني عبد الدار) . وكان عامر بن هاشم بن عبد مناف ، قد تزوج (بنت النباش بن زرارة) ، وأولد منها (عكرمة بن عامر بن هاشم) الشاعر ، و (بغيض بن عامر) الذي كتب الصحيفة على (بني هاشم) في أمر مقاطعة قريش لبني هاشم^١ .

وقد عبرت قريش بأنها لا تحسن القتال ، وانها تجاري وتسير من غلب ، وانها لا تخرج إلا بخفارة خفير ، وبحلف حليف ، وبحبل من هذه الحبال التي عقدتها مع سادات القبائل . فلما سمع (النعمان بن قبيصة بن حية الطائي) ابن عم (قبيصة بن إياس بن حية الطائي) صاحب الحيرة ، بـ (سعد بن أبي وقاص) ، سأل عنه ، فقيل : (رجل من قريش ، فقال : اما إذا كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال . إنما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير)^٢ . ونجد أمثلة أخرى من هذا القبيل تشير الى ميل قريش الى السلم ، وعدم قدرتها على القتال .

وذكر الأخباريون انه كان لكنانة جملة أولاد ، ذكر ابن الكلبي منهم : النضر ، والنضير ، ومالكاً وملكاً ، وعامراً ، وعمراً ، والحارث ، وعروان (غزوان) ، وسعداً ، وعوفاً ، وغنماً ، ومخرمة ، وجرولاً . وهم من زوجته (برة بنت مر) أخت (تميم بن مر) . ولهذا رأى النسابون وجود صلة بين أبناء هؤلاء الأولاد وقبيلة (تميم) . وأما (عبد مناة) ، فإنه ابن كنانة من زوجته الأخرى ، وهي (الذفراء بنت هانيء بن بلي) من قضاة . ولذلك عدت أبنائه من قضاة .

ويذكر أهل الأخبار ان من أجداد (قصي) ، رجل كانت له منزلة في قومه اسمه (كعب بن لؤي) . كان يخطب للناس في الحج ، وكان رئيساً في (قريش) فلما توفي ، أرخت قريش بموته اعظاماً له ، الى ان كان عام الفيل فأرخوا به^٣ . وذكر بعض أهل الأخبار ان أم (كعب) هي من (القين بن

١ نسب قريش (٢٥٤) .
٢ الطبري (٥٧٢/٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) .
٣ البلاذري ، أنساب (٤١/١) .

جسر) من قضاة ، وان كعباً هذا أول من سمي يوم الجمعة الجمعة ، وكانت العرب تسمي يوم الجمعة : العروبة . وأول من قال : (أما بعد) ، فكان يقول : (اما بعد ، فاستمعوا وافهموا) ، وان بين موته والفيل خمسمائة سنة وعشرون سنة^١ .

وفي قول أهل الأخبار عن وقت موت كعب مبالغة شديدة بالطبع ، فإن كعباً هو والد (مُرّة) و (مُرّة) هو والد (كلاب) و (كلاب) هو والد (قصي) . فلا يعقل إذن ان يكون بين موت (كعب) وبين الفيل هذا المقدار من السنين .

وهم يذكرون ايضاً ان والد (قصي) وهو (كلاب) كان قد تزوج (فاطمة بنت سعد بن سيل) ، فأنجبت له (قصيًّا) . وهي من الأزد ، من نسل (عامر الجادر) . وقد عرف ب (الجادر) لانه بنى جدار الكعبة بعد ان وُهمَنَ من سيل أتى في أيام ولاية جرهم البيت ، فسمي الجادر . وذكر ايضاً ان الحاج كانوا يتمسحون بالكعبة ، يأخذون من طيبها وحجارتها تبركاً بذلك ، وان عامراً هذا كان موكلًا باصلاح ما شعث من جدرها فسُمي الجادر . وذكر ان (سعد بن سيل) ، كان أول من حلى السيوف بالفضة والذهب . وكان أهدي الى (كلاب) مع ابنته (فاطمة) سيفين محليين ، فجعلوا في خزانة الكعبة^٢ . وذكر ان (كلاباً) ، هو أول من جعل في الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة^٣ . وجاء ايضاً انه أول من جدر الكعبة^٤ .

و (قصي) رئيس قريش ، هو الذي ثبت الملك في عقبه ، ونظم شؤون المدينة ، وقسم الوظائف والواجبات على أولاده حين شعر بدنو أجله . فلما أشرق الإسلام ، كانت أمور مكة في يد قريش ، ولم يكن لغير قريش نفوذ يذكر على مكة . فهو الذي بعث الحياة الى قومه من قريش ، وجعل لهم مكانة في هذه القرية ونفوذاً وشهرة في الحجاز . وهو الذي أوجد لمكة مكانة ، وخلق

-
- ١ نهاية الأرب (١٨/١٦) .
 - ٢ البلاذري ، أنساب (٤٨/١) ، (كلاب) ، الدميري ، حياة الحيوان (٢٧٨/٢) .
 - ٣ نهاية الأرب (١٩/١٦) .
 - ٤ نسب قريش ، للزبيدي (ص ١٤) .

لها نوعاً من التنظيم والإدارة . ومن عهده فما بعد نجد في أخبار مكة ما يمكن ان يركز ويطمأن اليه من أخبار .

وقد روى (ابن قتيبة) خبراً مفاده ان (قيصر) أعان (قصياً) على (خزاعة)^١ . واذا صح هذا الخبر ، فإن مساعدة (قيصر) له قد تكون عن طريق معاونة الغساسنة له ، وهم حلفاء الروم . وقد تكون قبيلة (بنو عذرة) وهي من القبائل المنتصرة التي عاشت على مقربة من حدود بلاد الشام ، هي التي توسطت فيما بين قصي والروم ، وقد كانت خاضعة لنفوذهم ، فأعانه أحد الحكام الروم - وقد يكون من ضباط الحدود ، أو من حكام المقاطعات الجنوبية مثل (بصرى) - بأن أمدّه بمساعدة مالية أو بإيعاز منه الى الأعراب المحالفين للروم بمساعدته في التغلب على خزاعة^٢ . ولا أهمية كبيرة في هذا الخبر لكلمة (قيصر) . فقد جرت عادة أهل الأخبار على الإسراف في استعمالهم لهذه اللفظة . وقد ورثوا هذا الإسراف من الجاهليين ، فقد كان من عادتهم تسمية أي موظف بارز من موظفي الحدود الروم ، أو من حكام المقاطعات بـ (قيصر) . وفي روايات أهل الأخبار أمثلة عديدة من هذا القبيل .

ويذكر ان (عثمان بن الحويرث) ، وكان من الهجائين في قريش ومن العالمين بأخبار رجالها ، قد توسط فيما بعد لدى البيزنطيين لتنصيب نفسه ملكاً على مكة . وهو من (بني أسد بن عبد العزى) . ويظهر انه أدرك الماراة التي أصيب بها البيزنطيون من خروج الحبش عن اليمن ومن دخول الفرس اليها ، وسيطرتهم بذلك على باب المندب ، مفتاح البحر الأحمر ، فتقرب الى الروم وتوسل اليهم لمساعدته بكل ما عندهم من وسائل لتنصيب نفسه ملكاً على مكة ، علماً منه ان هذا الطلب سيجد قبولاً لديهم ، وان في امكانهم في حالة عدم رغبتهم بمساعدته مساعدة عسكرية أو مالية ، الضغط على سادات مكة ضغطاً اقتصادياً ، بعرقله تجارتهم مع بلاد الشام ، أو بمنع الاتجار مع مكة ، أو برفع مقدار الضرائب التي تؤخذ عن تجارتهم ، وبذلك يوافقون على الاعتراف به ملكاً

١ المعارف (ص ٦٤٠) ، (وأعانه قيصر عليها) ،

Lammens, Macque, P. 269.

٢ W. M. Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

عليه ، على نحو ما كان عليه الملوك الغساسنة . وكما سأحدث عن هذا الموضوع فيما بعد .

والظاهر ان مشروعه هذا لم يلاق نجاحاً ، لأن سادات مكة وفي جملتهم رجال من (بني أسد بن عبد العزى) ، مثل (الأسود بن المطلب) و (أبو زمعة) ، والأثرياء من الأسرة الأخرى عارضوه ، لأنهم كانوا تجاراً يتاجرون مع الفرس والروم ، وانحيازهم الى الروم ، معناه خروج مكة عن سياسة الحياد التي اتبعوها تجاه المعسكرين : الفرس والروم ، وسيؤدي هذا الانحياز الى عرقلة اتجارهم مع الفرس ومع الأرضين الخاضعة لنفوذهم ، وتؤدي هذه العرقلة الى خسارة فادحة تقع بتجارتهم ، لا سيما وان الفرس كانوا قد استولوا على اليمن ، ولأهل مكة تجارة واسعة معها . ثم إن بين أهل مكة رجال لهم شأن ومكانة في قومهم ، وكانوا أرفع منزلة من (عثمان بن الحويرث) ، لذلك لم يكن من الممكن بالنسبة لهم الانصياع له حتى وإن أرسل الروم جيشاً قوياً منظماً على مكة ، لذلك لم يتحقق حلم (عثمان) في الرياسة ولو بمساعدة قوات أجنبية .

وزعم بعض أهل الأخبار ان (الحارث بن ظالم المري) ، ذكر (آل قصي) في شعره ، ودعاهم بـ (قرابين الإله) ، إذ قال :

وإن تعصّب بهم نسي فمنهم قرابين الإله بنو قصي^١

وهو في عرف بعض النسابين : (قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن فهر)^٢ . و (قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان) ، في شجرة نسبه التي توصله الى جده الأعلى (عدنان)^٣ . فأبوه هو كلاب . اما أمه ، فهي (فاطمة بنت سعد بن

-
- ١ الثعالبي ، ثمار (١٦) .
 - ٢ ابن الأثير ، الكامل ، (٧/٢ وما بعدها) ، المعارف (٧٠ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠) ، ابن سعد ، طبقات (٦٨/١) .
 - ٣ الطبري (٦٦١/٢ وما بعدها) ، (دار المعارف بمصر) ، مروج (١٦٤/٢) ، (طبعه محمد محيي الدين عبد الحميد) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام ، (١٨/١) ، أبو الفداء ، المختصر (١١٢/١) .

سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جعشمه ابن يشكر) من أزد شنوءة حلفاء في (بني الدَّيْل)^١ . توفي أبوه وهو صغير ، وتزوجت أمه بعد وفاة (كلاب) أبيه من رجل من بني عذرة ، هو ربيعة بن حرام . ولصغر سن قصي ، أخذته أمه معها الى أرض زوجها في بني عذرة ، على مقربة من تبوك ، وتركت أخاه الأكبر (زهرة) في أهله بمكة . ولما شب قصي وترعرع ، وعرف من أمه أصله وعشيرته ، رجع الى قومه ، فنزل بمكة وأقام بها : ونظم أمر قريش^٢ .

ولم يكن اسم قصي قصياً يوم سُمي ، بل كان (زيداً) ، وإنما سُمي قصياً بعد ذلك ، سُمي قصياً على ما يذكر أهل الأخبار ، لأنه قصي عن قومه ، فكان في بني عذرة ، فسمي قصياً لبعد داره عن دار قومه^٣ . وبينما قصي بأرض قضاة لا ينتمي إلا الى ربيعة بن حرام ، زوج أمه ، وهو من أشرف قومه ، إذ كان بينه وبين رجل من قضاة شيء ، فأنبه القضاة بالغربة ، فرجع قصي الى أمه ، وقد وجد في نفسه مما قال له القضاة ، فسألها عما قال له ذلك الرجل ، فقالت له : أنت ، والله ، يا بني أكرم منه نفساً وولداً . فأجمع قصي الخروج الى قومه والحق بهم ، فقالت له أمه : يا بني ، لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فإنني أخشى عليك ان يصيبك بعض البأس ، فأقام قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام ، خرج حاج قضاة ، فخرج فيهم حتى قدم مكة فلما فرغ من الحج ، أقام بها ، واتخذها له مستقراً ومقاماً^٤ .

وتعرف قصي وهو بمكة على (حليل بن حبشية الحراعي) ، وكان يلي الكعبة وأمر مكة ، ثم خطب اليه ابنته ، وهي (حبي) ، فزوجه إياها ، وولدت

-
- ١ الطبري (٢٥٤/٢) ، (دار المعارف بمصر) ، (وسيل ، هو خير بن حمالة ، من الجذرة من أزد شنوءة) ، المحبر (٥٢) .
 - ٢ ابن سعد ، طبقات (٦٦/١ وما بعدها) .
 - ٣ واسمه (زيد) وكنيته (أبو المغيرة) ، ابن الأثير ، الكامل (٧/٢ وما بعدها) ، (فاطمة بنت سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر) ، الاشتقاق (١٣ ، ٢٥) ، الطبري (٢٥٥/٢) ، (دار المعارف بمصر) ، الأزرق ، أخبار مكة (٥٧/١) ، السويدي ، سبائك (٦٧) .
 - ٤ الطبري (٢٥٥/٢) (دار المعارف بمصر) ، نهاية الأرب (٢٠/١٦ وما بعدها) .

له ولده : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد قصي . وكثر ماله ، وعظم شرفه ، فلما توفي (حليل) رأى قصي انه أولى من خزاعة بولاية البيت ، وان قريشاً فرعة اسماعيل وابراهيم ، واستنفر رجال قريش ، ودعاهم الى اخراج خزاعة من مكة . وكتب الى أخيه من أمه ، وهو (رزاح بن ربيعة بن حرام العذري) يستنصره ، فأجابه ومعه قومه من بني عذرة من قضاعة ، ووصلوا مكة ونصروه ؛ وغلبت قضاعة وبني النضر خزاعة ، وزال ملكهم عن مكة ، وصار الامر الى قصي وقريش^١ .

وفي رواية أخرى انه اشترى ولاية البيت من (أبي غبشان) بزق خمر وبعود . وكان (حليل) كما يقول أصحاب هذه الرواية قد جعل ولاية البيت الى ابنته (حُجَي) ، فقالت : قد علمت اني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه ، قال : فاني أجعل الفتح والإغلاق الى رجل يقوم لك به ، فجعله الى (أبي غبشان) ، وهو (سليم بن عمرو بن بوي بن ملكان بن أفصى) ، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود . فلما سمعت خزاعة ذلك ، تجمعت على قصي ، فاستنصر أخاه ، فقاتل خزاعة وأصيب خراة بوباء العدسة ، حتى كادت تفنيهم . فلما رأت ذلك ، جلست عن مكة . ويذكرون ان العرب لما سمعت بقصة (أبي غبشان) ، قالت : (أخسر صفقة من أبي غبشان) ، فلذهب القول مثلاً^٢ .

وأبو غبشان ، هو (المحترش)^٣ . وقد ورد اسم رجل عرف بالحارث ، قيل عنه انه غبشان بن عبد عمرو ، وانه كان قد حجب البيت^٤ ، فلعل له علاقة بأبي غبشان المذكور ، كأن يكون ابنه .

وفي رواية ان القتال حينما اشتد بين قصي وخزاعة ، تداعوا الى الصلح ، على

- ١ الطبري (٢٥٥/٢ وما بعدها) ، ابن الأثير (٧/٢ وما بعدها) ، الأزرقى (٥٥/١ وما بعدها) ، (طبعة الماجدية) ، (٦٥ وما بعدها) ، (طبعة وستنفلد) ، ابن سعد ، الطبقات (٦٨/١) (صادر) ، البلاذري ، أنساب (٤٧/١ وما بعدها) .
- ٢ الطبري (٢٥٦/٢) (دار المعارف بمصر) ، ابن الأثير ، الكامل (٨/٢) ، السويدي ، سبائك (٦٧) ، المسعودي ، مروج (٥٨/٢ وما بعدها) .
- ٣ الاشنفاق (ص ٢٧٧) .
- ٤ الاشنفاق (ص ٢٨٢) .

ان يحكم بينهم (عمرو بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة) (يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث) ، فوافق . فكان حكمه ان قصياً أوى بالبيت ومكة من خزاعة ، وان كل دم أصابه من خزاعة موضوع ، فيشدخه تحت قدميه ، وان كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر حلقاؤهم من قریش وبنی كنانة ، ففي ذلك الدية مؤداة . وبذلك انتصر قصي على خصومه . ويقولون إن (عمراً) سُمي منذ ذلك الحين الشداخ ، بما شدخ من الدماء^١ .

ولم يشر بعض أهل الأخبار الى ان شدخ الشداخ الدماء بين قریش وخزاعة ، كان في عهد قصي ، فأغفلوا اسم (قصي) ، بل اكتفوا بالإشارة الى شدخه الدماء واصلاح ما بين قریش وخزاعة ، وذكر بعضهم انه حكم في جملة ما حكم به على ألا يخرج خزاعة من مكة^٢ . وأكثر الرواة على ان اسمه (يعمر بن عوف ، لا (عمرو بن عوف) كما جاء في الرواية المتقدمة^٣ .

ولم تشر رواية أخرى ذكرها (ابن دريد) الى وقوع نزاع بين قصي وبين خزاعة ، بل قالت : إن حليلاً سادن الكعبة ، كان قد أوصى اليها أمر الكعبة واعطاها مفتاحها ، فأعطته زوجها قصياً ، فتحولت الحجابة من خزاعة الى بني قصي^٤ .

وترجع بعض الروايات نزاع خزاعة مع قصي الى عامل آخر غير ولاية البيت ، فتذكر ان خزاعة كانت قد سلمت لقصي بحقه في ولاية البيت ، وانها زعمت ان (حليلاً) أوصى بذلك قصياً ، وبقيت على ولائها له ، الى ان اختلف (قصي) مع (صوفة) . وكانت (صوفة) وهي من (جرهم) تتولى أمر الإجازة

-
- ١ ابن الأثير (٨/٢) ، (الشداخ : وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر) المحبر (ص ١٣٣) ، (يعمر بن عوف) ، ابن سعد ، الطبقات (٦٩/١) (صادر) ، نهاية الأرب (٣٨/١٦) .
 - ٢ المحبر (ص ١٣٣ وما بعدها) .
 - ٣ المحبر (ص ١٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٠٦) ، سيرة ابن هشام (٧٩/١ وما بعدها) ، الطبري (١٠٩٧) (طبعة ليدن) ، (٢٥٨/٢) (طبعة دار المعارف بمصر) .
 - ٤ الاشتقاق (ص ٢٧٦) .

بالناس من عَرَفة . فتجيزهم إذا نفروا من (مِني) تولت ذلك من عهد جرحهم وخزاعة . فلما كان قصي ، أتاهم مع قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة ، فقالوا : نحن أولى بهذا منكم ، فناكروه ، فناكرهم ، فقاتلوه ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً ، ثم انهزمت صوفة ، وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك ، وحال بينهم وبينه ، فأنحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي بن كلاب ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة ، فوقع من ثم ما وقع على نحو ما مر^١ .

غير ان الرواة يذكرون في مكان آخر ان قصياً أقر للعرب في شأن حجّهم ما كانوا عليه ، وذلك انه كان يراه ديناً في نفسه ، لا ينبغي له تغييره ، وكانت صوفة على ما كانت عليه ، حتى انقضت - فصار ذلك من أمرهم الى (آل صفوان بن الحارث بن شجنة) وراثته^٢ . فهذه الرواية تنافي ما ذكرته آنفاً من قولهم بقتال قصي لهم ، وغلبته عليهم . وبقي أمر (عدوان) والنساء ، ومرة ابن عوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام ، فهدم به ذلك كله^٣ .

ويذكر الأخباريون ان قصياً بعد ان تمت له الغلبة ، جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال الى مكة ، فسُمّي لذلك مُجمّعاً ، وانه حكم منذ ذلك الحين فيهم ، وملك عليهم . فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً ، وأطاعه قومه به ، وأنه قسم مكة أرباعاً بين قومه ، فبنوا المساكن ، وان قريشاً هابت قطع شجر الحرم في منازلهم ، فقطعها قصي بيده ، وأعانوه ، وانها تيمنت به ، فكانت لا تعقد أمراً ، ولا تفعل فعلاً إلا في داره ، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي ، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره ، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلا في داره ، يعقدها لهم بعض ولده ، وما تدرع جارية إذا بلغت ان تدرع من قريش إلا في داره ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها الى أهلها ، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، لا يعمل بغيره تيمناً بأمره ومعرفته

١ الطبري (٢٥٧/٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (٦٨/١) .

٢ الطبري (٢٥٩/٢) .

٣ نهاية الأرب (٢٩/١٦) .

بفضله وشرفه ، واتخذ قصي لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ،
ففيها كانت قريش تقضي أمورها ^١ .

ويذكر الأخباريون ايضاً ، ان قريشاً كانوا إذا أرادوا إرسال غيرهم ، فلا
تخرج ولا يرحلون بها إلا من دار الندوة . ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشریفاً له
وتيمناً برأيه ومعرفة بفضله ، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار الندوة . وكانت
اليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة . وكان يعشر من دخل
مكة سوى أهلها ^٢ .

وقد وردت في الشعر لفظة (مجمع) :

أبونا قصي كان يدعي مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر ^٣

فيظهر من هذا البيت انه جمع قبائل فهر ، ووحدتها .

ويذكر الرواة ان (بني بكر بن عبد مناة) ، صاروا ييغضون قريشاً لما كان
من (قصي) حين أخرجهم من مكة مع من أخرج من خزاعة حين قسمها
رباعاً وخططاً بين قريش . فلما كانوا على عهد (المطلب) ، وهما باخراج
قريش من الحرم وان يقاتلوهم حتى يغلّبهم عليه ، وعدت (بنو بكر) على
نعم لبني الهون فأطردوها ، ثم جمعوا جموعهم وجمعت قريش واستعدت . وعقد
المطلب الحلف بين قريش والأحابيش ، فلقوا بني بكر ومن انضم اليهم وعلى
الناس (المطلب) ، فاقتتلوا بـ (ذات نكيف) ، فانهزم بنو بكر ، وقتلوا
قتلاً ذريعاً ، فلم يعودوا لحرب قريش .

وقتل يومئذ (عبيد بن السفاح القاري) من القارة : قتادة بن قيس أخا

١ الطبري (٢٥٨/٢ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (١٣/٢ وما بعدها) ، ابن
هشام ، سيرة (١٢٤/٢ وما بعدها) ، (طبعة مصطفى البابي) ، البلاذري ، أنساب
(٥٢/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٧٠/١) .

٣ الاشتقاق (٩٧) ، وفي رواية : (أبوكم قصي) ، الطبري (١٦/٢) (الاسنفامة) ،
اليعقوبي (٢١٠/١) ، المقدسي ، البدء والناريخ (١٠٩/٤) ، ابن سعد ، طبقات
(٧١/١) (بيروت) ، السويدي ، سبائك (٦٧) ، البلاذري ، أنساب (٥٠/١) .

(بلعاء بن قيس) . والقارة من ولد (الهون بن خزيمة)^١ .

ويظهر من هذه الروايات ان أرض حرم مكة كانت مشجرة ، وان تلك الأشجار كانت مقدسة ، وان بعض بيوت مكة كانت ذات أشجار ، ويظهر انها انتزعت من أرض الحرم ، ولذلك كانوا يهابون قطعها ولا يتجاسرون على إلحاق سوء بها . فلما جاء قصي ، خالف عقيدة القوم فيها ، فقطعها . ولما وجد أهل مكة ان قطعها لم يلحق أي سوء بقصي ، وانه بقي سالماً معافى ، تجاسروا هم وفعلوا فعله في قطع الشجر^٢ .

وذكر العلماء : ان (الحرم) ، أي حرم مكة ، مسا أطاف بمكة من جوانبها ، وحدّه من طريق المدينة دون (التنعيم) عند بيوت (بني نفاذ) على ثلاثة أميال ، ومن طريق العراق على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة أميال ، ومن طريق الجعرانة بشعب (آل عبد الله بن خالد) على تسعة أميال ، ومن طريق الطائف على عرفة من بطن (نمره) على سبعة أميال ، ومن طريق (جدّة) منقطع العشار على عشرة أميال^٣ .

والحرم المذكور ، هو الأرض الحرام التي كانت مقدسة عند الجاهليين أيضاً ، وهي مكة وأطرافها الى حدودها التي اصطلح عليها . وأما الحرم الذي أحاط بالكعبة فقد عرف بـ (المسجد) و (بالمسجد الحرام) و بـ (الحرم) . ولا نعرف حدوده في الجاهلية على وجه واضح معلوم . وقد كان الجاهليون قد وضعوا أنصاباً على الحدود ليعلم الناس مكان الحرم ، ولم يكن له جدار يحيط به . وذكر انه كان في عهد الرسول وأبي بكر فناء حول الكعبة للطائفتين ، ولم يكن له على عهدهما جدار يحيط به . فلما استخلف (عمر) وكثر الناس ، وسع المسجد ، واشترى دوراً هدمها وزادها فيه ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، وكانت المصابيح توضع عليه . فكان عمر أول من اتخذ جداراً للمسجد .

- ١ البلاذري ، أنساب (٧٥/١ وما بعدها) ، المحبر (٦٤٦) ، نهاية الأرب (٣٥/١٦ وما بعدها) .
- ٢ البلاذري ، أنساب (٥٨/١) ، ابن سعد ، طبقات (٧١/١) ، (صادر) ، السيرة الحلبية (١٤/١) ، اليعقوبي (٢١٠/١) .
- ٣ الأحكام السلطانية (١٦٤ وما بعدها) .

ثم وسّع المسجد (عثمان) ومن جاء بعده ، ثم صار كل من ولي من الخلفاء والسلطين يزيد في اتساع الحي ، حتى صار على ما هو عليه الآن .^١

ودار الندوة اذن هي دار مشورة في أمور السلم والحرب ، ومجلس المدينة التي عرف رؤساؤها كيف يحصلون على الثروة وكيف يستعوضون عن فقر ارضهم بتجارة تدرّ عليهم ارباحاً عظيمة وبخدمة يقدمونها الى عابدي الأصنام ، جاءت اليهم بأموال وافرة من الحجيج . في هذه الدار يجتمع الرؤساء وأعيان البلاد للنشاور في الأمور والبت فيها . وفي هذه الدار ايضاً تجري عقود الزواج ، وتعقد المعاملات ، فهي دار مشورة ودار حكومة في آن واحد ، يديرها (الملأ) ، وهم مثل اعضاء مجلس شيوخ (اثينا) الذين كانوا يجتمعون في (المجلس) (Ekklesia) للنظر في الأمور .^٢ يمثلون زعماء الأسر ، ورؤساء الأحياء ، وأصحاب الرأي والمشورة للبت فيما يعرض عليهم من مشكلات .^٣

وقد ذكر بعض اهل الاخبار ان دار الندوة لم يكن يدخلها الا ابن اربعين او ما زاد ، فدخلها ابو جهل ، وهو ابن ثلاثين لجودة رأيه .^٤ ودخلها غيره للسبب نفسه . فيظهر من ذلك ان المراد من دخول الدار ، هو حضورها للإسهام في ابداء رأي وتقديم مشورة .

ولما كانت سن الأربعين في نظر العرب هي سن النضج والكمال ، اخذوا بمبدأ تحديده باعتباره الحد الأصغر لسن من يسمح له بالاشتراك في الاجتماعات وابداء الرأي ، الا اذا وجدوا في رجل اصغر سناً جودةً في الرأي ، وحدة في الذكاء ، فيسمح له عندئذ بالاشتراك وبابداء الرأي بصورة خاصة .

وذكر ايضاً ، انه لم يكن يدخل دار الندوة احد من قريش لمشورة حتى يبلغ اربعين سنة ، الاّ حكيم بن حزام ، فانه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة . وكان ولد في الكعبة ، وذلك ان أمه دخلت الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل به ، فضر بها المخاض في الكعبة ، وأعجلها عن الخروج ، فوضعت به بها . وجاء

١ الأحكام السلطانية (١٦٢) ، نزهة الجليس (٢٤/١) .

٢ Watt, p. 9.

٣ O'Leary, p. 183.

٤ الاشتقاق (ص ٩٧) .

الإسلام ودار الندوة بيد حكيم ، فباعها بعد من معاوية بمائة ألف درهم .^١
فدار الندوة اذن ، هي دار (ملأ) مكة . وهم سادتها ووجوهها وأشرافها
وأولو الأمر فيها . ولم تكن (برلماناً) او (مجلس شيوخ) على النحو المفهوم
من اللفظتين في المصطلح السياسي . وإنما كانت دار (أولي الشورى) و (الرأي) .
تتخذ رأياً عند ظهور حاجة او اخذ (الرأي) وعند وجوب حصول زعماء الملأ
على قرار في امر هام . ولم تكن قراراتها ملزمة ، بل قد يخالفها سيد ذو رأي
ومكانة ، فيتفرد برأيه . ولا يحصل الاجماع الا باتفاق . والغالب الا يحصل هذا
الاتفاق . ويتوقف تنفيذ رأي (الملأ) على شخصية المقررين وعلى كفاءتهم وعلى
ما يتخلونه من اجراء بحق المخالفين المعاندين من مقاطعة ومن مساومة ومن اقناع .
والغالب ان الملأ لا يتخذون رأياً الا بعد دراسة وتفكير ، ومفاوضات يراعى فيها
جانب المروءة والحلم والمروءة ، حتى لا يقع في البلد انشقاق قد يعرض الأمن
الى الاهتزاز .

وربما قام وجوه (الشعب) ، وهم سادة الأسر ، بدور هو اكثر فعالية
من دور (دار الندوة) في فضّ الخصومات . والعادة عندهم ان الخصومات الداخلية
للأسر ، تفض داخل الأسرة ، لأن (آل) الأسرة أقدر على حل خلافاتهم من تدخل
غيرهم في شؤونهم ، ثم انهم لا يقبلون بتدخل غريب عن الأسرة في شأن من
شؤون تلك الأسرة . لذلك كان (الملأ) لا ينظرون الا في الامور التي هي فوق
مستوى الاسر و (الشعب) ، والتي تخص امور المدينة كلها ، والتي قد تعرض
أمنها الى الخطر ، او التي يتوقف على قراراتهم بصدها مستقبل المدينة .
والانسان بمكة بأسرته وبمقدرته وقابلياته وكفاءته . وقد يرفع الاشخاص من
مستوى اسرهم ، وقد يهبط مستوى الأسر ومكانتها بسبب هبوط مستوى رجالها
وعدم ظهور رجال اغنياء اقوياء فيها . ولما كانت مكة مدينة عمل وتجارة ومال ،
والمال يتنقل بين الناس حسب اجتهاد الافراد وجدهم في السعي وراءه ، لذلك
تجد من بين رجالها من ينحمل ذكره بسبب خمول اولاده وتبذيرهم لما ورثوه من
مال ، وعدم سعيهم لاضافة مال جديد اليه . ويستتبع ذلك تنقل النفوذ من بيت
الى بيت .

فالحكم في مكة اذن حكم لا مركزي ، حكم رؤساء واصحاب جاه ونفوذ ومنزلة

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٥١٨ وما بعدها) .

تطاع فيها الاحكام ، وتنفذ الاوامر ، لا لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على اهل مكة ، بل لأن الاحكام والاوامر هي احكام ذوي الوجه والسن والرئاسة والشرف ، واحكام هؤلاء مطاعة في عرف اهل مكة وفي عرف غيرهم من اهل جزيرة العرب . حكمت بذلك العادة وجرى عليه العرف ، ولا مخالفة للعرف والعادة . فالعرف قانون اهل جزيرة العرب حتى اليوم . وانتهاك احكامها معناه انتهاك سيادة القانون ، وتمرد على الهيئة والنظام ، وتحقير الحاكمين واهانة لهم ولا تباعهم ، وليس لاحد الخروج على اوامر سادات القوم وذوي الحسب والشرف والسن والعقل .

ولم تكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة ، فلم يكن فيها ملك له تاج وعرش ، ولا رئيس واحد يحكمها على انه رئيس جمهورية او رئيس مدينة ، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً او حكماً بالتناوب ، ولا حاكم مدني عام او حاكم عسكري . ولم يتحدث اهل الانخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه ضبط الامن . او مدير له سجن يزج فيه الخارجين عن الانظمة والقوانين او ما شابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات . وكل امرها انها قرية تتألف من شعاب . كل شعب لعشيرة . وأمر كل شعب لرؤسائه ، هم وحدهم اصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب فيه . وليس في استطاعة متمرد مخالفة احكامهم . والاّ ادبه حية ، وملؤه اي اشرافه . هؤلاء الرؤساء هم الحكام الناصحون وهم عقلاء الشعب .

وقد اشير الى رؤساء مكة في القرآن الكريم في آية : (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . ^١ فرؤساء مكة هم علماءها وساداتها ، وهم أعلى الناس منزلة ودرجة ومكانة فيها . و (عظماء) مكة او (عظماء الطائف) هم الطبقة (المختارة) والصفوة المتزعمة في الناس . واليها وحدها تكون الزعامة والرئاسة والرجاحة في الرأي .

وقانون القوم ودستورهم : (لانا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون) . ^٢ فهم محافظون حريصون على كل ما وصل اليهم ، لا يريدون له تغييراً ولا تبديلاً . مهما بدا لهم في الجديد من منطق وحق . (قال : أو لو

١ الزخرف ، الآية ٣١ .

٢ الزخرف ، الآية ٢٣ .

جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا انا بما أرسلتم به كافرون (١) . وفي القرآن الكريم آيات أخرى ترينا تمسك نخبة مكة ورجال الملائة بحقوقهم وبما ورثوه من عرف مكنتهم من الملائة ، وفي تمسكهم بها محافظة على حقوقهم الموروثة وعلى مصالحهم وعلى زعامتهم في الناس .

فلا مكة اناس محافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً ، سنتهم التعلق بالماضي ، وكره الثورة والخروج عن العرف والعادة مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . اما المستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والاجداد ، فيعاقب حتى يعود الى رشده وصوابه . وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيف كان ، وبتطرفهم في المحافظة على العرف ، انما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصلحتهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد ، المحافظة على مصالحها ، استناداً الى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد . (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله . قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) (٢) .

وقد توارث بنو عبد الدار الندوة ، حتى باعها (عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار) من معاوية ، فجعلها دار الامارة بمكة ، ثم أدخلت في الحرم (٣) . وورد في رواية أخرى ان (حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الاسلمي) وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد ، كان هو الذي باعها من معاوية وكانت بيده . باعها بمئة ألف درهم (٤) . وكان قد اشتراها من (منصور بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار) (٥) . ودار الندوة ، هي أول دار بنيت بمكة على حد قول الرواة . وكانت اشهر

١ الزخرف ، الآية ٢٤ .

٢ البقرة ، الآية ١٧٠ .

٣ ابن الاثير ، الكامل (١٤/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٦٢/١٠ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (٧٧/١) ، (وعكرمة بن عامر بن هشام بن عبد الدار بن قصي) ، الاحكام السلطانية (ص ١٦٤) ، البلاذري ، انساب (٥٣/١) .

٤ ديوان حسان (٦٩) ، (البرفوقي) .

٥ نسب قرش (٢٥٤) .

دار بمكة وانشرها في الناس خبراً^١. ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه .
ويذكر اهل الاخبار : ان مكة لم تكن ذات منازل ، وكانت قريش بعد جُرْهُمَ
والعمالقة يندفعون جبالها وأوديتها ولا يخرجون من حرمها انتساباً الى الكعبة لاستيلائهم
عليها وتخصّصاً بالحرم لخلوهم فيه . ولما كان (كعب بن لؤي بن غالب) ،
جمع قريشاً صار يخطب فيها في كل (جمعة) ، وكان يوم الجمعة يسمى في
الجاهلية (عروبة) فسماه كعب (الجمعة) . وبذلك ألف بين قريش حتى جاء
(قصي) ففعل ما فعل^٢ .

ولدينا خبر آخر ، يذكر انه قد كان حول الحرم شجر ذو شوك ، نبت
من قديم الزمن وكون غُوطَة ، فقطعها (عبد مناف بن قصي) ، وهو أول
من بني داراً بمكة ، ولم تُبن دار قبلها ، بل كان بها مضارب للعرب من
الشعر الاسود^٣ .

وزعم بعض اهل الاخبار ان اهل مكة كانوا بنون بيوتهم مُدَوَّرَة تعظيماً
للكعبة ، وأول من بني بيتاً مربعاً (حُمَيْد بن زهير) ، فقالت قريش : (رُبِعَ
حُمَيْد بن زهير بيتاً) ، أما حياةً وأما موتاً^٤ . و (الربيع) : المنزل ودار
الإقامة والمحلة .^٥ وهو احد (بني أسد بن عبد العزى) . وان العرب تسمي
كل بيت مربع كعبة ، ومنه كعبة نجران .^٦ وُذكر ايضاً ان (حُمَيْد بن زهير
ابن الحارث بن اسد بن عبد العزى) ، هو اول من خالف سنة قريش وخرج
على عرف اهل مكة فبنى بيتاً مربعاً . وجعل له سقفاً . وفي عمله هذا قال الراجز :

اليوم بني لحُمَيْدٍ بيته أما حياته وأما موته^٧

وورد في رواية اخرى ، ان ثاني دار بنيت بمكة بعد دار التلوة ، هي (دار

- ١ الأحكام السلطانية (ص ١٦٣ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٦٤) .
- ٢ الأحكام السلطانية (ص ١٦٢ وما بعدها) .
- ٣ نزهة الجليس (٢٤/١) .
- ٤ نهاية الأرب (٣١٣/١) .
- ٥ اللسان (١٠٢/٨) .
- ٦ ابن رسته ، الاعلاق النعيسة (٥٨) .
- ٧ الثعالبى ، ثمار القلوب (١٣) ، مؤرج السدوسي ، حذف من نسب قريش (٥٤) ،
الزبير بن بكار ، نسب قريش (٤٤٣/١) ،
Kister, p. 126

العجلة) ، وهي دار سعيد بن سعد بن سهم . وزعم (بنو سهم) انها بنيت قبل (دار الندوة) ^١ .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن بيوت مكة ان بيوتها ، وهي بيوت أثريائها وساداتها ، بيوت كانت مقامة بالحجر ، وبها عدد من الغرف ، ولها بابان متقابلان باب يدخل منها الداخل وباب تقابلها يخرج منها الخارج ، ولعلها بنيت على هذا الوضع ليتمكن النساء من الخروج من الباب الأخرى عند وجود ضيوف في رحبة الدار عند الباب المقابلة . ومعنى هذا ان أمثال هذه الدور كانت واسعة تشرت على زقاقين . ولبعض الدور (حجر) عند باب البيت ، يجلس تحته ليستظل به من أشعة الشمس ، وكان منزل (خديجة) ذو حجر من هذا الطراز ^٢ .

ولو أخذنا بالرواية المتقدمة عن التغير الذي طرأ على طراز العمارة في مكة ، فإن ذلك يحملنا على القول : إنه يجب ان يكون قد حدث في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد . في وقت ليس ببعيد عهد عن أيام النبي . لأننا نجد ان أحد أبناء (حميد) ، وهو عبد الله) ، كان قد حارب في معركة (أحد) ^٣ .

ويتبين من غربة روايات الأخباريين المتقدمة عن مدى سعة الحرم وعن زمان بناء الدور بمكة ، ان بطن مكة لم يعمر ولم تبني البيوت المستقرة فيه إلا منذ أيام (قصي) . أما ما قبل ذلك ، فقد كان الناس يسكنون (الظواهر) : ظواهر مكة ، أي أطرافها وهي مواضع مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة . أما باطن مكة ، وهو الوادي الذي فيه البيت ، فقد كان حرمًا آمنًا ، لا بيوت فيه ، او ان بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت وبمن كانت له علاقة بخدمته . لذلك نبت فيه الشجر حتى غطي سطح الوادي ، من السيول التي كانت تسيل اليه من الجبال . ولم يكن في وسع أحد التطاول على ذلك الشجر ، لأنه شجر حرم آمن ، وبقي هذا شأنه يغطي الوادي ويكسو وجهه بغُوطه ، حتى جاء (قصي) . فتجاسر عليه بقطعه كما ذكرنا . وخاف الناس من فعله ، خشية

١ البلاذري ، فتوح (٦٤) .

٢ الطبري (٢٨٢/٢) ، (ذكر نزوح النبي) .

٣ Kister, P., 127

غضب رب البيت ، ونزول الأذى بهم إن قطعوه . فلما وجدوا ان الله لم يغضب عليهم ، وانه لم ينزل سوءاً بهم ، اقتفوا أثره ، فقطعوا الشجر ، واستحوذوا على الأرض الحرام ، وظهرت البيوت فيه ، وأخذت تتجه نحو البيت حتى أحاطت به ، وصغرت مسجده ، ولم يكن له يومئذ جدار . وظلت البيوت تتقرب اليه حتى ضايقته وصغرت فناءه : مما اضطر الخليفة (عمر) ومن جاء بعده الى هدم البيوت التي لاصقته لتوسيع مسجده ، ثم الى بناء جدار ليحيط به حتى صار على نحو ما هو عليه في هذا اليوم .

ويتبين من خطبة الرسول عام الفتح ويوم دخوله البيت الحرام وقوله : (لا يُختلى خلا مكة ولا يعصد شجرها)^١ ، ان حرم مكة كان لا يزال ذا شجر . ولم يكن قد قطع تماماً منه في أيام الرسول .

وتذكر بعض الموارد ان قصيصاً أول من بنى الكعبة بعد بناء تبع ، وكان سمكها قصيراً ، فنقضه ورفعها^٢ . وإذا صبحت الرواية ، يكون قصي من بناء الكعبة ومن مجددتها . وذكر انه كان أول من جدد بناء الكعبة من قريش ، وانه سقفاها بنخشب الدوم وجريد النخل . وقد أشير الى هذا البناء في شعر ينسب الى الأعشى^٣ . وهذه الرواية تناقض بالطبع ما يرويه الأخباريون من ان الكعبة لم تكن مسقفة ، وانها سقفت لأول مرة عندما جدد بناؤها في أيام شباب الرسول . وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة^٤ .

والظاهر من روايات الأخباريين ، ان البيت كان في الأصل بيتاً مسقوفاً ، غير انه أصيب بكوارث عديدة ، فتساقط وتساقط سقفه مراراً بسبب السيول ، وبسبب حريق أصيب به ، فصار من غير سقف في أيام شباب الرسول . حتى اذا ما نقضت قريش البيت وأعادت بناءه سقفته ، وزوقت جدره الداخلية والخارجية بالأصنام والصور . وأعادت اليه خزائنه حتى كان يوم الفتح ، إذ أمر الرسول

١ فتوح البلدان ، للبلاذري (ص ٥٥) .

٢ الاشتقاق (٩٧) ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٢٠٧/٢) .

٣ بلوغ الأرب (٢٣٢/١) .

حلفت بثوبي راهب الشام والتي لئن شب نيران العداوة بيننا ليرتلن منى على ظهر شيهم الأحكام السلطانية (١٦٠) .

٤ الأحكام السلطانية (١٦٠) ، الطبري (٢٨٣/٢) ، (دار المعارف) .

بتحطيم الأصنام وبطمس الصور على نحو ما سأحدث عنه في تأريخ الكعبة وذلك في القسم الخاص بأديان الجاهليين .

وفي روايات أهل الأخبار عن البيت - كما سئرى فيما بعد حين أتكلم عنه في هذا القسم الخاص بأديان أهل الجاهلية - غموض وتناقض ، يجعل من الصعب تكوين رأي واضح عنه . فبينما هم يقولون إنه كان من غير سقف وان الطيور كانت تقف عليه ، وان الأتربة المحملة بالأهوية كانت تتساقط في أرض البيت ، نراهم يذكرون انه كان مسقفاً ، وانه سقف بالخشب في أيام قصي وانه احترق ، ثم يقولون إنه كان في داخله أصنام قريش ، مع ان الوصف الذي يقدمونه لنا عن الكعبة من انها (كانت ضمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك ان نفرأ من قريش وغيرهم سرقوا كثر الكعبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة)^١ ، لا يمكن ان يجعل البيت سوى غرفة بسيطة ساذجة من أحجار رصت بعضها فوق بعض .

وفي رواية : ان قصياً هو أول من أظهر (الحجر الأسود) ، وكانت (إباد) دفنته في جبال مكة ، فرأته امرأة حين دفنوه ، فلم يزل (قصي) يتلطف بتلك المرأة حتى دلته على مكانه ، فأخرجه من الجبل ، واستمر عند جماعة من قريش يتوارثون حتى بنت قريش الكعبة فوضعه بركن البيت ، بإزاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي^٢ .

ويذكر ان قصياً بعد ان تمكن من مكة ، حفر بها بئراً سماها (العجول) وهي أول بئر حفرتها قريش^٣ . وكانت قريش قبل قصي تشرب من بئر حفرها لؤي بن غالب خارج مكة تدعى (اليسيرة) ومن حياض ومصانع على رؤوس الجبال . ومن بئر حفرها (امرأة بن كعب) مما يلي عرفة ، تدعى (الروى) ، ومن آبار حفرها (كلاب بن مرة) ، هي (خم) و (رم) و (الجفر)

١ الطبري (٢٨٣/٢) .

٢ نزهة الجليس (٢٦/١) ، البلاذري ، أنساب (٥١/١) ، نهاية الأرب (٣١/١٦) .

٣ ابن الأثير (٩/٢) ، البلاذري ، أنساب (٥١/١) .

بظاهر مكة^١ . فكانت (بئر العجول) أول بئر حفرتها قريش في مكة^٢ .

وازدادت حاجة أهل مكة ، بعد قصي وقد ترايد عددهم الى الماء ، ولم تعد (العجول) تكفي لتموينهم به ، فاقتفى أولاده أثره في حفر الآبار ، واعتبروا حفرها منقبة ومحمدة ، لما للماء من أهمية لأهل هذا الوادي الجاف . وقد حازت بئر زمزم على المقام الأول بين آبار مكة ، فهي بئر البيت وبئر الحجاج تمونهم بما يحتاجون اليه من ماء^٣ .

وذكر أهل الأخبار ان في جملة ما أحدثه قصي في أيامه وصار سنة لأهل الجاهلية ، انه أحدث وقود النار بالمزدلفة : حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة ، فلم تقل توقد تلك النار تلك الليلة في الجاهلية^٤ . ويظهر ان قريشاً حافظت على هذه السنة أمداً في الإسلام . وكانت تلك النار توقد على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان^٥ .

ويذكرون أيضاً ان في جملة ما أحدثه : (الرقادة) ، وهي إطعام الحجاج في أيام موسم الحج حتى يرجعوا الى بلادهم . وقد فرضها على قريش إذ قال لهم : (يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، بحيث يصلحوا عنكم) . ففعلت قريش ذلك ، فكانوا يخرجون في كل عام من أموالهم خرجاً ، فيدفعونه الى قصي ، لكي يصنعه طعاماً للناس أيام منى وبمكة وقد بقيت هذه السنة في الإسلام^٦ . وذكر ان (الرقادة شيء كانت

-
- ١ البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٦٠) ، (المكتبة التجارية) .
 - ٢ البلاذري ، فتوح (٦٠) ، وفيها قال بعض رُجَّاز الحجاج :
تروى على العجول ثم تنطلق ان قصيًّا قد وفى وقد صدق
بالشبع للناس وري مغنبق
 - ٣ البلاذري ، أنساب (٥١/١) ، (دار المعارف) .
 - ٤ البلاذري ، فتوح البلدان (ص ٦٠ وما بعدها) .
 - ٥ الطبري (٢٦٥/٢) ، ابن الأثير ، البداية (٢٠٧/٢) ، السويدي ، سبائك الذهب (١١٩) ، ابن سعد ، طبقات (٧٢/١) (بيروت) .
 - ٦ ابن سعد ، طبقات (٧٢/١) (صادر) .
 - ٦ ابن كثير ، البداية (٢٠٧/٢ وما بعدها) ، ابن خلدون (٦٩٣/٢) (بيروت) ، الطبري (١٩/٢) (الاستقامة) (٢٦٠/٢) (دار المعارف) ، ابن سعد ، الطبقات (٧٣/١) .

تترافد به قريش في الجاهلية ، فيستخرج فيما بينها كل انسان مالا بقدر طاقته وتشتري به للحاج طعاماً وزيباً للنيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج^١ .

وكانت الى قصي أيضاً : الحجابة ، والسقاية واللواء . فحاز شرف قريش كله^٢ . وصار رئيسها الوحيد المطاع ، الناطق باسمها الأمر والنهي ، إذ لا أحد أحكم وأعقل وأحسن إدارة للملك منه .

وذكر ان قصياً أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد اسماعيل ، وذلك في أيام المنذر بن النعمان ملك الحيرة ، وملك الفرس الساسانيين (بهرام جور)^٣ . وقد كان حكم (بهرام جور) من سنة (٤٢٠ م) حتى سنة (٤٣٨ م)^٤ ، أي في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد ، واذا أخذنا برواية من جعل قصياً من المعاصرين لهذا الملك ، يكون حكم قصي إذن في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد .

وقد نسب أهل الأخبار الى قصي أقوالاً وأمثالاً وحكماء وجعلوه غاية في الحكمة والمنطق . وروي (ان أمر قصي عند قريش ديناً يعملون به ولا يخالفونه)^٥ .

وقد ترك قصي أثراً كبيراً في أهل مكة ، وعدّوه المؤسس الحقيقي لكيان قريش . وكانوا يذكرون اسمه دائماً بخير . وكانوا لا يطيقون سماع أحد يستهين بشأنه . فلما تناول الشاعر (عبد الله بن الزبعرى) ، على ما جاء في بعض الروايات ، وتجاوز حسده بذكر قصي بسوء في شعر له ، كتبه كما يقولون في أستار الكعبة ، غضب بنو عبد مناف ، واستعدوا عليه (بني سهم) ، لأنه كان من (بني سهم) ، فأسلموه اليهم ، فضربوه وحلقوا شعره وربطوه الى

١ . ناج العروس (٣٥٥/٢) ، (رقد) .

٢ . ابن الأثير ، الكامل (١٣/٢) وما بعدها ، الأزرقى ، أخبار مكة (٦١/١) ، ابن كثير ، البداية والنهاية (٢٠٧/٢) .

٣ . بلوغ الأرب (٢٤٧/١) .

٤ . Ency., 4, P. 178.

٥ . أنساب الأشراف ، للبلاذري (٥٢/١) .

صخرة ، فاستغاث قومه ، فلم يغيثوه ، فجعل يمدح قصياً ويسترضيهم ، فأطلقه بنو عبد مناف وأكرموه ، فمدحهم بأشعار كثيرة^١ .

ولم نعثّر في نصوص المسند على اسم رجل يُدعى قصياً ، وإنما ورد في النصوص النبطية اسم علم لأشخاص . وهذا الاسم هو اسم صنم في الأصل ، بدليل ورود عبد قصي^٢ . أما حديث الأخباريين عن أصله وفصله ، فهو مما لا قيمة له . وقد ابتدعته مخيلتهم على الطريقة المألوفة في اختراع تفاسير لأسباب التسميات . والظاهر أن هذا الاسم من الأسماء التي كان يستعملها العرب النازلون في أعالي الحجاز ، وربما في بلاد الشام .

وفي جملة النصوص النبطية التي عثر عليها في (صلخد) اسم رجل عرف بـ (روح بن قصيو) (روح بن قصي) ، كما عثر على نص جاء فيه اسم (مليكو بن قصيو) (مالك بن قصي) ، وورد اسم (قصيو بن اكلبو) ، أي (قصي بن كلاب) . وقد تبين من هذه الكتابات أن المذكورين هم من أسرة واحدة ، وقد كانوا كهاناً أو سدة لمعبود من معابد (صلخد)^٣ . فقصي إذن من الأسماء الواردة عند النبط . والغريب أننا نرى بين قصي صلخد وقصي مكة اشتراكاً لا في الاسم وحده ، بل في المكانة أيضاً ، فلقصي صلخد مكانة دينية ، ولقصي مكة هذه المكانة أيضاً في مكة .

ويلاحظ أن الاسم الذي زعم الأخباريون أنه اسم قصي الأصلي الذي سُمّي به يوم ولد بمكة ، وهو (زيد) ، هو أيضاً اسم صنم . فقد نص أهل الأخبار على أن (زيداً) هو صنم من أصنام العرب^٤ .

ويذكر الأخباريون أنه كان لقصي أربعة أولاد ، ورووا قولاً زعموا أنه قاله . فقد ذكروا أنه قال : (ولد لي أربعة ، فسميت اثنين بصنمي ، وواحداً بداري ، وواحداً بنفسي) . وكان يقال لعبد مناف : القمر ، واسمه المغيرة ، وكانت أمه (حُبَيّ) دفعته إلى مناف ، وكان أعظم أصنام مكة ، تديناً

١ ابن هشام ، السيرة (١٤٣/١) .

٢ رينو دبسو : العرب في سوريا قبل الإسلام ، تعريب عبدالحميد الدواخلي ، (ص ١١٦) ، تاريخ العرب في الإسلام ، لجواد علي (٤٠/١) .

٣ الاشتقاق (١٣) .

بذلك ، فغلب عليه عبد مناف^١ . وأولاده هم : (عبد مناف) ، واسمه (المغيرة) ، وعبد الله ، وهو (عبد الدار) ، و (عبد العزى) ، و (عبد قصي) ، و (هند) بنت قصي ، تزوجها (عبد الله بن عمار الحضرمي)^٢ . ولما مات قصي ، دفن بالحجون ، وقد كانوا يزورون قبره ويعظمونه^٣ . والحجون جبل بأعلى مكة كان أهل مكة يدفنون موتاهم فيه^٤ . فعليه مقبرة جاهلية من مقابر مكة القديمة . وقد ذكر في شعر جاهلي^٥ .

وقد أنكر بعض المستشرقين وجود (قصي) ، وعدّوه شخصية خرافية من شخصيات الأساطير ، واستدلوا على ذلك بالأقاويل التي رواها ابن الكلبي وابن جريج عنه ، وهي ذات طابع قصصي^٦ . غير أن هذه المرويات لا يمكن أن تكون دليلاً قوياً وسنداً يستند إليه في إنكار وجود رجل اسمه قصي ، وإذا كان ما قيل عنه خرافة ، فلن تكون هذه الخرافة سبباً لإنكار وجود شخص قيلت عنه .

وقد ترك (قصي) جملة أولاد هم : عبد العزى وعبد الدار وعبد مناف وعبد بن قصي . وقد تكتل أبناء هؤلاء الأولاد وتحزبوا ، ونافسوا بعضهم بعضاً ، فنافس بنو عبد مناف بني عبد الدار ، وكونوا حلفاً فيما بينهم كان جماعته وأنصاره بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم والحارث بن فهر . وتراص بنو عبد الدار وجمعوا شملهم وشمل من انضم إليهم ، وكونوا جماعة معارضة تألفت من بني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي بن عامر بن لؤي ومخارب . وهم من (قريش الظواهر) . وقد عرف حلف (بني عبد مناف) بـ (حلف المطيبين)

- ١ الطبري (٢٥٤/٢) ، نهاية الأرب (٣٢/١٦) .
- ٢ البلاذري ، أنساب (٥٢/١) .
- ٣ ابن الأثير (٩/٢) ، (١٤/٢ وما بعدها) (المطبعة المنبرية) ، اليعقوبي (٢١٢/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٧٣/١) ، البلاذري ، أنساب (٥٢/١) ، نهاية الأرب (٣١/١٦) ، تاج العروس (٢١١/١٠) ، (صفا) .
- ٤ البلدان (٢٢٥/٢) .
- ٥ قال (عمرو بن الحارث بن مضاخ) ، أو الحارث الجُرهمي :
كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ، ولم يسمُر بمكة سامر
اللسان (١٠٩/١٣) ، تاج العروس (١٧١/٩) ، (حجن) .
- ٦ Ency., Vol., II, pp. 1158.

و ب (المطيون) ، وعرف بنو عبد الدار ب (الاحلاف) .

ولما ظهر الاسلام ، كان هذا النزاع العائلي على رئاسة مكة قائماً ، وقد تمثل في تنافس الأسر على الرئاسة . اشتهر بعضها بالثراء والغنى ، واشتهر بعضها بالوجاهة الدينية أو بالمكانة الاجتماعية .

ويلاحظ ان هذا النزاع لم يكن نزاعاً عائلياً تماماً ، قام على النسب الى الأب والجد بل كان نزاعاً على الرئاسة والسيادة في الغالب ، فنجد جماعة من عائلة تنضم الى العائلة الأخرى المنافسة ، وتترك عشيرتها ، لأن مصلحتها الخاصة وتخاصمها مع أحد أقربائها دفعها على اتخاذ ذلك الموقف .

ولما أسن قصي ، جعل لابنه (عبد الدار) على حدة رواية أهل الأخبار دار الندوة والحجبة أي حجابة الكعبة ، واللواء ، فكان يعقد لقريش ألويتهم ، والسقاية وهي سقاية الحاج ، و (الرفادة) ، وهي تخرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى قصي ليصنع به طعاماً للحاج يأكله الفقراء ، وكان قصي قد قال لقومه : (انكم جيران الله وأهل بيته ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شرباً وطعاماً أيام الحج ، حتى يصلروا عنكم) ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون من أموالهم ، فيصنع به الطعام أيام منى ، فجري ذلك من أمره على قومه في الجاهلية ، حتى قام الإسلام^١ .

ويذكر الأخباريون في تعليل إعطاء عبد الدار هذه الامتيازات ان عبد الدار كان ضعيفاً ، وان عبد مناف شقيقه كان قد ساد في حياة أبيه ، وكثر ماله ، فأراد قصي بذلك تقويته بهذه الامتيازات^٢ .

وقد توارث بنو عبد الدار اللواء ، فلا يعقد لقريش لواء الحرب الا هم . وهي وظيفة مهمة جداً ، لما للواء من أثر خطير في الحروب والمعارك في تلك الأيام . ولهذا كانوا يتدافعون في الذبّ عن اللواء ، حتى لا يسقط على الأرض بسقوط حامله ، وسقوطه معناه نكسة معنوية كبيرة تصيب المحاربين تحت ظل

١ الطبري (٢٥٩/٢ وما بعدها) ، ابن الأثير (١٠/٢ وما بعدها) ، اللسان

(١٨١/٣) ، تاج العروس (٣٥٥/٢) ، الأزرقى (٦١/١ وما بعدها) .

٢ ابن الأثير (٩/٢) ، سبب قريش ، للزبيرى (١٤) .

ذلك اللواء . ولما أسلم (بنو عبد الدار) ، قالوا : يا نبي الله ، اللواء إلينا . فقال النبي : الإسلام أوسع من ذلك . فبطل اللواء^١ .

ويذكر الأخباريون أن قصيًّا لما هلك ، قام (عبد مناف بن قصي) على أمر قصي بعده ، وأمر قريش إليه ، واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه^٢ .

ويذكر أهل الأخبار أن بني عبد مناف أجمعوا على أن يأخذوا من بني عبد الدار (الرفادة) و (السقاية) ، فأبى بنو عبد الدار ترك ما في أيديهم واصرروا على الاحتفاظ به ، ففترقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد الدار ، وطائفة مع بني عبد مناف ، وتحالف كل قوم مؤكداً ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعوها عند الكعبة ، وتحالفوا ، وجعلوا أيديهم في الطيب ، فسموا المطيبين . وتعاهد بنو عبد الدار ومن معهم ، وتحالفوا ، فسموا الأحلاف ، وتعبأوا للقتال ، ثم تداعوا إلى الصلح ، على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، فرضوا بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، واقتنعوا عليها ، فصارت لهاشم بن عبد مناف^٣ .

وأما الذين كوثوا حلف الأحلاف ولعقة الدم ، فهم : بنو مخزوم ، وبنو جمح ، وبنو سهم ، وبنو عدي بن كعب^٤ .

وقد خرجت من ذلك (بنو عامر بن لؤي) و (بنو محارب بن فهر) . فلم يكونوا مع واحد من الفريقين^٥ .

-
- ١ البلاذري ، أنساب (٥٤/١ وما بعدها) .
 - ٢ ابن سعد ، طبقات (٤٧/١) ، نهاية الأرب (٣٢/١٦) .
 - ٣ ابن الأثير (٩/٢) (٢٦٧/١) (المنبرية) ، (١٨٣/١) ، الطبري (١١/٨) (طبعة ليدن) اللسان (٤٠٠/١٠) ، ابن هشام (١٤٣/١) ، المعارف (٦٠٤) (دار الكتب) ، اليعقوبي (٢٨٧/١) (طبعة هوتسما) ، النبيل (١٨٠) ، (الصاوي) ، ابن كثير ، البداية (٢٠٩/٢) ، ابن خلدون ، (٦٩٤/٢) ، مروج (٥٩/٢) (السعادة) ، المحبر (١٦٦) ، ناج العروس (٧٥/٦) ، القاموس (٢٨٠/٣) ، ابن سعد ، طبقات (٧٧/١) .
 - ٤ البلاذري ، أنساب (٥٦/١) .
 - ٥ ابن سعد ، طبقات (٧٧/١) .

وتذكر بعض الروايات ان (آل عبد مناف) قد كثروا ، وقلّ (آل عبد الدار) ، فأرادوا انتزاع الحجابة من (بني عبد الدار) ، فاختلفت في ذلك قريش ، فكانت طائفة مع (بني عبد الدار) وطائفة مع (بني عبد مناف) ، فأخرجت (أم حكيم البيضاء) توأمة ابي رسول الله ، جفنة فيها طيب ، فوضعتها في الحجر ، فقالت : من كان منّا فليدخل يده في هذا الطيب . فأدخلت عبد مناف ايديها ، وبنو اسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو الحارث بن فهر ، فسمّوا المطيبين . فعدت بنو سهم بن عمرو ، فنحرت جزوراً ، وقالوا : من كان منّا ، فليدخل يده في هذه الجزور ، فأدخلت ايديها عبد الدار وسهم ، وجمح ، ومخزوم ، وعدي ، فسمّيت الاحلاف . وقام الاسود بن حارثة بن نضلة ، فأدخل يده في الدم ، ثم لعقها ، فلعلقت بنو عدي كلها بأيديها ، فسموا لعقة الدم .^١

وتذكر رواية ان (بني عبد مناف) اقرعوا على الرقادة والسقاية فصارتا الى (هاشم بن عبد مناف) ، ثم صارتا بعده الى (المطلب بن عبد مناف) بوصية ، ثم لعبد المطلب ، ثم للزبير بن عبد المطلب ، ثم لأبي طالب . ولم يكن له مال ، فاستدان من اخيه العباس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم ، فأنفقها ، فلما لم يتمكن من رد المبلغ تنازل عن الرقادة والسقاية الى (العباس) : وأبرأ ابا طالب مما له عليه .^٢

وتذكر رواية اخرى ، ان هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفل بني عبد مناف أجمعوا ان يأخذوا ما بأيدي (بني عبد الدار) مما كان قصي جعل الى (عبد الدار) من الحجابة واللواء والرقادة والسقاية والندوة ، ورأوا أنهم أحق بها منهم ، فأبت (بنو عبد الدار) ، فعقد كل قوم على امرهم حلفاً مؤكداً على الآ يتعاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً . وعرف حلف (بني عبد مناف) بحلف المطيبين وعرف حلف (بني عبد الدار) بحلف الاحلاف ولعقة الدم . ثم تداعوا الى الصلح ، على ان تكون الحجابة واللواء ودار الندوة الى بني عبد الدار ، وأن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرقادة .^٣ وولي هاشم بن عبد مناف السقاية

١ نسب قريش (٣٨٣) .

٢ البلاذري ، انساب (٥٧/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٧٧/١) .

والرفادة .^١ وتصرح بعض الروايات ، ان هاشما هو الذي قام بأمر بني عبد مناف ، ثم عامر بن هاشم .^٢

ومعنى هذا ان الحلفين المذكورين : حلف المطيبين وحلف (الاحلاف) ، انما عقدا في حياة (هاشم بن عبد مناف) ، اي قبل ميلاد الرسول . وأن حلف (لعقة الدم) هو نفسه حلف الاحلاف ، او من حلف الاحلاف ، عرف بهذه التسمية ، لأن (بني عدي بن كعب ، الذين حالفوا عبد الدار وانضموا اليهم ، لعقوا الدم ، فقليل لهم لعقة الدم ، تمييزاً لهم عن الذين لم يلحقوا الدم ، وهم الاحلاف .^٣ وذكر ان (بني عبد الدار) و (بني عدي) ، أدخلوا جميعاً أيديهم في ذلك الدم في الجفنة ، فسموا كلهم (لعقة الدم) بذلك .^٤

ولكننا نصطدم بروايات اخرى ، ترجع تأريخ حلف (لعقة الدم) الى ايام بنيان الكعبة ، الذي كان قبل المبعث بخمس سنين ، وعمر الرسول يومئذ خمس وثلاثون سنة . فهي تذكر ان اهل مكة لما وصلوا الى موضع الركن اختصموا في وضع الحجر الاسود ، حتى تجاوزوا وتحالفوا وتواعدوا على القتال ، (فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماء ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في الجفنة ، فسموا لعقة الدم بذلك) ،^٥ ثم اتفقوا على ان يجعلوا بينهم حكماً ، يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، على ان يكون اول من يدخل من باب المسجد ، فكان اول من دخل عليهم رسول الله . فحكم على نحو ما هو معروف .

كما نصطدم بروايات اخرى تذكر ان حلف المطيبين ، انما عرف بذلك ، لان خمس قبائل هي : بنو عبد مناف ، وبنو اسد ، وبنو تيم ، وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر ، لما ارادت بنو عبد مناف اخذ ما في ايدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية وأبت بنو عبد الدار تسليمها اياهم - اجتمع المذكورون في دار عبد الله بن جدعان ، وعقد كل قوم على امرهم حلفاً

١ ابن سعد ، طبقات (٧٨/١) .

٢ نهاية الأرب (٣٤/١٦) وما بعدها .

٣ البلاذري ، أنساب (٥٦ / ١) .

٤ الطبري (٢٨٩/٢) وما بعدها .

٥ الطبري (٢٩٠/٢) .

مؤكداً على التناصر وأن لا يتخاذلوا ، ثم اخرج لهم بنو عبد مناف جفنة ثم خلطوا فيها اطياباً وغمسوا ايديهم فيها وتعاقدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً فسُمّوا المطيبين . وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها وهم ست قبائل : عبد الدار وجميع ومخزوم وعدي وكعب وسهم حلفاً آخر مؤكداً ، فسُمّوا بذلك الاحلاف .^١ وقيل بل قدم رجل من بني زيد لمكة معتمراً ومعه تجارة اشترأها منه رجل سهمي فأبى ان يقضيه حقه فناداهم من أعلى ابي قبيس ، فقاموا وتحالفوا على انصافه ، وكان النبي من المطيبين لحضوره فيه ، وهو ابن خمس وعشرين سنة وكذلك ابو بكر . وكان عمر احلفاً لحضوره معهم .^٢

وقد وهم بعض اهل الاخبار فجعلوا حلف المطيبين هو حلف الفضول ، ويظهر انهم وقعوا في الخطأ من كون الذين دعوا الى عقد حلف الفضول وشهدوه هم من (المطيبين) ، فاشتبه الامر عليهم ، وظنوا ان الحلفين حلف واحد . وقد ردّ عليهم بعض اهل الاخبار ايضاً ، اذ ذكروا ان الرسول لم يدرك حلف المطيبين ، لانه كان وقع بين بني عبد مناف ، وهم هاشم واخوته ومن انضم اليهم ، وبين بني عمهم عبد الدار واحلافهم ، فقبل لهم الاحلاف ، قبل ان يولد الرسول .^٣ اما ان الحلفين قد عقدا في ايام (عبد الله بن جدعان) ، فخطأ ، فقد اجمع اهل الاخبار على ان بني عبد مناف كانوا يلون الرقادة والسقاية قبل هذا العهد ، وأن (هاشم) كان يليها في حياته ، وأما انها وقعا في ايام (هاشم) او في ايام ابنائه ، فان ذلك اقرب الى المنطق ، وذلك فيما اذا اخذنا برواية من يقول : ان (قصياً) اوصى بالرقادة والسقاية واللواء والحجابه ودار الندوة الى ابنه (عبد الدار) ، وحرّم بذلك ابنه (عبد مناف) من كل شيء ، بحجة انه كان غنياً ، وجيهاً وقد ساد في حياة ابيه ، فلا حاجة له به اليها ، فتأثر هاشم او ابنائه من ذلك ، فأجمعوا على انتزاعها من ايدي (بني عبد الدار) وحدث ما حدث ، وتولى هاشم الرقادة والسقاية على النحو المذكور .^٤

- ١ تاج العروس (٣٥٩/١ وما بعدها) ، العمدة (١٩٤/٢) ، البلاذري ، انساب (٥٦/١ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (٧٧/١) .
- ٢ تاج العروس (٣٦٠/١) .
- ٣ السيرة الحلبية (١٥٦/١) .
- ٤ (ولما صارت الرقادة والسقاية لهاشم ، كان يخرج من ماله كل سنة للرقادة مالا عظيماً) ، البلاذري ، انساب (٦٠/١) .

وهناك رواية أخرى رواها (اليعقوبي) ، تفيد ان قصيّا كان قد قسم السقاية والرفادة والرئاسة والدار بين ولده . فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف ، والدار لعبد الدار ، والرفادة لعبد العزّي ، وحافة الوادي لعبد قصي^١ . وأخذ كل ابن ما اعطاه والده له .

ويتبين من دراسة الروايات المختلفة الواردة عن الحلفين المذكورين ، انهما قد عقدا لاغراض اخرى لا صلة لها بالسقاية والرفادة ، وربما كانا قد عقدا قبل ايام هاشم ، بسبب نزاع وقع بين بطون قريش على الزعامة ، فتحربت تلك البطون وانقسمت على نفسها الى (مطيين) و (احلاف) ، وربما كان حلف لعقة الدم حلفاً آخر عقده (بنو عدي) فيما بينهم ، وهم الذين انحازوا الى الاحلاف ، ودخلوا معهم في حلف . خاصة ونجد (اليعقوبي) يشير الى حلف عقده (عبد مناف) بعد وفاة والده (قصي) مع (خزاعة) و (بني عبد مناة ابن كنانة) ، عرف بحلف (الاحايش) . وكان مدبر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف (عمرو بن هلال بن معيص) .^٢ مما يشير اذا صح هذا الخبر الى ان (بني مناف) او الذين انضموا اليهم ، كما يقول ذلك (اليعقوبي) ارادوا تقوية انفسهم وتكوين قوة مهابة بتأليف ذلك الحلف . وربما كان هذا الحلف موجهاً ضد (بني عبد الدار) مما دفع (بني عبد الدار) على جمع صفوفهم وتأليف حلف يهم ، للدفاع عن مصالحهم .

واسم هاشم على رواية الاخباريين (عمرو) وهو اكبر اولاد عبد مناف . وانما قيل له هاشم ، لانه اول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه . ذكر ان قومه من قريش ، كانت اصابتهم لزبة وقحط ، فرحل الى فلسطين ، فاشترى منها الدقيق ، فقدم به مكة ، فأمر به فخبز له ونحر جزوراً ، ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك.^٣ ويذكرون ان شاعراً من الشعراء ، هو مطرود بن كعب الخزاعي ،

١ اليعقوبي (٢١١/١) ، (طبعة النجف) .

٢ البعقوبي (٢١٢/١) .

٣ الطبري (٢٥١/٢ وما بعدها) ، اللسان (٦١١/١٢) ، العاموس (١٩٠/٤) ، الكامل لابن الأثير (٩/٢) .

او ابن الزبيرى ، ذكر ذلك في شعره حيث قال :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسنّتون عجاف^١

ويظهر من وصف الاخباريين لهاشم انه كان تاجراً ، له تجارة مع بلاد الشام ، وأنه جمع ثروة من تجارته هذه ، حتى زعموا انه هو اول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف .^٢

ويذكر اهل الاخبار ان هاشماً كان يُحْتَمَى اهل مكة على اكرام الحجاج وادفائهم وتقديم كل معونة لهم ، لانهم يأتون يعظّمون بيت الله ، ويزورونه ، وهم جيران بيت الله ، وقد أكرموا به ، وشرفوا بالبيت على سائر العرب ، فعليهم تقديم كل معونة للحجاج البيت . وكان يطلب منهم مساعدته باخراج ما يتمكنون من اخراجه من اموالهم يضعونه في دار الندوة ، ليخدم به الحجاج ، لانه لا يتمكن وحده من اكرامهم وتقديم الطعام من ماله وحده اليهم .^٣ فكان هاشم يخرج في كل عام مالاً كثيراً ، وكان قوم من قريش اهل يسار يترافدون . وكان كل انسان يرسل بمئة مثقال هرفلية ، فيجمع هاشم ما يتجمع ويصنع به طعاماً للحجاج .^٤ ولشح الماء في مكة ، واضطرار الناس الى جلبه من اماكن بعيدة ، فعل (هاشم) ما فعله قصي حين حفر بئراً على نحو ما ذكرت ، فحفر بئراً عرفت بـ (بذر) وهي البئر التي في حق (المقوم بن عبد المطلب) في ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة بالبطحاء في اصل المستنل . وحفر بئراً اخرى ، وهي البئر التي يقال لها بئر (جبير بن مطعم) ، ودخلت في (دار القوارير .^٥ فيسر بذلك لمكة الماء ، وساعد على اكثاره عندهم .

- ١ عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنون عجاف
الطبري (٢٥٢/٢) ، الاشتقاق (٩) ، أمالي الموصى (٢٦٩/٢) ، أخبار مكة ، للأزرقي (٦٧/١) ، ابن سعد ، طبقات (٧٦/١) ، نهاية الأرب (٣٣/١٦) .
- ٢ الطبري (٢٥٢/٢) (دار المعارف بمصر) .
وهو الذي سن الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الاصيف
البلاذري ، أنساب (٥٨/١) ، ابن سعد ، طبقات (٧٥/١) .
- ٣ النويري ، نهاية الأرب (٣٤/١٦) .
- ٤ ابن سعد ، الطبقات (٧٨/١) .
- ٥ ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١) ، الأزرقي ، أخبار مكة (٦٧/١) ، ناج العروس (٣٦/٣) ، (بدر) .

وأخذ (هاشم) عهداً على نفسه بأن يسقي الحجاج ويكفيهم بالماء ، "قربة" الى رب (البيت) ما دام حياً . فكان إذا حضر الحج ، يأمر بجياض من أدم ، فتجعل في موضع (زمزم) ، ثم تملأ بالماء من الآبار التي بمكة ، فيشرب منها الحاج . وكان يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ، وبمِني وعرفة ، وكان يترد لهم الخبز واللحم ، والخبز والسمن والسويق والتمر ، ويحمل لهم الماء ، فيستقون بمِني ، والماء يومئذ قليل في حياض الأدم الى ان يصدروا من (مِني) ، ثم تنقطع الضيافة ، ويتفرق الناس الى بلادهم^١ .

وموضوع السقاية موضوع غامض . فبينما نجد أهل الأخبار يفسرون السقاية بإسقاء المحتاجين من الحجاج بالماء مجاناً ، نجدهم يتحدثون عن السقاية على انها إسقاء الحجاج من الزبيب المنبوذ بالماء . وذكر ان العباس كان يليها في الجاهلية والإسلام^٢ .

وتحدث أهل الأخبار عن (سقاية) عرفت بـ (سقاية عدي) ، زعموا انها كانت بالمشرعين بين الصفا والمروة ، وان مطرود الخزاعي ذكرها حين قال :

وما النيل يأتي بالسفين يكفه بأجود سيباً من عدي بن نوفل
وأنبطت بين المشرعين سقاية لحجاج بيت الله أفضل منهـل

وذكر ان هذه السقاية ، كانت بسقاية اللبن والعسل^٣ .

ويظهر من وصف الأخباريين لهاشم انه كان تاجراً ، له تجارة مع بلاد الشام ، وانه جمع ثروة من تجارته هذه ، حتى زعموا انه هو أول من سنّ الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف^٤ . وانه كان صاحب (إيلاف قريش)^٥ .

١ ابن سعد ، الطبقات (٧٨/١) النوبري ، نهاية الأرب (٣٥/١٦) .

٢ ناج العروس (١٨١/١٠) ، (سقى) .

٣ نسب قريش (١٩٧) .

٤ الطبري (٢٥٢/٢) ، (دار المعارف بمصر) .

وهو الذي سنّ الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الأضياف

البلاذري ، أنساب (٥٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١) ، تفسير القرطبي

(٢٠٥/٢٠) ، (سورة قريش) .

نهاية الأرب (٣٣/١٦) .

وذلك ان قريشاً كانوا تجاراً ، ولكن تجارتهم - كما يقول أهل الأخبار - لم تكن تتجاوز مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها على من حولهم من العرب . فكانوا كذلك حتى ركب هاشم ابن عبد مناف الى الشام ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون . وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر ، فدعا به فلما رآه وكلمه ، أعجب به . فكان يبعث اليه في كل يوم ، فيدخل عليه ويحادثه فلما رأى نفسه تمكن عنده ، قال له : أيها الملك : إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندهم ، فهو أرخص عليكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم . فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بجي من العرب بطريقه الى مكة ، عقد معهم عقداً على ان تقدم قريش اليهم ما يرضيهم من بضائع وهدايا تؤلف بينهم وبين قريش ، فكان الإيلاف . فلما وصل الى مكة ، كان هذا الإيلاف أعظم ما جاء به هاشم الى قريش . فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوزهم يوفيههم لإيلافهم الذي أخذ من العرب حتى أوردتهم الشام ، وأحلهم قراها . فكان ذلك بدء إيلاف قريش^١ .

وذكر ان متجر (هاشم) كان الى بلاد الشام^٢ ، ويصل بتجارته الى (غزة) وناحيتها ، وربما توغل نحو الشمال ، حتى زعم بعض أهل الأخبار انه كان ربما بلغ (أنقرة) (فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه)^٣ . ويجب علينا ألا نتصور دائماً ان أي (قيصر) يرد ذكره في أخبار أهل الأخبار ، هو قيصر الروم حقاً ، بل هو أحد عماله في الغالب ، وأحد الموظفين الروم في بلاد الشام ، وربما كان أحد قادة الحدود . وربما أخذوا اسم (أنقرة) من قصة للشاعر امرؤ القيس ، فأدخلوها في قصة (هاشم) . فلم تكن (أنقرة) ، مقرأ

١ القالي ، ذيل الآمال والنوادر (ص ١٩٩) ، النعالي ، ثمار القلوب ، (٨/١ وما بعدها) ،

Caetani, Annali, I, 109. (90), M.J. Kister, p. 116

٢ المحبر (١٦٢) .

٣ ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٣/١٦) ، البلاذري ، أنساب (٥٨/١) .

للقياصرة إذ ذاك حتى يذهب هاشم إليها ليدخل على قيصر ويزوره فيها ، بل كانت (القسطنطينية) ، هي عاصمة البيزنطيين .

وقد فسر (الجاحظ) (الإيلاف) ، انه "جعل" فرضه هاشم على القبائل لحماية مكة من الصعاليك ومن المتطاولين ، إذ قال : (وقد فسّره قوم بغير ذلك . قالوا : ان هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الطوائل ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً . مثل طيء ونختم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب)^١ . فيفهم من ذلك إذن ان الإيلاف ، هو نوع من تأليف قلوب سادات القبائل ، لصدهم عن التحرش بأهل مكة ومن التعرض بقوافلهم ، فالفهم هاشم وصاروا له مثل (المؤلفة قلوبهم) في الإسلام . لا سيما وان بين الإيلاف و (ألف) (ألف بينهم) و (المؤلفة) صلة . وان فيما قاله (الجاحظ) عن (هاشم) من قوله : (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجعل لهم معه رجلاً)^٢ ، وبين تأليف القبائل صلة تامة ، تجعل تفسير الإيلاف على انه عهود ومواثيق مع سادات القبائل في مقابل اسهامهم بأموالهم وبمحاييتهم لقوافل قريش في مقابل ضرائب معينة تدفع لهم ، وسهاماً من الأرباح تؤدي لهم ، مع اعطائهم رؤوس اموالهم وما ربحته في الأسواق هو تفسير منطقي معقول . وبذلك كسبت قريش حياذ هذه القبائل ودفاعها عن مصالحها .

وقد تعرض (الثعالبي) لموضوع (إيلاف قريش) ، فقال : إيلاف قريش : كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد عليها من مكة في المواسم وبني المجاز وسوق عكاظ ، وفي الأشهر الحرام لا تبرح دارها ، ولا تتجاوز حرمةا ، للتحمس في دينهم ، والحب لحرمةهم ، والإلف لبيتهم ، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم ، وكانوا بواد غير ذي زرع ... فكان أول من خرج الى الشام ووفد الى الملوك وأبعد في السفر ومرّ بالأعداء ، وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله هاشم بن عبد مناف ، وكانت له رحلتان : رحلة في الشتاء نحو العباهلة من

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، (السندوبي) ، Kister, p. 143.

٢ رسائل (٧٠) ، (السندوبي) (٧٠) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .

ملوك اليمن ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم . وكا يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لحصلتين : إحداهما ان ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائف كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم ، والحصلة الأخرى ان اناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً ، كبني طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له . ومعنى الإيلاف انما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلًا مع إبله ليكفيهم مؤنة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤنة الأعداء ، فكان ذلك صلاحاً للفريقين ، إذ كان المقيم راجعاً ، والمسافر محفوظاً ، فأخصبت قريش ، وأتاه خير الشام واليمن والحبشة ، وحسنت حالها ، وطاب عيشها . ولما مات هاشم قام بذلك المطلب ، فلما مات المطلب قام بذلك عبد شمس ، فلما مات عبد شمس قام به نوفل ، وكان أصغرهم ^١ .

والى هذا الإيلاف أشير في شعر (مطرود الخزاعي) بقوله :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا حلت بآل عبد مناف
الآخذين العهد في إيلافهم والراجلين برحلة الإيلاف^٢

وعمل قريش هذا هو عمل حكيم ، بدّل وغير أسلوب تجارة مكة ، بأن جعل لها قوافل ضخمة تمر بأمن وبسلام في مختلف أنحاء الجزيرة جاءت اليها نتيجة لذلك بأرباح كبيرة ، ما كان في امكانها الحصول عليها ، لو بقيت تتاجر وفقاً لطريقتها القديمة ، من ارسالها قوافل صغيرة للمتاجرة مع مختلف الأسواق ، فكانت القافلة منها اذا سلبت ، عادت بأفدح الأضرار المادية على صاحبها أو على الأسرة التي أرسلتها ، وربما أنزلت الإفلاس والفقر بأصحابها ، بينما توسعت القافلة وفقاً للطريقة الجديدة بأن ساهم بأموالها كل من أراد المساهمة ، من غني أو صعلوك أو متوسط حال ، ومن سادات قبائل . وبذلك توسع الربح ، وعمت فائدته عدداً كبيراً من أهل مكة ، فرفع بذلك من مستواها الاجتماعي ، كما ضمن لقوافلها الأمن والسلامة ، وصير مكة مكاناً مقصوداً للأعراب .

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٥ وما بعدها) .

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٦) .

ويذكر أهل الاخبار أنه كان المطلب وهاشم وعبد شمس ، ولد عبد مناف من أمهم : (عاتكة بنت مرة السُّلمية) ، و (نوفل) من (واقدة) ، قد سادوا بعد أبيهم عبد مناف جميعاً ، وكان يقال لهم : (المجبرون) ، وصار لهم شأن وسلطان . فكانوا اول من أخذ لقريش (العيصم) ^١ ، اي (الحبال) ، ويراد بها العهود . أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر ، فاختلفوا بذلك السبب الى ارض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل حبلاً من الاكاسرة ، فاختلفوا بذلك السبب الى ارض العراق وأرض فارس ، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير ، فاختلفوا بذلك السبب الى اليمن ، فجبرت بهم قريش ، فسموا المجبرين . ^٢ حتى ضرب بهم المثل ، فقليل : أقرش من المجبرين . وأقرش الجمع والتجارة ، وأقرش التجمع . والمجبرون هم الاربعة المذكورون . ^٣

وفي رواية اخرى ان (المطلب) هو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجراها الى ارضه . وأن هاشم ، هو الذي عقد الحلف لقريش من (هرقل) لأن تختلف الى الشام آمنة . ولو اخذنا بهذه الرواية وجب ان يكون هاشم قد أدرك ايام (هرقل) (٦١٠ - ٦٤١) (Heracleous I) ، وهو امر غير ممكن . لأن معنى ذلك انه عاش في ايام الرسول وأدرك رسالته . ولا يهم ورود اسم (هرقل) في هذه الرواية ، فأهل الاخبار لا يميزون بين ملوك الروم ، ويذكرون اسم (هرقل) ، لانه حكم في ايام الرسول وفي ايام الخلفاء الراشدين الأول .

واذا صحت الرواية ، يكون (آل عبد مناف) ، قد احتكروا التجارة وصاروا من أعظم تجار مكة . وقد وزعوا التجارة فيما بينهم ، وأخصصوا كل بيت من بيوتهم الكبيرة بالتجار مع مكان من امكنة الاتجار المشهورة في ذلك العهد ، وأنهم تمكنوا بهذه السياسة من عقد عقود تجارية ومواثيق مع السلطات الاجنبية التي تاجروا معها لنيل حظوة عندها ، ولتسهيل معاملاتها التجارية ، فجنوا

-
- ١ العيصم ، بكسر ففتح .
 - ٢ الطبري (٢٥٢/٢) ، السعوي (٢٠٠/١) ، ذيل الامالي (ص ١٩٩) ، امالي المرتضى (٢٦٨/٢) .
 - ٣ مجمع الامثال (٧٢/٢) ، البلاذري ، انساب (٥٩/١) .

من هذه التجارة ارباحاً كبيرة .

فما كان في استطاعة (قريش) ارسال (غيرها) الى بلاد الشام او العراق او اليمن او العربية الجنوبية ، بغير رضا وموافقة سادات القبائل التي تمر قوافل قريش بأرضها ، ورضا هؤلاء السادات بالنسبة لقريش هو أهم جداً من رضا حكومات بلاد الشام او العراق او اليمن عن مجيء تجار مكة الى بلادها للتجارة في اسواقها ، فما الفائدة من موافقة حكومات تلك البلاد على مجيء تجار مكة للبيع والشراء في اسواقها ، ان لم يكن في وسع اولئك التجار تأمين وصول تجارتهم اليها ، او تأمين سلامة ما يشترونه من اسواقها لا يصله الى مكة او الى الاسواق الاخرى . لهذا كان من اهم ما فعله تجار مكة في هذا الباب ، هو عقدهم (حبلاً) و (عصماً) وعهوداً مع رؤساء القبائل ، لترضيهم بدفع جعالات معينة لهم او تقديم هدايا والطاقف مناسبة مغرية لهم ، او اشتراكهم معهم في تجارتهم . يقول الجاحظ في باب (فضل هاشم على عبد شمس) ، (وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ... وجعل لهم معه ربح) .^١ وبهذه العقود المتنوعة سيطر تجار قريش على الاعراب ، وحافظوا على اموالهم ، وحدّوا من شره فقراء ابناء البادية الى الغنائم . وصار في امكانهم الخروج بكل حرية من مكة ومن الاسواق القريبة منها بتجارتهم نحو الاماكن المذكورة بكل أمن وسلام . ولا كان البحث في هذا الموضوع ، هو في تأريخ مكة بصورة عامة ، لذلك فسأترك الكلام عن (الايلاف) الى الموضوع المناسب الخاص به ، وهو التجارة والاتجار ، وعندئذ سأتكلم عنه بما يتمم هذا الكلام العام .

ويذكر اهل الاخبار ان عبد شمس وهاشمًا توأمان ، وقد وقع بينهما تحاسد ، وانتقل هذا التحاسد الى ولد الاخوين ، حتى في الاسلام . وذكروا ان (أمية بن عبد شمس) حسد عمته هاشمًا ، وكان أمية ذا مال ، فدعا عمته الى المنافرة ، فرضي عمته بذلك مكرهاً ، على ان يتحاكما الى الكاهن (الخزاعي) ، فنفر هاشمًا عليه ، فأخذ هاشم الإبل التي نافر عليها من أمية ، فنحرها وأطعمها من حضره ، وخرج أمية الى الشام ، فأقام بها عشر سنين ، بحسب حكم الكاهن ، وكان هاشم قد نافر على الجلاء عن مكة عشر سنين .

١ الجاحظ ، رسائل (٧٠) ، السندوبي ،

فكانت هذه اول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .^١

ويذكر اهل الاخبار ان أمية بن عبد شمس كان من جملة من ذهب من رجال مكة الى (سيف بن ذي يزن) لتهنئته بانتصار اليمن على الحبش وطردهم لهم . وقد دخل عليه مع وفد مكة في (قصر غمدان) . وكان مثل ابيه عبد شمس حامل لواء قريش ، اي انه كان يحملها في الحرب .^٢

وكان هاشم اول من مات من ولد عبد مناف ، مات بغزة فعرفت بـ (غزة هاشم) ، وكان قد وفد بتجارة اليها فمات بها ، ومات عبد شمس بمكة ، فقبر بأجباد ، ثم مات نوفل بسلطان من طريق العراق ، ثم مات المطلب بردمان من ارض اليمن .^٣ ويتبين من ذلك ان جميع هؤلاء الاخوة ، ما خلا عبد شمس ، ماتوا في ارض غربية ، ماتوا تجاراً في تلك الديار .

وورد في رواية اخرى ، ان هاشماً خرج هو وعبد شمس الى الشام ، فماتا جميعاً بغزة في عام واحد . وبقي مالهما الى ان جاء الاسلام .^٤

وأجباد جبل مكة على رأي ، وموضع مرتفع في النرا غربي (الصفا) كما ورد ذلك في شعر للأعشى . ذكر ان (مضاضاً) ضرب في ذلك الموضع اجباد مائة رجل من العماقة ، فسمي الموضع بذلك (اجباد) .^٥

ويذكر الاخباريون : ان هاشماً كان قد خرج في غير لقريش فيها تجارات ، وكان طريقهم على المدينة ، فترلوا بـ (سوق النبط) ، فصادفوا سوقاً مقامة ، فباعوا واشتروا ، ونظروا الى امرأة على موضع مشرف من السوق تأمر بما يشتري ويبيع لها . وهي حازمة جلدة مع جبال ، فسأل هاشم عنها : أأتم هي ، أم

١ الطبري (٢٥٢/٢ وما بعدها) ، ابن الأثير ، الكامل (٩/٢) ، (الطباعة المنيرية) ، ابن سعد ، طبقات (٧٦/١) ، نهاية الأرب (٣٤/١٦) ، انسان العيون (٤٠/١) ، سيرة ابن دحلان (١٥/١ وما بعدها) .

٢ الاشتقاق (ص ١٠٣) ، دائرة المعارف الاسلاميه (٣٢٤/١) .

٣ الطبري (٢٥٤/٢) ، ابن الأثير (٧/٢) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (٨٣/١) ، ذيل الأمالي (ص ١٩٩) ، البلاذري ، أنساب (٦٣/١) ، ابن سعد ، طبقات (٧٩/١) .

٤ نهاية الأرب (٣٧/١٦) ، الكامل لابن الأثير (٤/٢ وما بعدها) ، الطبري (١٧٦/٢) .

٥ ناح العروس (٣٣٠/٢) ، (الجيد) .

ذات زوج ؟ فقيل له : آيم ، كانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها. حتى يشترطوا لها ان امرها بيدها : فاذا كرهت رجلاً ، فارقتة ، وهي (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لييد بن خلدش بن عامر بن غنيم بن عدي بن النجار) ، وهو (تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج) ، فخطبها فزوجته نفسها ، ودخل بها ، وصنع طعاماً ، دعا اليه من كان معه من اهل مكة ، ودعا من الخزرج رجلاً . وأقام بأصحابه اياماً ، وعلقت (سلمى) بعبد المطلب .^١ وكانت (سلمى) ، قد تزوجت من (أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحججبا الأوسي) ، وهو من المعروفين في قومه كذلك .^٢

ويذكر اهل الاخبار ، ان عمر هاشم لما توفي ، كان عشرون سنة ، ويقال خمساً وعشرين .^٣ وهو عمر قصير اذا قيس بما يذكره اهل الاخبار ويوردونه عنه من اتيار وأعمال ، اعمال لا تتناسب مع تلك السن .

ومن سادات مكة في هذه الايام (قيس بن عدي بن سهم) من بني هصيص ابن كعب) ، قد تكاثروا بمكة ، حتى كادوا يعدلون بعبد مناف . وهو الذي منع (عدي بن كعب) و (زهرة بن كلاب) من (بني عبد مناف) ، ومنع (بني عدي) ايضاً من (بني جمح) . وكان (عبد المطلب بن هاشم) ينفر ابنه (عبد المطلب) ، وهو صغير ، ويقول :

كأنه في العز قيس بن عدي في دار قيس يتلدى اهل الندى^٤

بما يدل ان صح ان هذا الشعر هو من شعر (عبد المطلب) حقاً ، على ان (عدياً) كان اعز رجال قريش في ايامه ، حتى ضربوا به المثل في العز . وأنه كان سيّد قومه : بنو سهم بن هصيص بن كعب . ومن ولد هاشم (عبد المطلب) ، وأمه من اهل يثرب من بني النجار فهي

١ ابن سعد ، الطبقات (٧٦/١) ، ابن هشام ، السيرة (١٤٤/١) ، نهاية الأرب (٣٦/١٦ وما بعدها) ، المحبر (ص ٣٩٨) ، الطبري (٢٤٦/٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٢ المحبر (ص ٤٥٦) ، البلاذري ، أنساب (٦٤/١) .

٣ البلاذري ، أنساب (٦٣/١) .

٤ نسب قريش (٤٠٠) .

نخزرجية تدعى (سلمى بنت عمرو بن زيد) على نحو ما ذكرت قبل قليل .
تزوجها هاشم في اثناء رحلة من رحلاته التي كان يقوم بها الى الشام للتجارة .
ولما مات هاشم بغزة ولدت سلمى (عبد المطلب) ، ومكث عند أخواله
سبع سنين ، ثم عاد الى قومه بمكة ، عاد به عمه (المطلب) . ولما كبر تولى
السقاية والرفادة وترعم قومه .

ويذكر أهل الأخبار ، ان هاشماً كان قد أوصى الى أخيه (المطلب) ، فبنو
هاشم وبنو المطلب يد واحدة . وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد^١ . ومعنى هذا
ان نزاعاً كان قد وقع بين أبناء هاشم وأبناء إخوته ، جعلهم ينقسمون الى فرقتين .
ويذكر أهل الأخبار ان اسم عبد المطلب ، هو (شيبة) . وقد عرف بين
الناس بعبد المطلب ، لان عمه (المطلب) لما حمّله من يثرب الى مكة ، كان
يقول للناس ، هذا عبدي ، أو عبدي لي ، فسُمّي من ثمّ بعبد المطلب ، وشاعت
بين قومه أهل مكة حتى طغت على اسمه . وقيل انه عرف بين أهل مكة بـ (شيبة
الحمد) لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له (الفياض) لجودة ، و (مطعم
طير السماء) و (مطعم الطير) لانه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في
رؤوس الجبال^٢ .

وقد كان (المطلب) عمّ (عبد المطلب) مثل سائر أفراد أسرته وأهل مكة
تاجراً ، فخرج الى أرض اليمن تاجراً ، فهلك بـ (ردمان) من اليمن^٣ .
وهم يروون انه كان مقرّع قريش في النواثب ، وملجأهم في الأمور ، وانه
كان من حلّاء قريش وحكّائهما ، ومن حرم الخمر على نفسه ، وهو أول من

١ ابن سعد ، طبقات (٧٩/١) .

٢ وفيه يقول حذافة بن غانم :

بنو شيبّة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر
(شيبّة الحمد لنور وجهه ، وذلك أنه كانت في ذؤابنه شعرة بيضاء حين ولد ،
فسمي شيبّة الحمد) ، الثعالبي ، ثمار العلوب (٩٧) ، الطبري (٢٤٧/٢) وما
بعدها (دار المعارف بمصر) ، الأصنام (٢٨) ، بلوغ الأرب (٣٢٤/١) ، ابن
حزم ، جوامع السير (٢/٢) ، البداية ، لابن كثير (٢٥٢/٢) ، السيرة الحلبية
(٢٢/١ وما بعدها) ، شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (٨١/١) ، ابن سعد ،
الطبقات (٨٣/١) .

٣ طبقات ابن سعد (٨٣/١) ، اليعقوبي (٢١٦/١) .

تحنث بغار حراء . والتحنث التعبد الليلي ذوات العدد . وكان اذا دخل شهر رمضان ، صعدته وأطعم المساكين ، وكان صعوده للتخلي من الناس ، ليتفكر في جلال الله وعظمته ^١ . وكان يعظم الظلم بمكة ، ويكثر الطواف بالبيت ^٢ .

وذكر انه كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وان وراء هذه الدار ، داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسيء باساءته . ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ، ووحّد الله . وروي : انه وضع سنناً جاء القرآن بأكثرها ، وجاءت السنة بها . منها : الوفاء بالنذر ، وتحريم الخمر والزنا ، وان لا يطوف بالبيت عريان ^٣ . وذكر انه كان أول من سنّ دية النفس مئة من الإبل ، وكانت الدية قبل ذلك عشراً من الإبل ، فجرت في قريش والعرب مئة من الإبل . وأقرها رسول الله على ما كانت عليه ^٤ .

ويذكرون ان قريشاً كانت اذا أصابها قحط شديد ، تأخذ بيد عبد المطلب ، فتخرج به الى جبل ثبير ، تستسقي المطر ^٥ .

وقد وقع خلاف بين عبد المطلب وعمه (نوفل) ، كان سببه ان نوفل بن عبد مناف ، وكان آخر من بقي من بني عبد مناف ، ظلم عبد المطلب على أركاح له ، وهي الساحات ، فلما أصر نوفل على انكاره حق عبد المطلب ، تدخل عقلاء قريش في الأمر على رواية أهل مكة ، أو أنحوال عبد المطلب ، وهم من أهل يثرب . فأكره (نوفل) على إنصاف عبد المطلب حتى عاد اليه حقه ^٦ .

ومن أهم أعمال (عبد المطلب) الخالدة الى اليوم (بئر زمزم) في المسجد الحرام ، على مقربة من البيت . وهي بئر يذكرون انها بئر اسماعيل ، وان جرهماً

١ السيرة الحلبية (٢٢/١ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، أنساب (٨٤/١) .

٣ السيرة الحلبية (٢٤/١ وما بعدها) .

٤ ابن أبي الحديد (٨٩/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٩/١) .

٥ السيرة الحلبية (٢٤/١ وما بعدها) .

٦ الطبري (٢٤٨/٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

دفتتها ، وانها تقع بين أساف ونائلة في موضع كانت قريش تنحر فيه . فلما حفرها (عبد المطلب) ، أقبل عليها الحجاج وتركوا سائر الآبار ^١ .

ويذكر أهل الأخبار ان عبد المطلب لما كشف عن بئر زمزم ، وجد فيها دفائن ، من ذلك غزالان من ذهب ، كانت جرهم دفتها ، وأسياف قلعية ، وأدراع سوابغ ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب أحد الغزالين صفائح من ذهب ، وجعل المفتاح والقفل من ذهب فكان أول ذهب حُلِّيته الكعبة ^٢ . وجعل الغزال الآخر في الجب الذي كان في الكعبة أمام هبل . وذكر ان قريشاً ارادت منعه من الحفر ، ولكنه أصر على ان يحفر حتى يصل الى موضع الماء ، وذلك بسبب رؤيا رآها ، عينت له المكان ، وأوحت اليه انه موضع بئر قديمة طمرت وعليه إعادة حفرها ^٣ .

ويذكر الأخباريون ، ان عبد المطلب ، لما حلى بالمال الذي خرج من بئر زمزم الكعبة ، جعله صفائح من ذهب على باب الكعبة . فكان أول ذهب حُلِّيته الكعبة ^٤ . وتذكر بعض الروايات ، ان ثلاثة نفر من قريش عدوا على هذا الذهب وسرقوه ^٥ . وتذكر رواياتهم انه ضرب الأسياف التي عثر عليها في البئر باباً للكعبة ، وضرب بالباب الغزالين من ذهب ^٦ .

ويظهر من وصف أهل الأخبار لما فعله (عبد المطلب) من ضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة ، ومن جعل المفتاح والقفل من ذهب ، أو من ضرب أحد الغزالين صفائح على الباب ، وجعل الغزال الآخر في الجب الذي كان أمام (هبل) أي الغيب ، ان الكعبة لم تكن على نحو ما يصفها أهل الأخبار من البساطة والسذاجة . بغير سقف وذات جدر ضمة بقدر قامة انسان . إذ لا يعقل

١ ابن الأثير (٥/٢ وما بعدها) ، الطبري (٢٤٧/٢) ، البلاذري ، أنساب (٧٨/١) .
٢ الطبري (٢٥١/٢) ، البداية (٢١٦/٢ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥) ، أخبار مكة (٢٨٢/١) ،
ابن الأثير (٧/٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٥/١) ، البلاذري ، أنساب (٧٨/١) .

٣ أخبار مكة (٢٨٤ وما بعدها) .

٤ اليعقوبي (٢١٨/١) ، الطبري (٢٥١/٢) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٥/١) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (٨٥/١) .

٦ سيرة ابن دحلان (٢٦/١) ، (حاشية على السيرة الحلبية) .

ان يضرب وجه باب الكعبة بالذهب وتوضع في داخلها تلك النفائس وهي على تلك الحالة ، اللهم إلا اذا شككنا في أمر هذه الروايات وذهبنا الى انها من نوع القصص الذي وضعه أهل الأخبار .

وقد طغى ماء (بئر زمزم) على مياه آبار مكة الأخرى . فهو أولاً ماء مقدس ، لانه في أرض مقدسة ، وفي المسجد الحرام ، ثم هو أغزر وأكثر كمية من مياه الآبار الأخرى ، وهو لا ينضب مهما استقى أصحاب الدلاء منه ، ثم انه ألطف مذاقاً من مياه آبار مكة الأخرى . وقد استفاد (عبد المطلب) من هذه البئر ، مادياً وأديباً ، وصارت ملكاً خالصة له ، على الرغم من محاولات زعماء مكة والمنافسين له مساهمتهم له في حق هذه البئر ، لانها في أرض الحرم ، والحرم حرم الله ، وهو مشاع بين كل أهل مكة . وصار يسقي الحجاج من هذه البئر ، وترك السقي من حياض الأدم التي كانت بمكة عند موضع بئر زمزم ، وصار يحمل الماء من زمزم الى عرقة فيسقي الحاج^١ .

وكان أبناء (قصي) قبل حفر بئر (زمزم) يأتون بالماء من خارج مكة — كما يقول أهل الأخبار — ثم يملأون بها حياضاً من أدم ويسقون الحجاج ، جروا بذلك على سنة (قصي) ، فلما حفرت بئر زمزم ، تركوا السقي بالحياض من المياه المستوردة من خارج مكة ، وأخذوا يسقونهم من ماء زمزم^٢ .

وقد كان عبد المطلب يزور اليمن بين الحين والحين ، فكان اذا وردھا نزل على عظيم من عظماء حمير . ويذكر أهل الأخبار ان أحد هؤلاء عكّم عبد المطلب صبغ الشعر ، وذلك بأن أمر به فحضب بحناء ، ثم عُلِيَّ بالوسمة ، وصار يصبغ شعره بمكة ، ونحضب أهل مكة بالسواد^٣ . ويذكر أهل الأخبار ايضاً انه اتصل بملوك اليمن ، وأخذ منهم إيلافاً لقومه ، بالاتجار مع اليمن . وكانت قريش تنظم عيراً الى اليمن في كل سنة^٤ .

-
- ١ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٣/١) ، سيرة ابن هشام (٨٩/١) ، أخبار مكة (٢٨٥ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٣٧/١) ، الروض الأنف (٩٧/١) .
 - ٢ ابن سعد ، الطبقات (٨٣/١) .
 - ٣ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٦/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٦/١) .
 - ٤ ذيل الأمالي (ص ١٩٩) .

ويذكر (المسعودي) ان (معديكرب) حينما ولي الملك باليمن ، أتته الوفود لتهنئته بالملك . وكان فيمن وفد عليه من زعماء العرب ، (عبد المطلب) ، و (خويلد بن أسد بن عبد العزى) وجد أمية بن أبي الصلت ، وقيل : أبو الصلت أبوه . فدخلوا عليه في قصره بمدينة صنعاء : قصر غمدان . ويذكر له ، كلاماً قاله عبد المطلب له ، وجواب (معديكرب) عليه . ويذكر أيضاً ان (عبد المطلب) كان فيمن وفد على (سيف بن ذي يزن) ليهنئته بطرد الحبش^١ .

ولم يكن عبد المطلب أغنى رجل في قريش ، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع كما كان قصي ، إذ كان في مكة رجال كانوا أكثر منه مالاً وسلطاناً . إنما كان وجيه قومه ، لانه كان يتولى السقاية والرفادة وبشر زمزم ، فهي وجهة ذات صلة بالبيت . وقد تكون صلته هذه ، هي التي جعلته يذهب الى أبرهة لمحدثه في شؤون مكة والبيت .

ويروي أهل الأخبار ان عبد المطلب كان قد نذر : لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ان يذبح أحدهم . فلما تكاملوا عشرة ، همّ بذبح أحدهم ، فضرب بالقداح فخرج القداح على عبد الله ، ولكن القوم منعه ، ثم أشاروا عليه بأن يرضي الله بنحر إبل فدية عنه ، وكان كلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مئة فخرج على الإبل . فنحراها بين الصفا والمروة . وختل بينها وبين كل من يريد لحمها من إنسي أو سبع أو طائر ، لا يذب عنها أحداً ، ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده شيئاً^٢ . وكان نحر الإبل قبل الفيل بخمس سنين^٣ . إذن فيكون ذلك حوالى سنة (٥٦٥) للميلاد .

وكان لعبد المطلب ماء بالطائف ، يقال له (ذو الهرم) وكان في أيدي ثقيف رديحاً ، ثم طلبه عبد المطلب منهم ، فأبوا عليه . وكان صاحب أمر

- ١ المسعودي ، مروج الذهب (١٠/٢ وما بعدها) ، (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) .
- ٢ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٨/١ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٨/١ وما بعدها) .
- ٣ البلاذري ، أنساب (٧٩/١) .

ثقيف : (جندب بن الحارث) فأبى عليه وخاصة فيه ، فدعاهما ذلك الى المنافرة الى الكاهن (العذري) ، وكان يقال له : (عزى سلمة) ، وكان ببلاد الشام ، وتنافرا على إبل ، وأتيا الكاهن ، فنفر عبد المطلب عليه ، فأخذ عبد المطلب الإبل فنحرها .^١

وقد نادم (عبد المطلب) على عادة اهل مكة جماعة من أقرانه ، لقد كانت عادتهم ان يجتمعوا مساءً فيتحدثوا او يشربوا ويأكلوا او يستمعوا الى غناء ، حتى يحل وقت النوم ، وكان ممن نادمهم عبد المطلب (حرب بن أمية) ، ثم اختلف معه ، ونافره عند (نقيل بن عبد العزى) جد (عمر بن الخطاب) ، فنفره على (حرب) ، فافترقا .^٢ وكان سبب افتراقه عنه ، إغلاظ (حرب) القول على يهودي^٣ كان جوار عبد المطلب .^٤ وتذكر رواية اخرى ان عبد المطلب و (حرب) ، تنافرا اولاً الى النجاشي الحبشي ، ولكنه أبى ان ينفر بينهما ، فذهبا الى نقيل . وأن (حرب بن أمية) غضب حين نفر عبد المطلب عليه ، وقال له : ان من انتكاس الزمان ان جعلناك حكاماً ، وصار نديماً لعبد الله ابن جدعان .^٤

وذكر (ابن الأثير) ان سبب افتراق (عبد المطلب) عن (حرب) ، كان بسبب جار عبد المطلب اليهودي ، واسمه (أذينة) ، وكان تاجراً وله مال كثير ، فغاظ ذلك (حرب بن أمية) ، فأغرى به فتیاناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله . فقتله (عامر بن عبد مناف) و (صخر بن عمرو بن كعب التيمي) ، فلم يعرف عبد المطلب قاتله ، فلم يزل يبحث حتى عرفها ، واذا هما قد استجارا بحرب بن أمية ، فأتى حرباً ولامه وطلبها منه ، فأخفاهما ، فتغالظا في القول حتى تنافرا الى النجاشي ملك الحبشة ، فلم يدخل بينهما ، وذهبا الى نقيل . وترك عبد المطلب منادمة حرب ، ونادم عبد الله بن جدعان ، وأخذ من

- ١ ابن سعد، طبقات (٥١/١ وما بعدها)، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة (٨٨/١)، ابن سعد، طبقات (٨٨/١) ، (دار صادر) .
- ٢ ابن سعد ، طبقات (٥١/١ وما بعدها) ، (٨٧/١) ، (صادر) .
- ٣ السيرة الحلبية (٢٥/١) ، البلاذري ، أنساب (٧٤/١) .
- ٤ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٧/١) ، ابن سعد ، الطبقات (٨٧/١) (صادر) .

حرب مئة ناقة ، فدفعها الى ابن عم اليهودي ، وارتجع ماله ، الا شيئاً هلك ، فغرمه من ماله .^١

وقد صاهر عبد المطلب ، رجال من أسر معروفة بمكة ، فصاهره (كُريز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) ، وكانت عنده (أم حكيم) ، وهي (البيضاء بنت عبد المطلب) . وصاهره (ابو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكانت عنده (عاتكة بنت عبد المطلب) ، و (عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكانت عنده (برة بنت عبد المطلب) . وناسبه (ابو رهم بن عبد العزى بن ابي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك ابن حسل بن عامر بن لؤي) ، خلف على (برة) بعد عبد الأسد . وصاهره (جحش بن رثاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة) ، وكانت عنده (اميمة بنت عبد المطلب) ، و (العوام ابن خويلد بن اسد بن عبد العزى) ، خلف على (صفية بعد عمير بن وهب) .^٢

ويذكر ان (عبد المطلب) ، كان يفرش له في ظل الكعبة ، ويجلس بنوه حول فراشه الى خروجه ، فاذا خرج ، قاموا على رأسه مع عبيده ، اجلالاً له .^٣ وكانت عادة سادة مكة - تمضية اوقاتهم في مسجد الكعبة ، حيث يجلسون في ظل الكعبة او في فنائها . يتحدثون ويتسامرون ، ثم يذهبون الى بيوتهم .-

وفي ايام عبد المطلب كانت حملة (أبرهة) على مكة . وقد اרכת قريش بوقوعها ، وصيرت الحملة مبدءاً لتأريخ ، لأهميتها بالنسبة لمكة . وقد تركت اثراً كبيراً في نفوس قريش ، بدليل تذكير القرآن لهم بما حلّ بـ (اصحاب الفيل) ،^٤ على نحو ما تحدثت عنه في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

وقد رأينا ان (عبد المطلب) وقد اشار على قومه بالتحرز بشعاب الجبال ،

-
- ١ الكامل (٨/٢ وما بعدها) .
 - ٢ المحبر (ص ٦٢ وما بعدها) ، ابن سعد ، (٢٧/٨ وما بعدها) .
 - ٣ البلاذري ، أنساب (٨١/١) .
 - ٤ الفيل ، رقم ١٠٥ ، الآية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (٢٩٩/٣٠) ، تفسير ابن كثير (٥٤٩/٤) ، الأزرقي (٨٥/١) ، مروج الذهب (٧١/٢) ، الكامل ، لابن الأثير (٢٦٠/١) ، البداية (١٧٠/٢ ، ١٤٥) ، الملل والنحل (٢٧٩/٣) .

وبترك البيت وشأنه لأن البيت ربّاً يحميه ، وبعدم التحرش بالحيش وتركهم وشأنهم . والظاهر انه وجد ان عدد الاحباش كان كبيراً وان من غير الممكن مقاومتهم والذبّ عن مكة في الوادي . ثم انها حرم آمن ، لا يجوز القتال فيه ، وليس فيها حصون وآطام يُتَحَصَّن بها ، لهذا رأى الرحيل عن الوادي والاحتفاء برؤوس الجبال ، والاشراف منها على الدروب والطرق ، فذلك اتفق واحمى للمال وللنفس . ثم ان من الممكن مباغطة الحيش منها ومهاجمتهم وانزال خسائر بهم حين يشاؤون ويقررون ، على حين تكون القوة والمنعة في ايدي الاحباش لو حصروا انفسهم بمكة ، اذ يكونون في منخفض بينا العدو على شرف يشرف عليهم ، وليس في امكانهم مقاومته ، وليس لهم حصون ولا مواضع دفاع . فتكون الغلبة لأبرهة حتماً ، وقد مجتت فكرة عبد المطلب ، ولم يُصب اهل مكة بسوء .

وقد كان من عادة اهل مكة ، انهم اذا داهمهم الخطر توقّلوا الجبال واعتصموا بها ، ولما حاصرهم الرسول عام الفتح ، هرب اكثرهم واعتصموا برؤوس الجبال ، اذ ليس في امكانهم الحرب والصمود في البطحاء .^١

ومات (عبد المطلب) بعد ان جاوز الثمانين . مات في ملك (هرمز بن أنو شروان) ، وعلى الحيرة قابوس بن المنذر ، أخو (عمرو بن المنذر) على رواية ، وعمر الرسول ثمان سنين . ومعنى ذلك انه توفي في حوالي السنة (٥٧٨) للميلاد . ولما حمل على سريره ، جزّت نساء (بني عبد مناف) شعورهن ، وشق بعض الاولاد قمصانهم حزناً على وفاته . ودفن بالحجون .^٢ وذكر انه لم يقم بمكة سوق اياماً كثيرة لوفاة عبد المطلب .^٣

وذكر ان عبد المطلب كان اول من تحنث بحراء ، وكان اذا أهلّ هلال شهر رمضان ، دخل بحراء فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر ، ويطعم المساكين . وكان يعظم الظلم بمكة ويكثر الطواف بالبيت .^٤

ومن ولد عبد المطلب : عبد الله وهو والد الرسول ، وأبو طالب ، واسمه

١ البلاذري ، انساب (٣٥٥/١) .

٢ البلاذري ، انساب (٨٤/١) وما بعدها .

٣ البلاذري ، انساب (٨٧/١) .

٤ البلاذري ، انساب (٨٤/١) .

عبد مناف ، والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة ، وبرّة وأميمة ^١ وعدة ولده
اثنا عشر رجلاً وست نسوة ^٢ .

ولم يكن ولد عبد المطلب من رجال مكة الأثرياء ، وكل ما كان عندهم
ثراء روحي ، استمدوه من اسم (قصي) وهاشم . فكانوا من وجهاء مكة من
هذه الناحية . اما من ناحية المادة والمال ، فلم يكونوا من السباقين فيه . لقد
كانوا وسطا ، وربما كانوا دون اوساط تجار مكة . مات (عبد الله) ، ولم
يخلف لأهله شيئاً ، ومات ابو طالب ، وحالته المالية ليست على ما يرام . لقد
كانوا تجاراً يخرجون بتجارتهم على عادة فيهم الى بلاد الشام ، او الى اليمن
فيبيعون ويشتررون ، ولكنهم على ما يبدو من الاخبار لم يتمكنوا من جمع ثروة
تغنيهم وتجعلهم من اغنياء مكة . وقد تُوُفِّيَ (عبد الله) وهو في طريقه من
(غزة) الى مكة ، وكان قد اقبل بتجارة له ، فترل بالمدينة وهو مريض ،
وتوفي هناك ^٣ . وأن (عبد المطلب) بعث اليه (الزبير بن عبد المطلب) اخاه ،
ودفن في دار النابتة ^٤ . وأنه ترك عند وفاته (أم أيمن) ، حاضنة الرسول ،
وكان يُسميها : (أمي) ، فأعتقها وخمسة اجمال أوارك ، وقطعة غنم ، وسيفاً
مأثوراً ، وورقا ^٥ .

وخرج (ابو طالب) بتجارة له في (عبر قريش) ولكنه لم يتمكن من
كسب شيء يريحه ويسعده من كل تجاراته . وآية ذلك ان الرسول اخذ منه ابنه
(علياً) ، ليخفف عنه مشقة الاتفاق على ولده ، وأخذ (العباس) (جعفرأ)
منه لينفق عليه . ووضع مثل هذا لا يدل على يسر ^٦ . وكانت له مع فقره هذا
وجاهة عند اهله وقومه . قيل : (لم يسد من قريش مِمِّق الا عتبة وأبو طالب ،
فانها سادا بغير مال) ^٧ . وقال (علي) في والده : (ابي ساد فقيراً وما

- ١ الطبري (٢٣٩/٢) (دار المعارف) ،
- ٢ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٨٩/١) .
- ٣ الطبري (٢٤٦/٢) (دار المعارف) ، البلاذري ، انساب (٩٢/١) ، ويقال كان
عبد المطلب بعثه الى المدينة يمسار له نمرا . ويقال : بل اتاهم زائراً لهم ، ويقال
بل قدم من غزة بتجارة له .
- ٤ البلاذري ، انساب (٩٢/١) ، ابن سعد ، طبقات (٩٩/١) .
- ٥ البلاذري ، انساب (٩٦/١) .
- ٦ ابن الأثير ، الكامل (٣٧/٢) (المنيرية) الطبري (٢١٣/٢) (الحسينية)
- ٧ السهيلي الروص الانف (١٢١/١) .

ساد فقير غيره ^١ . وذكر ان عياله كانوا في ضيقة وخدة . لا يكادون يشبعون لقلة ما عندهم ^٢ .

وعتبة بن ربيعة ، هو أبو هند زوج (أبي سفيان) ، وهي أم معاوية . ويذكر أهل الأخبار أيضاً : (ساد عتبة بن أبي ربيعة وأبو طالب ، وكانا أفلس من أبي المزلق . وهو رجل من بني عبد شمس ، لم يكن يجد مؤنة ليلته ، وكذا أبوه وجدته وجدته كلهم يعرفون بالافلاس) ^٣ .

ويظهر ان (عبد شمس) و (نوفل) و (مخزوم) ، كانوا قد تمكنوا من منافسة (عبد المطلب) و (آل هاشم) على التجارة ، ومن انتزاع تجارة بلاد الشام منهم ، ومن مزاحمتهم في الاتجار مع اليمن والعراق ، حتى حصلوا على ثراء طائل ، صيرهم من أغنى رجال مكة ، وجعل لهم التفوق على البلد ، حتى صار رجال من (بني مخزوم) من أغنى رجال مكة . وكذلك رجال من (عبد شمس) . وتعدّ (أيام الفجار) من الحوادث المؤثرة في تأريخ مكة . وهي أفجرة . وانما سميت بذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم ، ومن أهمها (فجار البراض) ، نسبت الى (البراض بن قيس) الذي قتل (عروة الرحّال) (عروة بن عتبة الرحّال) ، الى جانب (فلك) بأرض يقال لها (أواره) ، فأهاج مقتله الحرب بين (قريش) ومن معها من (كنانة) وبين (قيس عيلان) ، وكانت الدبرة على (قيس) ^٤ . وذكر في رواية أخرى ، ان الفجارات الأربعة : فجار الرجل ، أو فجار بدر بن معشر الغفاري ، وهو الفجار الأول ، وفجار القرد ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو فجار البراض ^٥ . وان يوم (البراض) أو يوم نخلة ، هو أعظم أيام الفجار ، وكان البراض قد قدم بالطيمة الى مكة ، فأكلها ، وهي لطيمة (النعمان بن المنذر) ، التي وضع (النعمان) زمامها بيد (عروة بن عتبة الرحّال) ، وكان يُسمي الرّحال لرحلته الى الملوك . فكان ذلك ممّا أهاج

- ١ اليعقوبي (٩/٢) .
- ٢ البلاذري ، أنساب (٩٦/١) .
- ٣ السيرة الحلبية (١٥٣/١) .
- ٤ ناج العروس (٤٦٥/٣) ، (فجر) ، عن حروب الفجار ، العمدة (٢١٨/٢) وما بعدها .
- ٥ المسعودي ، مروج (٢٧١/٢) ، ناج العروس (٤٦٥/٣) .

الحرب . وقد رأس قريش : حرب بن أمية ، وكان موضعه في القلب ، وعبد الله ابن جدعان في إحدى المجنبتين ، وهشام بن المغيرة في الأخرى ، فالتقوا ب (نخله) ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجنَّ عليهم الليل . فكان اليوم لهوازن^١ .

وذكر ان هذا اليوم قد وقع بعد عشرين سنة من عام الفيل . وقد شهدته الرسول وعمره عشرون سنة .

ثم إن قريشاً وبني كنانة لقوا هوازن بشمطة . وعلى بني هاشم : الزبير بن عبد المطلب ، وعلى بني عبد شمس وأحلافها : حرب بن أمية ، وعلى بني عبد الدار وحلفائها : عكرمة بن هاشم ، وعلى بني أسد بن عبد العزى : خويلد بن أسد ، وعلى بني زهرة : مخزوم بن نوفل ، وعلى بني تيم : عبد الله بن جدعان ، وعلى بني مخزوم : هاشم بن المغيرة ، وعلى بني سهم : العاص بن وائل ، وعلى بني جمح : أمية بن خلف ، وعلى بني عدي : زيد بن عمرو بن نفيل ، وعلى بني عامر بن لؤي : عمرو بن شمس ، وعلى بني فهر : عبد الله بن الجراح ، وعلى بني بكر : بلعاء بن قيس ، وعلى الأحابيش : الحليس الكناني ، فالتقوا أول النهار على هوازن ، فصبروا . ثم استحر القتل في قريش ، وانهزم الناس^٢ .

وروي ان (البراض بن قيس) لقي (بشر بن أبي خازم) الأسدي الشاعر ، فأخبره الخبر ، وأمر ان يعلم ذلك (عبد الله بن جدعان) و (هشام ابن المغيرة) ، و (حرب بن أمية) و (نوفل بن معاوية الديلي) و (بلعاء ابن قيس) ، فوافي (عكاظا) ، فأخبرهم فخرجوا الى الحرم ، وبلغ (قيساً) الخبر ، فخرجوا في آثارهم فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، ولم تقم في تلك السنة (عكاظ) . ومكثت (قريش) وغيرها من (كنانة) و (أسد) بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش ، وهم الحارث بن عبد مناة وعضل والقارة وديش والمصطلق من خزاعة لحلفهم بالحارث بن عبد مناة ، سنة يتأهبون للحرب ، لانذار (قيس) لها . وتأهبت (قيس عيلان) وسارت على (قريش) ، وكان فيها (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) ، و (سبيع بن ربيعة بن معاوية

١ البلاذري ، أنساب (١/٢٣ ، ١٠١ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١/١٥٢) .

٢ البلاذري ، أنساب (١/١٠٢ وما بعدها) .

النصري) و (دريد بن الصمة) ، و (مسعود بن معتب الثقفي) و (أبو عروة بن مسعود) و (عوف بن أبي حارثة المرّي) و (عباس بن رعل السلمي) . واستعدت (قريش) ورؤساؤها (عبد الله بن جدعان) ، و (هشام ابن المغيرة) ، و (حرب بن أمية) و (أبو أحيحة سعيد بن العاص) ، و (عتبة بن ربيعة) ، و (العاص بن وائل) ، و (معمر بن حبيب الجمحي) ، و (عكرمة بن هاشم) ، وخرجوا متساندين . ويقال بل أمرهم الى عبد الله بن جدعان . فالتقوا فكانت الدبرة أول النهار لقيس على قريش وكنانة ومن ضوى اليهم ، ثم صارت الدبرة آخر النهر لقريش وكنانة على قيس ، فقتلهم قتلاً ذريعاً . فاصطلحوا على ان عَدّوا القتلى ، وودت قريش لقيس ما قتلت فضلاً عن قتلاهم ، وانتهت الحرب . وقد شهد الرسول هذه الفجار ، ورمى فيها بسهم ، فكان يوم حضر ابن عشرين سنة ، وكان الفجار بعد القيل بعشرين سنة^١ .

وأغلب حروب الفجار معارك ومناوشات ، ولم تكن حروباً بالمعنى المفهوم من كلمة (حرب) . اما أهميتها وسبب اشتهاها فلولوعها في شهور حرم ولخروج المتحاربين فيها على سنة قريش ودينهم في تحريم القتال في هذه الشهور . ولهذا السبب حفظ ذكرها وجاء خبرها في كتب أهل الأخبار . وقد كان النصر فيها على كنانة وقريش في الغالب . وهو شيء مفهوم معقول . فقد كانت (قيس عيلان) كما كانت (هوازن) قبائل محاربة تعيش على الغزو والقتال ، بينما كانت (قريش) قبيلة مستقرة اتخذت التجارة لها رزقاً ، كما عاشت على الأرباح التي تجنيها من مجيء الأعراب اليها في مواسم الحج أو أيام العمرة ومن الامتياز من أسواقها . وقوم هذا شأنهم في حياتهم وفي تعاملهم لا يمكن ان يميلوا الى الغزو والقتال ، بل كانوا يحبون حياة السلم والاستقرار ، يشترون السلم ولو عن طريق ترضية الأعراب بتقديم الأموال لهم والهدايا والهبات . لذلك لم يصر رجالها رجال حروب وقتال ، بل صاروا رجال سياسة ومساومة ومفاوضات تنتهي بنتائج طيبة بالنسبة لهم ، لا يمكن ان يحصلوا عليها من القتال .

وقد رأس (الزبير بن عبد المطلب) بني هاشم ، غير ان رئاسته هذه

١ ابن سعد ، طبقات (١٢٨/١) ، السيرة الحلبية (١٥٢/١) .

لم تكن متينة وقد كان في جملة من شهد (حلف الفضول) في دار (عبد الله ابن جدعان)^١ . كما رأس (بني هاشم) في حرب الفجار^٢ . وذكر انه كان نديماً للمالك بن عُميلة بن السباق بن عبد الدار^٣ . وقد تاجر الزبير مع بلاد الشام إلا انه لم ينجح في تجارته على ما ظهر ، بدليل انه لم يكن موسراً . وذكر انه كان أحد حكام العرب الذين يتحاكمون اليهم^٤ .

وحلف الفضول من الأحداث المهمة التي يذكرها أهل السير والأخبار في تاريخ مكة . وإذا صح ما يذكرونه من انه عقد بعد الفجار بشهور ، وفي السنة التي وقع فيها الفجار الذي حضره الرسول ، ومن ان الرسول حضره وهو ابن عشرين سنة ، فيجب ان يكون عقد هذا الحلف قد تم في حوالي السنة (٥٩٠) للميلاد^٥ . ويذكر ان الذي دعا اليه هو الزبير بن عبد المطلب^٦ .

وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم وذكر انهم تعاهدوا على ان يكونوا مع المظلوم حتى يؤدي اليه حقه ، وفي التآسي في المعاش . وقد عقد منصرف قريش من الفجار وكان الفجار في شوال وعقد الحلف في ذي العقدة^٧ . وذكر ايضاً انهم (تحالفوا ألا يُظلم أحد بمكة إلا قاموا معه حتى ترد ظلامته) . وقد ذكره الشاعر (نبيه بن الحجاج السهمي)^٨ . وليس لأهل الأخبار رأي ثابت عن سبب تسمية هذا الحلف بحلف الفضول . فذكر بعضهم انه سُمي بذلك لانهم تحالفوا ان يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه . وقيل : سُمي به تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي والغريب من القاطن . وسُمي حلف الفضول ، لانه قام به رجال

- ١ المحبر (ص ١٦٧) .
- ٢ المحبر (ص ١٦٩) .
- ٣ المحبر (ص ١٧٦) .
- ٤ البلاذري ، أنساب (٨٨/١) .
- ٥ ابن سعد ، طبقات (١٢٨/١) وما بعدها .
- ٦ السيرة الحلبية (١٥٣/١) وما بعدها .
- ٧ ابن سعد ، طبقات (١٢٨/١) وما بعدها .
- ٨ نسب قريش ، (٢٩١) ، الأغاني (٦٤/١٦) .

من جرهم كلهم يسمى الفضل ، فقليل حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء^١ . وذكر انه سُمِّي حلف الفضول ، لأن قريشاً قالت : هذا فضول من الحلف ، فسمي حلف الفضول^٢ . وقيل لأن قريشاً تعاهدوا فيما بينهم على (مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم)^٣ . وهو في بعض الروايات تحالف ثلاثة من الفضلين على ألا يروا ظملاً بمكة إلا غيروه . وأسماءهم : الفضل بن شراعة ، والفضل بن قضاعة ، والفضل بن نصاعة . فسُمِّي من ثم باسمهم : حلف الفضول^٤ .

وذكر أكثر أهل الأخبار ، ان الغاية التي أريد بها منه ، هي إنصاف المظلومين من أهل مكة ، من الضعفاء والمساكين ومن لا يجد له عوناً ليحميه ويدافع عن حقوقه ، وإنصاف الغرباء الوافدين على مكة من حجاج أو تجار ، ممن يعتدي عليهم فيأخذ أموالهم أخذاً ويأكلها ولا يدفع لأصحابها عنها شيئاً . فذكر ان رجلاً من (زيد) من اليمن ، وكان باع سلعة له (العاص بن وائل السهمي) ، فطله الثمن حتى يشس ، فعلا جبل (أبي قيس) ، وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى رافعاً صوته يشكو ظلامته ، ويطلب انصافه مستجيراً بقريش ، فشت قريش بعضها الى بعض ، وكان أول من سعى في ذلك (الزبير بن عبد المطلب) ، واجتمعت في (دار الندوة) ، وكان ممن اجتمع بها من (قريش) (بنو هاشم) و (بنو المطلب) و (زهرة) و (تميم) و (بنو الحارث) ، فاتفقوا على انهم ينصفون المظلوم من الظالم ، فساروا الى دار عبد الله بن جدعان ، فتحالفوا هنالك^٥ .

وذكر ان رجلاً من (بني أسد بن خزيمه) جاء بتجارة فاشتراها رجل من (بني سهم) ، فأخذها السهمي وأبى ان يعطيه الثمن ، فكلتم قريشاً وسألها اعانته على أخذ حقه ، فلم يأخذ له أحد بحقه ، فصعد الأسدي (أبا قيس) ،

- ١ تاج العروس (٦٣/٨) .
- ٢ اليعقوبي (١٤/٢) ، (طبعة النجف) .
- ٣ Klster, p. 124.
- ٤ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٤) .
- ٥ مروج الذهب (٢٧٠/٢ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (١٥٦/١ وما بعدها) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٤٠) .

وصرخ بشعر يشكو فيه ظلامته ، فتداعت قريش ، وعقدت حلف الفضول .

وقيل لم يكن من (بني أسد) ، ولكنه (قيس بن شيبه السلمي) ، باع متاعاً من (أبي خلف الجمحي) وذهب بحقه ، فاستجار بـ (آل قصي) ، فأجاروه ، فكان ذلك سبب عقد حلف الفضول^١ . وقيل : بل كان الرجل من (بارق) ، فلما يش من أخذ حقه من (أبي) ، صعد في الجبل ورفع عقيرته بقوله :

يا للرجال المظلوم بضاعته يبطن مكة نائي الدار والنفر
ان الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فلما سمعه (الزبير بن عبد المطلب) ، أجابه :

حكفتُ لنعقدن حلفاً عليهم وإن كُنّا جميعاً أهل دارٍ
نُسميه الفضول إذا عقدنا يقربه الغريب لذي الجوار

ثم قام وعبد الله بن جدعان ، فدعوا قريشاً الى التحالف والتناصر والأخذ للمظلوم من الظالم ، فأجابوهما ، وتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان ، فهذا حلف الفضول^٢ .

وذكر ان رجلاً من (نخشم) قدم مكة ومعه بنت وضيئة ، فاغتصبها منه (نبيه بن الحجاج) ، فقبل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة ، ونادى : يا حلف الفضول ، فاجتمعوا حوله ، واستردوا الجارية من نبيه . وقالوا له : (ويحك . فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه) فأعادها اليه^٣ .

ويظهر من هذا الخبر ان حلف الفضول كان قد عقد قبل هذه الحادثة ، وان جماعته كانت شديدة متراصة في دفع الحق الى أهله واسترجاعه ممن اغتصبه كائناً ما كان .

ويظهر ان هذا الحلف استمر قائماً الى وقت ما في الإسلام ، ثم فقد

١ اليعقوبي (١٣/٢) وما بعدها .

٢ الثعالبي ، ثمار الملووب (١٤١) ، السهيلي ، الروص الأنف (٩١/١) .

٣ السيرة الحلبية (١٥٧/١) .

قيمته ، فمات . فورد انه كان بين (الحسين بن عليّ بن أبي طالب) وبين (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) منازعة في مال متعلق بالحسين ، فماطله الوليد . (فقال الحسين للوليد : أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون لحلف الفضول ، فلما بلغ ذاك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه)^١ .

وقد تفسر دعوة (الحسين) المذكورة ، بأن الحسين ، لم يقصد بقوله (لأدعون لحلف الفضول) ، الحلف القديم المعروف ، وإنما قصد لأدعون لحلف كحلف الفضول ، وهو نصرة المظلوم على ظالمه . وقد أيده على حقه جماعة ، منهم عبد الله بن الزبير ، مما دفع الوليد على ارجاع حق الحسين ، خشية وقوع فتنة وتدخل في هذه الحصومة^٢ . ومعنى هذا أننا لا نستطيع ان نستنتج من الخبر المتقدم ، ان حلف الفضول كان قد بقي الى ذلك العهد .

ويرجع حلف الفضول الى أحلاف سابقة على ما يتبين من أخبار أهل الأخبار . الى عهد (هاشم) وإلى ما قبل أيام هاشم . والظاهر ان أهل مكة ، بعد ان اجتمعوا وتكتلوا في وادي ضيق وفي أرض فقيرة ، وجدوا ان من العسير عليهم رؤية حفنة منهم وقد استأثرت بالمال والغنى ، بينما عاش الكثير بينهم في فقر وفاقة . وانهم ان أصموا آذانهم عن سماع نداء الإغاثة ، فإن حالة من الذعر ، ستسود مدينتهم . لذلك تواصلوا فيما بينهم على مواساة أهل الفاقة وجبر خاطر المحتاج ، وعلى تراحمهم فيما بينهم وتواصلهم . وكان مما فعلوه لرفع مستوى الفقير ، وللقضاء على الفوارق الكبيرة التي صارت فيما بين سادات مكة وسوادها ، ان حشوا كل مكى على المساهمة في أموال القوافل ، حتى اذا ما عادت رابحة ، وزعت أرباحها على هؤلاء ايضاً ، كل حسب مقدار ما ساهم به من مال في القافلة . وبذلك خفف أهل مكة من حدة التضاد الذي كان بين النقيضين . وأمنوا من تطاول الشباب الفقراء على الأغنياء . بأن فتح بعض الأغنياء أبواب بيوتهم

١ السيرة الحلبية (١٥٧/١) .

٢ السيرة الحلبية (١٥٧/١) .

للجوع ، فأووههم وساعدوهم على نحو ما جاء في شعر لطرود بن كعب الخزاعي
إذ يقول :

هبلتك أملك لو حلت بدارهم ضمنوك من جوع ومن اقراف^١

وقوله :

والخالطين غنيهم بفقيروهم حتى يصير فقيرهم كالكافي^٢

والعطف على الفقراء ومواساة الضعفاء وذوي الحاجة من خلال الأشراف
السادات . لأنهم إن لم يغثوا الغااث ويرحموا المسكين فن يرحمهم إذن على وجه
هذه الأرض ! وقد مدح من يجلط الفقير بالغي فيساوي بينها ، ودم من يبيت
شبعاناً وجاره يبيت خامصاً لا شيء عنده يعتمد عليه^٣ .

وكان من أهم الأحداث التي وقعت في أيام الرسول ، يوم كان في الخامسة
والثلاثين ، بناء الكعبة . بسبب سيل ملاً ما بين الجبلين ، ودخل الكعبة حتى
تصدعت ، أو بسبب حريق أصاب أستار الكعبة ، فتصدعت ، فعزمت قريش
على بنائها ، فهدمتها وأعادت بناءها . وذكر ان قريشاً كانت قد أفردت ببناء
كل ربع من أرباع البيت قوماً ، وكان ذلك بقرعة بينهم . فلما انتهوا الى موضع
الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن يضعه وتشاحوا عليه ، فرضوا بأول من يدخل
من الباب . فكان أول من دخل رسول الله ، فوضعه بيده ، بعد ان قال :
ليأت من كل ربع من قريش رجل ، وبذلك فض النزاع^٤ . ويجب ان يكون
حادث بناء البيت إذن في حوالي السنة (٦٠٥) للميلاد .

١ اليقوبي (٢١٤/١) ، (طبعة النجف ١٩٦٤ م) .

٢ (فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء
الاسلام وهم على هذا ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ،
وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي
فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله) ، تفسير الفرطبي ، (٢٠٥/٢٠) ،
الطبرسي ، مجمع البيان (٥٤٦/١٠) ، (طبعة طهران) ، البلاذري ، أنساب
(٥٨/١) ، ابن العربي ، محاضرات الأبرار (١٩/٢) .

Kister, P. 123.

٣ القالي ، الأمالي (١٥٨/٢) .

٤ البلاذري ، أنساب (٩٩/١) ، ابن رسته ، الاغلاق النفيسة (وكان النبي صلى
الله عليه وسلم ، يومئذ قد ناهز الحلم) ، (ص ٢٩) .

وجهاء مكة :

وكان امر مكة الى وجهاء امرها ، مثل (بنو مخزوم) ، و (بنو عبد شمس) ، و (بنو زهرة) و (بنو سهم) و (بنو المطلب) و (بنو هاشم) و (بنو نوفل) و (بنو عدي) و (بنو كنانة) و (بنو اسد) و (بنو تميم) و (بنو جمح) و (بنو عبد الدار) و (بنو عامر بن لؤي) و (بنو محارب بن فهر) وذكر بعض اهل الاخبار ، ان الشرف والرياسة في قريش في الجاهلية في (بني قصي) ، لا ينازعونهم ولا يفخر عليهم فاخر . فلم يزالوا ينقاد لهم ويرأسون . وكانت لقريش ست مآثر كلها لبني قصي دون سائر قريش . منها الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والرياسة . فلما هلك (حرب بن امية) ، وكان حرب رئيساً بعد المطلب ، تفرقت الرياسة والشرف في (بني عبد مناف) . فكان في بني هاشم : الزبير وأبو طالب وحزمة ، والعباس بن عبد المطلب . وفي بني امية : ابو احيحة ، وهو سعيد بن العاص بن امية ، وهو (ذو العمامة) ، كان لا يعتم احد بمكة بلون عمامته اعظماً له . وفي بني المطلب : عبد يزيد بن هاشم بن المطلب . و (عبد يزيد) هو (المحض لا قذى فيه) وفي (بني نوفل) : المطعم بن عدي بن نوفل . وفي بني اسد بن عبد العزى : خويلد ابن اسد ، وعثمان بن الحويرث بن اسد . وقد كانت النبوة والخلافة لبني عبد مناف ، ويشركهم في الشورى : زهرة وقيم وعدي وأسد .^١

وقد اختص (بنو كنانة) بالنسب . فكان نساء الشهور منهم . وهم (القلامسة) . وكانوا فقهاء العرب والمفتين لهم في دينهم .^٢ فكانت لهم اذن بين الناس هي مكانة روحية ، فييدهم الفقه والافتاء .

ومكة وان كانت مجتمعاً حضرياً ، اهله اهل مدر في الغالب ، غير انها لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، لأن الحياة فيها كانت مبنية على اساس العصبية القبلية . المدينة مقسمة الى شعاب ، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة ، تحكمها الاسر ، وبين الاسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ .

١ المحبر (ص ١٦٤ وما بعدها ، ١٦٩) .

٢ المحبر (ص ١٥٦) .

نزاع وان لم يقلق الأمن ويعبث بسلام المدينة ، الا انه اثر في حياتها الاجتماعية
اثراً خطيراً ، انتقلت عدواه الى ايام الاسلام .

لقد حاول بعض رؤسائها ووجوهها التحكم بأمر مكة ، واعلان نفسه ملكاً
عليها يحلي رأسه بالتاج شأن الملوك المتوجين ، ولكنه لم يفلح ولم ينجح . حتى
ذكر ان بعضهم التجأ الى الغرباء ، لمساعدتهم بنفوذهم السياسي والمادي والعسكري
في تنصيب انفسهم ملوكاً عليها ، فلم ينجحوا ، كالذي ذكروه عن (عثمان بن
الحويرث بن اسد بن عبد العزى) ، المعروف بـ (البطريق) ، من انه طمع
في ملك مكة ، فلما عجز عن ذلك ، خرج الى قيصر ، فسأله ان يملكه على
قريش ، وقال : احملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل ، وكتب له
عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش (قيصر) وهموا ان يدينوا له ، ثم قام
الاسود بن المطلب ، ابو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : ان قريشاً لقاح !
لا تملك ولا تملك ، وصاح الاسود بن اسد بن عبد العزى : الا ان مكة حي
لقاح ، لا تدين لملك . فأتسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ،
ولم يتم له مراده ، فمات عند ابن جفنة . فاتهمت بنو اسد ابن جفنة بقتله .^١
وابن جفنة هو عمرو بن جفنة الغساني .^٢

ولم يكن عثمان بن الحويرث اول زعيم جاهلي فتن بالملك وبلقب ملك ، الحبيب
الى النفوس ، حتى حمله ذلك على استجداء هذا اللقب والحصول عليه بأية طريقة
كانت ، ولو عن سبيل التودد الى الأقوياء الغرباء والتوسل اليهم ، لمساعدتهم في
تنصيبهم ملوكاً على قومهم . ففي كتب اهل الاخبار والتواريخ اسماء نفر كانوا
على شاكلته ، فتنهم الملك وأعماهم الطمع وحملهم ضعف الشخصية وفقر النفس حتى
على التوسل الى الساسانيين والروم ، لتنصيبهم على قومهم ومنحهم اللقب الحبيب ،
ووضع التاج على رأسهم ، في مقابل وضع انفسهم وقومهم في خدمة السادة
المساعدين اصحاب المنة والفضل .

لقد استمات عثمان بن الحويرث في سبيل الحصول على ملك مكة ، حتى ذكر

١ نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١٤٦/١) .

٢ جمهرة ابن حزم (١٩٠) ، الروض الأنف (١٤٦/١) ، نسب قريش (٢٠٩
وما بعدها) .

انه تنصر وتقرّب بذلك الى الروم ، وحسنت منزلته عندهم . ومن يلدي ؟ فلعلّه كان مدفوعاً مأموراً حرضه الروم ودفعوه للحصول على المدينة المقدسة ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على الحجاز والوصول الى اليمن والسيطرة على العربية الغربية والعربية الجنوبية . واخضاع جزيرة العرب بذلك لنفوذهم . ولقد جمع القوم ورغبتهم وانذرهم وحذرهم بغضب الروم عليهم ان عارضوا مشروعه وقاوموا تنصيبه ملكاً عليهم . قائلاً لهم : (يا قوم ، ان قيصر قد علمتم امانكم بيلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه . وقد ملكني عليكم ، وأنا ابن عمكم ، وأحدكم ، وانما آخذ منكم الجُرّاب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ، ثم اذهب اليه . وأنا اخاف ان ايتم ذلك ان يمنع منكم الشام ، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه) .^١

واذ صحّ ان هذا الكلام هو كلام (عثمان بن الحويرث) حقاً ، وانه خاطب به قومه لحثهم على الاعتراف به ملكاً على مكة ، فانه يكون كلام رجل عرف من اين يكلم قومه ، وكيف يأتيهم ! فقد هددهم بأن الروم سيمنعونهم من الاتجار مع الشام ان خالفوه ولم يبايعوه ولم يسلموا له بالملك ، وقد كلفه (قيصر) به . لأنه يعلم ان تجارة قريش مع بلاد الشام هي مصدر من اهم مصادر رزقهم . ولهذا ظن بأنهم سيخضعون له ويقبلون بما جاء به . ولكن أشراف مكة من اصحاب المال والنفوذ ، لم يحملوا هذا التهديد محمل الجد ، فالروم لا يهمهم امر (عثمان) كثيراً ، ثم ان تهديدهم بقطع تجارة قريش مع الشام ، تهديد لا يمكن تحقيقه ، وحدود الشام طويلة ومفتوحة ، ولعلّتهم وجدوا ان كلام (عثمان) هو ادعاء لم يصدر عن الروم ، تفوه به ، من حيث لا يعلمون . فلم يقيموا له وزناً .

ولم يذكر اهل الاخبار شيئاً عن لقب (البطريق) الذي منحوه لـ (عثمان ابن الحويرث) .^٢ ولا اظن ان الروم قد منحوه له ، لأنهم لم يكونوا يمنحون هذا اللقب المهم الا لكبار العاملين في خدمتهم ، ممن ادى لهم خدمات جليلة ، ولا اظن انه يشير الى درجة دينية ، لأنه لم يشتهر بين النصارى شهرة كبيرة ولم ينل من العلم والمكانة ما يؤهله لأن يكون (بطريارخاً) على الكنيسة . وقد ذكر

١ الروض الأنف (١٤٦/١) .

٢ نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١٤٦/١) .

علماء اللغة ان (البطرق) ، القائد ، معرب ، وهو الحاذق بالحرب وأمورها ، وهو ذو منصب عند الروم^١ . فلا يعقل ان يكون (عثمان) ، قد نال هذه المتزلة عند البيزنطيين . وهي منزلة لم ينلها إلا بعض ملوك الغساسنة مع صلتهم القوية بهم .

ومما يذكره أهل الأخبار عن (عثمان) هذا ، انه كان في رؤساء حرب الفجار من قريش . وانه كان من (بني أسد بن عبد العزى) ، وانه كان أحد الهجائن^٢ .

ومن وجهاء مكة وساداتها المقدمين المعروفين : عبد الله بن جدعان ، وكان ثرياً واسع الثراء ، كما كان كريماً ، أسرف في أواخر عمره في إكرام الناس وبالع في اعطائهم حتى حجر رهطه عليه لما أسن ، فكان اذا أعطى أحداً شيئاً ، رجعوا على المعطى فأخلدوه منه . فكان اذا سأل سائل ، قال : (كن مني قريباً اذا جلست ، فإني سألطمك ، فلا ترض إلا بأن تلطمني بلطمتك ، أو تفتدى لطمتك بفداء رغيب ترضاه)^٣ . والى هذا الحادث أشار ابن قيس الرقيات :

والذي إن أشار نحوك لطماً تبع اللطم نائل وعطاء^٤

وينسبه النسابةون الى (بني تيم بن مُرّة) ، ويقولون في نسبه إنه (عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة) . وهو ابن عم والد الخليفة (أبي بكر)^٥ ، ويذكرون (انه كان في ابتداء أمره صعلوكاً ترب

١ اللسان (٩/١٠) ، (بطرق) .

٢ الاشتقاق (٥٩) ، نسب قريش (٢١٠) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠) .

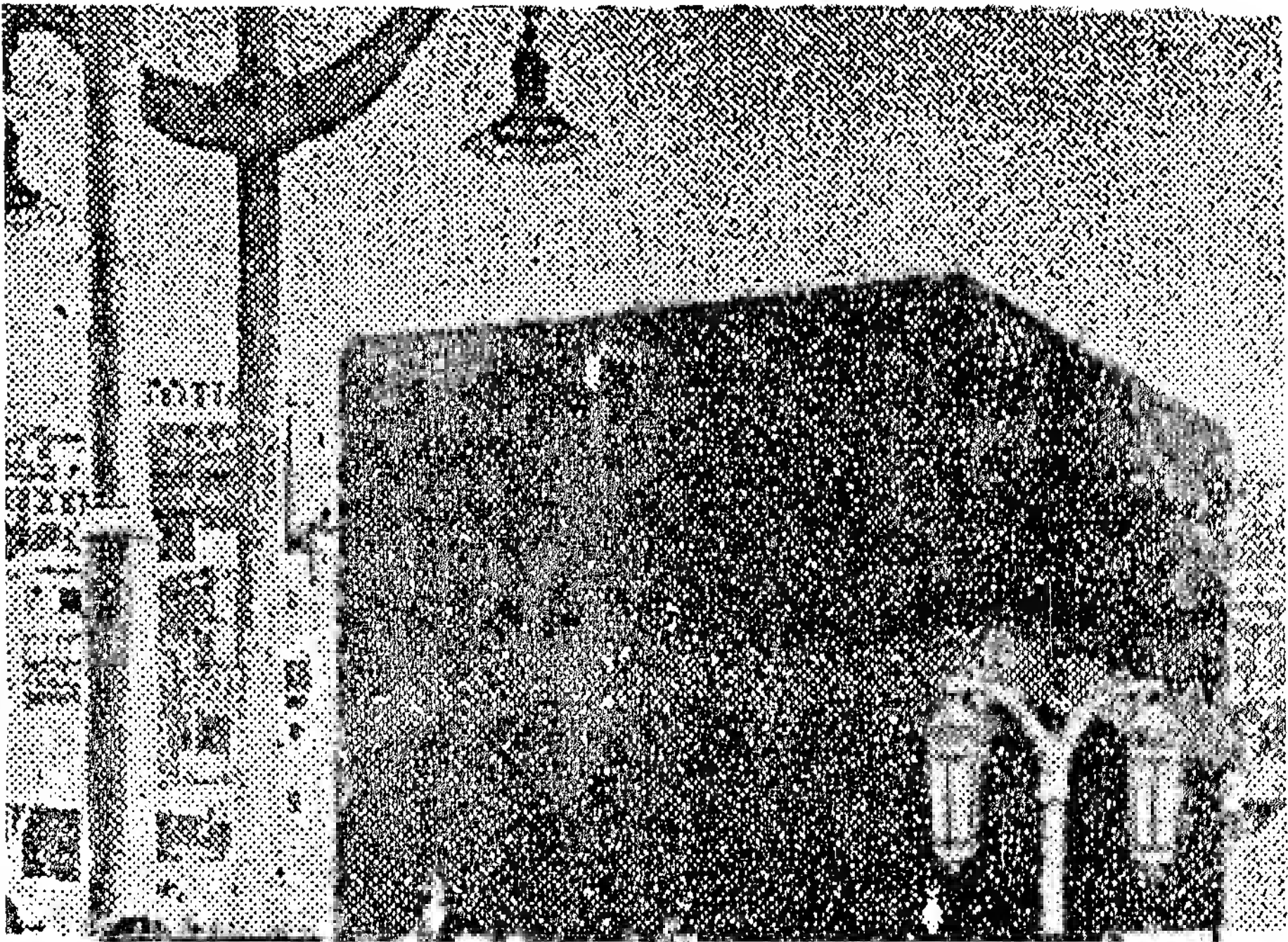
٣ المحبر (ص ١٣٨) ، نسب قريش ، (٢٥٦) ، عيون الأخبار ، لابن قتيبة (٣٣٥/١) ، تاريخ الخميس (٢٥٦/١) ، سمط النجوم (٢٠١/١ وما بعدها) .

٤ المحبر (ص ١٣٨) ، نسب قريش (٢٩٣) ، وهو من (بني تيم) ، وقد اخطأ المستشرق (ليفي بروفنسال) او من اشرف نيابة عنه على طبع كتاب (نسب

قريش) ، فصير (بنو تيم) (بنو تميم) ، راجع (ص ٢٩٢ س ١٠) ، و (ص ٢٩٣ س ١) . والخطأ خطأ مطبعي ولا شك ، ولأهميته اشرت اليه .

٥ ابن خلدون ، القسم الأول ، المجلد الثاني (ص ٦٧٤) (بيروت) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢١٧/٢) (مطبعة السعادة) ، ابن حزم ، جمهرة انساب العرب (١٣٦) .

اليدِين ، و كان مع ذلك شريراً فاتكأ ، لا يزال يجني الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ان لا يؤويه أبداً ، فخرج في شعاب مكة حائراً مائراً يتمنى الموت ان ينزل به ، فرأى شقاً في جبل ، فظن ان فيه حياة ، فتعرض للشق يرجو ان يكون فيه ما يقتله فيستريح ، فلم يجد شيئاً ، فدخل فيه) ، فإذا به أمام غار هو مقبرة من مقابر ملوك (جرهم) ، وفيه كنوز وأموال من أموالهم ثمينة من بينها (ثعبان) مصنوع من ذهب ، له



الكعبة الشريفة

عينان من ياقوت . ووجد جثث الملوك على أسرة ، لم يرَ مثلها ، وعليها ثياب من وشي ، لا يُمسسُ منها شيء إلا انتثر كالهباء من طول الزمان ، فأخذ من الغار حاجته ثم خرج ، وعلم الشق بعلامة ، وأغلق بابه بالحجارة ، وأرسل الى أبيه بالمال الذي خرج به منه يسترضيه ويستعطفه ، ووصل عشيرته كلهم ، فسادهم ، وجعل ينفق من ذلك الكثر ، ويطعم الناس ، ويفعل المعروف . وكان

كلما احتاج الى مال ذهب . فاستخرج ما يحتاج اليه من ذلك الكثر حتى صار من أغنى أغنياء مكة ^١ .

فقرأ (عبد الله بن جدعان) هو من هذا الكثر على زعم رواة هذه القصة التي يتصل سندها بـ (عبد الملك بن هشام) راوية (كتاب التيجان) ، وهو كتاب مليء بالأقاصيص والأساطير . وقد تكون القصة صحيحة . فعثور الناس على كنوز ودفائن من الأمور المألوفة ، وقد عثر غيره ممن جاؤوا قبله أو جاؤوا بعده على كنوز ، بل ما زال الناس حتى اليوم يعثرون عليها مصادفة أو في أثناء الحفر والتنقيب . والشيء الغريب فيها هو هذا التزيق والتنميق ، وهو أيضاً شيء مألوف بالنسبة إلينا ، وغير غريب وقد تعودنا قراءته ، فن عادة القصاصين ورواة الأساطير والأباطيل الإغراب في كلامهم والكذب فيه لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، وعلى رأس هذه الطائفة (وهب بن منبه) ، صاحب (كتاب التيجان) .

وذكر انه لثرائه كان لا يشرب ولا يأكل إلا بأنيسة من الذهب والفضة ، فعرف لذلك بـ (حاسي الذهب) ^٢ .

ويذكر أهل الأخبار ان (عبد الله بن جدعان) كان نخاساً ، له جوار يساعين ، ويبيع أولادهن . فكانت جواريه تؤجر للرجال ، وما ينتج عن هذا السفاح من نسل ، يربى ، فيبقي منه عبد الله ما يشاء ويبيع منه ما يشاء ^٣ . ولكنه مع اتجاره بالرفيق ، وعلى النحو المتقدم ، كان كما يقولون يعتق الرقاب ويعين على النوائب ، ويساعد الناس ويقضي الحاجات ^٤ ، ولا سيما بعد تقدمه في السن .

١ البدايه والنهاية ، لابن كثير (٢١٧/٢ وما بعدها) ، تأريخ الخميس (٢٥٥/١) ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المالكي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، (١٩٩/١) ، ابن الأثير ، الكامل (٣٥٩/١) .

٢ أيام العرب (٢٤٨) .

٣ المسعودي ، مروج (١٥٤/٤) (طبعة باريس) ، النعالي ، لطائف المعارف (١٢٨) (الأبياري) ، المعارف ، لابن فتيبة (٥٧٦) .

٤ البداية ، لابن كثير (٢٢٩/٢) .

ولا يستبعد ان يكون ما ذكره أهل الأخبار عن (عبد الله بن جدعان) ، هو من صنع حساده ومبغضيه ، ممن حسدوه على ما بلغ اليه بمكة من مركز وجاه . ومثل هذا التشنيع على الناس شائع مألوف . لا سيما وقد كان في الأصل فقيراً غير موسر ، فغني بجده واجتهاده فتقوّل عليه حساده من أهل زمانه تلك الأقوال . وقد عرف (ابن جدعان) بإكرام الناس وبالإتفاق على أهل مدينته وروى أهل الأخبار أمثلة عديدة على جوده وسخائه . من ذلك ما روه من انه كان قد وضع جفنة كبيرة مملأها طعاماً ليأكل منها الناس ، وكانت الجفنة على درجة كبيرة من السعة بحيث غرق فيها صبي كان قد سقط فيها . وذكروا ان الرسول قال : لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صكّة عمّي ، أي وقت الظهيرة ^١ . ووصفوا الجفنة فقالوا إنها (كانت لابن جدعان في الجاهلية . يطعم فيها الناس ، وكان يأكل منها القائم والراكب لعظمها) ^٢ . يأكل الراكب منها ، وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها ^٣ . وذكروا انه كان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن ، حتى سمع قول أمية بن أبي الصلت :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم فرأيت أكرمهم بني الديان
البر يُلبّكُ بالشهاد طعامهم لا ما يُعلننا بنو جدعان

فبلغ ذلك عبد الله بن جدعان ، فوجه الى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالودج بالعسل ، فكان أول من أدخله بمكة . وجعل منادياً ينادي كل ليلة بمكة على ظهر الكعبة ان هلموا الى جفنة ابن جدعان . فقال أمية بن أبي الصلت :

له داع بمكة مشعل وآخر فوق كعبتها ينادي ^٤
الى رده من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد ^٥

- ١ ابن كثير ، البداية (٢١٧/٢) ، اللسان (٤٥٧/١٠) ، عيون الأخبار (٢٦٨/٣) (كتاب الطعام) .
- ٢ ابن كثير ، البداية (٢١٧/٢) ، سمط النجوم (١٩٩/١) ، اللسان (٤٥٧/١٠) .
- ٣ ابن كثير (٢٢٩/٢) .
- ٤ وفي رواية أخرى (فوق داره) بدلا من (فوق كعبتها) ، وهناك اختلافات أخرى في رواية هذه الابيات وغيرها .
- ٥ البداية (٢١٧/٢) ، ذيل الامالي والنوادر ، للقالى (٣٨) ، الاغانى (٣٢٩/٨) .

ويذكر اهل الاخبار ان (امية) كان قد أتى (بني الديان) فدخل على (عبد المدان بن الديان) من بني الحارث بن كعب بنجران ، فاذا به على سريرته ، وكان وجهه قمر ، وبنوه حوله ، فدعا بالطعام ، فأتي بالفالوذج ، فأكل طعاماً عجيباً ، ثم انصرف فقال في ذلك الشعر المذكور ، فلما بلغ شعره (ابن جدعان) ، ارسل ألفي بعير الى الشام تحمل اليه البر والشهد والسمن ، وجعل له مناديين يناديان : احدهما بأسفل مكة والآخر بأعلاها ، وكان احدهما سفيان بن عبد الاسود ، والآخر أبا قحافة ، وكان احدهما ينادي : ألا من اراد اللحم والشحم ، فليأت دار ابن جدعان ، وينادي الآخر : ان من اراد الفالوذج فليأت الى دار ابن جدعان . وهو اول من اطعم الفالوذج بمكة .^١

وذكر (الجاحظ) ان من اشرف ما عرفه اهل مكة من الطعام ، هو (الفالوذ) ولم يطعم الناس منهم ذلك الطعام ، الا عبد الله بن جدعان .^٢

وليغرض اهل الاخبار رواية اخرى في كيفية وقوف (ابن جدعان) على الفالوذ (الفالوذج) وادخاله الى مكة ، وترجع هذه الرواية مصدره الى الفرس ، فيقول : وفد (ابن جدعان) على كسرى ، فأكل عنده الفالوذ ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا الفالوذ . قال : وما الفالوذ ؟ قالوا : لباب البريئلبك مع عسل النحل . فأعجبه ، فابتاع غلاماً يعرف صنعه ، ثم قدم به مكة معه ، ثم امره فصنع له الفالوذ بمكة ، فوضع الموائد بالأبطح الى باب المسجد ، ثم نادى مناديه : ألا من اراد الفالوذ فليحضر ، فحضر الناس . فكان فيمن حضر أمية ابن أبي الصلت .^٣

وذكر انه كان يضع (الحيس) على انطاع على الارض ليأكل منها القاعد والراكب . والحيس : الأقطُ مخلط بالتمر والسمن . وقد يجعل عوض الأقطِ الدقيقُ والفتيت . وقيل ، الحيس : التمر والأقطُ يُدقَّان ويعجنان بالسمن عجنًا شديداً حتى ينذر النوى منه نواة نواة ، ثم يسوى كالثرید . وهو الوطبة ايضاً ، الا ان الحيس ربما جعل فيه السويق ، واما الوطبة فلا .^٤

١ سمط النجوم (١٩٩/١) ، ذيل الامالي والنوادر (٣٨) .

٢ البخلاء (٢١٠) (طه الحاجري) .

٣ الاغانى (٣٢٩/٨) .

٤ الجاحظ ، الحيوان (٤٠٣/٣) ، لسان العرب (٦١/٦) .

ويروي اهل الاخبار ان اهل مكة كانوا يقدون على مائدة (ابن جدعان) ،
وأن رسول الله كان فيمن حضر طعامه .^١

وروي ان الرسول لما امر بأن يستطلع خبر القتلى من قريش يوم بدر ، وأن
تلمس جثة (ابي جهل) في القتلى ، قال لهم : (انظروا ان خفي عليكم في
القتلى ، الى اثر جرح في ركبته ، فإني ازدحت يوماً انا وهو على مأدبة لعبد الله
ابن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت اشف منه بيسير ، فدفعته فوق علي
ركبته) ، فخدشت ساقه وانهشمت ركبته ، فأثرها باقٍ في ركبته . فوجدوه كذلك .^٢

ويذكر اهل الاخبار ان (عبد الله بن جدعان) كان قد مثل قومه (بني تيم)
في الوقت الذي ارسلته قريش الى (سيف بن ذي يزن) ، واسمه (النعمان بن
قيس) ، لتهنئته بظفره بالحبشة ، واخراجهم من وطنه . وكان هذا الوفد في
وفود من العرب جاءته لتهنئته ، وفيها شعراء وأشراف وسادات قبائل . وقد كان
في وفد قريش : عبد المطلب بن هاشم ، وأمّية بن عبد شمس ، وخويلد بن أسد ،
ووهب بن عبد مناف . وقد قدمت تلك الوفود الى صنعاء ، ودخلت قصره :
قصر غُمدان .^٣

ويروي ان عبد الله بن جدعان كان عقيماً ، لم يولد له ولد .^٤ فتبنى رجلاً
سمّاه (زهيراً) ، وكنّاه (ابا مليكة) ، فولده كلهم ينسبون الى (ابي مليكة) .
وفقد (ابو مليكة) فلم يرجع .^٥

وكانت له بئر بمكة تسمى (الثريا) . وقد ذكر ان (بني تيم) حضروها .^٦

١ اللسان (٤٥٧/١٠) ، أيام العرب (٣٢٩) .

٢ (٢١٧/٢) .

٣ ابن هشام (٢٨٨/٢) ، سمط النجوم (٢٠٢/٢) ، البداية ، لابن كثير

٤ ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، (٣٦١/١) ، العقد الفريد (٢٣/٢) (لجنة

التأليف) ابن كثير ، البداية والنهاية (٣٢٨/٢) .

٥ المحبر (ص ٩٧) ، (ومن ولده : عبدالله بن عبيدالله بن عبدالله بن أبي مليكة

ابن عبدالله بن جدعان . . . وعلي بن عبدالله بن أبي مليكة بن عبدالله بن جدعان) ،

نسب قريش (٢٩٣) .

٦ المعارف (ص ٤٧٥) ، المحبر (ص ٣٠٧) .

٧ الحموي ، المشترك (٨٧) ، البلدان (٧٧/٢) ، الأزرقي ، أخبار مكة (٤٤٠)

(لايزك) .

وذكر ان دار عبد الله بن جدعان كانت في (ربع بني تيم) ، وكانت شارعة على الوادي .^١ وكانت داراً فخمة ، وبقيت مشهورة معروفة بمكة حتى بعد وفاته .

وبهذه الدار عقد (حلف الفضول) ، وذلك لشرفه ومكانته بين اهل مكة اذ ذاك . ولثرائه الضخم دخل كبير في ذلك ، ولا شك . وقد صنع للمدعوين طعاماً كثيراً قدمه اليهم ، ثم عقد الحلف . وكان الرسول ممن شهدته ، وهو ابن عشرين او خمس وعشرين . وكان يتذكره ويقول : (لقد شهدت في دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحب ان لي به حمر النعم . ولو دعي به في الاسلام لأجبت) .^٢ او (اما لو دعيت في الاسلام لأجبت ، وأحب ان لي به حمر النعم . واني نقصته وما يزيده الاسلام الا شدة) .^٣

وقد تكون حلف الفضول من هاشم ، و (المطلب) ، و (أسد) ، و (زهرة) ، و (تيم) ، وربما من (بني الحارث بن فهر) ايضاً . وهم الذين كونوا حلف المطيبين . ولذلك ذهب بعض الباحثين الى ان حلف الفضول ، هو استمرار للحلف المذكور ، اذ تألف من الأسر التي كانت ألقت ذلك الحلف ما خلا (بني عبد شمس) و (بني نوفل) . وكان قد وقع نزاع بين (نوفل) و (عبد المطلب ابن هاشم) ، فعله كان السبب في عدم انضمام (نوفل) الى هذا الحلف . وقد تعاون (نوفل) و (عبد شمس) ، ووجدوا في استطاعتها التعاون بينهما من غير حاجة الى الدخول في حلف الفضول . ولهذا لم يكن حلف الفضول ، في نظر هؤلاء ، غير حلف من احلاف الأسر ، ولم يكن على رأيهم لنصرة الضعيف وانصاف المظلوم ، على نحو ما جاء في روايات اهل الاخبار .^٤

١ اخبار مكة (ص ٤٦٨) (لايبزك) .

٢ المقدسي ، البدء والتاريخ (١٣٧/٤) ، تاريخ الحميس (٢٦١/١) ، النويري ، نهاية الارب (٢٦٧/٦) ، البخلاء (١٢/٢) ، ابن أبي الحديد ، شره نهج البلاغة (٢٠٣/١٥) ، طبقات ابن سعد (١٢٦/١ ، ١٢٨) ، مروج (١٢٢/٤) وما بعدها (باريس) .

٣ النويري ، نهاية الارب (٢٦٧/٦) ، سمط النجوم العوالي (١٩٠/١) ، ابن هشام (١٩٠/١) ، البداية (٢٩١/٢) وما بعدها ، ابن خلدون (القسم الاول ، المجلد الثاني ص ٧٠٦ وما بعدها) ابن الاثير ، الكامل (ذكر حلف الفضول) ، اللسان (٥٢٧/١١) .

Annual, I, 164, Watt, Muhammad at Mecca. p 6,

وروي انه لمكانة (عبد الله) التي بلغها عند قومه وعند العرب ، كانت العرب اذا قدمت عكاظ دفعت اسلحتها اليه حتى يفرغوا من اسواقهم وحجهم ، ثم يردها عليهم اذا ظعنوا .

وكان يحافظ على الأمانات محافظة شديدة . فلما جاءه (حرب بن امية) ، صديقه ، وهو من وجهاء مكة وأثريائها كذلك ، قائلاً له : احتبس قبلك سلاح هوازن وذلك يوم نخلة من ايام الفجار الثاني ، اجابه ابن جدعان : أبالغدر تأمرني ، يا حرب ؟ والله لو اعلم انه لم يبق منها سيف الا ضربت به ، ولا رمح الا طعنت به ، ما امسكت منها شيئاً . ثم أبى الا تسليم السلاح اليهم .^١ وقد اسهم (ابن جدعان) في ايام الفجار ، وكان على (بني تيم) .^٢ وأمد قومه بالسلاح والمال ، فأعطى مئة رجل سلاحاً تاماً كاملاً ، وذلك (يوم شمطة) غير ما ألبس من بني قومه والأحاييش .^٣ وحمل مئة رجل على مئة بعير ، وقيل : ألف رجل على ألف بعير ، وذلك (يوم شرب) .^٤ او يوم عكاظ .^٥ وله أخ اسمه (كلدة بن جدعان) قتل في الفجار .^٦

وكان (ابن جدعان) يشرب الخمر على عادة الجاهليين في شربها ، بقي يشربها حتى كبر ، فعافها . ودخل فيمن عاف الخمر على كبره من سادات قريش وأشرافها . وكان من عادتهم اذا كبروا ولعب بهم العمر ، حرموا شرب الخمر على انفسهم . (ما مات احد من كبراء قريش في الجاهلية الا ترك الخمر استحياءً مما فيها من الدنس . ولقد عابها ابن جدعان قبل موته) .^٧

ويروون في سبب تركه لها قصتين : قصة تقول انه عافها لأنه سكر مرة

- ١ أيام العرب (٣٢٩) .
- ٢ ابن الاثير ، الكامل (٣٥٩/١ وما بعدها) ، تاريخ الخميس (٢٥٥/١) ، البدء والتاريخ (١٣٤/٤ وما بعدها) .
- ٣ ابن الاثير ، الكامل (٣٦١/١) ، الصحاح (٧٧٨/٢) ، نهاية الارب (٤٢٧/١٥ وما بعدها) أيام العرب (٣٣١) .
- ٤ سمط النجوم (١٩٦/١) ، نهاية الارب (٤٢٩/١٥) .
- ٥ أيام العرب (٣٣٤) .
- ٦ نسب قريش (٢٩١) .
- ٧ الاغانى (٣٣٢/٨) ، نسب قريش ، (٢٩٢ وما بعدها) .

ففقده رشده فاعتدى على أمية بأن لطم عينه ، فندم على ما فعل حين سمع بالخبر ، وقال : (وَبَلَغَ مِنِّي الشَّرَابُ مَا أَبْلَغَ مَعَهُ مِنْ جَلِيسِ هَذَا الْمُبْلَغِ ؟ فَأَعْطَاهُ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، وَقَالَ : الْخَمْرُ عَلَيَّ حَرَامٌ ، أَلَا لَا أَذُوقُهَا أَبَدًا) ثم قال شعراً في ذم الخمر وفي وصف حاله اذ ذاك .^١

ومن الرقيق الذي كان في ملك (ابن جدعان) واكتسب شهرة في الاسلام (صهيب الرومي) . بيع في سوق النخاسة ، ثم وضع في شراء (ابن جدعان) ، وبقي في ملكه الى ان هلك سيده ، ويقال انه اعتقه وهو في حياته وأنه لازمه حتى مماته .^٢

وقد كان (ابن جدعان) يلتزم من يستجير به ، ويحمي من يأوي اليه . وكان (الحارث بن ظالم) قاتل (خالد بن جعفر بن كلاب) ، وهو في جوار ملك الحيرة في جملة من لجأ الى (ابن جدعان) حين طلبه ملك الحيرة ، وبقي في جواره وبمكة حتى أتاه ملك الحيرة . ويقال ان (الحارث بن ظالم) قدم على عبد الله بن جدعان بعكاظ ، وهم يريدون حرب قيس . فلذلك نكس رجمه ، ثم رفعه حين عرفوه وأمن . وكانوا اذا خافوا فوردوا على من يستجرون به ، او جاءوا لصلح ، نكسوا رماحهم . ويوم عكاظ من ايام الفجار .^٣

ورجل ثري وجيه له مكانة ومترلة عند بني قومه ، لا بد ان يصير مرجعاً للناس ، يرجعون اليه في المنازعات والخصومات ، ليحكم بينهم بما لديه من رجاحة عقل وسلطان ، لذلك كان في جملة حكام العرب ، الذين تحوكم اليهم .^٤

ولأمية بن ابي الصلت شعر في مدح (عبد الله بن جدعان) ، نجله في ديوان أمية وفي كتب الأدب . وقد كان من المقربين عند (أبي زهير) .^٥ ومن المكرمين له بسطاء . وكان يعطيه دائماً ، ونجد لأمية شعراً يطلب فيه من

١ نهاية الارب (٨٨/٤) .

٢ المعارف (٢٦٤) ، أنساب الاشراف (١٨٠/١) .

٣ أنساب الاشراف (٤٢/١) وما بعدها .

٤ البحلاء (ص ٢١٤) .

٥ الجاحظ البيان والتبيين (١٧/١) الأعراس (٣٢٧٠٨) وما بعدها .

(ابن جدعان) اعطاه مالا^١ .

وكان هلاك (ابن جدعان) قبل سنوات من المبعث .^٢ وذكر (البلاذري) ان هلاكه كان (قبل المبعث ببضع عشرة سنة .^٣ ولما مات دفن بمكة .^٤ وذكر في رواية اخرى انه دفن بموضع (برك الغنادر) ، وراء مكة بخمس ليال بينها وبين اليمن مما يلي البحر او بين حلي وذهبان .

وفيه يقول الشاعر :

سقى الامطار قبر ابي زهير الى سقف الى برك الغنادر^٥

ومن رجال مكة الأغنياء (الأسود بن المطلب) المعروف بـ (أبي زمعة) . و (زمعة) ابنه ، قتل يوم (بدر) في جملة من قُتل من رجال قريش . وكان يقال له : (زاد الركب)^٦ . وقد عرف ولده الأسود بـ (زاد الركب) كذلك^٧ . وكان الأسود ممن ادرك ايام الرسول وعارضه ، وعنده (ابن حبيب) في جملة المستهزئين من قريش بالرسول ، ومن مات كافراً ، بعد ان اصابه العمر^٨ .

وكان (الأسود) نديماً للأسود بن عبد يغوث الزهري . وكانا من اعز قريش في الجاهلية ، وكانا يطوفان بالبيت متقلدين بسيفين . وكانا من المستهزئين بالرسول^٩ . وذكر ان (الأسود بن عبد يغوث) كان اذا رأى المسلمين ، قال لأصحابه : (قد جاءكم ملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر . ويقول للنبي ، صلى الله عليه وسلم : اما كلمت اليوم من السماء ، يا محمد ؟

١ اطلب حاجتي ؟ ام قد كفاني حياؤك ؟ ان شيمتك الحياء

ابن عساكر ، التاريخ الكبير (١٢٢/٣) .

٢ الإصابة (٢٧٩/٢) ، البداية (٢١٨/٢) ، تاريخ الخميس (٢٥٦/١) ، سمط النجوم (٢٠٢/١) .

٣ أنساب الاشراف (١٨٠/١) .

٤ المعارف (ص ١٧٥) .

٥ تاج العروس (١٠٧/٧) ، (برك) .

٦ الاشتقاق (ص ٥٨) ، نسب فريش (٢١٨ وما بعدها) .

٧ المعبر (ص ١٣٧) .

٨ المعبر (ص ١٥٩) ، البلاذري ، أنساب (١٤٩/١ وما بعدها) .

٩ المعبر (١٧٤) .

وما اشبه هذا القول . مات حين هاجر النبي ، ودفن بالحجون .^١

وكان (زمعة بن الأسود) ، تاجراً ، متجراً الى الشام . وعرف بالدقة في العمل وفي وضع خطط سفره وتجارته . (فكان اذا خرج من عند ابيه في سفر ، قال : أسير كذا وكذا ، وآتي البلد يوم كذا وكذا ، ثم اخرج يوم كذا وكذا ، فلا يخرم مما يقول شيئاً) .^٢

ومن سادات قريش : (يزيد بن زمعه بن الاسود) . وكانت اليه المشورة . وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على امر حتى يعرضوه عليه ، فان وافقه ، ولاهم عليه ، والا تخير ، وكانوا له اعواناً . وقد اسلم ، واستشهد مع الرسول بالطائف .^٣

ويعد حرب بن امية من وجهاء مكة وسيداً من سادات كنانة . وكان امر كنانة كلها اليه يوم شمطة .^٤ واشترك يوم عكاظ ، وقيد نفسه ومعه سفيان وأبو سفيان بن امية بن عبد شمس ، وذلك كي يشبوا في اماكنهم ، ويتقوى بذلك قومهم فيشبوا في القتال .^٥ وكان من اثرياء مكة المعروفين .

ومن سادات مكة : (هشام بن المغيرة ، بن عبد الله بن عمر بن مخزوم) ، وكان له ولبنيسه صيت بمكة وذكر عالٍ .^٦ وذكر انه كان سيد قريش في دهره . ولما مات صار يوم موته من ايام مكة المشهورة ، حتى انهم أرتخوا بموته .^٧ ونادى منادي مكة في امثال هذه المناسبات : (اشهدوا جنازة ربكم) . وكان سيداً مطعماً .^٨ وظل يوم وفاة (هشام) يوماً يؤرخ به سبع سنين الى ان

١ البلاذري ، انساب (١/١٣١ وما بعدها) .

٢ المحبر (ص ١٥٨ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (١/٢٤٩) .

٤ ايام العرب (٣٣١) .

٥ ايام العرب (٣٣٤) .

٦ الاشتقاق (٦٠)

٧ واصبح بطن مكة مقشعرا كان الارض لبس بها هشام

الاشتقاق (٩٢) ، نسب قريش (٣٠١) .

٨ الاشتقاق (٦٣) ، المحبر (١٣٩) ، المعارف (٣٢) .

كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة ، فأرخوا بها .^١ وهو من الرجال الذين نعتوا بين قومهم بـ (زاد الركب) ، لأنه كان يقري المسافرين الذين يسافرون معه .^٢

ومن أبناء (هشام بن المغيرة) المذكور (ابو جهل) و (الحارث بن هشام) . اما (الحارث بن هشام) ، فقد عرف بالكرم والجود . ذكر ان داره كانت مفتوحة للضيوف . يدخلون واذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً . وهو جالس على سرير يحث الناس على الأكل . ويروى ان (ابا ذر) قدم مكة معتمراً ، فقال : (اما من مضيف ؟) قالوا : (بلى كثير وأقربهم منزلاً الحارث بن هشام) . فأتى بابه ، فقال : (اما من قرى ؟) . فقالت له جارية : (بلى) . فأخرجت اليه زيباً في يدها . فقال : (ولمَ لمَ تجعليه في طبق ؟) فعلم انه ضيف . وقالت : (ادخل) فدخل . فاذا بالحارث على كرسي وبين يديه جفان فيها خبز ولحم وأنطاع عليها زيب . فقال : (أصب) . فأكل ثم قال : (هذا لك) . فأقام ثلاثاً ثم رجع الى المدينة ، فأخبر النبي خبره . فقال : (انه لسري ابن سري . وددت انه أسلم) .^٣ وكان نديماً لحكيم بن حزام بن خويلد ابن اسد .^٤

وأما (أبو الحكم : عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ابن مُرّة) . فكان من رجال (بني مخزوم) الملعودين ، ومن المعادين للإسلام ، بل كان على رأس أشد الناس عداوة للرسول . وقد كناه الرسول بـ (أبي جهل) لأنه كان يكنى قبل ذلك بـ (أبي الحكم) فاشتهر بهـ الكنية ، حتى لم يعد يعرف إلا بها في الإسلام .^٥ وكان من المقتسمين . وهم سبعة عشر رجلاً من قريش ، اقتسموا عقاب مكة . فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله . وفيهم نزلت : (كما أنزلنا على المقتسمين)^٦ .

-
- ١ المحبر (١٣٩) ، الاغانى (١١ / ١٥) .
 - ٢ الاشتقاق (٩٢) .
 - ٣ المحبر (ص ١٣٩ وما بعدها) نسب قريش (٣٠١) .
 - ٤ المحبر (ص ١٧٦) .
 - ٥ المحبر (ص ١٣٩) ، البلاذري ، أنساب (١٢٥ / ١) .
 - ٦ المحبر (١٦٠) .

وكان من المطعمين لحرب يوم بدر . نحر عشر^١ . وكان نديماً للحكم بن أبي العاص بن أمية . و (الحكم) هذا هو الطريد^٢ .

وأخبر (ابن الكلبي) ، ان اخوين من (بني سليم) ، دخلا مكة معتمرين فاما وجداهما شراة ولا قرى . فبينما هما كذلك إذ رأيا قوماً يمضون ، فسألا (أين هؤلاء القوم ؟) فقليل لهما : يريدان الطعام . ففضيا في جملة جملتهم حتى أتوا داراً فوجدوها . فإذا رجل آدم ، أحول ، على سرير وعليه حلة سوداء وإذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً . ففعلوا فأكلوا . فشبع أحد الأخوين وقال لأخيه : (كم تأكل ؟ أما شبعت ؟) . فقال الجالس على السرير : (كل فإنما جعل الطعام ليؤكل) . فلما فرغوا خرجوا من باب الدار غير الذي دخلوا منه . فإذا هم بإبل موقوفة . فقالوا : (ما هذه الإبل ؟) قيل : للطعام الذي رأيتم . وكان الرجل الجالس على السرير : صاحب الطعام . فإذا به أبو جهل بن هشام^٣ .

ويظهر انه كان قاسياً قسا حتى على النساء ، فعذب عدداً منهن بنفسه عذاباً أليماً . عذب (زنيرة) ، وكانت لبني مخزوم حتى عميت ، وعذب غيرها حتى هلكت ، ومن هلكن (سمية) أم عمار بن ياسر^٤ . وكان يأتي من يسلم ، فيكلمه ليفتنه عن دينه : يأتي الرجل الشريف ، ويقول له : أترك دينك ودين أبيك ، وهو خير منك ؟ ويقبح رأيه وفعله ، ويسفه حلمه . وان كان تاجراً يقول له : ستكسد تجارتك ، ويهلك مالك . وان كان ضعيفاً ، أوصى بمن يعذبه ، حتى يترك دينه . جاء مرة دار أبي بكر ، فلما لم يجده لطم خدة أسماء ابنته لطمه طرح قرطها . وكان فاحشاً بذيئاً^٥ .

ويذكر أهل الأخبار انه كان لا يبالي في أكل حقوق الغرباء القادمين الى

- ١ المعبر (١٦١) .
- ٢ المعبر (ص ١٧٦) .
- ٣ (فإذا هو أبو جهل بن هشام) ، هكذا في نهاية الخبر . بينما الخبر يخص (الحارث ابن هشام ، كما جاء في أوله ، راجع المحبة (ص ١٣٩) ، ويظهر أن مراده من الخبر الثاني الخاص بالأخوين : (أبا جهل) ، لانه كان أحولاً كما هو بهذا الخبر ، وقد كان أبو جهل من الحولان الاشراف ، المعبر (ص ٣٠٣) .
- ٤ ابن الاثير ، الكامل (٤٧/٢) وما بعدها .
- ٥ ابن الاثير ، الكامل (٤٧/٢) وما بعدها .

مكة ، فماطل مرة في أثمان إبل اشتراها من رجل من (أراش) ، وماطل مرة أخرى في إبل أخذها من رجل من (زيد) ، ولم يدفع أثمانها ولم يعرض عنها إلا بالتجاء الرجلين الى النبي ، فأخذ حقها منه ، وانتصف منه . ويظهر ان (أبا جهل) وان كان قاسياً بغيضاً للرسول مؤذياً له ، غير انه كان يخشاه اذا رآه ووقف أمامه ، وأما ايذاؤه له ، فكان بانتهاز غفلة يعتدي فيها على الرسول ، أو بتحريض غيره للتحرش به ^١ .

وعرف (عمرو بن عبد الله بن صفوان بن أمية) بالجود . وذكر انه كان معرقاً به . كان جوادا ابن جواد ابن جواد ^٢ .

وكان الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، من أشراف مكة وسادتها . وقد عرف بين قومه بـ (العدل) . وذكر انه إنما عرف بذلك ، لأنه كان يعدل قريش كلها ، فكانت قريش تكسو الكعبة جميعها ، ويكسوها الوليد وحده ، وذلك لثرائه وغناه . قيل انه كان له مال وزع بالطائف ، وكان يملك حديقة بها غرس فيها الأشجار والفواكه ^٣ . وقد كان لذلك متعالياً متغطرساً ، فلما أظهر الرسول الإسلام ، كان مثل بقية سراة مكة وأغنيائها من المعادين له ، لأنه أنف ان يتبع رجلاً هو دونه في المال والاسم والثراء . فكافح الإسلام ، واستهزأ بالرسول وبالإسلام ، وكان أحد (المستهزئين) الذين نزلت بحقهم آيات تعنفهم وتوبخهم وتصفهم بالكفر وبالغرور والاستكبار ، وانه كان يرى ان من الدلة الخضوع للرسول لأنه دونه مالا ونفراً ^٤ .

وقد كان (الوليد) الحُكَّام الذين تحوكم اليهم ، واليه تحاكم بنو عبد مناف في موضوع قتل (خداش) إنساناً منهم ^٥ . وقد عرف بـ (ابن صخرة) نسبة الى أمه ^٦ . وذكر انه كان في جملة من حرّم في الجاهلية الخمر على نفسه

١ البلاذري ، أنساب (١٣٠/١) .

٢ المحبر (ص ١٤٠ وما بعدها) .

٣ Ency., IV, P. 111.

٤ تفسير الطبري (٣٦/٥) ، ابن هشام (٧٢/١ وما بعدها) .

٥ المحبر (ص ٣٣٧) .

٦ المحبر (ص ٣٣٧) .

وضرب فيها ابنه هشاماً على شربها^١ . وقد عدّه (ابن حبيب) في جملة زنادقة قريش ، وذكر انه وجماعته تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة^٢ ، ولم يفسر قصده من الزندقة .

ويذكرون ان (الوليد) كان أسنّ قريش يوم حكم في قضية (خطاش) ، وحكم فيها بـ (القسامة) ، فكان بذلك أول من سنّ (القسامة) في قريش^٣ . ومات الوليد بعد الهجرة بثلاثة أشهر أو نحوها ، ودفن بالحجون^٤ . وذكر (محمد بن حبيب) ان (أبا أحيحة) كان نديماً للوليد بن المغيرة . على عادة القوم في اتخاذ الندماء^٥ .

وأبو (أحيحة) هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، المعروف بـ (ذي العمامة) ، لأنه كان لا يعم أحد بمكة بلون عمامته إعظاماً له^٦ . كما عرف بـ (ذي التاج) وذلك للسبب نفسه^٧ . وقد ذكره (أبو قبيس بن الأسلت) في شعر ينسب إليه^٨ . وكان مثل أكثر رجال قريش تاجراً . قدم مرة الشام في تجارة ، فحبسه (عمرو بن جفنة) ، حبسه مع هشام بن سعد العامري ، وبقي في محبسه حتى جاء بنو عبد شمس ، فاقتلوه بمال كثير^٩ .

وكان أبو أحيحة ممن أخذتهم الغزة من أشراف مكة ، فلم يقبلوا الدخول في الإسلام . ومن أظهر عداوته للرسول ، خاصة بعد تحريض النضر بن الحارث والوليد بن المغيرة له على معاداته . وقد كان مثل سائر أشراف مكة يرى ان الأمر العظيم يجب ان يكون في العظماء . وهو من العصابة التي أشير إليها في هذه

-
- ١ المحبر (٢٣٧) .
 - ٢ المحبر (١٦١) .
 - ٣ المحبر (ص ٣٣٧) .
 - ٤ البلاذري ، أنساب (١٣٤/١) .
 - ٥ المحبر (١٧٤) ، البلاذري ، أنساب (١٣٤/١) .
 - ٦ المحبر (ص ١٦٥) ، الاشتقاق (ص ٤٩) .
 - ٧ الطبري (٣٩٨/٢) ، المحبر (١٦٥) ، البلاذري ، أنساب (١٤١/١) .
 - ٨ البيان والتبيين (٩٧/٣) ، البلاذري ، أنساب (١٤١/١) .
 - ٩ البيان والتبيين (٩٧/٣) ، الاصابة (٣٨٥٩) .

الآية : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظم ، أهم يقسمون رحمة ربك ؟)^١ .

وقد مات أبو أحيحة بماله في الطائف في السنة الأولى ، أو في السنة الثانية من الهجرة . مات كافراً ، وقد بني له قبر مشرف . وقد رأى أبو بكر قبره ، فسبه ، فسبّ ابنه أبا قحافة ، فنهى النبي عن سبّ الأموات ، لما يثير ذلك من عداوة بين الأحياء ، ولما فيه من إهانة للأموات^٢ .

وقد ساهم (أبو أحيحة) بثلاثين ألف دينار في رأس مال القافلة التي تولى قيادتها أبو سفيان . ومبلغ مثل هذا ليس بشيء قليل بالنسبة الى الوضع المالي في تلك الأيام .

ومن سادة قريش : الأسود بن عامر بن السباق بن عبد الدار بن قصي^٣ .

ومن رجال بني فهر : ضيرار بن الخطاب بن مرداس بن كبير بن عمرو بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب . وكان فارس قريش في الجاهلية ، وأدرك الإسلام . وكان شاعراً فارسياً ، وقد أخذ مرباع بني فهر في الجاهلية^٤ .

ومن رجال بني عامر بن لؤي : عمرو بن عبد ودّ بن أبي قيس . كان فارس قريش في الجاهلية ، بل فارس كينانة . قتله علي بن أبي طالب^٥ . ومن (بني عبد ودّ) ، سهيل بن عمرو ، وكان من رجال قريش في الجاهلية ، ثم أسلم ، وهو الذي بعثته قريش يحكم الهدنة بينهم وبين النبي يوم الحديبية^٦ .

ومن سادات قريش : قيس بن عديّ بن سعد بن سهم . وقد ضرب به المثل في العز ، حتى قيل : (كأنه في العزّ قيس بن عديّ) . وكان يأتي الخمار ويبيده مفرعة ، فيعرض عليه خمره ، فإن كانت جيدة ، وإلا قال له : (أجد

١ الزخرف ، الرقم ٤٣ الآية ٣١ وما بعدها ، البلاذري ، أنساب (١٤١/١) .

٢ الطبري (٣٩٨/) ، أنساب الاشراف (١٤٢/١) .

٣ الاشتقاق (ص ١٠٠) .

٤ الاشتقاق (ص ٦٤) .

٥ الاشتقاق (ص ٦٨) .

٦ الاشتقاق (ص ٦٩) .

خمر ك ، م يقرع رأسه وينصرف)^١ . وذكر انه كانت له قيتان يجتمع اليهما
فتيان قريش : أبو لهب وأشباهه ، وهو الذي أمرهم بسرقة الغزال من الكعبة ،
ف فعلوا ، ف قسمه على قيانته ، وكان غزالاً من ذهب مدفوناً ، ف قطعت قريش
رجالاً ممن سرقه ، وأرادوا قطع يد أبي لهب ، ف حتمته أخواله من خزاعة^٢ .
وذكر ان (مقيس بن عبد قيس بن قيس بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم) ،
هو صاحب قصة الغزال^٣ .

وكان (الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم) ، أحد المستهزئين
المؤذين لرسول الله ، وهو (ابن الغيطلة) . وهو الذي نزلت فيه : (أفرأيت
من اتخذ إلهه هواه) . وكان يأخذ حجراً ، فإذا رأى أحسن منه تركه وأخذ
الأحسن . وكان دَهْرِيّاً يقول : (لقد غرّ محمد نفسه وأصحابه ان وعدهم ان
يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث)^٤ .

ومن اشتهر من بني عبد شمس : (عتبة بن ربيعة بن عبد شمس)^٥ ،
وكان نديماً لمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف^٦ .

اما أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن مناف ، ويكنى
أيضاً بأبي حنظلة ، فكان مثل سائر رجال مكة تاجراً صاحب أسفار ، ثرياً ،
جمع مالاً من تجارته . وكان صاحب (غير قريش) ، فهو المؤمن عليها ،
وهو قائدها ، وهو رجل جد خبير بالطرق والمسالك . وقد نجح في كل أسفاره ،
وأوصل تجارة مكة الى أماكنها سالمة مضمونة . فلم يتمكن المسلمون من مفاجأته
وأخذ مع أموال قريش وتجارته العظيمة التي تحت قيادته ، حينما كان قافلاً من

١ المحبر (ص ١٧٨) ، جمهرة النسب (١٥٦) .

٢ فلذلك يقول بعض شعرائها :

همو منعوا الشيخ المنافي بعدما رأى حمة الازميل فوق البراجم

الاشتقاق (٧٦) .

٣ شرح ديوان حسان (٤٧) ، (للبرقوقي) .

٤ البلاذري ، انساب (١٣٢/١) .

٥ المحبر (ص ١٦٠) ، ابن هشام ، السيرة (٢٦٢/٢) .

٦ المحبر (ص ١٧٥) .

بلاد الشام يريد مكة ، اذ أحسّ بالخطر ، فغير طريقه ، وسلك طريق الساحل ، وأفلت مع قافلته ورجالها ، وعدتهم سبعون ، ووصل الى مكة سالماً ، فنشبت على أثر ذلك معركة بدر^١ .

وكانت قيادة قريش في الحرب الى أبي سفيان أيضاً ، ورثها من أبيه^٢ . ورجل له فضل قيادة غير قريش ، وقيادة مكة في الحرب ، لا بد ان يكون في مقدمة سادات مكة وعلى رأس طبقتها المحافظة ذات العنجهية ، التي ترى ان لها حق الرئاسة والزعامة ، والكلمة والرأي .

وليس لأحد مكانة إلا اذا كان ذا مال وجاه وحسب . وعلى الباقي طاعة السادة ، ومراعاة سنن الآباء والأجداد ، والإخلاص لعبادة الآباء والأجداد ، والدفع عن آلهة الكعبة التي كانت السبب في اعطاء قريش منزلة خاصة عند العرب .

وكان فضلاً عن هذا وذاك رجلاً صاحب لسان ، ينظم الشعر ويحيد الهجاء ، ويحسن النزول الى أسوأ مستوى يصل اليه السوقي والحوشة من الإقذاع في الكلام وإلحاق الأذى بالناس . وقد أظهر قابلياته في ذلك في عناده ضد الإسلام وفي ايذائه الرسول وفي الحاقه الأذى بالمسلمين . وقد هيا كل ما عنده من مواهب وكفايات وقدرات مالية لمقاومة الإسلام ولمحاربة الرسول وللقضاء على الدعوة التي جاءت مقوضة لديانة الآباء والأجداد من عبادة الأصنام ، ومن المحافظة على العرف ، ومن تحطيم الزعامة ، والخضوع لحكم الفقراء والرقيق . وفي القرآن الكريم آيات نزلت في حقه . وقد كان من المحرضين العاملين في معركة أحد^٣ . ويذكر انه ذهب الى الشام واتصل بـ (هرقل) وأخذ يحرضه على الرسول ، ولكن الروم لم يبالوا بتحريضه ، فعاد الى مكة^٤ .

١ الطبري (١٣١/٢) .

٢ اخبار مكة (٦٦/١) .

٣ (البداية (٩/٤) ، (المطبعة السلفية) اليعقوبي (٣٥/٢) ، الطبري (١٥٧/٢) (الاسنقمة) الطبرسي ، مجمع (سورة آل عمران ، الآية ١٧٢) .

٤ الاغانى (٣٢٩/٦) ، (بيروت ١٩٥٦ م) ، نهذيب ابن عساكر (٧٣) .

ويُعدّ (عبد العزّي بن عبد المطلب) من هذا الرعيل من وجهاء مكة الذين حاربوا الرسول ، ونصبوا له العداوة . كان موسراً ، جمع مالا طائلاً ، كما يفهم ذلك من (سورة المسد) : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) . وكان من التجار ، له تجارة مع بلاد الشام^١ . وكاو من هؤلاء الذين أبوا التنكر للدين آبائهم وأجدادهم وإطاعة رجل فقير ، وهم أكثر منه مالا ، وأكبر سناً . روي ان رسول الله كان بسوق ذي المجاز يقول : (أيها الناس . قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا) وإذا برجل يأتي من خلفه ويرميه بحجارة ، أدمت ساقيه وعرقوبه ، وهو يقول للناس : انه كذاب لا تصدقوه^٢ .

ويُعدّ (أبو لهب) وهو (عبد العزّي) ويكنى ايضاً بـ (أبي عتبة) ، من هذه الطبقة الوجيئة المعروفة من قريش . وهو عم الرسول^٣ ، وكان مع ذلك من الذين حملوا حقداً شديداً عليه . وكانت زوجته تحرضه على معاداته وايدائه ، وفي حقها نزلت سورة (تبت) . وهي السورة الحادية عشرة من السور التي نزلت بمكة على رأي أكثر العلماء .

وكان بيته في جوار بيت رسول الله . فذكر ان رسول الله قال : كنت بين شرّ جارين : بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، ان كانا ليأتيان بالفروث فيطرحونها في بابي . وكان النبي يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ؟ ثم يميّطه عن بابه^٤ .

ويذكر أهل الأخبار ان هنالك عشرة أبطن من بطون قريش انتهت اليهن الشرف في الجاهلية ، ووصل في الإسلام ، وهم ، أمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم^٥ .

١ حاشية الشهاب (٤٠٩/٨) .

٢ الطبرسي (٥٥٩/١٠) .

٣ ابن أبي الحديد (٨٩/١) .

٤ البلاذري ، أنساب (١٣١/١) .

٥ العقد الفريد (٣١٣/٣ وما بعدها) .

كسب مكة :

ومكة كما ذكرت بلد في وادٍ غير ذي زرع ، لذلك كان عماد حياة أهلها التجارة ، والأموال التي تجبي من القوافل القادمة من الشام الى اليمن والصاعدة من اليمن الى الشام ، وما ينفقه الحجاج القادمون في المواسم المقدسة ، للتقرب الى الأصنام . وهناك مورد آخر درّ على أثرياء هذه المدينة المقدسة ربحاً كبيراً ، هو الربا الذي كانوا يتقاضونه من إيداع أموالهم الى المحتاجين اليها من تجار ورجال قبائل .

لقد استفادت مكة كثيراً من التدهور السياسي الذي حلّ باليمن ، ومن تقلص سلطان التبابعة ، وظهور ملوك وأمراء متنافسين ، إذ أبعد هذا الوضع خطر الحكومات الهانية الكبيرة عنها ، وكانت تطمع فيها وفي الحجاز ، لأن الحجاز ، قنطرة بين بلاد الشام واليمن . ومن يستولي عليه يتصل ببلاد الشام ، وبموانئ البحر الأبيض المهمة . وأعطى تدهور الأوضاع في العربية الجنوبية أهل مكة فرصة ثمينة عرفوا الاستفادة منها . فصاروا الواسطة في نقل التجارة من العربية الجنوبية الى بلاد الشام ، وبالعكس . وسعى تجار مكة جهد إمكانهم لاتخاذ موقف حياد تجاه الروم والفرس والحبش ، فلم يتحزبوا لأحد ، ولم يتحاملوا على طرف ، وقوّوا مركزهم بعقد أحلاف بينهم وبين سادات القبائل ، وتوددوا اليهم بتقديم الألفاف والمال اليهم ، ليشتروا بذلك قلوبهم . وقد نجحوا في ذلك ، واستفادوا من هذه السياسة كثيراً .

وفي القرآن إشارة الى تجارة مكة ، والى نشاط أهلها ومتاجرتهم مع الشام ، واليمن : (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) . ^١ قال المفسرون : ان رحلة الشتاء كانت الى اليمن ، اما رحلة الصيف فكانت الى بلاد الشام . وانهم كانوا يجمعون ثروة طائلة من الرحلتين تدر على قريش خيراً كثيراً ، وتعوضهم عن فقر بلادهم .

ويظهر ان أهل هذه المدينة كانوا يسهمون جميعاً في الاتجار ، فيقدم المكّي

١ سورة قريش ، الآية الاولى .

افريقية والعربية الجنوبية ، كما اخذ ملوك الحيرة يرسلون بـ (لطائمهم) الى اليمن للبيع والشراء .

وقد اثر هذا الوضع في تجارة اهل مكة اثراً كبيراً ، اذ انتزع الفرس وملوك الحيرة من ايديهم قسماً من ارباحهم ، وربما لا يبعد ان يكون الهجوم الذي وقع على (لطيمة) (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، بتشجيع من اهل مكة ، ذلك الهجوم الذي عرف بـ (الفجار) ، وذلك للإضرار بالفرس وملوك الحيرة ، ولتخويف القوافل التي صارت تسلك طريق (الطائف) ، ثم منها الى مواضع في البادية الى الحيرة متجنباً طريق مكة .^١

وكانت (الشعيبة) ميناء مكة ، اليها ترد السفن قبل جُدَّة ، ثم أخذت جُدَّة موضعها في ايام الخليفة عثمان بن عفَّان .^٢

وقد قصدت ميناء (الشعيبة) سفن الروم وسفن الحبش ، اذ كانت السفن القادمة من افريقية ، لبيع تجارتها لأهل مكة ، ترسو في هذا الميناء .

ويظهر من كتب اهل الاخبار ان تجار مكة لم يكونوا يملكون سفناً خاصة بهم ، لنقل تجارتهم الى موانئ افريقية ، او لنقل ما يشترونه من الموانئ الافريقية لتصريفه في اسواق العراق او اسواق بلاد الشام . فنحن لا نكاد نجد في هذه الكتب شيئاً يفيد ان اهل مكة كانوا يملكون سفناً يسيرها بحارة منهم . بل نجد انهم كانوا يركبون سفناً حبشية ، عند ذهابهم الى الحبشة . وهي سفن لم تكن شيئاً بالقياس الى سفن الروم في ذلك العهد .

ولمركز مكة ونشاطها في التجارة ، توافد عليها ايضاً تجار من الخارج من بلاد الشام ومن العراق ومن بلاد الروم والفرس وغيرهم . ساكنوا المكّين ، وتحالفوا مع أثريائهم ، ومنهم من اقام فيها في مقابل دفع جزية لحمايته ولحفظ امواله وتجارته . وكان تجار بلاد الشام خاصة يجلبون القمح والزيت والحمور الجيدة الى تجار مكة . وقد اتخذوا مستودعات فيها لتخزين بضاعتهم هذه وتصريفها .

١ الازرقى ، اخبار مكة (١٢٨) ، المرزوقي ، الازمنة والامكنة (١٦١/٢) ، الاغانى (٦٤/٦) ، (بيروت ١٩٥٦ م) ، صبح الاعشى (٤٠١/١ وما بعدها) .

Ency., III, p. 440.

٢ البلدان (٢٧٦/٥) ،

ولا يستبعد (أوليري) ان يكون من بين تجار الروم في مكة من كان عيناً للبيزنطيين على العرب ، يتجسس لهم ، ويتسقط اخبارهم ، ويكتب لهم عن صلاتهم بالفرس ، وعن انباء الفرس في جزيرة العرب واتصالهم بالقبائل ، لشدة حاجة الروم الى تلك الاخبار ، لافساد خطط الفرس وابعادهم عن بلاد العرب وعن البحار . والعالم يومئذ معسكران متخاصمان : معسكر للروم ، ومعسكر للفرس .^١

وقوم هم اصحاب تجارة واتصال بالعالم الخارجي بحكم اتجارهم معه ، وذهابهم اليه ، لا بد ان يكون لهم اهتمام بما كان يجري ويقع في السياسة الدولية . وكان لهم علم بما يحدث بين الفرس والروم ، وبين الحبش وأهل اليمن ، لأن لما يحدث علاقة كبيرة بتجارتهن وبالاسواق التي كانوا يخرجون اليها للبيع والشراء .

ونجد في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك . فلما وقعت الحرب بين الفرس والروم ، هذه الحرب التي استولى فيها الفرس على القدس ، وعلى (الصليب) المقدس عند النصارى ، كان اهتمام مكة بها كبيراً وانقسم اهل مكة فريقين : مؤيد للروم ، ومؤيد للفرس ، مما يدل على وقوف اهل مكة على ما كان يقع في الخارج ، وقد أشار الى ذلك القرآن الكريم في سورة « الروم » .

وقد كان المكثون يهتمون اهتماماً خاصاً بما كان يقع في بلاد الشام وفي اليمن من احداث ، اذ كانت تجارتهم مرتبطة بهذه البلاد بالدرجة الاولى . فما يقع فيها يؤثر تأثيراً مباشراً في تجارتهم . ولذلك حاولوا جهد امكانهم انشاء صلات حسنة مع الحاكم على بلاد الشام والحاكم على اليمن ، كما كان من مصلحة الروم مصلحة حكام العربية الغربية وترضيتهم ، ليأمنوا بذلك على سلامة تجارتهم في البحر الأحمر وعلى وصول بضائع افريقية والبلاد العربية الجنوبية والهند اليهم عند تعسف الفرس بالتجارة البرية التي كانت تأتي من الهند ومن الصين لتباع في بلاد الروم ، وعند نشوب الحرب ، وهي متوالية كثيرة ، فيما بينهما ، فتقطع التجارة عندئذ بينهما ، وترتفع الاسعار . اما التجارة عن طريق العربية الغربية ، فلم تكن تصاب بأذى الحروب وبالتزاع بين الفرس والروم ، لأنها كانت بعيدة عن ساحة الحروب ، وهي في مأمن من الغارات .

ويظهر من روايات اهل الأخبار ان سادات مكة والمواضع الاخرى من الحجاز كانوا يتوددون الى الروم والى حكام اليمن ليتمكنوهم من التحكم في شؤون مواطنيهم وللسيادة عليهم . وقد روى (ابن قتيبة) ان (قُصَيَّة) استعان بـ (قيصر) في نزاعه مع خزاعة .^١ وقد تكون مساعدة قيصر له ، بإشارته على الغساسنة حلفاء الروم لتقديم العون اليه . ويجوز ان يكون (بنو عذرة) وهم من العرب النصارى النازلين في اطراف بلاد الشام قد ساعدوه بطلب من الروم .^٢

ولا يستبعد ان يكون تجار اليمن في ايام قصي وبعد موته ، كانوا يأتون بتجارهم الى (مكة) ، ثم يقوم تجار مكة بنقلها الى بلاد الشام ، او بشرائها من تجار اليمن ، ثم يقومون هم ببيعها على حسابهم في (بَصْرَى) او غزة من بلاد الشام . وقد كان يقع اختلاف في بعض الاحيان بين تجار اليمن وتجار مكة ، وقد يقع اعتداء على تجار اليمن فيصادر بعض اهل مكة اموالهم ويغتصبونها ، كالذي حدث لتاجر من تجار اليمن ، مما حداه بالاستجارة بأشراف مكة وسادتها لإنصافه ، وأدى الحال الى عقد حلف الفضول :^٣

ولطبيعة اهل مكة المستقرين التجار ، لزم الابتعاد عن الحروب وعن خلق المشكلات ، وحل كل معضلة بالمفاوضات اولاً وبالسلم . كما سعت للاتفاق مع القبائل المجاورة على مخالفتها ومهادنتها . وقد افادت هذه السياسة قريشاً كثيراً ، فظهرت زعامة مكة على القبائل بعد تدهور ملك حمير في السياسة وفي الدين والاقتصاد . ولارتفاع مستوى مكة الثقافي بالنسبة الى الاعراب ، ولزعامتها الدينية على القبائل المجاورة لها ، ولاتصال سادتها بالعالم الخارجي ، ولوجود جاليات اجنبية فيها طورت حياتها الاقتصادية والصناعية مما جعل القبائل تعترف لها بالتفوق عليها ، وتسير في ركابها ، وتتبع تقويمها ، وتحضر في مواسمها ، حتى صارت مكة عند ظهور الاسلام القاعدة للغريبة العربية والزعيمة لها ، ولذلك كانت رمز مقاومة الاسلام ، والحصن العتيد المقاوم له . فلما دك هذا الحصن ، دكت المقاومة دكاً ، واستسلمت المواضع والقبائل للاسلام دون مقاومة تذكر .^٤

١ المعارف (ص ٣١٣) .

٢ Lammens, Mecque, 269, Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

٣ Watt, Muhammad at Mecca, P. 13.

٤ Wellhausen, Reste, S., 92.

وبلد مثل مكة فيه تجار وتجاره ورقيق وغنى وفقير وراحة وأصنام وعبادة وحجاج يأتون للتقرب الى الأصنام ، لا بد ان يضع اهله لهم وللقادمين اليه انظمة وقوانين لتنظيم الحياة ، وتأمين الأمن وحفظ الحقوق وحماية من ينفذ اليه من الأذى لدوام مجيء الحاج اليه على الأقل .

فالكعبة ، وهي بيت الأصنام ، ارض حرام ، لا يجوز البغي فيها ، ولا المعاصي واقتراف الآثام . والمدينة ، وهي في جوار البيت ذات حرمة وقدسية . ودار الندوة دار مشورة وحكم وزعامة . وسكان البلد الحرام هم في حمي البيت وفي جواره ، ولا بد من انصافهم واحقاق حقهم . ولانصافهم ودفع الأذى عن فقيرهم ، عقد حلف الفضول ، وتعهد سادات مكة بالدفاع عن يستجير بهم ، وبتأديب من يتجاسر منهم على العرف والسنة ، وبذلك ، جعلوا مكة بلداً آمناً مستقراً في محيط تتعاير فيه الأمواج .

ولسياسة اهل مكة القائمة على المساواة وحل الخلاف بالتشاور والتفاوض ، رميت قريش البواطن ، وهم غالبية اهل المدينة بعدم القدرة على القتال وبالانكسار على غيرهم في الدفاع عن بلدهم ، وباعتمادهم على الأحابيش وعلى قريش الظواهر وعلى القبائل المحالفة لهم في الدفاع عن مكة . ولم تكن مكة وحدها بدعاً في هذا الأمر ، اذ كان اهل يثرب وأهل الطائف وسائر اهل القرى والمدن مثل اهل مكة ، غير مباينين الى الغزو والقتال ، ولهم حبال وأحلاف مع القبائل الساكنة بجوارهم ، لمنع تعدياتهم عليهم ، ولنع من يطمع فيهم من تنفيذ ما يريد .

الرقيق :

وقد كانت بمكة جالية كبيرة من اصل افريقي ، عرفت بـ (الأحابيش) وهم سود البشرة ، اشتراهم اثرياء مكة للعمل لهم في مختلف الأعمال ولخدمتهم . وقد كان هذا الرقيق ضرورة لازمة لاقتصاد مكة ولنظامها الاجتماعي في ذلك الزمن . فتمد كان يقوم مقام الآلة في خدمة التاجر وصاحب العمل ، فكان مصدراً من مصادر الثروة ، وآلة مسخرة تخدم سيدها بأكل بطنها ، كما كان سلاحاً يستخدم

للدفاع عن السادة في ايام السلم وفي ايام الحرب .^١

وقد سبق ان أشرتُ الى وجود (احابيش) بين اهل مكة ، زعم الاخباريون انهم عرب ، وانهم انما عرفوا بالاحابيش ، لانهم تحابشوا ، اي تحالفوا وتعاهدوا على التناصر والتآزر عند جبل (حبشي) ، فهم على زعم هؤلاء الاخباريين احابيش آخرون لا صلة لهم بالاحابيش الذين اتحدث عنهم .

وقد اشار اهل الاخبار الى ان قوماً من اشراف مكة تزوجوا حبشيات فأولدن لهم اولاداً . ذكروا منهم (نضلة بن هاشم بن عبد مناف) و (نفيل بن عبد العزى) و (عمرو بن ربيعة) و (الخطاب بن نفيل) ، والد (عمر بن الخطاب) ، ويذكر ان (ثابت بن قيس بن شماس الانصاري) عيّر (عمر بن الخطاب) فقال له : يا ابن السوداء) ، فأنزل الله : (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى ان يكونوا خيراً منهم)^٢ و (عمرو بن العاص) وجماعة آخرين .^٣

وقامت بخدمة قريش طائفة اخرى من الآلات الحية ، هي ادق عملاً وأحسن خدمة وأرقى في الانتاج من الطائفة الأولى : الأحابيش ، استوردت من الشمال من بلاد الشام والعراق ، هي الأسرى البيض الذين كانوا يقعون في ايدي الروم او الفرس او القبائل المغيرة على الحدود ، فيباعون في اسواق النخاسة ، ومنها ينقلون الى مختلف أنحاء جزيرة العرب للقيام بمختلف الاعمال . يضاف الى هؤلاء ، الرقيق المستورد من اسواق اوروبة ، لبيعه في اسواق الشرق . وأسعار هذه البضاعة وان كانت أغلى ثمناً من أسعار البضاعة المستوردة من افريقية ، الا ان الجودة في الانتاج والتفنن فيه ، والبراعة في الصناعات التي لا تعرفها بضاعة الجنوب تعوّض عن هذا الفرق .

١ راجع مقال الاب لامانس في مجلة المشرق ، السنة الرابعة والثلاثين (١٩٣٦) ، (ص ١ وما بعدها) ، (ص ٥٢٧ وما بعدها) ، وعنوانه (الاحابيش والنظام العسكري في مكة) .
٢ الحجرات ، الآية ١١ .
٣ المحبر (ص ٣٠٦) (أبناء الحبشيات) .

ومن جملة ما وُكِّلَ الى رقيق العراق وبلاد الشام والروم وغيرهم من ذوي البشرة البيضاء من أعمال ، ادارة المبيعات ، والقيام بالحرف التي تحتاج الى خبرة ومهارة وفن ، وهي من اختصاص أهل المدن والمستقرين : مثل أعمال البناء والنجارة والأعمال الدقيقة .

وهذه البضاعة التي استوردتها قريش الى مكة - وان كانت تابعة ، تؤثر فتفعل ، وتكلف فتستجيب - كانت بضاعة حيّة ، لها قلب نابض ، ودماع يعمل ، ولحم ودم ، ولبعضها علم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها . فبضاعة هذا شأنها لا بد ان تترك أثراً في البيئة التي استوردت اليها . والأخباريون الذين هم مرجعنا الوحيد في رواية أيام الجاهلية قبيل الإسلام ، وان لم يحدثونا عن أمر هؤلاء القوم في نفوس ساداتهم والذين اختلطوا بهم ، نستطيع بالاعتماد على نقد بعض التنف من رواياتهم ان نصل الى هذه النتيجة التي هي شيء طبيعي وأمر ليس بغريب : نتيجة تقول ان هذه البضاعة تركت في نفوس أهل مكة وفي نفوس العرب الآخرين ممن كان لهم رقيق ، أثراً ليس الى إنكاره من سبيل ، وان بعض المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية التي كانت معروفة عند العرب قبيل الإسلام ، والتي أكلوا هم أنفسهم انها لم تكن عربية ، ولا سيما ما كان يتعلق منها بالصناعات والأعمال التي يأنف العربي من الاشتغال بها ، انما دخلت لغتهم وشاعت بينهم من طريق هؤلاء ^١ .

وقد كان أغلب الرقيق الأبيض على النصرانية ، وقد ذكر الأخباريون أسماء لبعضهم من نزلاء مكة تشير بوضوح الى تنصرهم . وقد كان فيهم من يتقن العربية ، ويعبر عن أفكاره بها تعبيراً صحيحاً واضحاً ، وفيهم من لا يفقه هذه اللغة ، لانه حديث عهد بها ، فكان يتكلم بلسان أعجمي أو بعربية ركيكة . ومنهم من كان يتباحث في أمور الدين ويشرح لمن يجالسه ما جاء في ديانته وفي كتبه المقدسة . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في الآيات : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر^١ . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي^٢ ، وهذا لسان عربي^٣)

١ صحيح مسلم : (١٨٩/٢) . أسد الغابة (٥٧٩/٥) ، المشرق ، السنة (٣٥)
(١٩٣٧) ، (٨٢) .

مبين^١ . (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك^٢ افتراه وأعانه عليه قوم^٣ آخرون . فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً)^٤ .

وقال (ابن هشام) في تفسير الآية : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر^٥ ، لسان الذي يلحنون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) : (وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغني ، كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني ، يقال له جبر ، عبد لبني الحَضْرَمِيّ ، وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، غلام بني الحَضْرَمِيّ . فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم : ولقد نعلم)^٦ . وهناك أشخاص آخرون كانوا موالي لا يحسنون العربية ولا يجدون النطق بها^٧ .

وروي عن (عبد الله بن مسلم الحَضْرَمِيّ) أنه (قال : كان لنا عبدان : أحدهما يقال له يسار ، والآخر يقال له جبر . وكانا صيقلين . فكانا يقرآن كتابهما ويعملان عملهما . وكان رسول الله يمرّ بهما فيسمع قراءتهما . فقالوا : إنما يتعلم منهما . فتزلت : ولقد نعلم أنهم يقولون)^٨ .

وأشير إلى غلام آخر كان بمكة ، اسمه (بلعام) ، وكان قيناً ، ذكر أن الرسول كان يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا أنه كان يتعلم منه . وقيل : إن ذلك الرجل الذي قال أهل مكة أن الرسول كان يتعلم منه ، اسمه (أبو اليسر) ، وكان نصرانياً^٩ .

وفي جملة من أشار إليهم أهل اليسر من النصارى الذين كانوا بمكة ، رجل اسمه (نسطاس) ، وكان من موالي (صفوان بن أمية)^{١٠} ، ونسطور الرومي ،

-
- ١ النحل ١٦ ، الآية ١٠٤ وما بعدها .
 - ٢ الفرقان ، الآية ٥ وما بعدها .
 - ٣ ابن هشام : السيرة (ص ٢٦٠) .
 - ٤ الواحدي : أسباب النزول (٢١٢) ، أسد الغابة (١٣١/٣) ، (١٩٤/٥ ، ٤٦٢) .
 - ٥ الاصابة (٢٢٢/١) .
 - ٦ الاصابة (١٦٥/١) .
 - ٧ الاغانى (٤٢/٤) ، ابن هشام ، السيرة (٦٤٠) ، أسد الغابة (٢٤٠/٢) ، المشرق السنة الخامسة والثلاثين ، (١٩٣٧ م) ، (ص ٨٨) .

ويوحنا مولى صهيب الرومي^١ ، وصهيب الرومي نفسه ، وهو من الصحابة ، جاء من بلاد الشام ، ونزل بمكة ، وتشارك مع مري قريش عبد الله بن جدعان ، ثم استقل عنه ، وصار ثرياً من أثرياء مكة . ثم دخل في الإسلام^٢ . ومنهم مولى يوناني تزوج سمية أم بلال^٣ . وقد بقي نفر من النصارى محتفظين بدينهم بمكة في أيام الرسول^٤ .

وفي حديث الأخباريين عن بناء الكعبة ان قريشاً استعانت بعامل من الروم ، أو من الأقباط ، اسمه باقوم ، كان نجساراً مقيماً بمكة ، في تسقيف البيت . وفي حديث آخر لهم : ان هذا الرجل كان في سفينة جهزها قيصر الروم لبناء كنيسة ، وقد شحنها بالرخام والحشب والحديد ، فجنحت عند (الشعية) فاستعانت قريش بما تبقى من أخشابها وبخبرة هذا الرومي في تسقيف البيت^٥ . وقد دعي بـ (بلقوم الرومي) أيضاً^٥ .

وفي كتب السير وكتب تراجم الصحابة أسماء جوار يونانيات أو من بلاد الشام أو من العراق ، وقد تزوجن في مكة ونسكن ذرية كانوا فيها قبل الإسلام . وقد كان منهن في مواضع أخرى من جزيرة العرب بالطبع .

ويعود قسط كبير من وجود الكلمات الحبشية والرومية والفارسية في العربية الى الرقيق الأسود والأبيض . وهذه الكلمات هي مسميات لأمر غريبة عن العربية لم يكن لأهل مكة ولا لغيرهم علم بها ، فاستعملوها كما وردت وأخذت ، أو صقلت حتى لاءمت اللسان العربي ، كما حدث ويحدث في اللغات الأخرى ، وعربت وصارت من ألفاظ العربية . وقد لاحق قسماً منها علماء اللغة ، فوضعوا

١ ابن هشام (٣٢١) .

٢ المشرق ، الجزء المذكور (ص ٨٩) .

٣ (ضرب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على نصراني بمكة ديناراً كل سنة) ، كتاب الخراج ليحيى بن آدم (٥٣) ، ابن سعد ، الطبقات (٣٩/١) ، المشرق ، الجزء المذكور (ص ٩٥) .

٤ الطبري (٢٠٠/٢) ، السيرة الحلبية (١٤٣/١) ، الاصابة (١٣٦/١) وما بعدها ،

Ency., III, P. 584.

٥ الاصابة (١٦٦/١) .

فيها كتباً بحثت في تلك المعربات ، وفي القرآن الكريم طائفة منها لم يغفل عنها أرباب اللغة والمفسرون ^١ .

أغنياء ومعدمون :

كان أهل مكة بين غني مُتَشَخِّمٍ وفقير معِدم . وبين الجماعتين طبقة نستطيع ان نقول انها كانت متوسطة . وأغنياء مكة ، هم أصحاب المال ، وقد تمكنوا من تكثيره بإعمال ما عندهم من مال بالاتجار وباقراضه للمحتاج اليه ، وبإعماله بالزراعة ، واستغلاله بكل الطرق المربحة التي يرون انها تنفعهم بالأرباح .

وقد تمكن هؤلاء الأغنياء من بسط سلطانهم على قبائل الحجاز ، ومن تكوين صلات وثيقة مع أصحاب المال في العربية الجنوبية وفي العراق وبلاد الشام ، بحيث كانوا يتصافقون في التجارة ويشاركونهم في الأعمال ، حتى صاروا من أشهر تجار جزيرة العرب في القرن السادس للميلاد .

ويظهر مما جاء في القرآن الكريم ان بعض هؤلاء الأغنياء كان قاسياً ، لم تدخل الرحمة ولا الشفقة قلبه . فكان يقسو على المحتاج ، فسلا يقرضه المال إلا بربى فاحش وكان يشتط عليه . وكان بعضهم لا يتورعون من أكل أموال اليتيم والضعيف ، طمعاً في زيادة ثرائه . وكان يستغل رقيقه استغلالاً شنيعاً ، حتى انه كان يكره فتياته على البغاء ليستولي على ما يأتين به من مال . وفي ذلك نزل النهي عنه في الإسلام . (ولا تُكْرِهُوا فَتِيَاتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ، لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ^٢ . قال (الطبري) : (كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا . يأخذون أجورهن . فقال الله ، لا تكرهوهن على الزنا من أجل المنالة في الدنيا . ومن يكرههن ، فإن الله من بعدد إكراههن غفور رحيم لهن . يعني إذا أكرهن) . وقال : (كانوا يأمرؤن ولائدهم بياغين ، يفعلن ذلك ، فيصبن فيأتينهم بكسبهن) . وروي ان هذه الآية نزلت في حق (عبد الله ابن أبي سلول) ^٣ .

١ المعرب ، للجواليقي .

٢ النور ، الآية ٣٣

٣ تفسير الطبري (١٨/١٠٣ وما بعدها) ، سورة النور .

وكان من أغنياء مكة من يأكل بصحاف من ذهب وفضة ، ويشرب بآنية من ذهب وفضة ومن بلور ، ويأكل على طريقة الروم والفرس بسكاكين وشوكات مصنوعة من ذهب أو من فضة ، على حين كان أكثر أهل مكة فقراء لا يملكون شيئاً . وكانوا يلبسون الحرير ، ويتحلون بالخواتم المصنوعة من الذهب ، تزينها أحجار كريمة . ولعلّ هذا الإسراف والتبذير كانا في جملة العوامل التي أدت الى منع المسلمين من استعمال الأواني المصنوعة من الذهب والفضة للأكل والشرب ، ومن صدور النهي من استعمال الحرير للرجال ^١ .

وقد حرص هؤلاء الأغنياء على اكثار أموالهم ، وعلى توسيع تجارتهم ، لذلك كانت هجرة الرسول الى يثرب وتحرش المسلمين بقوافلهم الداهية الآتية بين بلاد الشام ومكة لطمة كبيرة أصابتهم . لقد اجتمع ملأهم بعد وقعة بدر للتداول في أمرهم . فقال قائل منهم : (قد عوّر علينا محمد متّجبرنا وهو على طريقنا . وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية : إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا . قال زمعة بن الأسود : فأنّا أدلكم على رجل يسلك بكم النجدية ، لو سلكها مغمض العينين لاهتدى . قال صفوان ؛ من هو ؟ فحاجتنا الى الماء قليل . إنما نحن شاتون . قال : فرات بن حيان ، فدعواه فاستأجراه ، فخرج بهم في الشتاء ، فسلك بهم على ذات عرق ، ثم خرج بهم على (غمرة) . وانتهى الى النبي صلى الله عليه وسلم خبر العير وفيها مال كثير ، وآتية من فضة حملها صفوان بن أمية ، فخرج زيد بن حارثة ، فاعترضها ، فظفر بالعير ، وأفلت أعيان القوم ، فكان الخمس عشرين ألفاً ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم الأربعة أخماس على السرية ، وأتى بفرات بن حيان العجلي أسيراً ، فقيل : إن أسلمت لم يقتلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم ، فأرسله ^٢ . وقد عرفت هذه الغزوة بـ (غزوة القردة) . وقد كانت في السنة الثالثة من الهجرة .

وقد أشير في ديوان (حسان بن ثابت) الى (فرات) هذا ، كما أشير

١ شمس العلوم (ج ١ قسم ٢ ص ٢٩٣) .
٢ الطبري (٤٩٢/٢) ، (دار المعارف) ، الاشتقاق (٢٠٨) ، البلاذري ، انساب (٣٧٤/١) .

الى رجل آخر هو (قيس بن امرئ القيس العجلي) ، استأجرته قريش كذلك ، ليكون لها دليلاً يهدي قوافلها الطريق ^١ .

وقد كانت قريش ، كما كان غير قريش ، ومنهم المسلمون يستعينون بالأدلاء لإرشادهم الطرق ، ولا سيما في أيام الخطر . وأيام جزيرة العرب كلها خطر دائم بالنسبة للتجار ، لما كانوا يحملونه معهم من أموال ، تسيل لعاب الطامعين في المال ، وتنسيهم كل عهد وموثق . لذلك كانوا يتحسسون جهدهم الطرق ، ولا يسبرون إلا في الطرق الآمنة التي يوثق من ذمم أصحابها ومن قدرة سادتها على ضبطها وعلى انزال أقصى العقوبة بالخلعاء وبالخارجين على الطاعة والعرف . ويستأجرون الأدلاء أصحاب العلم والدراية العملية بالطرق وبمخارجها وبكيفية الخروج من مآزقها ومهالكها وأخطارها ، يتفقون معهم على إرشادهم ، على أن يكون لهم أجر حسن أن نجت القافلة من الخطر ووصلت سالمة الى مكانها المقصود .

وقد استغل تجار مكة أموالهم في الخارج ، وامتلكوا الصياع ، فامتلك (أبو سفيان ابن حرب) أيام تجارته الى الشام في الجاهلية ضيعة بالبلقاء تدعى بقبش ، فصارت لمعاوية وولده ^٢ .

ولم يبال رجال مكة من الاشتغال بالصناعات ، فقد اشتغل قوم منهم بالبزاة ، واشتغل بعض منهم بالخياطة ، فكان (العوام أبو الزبير خياطاً) و (كان الزبير جزاراً ، وكان عمرو بن العاص جزاراً ، وكان عامر بن كريز جزاراً ، وكان الوليد بن المغيرة جزاراً . وكان العاص بن هشام أخو أبو جهل حداداً ، وكان عقبة بن أبي معيط خماراً . وكان عثمان بن أبي طلحة الذي دفع اليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مفتاح البيت خياطاً ، وكان قيس بن مخزومة خياطاً ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم ، وكان عتبة بن أبي وقاص أخو سعد نجاراً ، وكان أمية بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله ابن جدعان نحاساً ، له جوار يساعين ويبيع أولادهن ، وكان العاص بن وائل أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبل ، وكان النضر بن الحارث بن كلدة

١ ديوان حسان (٢٩٥) ، (البرفوقي) ، (ص ٣٨) ، (هرشفلد) .

٢ البلاذري ، فتوح (١٢٥) .

يضرب بالعود ويتغنى ، وكان الحكم بن أبي العاص أبو مروان بن الحكم حجاجاً ، وكذلك حريث بن عمرو)^١ .

وإذا صح ما ذكرته من كلام نقلته من (الأعلام النفيسة) لابن رسته ، فإن ذلك ينفي ما يذكره أهل الأخبار من عدم وجود (نجار) في مكة كالذي ذكره من عدم وجود نجار بها يوم جددوا بناء الكعبة ، فحاروا في كيفية العثور على نجار يقوم بتسقيف البيت ، وبقوا في حيرتهم حتى اهتدوا الى رومي تحطمت سفينته عند الساحل ، فجاءوا به وبخشب سفينته فسقف الرومي (باقوم) لهم عندئذ الكعبة . وتنفي رواية (ابن رسته) ما ذكره غيره من ترفع ذوي الأسر من قريش من الاشتغال بالحرف اليدوية لأنها حرفة لم تخلق للأشراف . ويكون ذلك دليلاً على ان بعض ما يذكره أهل الأخبار عن أهل مكة بعيد عن الواقع وتناقض فيما يروونه ، لم يفتنوا اليه ، لأنهم كانوا ينقلون الأخبار ، يأخذونها أنى جاءت ، وغايتهم الجمع ، وعلينا الآن واجب التمهيط بين تلك الروايات ونقدتها وغربلتها ، لاستخراج اللب من القشور .

وعندي ان الإسلام ، هو الذي صير قريشاً قريشاً المذكورة في الكتب . وهو الذي سورها على العرب ، وجعل لها المكاة الأولى بين القبائل ، والخلافة فيها ، بفضل كون الرسول منها وظهور الإسلام في مكة . ولولا الإسلام ، لكانت مكة قرية من القرى ، لبعض أسرها ثراء حصلت عليه بفضل نشاطها وتقرب رجالها الى سادات القبائل وحكام العراق وبلاد الشام واليمن ، وبفضل دعوة رجال قريش القبائل المحيطة بمكة لحج البيت والتقرب الى الأصنام التي كدسوها فيه وحوله ، ومنها أصنام القبائل التي لها تعامل مع مكة ، فحصلت على ربح هو (حق قريش) من الغرباء وحق تعشير التجار وتعاطي البيع والشراء معهم .

ويبدو من أخبار الأخباريين عن البيت ؛ ان العناية لم توجه اليه إلا قبيل الإسلام ، وان الإسلام هو الذي رفع قواعده ، وعني بعمارتها ، وهو الذي فرش مسجده بالرخام ، وجعل له أشياء كثيرة لم تكن موجودة في أيام الجاهلية . وقد صرف عليه الخلفاء أموالاً طائلة وذلك قربة لله رب البيت .

والواقع ان في كثير مما يذكره أهل الأخبار عن مكة ، ما يناقض بعضه

١ ابن رسته ، الأعلام (٢١٥) .

الفصل الثالث والأربعون

يثرب والطائف

وكان ليثرب مكان مهم عند ظهور الإسلام ، وفيها وفي أطرافها سكنت جاليات من يهود . وهي من المواضع التي يرجع تأريخها الى ما قبل الميلاد . وقد ذكرت في الكتابات المعينية ، وكانت من المواضع التي سكنتها جاليات من معين ، ثم صارت الى السبئيين بعد زوال مملكة معين^١ . ولعلّ هذا السكن هو الذي حمل النسابين على ارجاع نسب أهل يثرب الى اليمن ، فقالوا لانهم من الأزد ، ولانهم من (قحطان) .

وللأخباريين كعادتهم آراء في الاسم ، قالوا لانها سميت (يثرب) نسبة الى (يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عييل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح) ، وكان أول من نزلها فدعيت باسمه . وقالوا : بل قيل لها (يثرب) من التثريب ، وقالوا أشياء أخرى من هذا القبيل^٢ .

وزعم أهل الأخبار ان الرسول لما نزلها كره ان يسميها (يثرب) ، فدعاها (طيبة) و (طابة) . وذكروا لها تسعاً وعشرين اسماً ، منها : (جابرة)

١ Ency., III, P 83, Hartmann, Die Arabische Frage, S., 253, H. Winckler, Arabisch-Semitisch-Orientalisch, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, (1901), S., 63.

٢ البلدان (٤٩٨/٨) ، ابن خلدون (٢٨٦/٢) .

و (مسكنة) و (محبورة) و (ينذر الدار) و (دار الهجرة)^١ .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أقدم من سكن (يثرب) في سالف الزمان قوم يقال لهم (صعل) و (فالج) ، فغزاهم النبي (داود) وأخذ منهم أسرى ، وهلك أكثرهم وقبورهم بناحية (الجرف) . وسكنها (العمايق) ، فأرسل عليهم النبي (موسى) جيشاً انتصر عليهم ، وعلى من كان ساكناً منهم ب (تيماء) ، فقتلوه ، وكان ذلك في عهد ملكهم الملك (الأرقم بن أبي الأرقم) . ولم يترك الاسرائيليون منهم أحداً ، وسكن اليهود في مواضعهم^٢ . ونزل عليهم بعض قبائل العرب ، فكانوا معهم واتخذوا الأموال والآطام والمنازل . ومن هؤلاء (بنو أنثيف) ، وهم حي من (بلي) ، ويقال إنهم بقية من العمايق ، و (بنو مُريد) مزيد (مرثد) ، حي من (بلي) ، وبنو معاوية ابن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ، وبنو الجذمي (الجذماء) حي من اليمن ، فعاشوا مع من كان يثرب وأطرافها من اليهود ، واتخذوا المنازل والآطام يتحصنون فيها من عدوهم إلى قديم الأوس والخزرج أياها^٣ .

وكان قديم (الأوس) و (الخزرج) على أثر حادث (سيل العرم) ، فأجمع (عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة) ، الخروج عن بلاده وباع ماله بمأرب ، وتفرق ولده ، فترلت الأوس والخزرج (يثرب) وابتحلت (غسان) إلى الشام ، وذهبت (الأزدي) إلى عمان وخزاعة إلى تهامة . وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم ، فكثروا معهم أمداً وعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم بعضاً ويمتنعون به ممن سواهم ، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً ، حتى نقضت اليهود عهد الحلف والجوار ، وتسلطها على يثرب ، فاستعان الأوس والخزرج

- ١ البلدان (٤٢٥/٧) ، (٤٩٨/٨) ، المقدسي : أحسن التقاسيم (ص ٣٠) ، (الطبعة الثانية) (لينن ١٩٠٦ م) ، ابن رسته ، الأعلام (ص ٥٩) ، (للمدينة في التوراة (التوراة) أحد عشر اسماً) ، ابن رسته (ص ٧٨) .
- ٢ ابن رسته ، الأعلام (٦٠ وما بعدها) ، ياقوت ، البلدان (٤٦١/٤ وما بعدها) ، الأغاني (٩٤/١٩) .
- ٣ ابن رسته ، الأعلام (٦٢) .

بأقربائهم على اليهود ، فغلبوهم ، وصارت الغلبة للعرب على المدينة منذ ذلك العهد ، على نحو ما سأحدث عنه بعد قليل .^١

وأقدمُ موردُ أُشيرٍ فيه الى (يثرب) ، هو نص الملك (نبونيد) ملك بابل ، الذي سكن (تيماء) امدأ ، وذكر فيه انه بلغ هذه المدينة ، كما سلف ان تحدثت عن ذلك في اثناء حديثي عن صلات العرب بالبابلين . وقد عرفت بـ (يثربه) (Jathripa) في جغرافيا (بطليموس) وعند (اصطيفان البيزنطي) .^٢ وعرفت بـ (المدينة) كذلك من كلمة (Medinta) (Medinto) الإرمية ، التي تعني (مدينة) في عريبتنا و (هكر) في العربية الجنوبية .^٣ وقد ورد اسمها في الكتابات المعينية .^٤

ويظهر انها عرفت بـ (مدينة يثرب) على نحو ما وجدنا في كتاب (اصطيفان البيزنطي) ، ثم اختصرت ، فقليل لها (مدينتا) ، اي (المدينة) . ولما نزل الرسول بها ، عرفت بـ (مدينة الرسول) في الاسلام .^٥

ولقدم تأريخ (يثرب) ولورود اسمها في نص (نبونيد) ، الذي يدل على انها كانت معروفة اذ ذاك ، لا يستبعد احتمال عثور المتقبين في المستقبل على كتابات وآثار قد تكشف عن بعض تأريخ هذه المدينة في ايام ما قبل الاسلام . ولم يشر اهل الاخبار الى وجود حرم او بيت يثرب ، كان يتعبد فيه اليربيون ويتقربون اليه بالندور ، مع انهم اشاروا الى بيت اللات في الطائف . ويثرب مدينة مثل الطائف ومثل مدن اخرى كانت ذات محجّات ومعابد . وقد كان اهل يثرب مثل غيرهم من العرب مشركين يتقربون الى الأصنام ، وكانوا يحفظون

١ ابن رسته ، الأعلام (٦٢ وما بعدها) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (١٦٠/٢) ، (مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ م) .

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام ، لجواد علي (٣٩٥/٣) ، (١٨١/٤) .
Ptolemy, VI, 7, 31.

٣ Blau, in ZDMG., 22, (1868), S. 668, Ency., III, P. 83. Paulys-Wissowa, 17 ter Halbband, 1914, 791.

٤ Ency., III, P. 83, Winckler, Arabisch — Semitisch, in Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1901, S., 63.

٥ Ency , III, P. 83.

اصناماً لهم في بيوتهم يتقربون اليها ، كما كانوا يحجون الى محجّات كانت على مسافة من يثرب . ولذلك يبدو غريباً سكوت اهل الاخبار عن ذكر بيت في هذه المدينة ، يحج له الأوس والخزرج ومن والاهم من قبائل وعشائر .

وعثر في مواضع لا تبعد كثيراً عن (يثرب) على كتابات جاهلية ، لم تعرف هويتها الآن ، لأن الباحثين لم يتمكنوا من فحص مواضعها ومن نقلها الى العلماء المختصين لقراءتها . كما انهم لم يتمكنوا من تصويرها ولا من التنقيب في تلك الأماكن تنقيباً علمياً . وقد اشار (عثمان ورستم) الى وجود كتابات من هذا النوع على جبل (سلع) ، وعند موضع (بئر عروة) بوادي العقيق وفي أماكن أخرى .^١ ارجو ان يصل اليها الباحثون للتنقيب فيها ولحل رموز هذه الكتابات .

وقد يعثر على كتابات اخرى مطمورة في تربة (يثرب) وفي الأماكن القريبة منها ، تكجف للقادمين من بعدنا اسرار هذه المدينة المقدسة .

ويثرب ، مثل مكة من شعاب ، تسكنها بطون الأوس والخزرج : الأوس في شعاب ، والخزرج في شعاب ، واليهود في شعاب . وفي الشعاب (حوائط) ، بساتين صغيرة ، وفي الحوائط (آبار) يستقون منها للشرب وللسقي والغسل ،^٢ كما كانت فيها دور مبنية بالآجر ودور مبنية باللبن . وبعضها ذو طابقين . وقد احتفر اليهود آباراً ، كانوا يبيعون الماء منها بالدلاء ، مثل (بئر ارومة) ، وكانت ليهودي ، وقد امر الرسول بشرائها ، فاشتراها عثمان .^٣ ومن آبار المدينة (بئر ذروان) ، وهي البئر التي ذكر ان لبيد (ابن الأعصم) اليهودي سحر بها الرسول .^٤

ويثرب على شاكلة مكة ، بغير سور ولا حائط يحيط بها ، ولا خندق يقف حائلاً امام من يريد بالمدينة سوءاً . وقد كان عماد دفاع اهلها بالتحصن في بيوتهم وبسد منافذ الطرق في اثناء الخطر . والأغنياء الموسرون يعتمدون على آطامهم

١ Osman R. Rostem, Rok Inscriptions in the Hijaz, PP. 4.

٢ الطبري (٣٥٧/٢) (دار المعارف) ، اللسان (٢٧٩/٧) .

٣ المعارف (ص ٨٣) .

٤ نزهة الجليس (٦١/١) ، تفسير النيسابوري (٢١٥/٣٠) ، حاشية على تفسير الطبري .

وحصونهم وقصورهم ، يلجؤون اليها عند الشدة ومن معهم من اتباعهم يرمون اعداءهم من فوق السطوح بالسهام وبالحجارة ، اذ لا حائط يحيط بها على نحو ما كان لمدينة الطائف . وقد تحارب الأوس والخزرج على الآطام ، وأرخوا بتلك الحرب ، وصاروا يؤرخون بـ (عام الآطام) . وذكر ان اهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا يمتنعون بها ، فأخربت في ايام عثمان .^١

وبظهر من وصف اهل الاخبار ليثرب ، انها كانت تشبه مدينة (الحيرة) بالعراق من حيث خلوتها من سور ومن تكوتها من (قصور) ، هي بيوت السادة ومعامل المدينة ومواضع دفاعها آناء الشدة وأوقات الحروب . وقد عرفت بـ (أطم) و (آطام) عند اهل يثرب . وذكر ان (الأطم) كان حصن بُنيّ بحجارة ، او كل بيت مربع مسطح . وورد ان (الأطوم) : القصور وحصون لأهل المدينة والأبنية المرتفعة كالحصون .^٢

والمدينة عند (وادي اضم) . يقال للقسم الذي هو عند المدينة منه (القناة) والذي هو أعلى منها عند السد : الشظاة ، اما ما كان اسفل ذلك ، فيسمى أضماً الى البحر . وذكر ان اضم واد يشق الحجاز حتى يُفرغ في البحر . وأعلى اضم القناة التي تمر دوين المدينة .^٣ وان المدينة هي ما بين طرف قناة الى طرف الجرف ، وما بين الماء الذي يقال له (البوا) الى (زباله) .^٤

وجوّ (يثرب) على العموم خير من جوّ مكة ، فهو ألطف وأفرح . ولم يعانِ اهلها ما عانى اهل مكة من قحط في الماء ومن شدة في الحصول عليه ، حتى بعد حفر (بئر زمزم) . فالماء متوفر بعض الشيء في المدينة ، وهو غير بعيد عن سطح الأرض ، ومن الممكن الحصول عليه بسهولة بحفر آبار في البيوت . ولهذا صار في امكان اهلها زرع النخيل ، وانشاء البساتين والحدائق ، والتفسيح فيها ، والخروج الى اطراف المدينة للترهة ، فأثر ذلك في طباع اهلها فجعلهم أليّن عريكة وأشرح صدرأ من اهل البيت الحرام .

-
- ١ الأغاني (١٤/١) (ساسي) النبيه (ص ١٧٦) .
 - ٢ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (اطم) ، اللسان (١٩/١٢) ، (اطم) .
 - ٣ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (اضم) .
 - ٤ ابن رسته ، الأعلام (٦٢) .

وتأريخ المدينة مثل سائر تواريخ هذه الأماكن التي نتحدث عنها ، مجهول لا نعرف من أمره شيئاً يذكر ، وإنما ما يذكره الاخباريون عن وجود العماليق وجرحهم بها ^١ فأمر^٢ وان قالوه ، لا يستند الى دليل ، وحكمه حكم الأخبار الأخرى التي يروونها والتي عرفنا نوع أكثرها وطبيعته . ولكن الشيء الذي نعرفه يقيناً ان اهل المدينة كانوا ينتسبون عند ظهور الاسلام الى يمن ، وكانوا يقسمون انفسهم فرقتين : الأوس والخزرج . وبين الفرقتين صلة قرى على كل حال . ثم يذكرون انه كان بينهم يهود ، وهم على زعمهم من قدماء سكان يثرب .

ويلاحظ ان الأوس والخزرج لا يدعون انفسهم بأبناء حارثة ، وإنما يدعون انفسهم بـ (بني قيلة) وبـ (ابني قيلة) ويقصدون بها (قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة) ، او (قيلة بنت هالك بن عذرة) من قضاعة ، او (قيلة بنت كامل بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن اسلم بن الحاف ابن قضاعة) . ^٣ ولا بد ان يكون لهذه المرأة التي ينتسبون اليها شهرة في الجاهلية حملتهم على الانتساب اليها . وقد ورد ان (قيلة) اسم ام الأوس والخزرج ، وهي قديمة . ^٤

وقد ذكر بعض اهل الاخبار ان الأوس والخزرج ابنا قيلة لم يؤدوا اتاوة قط في الجاهلية الى احد من الملوك ، وكتب اليهم تبّع يدعوهم الى طاعته ، فغزاهم تبّع ابو كرب ، فكانوا يقاتلونه نهراً ويخرجون اليه العشاء ليلاً ، فلما طال مكوثه ورأى كرمهم رحل عنهم . ^٥

ويُرجع الاخباريون مجيء الأوس والخزرج الى المدينة الى حادث سيل العرم ، ويقولون انهم لما جاءوا الى يثرب وجدوا اليهود وقد تمكنوا منها ، فقتلوا في ضنك وشدة ، ودخلوا في حكم ملوك يهود الى ايام ملكهم المسمى (الفيظوان)

-
- ١ البلدان (٤٢٧/٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٨٦/٢ وما بعدها) .
 - ٢ البلدان (٤٢٨/٧) ، الكامل (٢٧٥/١) ، ابن حزم ، جمهرة (٢٣٢/٩) ، ابن خلدون ، المجلد الثاني ، القسم الأول (٥٩٦) ، (منشورات دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦ م بيروت) .
 - ٣ اللسان (٥٨٠/١١) ، (صادر) ، (قيل) .
 - ٤ العقد الفريد (١٩٢/١ وما بعدها) ، الأصمعي ، ملوك العرب الاولى (٨٧ وما بعدها) .

أو (الفيطون) أو (الفيطيون) ، وكان رجلاً شديداً فظاً يعتدي على نساء الأوس والخزرج ، فقتله رجل منهم اسمه (مالك بن العجلان) وفرّ الى الشام الى ملك من ملوك الغساسنة اسمه (أبو جبيلة) . وفي رواية انه فرّ الى (تبع الأصغر بن حسان) . وتذكر الرواية ان أبا جبيلة سار الى المدينة ونزل بذي حرض ، ثم كتب الى اليهود يتوّد اليهم ، فلما جاؤوا اليه قتلهم ، فتغلبت من يومئذ الأوس والخزرج ، وصار لهم الأموال والآطام . ثم رجع (أبو جبيلة) الى الشام . وصارت اليهود تلعن (مالك بن عجلان) . وهم يروون في ذلك أبياتاً ينسبونها الى شاعر اسمه (الرمق بن زيد الخزرجي)^١ . ويذكر الأخباريون ان اليهود صوّرت (مالك بن عجلان) في كنائسهم ويبيعهم ليراه الناس فيلعنوه^٢ .

وذكر (ابن حريز) ان (الفيطيون) ، اسم (عبراني) ، وكان تسمّلك بيثرب ، وكان هذا أول اسم في الجاهلية الأولى . وقد شهد بعض ولد الفيطون بدرأ ، واستشهد بعضهم يوم اليامة ، فمن ولد (الفيطون) : أبو المقشعر ، واسمه أسيد بن عبد الله^٣ . ويذكر بعضهم ان اسم (الفيطيون) ، هو (عامر ابن عامر بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الحارث المحرق بن عمرو مزريقاء)^٤ . فهو من العرب على رأي هذا البعض ، ومن اليمن ، وليس من أصل عبراني .

وأبو جبيلة عند بعض الأخباريين ، هو (عبيد بن سالم بن مالك بن سالم) ، أحد بني غضب بن جشم بن الخزرج . فهو على هذه الرواية رجل من الخزرج ذهب الى ديار الشام ، فملك على غسان . وذهب بعض آخر من الأخباريين الى انه لم يكن ملكاً ، وإنما كان عظيماً ومقرباً عند ملك غسان^٥ . ونسبه بعض

- ١ البلدان (٤٢٨/٧ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٥٩) ، الكامل (٢٧٥/١) ، البداية ، ابن كثير (١٦٠/٢) ، (مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ م) .
- ٢ ابن خلدون (٢٨٧/٢) ، الاشتقاق (ص ٢٧٠) ، الأغاني (٩٥/١٩ وما بعدها) ، السهمودي خلاصة الوفاء (٨٢ وما بعدها) ، الطبري (٣٧١/٢) ، تأريخ اليهود في بلاد العرب ، اسرائيل ولفنسون (٥٦ وما بعدها) ،

Graetz, BD., 3, S., 91, 410.

- ٣ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .
- ٤ الاشتقاق (ص ٢٥٩) .
- ٥ الكامل (٢٧٦/١) ، ابن خلدون (٢٨٦/٢ وما بعدها) .

أهل الأخبار الى (بني زريق) ، بطن من بطون الخزرج . ونعته بـ (أبي جيلة الملك الغساني)^١ .

ونحن إذا أخذنا بهذه الرواية ، وجب علينا القول : ان أخذ الأوس والخزرج أمر المدينة بيدهم ، وزحزحة اليهود عنها ، يجب ان يكون قد وقع في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد ، أي في زمن لا يبعد كثيراً عن الاسلام . لأننا نجد ان أحد أولاده وهو (عثمان بن مالك بن العجلان) في جملة من دخل في الاسلام وشهد بدرأ ، كما نجد جملة رجال من (بني العجلان) ، من أبناء أخوة (مالك) وقد شهدوا (بدرأ) ومشاهد أخرى^٢ ، وهذا مما يجعل زمن (مالك) لا يمكن ان يكون بعيداً عن الاسلام .

ويظهر من دراسة هذه الأخبار المروية عن اليهود وملوكهم (الفطيون) وعن الأوس والخزرج وما فعلوه باليهود ، ان عنصر الخيال قد لعب دوراً في هذا المروي في كتب أهل الأخبار عن الموضوع . ونجد في القصص المروي عن ملوك اليمن وعن ولعهم بالنساء وعملهم المنكر بهن ، ما يشبه هذا القصص الذي نسب الى (الفطيون) . ونجد للعلاقات الجنسية مكانة في هذا القصص الجاهلي الذي ابرويه أهل الأخبار عن ملوك الجاهلية . وما قصة (الفطيون) إلا قصة واحدة من هذا القصص الذي نجد للفرائز الجنسية مكانة بارزة فيه .

ويظهر ان كلمة (الأوس) هي اختصار لجملة (أوس مناة) . و (مناة) كما نعلم صنم من أصنام الجاهلية . و (الأوس) هو جدّ الأوس ، وهو في عرف النسّابين (أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن مريء القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد)^٣ .

١ الاشتقاق (ص ٢٧٢) .

٢ الاشتقاق (ص ٢٧١ ومواضع أخرى) .

٣ البلدان (٤٢٨/٧) ، (أوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزريقا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن مريء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان) ، ابن الأثير ، الكامل (٢٧٥/١ ح ، ابن خلدون (٢٨٨/٢) ، اللسان (١٨/٤ وما بعدها) ، تاج العروس (١٠٣/٤) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٣٢٢) ، العقد الفريد (٣٦/٣ ، ١٥٩) ، (لجنة) ، ابن هشام (٣٤٧/٢) ، دائرة المعارف الاسلامية (١٥٠/٣) .

وينقسم الأوس الى بطون ، منهم : عوف ، والنبيت ، وجشم ، ومرة ، وامرؤ القيس . وقد عرف (بنو مرة) بالجعادرة كذلك . واتفقت جشم ومرة وامرؤ القيس وكونت حلفاً عرف بـ (أوس اللاة) . وبـ (أوس) كذلك . وانقسمت هذه الكتلة الى أربعة أقسام ، هي : ختمة وهي (جشم) في الأصل ، وأمّية ، ووائل وهي مرة ، وواقف وهي امرؤ القيس . وانقسمت هذه البطون الى أفخاذ عديدة ، حدثت بينها منازعات وحروب^١ .

ويرجع أهل الأخبار نسب أهل (قباء) الى (عوف) ، ونسب (النبيت) الى (عمرو) ، ونسب (الجعادرة) الى (مرة) . وقيل انهم سموا بذلك لانهم كانوا يقولون للرجل اذا جاورهم (جعدراً حيث شئت ، فأنت آمن . أي اذهب حيث شئت) . ومنهم بنو كلفة وبنو حنش وبنو ضبيعة^٢ .

ومن الأوس (أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبا) ، سيد الأوس في الجاهلية شاعر . وكانت عنده (سلمى بنت عمرو النجارية) ، وأولاده منها إخوة عبد المطلب . وهو من (بني جحجبا) . ومن ولده (المنذر بن عقبة ابن أحيحة بن الجلاح) ، شهد بدرأً وقتل يوم بئر معونة^٣ . وله أشعار ذكرها الرواة ، منها أبيات في رثاء ابن له^٤ .

وأما الخزرج ، فانهم إخوة الأوس في عرف النسابين . فالخزرج ، وهو جد الخزرج ، هو شقيق أوس . وهو (الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ابن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد) . وقد جاء نسله كما جاء نسل الأوس من اليمن بعد حادث سيل العرم ، وسكنوا يثرب والى الشمال منها حتى (نخير) و (تيماء) . وتأريخهم مثل تأريخ الأوس في رأي الأخباريين بدأ بالاتصال باليهود وبالعيش معهم وبيتهم الى ان تمكنوا منهم بعد الحادث الذي ذكرته وبعد مجيء أبي جيلة لنصرتهم^٥ .

- ١ الاشفاق (ص ٢٥٩) .
- ٢ الاشفاق (ص ٢٥٩ وما بعدها) .
- ٣ الاشفاق (ص ٣٦٢) .
- ٤ رسالة الغفران (٥٥٤ ، ٥٦٢) .
- ٥ البلدان (٤٢٨/٧) ، الكامل (٢٧٥/١) ، السوېدي ، سبائك الذهب (٦٩) ، المعارف لابن قتيبة (٢٦٠) ، دائرة المعارف الاسلاميه ، (١٥٠/٣) ، السهيلي ، الروض الأنف (١٤/١) ، سيرة ابن هشام (٢٠٤/٢) ، (الفاهره ١٩٣٦ م) ،
Ency., I, P. 523

ومن سادات الأوس عند ظهور الاسلام ، (سعد بن معاذ) ، الذي قتل يوم (الخندق) ، وأخوه (عمرو بن معاذ) ، وقتل يوم أحد . و (سمالك ابن عتيك) فارسهم في الجاهلية ، وابنه (حضير الكتائب) ، وكان سيد الأوس ورئيسهم يوم بعاث . وابنه (أسيد بن حضير) ، شهد بدر^١ . ومنهم (أبو الهيثم بن التيهان) ، وكان نقيباً ، شهد العقبة وبدر^٢ . و (قيس بن الخطيم بن عدي) الشاعر^٣ . و (سعد بن خيثمة) ، وكان نقيباً ، وقتل يوم بدر ، وأبو قيس بن الأسلت الشاعر . و (شاس بن قيس بن عبادة) ، وكان من أشرف الأوس في الجاهلية^٤ .

والخزرج أيضاً بطون ، أشهرها : بنو النجار ويتسبون الى (تيم الله بن ثعلبة) والحارث ، وجشم ، وعوف ، وكعب^٥ . ويلاحظ ان جشماً وعوفاً هما اسما بطنين أيضاً من بطون الأوس .

ومن الخزرج (أبو أيوب خالد بن زيد) ، نزل عليه النبي أيام قدم المدينة . و (نعيان بن عمرو) ، وكان النبي يستخف نعيان ، لم يلقه قط إلا ضحك اليه . و (أسعد الخير بن زرارة بن عدس) ، شهد العقبة وكان نقيباً ، و (أبو أنس بن صرمة) الشاعر ، وهو جاهلي^٦ ، و (ثابت بن قيس بن شاس) ، خطيب رسول الله ، وعمرو بن الاطنابة الشاعر ، جاهلي وهو أحد فرسان الخزرج^٧ . و (سعد بن عبادة بن دليم) وابنه (قيس بن سعد بن عبادة) وكان نقيباً سيداً جواداً ، وابنه قيس أجود أهل دهره في أيام معاوية ، ومنهم (مالك بن العجلان) قاتل (الفطيون) ، وابنه (عثمان بن مالك بن العجلان) ، شهد (بدر^٨) ، و (خالد بن قيس بن العجلان) ، شهد بدر^٩ ، و (عمرو بن النعمان بن كلدة بن عمرو بن أمية بن عامر بن يياضة) .

١ الاشتقاق (ص ٢٦٣) .

٢ الاشتقاق (ص ٢٦٤) .

٣ الاشتقاق (ص ٢٦٥ وما بعدها) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٦٦) .

٥ الاشتقاق (ص ٢٦٧) .

٦ الاشتقاق (٢٦٨) .

٧ الاشتقاق (٢٧٠ وما بعدها) .

رأس الخزرج يوم بُعث^١ . و (رافع بن مالك بن العجلان) ، وهو أول من أسلم من الأنصار ، و (النعمان بن العجلان)^٢ . و (مرداس بن مروان) ، شهد يوم الحديبية ، وباع تحت الشجرة ، وكان أمين النبي على سُهمان خيبر^٣ ، و (نخشم بن الحباب) ، وكان حارس النبي . و (البراء بن معرور) ، عقي^٤ وكان قتيلاً ، وهو أول من أوصى بثلاث ماله وأول من استقبل القبلة ، وأول من دفن عليها^٥ . و (أبو قتادة بن ربيعي) فارس النبي^٥ .

ويذكر الأخباريون انه كان للخزرج رئيس منهم ، هو (عمرو بن الأطنابة) ، وقد ملك الحجاز . وكان ملكه على رأيهم في أيام (النعمان بن المنذر) ، قتله الحارث بن ظالم قاتل خالد بن جعفر بن كلاب^٦ . وكانت بينه وبين (عمرو) خصومة . وذكر ان (عمرآ) ، قال شعراً يهزأ فيه بالحارث جاء فيه :

أبلغ الحارث بن ظالم الموعيدَ والناسدِ النسورِ عليّاً
إنما تقتل النيام ولا تقتل يقظان ذا سلاحٍ كميّاً

وكان عمرو شاعراً ومن الفرسان^٧ .

وبالرغم من صلة الرحم القريبة التي كانت بين الأوس والخزرج ، فقد وقعت بينهما حروب هلك فيها من الطرفين خلق كثير . وأول حرب وقعت بين الأوس والخزرج هي على رواية الأخباريين حرب (سمير) (سميحة) . و (سمير) في روايتهم رجل من الأوس من بني عمرو ، شتم رجلاً اسمه كعب بن العجلان ، وهو من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان ، نزل على مالك بن العجلان رئيس الخزرج وحالفه وأقام معه ، ثم قتله . فثارت الثائرة بين الأوس بسبب هذا القتل وبسبب دفع دية القتيل ، ثم وقعت الحرب . ثم اتفقوا على ان يضعوا حكماً بينهم يفصل في الأمر ، فوقع اختيارهم على (المنذر بن حرام النجاري الخزرجي) . وهو

١ الاشتقاق (ص ٢٧١ وما بعدها)

٢ الاشتقاق (٢٧٢) .

٣ الاشتقاق (٢٧٣) .

٤ الاشتقاق (٢٧٣) .

٥ الاشتقاق (٢٧٥) .

٦ ابن خلدون (٢٨٩/٢) ، الاغانى (١٢١/١١) وما بعدها .

٧ الاشتقاق (٢٦٨) .

جدّ حسان بن ثابت ، فحكم بينهم بأن يؤدوا لكعب دية الصريح ، ثم يعودوا الى سنتهم القديمة ، وهي دفع نصف الدية عن الحليف . فرضوا وتفرقوا ، ولكن بعد ان تمكنت العداوة والبغضاء في قلوب الطرفين ^١ .

واشتعلت نيران حرب أخرى بين الأوس والخزرج لسبب امرأة من (بني سالم) . وقد كانت الحرب في هذه المرة بين (بني جحجبا) من الأوس و (بني مازن بن النجار) من الخزرج . وقد وقعت في موضع (الرحابة) انهزمت فيه (بنو جحجبا) ^٢ .

ثم تجددت الحرب بين (عمرو بن عوف) من الأوس وبني الحارث من الخزرج بسبب مقتل رجل من بني عمرو . وقد عرفت هذه الحرب باسم : (يوم السراة) . وقد كان على الأوس (حضير بن سمالك) . وهو والد (أسيد بن حضير) ، وكان على الخزرج (عبد الله بن سلول) (عبد الله بن أبي) المعروف في الاسلام بـ (رأس المنافقين) . وقد انتهت بانصراف الأوس الى دورها ، فعادت الخزرج ذلك نصراً لها ^٣ .

ووقعت حرب أخرى لأسباب تافهة كهذه الأسباب . وما كانت لتقع لولا هذه العصبية الضيقة يثيرها في الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم في المجتمع ، ومنهم من الصعاليك والمغمورين بأمور سخيفة ، فإذا وقع على أحدهم اعتداء نادى قومه للأخذ بثأره ، فتشور الحرب . ومن هذه الحروب ، حرب بني وائل ابن زيسد الأوسيين ، وبني مازن بن النجار الخزرجيين ، وحرب بني ظفر من الأوس وبني مالك من الخزرج ، وحرب فارع ، وحرب حاطب ، ويوم الربيع ، وحرب الفجار الأولى ، وهي غير حرب الفجار التي وقعت بين قيس وكنانة ، ثم حرب معبس ومضرس ، وحرب الفجار الثانية ، ثم يوم بعاث . وكان هذا

١ الكامل (٢٧٧/١) ، الأغاني (١٨/٣ وما بعدها) (٢٤/٢٠ وما بعدها) ،
المفضليات (ص ١٣٥) ، الاشتقاق (ص ٢٦٦) ، ابن رسته ، الأعلام (٦٤) ،
البلخي ، (البلد والتاريخ) (١٣٠/٣) .

٢ الكامل (٢٧٧/١) .

٣ الكامل (٢٧٨/١ وما بعدها) ، (فمن بني الحنظلي : عبدالله بن أبي بن مالك ، الذي
يقال له ابن سلول . وسلول أمه . وكان رأس المنافقين . وكان ابنه عبدالله من
خيار المسلمين) ، الاشتقاق (٢٧١) .

اليوم آخر الأيام المشهورة التي وقعت بين الأوس والخزرج^١ .

وكان رئيس الخزرج في يوم بعاث (عمر بن النعمان بن صلاءة بن عمرو بن أمية بن عامر بن بياضة) . أما رئيس الأوس ، فكان (حضير الكتائب بن سمالك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل) . وقد ساعد الخزرج في هذا اليوم أشجع من غطفان ، وجهينة من قضاة . وساعد الأوس مزينة من أحياء طلحة بن إلياس ، وقريضة والنضير . وقد قتل فيه (عمرو بن النعمان) رئيس الخزرج . فانهزم الخزرج ، وانتصرت الأوس^٢ .

وكان (حضير الكتائب بن سمالك) سيد الأوس ورئيسهم يوم بعاث . ركز الرمح في قدمه وقال : ترون أفرا ؟ فقتل يومئذ . وابنه (أسيد بن حضير) من الصحابة الذين شهدوا العقبة وبدراً^٣ .

وقد تخلل أخبار هذه الأيام كالعادة شعر ، ذكر ان شعراء الطرفين المتخاصمين قالوه على الطريقة المألوفة في الفخر ، وفي انتقاص الخصم ، وفي إثارة النخوة لتضطلم الحرب ويستमित أصحاب الشاعر في القتال . وقد كان المحلق في هذه الأيام حسان بن ثابت الشاعر المخضرم الشهير ، شاعر الرسول . وهو لسان الخزرج والمدافع عنهم ، و (قيس بن الخطيم) وهو من الأوس ، ثم جماعة ممن اشتركوا في المعارك ، مثل : عامر بن الاطنابة ، والربيع بن أبي الحقيق اليهودي ، وعبد الله بن رواحة وآخرون .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن يثرب ان الأوس والخزرج ، لم يكونوا كأهل مكة من حيث الميل الى الهدوء والاستقرار ، بل كانوا أميل من أهل مكة الى حياة البداوة القائمة على الحصومة والتقاتل . وقد بقي الحيان يتخاصمان حتى جاء الرسول اليهما ، فأمرهما بالكف عنه ، ووجهتهما وجهة أخرى أنستهما الحصومة العنيفة التي كانت فيما بينهما . ويظهر من رواياتهم ايضاً ان الأوس والخزرج ، وإن

١ الكامل (٢٨٠/١ وما بعدها) .

٢ ابن خلدون (٢٨٩/٢ وما بعدها) ، ابن هشام (ص ٣٨٥) ، البرقوقي (ص ٢٧٨ وما بعدها) ، البلدان ، لياقوت (٤٥١/١) ، الميداني ، الأمثال (٢/١) ، اللسان (١٨/٦) ، (أوس) ، تاج العروس (٦٠٤/١) ، البكري ، معجم (٢٦٠/١) .

٣ الاشتقاق (٢٦٣) .

كانوا قد تحضروا واستقروا ، غير انهم لم يتمكنوا من التخلص من الروح
الأعراية تخلصاً تاماً ، بل بقوا محافظين على أكثر سجايها ، ومنها النزعة الى التخاصم
والقتال ، فألهتهم هذه النزعة عن الانصراف الى غرس الارض والاشتغال بالزراعة
كما فعل اليهود ، وعن الاشتغال بالتجارة بمقياس كبير على نحو ما فعل أهل مكة .
ونظراً لمساعدة أهل يثرب للرسول ومناصرتهم له وللمهاجرين ، عرف الأوس
والخزرج بـ (الأنصار) في الاسلام . وصاروا يفتخرون بهذه التسمية ، حتى
غلبت عليهم ، وصارت في منزلة النسب .

وكان أهل (يثرب) مثل غيرهم تجاراً ، يخرجون الى أسواق الشام فيتجرون
بها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال منها تاجروا مع بلاد الشام . وكان
(يهود) يثرب يتاجرون أيضاً ، ويأتون الى أهل (يثرب) بما يحتاجون اليه
من تجارات . كما (كانت الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والاسلام يقدمون بالبر
والشعر والزيت والتين والقماش ، وما يكون في الشام)^١ . وكانوا يتسقطون
الأخبار وينقلونها الى الروم عند ظهور الاسلام . فقدم بعض الساقطة المدينة ،
وأبو بكر ينفذ الجيوش ، وسمعوا كلام أبي بكر لعمر بن العاص ، وهو
يقول : عليك بفلسطين وإيليا ، (فساروا بالخبر الى الملك هرقل)^٢ ، وتهيأ
للقاء المسلمين .

ولم يذكر الرواة جنس هؤلاء (الساقطة) ، الذين كانوا يأتون بالتجارة من
بلاد الشام الى المدينة ، هل كانوا روماً أم عرباً ، أم يهوداً ، أم كانوا خليطاً
من كل هؤلاء . على كل كانوا تجاراً يأتون يثرب في الجاهلية لبيع ما يحملونه
من تجارة ، ولشراء ما يجدونه هناك ، وبقوا شأنهم هذا الى الاسلام ، كما نرى
من الخبر المتقدم .

هذا هو مجمل ما نعرفه عن تأريخ (يثرب) وهو شيء قليل ، لا يكفي
المتعطش لمعرفة تأريخ هذه المدينة التي تعدّ من المواضع المقدسة في الاسلام . ولا

١ الواقدي ، فتوح (ص ١٦) ، (طبعة بيروت ١٩٦٦ م) .

٢ الواقدي ، فتوح (١٦ وما بعدها) .

بد وان يأتي يوم سنكتشف فيه الأقنعة عن تأريخ المدينة قبل الاسلام . وذلك حين يقوم المنقبون المتخصصون بالبحث في تربتها عن الماضي المستور الدفين .

الطائف :

والطائف على مسافة خمسة وسبعين ميلاً تقريباً الى الجنوب الشرقي من مكة . وهي على عكس مكة أرض مرتفعة ذات جو طيب في الصيف فيه زرع وضرع ، وغنى جادت الطبيعة به على أهله . وقد كان وما زال مصيفاً طيباً يقصده أهل مكة فراراً من وهج الشمس .

وتقع الطائف على ظهر جبل غزوان ، وهو أبرد مكان في الحجاز ، وربما جمد الماء في ذروته في الشتاء ، وليس بالحجاز موضع يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع . وبينها وبين مكة واد اسمها نعمان الأراك . وهي كثيرة الشجر والتمر ، وأكثر ثمارها الزبيب والرمان والموز والأعناب ، ولا سيما الصديفي ، وفواكه أخرى عديدة . وهي تمون مكة بالفواكه والبقول^١ . وتحيط بها الأودية . ومن مواضعها ، (الوهط) ، وهو واد ، أو مكان مطمئن من الأرض مستوي ، تنبت فيه العضاة والسمر والطلح والعرفط ، وقد اتخذ بستاناً ، صار لـ (عمرو ابن العاص) ، ثم لابنه . وقد عرف بكثرة كرمه وأنواع أعنابه^٢ .

والى الشرق من الطائف واد يقال له (لية) ، ذكر بعض أهل الأخبار ان أعلاه لثيف وأسفله لـ (بني نصر بن معاوية) من هوازن^٣ .

وتأريخ مدينة الطائف تأريخ غامض ، لا نعرف من أمره شيئاً . إذ لم تمس تربتها أيدي علماء الآثار بعد ، كما ان السياح لم يجدوا في الطائف كتابات قديمة بعد . ولكن مكاناً مثل الطائف لا بد ان يكون له تأريخ قديم ، ولا يعقل ان يكون من الأمكنة التي ظهرت ونشأت قبيل الاسلام . وليس لنا من أمل في

١ تقويم البلدان (٩٥) ، صورة الأرض ، لابن حودل (٣٩) ، البكري ، معجم (٣١/٣ ، ٨٨٦) .

٢ تاج العروس (٢٤٣/٥) ، (وهط) .

٣ صفة (١٢٠) ، ، تاج العروس (٣٣٤/١٠) ، (لو) .

الحصول على شيء من تأريخ الطائف إلا بقيام العلماء بمناجاة تربتها واستدراجها لتبوح لهم بما تكنه من كتابات مسجلة في الألواح يتحدث عن تأريخ هذا المكان المهم .

وقد عثر الباحثون فعلاً على كتابات مدونة على الصخور المحيطة بمدينة الطائف الحديثة وفي مواضع غير بعيدة عنها . وقد تبين أن بعضاً منها بالنبطية وبعضاً آخر بالشمودية ، وأن بعضاً بأبجدية أخرى ، وأن بعضاً بأبجدية القرآن الكريم ، أي بقلم اسلامي . ولا يستبعد عثر العلماء في المستقبل على كتابات ستكشف عن تأريخ هذه البقعة ، وعن تأريخ من سكنها قبل الاسلام وقبل ثقيف . وذكر أن بعض كتابات يشبه شكلها شكل الأبجدية اليونانية ، وكتابات أخرى يشبه خطها الخط الكوفي عثر عليها في (بستان شهار) على مسافة كيلومترين الى الجنوب من الطائف^١ . غير أنها لم تدرس حتى الآن . ومكان مهم بالنسبة للطرق التجارية ولموقعه المعتدل الجميل ، لا بد وأن يكون قد لفت أنظار سكان العربية الغربية قبل الميلاد فسكنوه ، ولا أستبعد امكانية تدوين تأريخ صحيح لهذه المدينة اذا ما قام المنقبون بالبحث فيها وفي الأماكن القريبة منها لاستنطاقها ، لتحدث لهم عما عرفته من أخبار تلك الشعوب التي سكنت هذا الموضع قبل ثقيف .

ويزعم أهل الأخبار أن الطائف إنما سميت طائفاً ، بحائطها المطيف بها . أما اسمها القديم ، فهو (وَجَّ) . ولهم روايات عن كيفية قيام ذلك الحائط . وقد حاول بعض أهل الأخبار اعطاء الطائف مسحة دينية ، فزعموا بأنها من دعوات ابراهيم ، وأنها قطعة من أرض ذات شجر كانت حول الكعبة ، ثم انتقلت من مكانها بدعوة ابراهيم ، فطافت حول البيت ، ثم استقرت في مكانها ، فسميت الطائف ، وزعمت أن جبريل اقتطعها من فلسطين ، وسار بها الى مكة فطاف بها حول البيت ، ثم أنزلها حول الطائف^٢ . وهكذا أكسبت هذه الروايات الطائف

١ Osman R. Rostem, Rock Inscriptions in the Hijaz, P. 11.

٢ البلدان (٣ / ٤٩٩ وما بعدها) ، المقدسي البدء والتاريخ (٢ / ١٠٩) ، الكامل ، لابن الاثير (١ / ٤٢٠ وما بعدها) ، (والطائف من بلاد ثقيف . قال أبو طالب بن عبد المطلب :

منعنا أرضنا من كل حيٍّ كما امتنعت بطائفها ثقيف
وهي في واد بالغور ، أول قراها : لقيم وآخرها الوهط . سُميت لأنها طافت على =

قدسية ، وجعلت لها مكانة دينية . وهي روايات يظهر أنها وضعت بتأثير من سادات ثقيف المتعصبين لمدينتهم ، والذين كانوا يرون ان مدينتهم ليست بأقل شأناً من مكة أو يثرب . وقد كان بها سادات وأشراف كانوا أصحاب مال وثناء .

وقد زعم بعض أهل الأخبار ان الذي أقام حائط الطائف رجل من الصدف ، يقال له (الدمون بن عبد الملك) ، قتل ابن عم له يقال له (عمرو) بحضرموت ، ثم فرّ هارباً ، ثم جاء الى (مسعود بن معتب الثقفي) ومعه مال كثير ، وكان تاجراً ، فقال : أريد ان أحالفكم على ان تزوجوني وأزوجكم

= الماء في الطوفان ، أو لأن جبريل عليه السلام طاف بها على البيت سبعا . نقله الميورقي عن الأزرقى . أو لأنها كانت قرية بالشام فنقلها الله تعالى الى الحجاز بدعوة ابراهيم عليه السلام اقتلاعاً من نخوم الثرى بعيونها وثمارها ومزارعها وذلك لما قال: ربنا اني أسكنت من ذريتني بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . نقله أبو داود الأزرقى في تاريخ مكة وأبو حذيفة اسحاق بن بشر القرشي في كتاب المبتدأ، وهو قول الزهري . وقال الفسطلاني في المواهب : ان جبريل عليه السلام اقتلع الجنة التي كانت لاصحاب الصريم فسار بها الى مكة ، فطاف بها حول البيت ثم أنزلها حيث الطائف ، فسمي الموضع بها . وكانت أولا بنواحي صنعاء . واسم الأرض وج . وهي بلدة كبيرة على ثلاث مراحل أو اثنتين من مكة من جهة المشرق كثيرة الأعناب والفواكه . وروى الحافظ بن عات في مجالسه ان هذه الجنة كانت بالطائف ، فاقتلعها جبريل وطاف بها البيت سبعا ثم ردها الى مكانها ثم وضعها مكانها اليوم . قال أبو العباس الميورقي : فتكون تلك البعثة من سائر بقع الطائف ، طيف بها بالبيت مرتين في وقتين ، أو لأن رجلاً من الصدف ، وهو ابن الدمون بن الصدف . واسم الصدف : مالك بن مرثد بن كندة من حضرموت أصاب دماً في قومه بحضرموت ففر الى وج ولحق بشقيف وأقام بها وحالف مسعود بن معتب الثقفي أحد من قيل فيه انه المراد من الآية : على رجل من القريتين عظيم . وكان له مال عظيم . فقال لهم : هل لكم ان أبني لكم طوفا عليكم يطيف ببلدكم يكون لكم رداء من العرب . فقالوا : نعم فبناه وهو الحائط المطيف المحقق به . وهذا القول نقله السهيلي في الروض عن البكري وأعرض عنه . وذكر ابن الكلبي ما يوافق هذا القول . وقد خصت الطائف بنصائيف . وذكروا هذا الخلاف الذي ساقه المصنف وبسطوا فيه ، أورد بعض ذلك الحافظ ابن فهد الهاشمي في تاريخ له خصه بذكر الطائف) ، تاج العروس (١٨٤/١) ، (طوف) .

وأبني لكم طوقاً عليكم مثل الحائط لا يصل اليكم أحد من العرب ، فوافقوا على ذلك ، وبني لهم طوقاً عليهم ، فسميت الطائف ، فزوجه^١ .

وقد كان لأهل الطائف معبد يحجّون اليه ، هو معبد (اللات) . وكانوا يعظّمونه ويتبركون به . ويذكر أهل الأخبار ان اللات كان صخرة مربعة يلتجئ إليها يهودي عندها السويق . وكان سدّته (بنو عتاب بن مالك) وهم من ثقيف . وقد بنوا له بناءً ضخماً . وكانت العرب ، ومنها قريش ، تعظمه ، وتُحجّ اليه وتطوف به . وقد هُدم في الإسلام ، عند فتح الطائف ودخول أهلها فيه . وقد هُدم الصنم : المغيرة بن شعبة ، وأحرقه بالنار . ويقع موضعه تحت منارة المسجد ، الذي بني على أنقاض ذلك المعبد ، وهو مسجد المدينة . فمسجد الطائف إذن هو معبد اللات القديم ، وهو في الطائف نفسها^٢ .

ويرجع أهل الأخبار زمان الطائف الى العمالة ، ويقولون : انها انما سميت (وَجّاً) بوج بن عبد الحي ، من العماليق ، وهو أخو (أجأ) الذي سُمي به جبل (طي) . ثم غلب عليها (بنو عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ابن مُضَر) ، ثم غلبهم (بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر هوازن) ، وذلك بعد قتال شديد . ثم استغلت ثقيف الظروف ، فاستولت عليها ، وأخذتها من (بني عامر) ، فارتحل (بنو عامر) عنها ، ونزحوا الى تهامة ، وتحكم بها بنو ثقيف^٣ .

١ البلدان (١٠/٦) فما بعدها ،

٢ ابن الكلبي ، الأصنام (١٦ وما بعدها) ، القزويني ، آثار البلاد ، (٦٤ وما بعد

٣ الكامل ، لابن الأثير (٤٢٠/١ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، المعارف (٩١) ، (

اسم واد بالطائف بالبادية ؟) سمي بوج بن عبد الحي من العمالة وقيل من خز

قال عمرو بن حزام :

أحقا يا حمامة بطن وج	بهذا النوح انك تصدقينا
غلبتك بالبكاء لأن كيلى	أواصله وأنك تهجيننا
وإني ان بكيت نكيت حقاً	ولكنني أسرّ وتعلنينا
فنوحى با حمامة بطن وج	فقد هيجت مشتاقاً حزيناً

قرأت هذه الأبيات في الحماسة لأبي تمام . والذي ذكرت هنا رواية المعجم ، وبينه تفاوت قليل ، تاج العروس (١١٠/٢) ، (الوج) ، (ووج موضع بالبادية وقيل : هي الطائف) ، (وفي الحديث صيد وج وعضاهه حرام محرم : قال : هو =

ويذكر بعض أهل الأخبار أن أول من ملك الطائف (عدوان بن عمرو بن قيس ابن عَيْلَان بن مضر) . فلما كثر (بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر ابن هوازن) ، غلبوهم على الطائف بعد قتال شديد^١ . وقد كانت مواطن (بني عامر) بنجد . وكانوا يصيرون بالطائف ، حتى غلبتهم ثقيف . فخرجوا إلى تهامة . وكان منهم (عامر بن الظرب العدواني) أحد الحكماء العرب^٢ .

وقد ورد في بعض الأخبار أن قوم ثمود هم الذين نزلوا بالطائف بعد العماليق ، فأخذوها منهم ، وذلك قبل ارتحالهم عنها إلى وادي القرى ، بسبب منازعة القبائل لهم ، ومن ثم ربط رواة هذه الأخبار نسب ثقيف بثمود . وقد صيّر بعض أهل الأخبار ثقيفاً مولى من موالي هوازن ، ونسبهم آخرون إلى إِيَاد^٣ .

وجاء في رواية أخرى أن أقدم سكان الطائف هم بنو مهلائيل بن قينان ، وهم الذين عمروها وغرسوها وأحيوا مواتها . وقد سكنها قبل الطوفان . فلما وقع الطوفان ، كانوا في جملة من هلك فيه من الأمم الباغية . فخلت الطائف منهم ، وسكنها بعدهم بنو هانيء بن هذلول بن هودلة بن ثمود ، فأعادوا بناءها وعمروها حتى جاءهم قوم من الأزدي على عهد (عمرو بن عامر) ، فأخرجوهم عنها ، وأقاموا بها وأخذوا أماكنهم ، ثم توالى عليها العرب حتى صارت في أيدي ثقيف^٤ .

وصيّر بعض أهل الأخبار ثقيفاً رجلاً متشرداً ، اتفق مع ابن خاله النخع على الهجرة في طلب الرزق والعيش ، فذهب النخع إلى اليمن ، فنزل بها ، وذهب (ثقيف) إلى وادي القرى ، فنزل على عجوز يهودية لا ولد لها ، واتخذها ثقيف أمّاً له . فلما حضرها الموت ، أوصت له بما كان عندها من دنائير وقضبان ، ثم دفنها وذهب نحو الطائف . فلما كان على مقربة منها ، وجد أمة

= موضع بناحية الطائف وباحتمل أن يكون حرمة في وقت معلوم ثم نسخ . وفي حديث كعب : أن وجا مقدس ، منه عرج الرب إلى السماء) ، اللسان (٣٩٧/٢) ، (وجج) .

- ١ الكامل ، لابن الأثير (٤٢٠/١) وما بعدها .
- ٢ ابن خلدون (٦٣/٥) .
- ٣ ابن خلدون (٦٤١/٢) وما بعدها .
- ٤ الهماذني ، صفة (٣١٢/١) وما بعدها ، المادان (٤٩٨/٣) وما بعدها ، اللسان (٢٢٥/٩) ، صورة الأرض (٣٩) .

حبشية ترعى غنماً ، فأراد قتلها ليستولي على ماشيتها ، فارتابت منه ، وأخبرته بأن يصعد الى الجبل . فيستجير بـ (عامر بن الظرب العدواني) فإنه سيجبره ويغنيه ، ويربح أكثر من ربحه من استيلائه على هذه الغنم . فذهب اليه ، وأجاره ، وأغناه ، وأنزله عنده ، وزوجه ابنة له ، وبقي مقيماً في الطائف ، وتكاثر ولده ، حتى زاحموا بني عامر ، وتلاحياً ثم اقتتلا ، فتغلبت ثقيف على بني عامر ، واستولت على الطائف^١ .

ويذكر هؤلاء الرواة ان ثقيفاً اتفقوا مع (بني عامر) على ان يأخذوا الطائف لهم ويرحل بنو عامر عنها ، فيدفعوا لهم نصف ما يحصلون عليه من غلات . وقد بقوا على ذلك أمدأ ، حتى ثبتت ثقيف نفسها في الطائف وقوت دفاعها وأحكمت مواضعها ، ثم امتنعت عن دفع أي شيء كان لبني عامر ، فوقع قتال بين الطرفين انتهى بانتصار ثقيف . وصارت بذلك سيدة الطائف بلا نزاع .

وقد حسدهم طوائف من العرب ، وقصدوهم لما صار لهم من مركز ومن رزق رغد وأثمار وجنان ، ولكنهم لم يتمكنوا من الظفر بطائل ، وتركوهم على حالهم^٢ .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (عبد ضخم) كانوا فيمن سكن الطائف . وقد كانوا من عاد الأولى ، وهلكوا فيمن هلك من عاد ومن أقوام بائدة . وذكر انه كان بالطائف قوم من يهود ، طردوا من اليمن ومن يثرب ، فجاءوا الى الطائف ، وسكنوا فيها ، ودفعوا الجزية لساداتها ، ومن بعضهم ابتاع (معاوية) أمواله بالطائف^٣ .

وقد كان لوقوع الطائف على مرتفع ، ولحائطها المزود بأبراج واستحكامات

١ البلدان (٤٩٨/٣ وما بعدها) ، (وثقف كأمر ، أو قبيلة من هوزان ، واسمه قسي بن منبه بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . وقد يكون ثقيف اسماً للقبيلة والأول أكثر . قال سيبويه : وأما قولهم هذه ثقيف فعلى ارادة الجماعة . وانما قال ذلك لغلبة التذكير عليه . وهو مما لا يقال فيه من بني فلان) ، ناج العروس (٥١/٦) ، (ثقف) .

٢ البلدان (٤٩٨/٣ وما بعدها) .

٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .

الفضل بالطبع في صدّ الأعراب ومنعهم من نهبها وغزوها . والظاهر ان اهل الطائف كانوا قد اقتفوا اثر اليمن في الدفاع عن مدنهم وقراهم ، حيث كانوا يبنونها على المرتفعات في الغالب ، ثم يحيطون ما يبنونه بأسوار ذات أبراج لمنع العدو من الدنو منها ، ولا سيما الأعراب الذين لم يكونوا بحكم طبيعة معيشتهم في ارض منبسطة مكشوفة ، ولفقرهم وعدم وجود اسلحة حسنة لديهم يستطيعون مهاجمة مثل هذه التحصينات ، وأخذها على غرة حيث تقفل ابواب الأسوار وتغلق ليلاً ، وفي اوقات الخطر - فلا يكون في استطاعة احد ولوجها ، لذلك صارت هذه التحصينات من اثقل الاعداء على قلوب الأعراب .

ولما همّ (أبرهة) بالسير الى مكة ، كانت الطائف في جملة المواضع التي نزل بها في طريقه اليها . وقد خرج اليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف ، فأتوه بالطاعة ، وبعثوا معه (أبا رغال) دليلاً ، فانزله المغمّس بين الطائف ومكة ، فهلك (ابو رغال) هناك وقبره في ذلك الموضع .

وعند ظهور الاسلام كان أغلب سكان هذا الموضع ينتسبون الى قبيلة ثقيف . وترجع هذه القبيلة نسبها مثل القبائل الاخرى الى جدّ أعلى ، يقولون ان اسمه (قسي بن منبه) ، ويقول الأخباريون انما دعي قسيّاً لأنه قتل رجلاً ، فقبل قسا عليه ، وكان غليظاً قاسياً .^١

والنسابون يختلفون في نسبه ، فمنهم من ينسبه الى إياد ، فيجعله قسي بن نبت ابن منبه بن منصور بن مقدم بن أفصى بن دُعَمِيّ بن إياد بن معدّ ، ومنهم من يجعله من هوازن ، فيقول : قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان .^٢

ونحن اذا درسنا ما رواه اهل الاخبار عن نسب ثقيف ، وعن القبائل التي اتصلت بها ، نجد انها كانت ذات صلة وثيقة بقبائل (قيس عيلان) من مجموعة مضر . ومعنى هذا انها كانت على مقربة منها ، وانها كانت من قبائل مضر . كما نجد في الوقت نفسه انها كانت على صلات وثيقة مع بعض قبائل اليمن . وقد

١ الاشتقاق (١٨٣) .

٢ ابن الأثير ، الكامل (٢٨٨ / ١) ، الأغاني (٧٤ / ٤) ، البلاذري ، انساب الاشراف Ency., IV, P. 734.

(٢٥ وما بعدها) .

فسرت هذه الصلوات بوجود نسب لثقيف باليمن . وهذا النسب المزدوج ، هو كناية عن الصلوات التي كانت تربط بين (ثقيف) ومجموعة (مضر) ، وبينها وبين قبائل اليمن . وهو تعبير عن موضع الطائف المهم الوسط ، الذي يربط بين اليمن والحجاز والطرق المارة الى نجد . مما جعله وسطاً وموضعاً للاحتكاك بين قبائل هذه الأرضين .

وصيروا ثقيفاً في رواية اخرى ابناً لأبي رغال ، ثم رفعوا نسب الابن والأب الى قوم ثمود ، وجعله حماد الرواية ملكاً ظالماً على الطائف ، لا يرحم احداً ، مرت في سنة مجدية بامرأة ترضع صبيّاً يتيماً بلبن عترة لها ، فأخذها منها فبقى الصبي بلا مرضعة ، فمات ، فرماه الله بفارعة فأهلكه ، فرجمت العرب قبره ، وصار رجم قبره سنة للناس .^١ فهل تجد رجلاً الأم من هذا الرجل على هذا الوصف ؟ .

وقد قيل في (ابي رغال) انه كان رجلاً عشاراً في الزمن الأول ، جائراً ، وقيل كان عبداً لشعيب ، وقيل : اسمه (زيد بن مخلف) عبدٌ كان لصالح النبي ، وأنه ارسله الى قوم ليس لهم لبن الا شاة واحدة ، ولهم صبي قد ماتت أمه يغذونه بلبن تلك الشاة ، فأبى ان يأخذ غيرها ، فقالوا : دعها نحايي بها هذا الصبي ، فأبى ، (فيقال : انه نزلت به قارعة من السماء ، ويقال : بل قتله رب الشاة . فلما فقده صالح ، قام في الموسم ينشد الناس ، فأخبر بصنيعه ، فلعننه ، فقبره بين مكة والطائف يرحمه الناس) .^٢

١ الأغاني (٧٤/٤) .

٢ (عن أنس . قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر ، فقال : هذا قبر ابي رغال ، وهو أبو ثقيف . وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته البقعة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه . الحديث . وأورده القسطلاني هكذا في المواهب في وفادة ثقيف . وبسطه الشراح . وقول الجوهري والصاغاني كذلك انه كان دليلاً للمحبشة حين توجهوا الى مكة حرسها الله تعالى ، فمات في الطريق بالمغمس . قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال

غير جيد . وكذا قول ابن سيده كان عبداً لشعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام . وكان عشاراً جائراً فقبره بين مكة والطائف يرحم اليوم . وقال ابن المكرم : ورايت في هامش الصحاح ما صورته : أبو رغال اسمه زيد بن مخلف عبد كان لصالح النبي .

وفي رأيي ان معظم هذه الروايات التي يرويها الاخباريون عن ثقيف انما وضعت في الاسلام ، بغضاً للحجاج الذي عرف بقسوته وبشدته ، فصبروا ثقيفاً عبداً لأبي رغال ، وجعلوا اصله من قوم نجوا من نمود . وأبو رغال نفسه جاسوس خائن في نظر الاخباريين ، حاول إرشاد أبرهة الى مكة ، فكيف يكون اذن حال رجل من قوم فسقة كفرّة ، ثم صار عبداً لجاسوس لثيم ! وقد رأيت ان من اهل الاخبار من صيّر (ثقيفاً) رجلاً مهاجراً ، هاجر في البلاد يلتمس العيش حتى جاء وادي القرى ، فتبنته عجوز يهودية ، وعطفت عليه ، حتى اذا ما ماتت اخذ مالها ، وهاجر الى الطائف ، وكان لثيماً فطمع في غنم لآمة حبشية ، وكاد يقتلها لولا اشارتها عليه باللجوء الى (عامر بن الظرب) ، الجواد الكريم وصاحب الطائف ، فأعطاه وجباه ، ولكن أبى لثوم ثقيف الا ان ينتقل الى ولده ، فتنكروا لبني عامر وأخرجوهم عن الطائف ، واستبدلوا وحدهم بها .

وبنو ثقيف حزبان : الأحلاف ومنهم : (غيلان بن سلمة) و (كنانة بن عبد ياليل) و (الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب) ، و (ربيعة بن عبد ياليل) و (شرحبيل بن غيلان بن سلمة) و (عثمان بن أبي العاص) و (أوس بن عوف) و (نعيم بن خرشة بن ربيعة) ، وقد ذهب هؤلاء الى الرسول وأسلموا ، فاستعمل عليهم (عثمان بن أبي العاص) . وأما القسم الثاني ، فعرف بـ (بني مالك) ، وقد ذهب نفر منهم مع هذا الوفد الى الرسول ، فضرب لهم قبعة في المسجد . وأما الأحلاف ، فتركوا ضيوفاً على (المغيرة بن شعبه) وهو من ثقيف .^١

= عليه السلام بعثه مصدقا ، انه أبى قوما ليس لهم لبن الا شاة واحدة ولهم صبي قد ماتت أمه ، فهم يعاجونه بلبن تلك الشاة ، يعني يغذونه ، فأبى أن يأخذ غيرها . فقالوا : دعها نحايي هذا الصبي ، فأبى . فيقال انه نزلت به فارعته من السماء . ويقال : بل قتله رب الشاة ، فلما فقده صالح عليه السلام ، فام في الموسم ينشد الناس ، فأخبر بصنيعه ، فلعنه ، فقبره بين مكة والطائف يرحمه الناس) ، تاج العروس (٣٤٨/٧) ، (رغال) ، (والمغمس كمعظم ومحدث ، الأول هو المشهور عن أهل مكة والثاني نقله الصاغاني ، وقال لغة فيه بطريق الطائف بالقرب من مكة . فيه قبر أبي رغال دليل أبرهة الحبشي الى مكة وبرجم الى الآن . قال أمية بن أبي الصلت :

حبس العيل بالمغمس حتى طل فيه كأنه مغبور) ، ناح العروس (٢٠٣/٤) ، (غمس) .

١ ابن سعد ، طبقات (١ / ٣١٢ وما بعدها) .

ومن الاخلاف في الاسلام : المختار بن أبي عبيد ، والحجاج بن يوسف .
ومن زعماء الاحلاف عند ظهور الاسلام : امية بن ابي الصلت ، والحارث
ابن كلدة ، ومعتب ، وعتاب ، وأبو عتبة ، وعتبان .^١

ويذكر اهل الاخبار ان حرباً وقعت بين (مالك) والاحلاف ، فخرجت
الاحلاف تطلب الحلف من اهل يثرب على (بني مالك) ، وعلى رأسها (مسعود
ابن معتب) رأس الاحلاف . فقدم على (احيحة بن الحلاج) ، احد بني
عمرو بن عوف من (الأوس) . فطلب منه الحلف . فأشار عليه (احيحة) ،
ان عليه ان يعود الى الطائف ويصالح اخوانه ، فان احداً لن ير له اذا حالفهم .
فانصرف (مسعود) عن (عتبة) بعد ان زوده بسلاح وزاد وأعطاه غلاماً يني
الاسوار . فلما وصل ، أمر الغلام ببناء سور حول الطائف . فبناه له ، وأحيطت
الطائف بسور قوي حصين ، وأمنت بذلك على نفسها من غارات الاعراب .^٢

ويختلف اهل الطائف عن اهل مكة ، وعن الاعراب من حيث ميلهم الى
الزراعة واشتغالهم بها وعنايتهم بغرس الاشجار . وقد عرفت الطائف بكثرة زيبها
وأعناها واشتهرت بأثمارها . وقد كان اهلها يُعنون بزراعة الأشجار المثمرة ، ويسعون
الى تحسين انواعها وجلب انواع جديدة لها ، فقد استوردوا اشجاراً من بلاد
الشام ومن أماكن أخرى وغرسوها ، حتى صارت الطائف تمتاز بمكة وغيرها
بالأثمار والخضر .

وثقيف حضر مستقرون متقدمون بالقياس الى بقية اهل الحجاز . فاقوا غيرهم
في الزراعة اذ عنوا بها كما ذكرت ، واستفادوا من الماء فائدة كبيرة ، وأحاطوا
المدينة ببساتين مثمرة ، كما فاقوا في البناء فيبيوتهم جيدة منظمة ، وكان لهم حذق
ومهارة في الأمور العسكرية . وقد تجلّى ذلك في دفاعهم عن مدينتهم يوم حاصرها
الرسول وتحصنهم بسورهم ، ورميهم المسلمين بالسهام وبالنار من فوق سورهم ،
يوم لم يكن لمكة ولا للمدينة سور ولا خنادق .

كذلك اختلف اهل الطائف عن غيرهم من أهل الحجاز في ميلهم الى الحرف

١ المعارف (٩١) .

٢ ابن الأثير ، الكامل (١ / ٤٢٠ وما بعدها) .

اليديوية مثل الدباغة والنجارة والحدادة ، وهي حرف مستهجنة في نظر العربي ،
يأنف من الاشتغال بها . ولكن أهل الطائف احترفوها ، وربحوا منها ، وشغلوا
رقيقهم بها . وقد استفادوا من خبرة الرقيق ، فتعلموا منهم ما لم يكن معروفاً
عندهم من اساليب الزراعة وأعمال الحرف ، فجددوا وأضافوا الى خبرتهم
خبرة جديدة .

وقد عاش أهل الطائف في مستوى هو أرفع من مستوى عامة أهل الحجاز ،
فقد رزقوا فواكه أكلوا منها ، وجففوا بعضها مثل (الزبيب) ، وأكلوا
وصلروا منه ما زاد عن حاجتهم ، كما اقتاتوا بالحبوب واللحوم . حتى حظ
فقراء الطائف ، هو أرفع وأحسن درجة من حظ فقراء المواضع الأخرى
من الحجاز .

وقد ذهب المفسرون الى أن كلمة القريتين الواردة في القرآن الكريم ، تعني
مكة والطائف . (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .^١
وكان رؤساؤها من المثريين الكبار ، لهم حصون يدافعون بها عن انفسهم وعن
أموالهم ، ولهم علم بالحرب . ولحماية مدينتهم أقاموا حصوناً على مسافات منها ،
وحوّطوا مدينتهم بسور حصين عال ، يردّ من يحاول دخولها ، وجمعوا عندهم
كل وسائل المقاومة الممكنة التي كانت معروفة في ذلك العهد ، مثل أوتاد الحديد
التي ترمى بالنار لتلقى على الجنود المختفين بالدبابات ، وغير ذلك من وسائل
المقاومة والدفاع ، كما كانوا قد تعلموا من أهل اليمن مثل مدينة « جرش » صناعة
العرادات والمنجنيق والدبابات .^٢

وكان أغنياء (الطائف) ، كأغنياء مكة وأغنياء المواضع الأخرى من جزيرة
العرب أصحاب ربا ، ولما اسلموا اشترط عليهم الرسول أن لا يرابوا ، ولا
يشربوا الخمر . وكتب لهم كتاباً .^٣ وكانت لهم تجارة مع اليمن ، ولكننا لا نسمع

١ الزخرف ، الآية ٣١ ، الطبرسي ، مجمع (٤٦/٥) ، تفسير الطبري (٣٩/٢٥) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٣١٢/١) (بروك ١٩٥٧ م) ، السيرة الحلبية (١٣١/٣) وما
بعدها .

٣ البلاذري ، فنوح (٦٧) .

شيئاً عن قوافل كبيرة كقوافل أهل مكة ، كانت تتاجر مع بلاد الشام أو العراق . ولعلمهم كانوا يساهمون مع تجار مكة في اتجارهم مع تلك الديار .

وقد اشتهرت الطائف بدباغة الجلود ، وذكر أن مدابغها كانت كثيرة ، وأن مياهها كانت تنساب الى الوادي ، فتنبعث منها روائح كريهة مؤذية .^١ واشتهرت بفواكهها وبعسلها .^٢

وقد استغل أثرياء قريش أموالهم في الطائف ، فاشتروا فيها الأرضين وغرسوها واستثمروها ، واشتروا بعض المياه ، وبنوا لهم منازل في الطائف ليتخذوها مساكن لهم في الصيف ، وأسهموا مع رؤساء ثقيف في أعمال تجارية رابحة ، وربطوا حبائهم بحبائهم ، وحاولوا جهد امكانهم ربط الطائف بمكة في كل شيء .^٣

ولما فتحت مكة ، وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها ، حتى اذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكين ، وصارت أرض الطائف مخالفاً من مخالف مكة .^٤

وقد كان بين أهل مكة وأهل الطائف تنافس وتحاسد ، وقد حاول أهل الطائف جلب القوافل اليهم ، وجعل مدينتهم مركزاً للتجار يستريحون فيه ، وقد نجحوا في مشروعهم هذا بعض النجاح يوم استولى الفرس على اليمن ، وتمكنوا فيه من طرد الحبش عن العربية الجنوبية ، فصارت قوافل (كسرى) التجارية و (لطاءم) ملوك الحيرة تذهب الى اليمن وتعود منها من طريق الطائف ، ونغصت بذلك عيش أهل مكة ، غير أن أهل مكة تمكنوا من التغلغل الى الطائف ومن بسط سلطانهم عليها ، باقراض ساداتها الأموال ، وبشراء الأرضين . فبسطوا بذلك سلطانهم عليها ، وأقاموا بها أعمالاً اقتصادية خاصة ومشركة ، وهكذا استغل أذكيا مكة هذا الموضع المهم ، وحوّلوه الى مكان صار في حكم التابع لسادات قريش .

ومن سادات الطائف : (عبد ياليل) وإخوته (حبيبا) و (مسعودا) و (ربيعة) و (كنانة) وهم (بنو عمرو بن عمير بن عوف بن عقلة بن

١ البلدان (١٠/٦ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، فتوح (٦٨ وما بعدها) .

٣ البلاذري ، فتوح (٦٨) .

٤ البلاذري ، فتوح (٦٨) .

غيرة الثقيفي) ، وكانوا أثرياء أجواداً يطعمون بالرياح ^١ . وأمههم (قلابة بنت الحارث بن كلفة بن عمرو بن علاج) الثقيفي ^٢ . وبيت (بني علاج) من البيوت القديمة المعروفة بالطائف ^٣ .

وقد لقي الرسول مقاومة عنيفة من أهل الطائف حين حاصرها وأحاط بها ، فقد تحصن أهلها بحائطهم وبمحصولهم ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم ، وصنعوا الصنائع للقتال . أما من كان حول الطائف من الناس ، فقد أسلموا كلهم . ولما ضيق المسلمون الحصار عليها ، وقربوا من الحائط ، دخل نفر من أصحاب رسول الله تحت دبابه ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، وقتلوا رجالاً ، فأمر رسول الله بقطع أعناب ثقيف ، كي يحملهم على فتح أبواب مدينتهم ومهادنة الرسول ، للإبقاء على أموالهم ، غير أنهم لم يبالوا بما رأوا من قطع أعنابهم وتخريب بساتينهم ، وبقوا على عنادهم ، مما حمل الرسول على ترك حصارهم والرحيل عنهم انتظاراً لفرصة أخرى ^٤ .

ويذكر أهل الأخبار ، ان (سلمان الفارسي) ، اتخذ منجنيقاً نصبه المسلمون على الطائف ، وان المسلمين كانت لهم دبابه ، جاء بها (خالد بن سعيد بن العاص) من (جرش) ^٥ .

ويذكر الطبري ان عروة بن مسعود ، وهو من وجوه الطائف ، كان قد تعلم مع غيلان بن سلمة صنعة الدبابات والضبور والمجانيق من أهل جرش ^٦ . وقد اشتهرت هذه المدينة بصنع آلات الحرب .

ولما انصرف الرسول عن الطائف ، اتبع أثره (عروة بن مسعود بن معتب) حتى أدركه قبل ان يصل الى المدينة ، فأسلم . فلما رجع الى الطائف على أمل

١ المحبر (٤٦٠) .

٢ المحبر (٤٦٠) .

٣ الإشتقاق (١٨٥) .

٤ الطبري (٨٢/٣ وما بعدها) (غزوة الطائف) .

٥ البلاذري ، أنساب (٣٦٦/١) .

٦ الطبري (٨٢/٣) .

اقناع أهلها بالدخول في الإسلام ، لمكانته فيهم ، رموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله . ثم أقامت ثقيف بعد مقتل عروة أشهراً ، ثم انهم ائتمروا بينهم ألا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، فأرسلوا وفدأ الى المدينة لمفاوضة الرسول على الدخول في الإسلام . فلما دخلوا عليه أبوا ان يحيّوه إلا بتحية الجاهلية ، ثم سألوه ان يدع لهم (الطاغية) ، وهي اللات لا يهدمها الى أجل ، لأنهم أرادوا بذلك (فيما يظهرون ان يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهون ان يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام . فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك إلا ان يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها . وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية ان يعفيهم من الصلاة ، وان يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه . وأما الصلاة ، فلا خير في دين لا صلاة فيه . فقالوا : يا محمد ، أما هذه فسنتيكها وإن كانت دناءة)^١ .

فلما وصل الوفد ومعه أبو سفيان والمغيرة بن شعبة ، الى الطائف ، وأرادا هدم الصنم ، (أراد المغيرة ان يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بندي الهرم^٢ ، فلما دخل المغيرة بن شعبة ، علاها يضربها بالمعول ، وقام قوم دونه - بنو معتب - خشية ان يرمى أو يصاب ... وخرجن نساء ثقيف حسراً يبكين) (ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس : واهأ لك . فلما هدمها المغيرة ، أخذ مالها وحليتها ، وأرسل الى أبي سفيان وحليتها مجموع ، ومالها من الذهب والجزع ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا سفيان ان يقضي من مال اللات دين عروة والأسود ابني مسعود ، فقضى منه دينها)^٣ .

وذكر عن (عروة بن مسعود الثقفي) انه كان من الرجال الذين كانوا عندهم عشر نسوة عند مجيء الاسلام^٤ ، وانه نادى على سطحه بالطائف بالأذان

١ الطبري (٩٩/٣ وما بعدها) .

٢ (الهدم) .

٣ الطبري (٩٩/٣ وما بعدها) .

٤ المحبر (ص ٣٥٧) .

أو التوحيد ، فرماه رجل من أهل الطائف فقتله ، وإن الرسول قال فيه : (مثله مثل صاحب ياسين)^١ . (ويقال إنه الذي ذكره الله عز وجل في التنزيل من القرينتين عظيم . وذكر بعض أهل العلم أن أربعة اتصل سؤدهم في الجاهلية والإسلام : عروة بن مسعود ، والجارود واسمه : بشر بن المعلى ، وجريير بن عبد الله ، وسراق بن جعشم المدلجي)^٢ .

وثقيف أقرب في الواقع إلى اليمن منهم إلى أهل الحجاز . وتكاد تكون ثقافتهم ثقافة يمانية ، وحياتهم الاجتماعية حياة اجتماعية من النوع المألوف في اليمن . حتى في الوثنية نجد لهم معبداً خاصاً بهم ، يتقربون إليه ويحجون له . ولعلّ هذه الاختلافات وغيرها هي من جملة العوامل التي صيّرت ثقيفاً مجتمعاً خاصاً معارضاً لمجتمع مكة ، وجعلت أهل الطائف يكرهون أهل مكة الذين امتلكوا أملاكاً في الطائف ، وكانوا يأتون إليها في الصيف هرباً من جوّ مكة المحرق .

ومن بطون ثقيف ، (بنو الحطيظ) و (بنو غاضرة) . ومن (بني الحطيظ) مالك بن حطيظ) ، وكان من ساداتهم في الجاهلية ، ومن ثقيف الشاعر أمية بن أبي الصلت . (وكان بعض العلماء يقول لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف أن أمية نبيّ ، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ودارس اليهود وكل الكتب قرأ . ولم يسلم ورثي قتلى بدر^٣ . ومن رجالهم (أبو محجن) ، كان شاعراً فارساً شجاعاً شهد يوم القادسية ، وكان له فيها بلاء عظيم ، وقد شهد يومئذ (عمرو بن معد يكرب) وغيره من فرسان العرب ، فلم يبل أحد بلاءه . و (الأخنس بن شريق) ، وتزعم ثقيف أنه أحد الرجلين اللذين ورد ذكرهما في القرآن ، على رجل من القرينتين عظيم : (الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة . وقد كان حليفاً لبني زهرة . وقد خنس بني زهرة يوم بدر^٤ .

ومن ثقيف (بنو علاج) ، ومنهم (الحارث بن كلدة) . (كان طيب

- ١ المحبر (ص ١٠٦) .
- ٢ الاشتقاق (١٨٦) .
- ٣ الاشتقاق (١٨٤) .
- ٤ الاشتقاق (١٨٥) .

العرب في زمانه وأسلم ومات في خلافة عمر ^١ . والمغيرة بن شعبة ^٢ .

ومن بني ثقيف عثمان والحكم ابن أبي العاص بن بشر بن دهمان الثقفي ، كانا شريفين عظيمي القدر ، ولي (عمر) عثمان عمان واليحرين وأقطعه الموضع المعروف بالبصرة بـ (شط عثمان) . ومنهم (تميم بن خرشة بن ربيعة) ، أحد وفد ثقيف الى رسول الله ، ومن فرسانهم في الجاهلية : (أوس بن حذيفة) وأدرك الإسلام ، و (ضبيس بن أبي عمرو) ، و (همام بن الأعقل) وآخرون ^٣ .

-
- ١ الاشتقاق (ص ١٨٥ وما بعدها) .
 - ٢ الاشتقاق (١٨٦) .
 - ٣ الاشتقاق (١٨٤) .

الفصل الرابع والأربعون

مجلد الحالة السياسية في جزيرة العرب عند ظهور الاسلام

استعرضنا في الفصول المتقدمة من هذا الكتاب حالة العرب السياسية قبل الاسلام على قدر ما أدّى اليه بحثنا ، وساعفتنا عليه الموارد . أما في هذا الفصل وهو خاتمة فصول القسم السياسي ، فنستعرض حالة العرب السياسية في القرن السادس للميلاد بوجه عام .

والقرن السادس للميلاد ، فترة من الفترات المهمة في تأريخ البشرية ، فيه ظهرت أمارات الشيخوخة على الانبراطورية الساسانية التي شيدها (أردشير الأول) على أثر الثورة التي اندلعت عام (٢٢٤ م) أو (٢٢٦ م) ، ثم لم تلبث ان انهارت في القرن السابع للميلاد بسرعة عجيبة ، وبأيد لم يحسب لوجودها حساب ، ومن مكان لم يكن له قبل ظهور الاسلام أثر ما فعّال في السياسة العالمية . وفي هذا القرن أيضاً برزت الأمراض العديدة التي ألت بالقيصرية ، والأملاك التي كانت خاضعة لها ، وهي أمراض لم تنج منها إلا بتر بعض أطرافها في القرن التالي له . فخرجت من ردهة العمليات تن من فاجعة الألم الذي حلّ بها ، ومن هول ما أصيبت به بذلك البتر .

وفي النصف الثاني من هذا القرن وُلدَ الرسول ، وبميلاد الرسول ظهر حدث تأريخي خطير للبشرية في النصف الأول من القرن السابع للميلاد ، يكفي ان أثره

قائم حتى الآن ، وانه سيقوم الى ما شاء الله ، وانه أوجد مفاهيم خلقية جديدة للبشرية ، وانه بشر برسالة قائمة على ان الدين لله ، وان الناس أمامه سواء ، لا فرق بين فرد وآخر وجنس وجنس ، ولا تمييز للون على آخر ، ثم لم يلبث ان انتشر بسرعة عجيبة لم ينتشر بمثلها دين من الأديان ، فقضى على إحدى الانبراطوريتين العظيمتين في عالم ذلك العهد ، واستأصل الأعضاء الثمينة من الانبراطورية الأخرى ، وأوجد من أشتات سكان جزيرة العرب أمة ، ومن قبائلها المتنازعة حكومة ذات سلطان ، وفاض على سداد الجزيرة ، وسقى ما وراءها من أرضين ، ثم وحد بين أقوام عديدين وجمعهم في صعيد دين الله .

وقد ابتلي هذا اقرن والنصف الأول من القرن التالي له بأوبئة وبآفات وبمجاعات زادت في مشكلاته الكثيرة التي ورثها من القرون السابقة له ، ففيه انتشرت أوبئة ابتلعت بضع مئات من البشر في كل يوم من أيام انتشارها ، كانت كالعواصف تنتقل من مكان الى مكان مكتسحة من تجده أمامها من مساكن ، وتعود بين الحين والحين لتبتلع ما يسد حاجتها من البشر والحيوانات . وفيه مُني العالم بزلازل وبنقص كبير في الغلات أوجد قحطاً ومجاعةً وفقراً في كثير من الأقطار ، حتى اضطر كثير من الناس الى هجر الأماكن المنكوبة والارتحال عنها الى أماكن أخرى فيها النجاة والسلامة .

ولا ريب ان ظروفاً هذه حالتها ، لا بد ان تتولد منها مشكلات اجتماعية وسياسية واقتصادية للحكومات وللرعية ، فاختل الأمن خاصة في المناطق الواقعة تحت أقدام الجيوش ، فيوماً تكتسحها جيوش الفرس فتهدم كل ما تجده أمامها من قرى ومدن ، ويوماً تغزوها جيوش الروم فتستولي على ما تجده أمامها من حاصلات زراعية ومن أموال . وفي ظروف هذه شأنها لا بد ان يجد الخارجون على النظام والطامعون في الربح السهل الحرام فرصاً مواتية لا يفرط فيها للكسب والظفر بما يرغبون فيه ، فتأثرت بذلك حالة سكان هذه الأرضين ، كما تعرضت التجارة للأخطار ، واضطر التجار الى سلوك طرق نائية ليكونوا بأمان من شر قطاع الطرق وفسادهم . وترك أكثر الناس مزارعهم وقراهم فراراً من هذا الوضع الى المدن الكبيرة البعيدة عن مواطن الغزو والأخطار ، فتحولت خيرة الأرضين الحصبة الى أرضين مجدية ، نتيجة لهذه الهجرة ، ولتراكم الأتربة في شبكات

الري . ولكن هذا القرن لم يعد مع ذلك حُكماً حاولوا جهد امكانهم إصلاح الخطأ ، وأناساً كان لهم حسّ وشعور بما وصلت اليه الحالة ، فنادوا بالإصلاح . ولكن صيحاتهم لم تكن ذات أثر خطير في قوم قلقين حائرين ، وليس في أيديهم زمام أمورهم ، وقد اعتراهم ذهول جعلهم لا يعرفون كيف يتصرفون . ثم ان الحمل كان ثقيلاً ، والأخطاء كثيرة ، والأمراض عديدة لا يقومها طبيب واحد أو أطباء معدودون .

لقد عزم (كسرى) الأول (٥٣١ - ٥٧٩ م) المعروف بـ (كسرى أنوشروان) ، على إصلاح الحال في مملكته ، فأمر بوضع دستور جديد للجباية يخفف عن كاهل الدافعين بعض الثقل ، وأمر بإصلاح الأرض وتوزيعها على شعبه بالعدل وبالإنصاف بين الناس حتى عرف لذلك بالعدل ، واستعان بمستشارين حكماء كانوا يعظونه ويرشدونه بطريقة الحكم والأمثال والعظات الى كيفية سياسة الرعية وتدبير أمورها ، كما ولى النواحي الروحية عنايته كذلك ، فأعاد الزردشتية القديمة ، وقاوم الحركة المزدكية التي قام بها (مزدك) في عهد والده (قباد الأول) (٤٨٣ - ٥٣١ م) (٤٨٨ - ٥٣١ م)^١ ، وهي حركة تدعو الى إلغاء الملكية ، والى الإباحية ، والى القضاء على امتيازات النبلاء ورجال الدين على ما تقوله الموارد التاريخية العربية المستندة الى موارد (فهلوية) شجعها (قباد) لما وجد فيها من مبادئ توافق سياسته الرامية الى مقاومة تلك الطبقات المتنفذة التي عارضت في انتقال العرش اليه ، والتي اجتمعت كلمتها برئاسة (موبدان موبد) والعظماء على انزاله من عرشه ، لما بدا لهم من ازوراره عنهم ، وانحرافه عن الزردشتية الى تعاليم مزدك المناهضة للموابذة ولعظماء المملكة الذين كانوا يتمتعون في المملكة بنفوذ واسع حدّ من سلطان (شاهنشاه) .

ورسالة مزدك وتعاليمه ، غامضة ، لا نعلم من حقيقتها شيئاً ، فقد أيدت كتبهم وطمست معالم دينهم في عهد (أنوشروان) ، ولم يبق منها إلا هذه التتف المدونة في الكتب العربية عن موارد (فهلوية) دوت في أيام محنة المزدكية وبعدها . ويظهر من هذه التتف انها حركة دينية اجتماعية سياسية تدعو الى توزيع الثروات بين الناس بالتساوي . والى انتزاع الأموال والأرضين من الأغنياء لاعطائها

للمقلّين ، حتى من كان عنده جملة نساء تؤخذ منه لتعطى لغيره من المحتاجين ، فهي على هذا التعريف فكرة اشتراكية متطرفة عارضت النظم الاجتماعية القائمة ، وهددت الدين القائم ، وجرأت العامة على تلك الطبقات ، كان الملك في حاجة اليها للإنتقام ممن عارضه فأيدها ^١ .

هذا وحيث أننا قد تعلمنا من التجارب التي تجري في الوقت الحاضر ومن دراستنا للموارد التاريخية القديمة ، ان ما يكتب عن قوم غضب الحاكمون عليهم لا يمكن ان يكون مرآة صافية يعبر عن وجه أولئك القوم وعن ملامحهم الحقيقية ، لذا فإننا لا نستطيع ان نقول ان ما وصل اليها عن المزدكية يمثل رأيها وعقيدتها تمام التمثيل ، إذ يجوز ان يكون منه ما هو مصنوع موضوع حمل عليهم ، وان رواة الأخبار قد غرّفوا منه ، ودوّنوه على نحو ما وصل اليها في كتبهم . لذلك يجب الانتباه الى هذه الملاحظة .

وحمل عدل الملك الساساني وحلمه وتسامحه مع رعيته ومساعدته للخارجين على الكنيسة الرومية الرسمية (من الفلاسفة والمثقفين بالثقافة الإغريقية القديمة ممن كانوا هدفًا لهجمات الكنيسة الأرثوذكسية في الإمبراطورية البيزنطية) على الهجرة الى المملكة الساسانية ، طامعين في عدل الملك وحمايته ، وفي يأة تكون فيها الحرية الفكرية مكفولة مضمونة ، لا ضغط فيها ولا إكراه . ولكنهم ما لبثوا ان وجدوا ان الزردشتية التي نصرها وأيدها (كسرى أنوشروان) ، وهي ديانة المملكة غير ملائمة للفلسفة ، وانها ليست أرحب صدرًا من (الأرثوذكسية) ، وانهم لم يكونوا على صواب بمجيئهم الى هذه الأرض ، فرجوا من (ملك الملوك) الترفق بهم ، بالسماح لهم بالعودة الى بلادهم . فلما كانت الهدنة ، طلب (كسرى) من قيصر في سنة ٥٤٩ م إباحة العودة الى ديارهم والتلطف بهم والعفو عما بدر منهم من الذهاب الى مملكته ^٢ .

١ الطبري (٨٧/٢ وما بعدها) ،

Nöldeke, Geschichte der Perser, S., 455, A. Christensen, Le Regne du Roi Kawadh I et le Communisme Mazdakite In der Kongl. Danske, Viden-skalernes Selskab., Copenhagen, 1935.

H. G. Wells, The Outline of History, P. 564.

وكان مما فعله (كسرى أنو شروان) أن هاجم الامبراطورية البيزنطية وقبصرها في عهد (يوسطقيان) (يسطنيانوس) (جستنيان) (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ، واشتبك معها في جملة حروب ، ووسع حدوده في الشرق ، وساعد الاحزاب المعارضة للروم ، وأرسل حملة الى اليمن بناء على طلب الأمراء المعارضين لحكم الحبشة عليها ، ساعدتهم في وضع خطة لازاحة الحبشة عنها .^١ والحبش هم حلفاء البيزنطيين واخوانهم في الدين وهم الذين حثوا النجاشي على فتح اليمن بعد ان يشوا من الاستيلاء عليها ومن الاستيلاء على الحجاز وبقية جزيرة العرب .

واتبع (كسرى الثاني) (٥٩٠ - ٦٢٨ م) المعروف بـ (كسرى أبرويز) ، وهو ابن (هرمز بن كسرى أنو شروان) ، خطوات جدّه وأسلافه الملوك الماضين في الحرب مع البيزنطيين ، فبلغ (خلقيدونية) ثلاث مرات ، واستولى على بلاد الشام ، ودخلت جيوشه القدس في سنة (٦١٤ م) . ثم استولى على مصر في سنة (٦١٩ م) ودوّخ بفتوحاته الروم الى أن عاجله ابنه بخلعه ، فاستراح الروم منه ، ثم لم يلبثوا أن استردوا من الفرس أكثر ما أخذوه منهم في تلك الحروب . وقد اضعفت هذه الحروب المتوالية الحكومة الساسانية وآذت الشعوب التي خضعت لحكمها وأفقرتها ، وأثرت على الأمن الداخلي وعلى الأوضاع الاقتصادية والعمرانية تأثيراً كبيراً ولا سيما في البلاد التي صارت ساحة تعبئة وتلاحم جيوش ، وهي بلاد العراق . ولم يعسد الانسان يأمن على حياته وعلى ماله ، وصار سواد الناس وكأنهم أبقار واجبها اعطاء الحليب وأداء الاعمال الأخرى للحكام ، والذبح للاستفادة من لحومها ومن جلودها وعظامها حينما تنتفي الحاجات الأخرى منها . وتأسد المرازبة وقادة الجيوش في الحكم ، حتى صار الحكم حكم عواطف وأهواء ومصالح ، و (انشاهنشاه) عاجز عن عمل كل شيء لأن (الشاهنشاهية) ، لم تعد متقيدة بالوراثة القديمة وبالآداب السلطانية ، بل صارت لمن يستعين بأصحاب العضلات وبمثيري الفتن والاضطرابات . أضف الى ذلك أن من بيده مفتاح الدفاع عن الدولة ، وهم الجنود ، والضباط الصغار ، شعروا أنهم يقاتلون لا في سبيل وطن ودين وعقيدة ، بل يقاتلون لأنهم يساقون الى القتال قسراً ، وهم في حالة سيئة ووراءهم عوائلهم لا تملك شيئاً ، وقد جيء بهم الى الجيش قسراً وعلى

١ الطبرى (٩٣/٢ وما بعدها) .

طريقة (السخرة) . وهم يخاربون ولا سلاح لهم ، لأن الحكومة لا تملك سلاحاً ، ولا نظام لهم ، لأنهم لم يلربوا على القتال ولم يعتلموا أصوله ، أجسامهم تقتاتل ، وقلوبهم مشغولة في مصير أولادهم وزوجاتهم وبيوتهم ، وهم المعيلون لهم ، ليس لهم غيرهم من معين .

وحكومة هذا شأنها ، لا يمكن لها أن تحافظ على حدود طويلة مفتوحة سهلة تقيم عليها قبائل غازية ، تترقب الفرس لتجد فرصة تهتلها لتغير فيها على الحضر ، فتتزع منهم ما قد تقع أيديهم عليه من أي شيء . فصار الاعراب يغيرون على الحدود من كل مكان فيه نفوذ وجنود للساسانيين ، ولا سيما بعد معركة (ذي قار) التي منحتهم قوة معنوية عالية ، وعلمتهم مواطن الضعف عند الساسانيين . فلما جاء الاسلام من جزيرة العرب صاروا عوناً له في تقويض تلك الدولة ، ودالة ساعدته في تفهم مواطن الضعف فيها ، ومنها نفذ الاسلام الى ما وراء البحار ، وقونس الحكومة الفسخمة بسرعة عجيبة وبمحاربين لم يكونوا قد عرفوا من قبل أساليب القتال المنظم ، ولا المارك الفسخمة التي صادفوها لأول مرة في حروبهم مع الساسانيين والبيزنطيين .

وقد طمعت القبائل في حكومة الحيرة أيضاً ، هذه الحكومة التي ظهر عليها الوهن كذلك . فأخذت تغير عليها وتعرض بحدودها ، وتتحرش بقوافلها التي كان يرسلها ملوكها للإتجار في أسواق الحجاز واليمن . حتى صارت الطرق التي تسلكها خطيرة غير آمنة ، لا يتمكن رجالها من المرور بها بسلام . ولم يستطع الساسانيون من مساعدتها وحمايتها ، لأن أوضاعهم الداخلية : كانت كما ذكرت على غير ما يرام . وهذا مما راد في تصميم القبائل على مهاجمة ملوك الحيرة وحدود الفرس في آن واحد . ولعل هذه الغارات ، كانت في جسيمة الأسباب التي حملت (كسرى) على القضاء على النعمان وعلى انهاء حكم (آل نصر) ، اما بسبب ما رآه (كسرى) من عدم تمكن الملك (النعمان) من تأديب القبائل ومن ضبط الطرق والأمن : فارتأى استبداله بعربي آخر أو برجل قوي من قادة الجيوش الفرس . واما لظنه أو لما وصل الى علمه من خبر يفيد بأن النعمان قد أخذ يفاوض سادة القبائل الكبار لارضائهم وضمهم اليه . وفي هذا العمل تهديد لمصالح الفرس ومحاولة للابتعاد عنهم . فأراد لذلك القضاء عليه وعلى الأسرة الحاكمة ، قبل أن

يتمكن من الحصول على تأييد أولئك السادة الذين أدركوا نواحي الضعف في حكومة الساسانيين .

وهناك روايات يشتمّ منها أن (النعمان) ، قال لسادات القبائل : (انما انا رجل منكم ، وانما ملكتُ وعززتُ بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم ... ليعلم أن العرب على غير ما ظن وحدث) . ^١ وروايات تفيد أن (كسرى) انما قتل (النعمان) ، لأنه وسائر أسرته سايروا سادات القبائل وتواطئوا معهم على الساسانيين . ^٢ ولعل عجز ملوك الحيرة عن حماية قوافل الفرس الداهية الى اليمن والآية منها ، وعن حماية الطرق البرية المهمة التي توصل العراق باليمن ، ثم عجز ملك الحيرة من منع الاعراب من الاغارة على حدود الساسانيين ، ثم اضطرار الملك (النعمان) على الاتصال بسادات القبائل لترضيتهم ولضمهم اليه لتأييده ولتقوية ملكه الضعيف ، الذي كان يهدده خصوم له . لعلّ هذه الأسباب وغيرها ، كانت في جملة العوامل التي حملت (كسرى) على القضاء على (النعمان) وعلى استبدال الأسرة الحاكمة بأسرة أخرى ، أو تسليم أمور الحيرة نهائياً الى قائد فارسي ، يحكمها حكماً عسكرياً . ^٣

وقد نصب الفرسُ حاكماً منهم على الحيرة ، لكنه لم يتمكن من سد أبواب الحدود الطويلة وغلقتها ، ومنع الاعراب من دخولها . لقد اجتازوها ثم تجاوزوها الى مسافات بعيدة في الاسلام ، أوصلت العرب الى الصين والهند وتركستان الصينية . ذلك لأن الفرس كانوا منهوكي القوى في الداخل وفي الخارج ، وقد أتعبتهم الأوجاع ، بينما جاء العرب بايمان برسالة ، وبعزم وتصميم ، وباعتماد على النفس ، من أن النصر سيكون لهم حتماً . لقد بدأ هذا العزم قبل (ذي قار) ، ثم تجسم في (ذي قار) ، فكان نصر المعركة في هذا الموضع ، ناقوس النصر ، و (الهرمون)

١ ابن عبد ربه ، العقد (١٦٩/١) ،

M. J. Kister, In Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol., VIII, Part : II, November 1965, P. 114.

Rothstein, PP. 116, Kister, P. 115. ٢

Nöldeke, Geschichte der Perser, S. 332, Rothstein, S., 116, Levi Della Vida, ٣
In The Arab Heritage, P. 50, Brockelmann, History of the Islamic People, P. 8, Kister, P. 114.

الذي بعث الحيوية في جسم القبائل ، فجعلها تشعر أن في استطاعتها أن تفعل شيئاً ، لو وحدت نفسها ، وعملت عملاً إيجابياً منتظماً ، بعد دراسة وتفكير ، وباعدت نفسها عن الهياج والحماس والكلام الكثير ، الذي يذهب بعد تكلمه مع الهواء .

ولم تكن مشكلات الروم أقل خطورة أو عدداً من مشكلات الساسانيين . لقد تمكنت النصرانية ، بعد عنت واضطهاد ومقاومة ، أن تكون ديانة رسمية للحكومة والشعب . وكان المأمول أن تتوحد بذلك صفوف الأمة ، غير أن التصدع الذي أصاب هذه الديانة لم يحقق لها ذلك الأمل ، فتدخلت المذهبية في السياسة ، في المذهبيات . وتولدت من هذا التدخل مقاومة رسمية من الحكومة للمذاهب المعارضة ، واضطهاد لكل من يعارض مذهب القيصر . وظهرت كنيسة شرقية وكنيسة غربية ، وتجزأ النصارى الشرقيون الى شيع وفرق "عد" بعضها خارجاً على تعاليم الحق والایمان ، هي في نظر (الأرثوذكسية) مذاهب الحادية باطلة ، فعولمت كما عاملت وثنية روما النصرانية حين ظهورها ، فحوربت بغير هوادة واضطر الكثير من المخالفين الى التكم أو الهرب الى مواضع ليس للبيزنطيين عليها سلطان .

والحروب المتوالية التي شنها الفرس على البيزنطيين ، والبيزنطيون على الفرس ، وانقسام الإمبراطورية الى حكومتين : حكومة روما وحكومة القسطنطينية ، ثم مهاجمة الملوك والأقوام الساكنة في أوربة لهاتين الحكومتين من الشمال والغرب ، كل هذه انتجت مشكلات خطيرة للعالم الغربي عامة وللروم خاصة . وقد كان ازعاج الروم واقتلاهم ، مما يفيد بالطبع منافسيهم الفرس ويسرهم ، فكانوا يشجعون الثائرين ويتحالفون معهم لأن في ذلك قوة لهم ، كما كان الروم أنفسهم يشجعون الاحزاب المعارضة للفرس ويحرضونها على الثورة على الساسانيين والتمرد عليهم ، وعلى مهاجمة حدودهم نكاية بأعدائهم وللانتقام منهم حتى صارت الحروب بين الانباطوريتين تقليداً موروثاً ، لا يتركها احد الطرفين الا اضطراراً ، ولا تعقد هدنة بينهما الا بدفع جزية تكون مقبولة لدى الطرف الغالب تغنيه عن المكاسب التي يتأملها من وراء الحرب . يدفعها المغلوب صاغراً بسبب الاحوال الحرجة التي هو فيها ، آملاً تحسن الموقف للانتقام من الخصم . فتأريخ الساسانيين والروم ، هو تأريخ هدن وحروب عادت الى بلاد الطرفين بأفدح الاضرار . وما الذي يكسبه الانسان من الحروب غير الضرر والدمار ؟

لقد وجد (كسرى أنوشروان) (٥٣١ - ٥٧٩ م) في انشغال (يوسطنيان) (جستنيان) (Justinian) (٥٢٧ - ٥٦٥ م) بالحروب في الجبهات الغربية فرصة مواتية للتوسع في المناطق الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية ، فتحل من (الهدنة الأبدية) التي كانت قد عقدت بين الفرس والروم ، وهاجم الإمبراطورية متتحلاً أعذاراً واهية ، واشترك في قتال دموي مرّ بجيوش الروم . ولم يفلح مجيء القائد (بليزاريوس) (Belisarius) من الجبهات الإيطالية لايقاف تقدم الفرس ، فسقطت مدن الشام وبلغت جيوش الفرس سواحل البحر المتوسط ، وبعد مفاوضات ومساومات طويلة تمكن الروم من شراء هدنة من الفرس أمدها خمس سنوات بشروط صعبة عسيرة ، وبدفع أموال كثيرة . ثم مُدّدت هذه الهدنة على أثر مفاوضات شاقة مع الفرس خمسين عاماً حيث عقد الصلح في سنة (٥٦١) أو (٥٦٢ م) . تعهد الروم لكسرى بدفع إتاوة سنوية عالية ، وتعهد الفرس في مقابل ذلك بعدم اضطهاد النصارى ، وبالسماح للروم في الإتجار في ممتلكاتهم على شرط معاملة الروم لرعايا الفرس المعاملة التي يتلقاها تجار الروم في أرض الساسانيين^١ .

و (يوسطنيان) معاصر (كسرى أنوشروان) شخصية فذة مثل شخصية معاصره ، ذو آراء في السياسة وفي الملك ، من رأيه ان الملك يجب ان يكون دليلاً وقدوةً ونبراساً للناس ، وانه لا يكون عظيماً شهيراً لحروبه ولكثرة ما يملكه من سلاح وجند ، إنما يكون عظيماً بقوته وبقدرته وبالقوانين التي يسنها لشعبه للسير عليها ، تنظيماً للحياة . فالملك في نظره قائد في الحروب ومرشد في السلم ، حامٍ للقوانين ، منتصر على أعدائه . وكان من رأيه ان الله قد جعل الأباطرة ولايته على الأرض ، وأدلة للناس ، قوامين على الشريعة . ولذلك فإن من واجب كل انبراطور ان يقوم بأداء ما فرضه الله عليه بسنّ القوانين وتشريع الشرائع ، ليسير الناس عليها . ولما كانت القوانين التي سارت عليها الانبراطورية الرومانية كثيرة جداً ، حتى صعب جمعها وحفظها ، تطرق اليها الحلل ، وتناقضت

A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, 1952, PP. 138, K. Guterbock, Byzants und Persien in ihren Diplomatischen Volkerrechtlichen Beziehungen im Zeitalter Justinians, S. 57, 105, Bury, Later Roman Empire, II, PP. 120.

الأحكام . لذلك رأى ان من واجبه جمعها وتنسيقها وتهذيبها واصدارها في هيئة دستور انبراطوري يسير عليه قضاة الانبراطورية في تنفيذ الأحكام بين الناس ، وعهد بهذا العمل الشاق الى (تريبونيان) (Tribonian) من المشرعين المعروفين في أيامه^١ . فجمع هذا المشرع البارع القوانين في مدونات ، ورتبها في كتب وأبواب ، وصان بتدوينه هذا بعض القوانين البيزنطية والرومانية من الضياع ، وأورث المشرعين ذخيرة ثمينة من ذخائر البشرية في التشريع .

ويعد هذا العمل من الأعمال العظيمة في تأريخ التشريع ، ولم يكن (يوسطنيان) أول من فكر في جميع القوانين السابقة في مدونة ، ولكنه كان أول من أقدم على تنسيقها وجمع ما تشتت منها وتيسيرها للمشرعين ، وقد وحسد بذلك قوانين الانبراطورية ، فعُدَّ صنيعه هذا اصلاً كبيراً يبدل على شعور الملك وتقديره للعدالة في مملكته . وقد أدخل معاصره (كسرى أنو شروان) اصلاحات على قوانين الجباية ، فعُد القرن السادس من القرون المهمة في تأريخ التشريع . ولكن الذي يؤسفنا اننا لا نملك موارد تفصيل اصلاحات (كسرى) وهل هي نتيجة شعور بضرورة ملحة وحاجة ، أو هي صدى للعمل الذي قام به (يوسطنيان) ، ثم أي مدى بلغته تلك الإصلاحات ؟

وفكرة اخضاع الانبراطورية لقانون واحد نابعة من أصل عام كان يدين به (يوسطنيان) ، يتلخص في دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة . كان يوسطنيان يرى ان الدولة المنظمة هي الدولة التي يخضع فيها كل أحد لأوامر القيصر ، وان الكنيسة إنما هي سلاح ماض يعين الحكومة في تحقيق أهدافها ، لذلك سعى لجعلها تحت نفوذ الحكومة وفي خدمة أغراضها ، فتقرب الى رجال الدين ، وساعد على انشاء كنائس جديدة ، واستدعى الى عاصمته رؤساء الكنيسة (المونوفيزيتية) (Monophysites) القائلين بالطبيعة الواحدة واليعاقبة وأتباع (آريوس) (Arius) وغيرهم من المعارضين لمباحثتهم ولعقد مناظرات بينهم وبين الكنيسة الرسمية للتقريب فيما بينهم وإيجاد نوع من الاتفاق يخدم أهداف الملك المذكور . ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، ومحاولات التوفيق لم تثمر ، ولتحقيق نظريته في الكنيسة الواحدة اضطهد أصحاب المذاهب المعارضة وكذلك اليهود .

Vaslliev, PP. 142.

واضطرب بعضهم الى ترك الانبراطورية والهجرة الى مملكة الساسانيين والى المحلات التي ليس للحكومة عليها سلطان^١ .

وزادت نظريته المذكورة في الدولة وفي الكنيسة في حدة المشكلات التي ورثها من أسلافه وجاءت بنتائج معاكسة لما كان يريد منها . فحالة تقربه من (البابا) وتأييده له ، اصطدمت بفكرة كانت مسيطرة عليه ، هي ان علمه باللاهوت لا يقل عن علم رجال الدين به ، وان من حقه التدخل في أمور الكنائس وفي تسيير المجامع الكنسية ، لتوحيد الكنائس واعادتها الى أصلها ، فأزعج بذلك (البابا) ، وصار من أصداده ، وأزعج أصدقاءه ومعارضوه من رجال المذاهب الأخرى ، لأنه خالفهم ، وجاء بتفسيرات لم ترضي أي مذهب منها . واضطر أخيراً على الخضوع لعقيدته المهيمنة على عقله ، وهي ان ما يراه في الدين ، هو الصحيح ، وهو الحل الوسط للنزاع الكنسي ، وهو الأصلح للدولة . فخلق معارضين له . وأغلق (جامعة أثينا) ومدارس البحث ، وأصدر أمراً بمنع الوثنيين وكل من ليس نصرانياً من الاشتغال في الدولة . وهكذا ولدت نظريته في (أنا الدولة) مشكلات خطيرة لدولته وللدولة من جاء بعده من قياصرة .

وكانت لدى الروم مثل هذه المشكلة التي كانت عند الفرس : مشكلة تهرب كبار الملاكين والمتنفذين من دفع الضرائب ، وزيادة نفوذهم وسلطانهم في الدولة . فعزم (يوسطنيان) على الحد من سلطانهم ، والتشديد في استيفاء الضرائب لمعالجة الوضع الحربي الناتج من قلة المال اللازم للاتفاق على جيش كبير ، مما اضطرت الحكومة الى تقليص عدد الجنود . فأصدر أوامر عديدة بالتشديد في جمع الضرائب ، وباجراء الإصلاحات في الإدارة ، غير ان إصلاحاته هذه لم تنفذ ، إذ لم يكن في مقدور الحكومة تنفيذها لعدم وجود قوة لديها تمكنها من الحد من نفوذ المتنفذين ورجال أكفاء أقوياء يقومون بالتنفيذ .

واهتم (يوسطنيان) بأمر التجارة . والتجارة مورد رزق للدولة كبير ، ولا سيما مع الأقطار الشرقية ، فقد كانت بضائعها مرغوباً فيها في أوربة ومطلوبة ، تجني الحكومة منها أرباحاً كثيرة ، وفي مطلع قائمة هذه البضائع النفيسة الأموال

^١ Vasiliev, PP. 150, Knecht, Die Religions Politik Kaiser Justinianus, S. 36.

التي ترد الى الانبراطورية من الصين والهند ، فقد كانت تلاقى اقبالاً كبيراً من أثرياء الانبراطورية ومن أثرياء انبراطورية روما الغربية وبقية أنحاء أوربة .

وأثمن بضاعة في قائمة البضائع الواردة من الصين مادة الحرير ، ولثمن الحرير الباهض حرص الصينيون على ألا يسمحوا لأي غريب كان ان ينقل معه البيض أو الديدان التي تتولد منه الى الخارج ، خشية المزاحمة والمنافسة التي تلحق بهم أفدح الأضرار . وتلي هذه المادة البضائع النفيسة الأخرى مثل العطور والقطن الوارد من الهند والتوابل وأمثالها من المواد التي كان يعجب بها أصحاب الذوق في ذلك الزمن . كل هذه يشتريها تجار الروم ، وبعد ان تأخذ الدولة البيزنطية الضرائب المفروضة ، تسمح للتجار بالتصرف فيها وبيعها على بقية الأوربيين .

وأسعار هذه المواد عالية باهظة الى درجة كبيرة صارت مشكلة من مشكلات الدولة البيزنطية ، ولهذا كانت تتصل دوماً بالانبراطورية الساسانية لمحاولة الاتفاق على تحديد الأسعار ، وتعيين مقدار الضرائب ، وذلك بسبب ورود أكثرها من هذه الانبراطورية ، إذ كان التجار يأتون بالأموال من أسواق الصين تنقلها القوافل التي تجتاز أرض الدولة الساسانية لتسلمها الى حدود الانبراطورية البيزنطية ، ومنها الى العاصمة لتوزع في الأسواق الأوربية .

هذا طريق . وهناك طريق آخر هو طريق البحر . يحمل تجار الصين أموالهم على سفن توصلها الى جزيرة (تپروبانة) (Taprobane) وهي جزيرة (سيلان) ثم تفرغ هناك ، فتُحمل في سفن تنقلها الى خليج البصرة ، ثم تحمل في سفن أخرى تمخر في دجلة والفرات الى حدود الروم .

ولما كانت علاقات الروم بالساسانيين غير مستقرة ، والحرب بين الانبراطوريتين متوالية صارت هذه التجارة معرضة للتوقف والإنقطاع طوال أيام الحروب ، وهي كثيرة ، فترتفع أسعارها هناك ، كما ان الساسانيين كانوا يزدون في أسعار البيع وفي ضريبة المرور ، فتزيد هذه في سعر التكليف ، ولهذا فكر (يوسطيان) في التحرر من تحكم الساسانيين في مورد مهم من موارد رزقهم ، وذلك باستيراد

بضائع عن طريق البحر الأحمر ، وهو بعيد عن رقابة الساسانيين^١ .

والخطة التي اختطها (يوسطنيان) لتحرير التجارة البيزنطية من سيطرة الساسانيين عليها ، هي الإتصال بالأسواق الرئيسية المصدرة ، ونقل المشتريات الى الانباطورية بالبحر الأحمر الذي كان يسيطر الروم على أعاليه . لقد كان ميناء (أيلة) في أيدي البيزنطيين ، وكان هذا الميناء موضعاً لتفريغ السفن الموسقة بالبضائع المرسلة من الهند الى فلسطين وبلاد الشام ، كما كان ميناء (القلزم) (Clysma) في أيديهم كذلك ، تقصده السفن التي تريد ارسال حمولتها الى موانئ البحر المتوسط . أما جزيرة (أيوتابة) (Iotabe) وهي جزيرة (تاران) (تيران) ، فقد كانت مركزاً مهماً لجباية الضرائب من السفن القادمة من الهند ، وكانت في أيدي بعض سادات القبائل ، فأمر (يوسطنيان) باقامة موظفي الجباية البيزنطيين بها ، ليقوموا بالجباية . وأما ما بعد هذه المنطقة حتى مضيق المندب والمحيط الهندي فلم يكن للبيزنطيين عليه نفوذ^٢ .

ولتحقيق هذه الخطة ، كان عليه وجوب السيطرة على البحر الأحمر والدخول منه الى المحيط الهندي ، للوصول الى الهند وجزيرة (سيلان) . ولا يمكن تحقيق هذه الخطة إلا بعملين : عمل عسكري يعتمد على القوة ، وعمل سياسي يعتمد على التقرب الى الحبشة الذين كانوا قد استولوا على اليمن ، فصار مدخل البحر الأحمر : (مضيق باب المندب) بذلك في أيديهم . ثم بالتودد الى سادات القبائل العربية النازلة في العربية وفي بادية الشام ، لضمهم الى صفوف البيزنطيين ، ولتحريضهم على الفرس ، وبذلك يلحق البيزنطيون ضرراً بالغاً بالفرس ويكون في استطاعتهم نقل التجارة نحو الغرب عن جزيرة العرب والبحر الأحمر الى أسواقهم بكل حرية وأمان .

أما العمل العسكري ، فلم يكن في وسع البيزنطيين القيام به في ذلك الوقت ، لعدم وجود قوات برية كبيرة كافية . لتتمكن من اجتياز العربية الغربية للوصول

^١ Vasillev, P. 163, Bulletin of the School of Oriental and African Studies University of London, Vol., XVI, Parts 3, 1954, P. 425.

^٢ W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, I, 10, 1885, (1935 2 end.), Vasillev, P. 167.

الى اليمن ، حيث الحبش هناك ، اخوان البيزنطيين في الدين . وقد علموا من التجارب السابقة ، أن الجوع والعطش يفتكان بالجيش فتكاً ، وان القبائل لا يمكن الاطمئنان اليها والوثوق بها أبداً ، لذلك تركوا هذا المشروع . فلم يبق أمامهم غير تنفيذه من ناحية البحر ، وقد وجدوا ان هذا التنفيذ غير ممكن أيضاً ، لأن أسطولهم في البحر الأحمر لم يكن قوياً ، ولم يكن في استطاعته السيطرة عليه سيطرة تامة . فتركوه ، ولو الى حين ، مفضلين عليه العمل السياسي .

أما العمل السياسي ، فقد تم بالاتصال بالحبش ، وقد كان ملكهم على النصرانية ، لذلك كان من الممكن جلبه الى البيزنطيين بالتودد اليه باسم الاخوة في الدين . كما تم بالتقرب الى سادات القبائل المتنصرين ، والتودد اليهم باسم الدين ايضاً . وتم بارسال المبشرين الى جزيرة العرب ، وبتشجيعهم على المعيشة بين الأعراب وفي البوادي لتنصير سادات القبائل ، والتأثير عليهم بذلك . وباقامة الكنائس وارسال المال وعمال البناء لبنائها بأسلوب يؤثر في عقول الوثنيين ، فيجعلها تميل الى النصرانية ، ولتكون هذه المعابد معاهد تثقيف تثقف بالثقافة البيزنطية كما تفعل الدول الكبرى في هذه الأيام .

وأرسل (يوسطنيان) - كما سبق ان بينا ذلك ^١ - رسولا عنه يدعي (يوليانوس) (جوليانس) (Julianus) الى النجاشي والى (السميع أشوع) (Esimphanus) حاكم اليمن في ذلك العهد ، ليتودد اليها ، وليطلب منها باسم (العقيدة المشتركة) التي تجمعهم ان يكونا مع الروم جبهة واحدة في محاربة الساسانيين ، وان يقوموا مع من ينضم اليهم من قبائل العرب بمهاجمتهم ، وحمل السفير الى (السميع أشوع) رجاء آخر ، هو موافقته على تعيين رئيس عربي اسمه (Kaisos أي (قيس) عاملاً (فيلارخ) (Phylarch) على قبيلة عربية تدعى (معدني) (Maddeni) ، أي قبيلة (معد) ، ليشترك معه ومع عدد كبير من أفراد هذه القبيلة بمهاجمة الساسانيين .

وقد رجع السفير فرحاً مستبشراً بنجاح مهمته ، معتمداً على الوعود التي أخذها من العاهلين . غير أنها لم يفعلوا شيئاً ، ولم ينفذوا شيئاً مما تعهدا به

١ الجزء الثاني والثالث من هذا الكتاب .

للسفير ، فلم يغزوا الفرس ، ولم يعين (السميع أشوع) (قيساً) (فيلارخاً)
عاملاً على قبيلة معدّ .

وورد أيضاً ان القيصر جدّد في أيام (ابراموس) (Abramios) الذي نصب
نفسه في مكان (Esimiphaeus) ، طلبه ورجائه في محاربة الفرس ، فوافق على
ذلك وأغار عليهم ، غير انه تراجع بسرعة^١ .

ويظهر ان اتصال البيزنطيين بـ (ابراموس) (Abramios) كان بعد القضاء
على (السميع أشوع) الذي لم يتمكن من مهاجمة الفرس إذ كان من الصعب
عليه اجتياز أرض واسعة بعيدة وطرق بعيدة تمرّ بصحارى وقفار لمحاربة أناس
أقدر من رجاله على القتال^٢ . فلما تمكن (ابراموس) من التحكم في شؤون
اليمن ومن تنصيب نفسه حاكماً عاماً على اليمن وصارت الأمور بيديه تماماً ،
فكر البيزنطيون في الاستفادة منه بتحريضه على الساسانيين ، وذلك باسم الأخوة
في الدين .

وقد تحرش (ابراموس) بالفرس ، غير انه لم يستمر في تحرشه بهم . فإ
لبث ان كفّ قواته عنهم^٣ . ولم يذكر المؤرخ (بروكويوس) كيف هاجم
(ابراموس) الساسانيين ، ومن أين هاجمهم ومتى هاجمهم . لذلك أبقانا في
جهل بأخبار هذا الهجوم .

و (ابراموس) هو (أبرهة) الذي تحدثت عنه في أثناء كلامي عن اليمن .
أما ما أشار اليه (بروكويوس) من تحرشه بالفرس ومن تركه لهم بعد قليل ،
فقد قصد به حملته على (مكة) على الغالب ، وهي حملة قصد بها (أبرهة)
على ما يظهر الاتصال بالبيزنطيين عن طريق البر ، واخضاع العربية الغربية بذلك
الى حكمه وهو من المؤيدين البيزنطيين . وبذلك تؤمن حرية الملاحة في البحر
الأحمر ، ويكون في إمكان السفن البيزنطية السير به بكل حرية . ولعلّه كان
يقصد بعد ذلك مهاجمة الفرس من البادية بتحريض القبائل المعادية للساسانيين
عليهم ، وبتأليف حلف من قبائل يؤثر عليها فيهاجم بها الفرس .

١ Procopius, I, XX, 1-13, ZDMG., (1881), S., 36

٢ Procopius, I, XX, 9-13.

٣ Procopius, I, XX, 9-13.

اما (Kaisos) (Calsus) ، فكان كما وصفه المؤرخ (بروكوبيوس) شجاعاً ذا شخصية قوية مؤثرة حازماً من أسرة سادت قبيلة (معد) . وقتل أحد ذوي قرابة (السميع أشوع) (Esimaphalos) (Esimiphaeus) ، فتعاضد بذلك معه ، حتى اضطر الى ترك دياره والهرب الى مناطق صحراوية نائية .^١ فأراد القيصر الشفاعة له لدى (Esimaphalos) ، والرجاء منه الموافقة على اقامته رئيساً (Phylarch) على قبيلته قبيلة معد .

ولا يعقل بالطبع توسط القيصر في هذا الموضوع ، لو لم يكن الرجل من أسرة مهمة عريقة ، لما عند قومها مكانة ومنزلة ، وعند القيصر أهمية وحظوة . ولشخصيته ومكانة أسرته أرسل رسوله الى حاكم اليمن لاقتناعه بالموافقة على اقامته رئيساً على قومه . وبهذا يكتسب القيصر رئيساً قوياً وحليفاً شجاعاً يفيد في خططه السياسية الرامية الى بسط نفوذ الروم على العرب ، ومكافحة الساسانيين .

ونحن لا نعرف من أمر (قيس) هذا في روايات الاخباريين شيئاً غير أن هناك رواية لابن اسحاق جاء فيها أن أبرهة عن محمد بن خزاعي عاملاً له على مضر ، وأن (قيساً) كان يرافق أخاه محمداً حين كان في أرض كنانة . فلما قتل (محمد) ، فترّأ الى (أبرهة) .^٢ وقد ورد نسب (محمد) على هذه الصورة : (محمد بن خزاعي بن علقمة بن محارب بن مرة بن هلال بن فالح ابن ذكوان السلمي) في بعض الروايات ، وذكر أنه كان في جيش أبرهة مع الفيل .^٣

فهل قيس هذا هو قيس الذي ذكره (بروكوبيوس) ؟ . اتصل مع اخيه محمد بأبرهة ، وصار من المقربين لديه ؟ أو هو رجل آخر لا علاقة له بـ (قيس) الذي يذكره (ابن اسحاق) ؟

وقد زار والد (نونوسوس) (Nonnosos) (قيساً) هذا مرتين ، وذلك قبل سنة (٥٣٠ م) وزاره (نونوسوس) نفسه في اثناء حكمه . وأرسل (قيس)

١ Procopius, I, XX, 9-13.

٢ Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol., XVI, Part : 3, 1954, PP. 434.

٣ المحبر (١٣٠) .

ابنه (معاوية) الى (يوسطنيان) ، ثم أعطى أخاه ثم ابنه الامارة . وعينه القيصر عاملاً (Phylarch) على فلسطين .^١

وكانت للقيصر (يوسطنيان) صداقة مع رئيس آخر اسمه (أبو كرب) (Abochorabus) ، يقع ملكه في أعالي الحجاز وفي المناطق الجنوبية من فلسطين . عرف هذا الرئيس بالحزم والعزم فخافه الأعداء ، واحترمه الأتباع ، واتسع لذلك ملكه ، وتوسع سلطانه حتى شمل مناطق واسعة ، ودخلت في تبعيته قبائل عديدة أخرى على القانون الطبيعي في البادية الذي يحتم دخول القبائل طوعاً وكرهاً في تبعية الرئيس القوي .

أراد هذا الرئيس أن يتقرب الى القيصر ، وأن يبالغ في تقربه اليه وفي اكرامه له ، فترل له عن أرض ذات نخيل كثيرة ، عرفت عند الروم بـ (فوينيكون) (Phoinikon) (واحة النخيل) ، أو (غابة النخيل) . وهي أرض بعيدة . لا تبلغ الا بعد مسيرة عشرة أيام في أرض قفرة . فقبل القيصر هذه الهدية الرمزية ، اذ كان يعلم ، كما يقول المؤرخ (بروكوبيوس) عدم فائدتها له ، وأضافها الى أملاكه ، وعين هذا (الشيخ) عاملاً (فيلارخا) على عرب فلسطين .^٢

وقد قام ملك هذا الرئيس على ملك رئيس آخر كانت له صلات حسنة بالروم كذلك ، هو (امرؤ القيس) (Amorkesos) وكان (Amorkesos) في الأصل من عرب المناطق الخاضعة للفرس ، ثم هجر دياره لسبب لا نعرفه الى الأرضين الخاضعة لنفوذ الرومان ، وأخذ يغزو الاعراب ، حتى هابته القوافل ، فتوسع نفوذه ، وامتد الى العربية الصحيرية ، واستولى على جزيرة (تاران) (Iotaba) وترك رجاله فيها يجبون له الجباية من السفن القادمة من الهند ، حتى حصل على ثروة كبيرة ، وعزم في سنة (٤٧٣ م) على ارسال الأسقف (بطرس) أسقف الاعراب التابعين له الى القسطنطينية ، ليتصل بالقيصر ، وليتوسط لديه هناك أن يوافق على تعيينه عاملاً (Phylarch) على الاعراب المقيمين في العربية الحجرية

Bulletin, Vol., XVI, Part : 3, P. 435, Muller, Fragmenta Historicorum, ١
Graecorum IV, 179.

Procopius, I, XIX. 2-10, Bulletin, Vol., XVI, 1954, P. 428, Musil, Hegaz, ٢
P. 307.

والخاضعين لنفوذ الروم مقابل دخوله في حلف معهم ، فاستجاب القيصر (ليون) (Leo) الى طلب (بطرس) ، فأرسل دعوة الى (امرىء القيس) لزيارة القسطنطينية ، فذهب اليها بالرغم من وجود شرط في معاهدة الصلح التي كانت قد عقدت بين القروس والروم لا يسمح بموجبه لعربي ما من سكنة المناطق الخاضعة لنفوذ الانبراطورية الساسانية بالذهاب الى مناطق الروم . ولما وصل الى القسطنطينية ، رحب به البيزنطيون ترحيباً جميلاً واستقبلوه استقبالا حسناً . فأعلن هناك دخوله في النصرانية . وأغلق عليه القيصر الهدايا والألطف ، ومنحه لقب (فيلارخ) (Phylarch) ، وثبته على المواضع التي أرادها وعلى جزيرة (تاران) (Iotaba) .^١

و كان دخل البيزنطيون كبيراً من الضرائب التي يجيها . وثلثو الكمارك المقيمون في جزيرة (تاران) (Iotaba) . وكان لثؤلاء الموظفين واجب آخر ، هو واجب ملافحة النهريين والقبض على كل مهرب يريد ادخال التجارة خلصة الى بلاد الشام أو مصر ، ومصادرة الاموال التي يجمعها معه . ولهم حق مكافأة المخبرين الذين يرشدونهم للقبض على المهربين .^٢

و (غابة الخيل) التي ذكرناها ، تجاور ارض قبيلة (معد) (Maddenol) ، كانت معد خاضعة لحكم حير . وقد رأينا كيف أن القيصر (يوسطنيان) توسط لدى (السمينع أشوع) ليوافق على تعيين (قيس) رئيساً على معد . وقد تمردت هذه القبيلة على (أبرهة) فسير اليها قوة لتأديبها ، كما يظهر ذلك من كتابة أمر (أبرهة) بكتابتها لهذه المناسبة : أدبها بقوة ، سيرها اليها في شهر (ذو ثين) من شهور فصل الربيع ، فانهزمت معد ، وأنزلت القوة بها خسائر فادحة . وبعد أن أدبت وخضعت . اعترف (أبرهة) بحكم (عمرم بن مذن) عليها ، ونراجعت القوة عنها .^٣

و (عمرم بن مذن) ، أبي (عمرو بن المنذر) ، هو (عمرو بن المنذر) ملك الحيرة . وقد كانت (معد) في حكم ملوك الحيرة . وعلى هذا تكون هذه الغزوة (عمرو بن مذن) التي قام بها (أبرهة) على قبيلة (معد) موجهة الى (عمرو

Malchus of Philadelphia, (Muller Ed.), PP. 112, Masli, Hegaz P. 306

Bury, Later Roman Empire, Vol. II, P. 8, Runciman, P. 105

Le Muséon, LXXVI, 1953, 3-4 P. 277, Ryckmans, 506

ابن المنذر (حليف الفرس . بمعنى أنه تعرض لجماعة كانت في جانب الساسانيين .
فهل الغزاة التي أشار إليها المؤرخ (بروكويوس) هي هذه الغزاة ؟

و (Maddenol) هي قبيلة (معداية) (Ma'addaye) التي ذكرها (يوحنا
الافسوسي) (John of Ephesus) مع (طياية) (طيايا) (طيايه) (Tayaye)
(Talyaya) في كتابه الذي وجهه الى أسقف (بيت أرشام) (Beth Arsham) ،
ويظهر من هذا الكتاب أنها كانت مقيمة في فلسطين .

وقد تحدثتُ سابقاً عن ورود اسم قبيلة (معدّ) في نص النمارة الذي يرجع
عهده الى سنة (٣٢٨ م) حيث ورد أن (امرئ القيس بن عمرو) ملك العرب
ملك على (معدّ) وعلى قبائل أخرى ذكرها النص ، منها أسد ونزار ومذحج .
ويربط الاخباريون في العادة بين ملوك الحيرة وقبيلة معدّ ، وطالماذكروا أن ملوك
الحيرة غزوا بمعدّ ، مما يدل على وجود صلة تاريخية متينة بين الحيرة وهذه القبيلة
المتبدية التي كانت تمنع في سكنها مع البادية .

ويظهر من روايات اهل الاخبار أنه قد كان للتبابعة شأن في تنصيب سادات
على معدّ . فهي تذكر أنهم هم الذين كانوا يعينون أولئك السادة ، فينصبونهم
(ملوكاً) على معدّ . وذلك بسبب تنازع سادات معدّ فيما بينهم وتحاسدهم وعدم
تسليم بعضهم لبعض بالزعامة . ولهذا كانوا يلجأون الى التبابعة لتنصيب (ملوك)
عليهم . يضاف الى ذلك أن معدّ كانت قبائل متبدية : منتشرة في أرضين
واسعة تتصل باليمن ، وقد كان أهل اليمن المتحضرون أرقى منهم ، وجيوشهم
أقوى وأنظم نسبياً من محاربي معدّ ومقاتليهم الذين كانوا يقاتلون قتال بدو ،
لا يعرفون تنظيماً ولا تشكيلاً ولا توزيعاً للعمل . وكل ما عندهم هو كبر
وفرّ ، اذا وجدوا خصمهم أشطر منهم وأقدر على القتال هربوا منه .

وقد منيت الانباطورية البيزنطية بانتكاسات عديدة بعد وفاة (يوسطيان) ،
فاشتد الاضطهاد للمذاهب المخالفة للمذهب الارثودكسي ، وعادت الفوضى الى
الحكومة بعد أن سعى القيصر الراحل في القضاء عليها ، وتجددت الحروب بين
البيزنطيين والساسانيين ، وعاد الناس يقاسون الشدائد بعد فترة من الراحة لم تدم
طويلاً . وبعد حروب متتالية دخل الساسانيون بلاد الشام . وفي سنة (٦١٤ م) ،
احتل اتباع ديانة زرادشت عاصمة النصرانية القدس ، فأصبحت المدينة بخسائر كبيرة

في أبنيتها التاريخية وفي ثروتها الفنية التي لا تقدّر بثمن . ثم أصيبت الانبراطورية
بنكبة عظيمة جداً هي استيلاء الفرس على مصر ، وبلوغ جيوش الساسانيين في
هذه الأثناء الساحل المقابل للقسطنطينية عاصمة الانبراطورية ^١ .

لقد وقعت هذه الأحداث ونزلت هذه الهزائم بالروم في وقت كان أمر الله
قد نزل فيه على الرسول بلزوم ابلاغ رسالته للناس . والرسول إذ ذاك بمكة ،
يدعو أهلها الى دين الله . فلما جاء الخبر بظهور فارس على الروم ، فرح
المشركون ، وكانوا يحبون ان يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل
أوثان . وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب .
فلقي المشركون أصحاب النبي ، فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ،
ونحن اميون . وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الكتاب ،
وانكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله : (ألم تغلبت الروم . في أدنى
الأرض ، وهم من بعد غلبتهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن
بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ؛ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) ^٢ .
وفرح المسلمون بتزول هذه الآيات الموقية للزعمة وأيقنوا ان النصر لا بد آت ،
وانهم سينتصرون على أهل مكة أيضاً ويغلبونهم باذن الله . وخرج أبو بكر الى
الكفار (فقال : أفرحتم بظهور اخوانكم على اخواننا . فلا تفرحوا ولا يقرن
الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا ، صلى الله عليه
وسلم ، فقام اليه أبي بن خلف . فقال : كذبت يا أبا فضل . فقال له
أبو بكر ، رضي الله عنه : أنت أكذب يا عدو الله . فقال أناحبك على عشر
قلائص مني وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن
ظهرت فارس على الروم غرمت الى ثلاث سنين . ثم جاء أبو بكر الى النبي ،
صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فقال : ما هكذا ذكرت إنما البيضع ما بين
الثلاث الى التسع ، فزايده في الخطر وماده في الأجل . فخرج أبو بكر فلقى
أبياً ، فقال : لعلاك ندمت ؟ فقال لا . فقال : أزايدك في الخطر وأمادك في

١ Vasiliev, PP. 193.

٢ سورة الروم ، الآية ١ وما بعدها ، تفسير الطبري (١١/٢١ وما بعدها) ، تفسير
القرطبي (١/١٤ وما بعدها) .

الأجل ، فاجعلها مائة قلوصل مائة قلوصل الى تسع سنين . قال قد فعلت (١) .

لقد وقعت هذه الهزائم الحربية الكبيرة في عهد القيصير (هرقل) (Heraclius) (٦١٠ - ٦٤١ م) . ففي عهده ، اقتطعت بلاد الشام ومصر من جسم الانبراطورية ، وهي أعضاء رئيسية في ذلك الجسم . غير ان طالع هذا القيصير لم يلبث ان تحسن بعد سنين من النحس ، فاستعاد تلك الأملاك في المعارك التي نشبت بين سنة ٦٢٢ وسنة ٦٢٨ م . في هذه الفترة نال هرقل أعظم نصر له في ثلاث معارك كبيرة . ولكن نصره الأكبر جاءه يوم قتل (كسرى أبرويز) صاحب هذه الفتوحات بيد ابنه (شيرويه) (٢) . فورد طائر السعد على القيصير بهذا الخبر المفرح ، ثم تحققت البشرى بالصلح الذي عقد بين القيصير وبين (شيرويه) . وفيه نزل الفرس عن كل ما غنموه ، ورضوا بالرجوع الى حدودهم القديمة قبل الفتح . فعادت الشام وفلسطين ومصر الى البيزنطيين ، وأعيد الصليب المقدس الى موضعه في القدس في موكب حافل عظيم (٣) .

وسر المسلمون وهم بالمدينة بانتصار الروم على الفرس ، وزاد أملهم في قرب مجيء اليوم الذي ينتصر فيه المسلمون على المشركين ، وقويت عزيمتهم في التغلب على قريش . (وأسلم عند ذاك ناس كثير) (٤) . وتضعفت معنويات قريش ، وغلب (أبو بكر) (أيتاً) على الرهان ، وكسبه ، أخذه من ورثته ، لأنه كان قد توفي من جرح أصيب به ، فلم يدرك زمن طرد من تعصب له من بلاد الشام وخسارته الإبل التي تراهن عليها .

وشاء ربك ألا يكون النصر في هذه المرة لا للروم ولا للفرس ، بل للمسلمين . وشاء ألا يبقى الروم في بلاد الشام إلا قليلاً ، إلا سنين ، إذ تهاوت مدن بلاد الشام ثم مصر فشمال إفريقية ، الواحدة بعد الأخرى ، في أيدي أناس لم يخطر ببال الروم أبداً انهم سيكونون شيئاً ذا خطر في هذا العالم ، أعني بهم أبناء مكة ويثرب ومن تبعهم من أهل جزيرة العرب . تهاوت بسرعة عجيبة لا تكاد

١ تفسير الطبري (١٣/٢١) ، تفسير القرطبي (١/١٤ وما بعدها) .

٢ الطبري (١٠٨/٢ وما بعدها) .

٣ Vasillev, P. 198.

٤ تفسير القرطبي (٢/١٤) .

تصدق ، وبطريقة تشبه المعجزات . وقد بدأ هذا الانهيار بكتاب يذكر أهل السَّيرِ
والانخبار ان الرسول أرسله الى (هرقل عظيم الروم) ، يدعو فيه الى الاسلام ،
فإن أبى وبقي على دينه فعليه تَبْعته ، فلما لم يسلم ، جاءه الانذار ، قوات صغيرة
لا تكاد تكون شيئاً بالنسبة الى جيوش الروم الضخمة ، أخذت تُمهّد الطريق
لنشر الايمان في بلاد رفض حكامها الدخول فيه . طهرت الارض الموصلة الى
الحدود من المخالفين ، ثم أخذت تتحرش ببلاد الشام ، ولم يأخذ الروم ذلك
التحرش مأخذاً جدّياً ، اذ تصوّروه غزواً من غزو العرب المألوف يمكن القضاء
عليه بتحريك عرب بلاد الشام من الغساسنة ومن لفّ لفهم عليهم ، أو بإرشاء
رؤسائهم بالهدايا والمال وتنصيبهم ملوكاً على عرب بلاد الشام في موضع الغساسنة
كما كانوا يفعلون مع القبائل القوية الكبيرة التي كانت تتحرش بالحدود ، وينتهي
بذلك الغزو وتصفو الأمور .

ولم يعلم البيزنطيون أن المسلمين يختلفون عن الجاهليين ، يختلفون عنهم في أن
لهم عقيدة ورسالة ، وأن من يسقط منهم يسقط شهيداً في سبيل إعلاء كلمة ربّه ،
وله الجنة ، وأن من يعيش منهم وينجو فلن يركن الى الدعة والحياة الهادئة والرجوع
الى البادية بل لا بد له من أحد أمرين : اما نصر حاسم ، واما موت شريف
في سبيل الله ورسوله . وبقوا في جهلهم هذا الى أن نبهتهم الضربات العنيفة التي وقعت
بينهم وبين العرب في (أجنادين) (Gabatha) وفي (اليرموك) (Hieromax)
بأن المعارك التي وقعت ليست غزواً من الغزو المألوف ، بل خطة مهيأة لطرد
الروم الذين لا يؤمنون برسالة الرسول من كل بلاد الشام وما ورائها من أراضين .
وعندئذ جمعوا جموعهم ، وألقوا قلوب (العرب المستعربة ، أي العرب النصارى
القاطنين في بلاد الشام ، بالمال وباسم الدين ، وجعلوهم معهم وتحت قيادتهم في
جيوشهم الضخمة لمقابلة المسلمين الذين لم يعرفوا الحروب الكبيرة ، ذات العدد
الضخم من المحاربين ، والاسلحة المتنوعة الحديثة ، بالنسبة الى اسلحتهم المكوّنة
من سيوف وسهام ورماح وحجارة وخناجر . وهنا وقعت غلطة فنية حربية أخرى
من الروم ، اذ قابلوا المسلمين بجيوش ضخمة ، يسيرها قوّاد كبار تعودوا الحرب
بأساليبها النظامية وبالطرق المدرسية الموروثة عن الرومان ، وتزوّدوا بالخبرة الفنية
العالية التي كسبوها من حروبهم مع الفرس ومع الاوربيين ، فظنوا ان الحرب مع

المسلمين شيئاً بسيطاً ، بل أبسط من البسيط ، حتى أن كبار القادة وجدوا أن من المهانة الاهتمام بأمر أولئك البدو الغزاة ، فتركوا الأمر لمن دونهم في الدرجات يديرونها مع العرب ، الذين أظهروا ذكاءاً فطرياً عظيماً في هذه الحروب ، بتجنبهم الالتحام بالجيوش ، إذ لا قبل لهم بمقاتلتها ، وباتخاذهم خطة المناوشات والكرّ والفرّ بقوات غير كبيرة العدد ، وبذلك تتوفر لهم السرعة في العمل ومباغطة الجيوش الضخمة من ورائها ومن مجنبتها ، وبغزو خاطف كالبرق يلقي الفزع في القلوب . وبذلك أفسدوا على الروم خططهم بالهجوم على العرب ، بجيوش نظامية كبيرة مُدَرَّبَة على القتال يكون في حكم المحال بالنسبة للعرب الوقوف أمامها لو أنهم حاربوهم حربهم ، ووقفوا أمامهم وجهاً لوجه . ويركون العرب إلى هذه الخطة المتكررة ، وبمعاملتهم من خضع لهم واستسلم لأمرهم معاملة حسنة ، وبتحريض (العرب المستعربة) ، (العرب المنتصرة) ، وسكان بلاد الشام من غير الروم ، بل ومن الروم على الانضمام إليهم ، غلبوا البيزنطيين ، وحصلوا ما حصلوا عليه من أرضين .

وعند ظهور الاسلام كانت اليمن في حكم الساسانيين كما رأينا ، غير أن حكمهم لم يكن في الواقع حكماً تاماً فعلياً ، بل كان حكماً شكلياً اسمياً ، محصوراً في صنعاء وما والاها . أما الاطراف والمدن الاخرى ، فكان الحكم فيها لسادات اليمن من حضر ومن أهل وبر . وهو حكم نسميه حكم (اصحاب الجاه والنفوذ) . وقد شاء بعض منهم أن يظهر نفسه بمظهر الملوك المنفردين بالحكم والسلطان والجاه ، فلقبوا أنفسهم بلقب (ملك) وحملوه افتخاراً واعتزازاً ، ولم يكن أولئك الملوك ملوكاً بالمعنى المفهوم ، انما كانوا سادات ارض وقبائل ، تجمّلوا أنفسهم باللقاب الملك :

فقد نعتت كتب التواريخ والسير سادات حمير في أيام الرسول : الحارث بن عبد كلال ، وشريح بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، و (النعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر) ، و (زرعة ذو يزن) (زرعة بن ذي يزن) ب (ملوك حمير) ، وذكرت أنهم أرسلوا إلى الرسول رسولا يحمل إليه كتاباً منهم يخبرونه فيه باسلامهم ، وقد وصل اليه متقفله من تبوك ، ولقيه بالمدينة ، فكتب الرسول اليهم جوابه ، شرح لهم فيه ما لهم وما عليهم ، وما يجب عليه

مراعاته من أحكام .^١ ويذكر (ابن سعد) أن هذا الرسول هو (مالك بن مُرارة الرهاوي) (مالك بن مرة الرهاوي) ، وقد وصل المدينة في شهر رمضان سنة تسع ، وذلك بعد رجوعه من أرض الروم .^٢

ودَوّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول أرسله الى (الحارث) و (مسروح) و (نعيم) أبناء (عبد كلال) من حمير . حمله اليهم (عياش ابن أبي ربيعة المخزومي) . وأوصاه بوصايا ليوصي بها أبناء (عبد كلال) ان أسلموا . منها أنهم اذا رطنوا (فقل ترجموا) ، حتى يفقه كلامهم . واذا أسلموا ، فليأخذ (قضيبهم الثلاثة التي اذا حضروا بها سجدوا . وهي من الأثل قضيب ملمع بياض وصفرة ، وقضيب ذو عجر كأنه خيزران ، والأسود البهيم كأنه من ساسم . ثم اخرجها فحرّقها بسوقهم . فذهب اليهم ووجدتهم في دار . ذات ستور عظام على أبواب دور ثلاثة . فكشف الستر ودخل الباب الاوسط ، وانتهى الى قوم في قاعة الدار . ففعل بمثل ما أمره به الرسول .^٣

ويظهر من قوله : (فاذا رطنوا فقل ترجموا) ، أنهم لم يكونوا يحسنون عريّة أهل مكة . وأنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم بلهجاتهم الخاصة بهم . وأن معنى تحريق القضيب الثلاثة ، هدم ما كان لهم من غزوة وسلطان وتكبر على الرعية ، لأن الاسلام قد أمر باجتناب ذلك . وبأن يكون الحكم للرسول وحده . ولما كانت تلك القضيب رمزا للحكم والسلطان ، وقد جعل الاسلام الحكم للرسول وحده ، لهذا أمر الرسول بكسر تلك القضيب ، وفي كسرها اشعار لهم بأن حكمهم القديم قد زال عنهم ، وأن الحكم الآن للرسول .

ويظهر من نص الكتاب الذي وجهه الرسول الى (زرعة بن ذي يزن) ، وفيه : (اما بعد ، فإن محمداً يشهد أن لا إله الا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم ان مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من اول حمير ، وقتلت

١ الطبري (١٢٠/٣ وما بعدها) (دار المعارف) ، ابن الأثير (١٢١/٢) ، ابن خلدون (٥٢/٢) (القسم الثاني) (الوفود) ، الطبري (١٥٣/٣ ، ١٥٦) ، البلاذري ، فتوح (٨١) ، (اليمن) ، (وشرح ابن عبد كلال) ، (ونعمان فيل ذي يزن) ، (وزرعة ذي عين) ، ابن سعد ، طبقات (٢٦٤/١) ، نهاية الأرب (١١٨/١٨) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٥٦/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٨٣/١) .

المشركين الخ) ، ^١ أن (زرعة) هذا كان رأس حمير ، والمطاع فيها ، ولهذا أرسل اليه رسولاً خاصاً به هو (مالك بن مرة الرهاوي) ، واستلم جواباً خاصاً من الرسول كتب باسمه ، ولم يذكر اسمه في الجواب الذي أرسله الى الباقيين بصورة مشتركة .

وذكر (ابن سعد) أن رسول الله كتب كتاباً الى (بني عمرو) من حمير ، ولم يذكر من هم (بنو عمرو) ، وأشار الى أن في الكتاب : (وكتب خالد ابن سعيد بن العاصي) ، ^٢ ما يدل على أنه كان كاتب ذلك الكتاب . ويشير (ابن سعد) ايضاً الى ان الرسول أرسل (جرير بن عبد الله البجلي) الى (ذي الكلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك بن حسان بن تبع) والى (ذي عمرو) ، يدعوها الى الاسلام ، فأسلما وأسلمت (ضريبة بنت ابرهة بن الصباح) امرأة (ذي الكلاع) . وتوفي رسول الله ، وجرير عندهم ، فأخبره (ذو عمر) بوفاة . ^٣

ويشير نسب (ذو الكلاع) المذكور الى انه من الأسرة التي كانت تحكم اليمن قبيل غزو الحبش لها . فهو من الأسر الشريفة الحميرية في اليمن . وقد عرف بـ (ذي الكلاع الأصغر) عند اهل الاخبار تمييزاً له عن (ذي الكلاع الأكبر) الذي هو في عرفهم (يزيد بن النعمان الحميري) من ولد (شهاب بن وحاطة بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة بن سبأ الأصغر) .

وأما صاحبنا (ذو الكلاع) الأصغر الذي راسله الرسول ، وأسلم . فهو أبو (شراحيل سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر) . قال اهل الاخبار : والتكلع الحلف (وبه سُمي ذو الكلاع الأصغر ، لأن حمير تكلَعوا على يده . أي تجمعوا ، الا قبيلتين : هوازن وحراز ، فانهما تكلعتا على ذي الكلاع الأكبر : يزيد بن النعمان) . ^٤

وذكر نسب (ذو الكلاع الأصغر) على هذا الشكل : (سميفع بن ناكور

١ الطبري (١٢١/٣ وما بعدها) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٥/١) ، نهاية الأرب (١٦٨/١٨) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٥/٨ وما بعدها) .

٤ تاج العروس (٤٩٦/٥) ، (كلج) .

ابن عمرو بن يعفر بن يزيد بن النعمان الحميري (. و (يزيد) هذا هو (ذو الكلاع الأكبر) . وذكر ان (أبا شراحيل) هو الرئيس في قومه المطاع المتبوع ، أسلم في حياة النبي ، فكتب اليه النبي على يد جرير بن عبد الله البجلي كتاباً في التعاون على الأسود ومسيلمة وطليحة . وكان القائم بأمر معاوية في حرب صفين ، وقتل قبل انقضاء الحرب ، ففرح معاوية بموته ، وذلك انه بلغه ان (ذا الكلاع) ثبت عنده ان علياً بريء من دم عثمان ، وان معاوية لبس عليهم ذلك ، فأراد التشتيت عليه فعاجلته منيته بصفين وذلك سنة سبع وثلاثين^١ .

ويكون (ذو الكلاع) الأصغر ، قد تزوج بنتاً من بنات أبرهة هي (ضريبة)^٢ . ونسب الى النابغة قوله :

أنا بالنجاشة مجلبوها وكندة تحت راية ذي الكلاع
يريد تميماً وأسدأ وطياً اجلبوا الجيش على بني عامر مع أبي يكسوم وذو
الكلاع كان معه أيضاً^٣ .

وذكر ان رسول الله كتب الى (معد يكرب بن أبرهة) ان له ما أسلم عليه من أرض خولان^٤ . ولم يشر (ابن سعد) الى بقية اسم أبرهة أو الى شهرته ، لذلك لا ندرى إذا كان قصد (أبرهة) المعروف ، أم شخصاً آخر اسمه (أبرهة) . ولكتنا نعرف اسم قيل عرف بـ (معد يكرب) اسم والده (أبو مرة الفياض) ذو وزن ، كان متزوجاً من (ريحانة) ابنة (ذي جلدن) ، فولدت له (معد يكرب) المذكور . ثم انتزعتها منه (الأشرم) ، ونشأ (معد يكرب) مع أمه (ريحانة) في حجر (أبرهة)^٥ ، فلعلّه نسب اليه ، لذلك قال له (ابن سعد) (معد يكرب بن أبرهة) .

وكان للفرس وللجيل الجديد الذي ظهر في اليمن من تراوجهم باليمنيين ، وهو

-
- ١ تاج العروس (٣٨٩/٥) .
 - ٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .
 - ٣ تاج العروس (٤٩٦/٥) .
 - ٤ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .
 - ٥ الطبري (١٤٢/٢ وما بعدها) .

الجيل الذي عرف بـ (الأبناء) نفوذ كبير في اليمن ، وقد تحدثت عنه في الجزء السابق من هذا الكتاب . وإلى هذا الجيل أرسل الرسول (وبر بن يحيى) ، يدعو إلى الإسلام ، فتزل على بنات (النعمان بن بزرج) فأسلمن ، وبعث إلى فيروز الديلمي فأسلم ، وإلى مركبود وعطاء ابنه ، ووهب بن منبه . وكان أول من جمع القرآن بصنعاء ابنه عطاء بن مركبود ووهب بن منبه ^١ .

وقد كان الفرس الذين أقاموا باليمن مثل سائر الفرس على المجوسية ، ولما دخل أهل اليمن في الإسلام دخل بعض هؤلاء فيه . وأقام بعض آخر على دينه ، وفرض الرسول على من بقي على دينه جزية ^٢ . وقد نفر منهم بعض سادات اليمن من الأسر القديمة ، بسبب أنهم غرباء عن اليمن ، جاؤوا إلى اليمن فحكموها ، ولهذا انضم بعض منهم إلى (الأسود) في ردة . لأن (الأسود العنسي) ، كان كارهاً للأبناء ، حاقداً عليهم . يرى أنهم عصابة دخيلة ، استأثرت بحكم اليمن ^٣ . وقد شاءت الأقدار أن تكون نهايته بأيديهم . إذ كان قاتله منهم فكان قلبه كان يعلم بما سيفعلونه به ، ولهذا كرههم .

وكانت الأزدي من القبائل المعروفة في اليمن ، وقد جاء وفد منهم إلى الرسول على رأسه (صرد بن عبد الله) في بضعة عشر ، فأسلم ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن ، وكان أول ما فعله أنه حاصر (جرش) ، وكانت قد تحصنت وضوت إليها نخثم ، فلما وجد أن من العسير عليه فتحها بالقوة آوى إلى جبل (كشر) ، فظن أهل جرش ، أنه إنما ولى عنهم منهزماً ، فخرجوا في طلبه ، حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً . ثم أسلم من نجا منهم . وحمل الرسول لهم حمى حول قريرتهم على أعلام معلومة للفرس ، وللراحلة ، وللمثيرة تثير الحارث ، فن رعاها من الناس سوى ذلك فماله سحت ^٤ .

وكتب الرسول كتاباً إلى (خالد بن ضهاد الأزدي) أن له ما أسلم عليه من

-
- ١ الطبري (١٥٨/٣) .
 - ٢ البلاذري ، فتوح (٨٣) .
 - ٣ البلاذري ، فتوح (١١٣ وما بعدها) .
 - ٤ الطبري (١٣٠/٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٩٦/١٨ وما بعدها) .

أرضه ، وكان كاتب كتابه (أبيّ)^١ . وكتب مثل ذلك لجنادة الأزدي وقومه ، وكان كاتب هذا الكتاب (أبيّ) كذلك^٢ . وكتب الرسول الى (أبي ظبيان الأزدي) من (غامد) يدعو ويدعو قومه الى الإسلام . فأجابه في نفر من قومه بمكة . وكانت لأبي ظبيان صحبة ، وأدرك عمر بن الخطاب^٣ .

وذكر ان (ضهاد بن ثعلبة) الأزدي ، كان صديقاً للرسول في الجاهلية ، وكان يتطرب ويرقي من هذه الرياح ، ويطلب العلم ، فقدم مكة قبل الهجرة ، واجتمع بالرسول وكتبه ، ثم أسلم . وهو من (أزد شنوءة)^٤ .

ونجد (ابن سعد) يدون صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه لبارق من الأزد . نظم فيه حقوقهم مثل ان لا تُجذّ ثمارهم وان لا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق . وغير ذلك . وكتب الكتاب (أبيّ بن كعب) ، وشهد عليه أبو عبيدة بن الجراح وحذيفة بن اليمان^٥ .

ويجاور الأزد من الشرق (خثعم) و (مذحج) و (مراد) و (همدان) و (بلحارث) ، ويجاورهم في غربهم (بنو كنانة) و (بنو عك) . وأما من الجنوب ، فتتصل ديارهم بديار (همدان) و (حمير) .

وتجمع بعد وفاة النبي قوم من الأزد وبجيلة وخثعم ، عليهم حميضة بن النعمان وذلك ب (شنوءة) ، وعلى أهل الطائف (عثمان بن ربيعة) ، فبعث عليهم (عثمان بن أبي العاص) ، عامل النبي على الطائف بعثاً التقى بهم بشنوءة ، فهزموا تلك الجماع ، وتفرقوا عن (حميضة) ، وهرب وفسدت ثورة هؤلاء المرتدين^٦ .

وتمرد قوم^٧ من (خثعم) على (أبي بكر) حينما بلغهم نبأ وفاة الرسول وخرجوا غضباً الى (ذي الخلصة) يريدون إعادته ، فأمر (أبو بكر) (جرير

١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٧/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٨٠/١) .

٤ نهاية الأرب (٧/١٨) وما بعدها .

٥ ابن سعد ، طبقات (٢٨٧/١) .

٦ الطبري (٣٢٠/٣) ، (دار المعارف) .

ابن عبد الله (ان يدعو من قومه من ثبت على أمر الله ، وان يستنفر (مُقويهم) ، فيقاتل بهم نخشم ، فنفذ أمره فتبعهم وقتلهم وعاد الى الإسلام من تاب^١ . وكان الرسول قد بعث ستة تسع للهجرة (قطبة بن عامر بن حذيفة) الى نخشم بناحية (تبالة) ، فتغلب عليهم^٢ .

وبقيت (همدان) قبيلة قوية من قبائل اليمن ، وقد أسلمت كلها في يوم واحد ، أسلمت يوم مقدم (علي بن أبي طالب) الى اليمن على رأس سرية أمر الرسول بارسالها الى هناك . وقد فرح الرسول باسلامها ، وتتابع أهل اليمن على الاسلام^٣ .

وقد كانت همدان بطون عديدة ، من بطونها (بنو ناعط) ، ومن رجالهم (حمرة ذو المشعار بن أيفع) ، وكان شريفاً في الجاهلية ، والظاهر انه كان صاحب موضع (المشعار)^٤ . وهو (أبو ثور) . وقد وفد على الرسول ، ووفد معه (مالك بن نمط) و (مالك بن أيفع) ، و (ضمام بن مالك السلمي) ، و (عميرة بن مالك الحارفي) ، فلقوا رسول الله بعد مرجعه من تبوك ، وعليهم مقطعات الحبرات والعائم المعدنية ، برحال المبس على المهرية والأرجحية^٥ .

ويذكر أهل الأخبار . ان الوفد لما وصل المدينة ، ارتجز (مالك بن نمط) رجزاً ، ثم خطب بين يدي الرسول ، ذاكرأ له ان نصيئة ، أي أخياراً أشرافاً من همدان ، يريد رجال الوفد ، قدمت الى الرسول ، وهي (من كل حاضر وباء) أي من أهل الحضر ومن أهل البادية ، ومن أهل مخلاف خارف ويام وشاكر ، ومن أهل الإبل والخليل ، قدموا اليه ، بعد ان عافوا الأصنام واعتنقوا الإسلام . فأثنى الرسول عليهم ، وشكرهم وكتب لهم كتاباً ، وجهه (في مخلاف خارف وأهل جناب الهضب ، وحفاف الرمل مع وافدها ، ذي المشعار : مالك بن نمط ، ومن أسلم من قومه) ، ثم بين لهم ما عليهم وما لهم^٦ .

- ١ الطبري (٣٢٢/٣) .
- ٢ نهاية الأرب (٣٥٠/١٧) .
- ٣ الطبري (١٣١/٣) وما بعدها .
- ٤ الاشتقاق (ص ٢٥١) .
- ٥ نهاية الأرب (١٠/١٨) وما بعدها .
- ٦ نهاية الأرب (١١/١٨) وما بعدها .

وورد ان (قيس بن مالك بن سعد بن لؤي الأرحبي) قدم على رسول الله وهو بمكة ، فعرض رسول الله عليه الإسلام فأسلم ، ثم خرج الى قومه فأسلموا بإسلامه ، ثم عاد الى الرسول فأخبره بإسلامهم ، فكتب له عهداً على قومه (همدان) . وذكر ان رجلاً مرّ بالرسول ، وهو من (أرحب) من (همدان) ، اسمه (عبد الله بن قيس بن أم غزال) ، فعرض عليه الرسول الإسلام ، فأسلم ، فلما عاد الى قومه قتله رجل من (بني زُبَيْد)^١ ، وجاء وفد آخر من (همدان) الى الرسول فأسلم على يديه ، وكان فيه (حمزة بن مالك) من (ذي مشعار) ، وكان على الوفد مقطعات الحبرة مكففة بالديباج ، فكتب الرسول لهم كتاباً ، وأوصاهم بقومهم من بقية بطون همدان^٢ .

وورد ان الرسول كتب لـ (قيس بن مالك بن سعد الأرحبي) ، عهداً ثبته فيه على قومه (همدان : أحورها وعربها وخلائطها ومواليها ان يسمعوا له ويطيعوا)^٣ . وذكر ان الأحمور : قدم ، وآل ذي مران ، وآل ذي لعوة ، وأذواء همدان . وقيل : حمورها : أهل القرى . وأرى ان المراد بالأحمور هم بقايا حمير الناطقون بالحميرية وهم سكان القرى والمدن. ذكرُوا وخصوا بالذكر ، لانهم اختلفوا عن غيرهم ممن كان يتكلم بلهجات أخرى ، ولهذا ميزوا عن (عربها) ، أي عرب همدان ، وهم الأعراب ، وعن الخلائط وهم الذين يكونون أخلاط الناس وعن الموالى . وذهب بعض الباحثين ، الى ان (عربها) بالغين ، أي (غربها) ويراد بهم : أرحب ، ونهم ، وشاكر ووداعة ، ويام ، وموهبة ، ودالان ، ونخارف ، وعذر ، وحجور^٤ .

وأما (بنو زُبَيْد) ، فكان على رأسهم (عمرو بن معد يكرب الزبيدي) ، وكان قد قدم على الرسول في أناس من قومه ، ليعرض عليه الإسلام . فأسلم وأسلم من كان معه^٥ . وقد نعت بالشجاعة فدعي بـ (فارس العرب)^٦ ، وهو

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٩/١٨) وما بعدها .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠ وما بعدها) .

٣ نهاية الأرب (٩/١٨) .

٤ الطبري (٣/١٣٢ وما بعدها) ، (دار المعارف) .

٥ الاشتقاق (ص ٢٤٥) .

٦ الطبري (٣/١٣٤ وما بعدها) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٨) .

لقب يلقب به الشجعان الفرسان . وأقام في قومه من بني زُبَيْد . وعليهم
(فروة بن مسيك المُرادي) ، الذي كان قد استعمله الرسول على مراد وزيد ومنحج
كلها : فلما توفي رسول الله ارتد عمرو بن معديكرب . ووثب (قيس بن
عبد يغوث) على (فروة بن مسيك) ، وهو على مراد ، فأجلاه ونزل
منزله ^١ .

وكان (عمرو بن معديكرب) قد لقيَ (قيس بن مكشوح المُرادي) حين
انتهى إليه أمر رسول الله ، فعرض عليه ان يذهب معه الى رسول الله حتى يعلم
علمه ، فإن كان نبيّاً ، فإنه لا يخفى أمره عليهم ، وإن كان غير ذلك علم
علمه أيضاً وتركه ، فلم يأخذ (قيس) برأيه وسفته فكرته . ثم أوعد (قيس)
(عمرو بن معد يكرب) يوم سمع بذهابه الى الرسول وباعتناقه الإسلام . وقال :
(خالفني وترك رأبي) ^٢ .

وكان (فروة بن مسيك المُرادي) من (بني مُراد) ^٣ . وقد عدّه (ابن
حبيب) في جملة الجرارين ، أي الذين قادوا الفأ ^٤ . وقد كان مفارقاً للملك
كندة ، ومعانداً لهم . وقد شهد يوم الرزم ، وهو يوم كان بين مراد قوم فروة
وبين همدان ، انتصرت فيه همدان على مراد . وقد نسبوا شعراً لفروة ذكروا انه
قاله يعتذر فيه عن الهزيمة التي أصابت مراداً في ذلك اليوم ، وكان الذي قُاد
همدان فيه (مراد الأجدع بن مالك) ^٥ .

ولما وصل (فروة) المدينة ، نزل على (سعد بن عبادة) ، وقد أكرمه
الرسول ، واستعمله على مراد وزيد ومنحج ، وبعث معه (خالد بن سعيد بن
العاص) على الصدقات ^٦ .

والى بني الحارث بن كعب أرسل الرسول خالد بن الوليد يدعوهم الى الاسلام ،

-
- ١ الطبري (١٨٥/٣) .
 - ٢ الطبري (١٣٢/٣) وما بعدها ، (قدوم وفد زبيد) ، نهاية الأرب (٨٥/١٨) .
 - ٣ الاشتقاق (ص ٢٤٦) .
 - ٤ المحبر (ص ٢٥٢) .
 - ٥ الطبري (١٣٤/٣) وما بعدها ، (دار المعارف) .
 - ٦ ابن سعد ، طبقات (٣٢٧/١) ، نهاية الأرب (٨٤/١٨) وما بعدها .

أو البقاء على دينهم وهو النصرانية مع دفع الجزية . فأسلم أكثرهم ، وذهب وفد منهم فيه (قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذي الغصة) ، و (يزيد بن عبد المدان) ، و (يزيد بن المحجل) ، و (عبد الله بن قريظ الزياتي) ، و (شدّاد بن عبد الله القناني) ، و (عمرو بن عبد الله الضبابي) ، فقابل الرسول ، وكان السواد غالباً على لونهم ، فقال الرسول لما رأيهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال من الهند ؟ . قيل : يا رسول الله ، هؤلاء بنو الحارث ابن كعب^١ . وأمر رسول الله (قيس بن الحصين) على (بني الحارث بن كعب) . كما زار الرسول (عبدة بن مسهر الحارثي) في المدينة ، وأسلم على يديه^٢ .

وكتب الرسول لبني الضباب من (بني الحارث بن كعب) ان لهم سارية ورافعها ، لا يُحَاقَتهم فيها أحد ما داموا مسلمين ، وكتب كتابهم هذا المغيرة^٣ . وكتب لبني قنان بن وعلة من بني الحارث كتاباً ان لهم محبساً وانهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، كتبه له المغيرة ايضاً . وأمر الرسول كاتبه : الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، ان يكتب لعبد يغوث بن وعلة الحارثي ، ان له ما أسلم عليه من أرضها وأشياءها ، أي نخلها ما دام يقوم بما يفرضه الاسلام عليه من واجبات . وكتب له (علي بن أبي طالب) ان لبني زياد بن الحارث جَمَاء وأذنية . وأمر رسول الله المغيرة بن شعبة ان يكتب ليزيد بن المحجل الحارثي ، ان له ولقومه نمرة ومساقية ووادي الرحمان من بين غابتها . وانه على قومه من (بني مالك) و (عقبة) لا يغزون ولا يحشرون^٤ .

وأمر الرسول ان يكتب كتاباً لـ (قيس بن الحصين ذي الغصة) أمانة لبني أبيه بني الحارث ولبني نهد حلفاء بني الحارث ، يؤمنهم على أموالهم ما داموا مسلمين . وكتب كتاباً يشهد بإسلام (بني قنان بن يزيد) الحارثيين ، ويؤمنهم فيه ايضاً ان لهم مَدُوداً وسواقيه . وكتب مثل ذلك لعاصم بن الحارث الحارثي ،

- ١ الطبري (١٢٦/٣ وما بعدها) (دار المعارف بمصر) ، ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٩ وما بعدها) .
- ٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٠) .
- ٣ ابن سعد (١/٢٦٧ وما بعدها) .
- ٤ ابن سعد (١/٢٦٨) .

ان له نجمة من راكس لا يُحاَقّه فيها أحد^١ .

وكان (عوز بن سُريّر الغافقي) في جملة من وفد من (غافق) على الرسول ، كما كان فيهم (جليحة بن شجار بن صُحار الغافقي)^٢ .

وقد آلم ولا شك خروج الحبش من اليمن البيزنطيين كثيراً ، وأصيبوا بخروجهم منها بنحسار من الوجهة العسكرية والاقتصادية ، غير أن مما خفف من هذه المصيبة أن الفرس لم يكن لديهم آنذاك أسطول قوي يستطيع الهيمنة على مضيق المندب ، مدخل البحر الأحمر ، بل ولا سفن كافية يكون في وسعها حماية سواحل اليمن والعربية الجنوبية . لذلك لم يهدد دخولهم اليمن السواحل الأفريقية المقابلة لسواحل جزيرة العرب وهي مهمة بالنسبة للروم ، ثم أنهم عوّضوا عن خسارتهم الكبيرة الفادحة التي نزلت بهم باحتلال الفرس لبلاد الشام ، بطردهم الفرس واجلائهم عن كل الأرضين التي استولوا عليها وبإعادتهم (الصليب المقدس) إلى مكانه . فرفعوا بذلك من معنوياتهم في الشرق الأوسط وفي أفريقية .

وقد سُرّ اليهود من خروج الحبش من اليمن ومن استيلاء الفرس عليها . إذ صاروا في حكم حكومة لا تحقد عليهم ، حكومة لا يهتمها أمر اليهود لعدم وجود علاقة لها بها . بل ربما ساعدتها لأنها تناهض الروم ، على عكس النصرانية التي كانت قد وجدت في الحبشة نصيراً ومساعداً ، لذلك قلّ أتباعها وانحسروا تدريجياً ، وبقيت متمركزة بمدينة نجران .

ولنجران وضع خاص . فقد تمتعت باستقلال ذاتي في الغالب . وقد تحرشت بتأريخها في مواضع متعددة من هذا الكتاب وبحسب المناسبات . ولما استولى الفرس على اليمن لم تدخل في طاعتهم ولم تخضع لحكم (عاملهم) ، بل أخذت تدير شؤونها بنفسها وبمجلس تنفيذي حصر أمور البلد في أيدي سادات ثلاثة اختص أحدهم بالحكم المدني ، واختص ثانيهم بالنظر في أمور الدين ، واختص الثالث في شؤون الأمن والدفاع عن المدينة . وقد عرفوا بالعاقب والسيد والأسقف . وقد قدموا على الرسول وباهلوه ؛ وكتب لهم كتاب الصلح وذلك سنة عشر للهجرة .

١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٨/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٥٢/١) .

واشترط عليهم في جملة ما اشترطه فيه ، ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به^١
وكتب الكتاب : المغيرة^٢ .

وذكر ان الوفد الذي خرج الى الرسول من نجران كان مؤلفاً من أربعة عشر رجلاً من أشرافهم نصارى . فيهم : العاقب ، وهو عبد المسيح ، رجل من كندة ، وأبو الحارث بن علقمة ، رجل من بني ربيعة ، والسيد وأوس ابنا الحارث ، وزيد بن قيس ، وشيبة ، وخويلد ، ونخالد ، وعمرو ، وعبيد الله ، وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم ، والعاقب ، وهو أسقفهم وجبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، والسيد ، وهو صاحب رحلهم . فتقدمهم (كرز) أخو (أبو الحارث) ، ثم قدم الوفد بعده ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الخبرة ، وأردية مكفوفة بالحرير ، ثم كلموا الرسول ، وصالحهم على شروط ، ثم عادوا الى ديارهم ، ثم عاد السيد والعاقب الى المدينة فأسلما ، وبقي الآخرون على دينهم الى زمن (عمر) فأجلاهم ، لانهم أصابوا (الربا) وكثر بينهم . واشترى عقاراتهم وأموالهم ، ففارقوا ، فترل بعضهم الشام ونزل بعضهم (النجرانية) بناحية الكوفة^٣

وكان الحكم في نجران لـ (بني الأفعى) ، ثم تحول الى (بني الحارث بن كعب) ، فلما ظهر الاسلام كان حكامها من بني الحارث بن كعب . أما بنو الأفعى فكانوا كثرة فيها . غير ان الحكم لم يكن في أيديهم^٤ .

ولما توفي رسول الله ، كان عامله (عمرو بن حزم) بنجران^٥ . ولما قام (ذو النجار عبهلة بن كعب) وهو (الأسود) ، بعامة مذبح على الاسلام في حياة الرسول وكان كاهناً شعباداً ، يري الناس الأعاجيب ، ويسبي قلوب من سمع منطقه ، أخرج (عمرو بن حزم) من نجران ، واستولى عليها ثم سار

-
- ١ الطبري (١٣٩/٣) ، (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٧٥ وما بعدها) .
 - ٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .
 - ٣ ابن سعد ، طبقات (٣٥٨/١) وما بعدها ، البلاذري ، فتوح (٧٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٢١/١٨) وما بعدها .
 - ٤ الطبري (٣٢١/٣) وما بعدها .
 - ٥ الطبري (١٣٠/٣) .

(عبهلة) الى صنعاء فأخذها ، وأخذ يدعو الناس اليه ، حتى قضى عليه .^١
وأرسل الرسول قبل وفاته بقليل (وبر بن يُحنس) الى (فيروز) و (جُشيش
الديلمي) و (داذويه الاصطخري) ، و (جرير بن عبد الله) الى (ذي
الكلاع) و (ذي ظليم) ، و (الاقرع بن عبد الله الحميري) الى (ذي زود)
و (ذي مران) وذلك للقضاء على (الاسود) وعلى من استجاب اليه ، فقتل .
قتله : (فيروز الديلمي) و (قيس بن مكشوح المرادي) ، وعاد من ارتد
واتبعه الى الاسلام ، ولم يكن الرسول قد فارق الدنيا بعد .^٢

وكان النبيّ حين وفاته قد نصب عمالاً على عمالات تمتد من مكة الى اليمن ،
فكان على مكة وأرضها (عتاب بن أُسَيْد) و (الطاهر بن أبي هالة) . عتاب
على بني كنانة والطاهر على عك . وعلى (الطائف) وأرضها (عثمان بن أبي
العاص) و (مالك بن عوف النصريّ) . (عثمان) على اهل المدر ومالك على
اهل الوبر أعجاز هوازن . وعلى نجران وأرضها عمرو بن حزم وأبو سفيان بن
حرب . عمرو بن حزم على الصلاة ، وأبو سفيان بن حرب على الصدقات ،
وعلى ما بين (رمع) و (زبيد) الى حد (نجران) خالد بن سعيد بن العاص .
وعلى همدان كلها (عامر بن شهر) ، وعلى (صنعاء) فيروز الديلمي يسانده
داذويه وقيس بن المكشوح ، وعلى الجند يعلى بن أمية ، وعلى مأرب أبو موسى
الأشعري ، وعلى الأشعرين مع عك الطاهر بن ابي هالة ، ومعاذ بن جبل يعلم
القوم ، يتنقل في عمل كل عامل . بقي الحال على هذا المنوال حتى نزا بهم
الأسود الكذاب .^٣

وورد في رواية اخرى ، ان رسول الله وجه (خالد بن سعيد بن العاص)
أميراً الى صنعاء وأرضها ، وذكر انه ولي (المهاجر بن ابي أمية بن المغيرة
المخزومي) صنعاء ، فقبض وهو عليها . وقال آخرون انما ولي (المهاجر)
(أبو بكر) ، وولي (خالد بن سعيد) مخاليف اعلى اليمن . وذكر ايضاً ،
ان رسول الله ولي (المهاجر) كندة والصدف ، فلما قبض رسول الله ، كتب

- ١ الطبري (١٨٥/٣) ، (ثم دخلت سنة احدى عشرة) .
- ٢ الطبري (١٨٧/٣ ، ٢٢٧ وما بعدها) ، (بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي) .
- ٣ الطبري (٣١٨/٣ وما بعدها) .

ابو بكر الى (زياد بن ليبد البياضي) من الانصار بولاية كندة والصدف الى ما كان يتولى من حضرموت . وولى المهاجر (صنعاء) . والذي عليه الاجماع ان رسول الله ولى (زياد بن ليبد) حضرموت .^١

ولما ارتد (قيس بن عبد يغوث المكشوح) ردته الثانية ، وعمل في قتل فيروز وداذويه وجشيش ، وكتب الى (ذي الكلاع) وأصحابه : (ان الأبناء نزع في بلادكم ، وثقلاء فيكم ، وأن تركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد أرى من الرأي أن اقتل رؤوسهم ، وأخرجهم من بلادنا) ، كتب (ابو بكر) الى (عمير ذي مران) والى (سعيد ذو زود) والى (سميفع ذي الكلاع) والى (حوشب ذي ظلم) ، والى (شهر ذي يناف) ، يأمرهم بالتمسك بالاسلام ، وبمقاومة (قيس) والمرتين . فكاتب (قيس) (تلك الغالة السيارة للحجبة ، وهم يصعدون في البلاد ويصوتون ، محاربين لجميع من خالفهم) (وأمرهم ان يتعجلوا اليه ، وليكون امره وأمرهم واحداً ، وليجتمعوا على نفي الابناء من بلاد اليمن) ، فاستجابوا له ، ودنوا من صنعاء . وعمد الى الحيلة لقتل (فيروز) ، و (داذويه) ، و (جشيش) . وتمكن من (داذويه) ، فقتله . فأحس (فيروز) و (جشيش) بالمكيدة ، فهربا الى (خولان) ، وهم اخوال (فيروز) ، وامتنع (فيروز) بأخواله . فثار (قيس) بصنعاء ، وجمع (فيروز) من تمكن جمعه من الابناء ، وكتب الى (بني عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) والى (عك) يستنصرهم ويستمدهم على (قيس) . فساروا اليه ووُثبت (عك) وعليهم (مسروق) ، وسار (فيروز) بهم نحو (قيس) ، فهرب في قومه والتحق بفلول (العنسي) التي تذبذبت بعد مقتله ، وسار فيما بين صنعاء ونجران . وانضم الى (عمرو بن معديكرب) . وكان (عمرو) قد فارق قومه (سعد العشيرة) في (بني زيد) وأحلافها وانضم الى (العنسي) .

ولما ارسل (ابو بكر) مدداً الى من ارسله الى اليمن ، انضم اليه قوم من (مهرة) وسعد زيد والأزد وناجية وعبد القيس وحُذبان من بني مالك ، وقوم من العنبر والنخع ، وحير ، واختلف (قيس) مع (عمرو بن معديكرب) ،

١ البلاذري ، فتوح (٨٠) .

ولمّا نفل من كان معها وأخذوا أسيرين الى ابي بكر ، فعفى عنها . وانتهت بذلك ردة هذين المرتدين .^١

ومن (بني خُشَيْن) (ابو ثعلبة الخشني) ، وقد وفد على الرسول وأسلم ووفد عليه نفر من (خشين) فتزّلوا عليه وأسلموا وبايعوه ورجعوا الى قومهم .^٢

وكان من جملة وفود اهل اليمن الى الرسول ، وفد (بهراء) ، جاؤوا الى المدينة فأسلموا ، وقد نزّلوا على (المقداد بن عمرو) .^٣

ومن قبائل اليمن قبائل (مذحج) ، وتقع منازلها جنوب منازل (نخشم) وفي شمال ديار (فهد) . ومن بطونها (الرهاويون) ، وهم حيّ من مذحج ، قدم وفد منهم على الرسول سنة (عشر) للهجرة فأسلموا . وقدم رجل منهم اسمه (عمرو بن سبيع) على الرسول فأسلم ، فعقد له رسول الله لواءً .^٤

وأرسل (النخع) رجلين منهم الى النبي : (ارطاة بن شراحيل بن كعب) من (بني حارثة بن مالك بن النخع) و (الجهيش) واسمه (الأرقم) من (بني بكر بن عوف بن النخع) فأسلما ، وعقد لأرطاة لواء على قومه ، وجاء وفد آخر من وفد النخع من اليمن سنة احدى عشرة ، وهم مائتا رجل ، وكان فيهم (زرارة بن عمرو) ، وقيل هو (زرارة بن قيس بن الحارث بن عداء) ، وكان نصرانياً ، فأسلموا ، وبايعوا الرسول ، وكانوا قد بايعوا (معاذ بن جبل) باليمن .^٥

وقدم (جرير بن عبد الله البجلي) سنة عشر المدينة على رأس وفد من قومه (بجيلة) ، فأسلموا وبايعوا الرسول . وقدم وفد آخر منهم فيه (قيس بن عذرة الأحسي) فأسلموا وعادوا الى ديارهم .^٦

-
- ١ الطبري (٣٢٣/٣ وما بعدها) .
 - ٢ ابن سعد ، طبقات (٣٢٩/١) ، نهاية الأرب (٢٣/١٨) .
 - ٤ ابن سعد ، طبقات (٣٤٤/١ وما بعدها) .
 - ٣ ابن سعد ، طبقات (٣٣١/١) .
 - ابن سعد ، طبقات (٣٤٦/١) ، (زرارة بن قيس بن الحارث بن عدي بن الحارث ابن عوف) ، نهاية الأرب (١١٠/١٨) .
 - ٦ ابن سعد ، طبقات (٣٤٧/١) .

وجاء وفد (خثعم) وفيه (عثث بن زحر) و (أنس بن ملرك) ، فأسلموا ، وكتب النبي لهم كتاباً .^١ وقد دَوَّنَ (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول كتبه لـ (خثعم) (من حاضر بيشة وباديتها) ، وأن الذي كتبه له وشهد عليه (جرير بن عبد الله) ومن حضر .^٢ ودَوَّنَ (ابن سعد) صورة كتاب آخر ، أمر الرسول بكتابه لـ (مطرف بن الكاهن الباهلي) . جاء فيه : (هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيشة من باهلة) .^٣ ويظهر منه أن (مطرفاً) المذكور وقومه من باهلة كانوا يقيمون اذ ذاك بـ (بيشة) . ودَوَّنَ (ابن سعد) صورة كتاب آخر كتبه الرسول الى (نهشل بن مالك الوائلي) من (باهلة) .^٤ ولم يذكر الكتاب مواضع منازلهم .

وكان من رجال (جُعْفَى) الذين وفدوا على الرسول : (قيس بن سلمة ابن شراحيل) ، و (سلمة بن يزيد) ، فأسلما ، وأستأذنا الرسول بالعودة الى منازلها . فلما كانا في الطريق ، لقيا رجلاً من اصحاب رسول الله ، معه ابل من ابل الصدقة ، فطردا الابل ، واوثقا الراعي . ومن (جعفي) ، (ابو سبرة) ، وهو (يزيد بن مالك بن عبد الله الجعفي) وابناه (سبرة) و (عزيز) ، قدم بهما أبوهما على الرسول ، وأسلموا .^٥

وأما (تهامة) ، فكان بها عكّ والأشعرون . وكانوا قد ارتدوا بعد سماعهم خبر وفاة الرسول ، ولكنهم غلبوا على امرهم ، وعادوا الى الاسلام .^٦ ولما توفي الرسول ، كان اول منتقض بعد النبي بتهامة عكّ والأشعرون ، وذلك انهم حين بلغهم موت النبي ، تجمعوا واقاموا على الاعلاب طريق الساحل . فسار عليهم (الطاهر بن ابي هالة) ومعه (مسروق المكي) ، فهزمهم وقتلهم كل قتلّة ، وعرفت الجموع من عكّ ومن تأشب اليهم : الأخابث ، وُسَيتي

- ١ ابن سعد ، طبقات (٣٤٨/١) .
- ٢ ابن سعد ، طبقات (٢٨٦/١) .
- ٣ ابن سعد ، طبقات (٢٨٤/١) .
- ٤ ابن سعد ، طبقات (٢٨٤/١) .
- ٥ نهاية الأرب (٨٣/١٨) وما بعدها .
- ٦ الطبري (٣٢٠/٣) وما بعدها .

الطريق الذي تجمعوا به (طريق الأنخاب) .^١

وجاء وفد من الأشعرين ، فيه (أبو موسى الأشعري) ، ومعه رجلان من (عك) قدم في سفن في البحر ، ثم نزلوا الساحل وذهبوا برّاً الى المدينة ، فرأوا الرسول وبايعوه .^٢

وأرسلت (جيشان) نفرّاً الى المدينة فيهم (ابو وهب الجيشاني) ، فأسلموا .^٣ وكان الحكم في حضرموت الى الاقيال كذلك . وفي ايام الرسول قدم عليه (وائل بن حجر) راغباً في الاسلام ، وكانت له مكانة كبيرة في بلده ، وقد نعته كتاب الرسول الذي كتبه اليه بـ (قيل حضرموت) .^٤ وقد كان لكندة والسكاسك والسكون والصدف اثر كبير في تأريخ حضرموت في هذا العهد الذي نتحدث عنه .

وذكر (ابن سعد) ، ان الرسول كتب الى اقيال حضرموت ، وعظمائهم ، كتب الى (زرعة) و (فهد) و (البسي) و (البحري) و (عبد كلال) و (ربيعة) و (حجر) .^٥

وكانت كندة هي القبيلة المتنفذة بحضرموت ، كان (الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندي) من رؤساء هذه القبيلة البارزين ، وقد مدح الأعشى (قيس ابن معديكرب) بقوله :

وجلنداء في عُمان مقبياً ثم قيساً في حضرموت المنيف^٦

وكان (الأشعث بن قيس) على رأس وفد كندة الذي وفد على الرسول سنة عشر ، فأسلم مع قومه على يديه .^٧ وقد كان رجال الوفد قد رجّلوا جمعهم واكتحلوا ، ولبسوا جباب الحبرة قد كفّوها بالحرير ، وعليهم الديباج ظاهر غوص بالذهب ، فأمرهم الرسول بترك ذلك . فألقوه .^٨

١ الطبري (٣/٣٢٠ وما بعدها) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٨) ، نهاية الأرب (١٨/٢٣) .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٩) .

٤ ابن خلدون (٢/٥٦ وما بعدها) ، (القسم الثاني) ، (الوفود) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٣ وما بعدها) .

٦ ديوان الأعشى (القصيدة ٦٣ ، البيت ١٥) .

٧ الطبري (٣/١٣٨ وما بعدها) ، (فتوح الأشعث بن قيس في وفد كندة) ، نهاية الأرب (١٨/٨٧ وما بعدها) .

٨ ابن سعد ، طبقات (١/٣٢٨) .

وذكر (أبو عبيدة) ، ان (الأشعث بن قيس) لم يكن كندياً ، وإنما صار في كندة بالولاء . وزعم ان والد (قيس) وهو (معديكرب) كان علياً من أهل فارس إسكافاً اسمه (سبيخت بن ذكر) ، قطع البحر من توج الى حضرموت . وللفرزدق شعر في ذلك قاله في حق (عبد الرحمن) حين خالف عبد الملك بن مروان . كما زعم ان (وردة بنت معديكرب) عمه الأشعث كانت عند رجل من اليهود ، فأتت ولم تخلف ولداً ، فأتى الأشعث (عمر بن الخطاب) يطلب ميراثها ، فقال له عمر : لا ميراث لأهل ملتين^١ . وقد عرف ملوك كندة الذين راسلهم الرسول بـ (بني معاوية)^٢ ، وهم الذين عرفوا بـ (بني معاوية الأكرمين) ، في شعر ملحوا به .

وكان نخوص (نخوس) ومشرح وجمد (حمدة) وأبضعة بنو معديكرب ابن وليعة بن شرحبيل بن معاوية من الرؤساء الملقبين بلقب ملك ، لأن كل واحد منهم قد اختص بوادٍ ملكه ، ولقب نفسه بلقب ملك^٣ . وقد نزلوا المهاجر ، وهي أحياء حموها ، وقد عرف هؤلاء بالملوك الأربعة من بني عمرو بن معاوية وقد لعنهم النبي^٤ . وعرفوا بـ (بني وليعة) ملوك حضرموت وقد جاؤوا الى الرسول مع وفد كندة فأسلموا^٥ .

ووفد رئيس آخر من رؤساء حضرموت على الرسول اسمه (وائل بن حجر) ، ويظهر انه كان ذا منزلة كبيرة عند قومه ، فلما وصل المدينة أمر الرسول (معاوية بن أبي سفيان) باستقباله وبإنزاله منزلاً خاصاً بـ (الحرة) ، وأمر بأن ينادى ليجتمع الناس : الصلاة جامعة ، سروراً بقدومه ، ولما أراد الشخصوص الى بلاده كتب له الرسول كتاباً دعاه فيه بـ (قيل حضرموت) ، وذكر فيه انه جعل له في يديه من الأرضين والحصون . ولما أمر الرسول معاوية بأن يتزل (وائلاً) بالحرة ، مشى معاوية معه ووائل راكب ، فقال معاوية : اتق الى

-
- ١ ابن رسته ، الأعلام (٢٠٥) .
 - ٢ ابن سعد ، طبقات (٢٦٥/١) .
 - ٣ البلدان (٢٩٤/٣) (حضرموت) ، ابن خلدون (٥٦/٢) ، (القسم الثاني) ، (الوفود) البلاذري ، فتوح (١٠٩) .
 - ٤ ابن الاثير (١٥٨/٢) وما بعدها .
 - ٥ ابن سعد ، طبقات (٣٤٩/١) .

نعليك أتوقى بهما من الحرّ ، فقال له : لا يبلغ أهل اليمن ان سوقة لبس نعل ملك ، ولما قال له : فأردفني ، قال : لست من أرداف الملوك ، ولكن إن شئت قصرت عليك ناقي فسرت في ظلها ، فأتى معاوية النبي ، فأنبأه بقوله ، فقال رسول الله : إن فيه لعبية من عبية الجاهلية ^١ .

وكان (الأشعث الكندي) وغيره من (كندة) نازعوا (وائل بن حجر) على وادي حضرموت فادعوه عند رسول الله ، فكتب به رسول الله ، لوائسل ابن حجر . بعد ان شهد له أقيال حمير وأقيال حضرموت . فكتب له بذلك ، وأقره على ما في يده من الأرضين ^٢ .

ومن قرى حضرموت : تريم ومشطة والنجير وتنعة وشبوة وذمار ^٣ .

وكان الرسول قد استعمل (المهاجر بن أبي أمية) على كندة والصدف و (زياد بن لييد البياضي) من (بني يياضة) على حضرموت ، و (عكاشة ابن محصن) على (السكاسك) و (السكون) ^٤ . ولما توفي الرسول ، خرج (بنو عمرو بن معاوية) ، الى محاجرهم ، ونزل (الأشعث بن قيس الكندي) محجراً ، و (السمط بن الأسود) محجراً ، وطابقت (معاوية) كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردة ، إلا ما كان من (شرحبيل بن السمط) وابنه ، فإنهما خالفوهم في رأيهم ، فهجم المسلمون على المحاجر ، وقتلوا الملوك الأربعة . وساروا على (الأشعث) ومن انضم اليه من (كندة) ، والتقوا بمحجر الزرقان فهزمت كندة وعليهم الأشعث : فالتجأت الى حصن النجير ، ومعهم من استغفروا من السكاسك وشذاذ من السكون وحضرموت والنجير ، فلحققتهم جيوش المسلمين ، ومنعت المدد عنهم ، وأخضعت من بقرى (بني هند) الى (برهوت) ، وأهل الساحل وأهل (محار) ، فعخاف من بالحصن على نفسه ، واستسلم الأشعث وانتهت

١ ابن سعد ، طبقات (٢٨٧/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٤٩/١ وما بعدها) .

٣ المحجر (ص ١٨٥) .

٤ المحجر (ص ١٨٦ وما بعدها) ، الطبري (٣٣٠/٣) ، (ذكر خبر حضرموت في ردتهم) .

فتنته^١ . وأخذ الى المدينة ، فحقن (أبو بكر) دمه ، وزوجه أخته ، ثم سار الى الشام والعراق غازياً ومات بالكوفة^٢ .

وكان (شرحبيل بن السمط) الكندي مقاوماً للأشعث بن قيس الكندي في الرئاسة ، وانتقل العداء الى الأولاد^٣ .

وينسب (الصدف) الى الصدف بن مالك بن مرتع بن معاوية بن كندة (، فهم إذن من كندة .

وذكر ان من سادات حضرموت في هذا العهد : (ربيعة بن ذي مرحب الحضرمي) . وقد كتب اليه الرسول كتاباً أقره فيه وأقر أعمامه وإخوته وكل (آل ذي مرحب) على أرضهم وأموالهم ونخلهم ورقيقهم وآبارهم ونخلهم وشجرهم ومياههم وسواقيهم ونبتهم وشراجعهم وان (أموالهم وأنفسهم وزافر حائط الملك الذي كان يسيل الى آل قيس) هو لهم . وكتب الكتاب للرسول معاوية بن أبي سفيان^٤ .

وكان يتنازع على رئاسة مهرة رجлан منهم عند ظهور الاسلام ، أحدهما (شخریت) وهو مسن (بني شخراة) ، وكان بمكان من أرض مهرة يقال له : (جَيَّروت) الى (نضلون) . وأما الآخر فبالنجد . وقد انقادت مهرة جميعاً لصاحب هذا الجمع ، عليهم (المصباح) أحد بني محارب ، والناس كلهم معه ، إلا ما كان من شخریت ، فكانا مختلفين ، كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر الى نفسه : وقد قتل (المصباح) في أثناء ردة مهرة ، أما شخریت الذي كان قد أسلم ثم ارتد ، فقد سلم على نفسه بعودته الى الاسلام ، وأرسل مع الأخماس الى (أبي بكر)^٥ .

ويذكر أهل الأخبار ان بعض رجال (مهرة) وفدوا على الرسول ، منهم (مَهْرِي بن الأبيض) ، وقد كتب له الرسول كتاباً ، و (زهير بن قرضم

١ الطبري (٣٣٢/٣ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، فتوح (١١٠) .

٣ البلاذري ، فتوح (١٤٣) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٦٦/١) .

٥ الطبري (٣١٦/٣ وما بعدها) ، (ذكر خبر مهرة بالنجد) .

ابن العُجَيل بن قباث بن قومي) ، وقد أسلم ، وكتب له الرسول كتاباً حين هم بالانصراف الى قومه^١ .

ومن مواضع (مهرة) (رياض الروضة) ، بأقضى أرض اليمن من مهرة ، و (جيروت) و (ظهور الشحر) و (الصبرات) و (ينعب) و (ذات الحيم)^٢ .
وأما عمان ، فكان المتنفذ والحاكم فيها (الجلندي بن المستكر) ، وكان قد نصب نفسه ملكاً عليها ، ويفعل في ذلك فعل الملوك ، فيُعَشِّرُ التجار في سوق (دبا) و (سوق صحار) . وكانت سوق دبا من الأسواق المقصودة المشهورة ، يأتي اليها البائعون والمشترون من جزيرة العرب ومن خارجها ، فيأتيها تجار من السند والهند والصين^٣ .

وورد في باب الرسل الذين أرسلهم رسول الله الى الملوك، انه أرسل (عمرو بن العاص) الى (جيفر بن جلندي) و (عباد بن جلندي) (عبيد) (جيفر بن جلندي بن عامر ابن جلندي) (عبدا) الأزديين صاحبي عمان^٤ . مما يدل على انها كانا هما الحاكمين على عمان في هذا الوقت . وتعني لفظة (جلنداء) الواردة في شعر الأعشى في مدح (قيس بن معد يكرب) (الجلندي) صاحب عمان^٥ . وتذكر الروايات ان (جيفر) ، كان هو الملك منهما : وكان أسن من أخيه^٦ .

وكان يُسامي (الجلندي) (ذو التاج) (لقيط بن مالك الأزدي) ، وقد ارتد وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ : وغلب على عمان ، والتجأ (جيفر) و (عباد) الى الجبال . فأرسل (أبو بكر) اليها مدداً ، فتغلبا عليه وعلى من

-
- ١ ابن سعد ، طبقات (٣٥٥١ وما بعدها) .
 - ٢ الطبري (٣١٧/٣) .
 - ٣ المحبر (ص ٢٦٥ وما بعدها) ، البلاذري (٨٧) ، (عمان) .
 - ٤ الطبري (٦٤٥/٣) ، المحبر (ص ٧٧) ، الطبري (٢٩/٣) (دار المعارف) .
 - ٥ وجلنداء في عمان مقيما ثم قيسا في حضرموت المنيف ديوان الأعشى (٣١٢) (طبعة الدكتور م . محمد حسين) ، القصيدة ٦٣ ، البيت ١٥ ، البلاذري ، فوح (٨٧) ، ابن الأثير ، الكامل (٢٥٢/٢) ، تاج العروس (٣٢٣/٢) ، (جلد) .
 - ٦ نهاية الأرب (١٦٧/١٨ وما بعدها) .

التف حوله^١ . ويظهر ان (لقيطاً) كان ينافس (آل الجلندی بن المستكبر) على السلطان ، وقد اعتصم (آل الجلندی) بالاسلام . وانتصروا بفضل المسدد الذي وصل اليهم عليه . وقد قتل (لقيط) وسبي أهل (دبا) .

وكلمة (الجلندي) على ما يظهر من روايات الأخباريين ليست اسماً لشخص ، وإنما هي لقب ، وقد تعني (لقباً) أو (قبلاً) أو (كاهناً) في لهجات أهل عمان . ويؤيد ذلك ما ورد من انه (ادعى به من كان نبياً)^٢ .

وارتدت طوائف من أهل (عمان) ، ولحقوا بالشجر ، وارتسد جمع من (مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاة) ، فجهاز عليهم (أبو بكر) (عكرمة بن أبي جهل بن هشام المخزومي) و (حذيفة بن حصن البارقي) من الأزد ، فتغلبا عليهم جميعاً ، وعادوا عن ردتهم الى الاسلام^٣ .

ودون (ابن سعد) صورة كتاب ذكر أن الرسول كتبه لرجل من (مهرة) اسمه (مهري بن الأبيض) . كتبه له : (محمد بن مسلمة الأنصاري)^٤ .

وغالب أهل عمان من الأزد . وهم من (القحطانيين على رأي أهل الأنساب . من نسل (أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ) . وقد عرفوا بـ (أزد عمان) ، تمييزاً لهم عن أزد شنوءة وأزد السراة وعن أزد غسان . وذكر ان أصل كلمة (أزد) هي (أسد) ، وان (أسد) (أفصح من (أزد))^٥ . وان الأزد نزلت عمان بعد سيل العرم ، فغلبت على من كان بها من ناس^٦ . واما أزد (شنوءة) فقد اتجهوا نحو الشمال ، فذهب قوم منهم الى العراق ، ذكر انهم سُموا (شنوءة) لشأن ، أي تباغض وقع بينهم أو لتباعدهم عن بلدهم^٧ . وإذا أخذنا بهذا التفسير ، قلنا إنه يعني ان هذه الجماعة من الأزد ، كانت مستبدية أعرابية ، عاشت متباغضة يقاتل بعضها بعضاً ، وهذا ما دفع فلولها على الارتحال

-
- ١ الطبري (٢١٣/٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، ابن الأثير (١٥٦/٢ ، ٢٥٢) .
 - ٢ الطبري (٣١٤/٣) .
 - ٣ البلاذري ، فتوح (٨٧ وما بعدها) .
 - ٤ ابن سعد ، طبقات (٢٨٦/١) .
 - ٥ اللسان (٧١/٣ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٨٣) ، تاج العروس (٣٨٩/٢) .
 - ٦ السالمي ، تحفة الأعيان (٧/١) .
 - ٧ تاج العروس (٨٢/١) .

عن مواضعها الأصلية وعلى الانتشار والتفكك والذهاب الى أماكن بعيدة عن مواطنها شأن الأعراب المتقاتلين المتخاذلين .

ثم نراهم يذكرون ان أول من لحق بعان من الأزدي : (مالك بن فهم بن غانم بن دوس بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن عبد الله ابن مالك) وكان سبب خروجه عن قومه الى عمان : ان كان له جبار وكان لجاره كلبه ، وكان بنو أخيه (عمرو بن فهم بن غانم يسرحون ويروحون على طريق بيت ذلك الرجل ، وكانت الكلبة تعوي عليهم وتفرق غنمهم ، فرماها أحدهم بسهم فقتلها . فشكا جبار مالك اليه ما فعل بنو أخيه ، فغضب مالك وقال : لا أقيم في بلد ينال فيه هذا من جاري . ثم خرج مراغماً لأخيه عمرو ابن فهم . ثم لحقت به قبائل أخرى من الأزدي ^١ .

ويذكر الأخباريون ان (عمان) نسبة الى رجل اسمه (عمان بن قحطان) : وكان أول من نزلها بولاية أخيه يعرب ، وذكر أيضاً ان (عمان) اسم وادٍ ، كان يتزل الأزدي عليه حين كانوا بمأرب ، وان الفرس كانوا يسمون (عماناً) (مزون) ^٢ . وذكر ان العرب كانت تسمي (عمان) المزون . وذكر ان (أردشير بابكان) جعل الأزدي ملاحين بشحر عمان قبل الاسلام بستائة سنة . وقيل ان المزون ، قرية من قرى عمان يسكنها اليهود والملاحون ليس بها غيرهم ^٣ .

ونزل بعان ناس من غير الأزدي . منهم جمع من (بني تميم) ، ومنهم (آل جذيمة بن حازم) ، وقوم من (بني النبيت) من الأنصار ، ومنازلهم في قرية يقال لها (ضنك) من أعمال (السر) ، و (بنو قطن) من أهل يثرب كذلك ، ومنازلهم (عبري) و (السليف) و (تنعم) من أرض السر ، وقوم من (بني الحارث بن كعب) ، وآخرون من (قضاعة) ، وفروع من (عبس) ^٤ .

وكان في جملة من وفد من أزدي عمان على الرسول ، (أسد بن يبرح

- ١ السالمي ، تحفة الأعيان (٩/١) .
- ٢ اللسان (٢٨٩/١٣) ، السالمي ، تحفة الأعيان (٧/١)
- ٣ اللسان (٤٠٧/١٣) .
- ٤ السالمي ، تحفة الأعيان (٩/١) .

الطاحي ، خرج في وفد ، فبايعوا الرسول ، وطلبوا منه ان يرسل اليهم رجلاً يقيم أمرهم ، فأمر رسول الله (مخربة العبدى) ، واسمه (مدرك بن نخوط) بأن يذهب اليهم ، ويعلمهم القرآن والأحكام . وجاء بعده وفد آخر فيه (سلمة ابن عياذ (عباد) الأزدي)^١ .

ومن عمان (صحار) ، وقد اشتهرت بسوقها . و (قلها) ، وهي فرضة عمان على البحر ، اليها ترفأ أكثر سفن الهند^٢ . و (دبا) (دما) و (مهرة)^٣ . ويعقد سوق صحار في أول يوم من رجب ، ولا يختلف فيها بخفير ، ثم يرتحلون الى سوق دبا ، فيعشرهم (آل الجلندى)^٤ .

ودون (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه الى وفد (ثماله) و (الحُدَّان) . جاء فيه (هذا كتاب من رسول الله لبادية الأسياف ونازلة الأجواف مما حازت صحار) ، ثم ورد بعدها ما وضع عليهم الرسول من حقوق . وقد كتب الصحيفة (ثابت بن قيس بن شماس) ، وشهد عليها : سعد بن عباد ومحمد بن مسلمة .

وأما البحرين ، فجعل سكانها من (بني عبد القيس) وبكر بن وائل وتميم . وهم بين أهل شرك أو نصرانية وبين شراذم من يهود ومجوس . أما الوالي عليها في أيام ظهور الرسول ، فكان (المنذر بن ساوى)^٥ . وهو من بني عبد الله ابن زيد) من (بني تميم) . وكانوا ملوك المشقر بهجر ، وكانت ملوك الفرس قد استعملتهم عليها^٦ . و (عبد الله بن زيد) هذا هو (الأسبدي) ، نسبة الى قرية ب (هجر) يقال لها (الأسبد) ، ويقال انه نسب الى (الأسبديين) ، وهم قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين^٧ .

-
- ١ ابن سعد ، طبقات (٣٥١/١) ، نهاية الأرب (١١٥/١٨) .
 - ٢ السالمى ، تحفة الأعيان (٨/١) ، البكري ، معجم (١٠٩/٣) .
 - ٣ البلاذري ، فتوح (٨٨) .
 - ٤ السالمى ، تحفة الأعيان (٨/١) .
 - ٥ ابن الأثير (٨٩/٢) ، الطبري (١٦١/٢ وما بعدها) ، البلدان (٧٤/٢) ، المعبر (ص ٢٦٥) .
 - ٦ المعبر (ص ٢٦٥) .
 - ٧ البلاذري ، فتوح (٨٩) ، تاج العروس (٥٦٤/٢) ، (السبنة) .

و (المشقر) حصن آخر من حصون البحرين المعروفة ، وهو من الحصون العادية لذلك سب بعض أهل الأخبار بناءه الى (سليمان بن داود) على عادتهم في ارجاع سب الأبنية العادية اليه في الغالب عند عجزهم عن معرفة أصل الأبنية . وذكر بعض آخر انه من بناء (طسم) . وقد كان لعبد القيس ، ولهم حصن آخر يليه اسمه (الصفا) قبل مدينة (هجر) . وبين الصفا والمشقر نهر يجري يقال له (العين) . ويذكر أهل الأخبار ان (بني عبد القيس) لما جاؤوا بها (إياداً) ، فأخرجوهم عنها قهراً ، وأخذوا مكانهم . وان (كسرى) حبس (تميم) بهذا الحصن ، وفيه فتك (المكعب) والي (كسرى) ، بيني تميم . وعرف الموضع لذلك بـ (فج بني تميم)^١ .

وقد ورد اسم هذا الحصن في شعر (ليبد بن ربيعة العامري) ، إذ قال :

وأعوصن بالدومي من رأس حصنه وانزلن بالأسباب رب المشقر

وقد ذكر شارح الديوان ان الشاعر (ليبد) قصد بالدومي ملك دومة الجندل . وان المشقر حصن بالبحرين . (قال أبو عمرو : وكان ربّه رجلاً من الفرس)^٢ . وجاء في هامش التحقيق ان (المشقر : قصر بالبحرين بناه معاوية بن الحارث بن معاوية الملك الكندي ، وكانت منازلهم ضرية ، فانتقل أبوه الحارث الى الغمر ، وبني ابنه المشقر ، وقال ابن الأعرابي : المشقر بمدينة قديمة في وسطها قلعة ، وهي مدينة هجر)^٣ .

وتقع ديار (عبد القيس) الى الشمال من ديار (أزد عمان) ، وهي تشرف على الخليج ، وتمتد نحو الشمال حتى تصل الى منازل قبائل (بكر بن وائل) ، وقد خالطتها قبائل أخرى . وسكنت الى الغرب من ديار (عبد القيس) قبائل (تميم) ، التي تمتد ديارها موازية لديار (بني عبد القيس) الواقعة الى شرقها حتى تصل الى ديار (بكر بن وائل) وديار (أسد) التي تؤلف الحدود الشمالية الغربية لها . وأما القبائل النازلة الى الغرب من ديار تميم ، فهي : أسد وهوازن

١ وهناك مواضع أخرى عرفت باسم (المشقر) ، البلدان (٦١٥/٤) (طهران) ، القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد (٧٣) ، مراصد الاطلاع (١٢٧٥/٣) ، البكري ، معجم (١٢٣٢/٣) .

٢ شرح ديوان ليبد (ص ٥٦) .

٣ شرح ديوان ليبد (ص ٥٦) ، هامش رقم (١) .

و (غني) و (باهلة) ، وأما القبائل النازلة الى الجنوب من بلاد تميم ، فهي (أزد عمان) و (عبد مناة) و (ضبّة) .

ويظهر من دراسة الروايات التي يرويها أهل الأخبار عن هجرة القبائل ، ان (بني عبد القيس) ، لما جاؤوا الى البحرين ، كانت البلاد إذ ذاك لإياد ، فجلت إياد من البحرين ونزحت نحو العراق ، فكان ما كان لها من مواقف هناك مع الفرس^١ .

وسبب غدر (المكعب) ببني تميم ، هو وثوبهم على قافلة كانت محملة بالطرف والأموال أرسلها (وهرز) عامل كسرى على اليمن الى كسرى ، فاغتاظ (كسرى) من ذلك ، وأراد ارسال جيش عليهم ، فأخبر ان بلادهم بلاد سوء ، قليلة الماء ، وأشير اليه ان يرسل الى عامله بالبحرين ان يقتلهم ، وكانت تميم تصبر الى هجر للميرة . فلجأ العامل الى الغدر بهم ، فأمر مناديه ان ينادي لا تطلق الميرة إلا لتميم ، فأقبل اليه خلق كثير ، فأمرهم بدخول المشقر وأخذ الميرة ، والخروج من باب آخر ، فدخل قوم منهم فقتلهم . ثم أجهز على الباقيين ، وبعث بنراريهم في سفن الى فارس^٢ .

وذكر ان (المكعب) واسمه (فيروز بن جشيش) ، تحصن بـ (الزارة) وانضم اليه مجوس كانوا تجمعوا بالقطيف ، وامتنعوا عن أداء الجزية ، فحاصرها (العلاء) وفتحها في أول خلافة (عمر) . وفتح (العلاء) (السابون) و (دارين) في الساحل المقابل من الخليج^٣ .

وتميم من القبائل الكبيرة التي كان لها شأن عند ظهور الاسلام . وقد سكنت في مواضع متعددة من جزيرة العرب وفي العراق وبادية الشام . وكان من أشرافها عند ظهور الاسلام : عطارذ بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي ، والأقرع ابن حابس ، والزبرقان بن بسير ، وعمر بن الأهتم ، وقيس بن عاصم^٤ ،

- ١ الأغاني (٢٣/٢٠) ، البكري (٦٧/١ ، ٨٢) ، البلاذري ، أنساب (٢٥/١) ، الجاحظ ، البيان (١٢١/١) .
- ٢ آثار البلاد (ص ٧٣) .
- ٣ البلاذري ، فتوح (٩٥ وما بعدها) .
- ٤ الطبري (١١٥/٣) ، (قدوم بني تميم ونزول سورة الحجرات) ، نهاية الأرب (٣٢/١٨ وما بعدها) .

وربيعة بن رفيع ، وسبرة بن عمرو ، والقعقاع بن معبد ، ووردان بن محرز ، ومالك بن عمرو ، وحنظلة بن دارم ، وفراس بن حابس^١ ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن سعد ، ورباح بن الحارث^٢ . و (سفيان بن الحارث بن مصاد)^٣ .

وكان (الزبرقان بن بدر) على الرباب وعوف والأبناء ، وقيس بن عاصم على (مقاعس) والبطون ، و (صفوان بن صفوان) على (بهلى) ، و (سبرة بن عمرو) على (خضم) مسن (بني عمرو) . و (بهلى) و (خضم) قبيلتان من (بني تميم) . و (وكيع بن مالك) و (مالك بن نيرة) على (بني حنظلة) : (وكيع) على (بني مالك) و (مالك) على (بني يربوع) . ولما وقعت (الردة) ، ارتبك موقف زعماء (تميم) ، وكانوا متخاصمين غير متفقين فيما بينهم ، وبينهم تحاسد وتباغض ، منهم من أدى الصدقة ومنهم من امتنع ، وتخاصموا فيما بينهم بسبب ذلك . وزاد في ارتباكهم هذا قدوم (سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان) من الجزيرة ، وكانت ورهطها في (بني تغلب) تقود أفناء (ربيعة) ، ومعها (الهذيل بن عمران) في (بني تغلب) و (عقة بن هلال) في النمر ، و (تاد) في إياد ، و (السليل بن قيس) في (شيان) ، و حاروا في أمرهم ، منهم من انضم إليها ومنهم من خالفها وقاتلها ، ثم اتجهت نحو (مسيلمة) بالهامة وانفقت معه ، ثم غادرته راجعة إلى قومها^٤ .

ولما امتنع (مالك بن نيرة) عن دفع الصدقة ، سار عليه (خالد بن الوليد) إلى (البطاح) ، وكان قد فرّق قومه ، وأمرهم بعدم التعرض والمقاومة ، ولكنه قتل . وانتهى بذلك أمر تميم^٥ .

وكان (الاقرع بن حابس بن عقال) المجاشعي الدارمي في جملة المؤلفات

-
- ١ الطبري (١٥٧/٣) .
 - ٢ ابن سعد ، طبقات (٢٩٣/١) وما بعدها .
 - ٣ ابن سعد ، طبقات (٢٦٧/٣) وما بعدها .
 - ٤ الطبري (٢٦٧/٣) وما بعدها .
 - ٥ الطبري (٢٧٦/٣) وما بعدها ، (ذكر البطاح وخبره) ، الميداني ، مجمع الأمثال (١٣٩/٢) ، العقد الفريد (٢٦٤/٣) ، زهر الآداب (٧٦١/٣) ، تاريخ خليفة بن خياط (٧٠/١) .

قلوبهم .^١ وهو من سادات تميم . وذكر انه كان على دين المجوس .^٢

ولقبيلة تميم صلات بملوك الحيرة ، وقد كانت (الردافة) اليها . وهي مكانة ودرجة مهمة جداً ، لا تعطى الا للقبائل المتنفذة القويّة . ومع ذلك فقد وقعت بينها وبينهم خطوب ومعارك . لما في طبع القبائل من شق عصا الطاعة عند شعورها بوجود وهن في الحكم . وبأن في امكانها الانفراد بنفسها في الحكم . كما كانت لها صلات متينة برجال مكة التجار ، ولها معهم اعمال وتجارة وعهود وحبال . لحماية قوافل قريش ولتأمين وصولها سالمة الى الاماكن التي كانت تقصدها .

ونجد تميماً تحارب (بكر بن وائل) ومن يشد ازرها ويعاونها من (الاساورة) وذلك يوم (الصليب) . وقد انتصر (بنو عمرو) وهم من تميم على (بني بكر) ، وقتل (طريف) (رأس الاساورة) .^٣ وقد كانت (بكر بن وائل) من القبائل المؤيدة للساسانيين . وكان الفرس يقومونهم ويجهزونهم . ويشرف على تجهيزهم عاملهم على (عين التمر) .^٤

وتظهر صلات (تميم) الطيبة بقريش من اخبار اهل الاخبار عن تجارة قريش وعن الطرق التي كان يسلكها تجارهم لوصولهم الى الاسواق ، مثل سوق دومة الجندل والمشقر والاسواق الاخرى . لقد كانت الطرق المؤدية الى تلك الاسواق تمر بأرضين هي لاهياء من تميم . ولم تكن هذه الاحياء تتعرض لتجار مكة او للتجار المتحالفين معهم والذين يتاجرون باسمهم ، بأي سوء . على العكس كانت تحترمهم وتقدم لهم المعونة ، لوجود حبال وعهود عقدها ساداتهم مع سادات قريش . ونظراً الى ما كان من حلف بين (كلب) و (تميم) ، فقد صار في وسع تاجر مكة ومن هو في حلقه او يتاجر بحماية تجار مكة ، المرور في منازل (كلب) بأمن وسلام .^٥

ومن ديار تميم (الحزن) ، وهو لـ (بني يربوع) . وهو مرتع من مراتع

١ تاج العروس (٤٤/٦) ، (الف) .

٢ الأعلام النفيسة (٢١٧) .

٣ M. J. Kister, VIII, II, November, 1965, P. 114.

Kister, P. 114.

٤ النقائض (٥٨١) .

٥ Kister, P. 128.

العرب ، فيه رياض وقيعان . وقيل هو صقع واسع نجدى بين الكوفة وفيد .
وقيل : هو قف غليظ ، ومربع من مراع العرب ، بعيد عن المياه ، فليس
ترعاه الشياه ولا الحمر . فليس فيها دمن ولا ارواث . ^١ وعرف بأنه بلاد بني
يربوع . وهناك حزن آخر ما بين زباله فما فوق ذلك مصعداً في بلاد نجد . وفيه
غلظ وارتفاع . وقد ورد ذكر (الحزن) في شعر للأعشى ، حيث يقول :

ما روضة من رياض الحزن ، معشبة نخضراء جاد عليها مُسبل هطل

وذكر انه موضع كانت ترعى فيه إبل الملوك ، وهو من ارض (بني اسد) . ^٢
وكانت قوافل قريش اذا قصدت (دومة الجندل) ، وسلكت السبل التي تمر
بـ (الحزن) ، فانها تكون آمنة مطمئنة ، لانها تمر ببلاد مضر . ولا يتحرش
مضري بمضري . وكانت اذا عادت وأرادت سلوك مواضع الماء ، مرت بديار
كلب ، فتكون عندئذ آمنة مطمئنة ، لأن لكلب حلفاً مع (تميم) و (تميم)
من مضر ولها صلوات وعلاقات بمكة . واذا مرت بحزن اسد ، فانها تكون آمنة
كذلك ، لأن (بني اسد) من مضر . واذا دخلت ديار (طيء) ، صارت
آمنة ايضاً ، لأن لطيء حلفاً مع بني اسد . ^٣

ويظهر انه قد كانت لتميم صلوات بقريش وبمكة تعود الى ايام سابقة على
الاسلام . اذ نجد في روايات اهل الاخبار ان نقرأ منهم كانوا يذهبون الى مكة
ومنهم من كان يذهب اليها للتجار . فقد ذكر ان تميمياً كان متجره بمكة ، وقد
اختلف مع (حرب) ، فاعتدى عليه (حرب) . فذهب التميمي الى (بني
هاشم) واستجار بهم ، فأجاره (الزبير بن عبد المطلب) ، رئيس (بني هاشم) ، ^٤
وذكر ان نقرأ من (بني دارم) كانوا في جوار رجال من (بني هاشم) . ^٥
بل يظهر انه قد كان لهذه القبيلة علاقة بمكة نفسها وبسوق عكاظ . وهو

١ اللسان (١١٣/١٣) ، (حزن) ، تاج العروس (١٧٤/٩) ، (حزن) .

٢ اللسان (١١٣/١٣) ، (حزن) ، تاج العروس (١٧٤/٩ وما بعدها) ، (حزن) .

٣ المرزوقي ، الأمكنة (١٦٢/٢) .

٤ ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (٤٦٥/٣) ، ابن عساكر ، تاريخ ، (٣٢٩/٧) ،

Klster, P. 130.

سيرة ابن دحلان (٢٢/١) .

Klster, P. 131.

٥

سوق مهم تقصده قريش ، وكانت تتحكم في شؤونه . فلتميم صلة بـ (الإفاضة) ، ولها صلة بالحكومة في سوق عكاظ ، وقد ذكر اهل الاخبار اسماء عدد من حكام تميم حكموا بعكاظ . وكانت هي وقريش وكنانة ، تدبر مراسم الحج وتحافظ على شعائره . مما يدل على انها كانت ذات صلة قديمة بمكة ، ولا سيما بعض احياء منها ، مثل (بنو دارم) ، الذين ظهروا على أكثر احياء تميم . ولعل ابتعادها عن مكة وارتحال احيائها الى مواطن بعيدة عن مكة ، قد باعد فيما بينها وبين قريش ، وقلل من صلاتها بهم .

وتتجلى هذه العلاقة في تزوج قريش من (تميم) ، مع ما عرف عن قريش من الامتناع من التزوج من غير قريش . وقد روى اهل الاخبار اسماء جماعة من اشراف مكة ، كانت أمهاتهم من (تميم) . ونجد في مكة رجالاً من تميم تحالفوا مع رجال من مكة . فصاروا من حلفائهم .^١

وقيام (تميم) بمهمة (الحكومة) في سوق عكاظ ، وبـ (الإجازة) ، يدل على أهمية مركز هذه القبيلة بالنسبة لقريش . وما كانت قريش تعطي (الإجازة) لتميم ، لولا ما كان لها من نفوذ ومن علاقات طيبة بقريش . وقد افتخر (بنو تميم) ، بالحكومة في (عكاظ) وبالإجازة في الجاهلية وفي الاسلام .^٢

وكان (بنو عبد القيس) من قبائل البحرين المتنفذة . وكانت غالبيتهم على النصرانية ، ومنهم كان (الجارود بن عمرو بن حنش بن المعلي) ، الذي قدم في وفد عبد القيس الى الرسول ، فأسلم على يديه . وقد رفض الدخول فيما دخل فيه قومه من الردة عن الاسلام والعودة الى النصرانية وتأيد (الغرور) : المنذر ابن النعمان بن المنذر .^٣ وكان في جملة الوفد الذي قدم على الرسول عام الفتح : (عبد الله بن عوف الأشج) و (منقذ بن حيان) ، وهو ابن اخت الأشج ، فأسلما وعادا الى ديارهما .^٤

ودون (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول وجهه الى (الأكبر بن عبد القيس) . ولم يشر الى المراد من (الأكبر بن عبد القيس) . ومما جاء فيه

Kister, P. 157

١ المصعب الزبيري ، نسب قريش (٢٦٧) ،

٢ Wellhausen, Peste, S., 57, Ginebaum. Mohammadan Festivals, P. 32. F.,

Kister, P. 155.

٣ الطبري (١١٣٦/٣) ، (قدوم الجارود في وفد عبد القيس) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٣٤١/١) ، نهاية الأرب (٦٥/١٨) وما بعدها .

ان (العلاء بن الحضرمي) (امين رسول الله على برّها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها ، وأهل البحرين خفراؤه من الضيم وأعوانه على الظالم وأنصاره في الملاحم) :^١

وكان الرسول قد ارسل (العلاء بن الحضرمي) سنة ثمان قبل فتح مكة الى (المنذر بن ساوي العبدي) ، يدعوّه الى الاسلام ، فأسلم ، فهلك بعد وفاة الرسول بشهر ، وارتد بعده أهل البحرين .^٢ واجتمعت (ربيعة) بالبحرين وارتدت ، وملكوا عليهم (المنذر بن النعمان بن المنذر الغرور) ، وكان يعاونه (الغرور بن سويد) اخي النعمان بن المنذر ، ويسمى (المنذر بن سويد بن المنذر) ،^٣ وكان رأس اهل الردة (الحطيم بن ضُبَيْعَة) أخو بني قيس بن ثعلبة ، فجمع من اتبعه من بكر بن وائل ، حتى نزل القطيف وهجر ، واستغوى الحط ومن فيها من الزط والسيابجة ، وبعث بعثاً الى (دارين) وبعث على (جواثي) فحصرهم .^٤ وكان قد منى (سويد بن المنذر) بأن يجعله كالنعمان بالحيرة ، غير انه فشل وغلب المسلمون اهل الردة ، وقتل (الحطيم) .^٥

وكان (المنذر بن النعمان) يسمى (الغرور) ، فلما ظهر المسلمون ، قال : لست بالغرور ولكني المغرور ، ولحق هو وفُلّ (ربيعة) بالخط ، فأتاها (العلاء) ففتحها وقتل المنذر ومن معه . وذكر انه نجا فدخل الى (المشقر) ، ثم لحق بسليمة فقتل معه . وذكر انه قتل (يوم جواثا) ، وذكر انه استأمن ثم هرب فلهق فقتل .^٦ وقيل انه اسلم .

والمنذر بن ساوي هو رجل عربي من (بني تميم) من (بني دارم) على رأي أكثر أهل الاخبار . وقد ذهب بعضهم الى انه من (بني عبد القيس) . ولكن أكثرهم على انه (المنذر بن ساوي بن الانخس بن بيان بن عمرو بن عبد الله ابن زيد بن عبد الله بن دارم التميمي الدارمي) .^٧ وكان هو المتولي على البحرين في ايام الرسول .

- ١ ابن سعد ، طبقات (٢٨٣/١) .
- ٢ الطبري (١٣٦/٣) وما بعدها ، (٣٠) ، البلاذري ، فتوح (٨٩) .
- ٣ الطبري (٣٠٩/٣٠٤٣) وما بعدها .
- ٤ وهو حصن بالبحرين ، البلاذري ، فتوح (٩٤) .
- ٥ الطبري (٣٠٤/٣) وما بعدها .
- ٦ البلاذري ، فتوح (٩٥) .
- ٧ أسد الغابة (٤١٧/٤) .

ونجد في طبقات ابن سعد صورة كتاب أرسله الرسول الى (المنذر بن ساوى) ، يذكر فيه ان رسل رسول الله قد (حمدوك ، واثبتك على عملك وتنصح لله ولرسوله) ، كما نجد للرسول كتاباً آخر ، يخبر (المنذر) فيه انه قد بعث اليه (قدامة) و (أبا هريرة) ، و (قاذف) اليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك) . وأرسل كتاباً مثله الى (العلاء بن الحضرمي) يخبره فيه ، انه بعث الى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية ، فعجله بها . وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور) . وكاتب الكتابين أبي^١ . وكتب المنذر كتاباً الى الرسول ، جاء فيه : (لاني قرأت كتابك على أهل هجر ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه)^٢ .

وفي طبقات ابن سعد ، كتاب من الرسول ، ذكر انه أرسله (الى الهلال صاحب البحرين) ، فيه دعوة لهلل الى الاسلام والى عبادة الله وحده والدخول في الجماعة فان ذلك خير له^٣ . ويظهر ان هلالاً هذا كان أحد سادات البحرين في هذا الوقت ، وانه كان قد تأخر عن (الجماعة) أي قومه في الدخول في الاسلام ، فكتب الرسول له ذلك الكتاب .

وأما (هجر) ، فكان عليها عند ظهور الاسلام مرزبان يدعى (سبيخت) وإليه ذهب أيضاً العلاء بن الحضرمي يدعوه الى الاسلام ، فأسلم وأسلم معه جميع العرب وبعض العجم^٤ . وأما أهل الأرض هناك من اليهود والنصارى والمجوس ، فقد صالحوا العلاء على الجزية^٥ . وهَجَرَ سوق من أسواق الجاهلية ، يؤمها (بنو محارب) من (عبد القيس)^٦ . ويظهر من كتاب أمر رسول الله بتدوينه اليه ، انه لما أسلم وصدق أرسل الى رسول الله رسولا يخبره بذلك اسمه (الأقرع) ، فكتب اليه الرسول كتاباً حملة اليه الأقرع صاحبه ، ويذكر رسول الله فيه انه

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٦/١) .

٢ نهاية الأرب (١٦٧/١٨) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٥/١) .

٤ البلدان (٧٤/٢) ، البلاذري ، فتوح (٨٩ وما بعدها) .

٥ أسد الغابة (٧/٤) ، فتوح البلدان (٨٦) ، البلدان (٧٢/٢) .

٦ صفة (١٣٦ وما بعدها) (ابن بليهد ١٩٥٣ م) .

علم بما جاء في كتاب (سبيخت) اليه ، وانه يحثه ويدعوه الى القيام بشعائر الاسلام^١ .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى ان هجراً كانت قاعدة البحرين ، وقال بعض آخر انها اسم لجميع أرض البحرين . وقد اشتهرت بالتمر ، فقليل في المثل : كمبضيع التمر الى هجر ، كما عرفت بأوبشتها ، وقد روي ان الخليفة عمر قال : (عجبت لتاجر هجر وراكب البحر) ، كأنه أراد ذلك لكثرة وبائها ، فعجب من تاجر يذهب لذلك اليها ، كما عجب من راكب البحر ، لأنه سواء في الخطر . ويظهر انها كانت كثيرة المياه ذات مستنقعات ، لذلك تفشت بها الأوبئة . وذكر الأخباريون انها عرفت بـ (هجر) ، نسبة الى (هجر بنت المكف) ، وكانت من العماليق ، أو من العرب المتعربة ؛ وكان زوجها : محلم ابن عبد الله صاحب النهر الذي بالبحرين ، ويقال له : نهر محلم وهناك عين ماء عرفت بعين هجر وعين محلم^٢ .

وذكر أهل الأخبار ان (ملك هجر) ، ولم يشيروا الى اسمه ، كان قد سَوَّدَ (زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية) ، ووفّده على النبي ، وانه كان في جيش (سعد بن أبي وقاص) الذي أرسله الى العراق ، فجعله (سعد) من (أمراء التعية)^٣ . ولعلمهم قصدوا بذلك المرزبان (سبيخت) ، الذي ذهب اليه (العلاء بن الحضرمي) بأمر الرسول ليدعوه الى الاسلام ، فأسلم على يديه . ويعرف الساحل المقابل لجزيرة (أوال) من جزر البحرين ، بـ (السيف) سيف البحر . والسيف في اللغة ساحل البحر^٤ . ويليه (الستار) : (ستار البحرين)^٥ .

و (كاظمة) جوّ على سيف البحر ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب^٦ .

- ١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٥/١) .
- ٢ تاج العروس (٦١٣/٣) وما بعدها ، البكري ، معجم (٣٤٦/٣) ، البلدان (٣٩٣/٥) ، المعاني الكبير ، لا بن فتيبة (٩٥٤/٢) .
- ٣ الطبري (٤٨٨/٣) .
- ٤ اللسان (١٦٧/٩) .
- ٥ صفة (١٣٦) وما بعدها ، (طبعة ابن بليهد) ، اللسان (٣٤٥/٤) .
- ٦ اللسان (٥٢١/١٢) وما بعدها .

وعرفت بـ (كاظمة البحور)^١ . وقد أكثر الشعراء من ذكرها^٢ . وهي موضع مجهول في الوقت الحاضر ، يظن ان مكانه على ساحل الجون المقابل لموضع (الجهرة) . ويعرف ذلك الموضع بـ (دوحة كاظمة)^٣ .

وكان على الأبله وما والاها (قيس بن مسعود بن خالد) ، فلما علم بما فعله كسرى بملك الحيرة ، تفاوض سرّاً مع بكر ، واتفق معها على مساعدتها . فلما انتهت معركة (ذي قار) لم يجرأ كسرى ان يلحق به أذى ما هو في أرضه ، فعمد الى الحيلة للانتقام منه ، بأن كتب اليه يطلب منه المجيء لرؤيته . فلما ذهب اليه ، قبض عليه وحبسه في قصره بالأنبار أو بساباط^٤ . وقد عدّه أهل الأخبار في العلودين من (أجواد الجاهلية) . ذكروا انه كانت له مائة ناقة مُعدّة للأضياف إذا نقصت أتمها . وقد مدحه لذلك الشعراء . وعدّ من (ذوي الآكال) . وذكر ان كسرى كان قد أطعمه (الأبله) وثمانين قرية من قراها^٥ .

وكان على اليمامة (هوذة بن علي الحنفي) ، وكان ملكاً على دين النصرانية ، واليه أرسل رسول الله (سليط بن عمرو) (سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري) يدعوه الى الاسلام . فأرسل (هوذة) وفداً الى الرسول ليقول له : (إن جعل الأمر له من بعده أسلم ، وسار اليه ونصره ، وإلا قصد حربه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، ولا كرامة)^٦ . ثم مات بعد قليل . وذكر انه كان شاعر قومه وخطيبهم ، وكانت له مكانة عند العرب^٧ .

وذكر انه كان من (قرآن) من مواضع اليمامة ، وأهلها أفصح بنو حنيفة .

- ١ صفة (١٣٦ وما بعدها) ، (ابن بليهد) .
- ٢ البلدان (٤٣١/٤) ، (بيروت ١٩٥٧ م) ، صبح الأعشى (٢٤٧/٣) ، تقويم البلدان (٥٦/٥) ، البكري (١١٠/٤) ، شرح مقامات الحويري (٣٥٩/٢) ، (الشريشي) .
- ٣ التحفة النبهانية في تاريخ جزيرة العرب ، لخليفة بن أحمد آل نبهان (٥٧/٨) .
- ٤ ديوان الأعشى (القصيدة ٢٦) ، (ص ١٢٨) ، (طبعة كاير) ، Geyer
- ٥ المحجر (ص ١٤٣ وما بعدها ، ٢٥٣) .
- ٦ ابن الأثير (٨٩/٢) ، البلاذري ، فتوح (٩٧) .
- ٧ (سليط بن عمرو العامري) ، نهاية الأرب (١٦٦/١٨) ، .

وانه كان من وجهاء قومه . وقد نسب على هذه الصورة : (هوزة بن علي بن ثمامة بن عمرو الخنفي) من بكر بن وائل^١ . وورد ان تميماً كانت قد قتلت والد (هوزة) ، وان هوزة كان يكره بني تميم كرهاً شديداً حتى ان كسرى حين سأله عنهم أجابه : (بيني وبينهم حساء الموت ، فهم الذين قتلوا أبي) . وورد ان كسرى سأل هوزة عن عيشه وعن ماله ، فقال : (أعيش عيشة رغيدة ، واغزو المغازي ، واحصل على الغنائم)^٢ . ولكن الظاهر انه لم يكن كفواً لبني تميم . وان ملكه لم يتجاوز حدود اليمامة .

وزعم أهل الأخبار ان (كسرى) تَوَجَّهَ الى اليمامة ، أو انه سمع بجوده وكرمه ، فاستدعاه اليه ، ولما وجد فيه عقلاً وسياسةً ورجاحة رأي تَوَجَّهَ بتاج من تيجانه ، ولنا لقب هوزة بـ (صاحب التاج) ، وأقطعته أموالاً بـ (هجر) ، وكان نصرانياً . وقيل إن كسرى دعا بعقد من الدُرِّ فعقد على رأسه وكساه قباء ديباج مع كسوة كثيرة ، فمن ثم سُمِّيَ هوزة ذا التاج . وذكر ان سبب استدعاء كسرى له ، انه أكرم رجال العير التي حملت الطاف وهدايا وأموال (وهرز) التي أرسلها من اليمن الى (كسرى) ، وكانوا قد انتهبوا حتى لم يبق عندهم شيء ، فصاروا الى (هوزة) ، فأكرم مثواهم وآواهم وكساهم : وزودهم وحاهم ، وسار معهم اليه ، فأكرمه كسرى على النحو المذكور^٣ . وقيل إنه لم يكن صاحب تاج ، وإنما كان يضع على رأسه إكليلاً رصعه بأحجار ثمينة كأنه التاج تشبهاً بالملوك^٤ .

ويروي أهل الأخبار ان الشاعر الأعشى قال في حق هوزة :

له أكاليل بالياقوت فصلتها صواغها لا ترى عيباً ولا طبعاً

- ١ البكري ، معجم (ص ١٠٦٣) ، (وقران كرمان باليمامة . وهي وملهم لبني سحيم من بني حنيفة) ، تاج العروس (٣٠٩/٩) ، (قرن) .
- ٢ الكامل ، لابن الأثير (٣٧٨/١) ، المعارف ، لابن قتيبة (٩٧ وما بعدها) ، الأغاني (٧٥/١٦ وما بعدها) .
- ٣ الأغاني (٧٥/١٦ وما بعدها) ، العمدة ، لابن رشيقي (٢٠٦/٢) ، الطبري (١٦٩/٢ وما بعدها) (طبعة دار المعارف بمصر) .
- العقد العرند (٢٤٣/٢) .

وذكر انه كان أول معدّي لبس التاج ، ولم يلبس التاج معدّي غيره ^١ .

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن يوم الصفقة وعن يوم المشقر ، ان نفوذ (هوذة) لم يكن واسعاً بعيداً ، بل كان محدوداً بمحدود قبيلته ، وانه لم يكن في مستوى ملوك الحيرة أو آل غسان ، بل كان سيد قومه إذ ذاك ، حتى انه لما طمع في الجعالة التي كان الفرس يعطونها لمن يتولى خفارة قوافلهم الآتية من اليمن الى العراق أو الذهاب من العراق الى اليمن ، ووافق الفرس على ان يعطوه ما أراد ، وسار مع القافلة خفيراً لها من (هجر) حتى (نطاع) ، وبلغ (بنو سعد) ما صنعه (هوذة) ، خرجوا عليه وأخذوا ما كان مع الأساورة والقافلة وما معه ، وأسروه ، حتى اشترى منهم نفسه بثلاثمائة بعير ، وقد عُير في ذلك ، وتغنى شاعر (بني سعد) بذلك اليوم ، الذي سبق فيه هوذة ، وهو مقرون اليدين الى النحر ، فلما استلم بنو سعد الإبل المذكورة جاؤوا به الى اليمامة فأطلقوه ^٢ .

ويذكر أهل الأخبار ان هوذة سار مع من تبقى من الأساورة وبقية فلول القافلة الى (كسرى) ، ليخبره بما حدث له ، وبما فعلت به بنو تميم ، ودخل على ملك الفرس فأكرمه ، وأمر بأسقائه بكأس من ذهب ، ثم أعطاه إياه وكساه قباءً له ديباج منسوج بالذهب واللؤلؤ وقلنسوة قيمتها ثلاثون ألف درهم وحياه ثم عاد الى بلاده . ولو كان هوذة قد جاء كسرى بنجر انتصار وانتقاذ للقافلة جاز لنا أخذ هذا الوصف على محمل الصدق ، أما وأن الرواية هي في موضوع هزيمة وانحدار ، فإن من الصعب علينا التصديق بها ، ولا سيما وان ملوك الفرس كانوا أصحاب غطرسة وكانوا إذا جاءهم أحد بنجر هزيمة قابلوه بالازدراء والتبكيك ويأترال اللعنات عليه في الغالب . وليس في هذا الموقف ما يدعو الى اسقاء هوذة بكأس من ذهب .

ويذكر أهل الأخبار ان اليمامة من نجد ، وقاعدتها (حجر) ، وكانت

١ وكل زوج من الديباج يلبسه أبو قدامة مجبوراً بذاك معا
له اكالييل بالياقوت زينها صواغها ، لا ترى عيباً ولا طبعاً

الامالي ، للمرئضي (١٧٢/٢) ، ديوان الأعشى (٨٦) .

٢ الأغاني (٨/٥) ، الطبري (٥٨١/١) .

تسمى (جـدا) في الأصل ، كما عرفت بـ (جو) . وذكروا أنها سميت (يمامة) نسبة الى (اليمامة بنت سهم بن طسم) ، وكانت منازل طسم وجديس في هذا المكان . وقد تناولتها الأيدي حتى صارت في أيدي (بني حنيفة) عند ظهور الاسلام في قصص من قصص أهل الأخبار^١ .

واليمامة من الأماكن الحصينة في جزيرة العرب . وبها (وادي حنيفة) . وبه مياه ومواضع كانت عامرة ثم خربت ، وهي اليوم خراب أو آثار . وقد اشتهرت قراها ومزارعها ، وكانت من أهم الأرضين الخاضعة لمملكة كندة . ويظهر ان سيلاً جارفاً أو سيولاً عامرة اكتسحت في الاسلام بعض قراها ، فهجرت إذ ترى في هذا اليوم آثار أسس بيوت مبنية من اللبن ومن الطين ، يظهر أنها اكتسحت بالسيول وجاءت الرمال فغطتها بغطاء لتستر بقاياها عن رؤية النور^٢ . وقد ذكر أهل الأخبار ان اليمامة كانت من (أحسن بلاد الله أرضاً وأكثرها خيراً وشجراً ونخلاً)^٣ . وبها مياه كثيرة . وقد عرف أهلها بالنشاط وبالتحضر ، وذلك بسبب وجود الماء بها ، إذ أغرى سحر الماء الناس على الإقامة عند مواضع المياه ، فنشأت مستوطنات كثيرة . ولا زال أهل اليمامة يعدّون من أنشط سكان المملكة العربية السعودية .

وحدود اليمامة من الشرق البحرين ومن الغرب تنتهي الى الحجاز ، وأما من الشمال فتتصل بوادٍ متصل بالعذيب والقصيرة والنباج وسائر حدود البصرة وجنوبها بلاد اليمن . هذا على تعريف (ابن رسته) . وتبعد (جو) وهي الحضارم من حجر يوماً وليلة^٤ . ومن مواضع اليمامة (منفوحة) ، وهي قرية مشهورة ، كان يسكنها الأعشى ، وبها قبره . وهي لبني قيس بن ثعلبة بن عكابة^٥ . ومن مواضع اليمامة الأخرى (المعلاة) من قرى (الحرج)^٦ .

١ البلدان (٤٤١/٥) ، فنوح البلدان (١١٨) ، البكري ، معجم (٨٣/١) ، المعاني الكبير لابن قتيبة (١٠٤١/٢) ، الهمداني ، صفة (١٤١) ، تاج العروس (١١٤/٩ وما بعدها) (يمم) .

٢ Naval, R., 233.

٣ تاج العروس (١٥/٩) ، (يمم) .

٤ ابن رسته ، الأعلام (١٨٢) ، تاج العروس (١١٥/٩) ، (يمم) .

٥ تاج العروس (٢٤٢/٢) ، (نفج) .

٦ تاج العروس (٢٥٠/١٠) ، (علا) .

ومن أبرز قبائل اليمامة في أيام الرسول ، (بنو حنيفة) . و (حنيفة) لقب (أثال بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل) . ويذكر أهل الأخبار ، ان (الأخوي بن عوف) المعروف بجذيمة ، لقي أثالاً فضربه فحنفه ، فلقب حنيفة . وضربه أثال فحذمه جذيمة . فقال جذيمة :

فإن تلك خنصري بانت فإني بها حنفت حاملي أثال^١

وقد وفد وفد منهم ، فيه (مسيلمة بن حبيب) الذي عرف بـ (الكذاب) لادعائه النبوة ، وكان قد طلب من الرسول ان يشركه معه في الأمر . وادعى النبوة ، ثم قتل . وكان يسجع السجعات مضاهاة للقرآن^٢ . ومن كان في هذا الوفد : (رحال بن عنقوة) ، وقد شهد لمسيلمة ان رسول الله أشركه في الأمر فافتن الناس به ، و (سلمي بن حنظلة السحيمي) و (طلق بن علي بن قيس) و (حمران بن جابر بن شمر) و (علي بن سنان) و (الأقعس بن مسلمة) و (زيد بن عبد عمرو) ، وعلى الوفد (سلمي بن حنظلة)^٣ .

ويذكر ان (سجاحاً) ، وهي (سجاح بنت أوس بن العنبر بن يربوع) التميمية التي تكهنت وادعت النبوة ، أتت (مسيلمة الكذاب) ، وهو بـ (حجر) ، فتزوجته ، وجعلت دينها ودينه واحداً . وكان قد اتبعها قوم من (بني تميم) وقوم من أخوالها من (بني تغلب)^٤ .

ومن (بني حنيفة) ، (عُمر) و (قُرين) ابنا (سلمي) . وكان (عُمر) أوفى العرب ، قتل أخاه (قرينا) بقتيل قتله من جيرانه^٥ . ومنهم (مجاعة بن مرارة بن سلمي) ، وكان رسول الله قد أقطعه (الغورة) و (غرابسة) و (الحبل) ، ثم أقطعه (أبو بكر) (الحضرمة) ثم أقطعه (عمر) (الرياء) ، ثم أقطعه (عثمان) قطيعة أخرى^٦ .

١ تاج العروس (٧٨/٦) ، (حنف) .

٢ الطبري (١٣٧/٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، (فدوم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٣١٦ وما بعدها) .

٤ البلاذري ، فتوح (١٠٨) .

٥ الاشتقاق (ص ٢٠٩) .

٦ البلاذري ، فتوح (٩٨ ، ١٠٢ وما بعدها) .

ومن رجال اليمامة (محكم بن الطفيل بن سبيع) الذي يقال له (محكم اليمامة) ،
وقد ارتد وقتل مع من قتل من المرتدين ^١ .

ومن قبائل اليمامة : بنو باهلة بن أعصر ، وبنو نمير وأحياء من تميم .
واستقرت بطون من بكر وعتره وضبيعة في القسم الشرقي من اليمامة حتى البحرين ،
واتصلت منازل بطون منها بالعراق ^٢ . كما كان بها (بنو هزان) ، وهم من
قطنة اليمامة القدامى : إذ نجد أهل الأخبار يرجعون تأريخهم بها إلى أيام طسم ،
أي إلى أيام العرب العاربة أو العرب البائدة الأولى . والظاهر أن أهل الأخبار قد
حاروا في أمر (هزان) . فجعلوهم من العرب البائدة ودعاهم الهمداني
بـ (هزان الأولى) ^٣ ، وجعلوهم من اليمن ونسبوهم إلى (قحطان) وجعلوهم
من (معد) . وهم الذين بقوا في ديارهم اليمامة إلى الاسلام وفي الاسلام ^٤ .
ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أنهم قصدوا قبائل مختلفة لا قبيلة واحدة هي
(هزان) التي ظلت باقية ولها بقية في اليمامة حتى اليوم . ولكننا نستبعد كون
القبائل الثلاث قبيلة واحدة في الأصل . بدليل أن أهل الأخبار يذكرون أن هزان
اليمانية الأصل كانت تقيم في اليمامة ، وأن هزان (معد) هم من أهل اليمامة
أيضاً ، أي أن مواطن القبيلتين واحدة ، بل أن منهم من يرجع مواطن هزان الأولى
إلى اليمامة كذلك . وهذا ما يحملنا على القول إن الهزانيين كلهم من قبيلة واحدة ،
بقيت فروعها في مواطنها القديمة اليمامة حتى اليوم . ولا قيمة لما يرويه أهل
الأنساب من سرد نسب كل قبيلة من القبائل الثلاث إلى العرب البائدة أو إلى
العرب العاربة أو إلى العرب المستعربة .

والظاهر أن (بني حنيفة) ضغطوا على الهزانيين ، فاغتصبوا معظم أرضهم
باليمامة ، فتقل بذلك شأنهم ، وصاروا دون (بني حنيفة) في القوة . ومن
(بني هزان) تروج الأعشى ، ثم أكرهوه على تطليقها ، فطلقها حين ضربوه ،
وأصروا عليه بلزوم تخليه عنها ففعل ، فقال في ذلك شعراً ، رواه الرواة .

١ البلاذري ، فتوح (٩٨) ، الاشتقاق (٢١٠) .

٢ البكري ، معجم (٨٥/٤ وما بعدها) .

٣ الاكليل (٧٣/١ وما بعدها) .

٤ العرب ، الجزء السابع ، السنة الثالثة ، نيسان ١٩٦٩م . الرياض .

ومنهم نفر أسروا (الحارث بن ظالم المرتبي) ، ولم يكونوا يعرفونه ، وظنوه صعلوكاً ، ثم باعوه الى نفر من القيسيين بزق خمر وشاة ، وقيل من بني سعد . ومنهم كان قاتل حيان بن عتبة بن جعفر بن كلاب . وهو المعروف بصاحب الرداع^١ .

ومن مواطن (هزان) العلاة ، وهو جبل من جبال الهماسة ، وبرك ، ونعام ، وشهوان ، وماوان ، والمجازة . ويلاحظ ان أخلاطاً من قبائل أخرى جاورت (بني هزان) ، وسكنت معهم . منهم (بنو جرم) و (بنو جشم) ، و (الحارث بن لؤي بن غالب بن فهر) من قريش ، و (ربيعة) وهم من اليمن^٢ .

وأما منازل طيء عند ظهور الاسلام فجبل طيء : أبجأ وسلمى . غير ان هناك بطوناً من طيء كانت قد انتشرت في أماكن أخرى ، فترلت في العراق وفي بلاد الشام وفي أماكن أخرى في جزيرة العرب .

وطيء من القبائل التي كان لها شأن كبير قبل الاسلام . ولعلها كانت من أشهرها وأعرفها قبيل الميلاد وفي القرون الأولى للميلاد . بدليل اطلاق السريان كلمة (طيايا) على كل العرب ، من أي قبيلة كانوا . أي انها استعملت عندهم بمعنى (عرب) ، وأصلها من اسم القبيلة التي نتحدث عنها وهي قبيلة (طيء) .

ولم تكن طيء متصافية فيما بينها متحابية ، ف وقعت بين عشائرها حروب ، حتى تدخل (الحارث بن جبلة) الغساني فيما بينها ، فأصلح حالها ، فلما هلك عادت الى حربها ، فالتقت جديلة وغوث بموضع تحاربت فيه ، قتل فيه قائد بني جديلة ، وهو أسبع بن عمرو بن لأم ، وأخذ رجل من سنبس أذنيه فخصف بهما نعليه ، فعظم ما صنعت الغوث على أوس بن خالد بن لأم ، وعزم على لقاء الغوث بنفسه ، وحلف ألا يرجع عن طيء حتى يتزل معها جليلها أبجأ وسلمى ، وتجي له أهلها ، وكان لم يشهد الحروب المتقدمة ، لا هو ولا أحد من رؤساء طيء ، كحاتم ، وزيد الخيل ، وغيرهم من الرؤساء . فلما اقبلت جديلة وعلى

١ الاشتقاق (٣٢١) ، العرب ، نيسان (١٩٦٩م) (ص ٦٦٥ وما بعدها) .

٢ العرب ، نيسان ١٩٦٩م (٢٦٢ وما بعدها) .

رأسها أوس بن حارثة بن لأم ، وبلغ الغوث جمع أوس لها ، اوقدت ناراً على ذروة أجأ ، وذلك في اول يوم توقد فيه النار ، فأقبلت قبائل الغوث ، كل قبيلة وعليها رئيسها ، ومنهم زيد الخيل ، وحاتم ، وتلاحمت بجديلة في يوم اليحاميم ويعرف ايضاً بقارات حوق ، الذي انتهى بهزيمة منكرة حلت بجديلة ، فلم تبق لها بقية للحرب ، فدخلت بلاد كلب ، وحالفتهم وأقامت معهم .^١

وكان سيد طيء في ايام الرسول ، (زيد الخيل بن مهلهل الطائي) .^٢ وهو من قدم على الرسول في وفد طيء . وقد قطع له الرسول فيداً وأرضين معه ، وكتب له بذلك ، ولكنه توفي في موضع يقال له (فردة) من بلاد نجد من حمى علقت به اثناء اقامته يثرب ، فلما يبلغ مكانه .^٣ وقد مدحه الرسول وأثنى عليه .^٤ و (زيد الخيل) الذي سمّاه الرسول (زيد الخير) ، هو من (بني نبهان) من (طيء) . وكان في الوفد رجال آخرون منهم : (وزر بن جابر ابن سدوس) من (بني نبهان) ، و (قبيصة بن الاسود بن عامر) من (جرم طيء) ، و (مالك بن عبد الله بن خبيري) من (بني معن) ، و (قعين ابن خليف بن جديلة) .^٥

ومن (طيء) الرجل الذي ضرب بجوده المثل ، والذي لا زال الناس يذكرون اسمه على انه المثل الأعلى في الكرم ، وهو (حاتم الطائي) . مقري الضيوف ومغيث الفقراء . فمدحه لجوده الشعراء : عبيد بن الابرص والنابعة الديباني وبشر ابن ابي حازم وغيرهم . وكان مضربه ملجأ للمحتاجين ولمن يسلك الطريق يريد (الحيرة) . ونظراً لجوده وكرمه هابته العرب وصارت له دالة ومكانة عند ملوك الحيرة وعند آل غسان .^٦ وذكر انه (اذا أسر اطلق . ومرّ في سفره على عنزة وفيهم اسير ، فاستغاث به الأسير ، ولم يحضره فكاكه فاشتراه من العتزين ،

- ١ ابن الأثير (٣٨٨/١) ايام العرب (٦٠) .
- ٢ المجبر (ص ٢٣٣) .
- ٣ الطبري (١٤٥/٣) .
- ٤ الاشتقاق (٢٣٦) ، الطبري (١٤٥/٣) ، (قدوم زيد الخيل في وفد طيء) .
- ٥ ابن سعد ، طبقات (٣٢١/١ وما بعدها) .
- ٦ الأغاني (٩٣/١٦ وما بعدها ، ١٠٤ وما بعدها) ، العقد العريد (٣٣٢/١) (طبعة اللجنة) .

وأقام مكانه في القدة حتى أدى فداؤه .^١

وقد توفي (حاتم الطائي) قبل الاسلام ، وانتقلت رئاسة طيء منه الى ابنه (عدي بن حاتم طيء) ، وكان نصرانياً يسير في قومه بالمرباع ، وكان بمثابة الملك فيهم ، فلما جاءت خيل الرسول سنة تسع^٢ بلاد طيء ، قرر اللحق بأهل دينه من النصاري بالشام ، ثم ترك الشام ولحق بالمدينة فأسلم وأكرمه الرسول .^٣ وعينه الرسول على صدقة طيء وأسد .^٤

وذكر ان (عمرو بن المسيب بن كعب بن عمرو بن عصر بن غنم) ، الذي كان ارمى العرب ، وهو الذي ذكره (امرؤ القيس) في شعره وأشار اليه ، هو من (طيء) ، كان قد ادرك الرسول ، ووفد عليه .^٥

وقد وقع بين طيء نزاع ادى الى وقوع حروب وأيام بينها ، ومن بينها يوم عرف بـ (يوم اليحامي) . وقد كان (الحارث بن جبلة الغساني) قد اصلح بين قبائلها ، فلما هلك عادت الى حروبها . فالتقت جديلة والغوث ، فقتل (اسبع ابن عمرو بن لأم) ، وهو من جديلة وقائدها ، قتل في موضع يقال له (غرثان) ، وأخذ رجل من (سنيس) اذنيه فخصف بهما نعليه ، فغضبت (بنو جديلة) ، واقسم (اوس بن خالد بن لأم) على الانتقام من (الغوث) ومنهم (بنو سنيس) ، وأخذ في حشد قومه (جديلة) ، وبلغ الغوث ذلك ، فأوقدت النار على (اجأ) ، فأقبلت قبائل الغوث ، وعلى رأسها ساداتها ومنهم (زيد الخيل) و (حاتم الطائي) ، ووقع القتال بين جديلة والغوث في موضع يقال له (قارات حوق) ، فانهزمت جديلة ، وقتل فيها ابرح القتل ، حتى لم تبق لها بقية للحرب ، فدخلت بلاد كلب وحالفوا كلباً واقاموا معهم . وعرف هذا اليوم بـ (يوم اليحامي) .^٥

وكتب الرسول كتباً الى جماعة من (طيء) . منهم (بنو معاوية بن جبرول) ،

-
- ١ الشعر والشعراء (ص ١٢٣) .
 - ٢ الطبري (١١٢/٣ وما بعدها) ، (دار المعارف) ، نهاية الأرب (٧٧/١٨ وما بعدها) .
 - ٣ الطبري (١٤٧/٣) ، (خروج الأمراء والعمال على الصدقات) ، ابن سعد ، طبقات (٣٢٢/١) (وفادات أهل اليمن : وفد طيء) .
 - ٤ ابن سعد ، طبقات (٣٢٢/١ وما بعدها) .
 - ٥ ابن الأثير ، الكامل (٢٦٦/١) .

و (عامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي) ، وجماعة من (بني جوين) ،
و (لبني معن) الطائيين .^١

وتقع الى الشرق من ديار (طيء) منازل (اسد) . والى الشمال من ديار
اسد منازل (بكر) ، واما الى الجنوب من منازل (اسد) فديار (هوازن)
و (غطفان) . وتتأخم ديار اسد من الشرق قبائل (عبد القيس) و (تميم) .

ولما اخذت الوفود تترى على المدينة لمبايعة الرسول والدخول في الاسلام ، كان
وفد (اسد) في جملة الوفود التي بايعت الرسول ودخلت في الاسلام ، وذلك سنة
تسع للهجرة . وكان فيه (حضرمي بن عامر) و (ضرار بن الأزور) و (وابصة
ابن معبد) و (قتادة بن القايض) و (سلمة بن حبيش) و (طلحة بن خويلد)
و (نقادة بن عبد الله بن خلف) ، ومعهم قوم من (بني الزينة) وهم من
(مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن اسد) .^٢

وكتب رسول الله كتاباً الى (بني اسد) كتبه له (خالد بن سعيد) ،
ورد فيه : (الا يقربن مياه طيء وارضهم فانه لا تحمل لهم مياههم ولا يلجن
ارضهم من اولجوا . وأمر عليهم (قضاعي بن عمرو) وهو من (بني عذر) ،
بأن جعله عاملاً عليهم .^٣ وكتب الرسول الى (حصين بن فضلة الأسدي)
(ان له اراما وكسة ، لا يحاقه فيها احد) .^٤

ومن ديار (بني اسد بن خزيمه) ، (قطن) ، وهو جبل بناحية (فيد)
به ماء . وأمر الرسول (ابا سلمة بن عبد الاسد المخزومي) بغزوه ، لما بلغه
ان (طليحة) و (سلمة) ابني (خويلد) قد سارا في قومها ومن اطاعهما
يدعوانهم الى حرب الرسول ، فذهب الى (قطن) ، ثم عاد ، ومعه إبل وشاء .^٥

وتقع الى الشمال الغربي من ديار (طيء) ، ديار (بكر) ، وهي (بكر
ابن وائل) . وهي قبائل ضخمة ذات فروع عديدة ، سكنت في مواضع عديدة
اخرى غير هذه المواضع .

١ ابن سعد ، طبقات (٢٦٩/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٩٢/١) وما بعدها ، نهاية الأرب (٣١/١٨) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٤/١) .

٥ نهاية الأرب (١٢٧/١٧) وما بعدها .

وذكر في خبر فتوح السواد ، ان (المثنى بن حارثة الشيباني) كان يغير على السواد ، فبلغ (أبا بكر) خبره ، فسأل عنه ، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، وأثنى عليه . ثم ان المثنى قدم على (ابي بكر) ، فقال له : يا خليفة رسول الله ، استعملني على من اسلم من قومي اقاتل هذه الأعاجم من اهل فارس ، فكتب له ابو بكر في ذلك عهداً ، فسار حتى نزل (خفان) ودعا فيه الى الاسلام فأسلموا . ثم ان ابا بكر امر (خالد بن الوليد) بالمسير الى العراق ، وكتب الى (المثنى بن حارثة) يأمره بالسمع والطاعة له وتلقيه . وكان (مذعور بن عدي العجلي) ، قد كتب الى ابي بكر يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليته قتال الفرس ، فكتب اليه يأمره ان ينضم الى خالد ويسمع له بالطاعة .^١

و (خفان)^٢ مأسدة وموضع أشب الغياض كثير الأسد ، أو اجمة قرب (الكوفة) .^٣

ونجد في موارد اخرى ان (المثنى بن حارثة الشيباني) و (سويد بن قطبة العجلي) ، وكلاهما من (بكر بن وائل) كانا يغيران على الدهاقين ، فيأخذان ما قدرا عليه . فاذا طلبا امعنا في البرّ فلا يتبعها أحد ، وكان المثنى يغير من ناحية الحيرة ، و (سويد) من ناحية (الأبله) . فكتب الى (ابي بكر) ، يعلمه ضراوته بفارس ويعرفه وهنهم ، ويسأله ان يمدّه بجيش ، فكتب اليه (ابو بكر) يخبره انه مرسل اليه (خالد بن الوليد) وان يكون في طاعته ، فكره (المثنى) ورود خالد عليه ، وكان ظن ان ابا بكر سيوليّه الأمر ، ولكنه لم يتمكن ان يفعل شيئاً فانضم الى خالد .^٤

ومن (بني عجل) (فرات بن حيان للعجلي) ، كان دليل (ابي سفيان)

- ١ البلاذري ، فتوح (٢٤٢) .
- ٢ (وخفان كعفان) بنشديد الفاء ، ناج العروس (٩٣/٦) ، (خف) .
- ٣ قال الأعشى :
- وما منحدر ورد عليه مهابة أبو أشبل أضحى بخفان حاردا
- ناج العروس (٩٣/٦) ، اللسان (٨١/٩) ، (خفف) .
- ٤ الأخبار الطوال (١١١ وما بعدها) .

الى الشام . ^١ وذلك ان قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون الى الشام حين وقعة (بدر) ، فكانوا يسلكون طريق العراق ، فخرج بهم دليلهم (فرات) ، في السنة الثالثة من الهجرة ، ومعه ابو سفيان وصفوان بن امية ، وحويطب بن عبد العزى ، وعبد الله بن ابي ربيعة ، ومعهم مال كثير ، فيه فضة كثيرة ، وهي اعظم تجارتهم ، فلما بلغوا موضع (القردة) ، وكان (فرات) قد سلك بهم على ذات عرق ، اعترض (زيد بن حارثة) القافلة ، وكان الرسول قد ارسله للتحرش بها ، يوم بلغه امر القافلة ، فهرب اعيانها واستولى زيد على العير ، وجاء بها الى الرسول . وأسر فرات ، فأسلم . ^٢

ويذكر اهل الاخبار ان قبائل مضر كانت تنزع الى العراق ، وكان اهل اليمن يتزعون الى الشام . وانه لم يكن احد من العرب اجراً على فارس من ربيعة وقد قيل لها لذلك : ربيعة الأسد ، وكانت العرب في جاهليتها تسمى : فارسُ الأسد . ^٣

وقد قدم وفد من (بكر بن وائل) على الرسول ، فيه (بشير بن الحصاصية) و (عبد الله بن مرثد) ، و (حسّان بن حوط) ، (خوط) ، فأسلموا وعادوا الى ديارهم . ^٤ وذهب (حريث بن حسان الشيباني) في وفد من (بكر بن وائل) الى الرسول ، فأسلم على يديه . ^٥ وذكر ان (عبد الله بن اسود بن شهاب بن عوف بن عمرو بن الحارث بن سدوس) ، قدم مع الوفد المذكور ، وكان يتزل اليمامة ، فباع ما كان له من مال باليمامة واستقر بالمدينة . ^٦

وذكر ان رسول الله كتب كتاباً الى (بكر بن وائل) ، فما وجدوا رجلاً يقرؤه حتى جاءهم رجل من (بني صبيعة بن ربيعة) فقرأه . وكان الذي اتاهم بكتاب رسول الله : (ظبيان بن مرثد السدوسي) . ^٧

وخرج (خالد) الى العراق ، فمرّ به (فيد) و (الثعلبية) وأماكن اخرى

-
- ١ الاشتقاق (ص ٢٠٨) .
 - ٢ نهاية الأرب (٨٠/٩٧) .
 - ٣ الطبري (٤٨٧/٣) ، (دار المعارف) .
 - ٤ طبقات ابن سعد (٣١٥/١) .
 - ٥ طبقات ابن سعد (٣١٨/١) وما بعدها .
 - ٦ نهاية الأرب (٦٧/١٨) .
 - ٧ ابن سعد ، طبقات (٨١/١) ، وما بعدها .

منها (العذيب) و (خفان) ، ثم سار قاصداً (الحيرة) وهي اهم موضع للعرب في العراق . فخرج اليه ساداتها في هذا الوقت : (عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن حيان بن ببيعة) ، وهو من الأزد ، وصاحب القصر الذي يقال له : (قصر بني ببيعة) بالحيرة . وهو من (بني سبين) . وكان من المعمرين .^١ و (هانيء بن قبيصة بن مسعود الشيباني) ، ويقال (فروة بن اياس) . وكان (اياس) عامل كسرى ابرويز على الحيرة ، بعد النعمان بن المنذر ، و (عدي ابن عدي بن زيد العبادي) ، وأخوه (عمرو بن عدي) ، و (عمرو بن عبد المسيح) و (حيرى بن أكمال) ، وهم نقباء اهل الحيرة . فصالحوه على دفع الجزية وعلى ان يكونوا عيوناً للمسلمين على اهل فارس .^٢

وفيد موضع مهم بطريق مكة في نصفها من الكوفة ، به حصن عليه باب حديد ، وعليه سور دائر . كان الناس يودعون فيه فواضل ازوادهم وما ثقل من امتعتهم الى حين رجوعهم . وذكر ان فيداً فلاة في الارض بين أسد وطيء في الجاهلية . فلما قدم (زيد الخيل) الفارس المشهور على رسول الله اقطعه فيداً . وذكر اهل الاخبار ، ان فيداً ، انما سميت فيد بفيد بن حسام اول من نزلها . والظاهر انها من المواضع القديمة وقد ورد اسمها في الشعر الجاهلي والاسلامي .^٣

و (العذيب) ، اذ ذاك مسلحة كانت للفرس على طريق البادية ، ومن القادسية التي تبعد عن الكوفة (١٥) ميلاً الى العذيب (٦) اميال ، ويؤدي الطريق من العذيب الى البرية .^٤ وكان لبني تميم .^٥ وذكر اهل الاخبار ان (محلم بن سويط الضبي) أخا بني صباع ، قاد الرباب كلها . وهو الرئيس الأول : اول من سار في ارض مضر برئاسة ، وغزا العراق وبه كسرى حتى بلغ العذيب . فجعلت الإبل تتهيب خريير الماء . ويظهر من شعر لبعض الضبيين ان العذيب كان احساءً ، يخرج الماء فيه من باطن الارض ويندفع مكوثاً خريراً ،

- ١ الاشتقاق (٢٨٥) ، الطبري (٣/٣٤٥ ، ٣٦٤) ، (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٢٤٤) .
- ٢ البلاذري ، فتوح (٢٤٤) ، الطبري (٣/٣٦٤) ، (دار المعارف) .
- ٣ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .
- ٤ ابن رسته ، الأعلام (١٧٥) .
- ٥ تاج العروس (١/٣٧٠) ، (عذب) .

لذلك هابته الإبل ، فكانت تتخوف من الشرب منه .^١ وبعد العذيب ، نهاية
حدّ نجد في الشمال .^٢

ويذكر (ابن رسته) ان (البطانية) ، هو (قبر العبادي)^٣ ، وسمّاه
بعضهم (بطن) . وذكر (اليعقوبي) ان هذا الموضع من ديار (بني اسد) .^٤
وكان للثعلبية شأن يذكر ، فقد ذكر انها كانت موضعاً معروفاً ، بل ذكر
انها مدينة عامرة عليها سور وفيها حمامات وسوق ، وهي على ثلث الطريق للقادم
من بغداد الى مكة . وقد صار لها شأن في صدر الاسلام فابعد ، لأنها تقع على
طريق التجارة والحاج . وهي على جادة مكة من الكوفة ، ومن منازل اسد
ابن خزيمة .^٥

وكان اهل الحيرة قد تحصنوا بقصورهم : في القصر الابيض ، وهو قصر
(النعمان بن المنذر) وقصر ابن بقلية ، قصر العدسيين ، والعدسيون من (كلب)
نسبوا الى امهم ، وهي كلبية ايضاً .^٦ وذكر انه كان في طرف الحيرة ، لبني
عمار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة بن علقمة بن عدس الكلبي ، نسبوا الى
جدتهم (عدسة بنت مالك بن عوف الكلبي) ، وهي (أم الرماح) و (المشظ)
ابني عامر المذم .^٧

وعدة قصور الحيرة ثلاثة على ما ورد في بعض الروايات . وهي عدة الحيرة
وملاجئها ايام الخطر ، فاذا سقطت ، سقطت الحيرة ، لأنها هي المكونة لها . وقد
صالح (خالد بن الوليد) لما وجدته ان ليس في استطاعتها الصمود امام المسلمين .^٨
ولم يكن لها على ما يظهر من روايات اهل الاخبار سور .

ومن مواضع الحيرة ، (ربيعة بني مازن) ، لقوم من الأزد من بني عمرو

-
- ١ المحبر (٢٤٨) .
 - ٢ شرح ديوان لبید بن ربیعۃ العامري (٨١) .
 - ٣ ابن رسته ، الاعلاق (١٧٥) .
 - ٤ اليعقوبي ، البلدان (٣١١) .
 - ٥ ابن رسته ، الاعلاق (١٧٥) ، اليعقوبي ، البلدان (٣١١) .
 - ٦ البلاذري ، فتوح (٢٤٥) .
 - ٧ البلاذري ، فتوح (٢٨٤) .
 - ٨ الاخبار الطوال (١١٢) ، ناج العروس (١٦٥/٣) (حارة) .

ابن مازن من الأزد ، وهم من غسان .^١ و (دير هند) ، لأم (عمرو بن هند بن ماء السماء) ، و (ربيعة بن عدي بن الذميل) من لحم .^٢

وقد هدمت قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر واستخدمت حجارتها وأنقاضها لبناء المسجد الجامع بالكوفة ولأبنية أخرى ، وقد عوض اصحاب القصور عنها . وفقاً لما جاء في (قراطيس هدم قصور الحيرة) .^٣ وقد هدم بعض الخلفاء العباسيين قصور الحيرة وأزالوا بذلك من معالمها . منهم الخليفة (ابو جعفر المنصور) ، فقد هدم (الزوراء) ، وهي دار بناها النعمان بن المنذر على ما يذكره اهل الاخبار .^٤

وذكر (اليعقوبي) ان الحيرة (هي منازل آل ببيعة وغيرهم) ، وان عليّة اهل الحيرة نصارى ، منهم من قبائل العرب من بني تميم ومن (سليم) ومن (طيء) وغيرهم . وان (الخورنق) بالقرب منها مما يلي المشرق ، وبينه وبين الحيرة ثلاثة اميال ، والسدير في بيرة .^٥

وكان الفرس يستعينون بعرب الحيرة في امر الترجمة فيما بينهم وبين العرب . ومن هؤلاء أسرة (عدي بن زيد العبادي) على نحو ما ذكرت . وترجمان كان يترجم له (رستم) اسمه (عبود) . وكان عربياً من اهل الحيرة .^٦ كما استخدم المسلمون تراجمة ، لترجموا ما كان يدور بينهم وبين الفرس من حوار ، او بينهم وبين من يقبضون عليه من اسرى الفرس ، من هؤلاء رجل اسمه (هلال الهجري) . واستخدموا كتبة لكتابة الكتب والخبار ، ذكروا منهم (زياد بن ابي سفيان) .^٧

وقد استعان الفرس ببعض (آل لحم) لمحاربة العرب ولاشغالهم ، في معارك

١ البلاذري ، فتوح (٢٨٠) .

٢ البلاذري ، فتوح (٢٨٢) .

٣ البلاذري ، فتوح (٢٨٤) .

٤ تاج العروس (٢٤٦/٣) ، (زار) .

٥ البلدان (٣٠٩) ، (مع ابن رسته) ، تاج العروس (٢٦١/٣) ، (سدر) .
(٣٣٢/٦)

٦ الطبري (٥٢٤/٣) .

٧ الطبري (٤٨٩/٣) .

صغيرة ، من هؤلاء (قابوس بن قابوس بن المنذر) ، وقد كلفه (الآزاذبة
مرد بن الآزاذبة) بالذهاب الى (القادسية) لاشغال المسلمين ، وأن يكون للفرس
كما كان آباؤه قبله من النصر والعون ، فتزل القادسية ، وكاتب بكر بن وائل ،
بمثل ما كان النعمان يكتبهم به ، فلما بلغ خبره المسلمون حاصروه .^١

والقادسية موضع مهم جداً من الوجهة العسكرية ، وقد قال عنه الخليفة (عمر)
في كتابه الذي وجهه الى (سعد) بأنه (باب فارس) وأجمع ابوابهم لمادتهم .^٢
وقد وضعوا ما بعده الحصون والقناطر والانهار لحماية مواقعهم من وقوعها في ايدي
من قد يأتي اليهم من البادية . وأهله من العرب ، وكان الفرس قد اقاموا فيه
مسالح عبثت بجنود من فارس ، للدفاع عن خطوطهم الامامية ، ولمشاغلة الغزاة
الى حين وصول المدد الكبير .

ومن ساعد الفرس ودافع عنهم (النعمان بن قبيصة) ، وهو ابن (حية الطائي)
ابن عم (قبيصة بن اياس بن حية الطائي) صاحب الحيرة ، وكان مرابطاً في
قصر (بني مقاتل) ، وكان منظره له . وقد قتله (سعد بن عبد الله بن سنان
الأسدي) لما سمعه يستخف بقريش وبالقريشيين . فلما سأل عن (سعد بن ابي
وقاص) ، وقيل له انه من قریش ، قال : (اما اذا كان قرشياً فليس بشيء ،
والله لأجاهدنه القتال ، انما قریش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفياً ،
ولا يخرجون من بلادهم الا بخفير) .^٣

ونجد في (فتوح الشام) للواقدي ، خبراً مفاده ان (سعد بن ابي وقاص)
لما وجهه الخليفة (عمر) الى العراق قدم ارض (الرحبة) ، فاتصلت الاخبار
ب (اليعمور بن ميسرة العبسي) ، فكتب الى كسرى يخبره بمجيئه الى هذا
المكان ، وان (سعداً) لما ارتحل من (الرحبة) الى (الحيرة البيضاء) في
ثلاثين ألفاً من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة واخلاط العرب ، وجد هناك جيش
(النعمان بن المنذر) ، وقد ضرب خيامه والسرادات الى ظاهرها ، وهو في
ثمانين ألفاً من جميع عرب العراق ، فكتب (النعمان) الى (كسرى) بمجيئهم

١ الطبري (٤٨٩/٣) .

٢ الطبري (٤٩١/٣) .

٣ الطبري (٥٧٢/٣ وما بعدها) .

وَحَثَّ عَرَبَهُ عَلَى الصُّمُودِ وَعَلَى مَقَاوِمَةِ سَعْدٍ قَائِلًا لَهُمْ : (إِنْ هَؤُلَاءِ عَرَبٌ وَأَنْتُمْ عَرَبٌ وَهَلَاكَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ جَنْسِهِ) (وَلَيْسَ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ فَخْرٌ يَفْتَخِرُونَ بِهِ عَلَيْنَا ، وَلَكِنْ نَحْنُ لَنَا الْفَخْرُ عَلَيْهِمْ . وَهُمْ يُزْعِمُونَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِيهِمْ نَبِيًّا وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا يُقَالُ لَهُ الْقُرْآنُ ، وَنَحْنُ لَنَا الْإِنْجِيلُ وَعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ، وَجَمِيعُ الْخَوَارِيزِ ، وَلَنَا الْمَذْبَحُ ، وَلَنَا الْقُسُوسُ وَالرَّهْبَانُ وَالشَّامِسَةُ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ دِينُنَا عَتِيقٌ وَدِينُهُمْ مُحَدَّثٌ ، فَاثْبَتُوا عِنْدَ الْإِقَاءِ وَكُونُوا عِنْدَ ظَنِّ الْمَلِكِ كَسْرَى بِكُمْ)^١ .

ويذكر رواية هذا الخبر أن عم (النعمان بن المنذر) ، وكان صاحب حرسه ، دخل إليه وقال له : إِنْ أَعْدَاءُنَا قَدْ أَتَقَلُّوا إِلَيْنَا رَسُولًا ، فَأَمْرٌ بِادْخَالِهِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ الرَّسُولُ (سَعْدُ بْنُ أَبِي عَيْدٍ الْقَارِي) ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ النُّعْمَانِ صَاحَ بِهِ الْحِجَابُ وَالْغُلَامَانُ : قَبِّلِ الْأَرْضَ لِلْمَلِكِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ : إِنْ اللَّهَ أَمَرَنَا أَنْ لَا يَسْجُدَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ . وَلَعَمْرِي إِنْ هَذِهِ كَانَتْ الْعَادَةُ الْمَعْرُوفَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ، فَلَمَّا بَعَثَ جَعَلَ تَحِيَّتَهُ السَّلَامَ ، وَكَذَا كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِهِ . وَأَمَّا السَّلَامُ ، فَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا تَحِيَّتُكُمْ هَذِهِ ، فَهِيَ تَحِيَّةُ جَبَابِرَةِ الْمُلُوكِ . فَقَالَ النُّعْمَانُ : لَسْنَا مِنَ الْجَبَابِرَةِ ، بَلْ نَحْنُ أَجَلٌ مِنْكُمْ ، لِأَنْكُمْ تُوَحِّدُونَ فِي دِينِكُمْ وَتَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ وَتُجَاهِدُونَ وَلَدَهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ . وَيَذْكُرُونَ أَنَّ (سَعْدًا) جَادَلَ (النُّعْمَانَ) فِي طَبِيعَةِ (الْمَسِيحِ) ، فَأَعْجَبَ بِكَلَامِهِ . ثُمَّ كَلَّمَهُ فِي الْإِسْلَامِ أَوْ دَفَعَ الْجُزْيَةَ ، فَغَضِبَ (النُّعْمَانُ) ، وَقَالَ لَهُ : (يَا وَيْحَ قَوْمِكَ ، فَلَيْسَ عِنْدَنَا جَوَابٌ إِلَّا السِّيفُ)^٢ .

وتقدمت جيوش المسلمين حتى التحمت بجيش (النعمان) بظاهر الحيرة ، وإن (القعقاع بن عمرو التميمي) أو (بشر بن ربيعة التميمي) ، أحدهما التقى بالنعمان في كبكبة من الخيل والازدهارات على رأسه ، فحمل القعقاع أو بشر على الكبكبة ففرقها ، وعلى الكتيبة فتمزقها وعلى النعمان بطعنة في صدره فقتل . فلما نظرت جيوش الحيرة إلى الملك النعمان مجندلا ولوا الأدبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس . وأخذ المسلمون أسرى وغنائم ، واحتوى (سعد) على قصر الخورنق والسدير ، وترك جمع ما أخذته بالحيرة . وتحرك نحو القادسية . وكانت أخبار هزيمة النعمان

١ الوافدي ، فتوح الشام (١٨٥/٢) وما بعدها .

٢ الواقدي ، فتوح الشام (١٨٦/٢) .

قد وصلت الفرس وهم بالقادسية ، وقد وصلت اليهم الفلول المنهزمة من جيش النعمان ، فوقع التشويش في عسكر الفرس ، وخارت قواهم ، مما أدى الى انتصار المسلمين عليهم في هذا المكان ^١ .

ولا نجد هذا الخبر في أيّ مورد آخر من موارد أهل الأخبار ، فقد نصت جميع الموارد الأخرى على ان النعمان كان قد لقي مصرعه على نحو ما تحدثت عنه في أثناء كلامي على مملكة الحيرة . فلعل (النعمان) هذا هو أحد أبناء (آل لحم) ، واستعان به الفرس للدفاع عن الحيرة ومنّوه في مقابل مساعدته لهم بالملك ، كما استعانوا بـ (قابوس بن قابوس) . وقد يكون خبره من صنع أهل الأخبار ، أقحموا اسمه إقحاماً ، وما فطنوا الى انه كان قد توفي قبل هذا الوقت بسنين ، على كل فقي الخبر كلام منمق وحوار وجدل ينبشك لونه ان فيه تكلفاً وصنعة ، وان الخبر قد وضع وضعه أناس ، لغايات لا مجال للبحث عنها في هذا المكان . وسار (خالد) من (الحيرة) الى الأنبار ، فحاصرها ، وكان أصحاب النعمان وصنائه يعطون أرزاقهم منها ، ثم صالحهم ، ثم أتى (خالد) بعد مواقع أخرى (عين التمر) ^٢ .

وكان على رأس العرب الذين عاونوا الفرس وانحازوا اليهم : (عقة بن أبي عقة) و (هلال بن عقة بن قيس بن البشر) الثمري ، على النمر بن قاسط بعين التمر ، و (عمرو بن الصعق) و (بجير) أحد بني عتبة بن ساعد بن زهير ، والهذيل بن عمران ، ومعهم رجال من قبائلهم ^٣ . ولكنهم لم يتمكنوا من الوقوف أمام (خالد بن الوليد) ، إذ انهزم جندهم ، وأسر (عقة) و (عمرو بن الصعق) ، وكان (عقة) خفير القوم ، وسقط حصن عين التمر في الاسلام ^٤ . وورد في خبر آخر ان (خالد) قتل (هلال بن عقة) (هلال بن عقة) ، وصلبه . وكان من (النمر بن قاسط) ، وكان خفيراً بعين التمر ^٥ .

١ الواقدي ، فتوح الشام (١٨٧/٢ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، فتوح (٢٤٦ وما بعدها)

٣ البلاذري ، فتوح (٢٤٩) .

٤ الطبري (٣٧٦/٣ وما بعدها) .

٥ الاخبار الطوال (١١٢) .

وتعرف (عين التمر) بـ (شفاثا) (شفاثي) وبـ (عين شفته) ، وقد اشتهرت بالقسب والتمر ، وكانت تصلرهما الى البادية والى أماكن أخرى ، ويقصدها الأعراب للامتيار . وبها حصن يتحصن به وعين ماء . ولما اقترب المسلمون منها ، كان بها (مهران بن بهرام جوبين) في جمع عظيم من الفرس للدفاع عنها ومعه جمع عظيم من النمر وتغلب واياهم ومن لأقهم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وفر الفرس^١ . وكان بعين التمر مسلحة لأهل فارس^٢ .

وقد وجد (خالد) في كنيسة (عين التمر) جماعة سباهم ، ووجد أولاداً كانوا يتعلمون الكتابة في الكنيسة ، وقد اشتهر وعرف عدد من هؤلاء الذين سبوا ، واشتهر أولادهم أيضاً . وقد كان من هؤلاء من كان من (بني النمر ابن قاسط) النازلين بعين التمر^٣ .

وكانت قُرَيَات السواد وهي : بانقيا وباروسما وأليس خليط من العرب ومن النبط وسواد العراق ، وقد صالح أهلها (خالد بن الوليد) حينما ظهر أمامها ، صالحوه على الجزية ، وكان الذي صالحه عليها (ابن صلوبا السوادي) المعروف بـ (بصبري بن صلوبا) ، ومنزله بشاطئ الفرات . وقد ورد في كتاب الصلح الذي أعطاه (خالد بن الوليد) له ، (وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل نخرجك وجزيرتك ومن كان في قريتك — بانقيا وباروسما — ألف درهم)^٤ .

وذكر (البلاذري) ان الخليفة (عمر) وَجَّهَ (أبا عبيدة الثقفي) الى العراق ، فلما وصل الى هناك ، وهزم (جابان) بالعذيب ، ثم هزم الفرس في معارك أخرى ، حتى بلغ (باروسما) ، صالحه (ابن الأنذر زعر) (ابن الأنذر زعر) عن كل رأس على أربعة دراهم^٥ . ولم يشر الى الصلة التي كانت بين (ابن صلوبا) و (ابن الأنذر) .

ويرجع أهل الأخبار تأريخ (بانقيا) الى أيام (ابراهيم) ، فهم يذكرون

١ الطبري (٣٧٦/٣) ، (دار المعارف بمصر) .

٢ الاخبار الطوال (١١٢) .

٣ البلاذري ، فتوح (٢٤٩) ، تاريخ خليفة بن خياط (٨٦/١) .

٤ الطبري (٣٤٤/٣ ، ٣٤٦) .

٥ البلاذري ، فتوح (٢٥١) ، تاريخ خليفة (٩٢) .

انه كان يتزل بها . وان اليهود كانوا يدفنون موتاهم بها . ويذكرون انها أرض بالنجف دون الكوفة ، وان سكانها كانوا على النصرانية عند ظهور الاسلام . وان الساسانيين كانوا هم الذين يدافعون عنها ويتولون أمر إدارتها ، أما شؤونها المحلية فكان أمرها بيد ساداتها ورؤسائها^١ .

وكانت عشائر (إيراد) من العشائر التي نزلت الى العراق قبل الاسلام بوقت طويل . نزل بعضهم بـ (عين أباغ) ونزل بعض منهم بسنداد . فأمروا هناك ، وكثروا ، واتخذوا بسنداد بيتاً ذا شرفات تعبدوا له . ثم انتشروا ، وغلبوا على ما يلي الحيرة . وصار لهم (الخورتق) و (السدير) . فلهم (أقساس مالك) . وهو مالك بن قيس بن زهر بن إيراد . ولههم دير الأعور ، ودير السواء ، ودير قرّة ، ودير الجاهم . وإنما سُمّي دير الجاهم لأنه كان بين إيراد وبهراء القين حرب ، فقتل فيها من إيراد خلق ، فلما انتقضت الحرب ، دفنوا قتلاهم عند الدير . فكان الناس بعد ذلك يحفرون فتظهر جاهم . فسمي دير الجاهم^٢ . وقيل غير ذلك ؛ مما لا مجال لذكره في هذا الموضع .

وكانت إيراد تغير على السواد وتفسد . فجعل (سابور) ذو الأكتاب مسالح بالأنبار وعين التمر وغير هاتين الناحيتين . لحماية الحدود منهم . ثم ان إيراداً أغارت على السواد في ملك كسرى أنوشروان ، فوجه اليهم جيوشاً كثيفة . فخرجوا هاربين ، واتبعوا ، ففرق منهم بشر ، وأتى فُلُهم (بني تغلب) ، فأقاموا معهم على النصرانية ، فأساءت (بني تغلب) جوارهم ، فصار قوم منهم الى الحيرة ، ودخل منهم في جند ملوك الحيرة ، ولحق جُلُهم بغسان بالشأم . فلما جاء الاسلام دخل بعضهم بلاد الروم ، ودخل منهم قوم في خثعم وفي تنوخ وفي قبائل أخرى .

ويقال إن مواطن إيراد قبل نزوحها الى العراق ، كانت بالبحرين ، واجتمعت عبد القيس والأزد على إيراد ، فأخرجوا عن الدار فأتت العراق^٣ .

-
- ١ البلدان (٣٣١/١) (طبعه بيروت) ، البكري ، معجم (٢٢١/١) (طبعة السقا) ،
اليقوبى (١٣١/١) ، مراصد الاطلاع (١٢٣/١) .
 - ٢ البلاذرى ، أنساب (٢٦/١) .
 - ٣ البلاذرى ، أنساب (٢٩/١) .

وقد وصف (ابن قتيبة) إياداً على هذا النحو : (وكانت إياد أكثر نزار عدداً وأحسنهم وجوهاً وأمدهم وأشدهم ، وأمنعهم . وكانوا لقاحاً لا يؤدون خراجاً . وهم أول معدّي خراج من تهامة ، ونزلوا السواد وغلبوا على ما بين البحرين الى سنداد والخورنق) . فاصطدموا بالساسانيين لأنهم أغاروا على أموال فأخذوها ، فهزموهم الى الجزيرة ، ووجه اليهم (كسرى) ستين ألفاً فكتب اليهم (لقيط) ينيبهم . وانتصر عليهم كسرى ، وانقسموا ثلاث فرق . فرقة لحقت بالشام ، وفرقة أقامت بالجزيرة ، وفرقة رجعت الى السواد^١ .

ولما سار (خالد) من (عين التمر) أتى (صندوداء) وبها قوم من كندة وإياد والعجم . وتركها واتجه نحو جمع من (تغلب) كانوا بـ (المضيق) و (الحصيد) مرتدين عليهم ، (ربيعة بن بجير) ، فأتاهم فقاتلوه فهزموهم . ثم أغار (خالد) على (قراقر) ، وهو ماء لكلب ، ثم فوز منه الى (سوى) ، وهو ماء لكلب أيضاً . ومعهم فيه قوم من (بهراء) ، فقتل (حرقوص بن النعمان البهراني) ؛ من (قضاعة) . وكان المسلمون لما انتهوا الى (سوى) وجدوا (حرقوصاً) وجماعة معه يشربون ويتغنون فهجموا عليهم وقتلوا (حرقوصاً) . وخرج خالد من (سوى) الى (الكواثل) ، ثم أتى (قرقيسيا) وانحاز الى البرّ ، وأتى (أركة) (أرك) ، فأغار على أهلها ، وفتحها ، وسار منها نحو (دومة الجندل)^٢ .

وذكر (ابن سعد) ان الرسول كتب الى (ثقافة بن فروة بن الدثلي ملك السبابة)^٣ . ولم يشر الى موضع ملكه من بادية السبابة ومقداره في البادية .

وكانت (دومة الجندل) عند ظهور الاسلام في ملك (أكيدر بن عبد الملك الكندي السكوني) . والسكون من كندة ، فهو كندي النسب أيضاً . وكان ينتقل في البادية فيصل الى الحيرة والى أرض الغساسنة ، ويقال إنه ملك (دومة الحيرة) ونزل بها قبل جلّائه عن (دومة الجندل) أو بعده على رأي أهل الأخبار . وكان مثل أكثر رؤساء القبائل في العراق وفي البادية وبلاد الشام على

١ الشعر والشعراء (٩٧ وما بعدها) .

٢ البلاذري ، فتوح (١١٩) ، الواقدي ، فتوح الشام (٣٠ / ١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٨٤ / ١) .

النصرانية ، وله عقود ومعاهدات مع القبائل العربية الشمالية الضاربة في البادية ، تأتي الى مقره في الموسم أيام افتتاح السوق لتمتار وبيع ما تحمله من تجارات .
 وكان لأكيدر بن عبد الملك أخ اسمه (بشر بن عبد الملك) ، يذكر أهل الأخبار انه ذهب الى الحيرة ، وتعلم بها الخط ، ثم رجع الى مكة فتزوج (الصهباء بنت حرب) أخت أبي سفيان ^١ .

وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد الى دومة الجندل ليفتحها ، فسار خالد على رأس خيل الى (دومة) ، فلما بلغها وجد الأكيدر خارج حصنه يصطاد مع نفر من قومه فيهم أخ له يقال له : حسان ، فهجس رجال خالد على الأكيدر وأسروه ، وقتل حسان ، وأخذ خالد قباء (أكيدر) وكان من ديباج مخصوص بالذهب ، وبعث به الى الرسول ليقف عليه المسلمون ، فلما رأوه عجبوا منه وجعلوا (يلمسونه بأيديهم) ويتعجبون منه ، فقال رسول الله : أتعجبون من هذا . فوالذي نفس محمد بيده لمتاديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا ^٢ .
 وقد زاد عجبهم حين وصل خالد ومعه أسيره (أكيدر) ، فحقن له دمه ، وصالحه الرسول على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع الى قريته ^٣ .

ويذكر الرواة ان الرسول استقبل خالداً ومعه أسيره (الأكيدر) في المدينة ، فعرض الرسول الاسلام على الأكيدر ، فقبله وحقن الرسول دمه وكتب له كتاباً ، وعاد الى (دومة) . فلما قبض النبي منع الصدقة وارتد الى النصرانية ديانتة الأولى .
 وخرج من دومة الجندل فلحق بالحيرة وابتنى بها بناءً على مقربة من (عين التمر) سمّاه (دومة) أو (دومة الجندل) على اسم موضعه ، وسكن هناك . ثم عاد الى (دومة الجندل) ، وتحصن بها ، فأمر (أبو بكر) خالد بن الوليد بالتوجه اليه ، فسار اليه وقتله . أما أخوه (حريث بن عبد الملك) فقد أسلم ، وحقن دمه . وقد تزوج (يزيد بن معاوية) ابنة له ^٤ .

- ١ جمهرة (ص ٤٠٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٥٧/٢) .
- ٢ الطبري (١٠٨/٣ وما بعدها) (طبعة دار المعارف) ، ابن هشام (٣١٩/٢) ، البلاذري فتوح (٧٢ وما بعدها) .
- ٣ الطبري (١٠٨/٣) ، البكري ، معجم (٥٦٤/٢ وما بعدها) ، فتوح البلدان (٢٢٣) الكامل (١٩٢/٢) (المنبرية) ، تاج العروس (٥١٨/٣) . (كدر) .
- ٤ فتوح البلدان (٢٢٣) ، البلدان (٦٢٥/٢ وما بعدها) ، البلاذري ، فتوح (٧٣) ، تاريخ خليفة بن خياط (٥٦/١) ، (نحيب أكرم ضياء العمري) .

وتذكر رواية أخرى ان (الأكيدر) بعد ان نقض الصلح وعاد الى نصرانيته ، أجلاه (عمر) من (دومة) فيمن أجلى من مخالفى الاسلام الى الحيرة ، فأقام في موضع قرب (عين التمر) ، ابتناه فسمّاه (دومة) وقيل (دوماء) باسم حصنه^١ . وهي رواية لا تتفق مع المشهور بين أهل الأخبار من ان خالداً قتل (الأكيدر) في السنة الثانية عشرة أو السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، وذلك في أيام (أبي بكر) بعد ان أمره الخليفة بالتوجه اليه . وهي رواية أقوى من الرواية المتقدمة في نظر المؤرخين .

ويظهر ان أهل (دومة الجندل) كانوا قد سمعوا بنجر مسير (خالد اليهم) ، فأرسلوا الى حلفائهم وأحزابهم من بهراء وكلب وغسان وقبائل تنوخ والضجاعم ليساعدوهم في الوقوف أمامه . فأتاهم (وديعة) في (كلب) وبهراء ، وسانده (رومانس بن وبرة بن رومانس) الكلبي ، وجاءهم (ابن الحدرجان) في الضجاعم ، و (جبلة بن الأيهم) في طوائف من غسان وتنوخ . وكذلك (الجودي بن ربيعة الغساني) . وكان من المتزعمين في (دومة) ، وقد احتفى أهل (دومة) بمحصنهم وخلف أسوار المدينة ، والتفت حول السور من الخارج نصارى العرب الذين جاؤوا لمساعدة أهلها . وقد تمكن (خالد) يساعده (عياض) من الغلب على أهل المدينة وحلفائهم ، وقتل رؤساءهم ، ودخل المدينة منتصراً ، فغنم جيشه غنائم كثيرة وقُتِلَ من أهلها خلق كثير . وسبى ابنة (الجودي) . وكان الأكيدر في جملة القتلى^٢ .

وكان الرسول قد غزا (دومة الجندل) بنفسه ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة الخامسة من الهجرة ، وبلغها ، ولم يلق كيداً . كان سبب غزوه لها ، ان رسول الله أراد ان يدنو الى أراضي الشام ، لأن ذلك مما يفزع الروم ، ثم ان أهل دومة الجندل كانوا يظلمون من يمر بهم ويتزل عندهم ، ومن يحمل بسوقهم للبيع والشراء ، وقد كان الناس يذهبون اليها ويعودون الى المدينة ، فقرر غزوها ، فلما وصل الرسول كان أهلها قد فرّوا وتركوا قريتهم ، فنزل بها

١ البلدان (٢/٦٢٥ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢/٥٧٨ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٣٩ م) ، الكامل (٢/٢٧٠) ، الطبري (٣/٣٧٨ ، ٣٨٥) (دار المعارف) ، البلاذري ، فتوح (٧٤) .

ولم يجد احداً ، فرجع عنها ، وذلك قبل غزو خالد لها .^١

وورد في سبب غزو الرسول لها ، ان جمعاً من قضاة ومن غسان تجمعوا ، وهمّوا بغزو الحجاز . فسار في ألف انتخبهم ، فلما انتهى الى موضعهم ألفاهم قد تفرقوا أو هربوا ، لم يلق كيداً .^٢

وفي هذه الغزوة وادع رسول الله (عيينة بن حصن) على ان يرعى بـ (تغلمين) وما والاها الى (المراض) .^٣

ويفهم من حديث بعض اهل الاخبار عن (دومة الجندل) ، انها كانت قرية عادية ، الا ان الدهر كان قد لعب بها ، فخربت وقتل عدد من كان بها ، الى ان نزل بها (أكيدر) ، فأعاد اليها رواءها ، وغرس الزيتون بها ، فتوافد اليها الاعراب . ويذكر هؤلاء ان (أكيدر) ، كان ينزل مع اخوته قبل مجيئه الى (دومة) (دومة الحيرة) ، ولما جاء يزور اخواله من (كلب) ونزل بخرائب (دومة الجندل) أعجبته فتزل بها ، وأمر باعادة بناء ما تهدم من حائطها وبيعت الحياة بها حتى صارت قرية عامرة يقصدها الاعراب للبيع والشراء .^٤ وصار (أكيدر) يتردد بينها وبين (دومة الحيرة) .^٥

ويحمي (دومة) سور قديم ، بني قبل (أكيدر) في زمان لا يحيط علم اهل الاخبار به . يقولون انه بُني من (الجندل) ، وانه هو الذي جعل الناس يسمون الموضع بـ (دومة الجندل) . ويذكرون انه كان في داخل السور حصن منيع يقال له (مارد) ، وهو حصن (أكيدر بن عبد الملك بن الحلي بن أعيا ابن الحارث بن معاوية بن خلاد بن ابامه بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن اشرس بن شور بن عفير ، وهو كندة) فهو سكوني كندي .^٦

١ الطبري (٥٦٤/٢) ، (دار المعارف) ابن عساكر ، التأريخ الكبير (١٧/١) ، ابن خلدون القسم الاول من المجلد الثاني (ص ٧٧٣) ، ابن هشام (٦٦٨/٢) (الطبعة الاوربية) ، شرح المواهب (٣٦٠/٣) ، الكامل (٢٧٠/٢) وما بعدها .

٢ البلاذري ، أنساب (٣٤١/١) .

٣ نهاية الارب (١٦٣/١٧) ، (غزوة دومة الجندل) .

٤ البلاذري ، فتوح (ص ٢٢٣) (بيروت ١٩٥٧ م) .

٥ البلدان (٦٢٥/٢) وما بعدها (طهران ١٩٦٥ م) ، (١٠٦/٤) (طبعة ١٩٠٦) .

٦ البلدان (٦٢٥/٢) وما بعدها (طبعة طهران ١٩٦٥ م) .

وحصن (مارد) ، حصن شهير له ذكر بين اعراب الشمال بُني قبل ايام (اكيلر) . قال عنه بعض اهل الاخبار انه حصن عادي ، اي من الحصون الجاهلية القديمة . وقد رأينا فيما سلف ان (دومة) من المواضع المعروفة التي يعود عهدها الى ما قبل الميلاد . وذكر اهل الاخبار ، ان سكانها كانوا اصحاب نخل وزرع ، يسقون على النواضح ، وحوها عيون قليلة وزرعهم الشعير . وانها (دوما الجندل) ايضاً .^١

وكان اكثر سكان (دومة الجندل) من (بني كنانة) من (كلب) . ويعدّها بعض اهل الاخبار من (القرىات) ويقصدون بمصطلح (القرىات) : دومة وسكاكة وذو القارة .^٢ وتحيط بدومة مستوطنات وقرى تحتمي بسلطان حاكم (دومة) . وكان (اكيلر) يلقب نفسه بلقب (ملك) على عادة ذلك الوقت في تلقيب سادات المواضع انفسهم بهذا اللقب ، وان كان لا يعني في الواقع اكثر مما يعنيه مصطلح (شيخ) في الوقت الحاضر .

وكان اهل (دومة) على النصرانية ، شأنهم في ذلك شأن اكثر اهل القرى في العراق وفي بادية الشام وبلاد الشام . وكان اهل (اكيلر) على هذه الديانة ايضاً . اذ ورد ان الرسول ارسل (عبد الرحمن بن عوف) على رأس جيش الى دومة ، فذهب اليها ودخلها ، وأسلم (الأصبغ) ، وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) ، اذ كان الرسول قد كتب اليه ان يتزوج ابنة ملكها ، اي ملك (دومة) ، وهو (الأصبغ) .^٣ فيظهر من هذا الخبر ، ان (الأصبغ) كان يلقب نفسه بلقب (ملك) ايضاً ، وأنه كان يحكم (دومة) في ايام الرسول . في نفس الوقت الذي كان فيه (الأكيلر) يحكم (دومة) ، ويلقب نفسه بلقب (ملك) .

-
- ١ التاريخ الكبير ، لابن عساكر (٨٩/١ وما بعدها) (مطبعة روضة الشام) ، ناج العروس (٢٩٧/٨) ، (دوم) .
 - ٢ البلدان (٦٢٥/٢ وما بعدها) (طهران ١٩٦٥ م) ، مرصد الاطلاع (٥٤٢/٢ وما بعدها) .
 - ٣ التاريخ الكبير ، لابن عساكر ، (٨٩/١ وما بعدها) ، البكري ، معجم (٥٦٤/٢ وما بعدها) ، المحبر (ص ١٢٠) .

وذكر بعض الاخباريين ان اهل دومة الجندل كانوا من عباد الكوفة .^١ ويقصدون بذلك انهم كانوا نصارى ، فقد كانت عاداتهم اطلاق لفظة (عباد) على النصارى العرب ، عرب الحيرة بصورة خاصة . وقصدوا بالكوفة ، الحيرة ، لأن الكوفة لم تكن موجودة في الجاهلية ، اذ بنيت في ايام الخليفة (عمر) .

ويظهر من اهل الاخبار ان (اكير السكوني) لم يتمكن من تثبيت ملكه على (دومة الجندل) بصورة دائمة ، اذ كان ينافس زعماء كلب الأقوياء . فقد ذكر (محمد بن حبيب) ان ملكها كان بين (اكير العبادي ثم السكوني وبين قنافة الكلبي . فكان العباديون اذا غلبوا عليها وليها اكير ، واذا غلب الغسانيون ولّوها قنافة . وكانت غلبتهم ان الملكين كانا يتحاجيان فأبما ملك غلب صاحبه باخراج ما يلقي عليه ، تركه والسوق فصنع فيها ما شاء . ولم يبع بها احد شيئاً الا باذنه حتى يبيع الملك كلما اراد يبعه مع ما يصل اليه من عشورها) .^٢ ويؤيد هذا الخبر ما ذكرته من وجود ملك آخر على دومة ، هو (الأصبغ) الكلبي المتقدم الذكر .

وهناك خبر آخر يفيد ان (الجودي بن ربيعة) ، كان مثل (الاكير) رئيساً على (دومة) ، وان الإثنيين كانا رئيسين عليها .^٣ وورد انه كان من غسان وأن اسمه (عدي بن عمرو بن أبي عمرو الغساني) ، وأن (عبد الرحمن ابن ابي بكر) ، (كان يختلف الى الشام في تجارة قريش في الجاهلية ، فرأى هناك امرأة يقال لها : ابنة الجودي من غسان ، فكان يهذي بها ، ويذكرها كثيراً في شعره) ، (وأصبحت حين غزو الروم ليلي ابنة الجودي ، فبعثوا بها الى عبد الرحمن بن ابي بكر لذكره اياها) .^٤ فهو اذن على هذه الرواية من غسان .

ويظهر من غربلة روايات الاخباريين ان هنالك موضعاً آخر عرف بـ (دومة) و (دوما) . يقع في العراق على مقربة من (عين التمر) ، ذكر الاخباريون

١ البلاذري ، فتوح (٧٤) .

٢ المجبر (ص ٢٦٣ وما بعدها) ، الازمنة والامكنة (١٦١/٢ وما بعدها) .

٣ الكامل (٢٧٠/٢ وما بعدها) .

٤ نسب قريش (٢٧٦) .

ان اسمه (دومة) و (دوما) و (دومة الجندل) . ونسبوا كما ذكرت قبل قليل بناءه الى (الاكيلر) . وهو موضع لا نعرف من امر تأريخه شيئاً يذكر .

وذكر ان (حارثة بن قطن) ، و (حمل بن سعدانة بن حارثة بن مغفل) ، وهما من (كلب) قدما الى رسول الله وأسلما ، فكتب رسول الله لحارثة كتاباً (لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن) ، ثم بين ما على المذكورين من حقوق وواجبات ، وما عليهم من احكام فرضها الاسلام على المسلمين .^١

وترك (خالد) (دومة الجندل) ، ثم اتى (قصم) ، فصالحه (بنو مشجعة بن التيم بن النمر بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة) ، وكتب لهم اماناً . ثم اتى (تدمر) ، فأمنهم ، ثم اتى (القريتين) ، ثم (حوارين) من (سدير) ، ثم اتى (مرج راهط) ، فأغار على (غسان) .^٢ وكان (حاضر) (قنسرين) لتنوخ ، من اول ما تنخوا بالشام ، نزلوه وهم في خيم الشعر . ثم ابتنوا به المنازل . فدعاهم (ابو عبيدة) الى الاسلام ، فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية (بنو سليح) . وكان بهذا الحاضر قوم من (طيء) ، نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين . فلما ورد (ابو عبيدة) عليهم اسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية ، ثم اسلموا بعد ذلك .^٣

وقضاعة قبائل عديدة ، منها (بنو جرم بن ربان) و (بنو سليح) و (تزيذ) ابنا (عمران بن الحاف بن قضاعة) و (كلب بن وبرة) ، وهو قبيل عظيم . منهم (الأسبع) ، ومن قبائل قضاعة (عنزة بن زيد اللآت) و (العبيد بن زيد اللآت) ، و (بنو كنانة) ، و (بنو جناب بن هبل) ، و (بنو عليم بن جناب) ، و (بنو مصاد) ، و (بنو حصن) ، و (بنو معقل) . ومن (بني جناب) (بحدل بن أتيث) ، جاء (يزيد بن معاوية) لأمه . ومن رجالهم (ابن الجلاح) ، وكان قائداً للحارث بن ابي شمر الجفني ،

١ نهاية الإرب (٩٣/١٨ وما بعدها) .
٢ البلاذري ، فتوح (١١٨ وما بعدها) ، الطبري (٤١٧/٣) ، تاريخ خليفة (٨٧/١) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

واسمه (النعمان) . وهو الذي اغار على (بني فزارة) و (بني ذبيان) ، فاستباحهم وسبي (عقرب) بنت النابغة ، ومن عليها ، فلدحه (النابغة) .^١

وقد انتشرت بطون (كلب) في ارضين واسعة ، شملت دومة الجندل وبادية السماوة والاقسام الشرقية من بلاد الشام . ولما أخرج الروم عن ديار الشام ، لعبت بطون كلب دوراً بارزاً في السياسة ، اذ أيدت الامويين ، وتزوج (معاوية) (ميسون) أم (يزيد) وهي كلبية ، فصارت كلب في جانب الامويين .

ومن قبائل (قضاعة) ، (بنو عامر الاجدار) . ومن رجال (بني وبرة) غير كلب ، (بنو القيس بن جسر) ، و (بنو مصاد بن مذعور) و (بنو زهير بن عمر بن فهم) . ومن قبائل (جرم بن ربان) : (بنو اعجب) و (بنو طرود) و (بنو شمس) . ومن بطون (جرم) : (بنو نخشبن) ، ومن رجالهم (رأس الحجر) ، وقد رأس في الجاهلية وأخذ المربع . ومن رجال (جرم) ، (عصام بن شهبر) ، حاجب النعمان . وكان النعمان اذا اراد ان يبعث بألف فارس بعث بعصام .^٢

وقد ذهب وفد من (جرم) الى المدينة ، فيه (الاصقع بن شريح بن صريم) و (هوذة بن عمرو) ، فأسلما ، وكتب الرسول لها كتاباً .^٣ وذهب وفد آخر ، اخبر الرسول باسلام حواء من جرم ، كان عليه (سلمة بن قيس الجرهمي) ومعه ابنه (ابو زيد عمرو بن سلمة بن قيس الجرهمي) .^٤

وقد ساعد الغساسنة الروم في حروبهم مع المسلمين ، وكان على رأسهم (جبلة ابن الايهم الغساني) ، الذي حارب مع مقدمة جيش الروم في مستعربة الشام من غسان ولحم وجذام وغيرهم يوم اليرموك . ثم انحاز (جبلة) الى المسلمين ، وأظهر الاسلام ، ثم عاد ، ففرّ الى بلاد الروم ، واستقر بها ، وبها مات .^٥ وقد استمر (المستعربة) يناصرون الروم ، فلما تراجع قوادهم نحو الشمال لضغط

١ الاشتقاق (٣١٣ وما بعدها) .

٢ (عصام بن شهبر الجرهمي ، حاجب النعمان بن المنذر ملك العرب . ومنه قولهم : ما وراءك با عصام ؟ يعنون به اياه) ، تاج العروس (٣٩٩/٨) ، (عصم) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٣٣٥/١) ، (الاسقع) ، نهاية الارب (٩٤/١٨ وما بعدها) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٣٣٦/١ وما بعدها) .

٥ البلاذري ، فتوح (١٤٠ وما بعدها) . (٢) البلاذري ، فتوح (١٦٩) .

المسلمين عليهم ، التحق بهم هؤلاء (المستعربة) من غسان وتنوخ وإياد ، وقد التحموا بالمسلمين في (درب بغراس)^١ .

ويذكر الأخباريون ان (دمشق) كانت منازل ملوك غسان . وبها آثار لآل جفنة . والظاهر ، انهم كانوا قد اشتروا وابتنوا بها قصوراً ، عاشوا فيها ، ومنها كانوا يتصلون بكبار الموظفين الحاكمين البيزنطيين . فإذا أرادوا الاتصال بقومهم الغساسنة عادوا الى قصورهم بين قومهم . وكانت الغوطة : غوطة دمشق من المناطق التي سكن بها الغساسنة^٢ .

ويظهر من رواية يرجع سندها الى (محمد بن بكر الغساني) عن قومه (غسان) ان الغساسنة لم يقبلوا على الاسلام إقبال غيرهم من العرب ، وانهم لم يسلموا إلا بعد فتوح الشام . ولما ذهب ثلاثة نفر منهم الى المدينة ، وأسلموا وبايعوا الرسول ، لم يستجب قومهم لهم في دعوتهم الى الاسلام ، فكتبوا أمرهم عنهم ، خوفاً من بطش قومهم بهم^٣ .

وورد في أخبار الرسل الذين أرسلهم الرسول الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، ان الرسول أرسل (شجاع بن وهب) الى (الحارث بن أبي شمر الغساني) من غسان ، وكان يقيم إذ ذاك بغوطة دمشق في قصر منيف ، ليدعوه الى الاسلام ، فلما دفع (شجاع) كتاب رسول الله الى (الحارث) رمى به ، ولم يدخل في الاسلام وبقي على النصرانية حتى توفي عام الفتح^٤ .

وكان (جبلة) مع الروم يوم (اليرموك) ومعه (المستعربة) من غسان وقضاة وذلك سنة (١٥) للهجرة ، وكان قد انضم الى المسلمين بعض لحسم وجذام ، فلما وجدوا جد القتال فروا ونجوا الى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين^٥ .

وقد كان (جبلة بن الأيهم) على رأس (العرب المنتصرة) يحارب مع

١ البلاذري ، فتوح (١٦٩) .

٢ ابن رسته ، الاعلاق (٣٢٦) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٣٣٨/١) وما بعدها .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٦١/١) ، نهاية الارب (١٦٥/١٨) .

٥ الطبري (٥٧٠/٣) وما بعدها .

الروم ، لمنع المسلمين من التقدم نحو (قنسرين) ، ويذكر أهل الأخبار ان محاورات جرت بينه وبين المسلمين في موضوع اشتراكه مع الروم ، ومنها محاورات مع (خالد بن الوليد) صاغوها بأسلوب قصصي منمق ، وذكروا انه كان جالساً (على كرسي من ذهب أحمر وعليه ثياب الديباج الرومي وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ وفي عنقه صليب من الياقوت)^١ . وكان ذلك بعد ارتداده عن الاسلام^٢ ، فلما غلب الروم ، (كان جبلة أول من انهزم والعرب المنتصرة أثره)^٣ .

ومن الغساسنة (شرحبيل بن عمرو الغساني) ، الذي قتل رسول الله (الحارث بن عمر الأزدي) ، الذي كان الرسول قد بعثه الى ملك (بصرى) . فلما نزل (مؤتة) قتله (شرحبيل) . فأمر رسول الله بإرسال حملة عليه ، سنة ثمان للهجرة جعل أميرها (زيد بن حارثة) . ولما سمع بها (شرحبيل) جمع جمعاً من قومه وتقدم نحوهم ، وكانوا قد نزلوا (معان) . وبلغ المسلمين ان (هرقل) كان قد نزل (مآب) من أرض البلقاء في جمع من بهراء ووائل وبكر ولحم وجذام والقيين ، عليهم (مالك بن رافلة) الاراشي من (بلي) ، فأنحازوا الى (مشارف) ، ولما دنا العدو انحازوا الى (مؤتة) ، وقتل فيها فيها (جعفر بن أبي طالب) ، و (عبد الله بن رواحة) و (ثابت بن رواحة) و (ثابت بن أرقم) ، ثم (زيد بن حارثة) ، ثم تراجعوا الى المدينة . وقتل من العرب الذين كانوا مع الروم (مالك بن رافلة) (زافلة)^٤ . واعتزل بعض (حدّاس) وهم (بنو غنم) الحرب ، لاشارة كاهنتهم عليهم بذلك ، فأخذوا بقولها ، فاعتزلوا عن (بني لحم) وصلم الحرب بعض منهم ، وهم (بنو ثعلبة)^٥ .

وكان بقرب (حلب) حاضر ، عرف بـ (حاضر حلب) ، جمع أصنافاً من العرب من تنوخ ، فصالحهم (أبو عبيدة) على الجزية^٦ . ويرجع هذا

١ الواقدي ، فتوح الشام (١٠٦/١) ، (ذكر فتح قنسرين) .

٢ الواقدي (١١٠/١) .

٣ الواقدي (١١٤/١) .

٤ نهاية الأرب (٢٧٧/١٧) ، (سرية مؤتة) .

٥ الطبري (٤١/٣) ، ذكر الخبر عن غزوة مؤتة .

٦ البلاذري ، فتوح (١٥١) .

الحاضر الى أيام الجاهلية ، فقد كان العرب قد توغلوا الى هذه الديار قبل ظهور الاسلام ، وأقاموا في الحواضر بطواهر المدن يتعيشون من اتصاهاهم بأهل تلك المدن .

ولم تكن الرابطة الدينية التي ربطت بين أكثر عرب بلاد الشام والبيزنطيين ، هي العامل الوحيد الذي جعل أولئك العرب ينضمون الى صفوف الروم في الدفاع عنهم وفي مقاومة جيوش المسلمين ، بل كانت هناك عوامل أخرى ، مثل المنافع المادية التي كان يجنيها سادات الأعراب من البيزنطيين ، حيث كانوا ينالون هدايا ورواتب منهم في مقابل حماية الحدود والمحافظة عليها من غارات الأعراب وفي مقابل الغارات التي كان البيزنطيون يكلفونهم بها لغزو حدود العراق لازعاج أعدائهم الفرس وقت الحاجة والضرورة ، ومثل التسهيلات التي كانوا ينالونها من البيزنطيين في الإتجار مع مدن الشام وفي معاملات البيع والشراء والرواتب السخية التي تدفع للأعراب إذا خدموا في صفوف العساكر المتطوعة ، وهي رواتب سخية إذا قيست بالنسبة لحالة أهل البادية المنخفضة من الناحية المادية كثيراً بالنسبة الى حالة سكان بلاد الشام .

وكان (الحيار) : (حيار بني القعقاع) بلداً معروفاً قبل الاسلام . وبه كان مقيل (المنذر بن ماء السماء) اللخمي ، ملك الحيرة . فترله (بنو القعقاع) من (عيس بن بغض)^١ .

وكانت اللقاء في أيدي قبائل من العرب مثل لحم وجندام وبلقين وبهراء وبلي^٢ ، وهي قبائل يطلق عليها المؤرخون اسم (المستعربة)^٣ . وكانوا على النصرانية في الغالب ، لذلك كان هواهم الى جانب الروم . فكانوا معهم في غزوة (مؤتة) يقاتلون مع (هرقل) ضد المسلمين وعليهم (مالك بن رافلة) وهو من (بلي) ثم أحد إراشنة . وكان المسلمون إذ ذاك في (معان) . وهي من أعمال اللقاء يستعدون للروم^٤ . وكان صاحب هذه المدينة في أيام الرسول رجلاً من (جندام) ، هو (فروة بن عمرو الجندامي) . وكان عاملاً للروم على من

١ البلاذري ، فتوح (١٥١ وما بعدها) .

٢ الطبري (٣٧/٣) (دار المعارف) .

٣ ابن الاثير (٩٧/٢) ، الطبري (١٠٨/٣) ، (غزوة مؤتة) ، البلدان (٩٣/٨) ، (معان) .

يليه من العرب ، ومنزله بمعان . فلما أرسل فروة رسولا عنه الى الرسول يبلغه بإسلامه ، قبض الروم عليه وحبسوه ، ثم ضربوا عنقه وصلبوه ^١ .

ومن (لحم) (بنو الدار بن هانيء) . وقد قدم وفد منهم على رسول الله منصرفه من (تبوك) ، فيه : (تميم بن أوس بن خارجة الداري) و (نعيم ابن أوس بن خارجة) ، و (يزيد بن قيس بن خارجة) ، و (الفاكه بن النعمان بن جبلة بن صفارة) ، و (جبلة بن مالك بن صفارة) ، و (أبو هند) و (الطيب) إنا (ذر) . وهو (عبد الله بن رزين بن عيميت بن ربيعة درّاع) ، و (هانيء بن حبيب) و (عزيز) و (مرة) إنا (مالك بن سواد بن جذيمة) ، فأسلموا ، وأهدى (هانيء بن حبيب) لرسول الله ، راوية خمر وأفراسا وقباءاً مخصوصاً بالذهب . فقبل الأفراس والقباء . وقال تميم : لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحدهما (حبري) والأخرى (بيت عينون) ، فإن فتح الله عليك الشام فهبها لي . فوهبها رسول الله له . فلما توفي الرسول وقام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له كتاباً ^٢ .

ولما أمر الرسول (أسامة بن زيد بن حارثة) ان يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، تجهز معه المهاجرون الأولون ، ولكن وفاة الرسول لم تمكنه من السفر ، فكان أول ما فعله خليفته (أبو بكر) ان أمره بتنفيذ ما أمره به رسول الله ^٣ . ولكنه لم يتقدم كثيراً ، بل بلغ الموضع الذي قتل أبوه زيد بن حارثة فيه ، وهو من أرض الشام فرجع ، لأن الرسول أمره في حياته بالسير اليه ^٤ .

و (الداروم) قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر . يجاورها عربان بني ثعلبة بن سلامان بن ثعل من بني طيء . وهم درماء وزريق ^٥ .

١ ابن الاثير (١٢٤/٢) ، البكري (١٢٤٢/٤) (معان) ، ابن سعد ، طبقات (٢٦١/١ وما بعدها) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٤٣/١ وما بعدها) .

٣ الطبري (١٨٤/٣ وما بعدها) ، (لم دخلت سنة احدى عشرة) .

٤ الطبري (٢٤١/٣) ، نهاية الارب (٣٧٠/١٧) .

٥ تاج العروس (٢٨٨/٨) ، (درم) .

وكانت (جذام) نازلة في (حسمى) عند ظهور الإسلام . وهي من مواطن (ثمود) . و (جذام) من نسل (جذام) شقيق (عاملة) و (لحم) أبناء (عدي بن الحارث بن مرة بن كهلان) . واسم (جذام) الحقيقي في رأيهم (عمرو)^١ . وتقع أرض جذام في الأقسام الجنوبية من بلاد الشام ، وتصل الى (أيلة) ثم تمتد مع الساحل حتى تبلغ (ينبع)^٢ .

ويرجع بعض النسابين نسب جذام الى اليمن ، ويرجعها بعض آخر الى مضر ، وتوسط قوم فقالوا لانهم كانوا من مضر في الأصل ، ثم غادروا ديار مضر ، فذهبوا الى اليمن ، وعاشوا بين قبائل قحطان ، فنسوا أصلهم بتقادم العهد ، وعُدّوا في القحطانيين . ويظهر ان هذا الرأي هو محاولة للتوفيق بين الرأيين السابقين . أما الذي عليه غالبية جذام ، فهو انها من قحطان^٣ .

وقد وفد رجال من (جذام) على رسول الله ، منهم (رفاعة بن زيد بن عمير بن معبد الجذامي) ثم أحد (بني الضبيب) ، فأسلم وكتب الرسول له كتاباً . أما (فروة بن عمرو بن النافرة) الجذامي ، فقد كان كما سبق ان ذكرت عاملاً الروم على ما يليهم من العرب ، وكان منزله (معان) ومسا حولها أو على (عمان) ، فلما بلغهم انه كاتب الرسول وانه أسلم أخذوه فحبسوه ، ثم ضربوا عنقه^٤ . ويذكر أهل الأخبار ان (فروة) كتب الى الرسول كتاباً أرسله مع (مسعود بن سعد) ، وبعث اليه ببغلة وفرس وحمار ، وأثواب لين^٥ ، وقباء سندس مخوص بالذهب^٥ . وان الرسول كتب الى فروة جواب كتابه . ويذكر أهل الأخبار ان الروم لما قبضوا على (فروة) ، قال شعراً يذكر فيه

١ البلدان (٢٧٦/٣) ، الاشتقاق (٢٢٥) ، المعارف (ص ٥٠) .

٢ صفة (١٢٩) .

٣ (وجذام قبيلة من اليمن تنزل ببجبال حسمى ، وراء وادي القرى . وهو لعب عمرو ابن عدي بن الحرث بن مرة بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . وهو أخو لحم وعاملة وعفير . ويقال اسم جذام عوف وقيل عامر . والاول أصح . ونزعم نساب مضر أنهم من معد بن عدنان) ، (وانما سمي جذام جذاما ، لان أخاه لحما وكان اسمه مالكا ، اقتتل واياه ، فجذم أصبح عمرو . فسمي جذاما . ولحم عمرو مالكا فسمي لحما) ، تاج العروس (٣٢٣/٨) ، (جذم) .

٤ طبقات ابن سعد (٣٥٤/١) وما بعدها .

٥ ابن سعد ، طبقات (٢٨١/١) .

نفسه والرسول ، وقال مثل ذلك لما نقله الروم الى موضع يقع على ماء لهم بفلسطين اسمه (عفراء) ، فلما أرادوا ضرب عنقه ، قال بيتاً من الشعر في إسلامه وفي إيمانه ^١ .

وقد انتشرت النصرانية بين كلب ، كما انتشرت بين أكثر القبائل النازلة بديار الشام . والظاهر انها كانت على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة (Monophysites) ^٢ .

وفي جوار (الحجر) وفي شرق (حرة ليلي) ، أقامت بنو عنزة ، وهي من قبائل قضاعة ، وتنسب الى (عنزة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن أسلم بن الحاف بن قضاعة) ^٣ . ولا نعلم من تأريخ هذه القبيلة في الجاهلية شيئاً يذكر . ولم يرد اسمها كثيراً في الأيام ، والظاهر ان ذلك لقلة شعرائها ، فإن شعر الشعراء هو الذي نخلد أسماء القبائل عند الأخباريين . ويظن انها قبيلة (Adritai) (Adraetai) التي ذكرها (بطليموس) ^٤ .

أما ديار هذه القبيلة ، فكانت في وادي القرى وتبوك . ولكنها امتدت حتى بلغت قرب أيلة . ويذكر الأخباريون ان هذه القبيلة هاجرت مع من هاجر من قبائل قضاعة بعد حربها مع حمير ، فترلت في هذه الديار ^٥ . وتعاهدت مع قوم من يهود على مجاورتهم ، والا تتحرش بهم وبنخيلهم وبساتينهم . وتجاور ديار عنزة ديار قبائل أخرى من قضاعة مثل نهد وجهينة وبلي وكلب ، كما جاورت من الشمال قبيلة غطفان ^٦ .

ولعنزة حلف مع عدد من بطون سعد هذيم ، مثل بني ضنة ، ويعدهم النسابون بطناً من عنزة ، وكذلك مع بني سلامان . وقد عرفوا بصحار . وكان لهم حلف مع جهينة ، ويرجع الأخباريون عهد هذا الحلف الى أيام حرب قضاعة ، وهي الحرب المسماة بـ (حرب القريض) ^٧ .

١ نهاية الارب (٢٩/١٨) .

٢ Ency., II, P. 689.

٣ Ency., II, P. 989.

٤ Sprenger, Geographle, S., 205, 333.

٥ البكري (١٨ ، ٢٢ ، ٢٧) ، الاغانى (١٦١/١٦) .

٦ Ency., IV, P. 988.

٧ البلدان (٣٦٨/٣) ، وهم أبناء (صحار) ، الاشتقاق (٣٢٠) ،

Ency., IV, P. 988.

وهناك جملة قبائل ذكر الأخباريون أربعاً أو خمساً قالوا انها كانت تعرف بـ (عذرة)^١ . وقد سبب تعدد هذه الأسماء للنسابين بعض التشويش .

ويظهر من روايات الأخباريين انه كان لهذه القبيلة صلة بقريش ، فزعموا ان أم (قصي) تزوجت رجلاً من (بني عذرة) ، وان أخاه من أمه (رزاح ابن ربيعة بن حرام) اشترك مع قريش في الدفاع عن الكعبة وفي طرد خزاعة عنها . ورووا أيضاً انه كان لها صلة بالأوس والخزرج كذلك ، لأن أم القبيلتين ، وهي (قيلة بنت كاهل أو بنت هالك) ، كانت من هذه القبيلة^٢ .

ولما قدم وفد (عذرة) على الرسول في صفر سنة تسع ، وفيه (حمزة بن النعمان العنزي) و (سليم) و (سعد) ابنا مالك ، و (مالك بن أبي رباح) ، سلموا على الرسول (بسلام أهل الجاهلية ، وقالوا : نحن إخوة قصي لأمه ، ونحن الذين أزاخوا خزاعة وبني بكر عن مكة ، ولنا قرابات وأرحام) . وكان من رجال عذرة الذين وفدوا على الرسول : (زميل بن عمرو العنزي)^٣ .

وذكر (ابن سعد) ان الرسول كتب الى (عذرة) في (عسيب) ، وبعث به مع رجل من (بني عذرة) ، فعدا عليه (ورد بن مرداس) أحد (بني سعد هذيم) ، فكسر العسيب وأسلم واستشهد مع (زيد بن حارثة) في غزوة وادي القرى أو غزوة القردة^٤ .

وكانت مواطنها عند ظهور الاسلام في منطقة مهمة جداً تقع بين الحجاز وبلاد الشام ومصر ، فتمتد من منازل (كلب) في الشمال حتى منطقة المدينة . وكانت بطونها منتشرة في (وادي القرى) وحول (تبوك) وعند (أيلة) وفي طور سيناء . ولمرور طريق القوافل منها ، تولى رجالها حراستها وجباية رسوم المرور منها . ولما رأى بعض المستشرقين انها تقطن منطقة كان يسكنها (أهل

١ محمد بن حبيب ، مختلف القبائل (ص ٣٧) ، (طبعة وستنفلد) ،

Ency., IV, P. 289.

٢ Ency., IV, P. 989, Wustenfeld, Genealo, I, 24.

٣ ابن سعد ، طبقات (٣٣١/١) وما بعدها .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٨٤/١) .

مديسن) وكذلك النبط ، ذهبوا الى انها من نسل (مديسن) أو من بقايا (النبط)^١ .

ومن المستشرقين من يرى ان (بني النضير) هم فرع من جذام ، دخلوا في دين يهود ، ودليلهم على ذلك انتشار اليهودية بين بعض بطون جذام التي تقع منازلها على مقربة من (يثرب) . وكانت النصرانية قد وجدت لها سيلاً بين جذام ، وذلك باتصالها ببلاد الشام ومصر . وقد كانت مع (المستعربة) أي النصارى العرب ، تحارب المسلمين مع الروم في حروب بلاد الشام^٢ .

وفي أرض جذام موضع يقال له (السلاسل) ، وقعت غزوة عرفت بـ (ذات السلاسل) . وقد قام بها (عمرو بن العاص) ، وكان الرسول قد بعثه الى أرض (بلي) و (عنزة) يستنفر الناس الى الشام^٣ .

ومن جذام (رفاعه بن زيد الجذامي) ثم (الضبيبي) ، وكان قد قدم الى الرسول فأسلم ، وكتب الرسول له كتاباً ، وذهب الى قومه ، ونزل الحرة : حرة الرجلاء^٤ . و (ضبيب) بطن من جذام . ولما أغار (الهنيد بن عوص) ، وهو من (الضبيع) ، بطن من جذام على (دحية بن خليفة الكلبي) ، حين قدومه من بلاد الشام ، وكان رسول الله بعثه الى (قيصر) صاحب الروم ومعه تجارة له ، فأصاب كل شيء كان مع (دحية) نقرَ (رفاعه) وقومه ممن أسلم ، الى (الهنيد) ، فاستنقذوا ما كان في يده ، فردّوه على (دحية) . وكان المعتدون يقيمون بحسمى^٥ .

ومن (جذام) (زنباع بن روح بن سلامة بن حُدّاد بن حديدة) ، وكان عشاراً ، مرّ به (عمر بن الخطاب) في الجاهلية تاجراً الى الشام ، فأساء اليه في اجتيازه وأخذ مكسه ، فقال (عمر) فيه شعراً يتوعده ويهجوّه ، فبلغ ذلك (زنباعاً) فهجز جيشاً لغزو مكة ، فنهي عن ذلك وأشير عليه بعدم تمكنه منها ، فكفّ عنها^٦ .

١ Ency., I, P. 1058.

٢ Ency., I, P. 1058.

٣ الطبري (٣٢/٣) .

٤ الطبري (١٤٠/٣) ، (قدوم رفاعه بن زيد الجذامي) .

٥ نهاية الارب (٢٠٧/١٧) .

٦ بلوغ الارب (٣٦١/١ وما بعدها) ، الاستقاق (٢٢٥) .

وكانت (أيلة) في أيام الرسول ، في ايدي (يوحنا بن رؤبة) (يحنة بن رؤبة) . ولا سمع (يوحنا) بمجيء الرسول مع جيش الى (تبوك) ، جاء اليه ، وصالحه على الجزية ، وصالحه اهل (جرباء) و (اذرح) على الجزية ايضاً . كما صالح اهل (مقنا) على ربح كروهم وغزولهم وحلقتهم وعلى ربح ثمارهم ، وكانوا يهوداً .^١ وقد دَوَّن (ابن سعد) صورة كتاب ذكر ان الرسول كتبه لـ (يحنة بن رؤبة) (يحنة بن رؤبة) وأهل ايلة (لسفنتهم وسيارتهم في البر والبحر ... ولمن كان معهم من اهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر) .^٢

وأورد (ابن سعد) نص كتاب ارسله الرسول الى (يوحنا بن رؤبة) (يحنة ابن رؤبة) و (سرّوات) اهل ايلة : جاء فيه ان رسول الله قد ارسل اليه رسلاً هم : (شرحيل) و (ابي) و (حرمة) ، و (حريث بن زيد الطائي) . و (أن حرمة) قد شفّع له ولأهل ايلة لدى الرسول وأن عليه ان يكسو (زيداً) كسوة حسنة . وأنه قد اوصى رسله بهم . ويظهر من هذا الكتاب ، ان حامله كان (زيداً) ، وجاء فيه (وجهزوا اهل مقنا الى ارضهم) .^٣

وكتب الرسول كتباً الى اهل (اذرح) و (جربا) ولأهل مقنا ، وذكر ان اهل مقنا ، كانوا يهوداً على ساحل البحر . وأهل جربا واذرح يهود ايضاً .^٤ اما (كلب) التي كانت ديارها تتاخم ديار جذام ، فينسبها النسابون الى (كلب بن وبرة) ، وهي من القبائل التي كانت تنزل ديار الشام عند ظهور الاسلام . غير اننا لا نعرف من تأريخها شيئاً يذكر قبل الاسلام .^٥

وتتصل بديار كلب من الشرق ارض الحيرة وديار (بني بكر) ، ومن الجنوب ديار طيء ، ومن الغرب ديار (بنو بلي) و (جذام) ، ومن الشمال (بنو بهراء) وقبائل غسان .

ويرجع نسب (كلب) في عرف النسابين الى قبائل (قضاة) . ومن كلب

١ الطبري (١٠٨/٣) ، البلاذري ، فتوح (٧١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٨٩/١) ، نهاية الارب (٣٥٧/١٧) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٩/١ وما بعدها) .

٥ Ency., II, P. 688.

الأسبع : وهي بطون ثعلب وفهد ودب والسيد والسرطان وبرك . ومن قبائلها :
ثور وكلب ورفيدة وعوذى وعرينة وقبائل أخرى يذكرها النسابةون .^١

وينسب الى هذه القبيلة (زهير بن جناب الكلبي) ، وهو في جملة من
يذكرهم الاخباريون من المعمرين . ويذكرون انه كان رئيساً من رؤساء هذه القبيلة ،
وأنه كان شاعراً ، وأنه كان في أيام (كليب وائل) و (المهلهل بن ربيعة) ،
ومعنى ذلك انه عاش في القرن السادس للميلاد .^٢

وقد ذكر الاخباريون أسماء رجال برزوا في الجاهلية ، ينتمون الى بطون هذه
القبيلة ، منهم (هوذة بن عمرو) ، نعتوه بـ (رب الحجاز) ،^٣ وهذا النعت
يدل على منزلة الرجل ومكانته التي كان عليها قبل الاسلام . وهو من (حردش)
وقد مدحه (النابغة الذبياني) . وقد نسب الاخباريون هوذة الى (عص) او
(عيثر بن لبيد) ، وهو في زعمهم من المعمرين في الجاهلية .^٤

وقد وفد رجل من (كلب) على الرسول اسمه (عبد عمرو بن جبلة بن
وائل بن الجلاح الكلبي) ، ومعه (عاصم) ، من (بني وقاش) من (بني
عامر) ، فأسلما . ووفد (حارثة بن قطن بن زائر بن حصن بن كعب بن عليم
الكلبي) و (حمل بن سعدانة بن حارثة بن مغفل بن كعب بن عليم) ، فأسلما .
وكتب الحارثة بن قطن ، كتاباً ، لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب ،
دوّن فيه أوامره لهم ونواهيهم وشروطه ان ارادوا الدخول في الاسلام .^٥

وأورد (ابن سعد) صورة كتاب ، ذكر ان الرسول كتبه (لبني جناب)
من كلب وأحلافهم ومن ظاهرهم . وقد بين فيه الامور التي يجب عليهم مراعاتها
من حقوق وأحكام . وأشهد عليه فيه : سعد بن عباد ، وعبد الله بن انيس ،
ودحية الكلبي .^٦

١ الاشتقاق (ص ٣١٤ وما بعدها) .

Ency., IV, P. 1237.

٢ الاشتقاق (ص ٢٠٤) .

٣ الاشتقاق (٣٢٠) .

Ency., IV, P. 989.

٤ الاشتقاق (٣٢٠) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٣٣٤ وما بعدها) .

٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٦) .

ولعذرة عدة بطون ، منها : بنو الجلاحاء ، وبنو جلهمه ، وبنو زقرقة ، وبنو ضنة ، وبنو حردش ، وبنو حنّ ، وبنو مدلج .^١ ويظهر من ابيات للشاعر النابغة ان (النعمان بن حارث الغساني) لما هم بغزو (بني حنّ) في موضعهم ب (برقة صادر) ، نهاه عن ذلك ، غير انه لم يتنه ، فاصيب غزوه بهزيمة .^٢ وحنّ ، هم الذين قتلوا (الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد) من طيء ، في الحجر . وكان الجلاس ممن اجتمعت عليه جديلة طيء .^٣ وتبوك هي من جملة مواضع بني عذرة ، وهي موضع (Thapaua) الذي ذكره (بطلميوس) ،^٤ ولا نعرف من امرها قبل الاسلام شيئاً يذكر . وقد ذكرت في الفتوح ، اذ وصل الرسول اليها ، وصل الرسول ، وصالح اهلها على الجزية ، مما يدل على ان سكانها كانوا من اهل الكتاب .^٥

وكان غزو الرسول لها سنة تسع للهجرة ، اذ بلغه ان الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وانهم قد جمعوا اليهم جمعاً من لحم وجلد وعمالمة وغسان وقدموا مقدماتهم الى اللقاء ، فأراد الرسول مباغتتهم قبل ان يياغتهوه ، فلما وصل اليها ، وجد ان الروم بعيدون عنه فرجع .^٦

ويذكر اهل الاخبار ان (بني عذرة) نصروا قصياً وساعدوه ، لوجود صلة له بهم . ويظهر انه قد كان عند القدامى من (بني عذرة) كتاب في اخبارهم كانوا يرجعون اليه اذا احتاجوا الى الوقوف على خبر يخص هذه القبيلة . فقد ذكر (ابو عمرو بن حريث العذري) ، انه رجع الى كتاب من كتب آبائه في امر (وفد عذرة) الذي ذهب الى الرسول .^٧

Ency., IV, P. 989

- ١ الاشتقاق (٣٢٠) ،
- ٢ الاشتقاق (٣٢٠) ، البلدان (١٤٣/٢) .
- ٣ البلدان (٧٤/٧) ، (قرى) .
- ٤ Ptolemy, Geography, VI, 7, 27.
- ٥ البلدان (٨٢٤/١) ، ابن هشام (٩٠٢) ، الطبري (١٦٩٢/١) ، غزوة تبوك ، فتوح البلدان (٥٩) ، شمال الحجاز ، تأليف الويس موسل ، ترجمة : الدكتور عبد المحسن الحسيني ، سنة ١٩٥٢ م ، (ص ١٤٠ وما بعدها) .
- ٦ نهاية الارب (٣٥٢/١٧) وما بعدها .
- ٨ (عن أبي عمرو بن حريث العذري قال : وجدت في كتاب آبائي ، قالوا :) ، ابن سعد ، طبقات (٣٣١/١) .

وتقع ديار (غطفان) جنوب (طيء) ، وشمال (هوازن) و (خيبر)
والى الغرب من بليّ وديار سعد . وهم من القبائل الكبيرة التي يرجع النسابون
نسبها الى (سعد بن قيس بن مضر) . فهي من القبائل المضرية في اصطلاح أهل
الأنساب . وهم قبائل : منهم : ريث وبغيض وأشجع ، ومن بغيض ذبيان ،
وهو والد عبس ، وانما أجداد قبائل كبيرة^١ . وتقع ديار أشجع على مقربة من
المدينة ، وأما ديار (بغيض) فتقع عند شربة والربذة ، وتجاورها (خصيفة بن
قيس عيلان) ، وسليم الذين تقع ديارهم في جنوبهم .

ومن رجال (أشجع) (مسعود بن ربيعة بن نيرة بن طريف) ، وقد
وفد على الرسول على رأس وفد قوامه مئة رجل ، وادّعوا رسول الله ، ثم
أسلموا^٢ .

وقد كانت بين (غطفان) وبين (بني عامر بن صعصعة) وهم بطن من
هوازن حوادث وأيام . من ذلك (يوم النفرات) ، وفيه قتل خالد بن جعفر
ابن كلاب العامري زهير بن جذيمة سيد عبس . وكانت هوازن تخضع لزهير .
وتقدم له الإتاوة كل سنة في سوق عكاظ . فلما استبد بهم زهير ، ولم يرع لهم
حرمة ، ولم ينصفهم ، نعموا عليه . وأقسم جعفر ليقتله ، وقد وفى بقسمه في
يوم (النفرات) .^٣

وقد غزا الرسول قوماً من (غطفان) ، هم من (بني محارب) و (بني
ثعلبة) ، حتى نزل نخلًا فلقى جمعاً من (غطفان) ، ولم تقع بينهم حرب ،
وعرفت الغزوة بـ (غزوة ذات الرقاع)^٤ . وكانت هذه الغزوة في أول السنة
الثالثة من الهجرة . وعرفت أيضاً بـ (غزوة ذي أمر) ناحية (النخيل) .
وكان قد جمعهم رجل يقال له : (دعثور بن الحارث) من (بني محارب) ،
وهم من الأعراب ، فلما وصل الرسول اليهم ، هربوا في رؤوس الجبال ، ثم

١ الاشتقاق (١٦٤ وما بعدها) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٢٣٧ وما بعدها) ،
Ency., II, P. 144.

٢ نهاية الارب (٢٢/١٨) .
٣ العقد الفريد (٣٠٤/٣) ، الاغانى (١٠/١٠) .
٤ الطبري (٥٥٥/٢) وما بعدها ح .

أسلم (دعثور) ودعى قومه الى الاسلام^١ .

وقد تجمع جمع من غطفان بالجناب ، وأرادوا مباغته المسلمين ، فوصلت الأنباء بذلك الى الرسول ، فأرسل سرية عليهم فلت ذلك الجمع^٢ .

وقد استجابت (غطفان) لدعوة سادات (بني النضير) أمثال : (سلام ابن أبي الحقيق) ، و (حيي بن أخطب) و (كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق) ، ودعوة نفر من (بني وائل) ، فيهم (هوذة بن قيس الوائلي) و (أبو عمار الوائلي) ، ولزعماء مكة وعلى رأسهم (أبو سفيان) ، فخرجت وقائدها (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري) في بني فزارة ، و (الحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرِّي) في (بني مُرّة) و (مسعود) (مسعر) بن ربيعة بن نيرة بن طريف بن سحمة الأشجعي) فيمن تابعه من أشجع . واستجابت لهم (بنو سليم) ، يقودهم (سفيان بن عبد شمس) وهو أبو (أبي الأعور السلمي) ، وانضمت اليهم (بنو أسد) يقودهم (طليحة بن خويلد الأسدي) ، وكوتوا الأحزاب . وساروا باتجاه المدينة ، فوجدوا المسلمين وقد حضروا خندقاً حولها ، حال بينهم وبين اقتحامها ، ووقعت مناوشات ، انتهت برجوع الأحزاب . ونجاح المسلمين في الدفاع عن أنفسهم^٣ .

ومن رجال (عبس) الذين وفدوا على الرسول : (ميسرة بن مسروق) و (الحارث بن ربيع) وهو الكامل ، و (قنان بن دارم) ، و (بشر بن الحارث بن عباد) و (هذم بن مسعدة) ، و (سباع بن زيد) ، و (أبو الحصن بن لقمان) ، و (عبد الله بن مالك) ، و (فروة بن الحصين بن فضالة) . وذكر ان رسول الله سأل نفراً من (عبس) عن (خالد بن سنان) ، فقالوا : لا عقب له ، فقال : نبي ضيعه قومه ، ثم أنشأ يحدث أصحابه حديث خالد^٤ .

١ نهاية الارب (٧٧/١٧ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢٣/٣) .

٣ الطبري (٥٦٤/٢ وما بعدها) ، (غزوة الخندق) ، نهاية الارب (١٦٦/١٧ وما بعدها) .

٤ طبقات ابن سعد (٢٩٥/١ وما بعدها) ، نهاية الارب (١٧/١٨) .

وقد كتب الرسول الى (بني زهير بن أقيش) كتاباً ، أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم^١ . و (بنو أقيش) هم حيّ من (عكل) . و (عكل) من (الرباب) . وهم (تيم) و (عدي) و (عكل) و (مزينة) . وذكر ان الرسول كتب لبني أقيش في ركية بالبادية^٢ .

ومن ديار (هوازن) ، (تربة) ، وهي ناحية (العباء) على طريق صنعاء ونجران . وتقع في (عجز هوازن) . وقد أرسل الرسول عليهم سرية بقيادة (عمر) وذلك سنة سبع للهجرة^٣ . وتقع ديار هوازن بغور تهامة الى الى بيشة والسراة وحنين وأوطاس^٤ .

وفي جنوب شرقي (حسمى) أقامت بطون (فزارة)^٥ ، وتنسب الى (فزارة بن ذبيان بن بغيض بن غيث بن غطفان) . وقد اشتركت في حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان ، وفي معارك أخرى ، وتعاونت مع يهود خيبر ضد الرسول^٦ . ومن رجال (فزارة) (نخارجة بن حصن) ، وكان فيمن وفد على النبي من وفد (بني فزارة) سنة تسع للهجرة^٧ .

ومن (بني فزارة) في أيام الرسول (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر) ، أغار على لقاح رسول الله وهي ترعى بالغابة ، وهي على بريد من المدينة ، فوجه رسول الله جمعاً عليه ، قتل (مسعدة بن حكمة بن مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري) و (حبيب بن عيينة) ، ثم لحقهم الرسول بـ (ذي قرد) ، فوجدهم قد مضوا^٨ . وقد نعت النبي (عيينة) بـ (الأحق المطاع في قومه)^٩ . ومن بني فزارة الذين وفدوا الى الرسول بعد رجوعه من تبوك سنة تسع للهجرة ،

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .

٢ الاشتقاق (١١٣/١١١) .

٣ نهاية الأرب (٢٧٠/١٧) .

٤ البكري ، معجم (٨٨/١) .

٥ Musil, Hegaz, P. 315.

٦ Ency., II, P. 93.

٧ الطبري (١٢٢/٣) .

٨ البلاذري ، أنساب (٣٤٨/١) وما بعدها .

٩ الاشتقاق (١٧٣) .

(خارجة بن حصن) و (الحرّ بن قيس بن حصن ^١ . وذكر ان (عينة بن حصن) كان من المؤلفة قلوبهم . شهد حنيناً والطائف . وكان أحق مطاعاً دخل على النبي بغير إذن وأساء الأدب ، فصبر النبي على جفوته وأعرابيته . وقد ارتد وآمن بطليحة ، ثم أسر ، فنّ عليه الصديق ، ثم لم يزل مظهراً للإسلام . وكان يتبعه عشرة آلاف قناة . وكان من الجرارة . واسمه حذيفة ولقبه عينة لشتر عينه ^٢ .

ولما خرج (زيد بن حارثة) في تجارة له الى الشام ، ومعه بضائع لأصحاب رسول الله ، وكان دون (وادي القرى) لقيه ناس من (فزارة) من (بني بدر) ، فضربوه وأخذوا ما كان معه ، فعاد (زيد) الى المدينة وأخبر الرسول بما حدث . فأعاده مع سرية لغزوهم ، فحاصروهم ، ولكنهم كانوا قد هربوا ، فأسر منهم (فاطمة بنت ربيعة بن بدر) وابنتها (جارية بنت مالك بن حذيفة ابن بدر) ، وقتل (النعمان) و (عبد الله) ابنا (مسعدة بن حكمة بن مالك ابن بدر) ^٣ .

وعلى السنة الجارية بين القبائل ، تشتت شمل عشائر غطفان بسبب الحروب التي نشبت بينها من جهة ، وبينها وبين بطون خصافة من جهة أخرى . ونعني بخصافة هوازن وسليماً . وقد استمر التنافس بين عشائر غطفان وعشائر خصافة الى ظهور الإسلام ، وتميز بحوادث القتلك والاعتقالات ، وبرز في هذا النزاع اسم (دريد بن الصمة) وهو من هوازن ، ومعاوية وصخر أخوي الحنساء وهما من سليم ^٤ .

ولما انتقل الرسول الى جوار ربه ، ارتد كثير من غطفان ، وأيد بعضهم طليحة ، ولم يرجعوا الى الإسلام إلا بعد انتصاره على المرتدين .

وكان من وجوه (بني عامر بن صعصعة) ، عامر بن الطقييل ، وأربد بن قيس بن مالك بن جعفر ، (أربد بن ربيعة بن مالك بن جعفر) ، وجبار بن

١ ابن سعد ، طبقات (٢٩٧/١) ، نهاية الأرب (٢٠١/١٧) وما بعدها ، (٤١/١٨) .

٢ تاج العروس (٤٥/٦) ، (ألف) و (عين) .

٣ نهاية الأرب (٢١٠/١٧) وما بعدها .

٤ Ency., II, P. 145.

سلمى بن مالك ، وكان هؤلاء رؤوس القوم وشياطينهم . وقد وفدوا على الرسول . ولم يسلم (عامر بن الطفيل) ، بل رجع كافراً ومات على الشرك^١ . وكان معجباً بنفسه ، جريئاً على الناس^٢ ، من الفرسان^٣ . طلب من الرسول ان يجعل الأمر له من بعده في مقابل إسلامه ، أو ان يفتسم معه الحكم على الناس مناصفة ، فيكون للرسول حكم أهل المدر ، وله حكم أهل الوبر . فلما قال له الرسول : « لا ، ولكني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس » قال : أوليست لي ؟ لأملأها خيلاً ورجالاً . ثم ولى ، فلما كان في طريقه الى منازلهم مرض وهلك^٤ .

وكان (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) المعروف بـ (ملاعب الأسنة الكلابي) ، بعث الى رسول الله ان ينفذ اليهم قوماً يفقهونهم ويعرضون عليهم الإسلام وشرائعه ، فبعث اليهم قوماً من أصحابه . فعرض لهم (عامر بن الطفيل) يوم بئر معونة فقتلهم أجمعين . واغتم (أبو براء) لاختفار عامر بن الطفيل ذمته في أصحاب رسول الله ، ثم توفي بعد ذلك بقليل . وكان سيد (بني عامر ابن صعصعة) في أيامه^٥ . و (بئر معونة) ، أرض بين أرض (بني عامر) و (حرة بني سليم) ، وهي الى حرة بني سليم أقرب^٦ . وقد استصرخ (عامر بن الطفيل) بجماعة من (بني سليم) و (عصابة) و (رعلا) و (ذكران) فنفروا معه على المسلمين^٧ .

ولما أرسل (أبو بكر) (خالد بن الوليد) الى (بني عامر بن صعصعة) ، لم يقاقلوه ودفعوا الصدقة . وكان (قرة بن هيرة) القشيري امتنع من أداء الصدقة ، وأمد (طليحة الأسدي) ، فأخذته خالداً ، فحملة الى (أبي بكر) فحقن أبو بكر دمه^٨ .

-
- ١ الطبري (١٤٤/٣) ، (وفد بني عامر بن صعصعة) .
 - ٢ مروج (٣٢٨/٢) ، (دار الاندلس) .
 - ٣ الاشتقاق (١٨٠ ، ٢١٥) .
 - ٤ نهاية الارب (٥١/١٨) وما بعدها .
 - ٥ المحبر (٤٧٢) ، الطبري (٥٤٥/٣) ، (ذكر خبر بئر معونة) .
 - ٦ الطبري (٥٤٦/٢) .
 - ٧ نهاية الارب (١٣٠/١٧) وما بعدها .
 - ٨ البلاذري ، فتوح (١٠٦) .

ومن بني (عامر بن صعصعة) ، بنو (رؤاس بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) . ومنهم (عمرو بن مالك بن قيس) الذي وفد على الرسول فأسلم^١ . ومنهم (بنو البكاء) . ووفد وفد من (بني البكاء) على الرسول كان فيه (معاوية بن ثور بن عبادة بن البكاء) و (الفُجيع بن عبد الله بن جندح بن البكاء) و (عبد عمر البكائي) ، وهم الأصم^٢ .

وتقع ديار (بني عامر بن صعصعة) في الأقسام الغربية من نجد وتمتد الى الحجاز . وذكر انهم كانوا بصيفون بالطائف لطيب هوائها ، فلما اشتدّ عود ثقيف وقوي أمرهم ، منعوهم منها ، واستقلوا بها وحدهم^٣ .

ويرجع نسب (بني سليم) الى (قيس عيلان) ، وتقع منازلها في مواطن حرار ذات مياه ومعادن عرفت بـ (معدن سليم) . وكانوا يجاورون عشائر غطفان وهوازن وهلال . ولخيرات أرضهم ووقوعها في منطقة مهمة تهيمن على طرق التجارة ، صارت بنو سليم من القبائل الغنية . وكانت صلاتها حسنة بيهود يثرب ، كما كانت صلاتها وثيقة بقريش . وقد تحالف عدد كبير من رجالات مكة مع بني سليم ، واشتغلوا معهم في الاستفادة من المعادن والثروة في أرض سليم^٤ .

وقد قدم رجل من (بني سليم) اسمه (قيس بن نسيبة) ، على الرسول فأسلم ، ذكر انه كان على علم بلسان الروم وبهيئة الفرس ، وبأشعار العرب ، وانه كان ذا حظ بثقافة ذلك اليوم . فلما رجع الى قومه ، وكلمهم بالإسلام ، اقتنعوا بحديثه فأسلم منهم عدد كبير ، وذهب وفد عنهم الى الرسول ، فيه (العباس بن مرداس) و (أنس بن عياض بن رعل) و (راشد بن عبد ربه) ، فأسلموا على يديه . وكان (راشد) يسدن صنماً لبني سليم . وكان اسمه (غاوي) ، وكان قد رأى ثعلبين يبولان على صنمه فشده عليه فكسره ، ثم جاء مع الوفد الى الرسول فأسلم ، وسمّاه الرسول (راشدا) على طريقته في تغييره

١ ابن سعد ، طبقات (٣٠٠/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٠٤/١) .

٣ البكري ، معجم (٧٧/١ وما بعدها) .

٤ البلدان (٢٥٠/٢) ، (٩٤/٨) .

Ency., IV, P. 518.

أمثال هذه الأسماء . وأعطاه الرسول (رهاطاً) ، وفيها عين ماء .

ويذكر أهل الأخبار ، ان سيداً من سادات (بني سليم) ، اسمه (قدّر ابن عمار) ، كان قد قدم على النبي بالمدينة فأسلم ، وعاهده على ان يأتيه بألف من قومه ، فلما ذهب الى قومه ، وعاد ليأتي الى الرسول برجاله ، نزل به الموت ، فأوصى الى رهاط من (بني سليم) بالذهاب الى الرسول ، هم (عباس ابن مرداس) و (جبار بن الحكيم) و (الأخنس بن يزيد) وأمر كل واحد منهم على ثلاثمائة ، ليقدّموا على الرسول ، ثم جاء من بعدهم (المنقع بن مالك ابن أمية) وهو على مائة رجل ، فصار عددهم ألفاً^١ .

وكتب الرسول الى (سلمة بن مالك بن أبي عامر) السلمي (من (بني حارثة) ، انه أعطاه مَدْفُوءاً لا يحاقه فيه أحد^٢ . وأعطى (العباس بن مرداس) (مَدْفُوءاً) ، لا يحاقه فيه أحد ، كتبه له العلاء بن عقبة ، وشهد عليه^٣ . ويظهر ان (سلمة بن مالك السلمي) ، الذي ذكر (ابن سعد) ان الرسول (أعطاه ما بين ذات الحناظي الى ذات الأساور)^٤ ، هو (سلمي بن مالك بن أبي عامر) المتقدم .

وكان العباس بن مرداس يهاجي (خفاف بن ندبة السلمي) أحد الشعراء المعروفين . ثم تبادى الأمر الى ان احتربا ، وكثرت القتلى بينهما ، ولما تماديا في هجائهما ، ولم يسمعا نصيحة (الضحاك بن عبيد الله السلمي) ، وهو يومئذ صاحب أمر بني سليم ، ولجّبا في السفاهة ، خلعتهما بنو سليم . ثم أتاهما (دريد ابن الصمة) و (مالك بن عوف النصري) رأس هوازن ، وأصلحا بينهما . واستراح منهما بنو سليم^٥ .

وأسلم (العباس بن مرداس) قبل فتح مكة وحضر مع النبي يوم الفتح في جمع من (بني سليم) بالقنا والدروع على الخيل . وله ولد اسمه جلهمة ، روى

١ ابن سعد ، طبقات (٣٠٧/١ وما بعدها) ، نهاية الارب (٢٤/١٨) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .

٥ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (ص ٤٦٧ وما بعدها) .

عن النبي ^١ . ويروى ان العباس بن مرداس ، شهد حنيناً على فرسه العبيد ، فأعطاه النبي أربع قلايص ، فقال العباس : أتجعل نهي ونهي العبيد بين عينة والأقرع ، فقال النبي : (اقطعوا عني لسانه ، فأعطوه ثمانين أوقية فضة) ^٢ . وكان فيمن اشترك مع العباس بن مرداس من قومه في فتح مكة : (أنس بن عباس بن رعل) و (راشد بن عبد ربه) ، وقد طلب العباس وقومه من الرسول ، ان يجعل لهم لواءً أحمر ، وشعاراً مقدماً ، ففعل ذلك بهم ^٣ . وكان للعباس أخ اسمه (عمرو بن مرداس) ، ويعبد مثل أخيه في جملة المؤلفين قلوبهم كذلك ^٤ .

وأعطى الرسول (هوزة بن نبيشة السلمي) من (بني عصية) . (ما حوى الجفر كله) ^٥ . وكتب للأجب رجل من (بني سليم) (انه أعطاه فالساً) ، وكتب كتابه وشهد عليه (الأرقم) ^٦ . وأعطى الرسول (راشد بن عبد السلمي) (غلوتين بسهم . وغلوة بحجر برهاط) (لا يحاقه فيها أحد) ^٧ . كما أعطى (حرام بن عبد عوف) من (بني سليم) (إذاماً وما كان له من شواق) ^٨ . ومن (بني سليم) (نبيشة بن حبيب) ، قاتل (ربيعة بن مكدّم) الكنانى . وكان فارس كنانة ^٩ .

ويذكر ان الردة لما وقعت بوفاة الرسول ، جاءت (بنو سليم) الى (أبي بكر) ، فطلبوا منه ان يمدّهم بالسلاح لمقاتلة المرتدين ، فأمر لهم بسلاح ، فأقبلوا يقاتلون (أبا بكر) : فبعث أبو بكر خالد بن الوليد عليهم ، وجعلهم في حظائر ثم أضرم عليهم النيران ^{١٠} .

- ١ ابن قتيبة ، الشعر (ص ٤٦٧ وما بعدها) ، المعارف (٣٣٦) .
- ٢ الاشتقاق (١٨٨) .
- ٣ نهاية الارب (٢٤ / ١٨) .
- ٤ تاج العروس (٤٥ / ٦) .
- ٥ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣ / ١) .
- ٦ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣ / ١) وما بعدها .
- ٧ المصدر نفسه (٢٧٤ / ١) .
- ٨ المصدر المذكور .
- ٩ الاشتقاق (١٨٩) .
- ١٠ تاريخ خليفة بن خياط (٦٨ / ١) .

ومن ديار (بني سليم) معدن بني سليم ، وهو منزل كثير الأهل فيه اعراب بني سليم ، وماؤه من (البرك) ، وهي قرى قديمة .^١ وقد غزا الرسول على رأس ثلاثة وعشرين شهراً من مهاجره (قرقرة الكدر) (قراقره الكدر) ، ناحية معدن (بني سليم) بينه وبين المدينة ثمانية برود ، وذلك لما سمع ان بهذا الموضع جمعاً من (بني سليم) و (غطفان) ، فلما لم يجد احداً ، اخذ ما عثر عليه من جبال تعود اليهم ، كانت ترعى هناك ، ورجع الى المدينة .^٢ وغزا الرسول في السنة الثالثة من الهجرة موضعاً آخر من مواضع (بني سليم) اسمه : (بحران) من ناحية الفرع ، وهي قرية من ناحية المدينة ، لما بلغه ان بها جمعاً كثيراً من (بني سليم) .^٣

وكانت منازل عجز هوازن بموضع شربة .^٤ ومن رجال (هوازن) في ايام الرسول (مالك بن عوف النصري) احد بني نصر . وهو الذي جمع جموع هوازن وثقيف وأقبل عامداً الى النبي ، حتى وافاه ب (حنين) ف وقعت غزوة حنين . وقد جمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدوا من قيس عيلان الا هؤلاء وغابت عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب . وفي جشم (دريد بن الصمة) ، شيخ كبير ، ليس فيه شيء الا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب . وكان شيخاً كبيراً مجرباً ، وفي ثقيف سيدان لهم في الاحلاف : قارب بن الاسود بن مسعود ، وفي بني مالك ذو الحمار سبيع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث في بني هلال .^٥

وبنو سليم ايضاً قبائل ، منها : بنو ذكوان ، وبنو بهثة ، وبنو سمال ، وبنو بهز ، وبنو مطرود ، وبنو الشريد ، وبنو قنفذ ، وبنو عصية ، وبنو ظفر .^٦ وقد نجلت هذه القبائل رجالاً عرفوا في الجاهلية والاسلام ، منهم : العباس بن مرداس الشاعر الشهير ، ممن شهدوا معركة حنين مع الرسول ، ومجاشع بن مسعود

١ ابن رسته ، الاعلاق (١٧٩) .

٢ نهاية الارب (٧١/١٧) وما بعدها .

٣ نهاية الارب (٧٩/١٧) .

٤ الطبري (٢٢/٣) ، (دار المعارف) ، نهاية الارب (٣٢٣/١٧) وما بعدها .

٥ الطبري (٧٠/٣) وما بعدها .

٦ الاشتقاق (١٨٧) وما بعدها .

من قاذ الجيوش . وهو من المهاجرين ، والعباس بن انس الأصم من فرسان الجاهلية ، ورجال آخرون . ولسلم شقيق في عرف النسابين اسمه (مازن) . اما ابوهما فهو منصور .^١

و (جهينة) بطن مثل (يلي) و (بهراء) و (كلب) و (تنوخ) من بطون (قضاعة) ، كانت ديارها في نجد ، ثم هاجرت الى الحجاز ، فسكنت على مقربة من يثرب في المنطقة التي بين البحر الأحمر ووادي القرى ، عند ظهور الاسلام . وقد دخلت في الاسلام في حياة الرسول ولم تشرك مع من اشرك في الردة بعد وفاته .^٢ وينسب النسابون جهينة الى صحار والد جهينة ، ومن بطونها بنو حميس .^٣

ومن ديار (جهينة) ، موضع (بواط) ، وهو من (جبال جهينة) من ناحية (رضوى) قريب من (ذي خشب) مما يلي طريق الشام . وبين (بواط) والمدينة نحو اربعة برد . ويمر به طريق الى بلاد الشام . ولما سمع الرسول ، وهو على رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره ، ان قافلة لغير قريش : فيها امية بن خلف الجمحي ومئة من رجال قريش وألف وخمسة مائة بعير ، تمر من هناك ، خرج في ميتين لاعتراضها ، ولكنها فرت ونجت ، فلم تقع في الأسر .^٤

وكان في جملة من وفد على الرسول من جهينة : (عبد العزى بن بدر بن زيد بن معاوية الجهني) من (بني الربعة بن رشدان بن قيس بن قيس بن جهينة) ، ومعه أخوه لأمه (أبو روعة) . وكان لهم واد اسمه (غوي) . ومن (بني جهينة) (بنو دهمان) ومنهم (عمرو بن مرة الجهني) ، وكان سادن صنمهم ، فأسلم وكسر الصنم ، وقدم المدينة ، وأعلن اسلامه امام الرسول .^٥

وقد كتب الرسول كتاباً لبني زرعة وبني الربعة من جهينة ، أمنهم فيه على انفسهم وأموالهم .^٦ كما كتب لعوسجة بن حرمة الجهني من (ذي المروة) ،

١ الاشتقاق (١٨٩) ، الصفة (١٣٢ ، ١٥٤ ، ١٧٠) .

٢ Ency., I, P. 1060.

٣ الاشتقاق (ص ٣١٩ وما بعدها) .

٤ نهاية الأرب (١٧/٤ وما بعدها) .

٥ طبقات ابن سعد (٣٣/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (١٨/١٨ وما بعدها) .

٦ ابن سعد ، طبقات (٢٧٠/١) .

وقد (أعطاه ما بين بلكثة الى المصنعة الى الجفلات الى الجدّ جبل القبلة لا يحاقه أحد) ، وشهد على صحة الكتاب وكتبه (عقبة) ^١ كما كتب الرسول كتاباً لقوم آخرين من جُهينة ، هم من (بني شنخ) ، وقد (أعطاهم ما خطّوا من صفينة وما حرثوا) ، وكتب الكتاب وشهد عليه (العلاء بن عقبة) . ^٢ كما كتب الرسول كتاباً لبني الجرمر بن ربيعة ، وهم من (جهينة) ، كتبته المغيرة . ^٣ وكتب كتاباً لـ (عمرو بن معبد الجهني) و (بني الحرقفة) من جهينة وبني الجرمر ، أهم ما جاء فيه (وما كان من الدين مدونة لأحد من المسلمين قضى برأس المال وبطل الربا في الرهن . وأن الصدقة في الثمار العشر) . ^٤ ويظهر من ذلك أن هذا الكتاب قد دُوّن بعد نزول الأمر بتحريم الربا .

وبليّ من قبائل قضاة كذلك ، وتنسب الى بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاة . وتقع ديارها على مقربة من تيماء بين ديار جهينة وديار (جُذام) ، وهي مثل أكثر قبائل قضاة ، لا نعرف من تأريخها في الجاهلية شيئاً يذكر . أما في أول ظهور الاسلام ، فقد اشتركت مع القبائل النصرانية في جانب الروم ضد المسلمين . ^٥ ومنهم (مالك بن رافلة) ، قاتل (زيد بن حارثة) يوم (مؤتة) . ^٦

وفي سنة ثمان من الهجرة ارسل الرسول (عمرو بن العاص) الى ارض (بليّ) و (عنبرة) ، فلما بلغ موضع (السلاسل) خاف ، فبعث الى رسول الله يستمدّه ، فأمدّه بجماعة من المهاجرين الأولين ، فيهم (ابو عبيدة بن الجراح) و (ابو بكر) و (عمر) وقد عرفت تلك الغزوة بـ (ذات السلاسل) . ^٧

وقد دخل دين يهود فرع من بليّ ينسب الى (حشنة بن اكارمة) ، وسكن

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧١/١) وما بعدها .

٥ الطبري (١٦٠٤/١ ، ١٦١٠ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٩٢) ، الاشتقاق (٣٢٢) ،

Ency., I, P. 618, Caussin de Perceval, Essai., III. 212, Blau, in ZDMG., XXII,

664, XXIII, 573.

٦ الاشتقاق (ص ٣٢٢) .

٧ الطبري (٣٢/٣) .

على مقربة من تباء مع يهود ، وظل في هذا الدين وفي هذه الديار الى ان امر
(عمر) باجلائهم عنها في الاسلام .^١

وقد وفد نفر من (بلي) على الرسول ، وكان (شيخ الوفد) (ابو الضباب)
(ابو الضبيب) فأسلم وأسلم من كان معه ، ثم عادوا الى ديارهم .^٢

وتقع الى الجنوب من ديار (بلي) ديار (مزينة) ، وهي في الشرق من
منازل (جُهيّة) والى الغرب من ديار (سعد) والى الشمال من بلاد (خزاعة) .
ويرجع نسب (مُزينة) الى (مضر) . وقد وفد قوم منهم الى الرسول فيهم
(خزاعي بن عبد نهم) فبايع الرسول على قومه مزينة ، وقدم معه جماعة من
اعيان مزينة منهم : (بلال بن الحارث) و (النعمان بن مقرن) و (عبيد الله
ابن بردة) ، و (عبد الله بن درة) ، و (بشر بن المحقر) . و (خزاعي)
هو الذي حمل لواء مزينة يوم الفتح ، وكانوا يومئذ ألف رجل ، وهو أخو المغفل
ابي عبد الله بن المغفل وأخو عبد الله ذي البجادين .^٣

وأما وادي القرى ، فهو وادٍ كثرت قراه ، لذلك قيل له وادي القرى وأهله
عرب ويهود . وهو من المواضع المعروفة بالخصب في جزيرة العرب ، وبه عيون
وآبار .. لذلك اشتهر بالعمار منذ ايام ما قبل الميلاد . فنزلت به قبائل عديدة ، منها
قوم ثمود . وقد جلب خصب هذا الوادي انظار من نرح اليه من اليهود ، فحفروا
فيه الآبار وأساحوا العيون ، وزرعوا فيه النخيل والحبوب ، وعقدوا بينهم حلفاً
وعقداً . ودفعوا عنه قبائل بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاة ، وغيرهم من
القبائل .^٤ وعقدوا لهم احلفاً مع القبائل القوية ، لتحميمهم ولتدافع عنهم ،
مقابل جعل سنوي .

وقد غزا الرسول بعد فراغه من خير هذا الوادي ، فقاتله اهله ، ففتحته

١ Ency., I, P. 618.

٢ ابن سعد ، طبقات (٣٣٠ / ١) ، نهاية الأرب (٩٠ / ١٨) .

٣ طبقات ابن سعد (٢٩١ / ١) وما بعدها ، (دار صادر) ، نهاية الأرب (١٩ / ١٨)
وما بعدها .

٤ البكري ، معجم (٤٥ / ١١) وما بعدها .

عنوة ، وترك الرسول النخل والارض في ايدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه اهل خيبر .^١

وكانت (فذك) حكومة مستقلة كسائر الواحات والقرى في اعالي الحجاز ، اهلها من اليهود ، وعليهم في ايام الرسول (يوشع بن نون اليهودي) ، واليه بُعث (محيصة بن مسعود) لدعوته ولدعوة قومه الى الاسلام .^٢ وبها قوم من (بني مُرة) .^٣ وقوم من (بني سعد بن بكر) .^٤

وكان اهل خيبر من يهود كذلك . يتحكم فيهم رؤساء منهم ، ولهم حصون وآطام تحمي اموالهم ومساكنهم ، فتحت في ايام الرسول بسبب معاداة اهلها للاسلام واتفاقهم مع المشركين . وكان يظاهروهم (غطفان) . ومن حصونهم (حصن ناعم) و (حصن القموص) ، حصن (ابي الحقيق) ، و (الوطيح) و (السلام) ، وكان آخر حصون خيبر و (الشق) و (النظاة) .^٥

وكاتب الرسول (بني غاديا) ، وهم قوم من يهود . وكتب كتاب رسول الله اليهم : (خالدة بن سعيد) .^٦ وكتب (خالد) كتاباً آخر الى (بني عريض) وهم ايضاً قوم من يهود ، حدد لهم الرسول ما فرضه عليهم ، يؤدونه لحينه في كل عام .^٧

وكان يهود (بنو قينقاع) ، قد تحالفوا مع الأوس والخزرج ، تحالفوا مع (عبد الله بن ابي سلول) ، كما تحالفوا مع (عبادة بن الصامت) ، وكانوا صاغية ، ولهم سوق عرف بـ (سوق بني قينقاع) ، وكانوا أشجع يهود . فلما كانت وقعة (بدر) ، اظهروا ميلاً الى قريش ، فحاصروهم الرسول ، ثم غلبهم فأجلاهم عن ديارهم ولحقوا بأذرعات .^٨

- ١ البلدان (٢٧٥/٨) (وادي الفري) ، (٣٤٣/٥) (بروت ١٩٥٧) ، تاريخ الخميس (٥٨/٢) ، البلاذري ، فتوح (٤٧) .
- ٢ ابن الأثير (٩٣/٢) ، البلدان (٣٤٣/٦) وما بعدها .
- ٣ الطبري (٣٢/٣) ، (ذكر معاسم خيبر وأموالها) ، نهاية الأرب (٢٧٢/١٧) .
- ٤ نهاية الأرب (٢٠٩/١٧) .
- ٥ الطبري (٩/٣) وما بعدها .
- ٦ ابن سعد ، طبقات (٢٧٩/١) .
- ٧ المصدر نفسه .
- ٨ نهاية الأرب (٦٧/٦٧) ، (ذكر غزوة بني قينقاع) .

ومن منازل (بني لحيان) موضع (عُغْرَان) ، وادي بين أمج وعُسفان الى بلد يقال له (ساية) . وهو موضع مرتفع غزاه الرسول غزوته التي عرفت بـ (غزوة بني لحيان) في سنة ست للهجرة ^١ . وكان بنو لحيان ومن لافهم من غيرهم قد استجمعوا ، فلما بلغهم إقبال الرسول اليهم هربوا ، فلم يلق كيداً ^٢ . واعتصموا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد . ولم تستطع سرايا ان تقبض على أحد منهم ، فرجع الرسول ^٣ .

وأقام (القرطاء) ، وهم (بنو قرط) ، (قريظ) من (بني كلاب) ، بناحية (ضرية) ، فبعث رسول الله عليهم (محمد بن مسلمة) ، فاستاق إبلًا وغنماً منهم ، وهرب القرطاء ^٤ . وقد أرسل الرسول (أبا بكر) لغزو (بني كلاب) بنجد ، وذلك سنة سبع للهجرة ، وذكر انه غزا (بني فزارة) ^٥ . وأرسل عليهم سنة تسع (الضحّاك بن سفيان الكلابي) ، ومعه (الأصيل بن سلمة بن قرط) ، فلقبهم (بالزج) موضع بنجد ، وتغلب على (القرط) ^٦ . ولما غزا الرسول غزوة (الأبواء) ، وهي غزوة (ودّان) ، وكانت أول غزوة غزاها الرسول ، وادعه (مخشي بن عمرو الضميري) ، وكان سيد (بني ضمير) (بني الضمير) في ذلك الوقت . والأبواء قرية من أعمال (الفرع) من المدينة ، بينها وبين (الجحفا) مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً ^٧ .

وتقع ديار (بني مدلج) بناحية (ينبع) ، ومن أرضهم (ذو العشرة) ، وهو لبني مدلج . وقد غزاهم الرسول غزوته المعروفة بـ (ذي العشرة) على رأس ستة عشر شهراً من مهاجره ، فوادعهم ووادع حلفاءهم من (بني سمرة) ^٨ .

-
- ١ الطبري (٥٩٥/٢) .
 - ٢ البلاذري ، أنساب (٣٤٨/١) .
 - ٣ نهاية الأرب (٢٠٠/١٧) وما بعدها .
 - ٤ نهاية الأرب (٢٠٠/١٧) .
 - ٥ نهاية الأرب (٢٧١/١٧) .
 - ٦ نهاية الأرب (٣٥٠/١٧) وما بعدها .
 - ٧ نهاية الأرب (٤/١٧) .
 - ٨ نهاية الأرب (٦/١٧) .

ويظهر ان هذا الموضع إنما سمي بـ (ذي العشيرة) ، نسبة الى الصنم (ذو العشيرة) ، كان له معبد في هذا المكان ، فعرف به .

ومن القبائل التي أقامت على مقربة من مكة (خزاعة) ، ومن رجالهم عند ظهور الإسلام ، (عمرو بن الحمق) الكاهن ، صاحب النبي وشهد المشاهد مع (عليّ) وقتله (معاوية) بالجزيرة . وكان رأسه أول رأس نصب في الاسلام^١ . و (عمرو بن سالم الخزاعي) ، الذي جاء الى الرسول يشكو تظاهر (بنو بكر ابن عبد مناة بن كنانة) وقريش على خزاعة ، ونكث قريش عهدهم الذي قطعوه للرسول ألا يظاهروا أحداً على خزاعة ، فكان ذلك من عوامل فتح مكة^٢ .

ومن رجال خزاعة (بديل بن ورقاء بن عبد العزّي) ، شريف كتب اليه النبي يدعو الى الاسلام ، وكان له قدر في الجاهلية بمكة^٣ . ومن بطون خزاعة (بنو المصطلق) ، وعرفوا بـ (بلمصطلق) أيضاً ، وقد كانوا يتزلون بـ (المريسيع) ، وهو ماء لهم ، من ناحية (كديد) الى الساحل . وقد كان قائدهم وسيدهم (الحارث بن أبي ضرار) ، أبو (جويرية) ، التي تزوجها النبي بعد ان خرج اليهم في غزوة (بني المصطلق) من سنة ست . وهم من (خزاعة)^٤ . وكان (الحارث) قد سار في قومه ومن قدر عليه من العرب ، ودعاهم الى حرب الرسول . فلما وصل الرسول الى (المريسيع) ، تفرق من كان مع الحارث من العرب . وتغلب الرسول على (بني المصطلق) وأخذ منهم أسرى وغنائم ، وكانت (جويرية) في جملة من وقع في الأسر فتزوجها الرسول . ومن بطون خزاعة (بنو الملوّح) ، وكانوا بـ (الكديد)^٥ .

وكان في جملة من يقيم بتهامة (بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة) ، ومن مياهم (الغميصاء)^٦ . ولما توفي الرسول تجمعت بتهامة جموع من مدلج ،

- ١ الاشتقاق (٢٧٩) .
- ٢ الطبري (٤٢/٣) ، الاشتقاق (٢٨٠) ، البلاذري ، أنساب (٣٥٣/١) .
- ٣ الاشتقاق (٢٨٠) .
- ٤ الطبري (٦٠٤/٢) ، (دار المعارف) ، ارشاد الساري (٣٣٦/٦) .
- ٥ الطبري (٢٧/٣) وما بعدها ، الاشتقاق (٢٨٠) وما بعدها .
- ٦ الطبري (٦٦/٣) وما بعدها .

تأشب اليهم شذاذ من خزاعة وأفناء من كنانة ، عليهم جندب بن سلمى ، أحد (بني شنوق) ، من بني مدلج ، فحاربهم (خالد بن أسيد) وشتت شملهم ، وأفلت جندب ، ثم ندم على ما صنع ^١ .

وكتب الرسول لقوم من (أهل تهامة) : بديل وبسر وسرّوات بني عمرو ، ذكر فيه انه لم يأتهم ما لهم ، ولم يضع في جنبهم ، ثم قال لهم : (وان أكرم أهل تهامة عليّ وأقربهم رحماً مني أنتم ومن تبعكم من المطيين) . ثم أخبرهم ان (علقمة بن علاثة) قد أسلم . وأسلم (ابنا هوزة وهاجرا وبايعا على من تبعهم من عكرمة) ^٢ .

وينقل (ابن سعد) صورة كتاب كتبه (أبيّ بن كعب) وجهه (لجماع كانوا في جبل تهامة قد غصبوا المارة من كنانة ومزينة والحكم واقارة ومن اتبعهم من العبيد) ، فلما ظهر رسول الله ، وقوي أمره ، وفد منهم وفد على النبي ، فكتب لهم كتاباً جاء فيه : (هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء . انهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فعبدهم حرّ ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يرد اليها . وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم . وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان) ^٣ .

ويظهر من مضمون هذا الكتاب ، ومن بيان أهل الأخبار عن الذين كانوا قد اعتصموا في جبل تهامة ، انهم كانوا من الخارجين على الأعراف ، ومن الرقيق الآبق ، تجمعوا في هذا المكان المرتفع وتحصنوا وأخذوا يغتصبون منه المارة . وبقوا على ذلك حتى ظهر الرسول على أعدائه ، فوجدوا إذ ذاك انهم لن يتمكنوا بعد ظهور الرسول من الاستمرار في التحرش بالمرارة والتحرز بهذا الجبل ، وان ظروفاً جديدة قد ظهرت ، ستؤمن لهم سبل العيش ، وان الرسول سيعفو عنهم

١ الطبري (٦٧/٣ وما بعدها) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٢٧٢/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) .

ويغفر لهم ما وقع منهم قبل الإسلام ، فجاءوا اليه وأسلموا عنده . وكتب لهم كتاب أمان بذلك .

ومنازل (كنانة) بتهامة ، وهم فيها قبل الإسلام بأمدٍ طويل .

و (علقمة بن علاثة) : هو (علقمة بن حلاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب)^١ . وهو الذي نافر (عامر بن الطفيل) عند (هرم بن قطبة بن سنان)^٢ .

وأما (ابنا هوزة) فهما : العداء وعمر بن ابنا خالد بن هوزة من بني عمرو ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة^٣ .

وأما (عكرمة) ، فعكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . وذكر ان مراد الرسول بـ (ومن تبعكم من المطيين) ، (بنو هاشم) وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر ، وتيم بن مرة ، وأسد بن عبد العزى^٤ .

وكتب الرسول الى (العداء بن خالد بن هوزة) ، ومن تبعه من (عامر ابن عكرمة) ، انه (أعطاهم ما بين المصباعدة الى الزح ولوابة) . يعنى لوابة الحرار . وكتب لهم الكتاب : خالد بن سعيد^٥ .

ومن منازل (هذيل) (الرجيع) ، وهو ماء لهم^٦ . ويقع الى الشرق من (هذيل) ديار (ضبّة) وديار (عبد مناة) ، وأما في جنوبها فتقع ديار (خثعم) وثقيف ، وتمتد ديارها في الشمال حتى تتصل بديار (بني سليم) ، ومن (هذيل) (سفيان بن خالد بن نبيح الهللي) ، وكان قد جمع جمعاً ليغزو به الرسول ، وكان قد نزل (نخلة) أو (عرنة) ، موضع بقرب عرنة ، أو قرية بوادي عرنة ، فأرسل رسول الله اليه (عبد الله بن أنيس)

- ١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٢/١) .
- ٢ المحبر (١٣٥) .
- ٣ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .
- ٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .
- ٥ ابن سعد ، طبقات (٢٧٣/١) .
- ٦ البلاذري ، أنساب (٣٧٥/١) .

فقتله^١ . ومن القبائل المجاورة لهذيل : (فهم) و (عدوان) وكانت ديارهم بالسراة^٢ .

ومن كتب اليهم الرسول ، ودَوَّان (ابن سعد) صور كتبه اليهم : (سعيد ابن سفيان الرعلي) ، وقد أعطاه الرسول (نخل السوارقية وقصرها ، لا يحاقه فيها أحد) . وكتب الكتاب وشهد عليه (خالد بن سعيد)^٣ . و (عتبة بن فرقد) ، وقد أعطاه الرسول موضع دار بمكة ، بينها مما يلي المروة^٤ .

على هذا النحو كان الوضع السياسي في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام وفي أوائل أيامه : قوى مستقلة تخشى القبائل المحيطة بها . وأذواء وأقبال في اليمن وحضرموت ورؤساء قبائل يتحكمون في مناطق نفوذ قبائلهم ، ويعيشون على ما يأخذونه من أتباعهم من حق الرئيس على الرؤوس في السلم وفي الحرب ، وهم فيما بينهم في خصام وتنافس ، لم تركهم الحصومة من الانصراف الى شؤون رعيتهم ، وهم أنفسهم لم يفكروا في الانصراف الى ذلك . فتدهورت الأحوال ، وظهر أفراد ينادون باصلاح الحال ، وبالفكر في تحسين الأوضاع وبالتعقل . وكان الصراع بين الفرس والروم ، قد جسر الأعراب على الدولتين . وأخذت النصرانية ترسل المبشرين الى العرب ، لنشر النصرانية بينهم . وتغلب القلم المتصل الحروف ، الذي صار قلم العرب والإسلام على القلم المنفصل الحروف . قلم العرب القديم ، القلم المسند . وانتشر في مكة ويثرب . ونادى الأحناف بنسب الوثنية والأوثان . ونزل الوحي على الرسول في أول العشر الثاني من القرن السابع للميلاد . وظهر الإسلام داعياً العرب وغيرهم الى الإيمان بآله واحد خالق لهذا الكون . وبرسالة رسوله وبما جاء به من أوامر وأحكام . فكان ظهوره نهاية للجاهلية ، وبداية لعهد جديد ، عهد الإسلام .

وبظهور الإسلام على أعدائه في جزيرة العرب ، وبقضائه على أهل الردة ، أوجد لجزيرة العرب وجهاً جديداً من وجوه الحياة ، لم تشهده في حياتها ولم

١ نهاية الأرب (١٢٨/١٧ وما بعدها) .

٢ البكري ، معجم (٨٨/١) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .

٤ ابن سعد ، طبقات (٢٨٥/١) .

تعرفه . فقد أوجد الإسلام لأهلها موارد غنية من موارد الرزق ، وبسط لهم الأرض من الصين الى المحيط (الاطلانطي) وأخرج سكانها من ديارهم الفقيرة وأنزلهم في ديار غنية كثيرة السكان . وعرفوا بذلك نظاماً لم تكن مألوفة عندهم ، وأما لم يسمع أكثرهم بها ، وخرج المؤمنون الأولون والمؤلفة قلوبهم ومن دخل الإسلام وقلبه غير مطمئن به ، الى خارج جزيرة العرب يحكمون باسم الإسلام . حدث كل ذلك في مدة لا تعدّ طويلة بالنسبة الى ما وقع فيها من أحداث .

فالإسلام ، إذن نهاية حياة قديمة ، وبداية حياة جديدة ، تختلف عن الحياة الأولى كل الاختلاف .

الفصل الخامس والأربعون

المجتمع العربي

المجتمع العربي : بدو وحضر . أهل وبر وأهل مدر ، يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى .

وقسم بعضهم عرب الجاهلية الى ملوك وغير ملوك . وقسموا سائر الناس بعد الملوك الى طبقتين : أهل مدر وأهل وبر . فأما أهل المدر ، فهم الخواضر وسكان القرى ، وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة . وأما أهل الوبر ، فهم قطان الصحارى يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكأ ، مرتادين لمواقع القطر ، فيخيمون هنالك ما ساعدتهم الحصب وأمكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون في حلّ وترحال^١ .

ويعرف الحضّر ، وهم العرب المستقرون بـ (أهل المدر) ، عرفوا بذلك لأن أبنية الحضّر إنما هي بالمدر . والمدر : قطع الطين اليابس . قال (عامر للنبي ، صلى الله عليه وسلم : لنا الوبر ولكم المدر) ، فعنى به المدن أو الحضّر^٢ . ومن هنا قيل للحضر : بنو مدراء^٣ . وورد في حديث (الجساسة والدجال) :

١ ابن العبري ، مختصر الدول ، (١٥٨ وما بعدها) .

٢ اللسان (١٦٢/٥) ، (مدر) .

٣ اللسان (١٦٢/٥) ، (مدر) .

(تبعه أهل الحجر وأهل المدر ، يريد أهل البوادي الذين يسكنون مواضع الأحجار والرمال ، وأهل المدر ، أهل البادية)^١ . ويظهر من روايات أخرى ان (أهل المدر) هم أهل البادية . ولكن أكثرها ان (أهل المدر) ، هم الحضر ، لأن اتخاذ بيوت المدر لا يكون في البادية ، بل في الحضر .

وورد أن أهل البادية إنما قيل لهم (أهل الوبر) ، لأن لهم أخبية الوبر . تمييزاً لهم عن أهل الحضر الذين لهم مبانٍ من المدر ، ومن هنا قيل للقرية (المدر) ، لأنها مبنية بالطين واللبن ، وذكر ان (المدر) القرية والمدينة الضخمة أيضاً ، لأن المدن تبنى بالمدر أيضاً . ومن هنا قيل للحضر عمومياً : بنو مدراء^٢ .

ويذكر علماء اللغة ان الحضر والحاضرة والحضارة خلاف البادية والبدوة والبدو . والحضارة الإقامة في الحضر . والحاضر والحضر هي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار^٣ . وقد عرفوا بأهل القارية ، وذلك في مقابل أهل البادية ، لأهل البدو^٤ .

و (أهل القرار) ، هم الحضر ، لأنهم اختاروا القرار وأحبوا الاستقرار والإقامة في مكان واحد . ولأن الطبيعة حبتهم بكل شيء يغري على الارتباط بالأرض ، ولو ولد الأعرابي بين الحضر وتوفر لديه ما يؤمن له رزقه الدائم في مكانه الذي ولد فيه ، لما تنقل وارتحل ، ولصار حضرياً من دون شك مثل سائر أهل الحضر . ولكن الطبيعة حرمتهم من نعم الاستقرار ، فصار بدوياً يتتبع العشب والماء . فالطبيعة هي المسؤولة عن البدوة وعن انتشارها في جزيرة العرب .

ومن هنا قيل للحضري الذي لا ينتجع ويكون من أهل الأمصار (القراري) . ولما كان أكثر (أهل القرار) ، هم من الصناع ، قيل لكل صانع (قراري) .

-
- ١ اللسان (١٦٦/٤) ، (حجر) .
 - ٢ تاج العروس (٥٣٥/٣) ، (مدر) .
 - ٣ تاج العروس (١٤٦/٣) ، (حضر) .
 - ٤ اللسان (١٧٨/١٥) ، (قرا) .

وذكر بعض علماء اللغة ان (القراري) : الخياط . واستشهدوا على ذلك ببيت شعر للأعشى ، هو :

يشق الأمور ويجتابها كشق القراري ثوب الرदन

وذكر بعض آخر انه القصباب . وقد تجوز الناس فيما بعد ، فقالوا : خياط قراري ، ونجار قراري^١ .

ويقال لسكن القرية القاري^٢ ، كما يقال لسكن البادية البادي . والقارية سكنة القرى أي خلاف البادية والأعراب . والقرية كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً . وتقع على المدن وغيرها^٣ . وسكانها من الحضر . ويذكر علماء اللغة ان (المدينة من مدّن ، بمعنى أقام بمكان . ويراد بها الحصن يبنى في اصطمة الأرض^٤ . وتقابلها لفظة (مدينتو) في الارمية^٥ . و (هكون) (هكر) (هجر) في العربية الجنوبية . وأما (البلدة) ، فذكر علماء اللغة انها كل موضع أو قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو عامرة ؛ خالية أو مسكونة^٦ . فالبلدة ، إذن من مواطن الحضر أيضاً .

وقد كان من الصعب التمييز عند الشعوب القديمة بين القرى والبلدان والمدن . وكل بلدة أو مدينة كانت قرية في الأصل ، أي مستوطنة صغيرة غير محصنة ، وعندما ازداد عدد سكانها ، وكثر عمرانها ومالها لأسباب عديدة ، توسعت وحصن أهلها أنفسهم بحصون وبأطم أو بسور وخندق يحيط به لمنع العدو من الدنو منها^٦ . وبهذه التحصينات وبكثرة عدد السكان تميزت هذه المستوطنات السكنية بعضها عن بعض ، ولهذا كانت الشعوب القديمة لا تطلق لفظة (مدينة) إلا على القرى المحصنة المسورة ، وفي ضمن هذه الشعوب العرب .

وتطلق لفظة (عرب) على أهل المدر خاصة ، أي على الحضر و (الحاضر)

-
- ١ ناج العروس (٤٩٠/٣) ، (قرر) .
 - ٢ تاج العروس (٢٩٠/١٠) ، (قرى) .
 - ٣ تاج العروس (٣٤٢/٩) ، (مدن) .
 - ٤ غرائب اللغة (٢٠٥) .
 - ٥ تاج العروس (٣٠٥/٢) ، (بلد) .
 - ٦ قاموس الكتاب المقدس (٣٢١/٢) ، (مدينة) ،

Hastings, P. 143, 944, 958.

و (الحاضرة) من العرب ، اما اهل البادية ، فعرفوا بـ (اعراب) . مع ان كلمة (العرب) قد أطلقت في لغتنا لتشمل العربين : عرب الحاضرة وعرب البادية .^١ ويظهر ان هذا الاطلاق انما وضع قبيل الاسلام . فقد سبق لي أن بينت في الجزء الاول من هذا الكتاب تأريخ كلمة (عرب) ، وبينت كيف تطورت اللفظة الى ظهور الاسلام ، وقد رأينا أنها كانت تعني اهل البادية ، أي الاعراب في الأصل . أما الحضر فعرفوا بأسماء أماكنهم أو قبائلهم ، وآية ذلك أن التوراة والكتابات الآشورية والبابلية بل والجاهلية ، أي الكتابات العربية التي تعود الى ما قبل الاسلام ، كانت كلها اذا ذكرت الحضر ، ذكرتهم بأسمائهم ، ولم تطلق عليهم لفظة (عرب) ، أما اذا ذكرت أهل البادية ، فإنها تستعمل لفظة (عرب) و (عربي) ، أي أعراب وأعرابي مع أسمائهم ، وذلك مثل (جندب) ، وهو رئيس قبيلة ، وقد حارب الآشوريين ، فقد دعي في الكتابات الآشورية بـ (جندب العربي) ، أو (جندب الأعرابي) بتعبير أصح ، ومثل (جشم) الذي نعت في سفر (نحميا) من أسفار التوراة بـ (جشم العربي) إشارة الى كونه من الاعراب ، لا من الحضر ، وهو من الملوك كما سبق أن تحدثت عنه في الجزء الاول من هذا الكتاب .^٢ الى غير ذلك من أمثلة تحدثت عنها في أثناء حديثي عن لفظة عرب .

اما (يقطن) وهو (قحطان) : ونسله مثل : سبأ وحضرموت . واما (اسماعيل) ونسله ، وأما اهل (تيماء) و (مدين) وأمثالهم ، فلم تطلق التوراة عليهم لفظة (عرب) ، لأنهم لم يكونوا اعراباً ، بل كانوا حضراً ، ولهذا ذكرتهم بأسمائهم ، فاستعمال (عرب) اذن بمعنى اهل الحاضر والحاضرة ، او اهل المدر ، هو استعمال متأخر ، ظهر بعد الميلاد .

لقد ذهب علماء العربية كما سبق ان بينت في الجزء الاول من هذا الكتاب ، الى ان العربية هي لغة (يعرب) ، وهو اول من اعرّب بلسانه على حد قولهم ، وذهبوا الى ان العدنانيين متعربون ، ولم يكونوا عرباً في الاصل ، ثم تعلموا

١ بلوغ الأرب (١٢/١) .

٢ (ص ٦٤٦ وما بعدها) .

واختلطوا بالعرب حتى صاروا طبقة خاصة منهم .^١ وذهبوا الى ان التبابعة كانوا عرباً ينظمون الشعر بالعربية التي نظم بها الشعراء الجاهليون شعرهم . ثم ذهبوا الى ان (حمير) كانت تتكلم بلسان غريب عسده بعض العلماء غير عربي .^٢ مع انها من لبّ العرب الصرحاء على حسب رأيهم ، ولم يبينوا كيف وقع ذلك عندهم ، الى آخر ما نراه عندهم من آراء ، لم تبين على دراسات تأريخية اصلية ونصوص جاهلية .

ولو كان المذكورون احياء في هذا اليوم ، ولو كانوا قد وقفوا على النصوص الجاهلية المختلفة وقرأوها ، لغيروا رأيهم حتماً من غير ريب ، ولقالوا قولاً آخر غير قولهم المتقدم في العربية وفي سبب تسميتها . فعربية القرآن الكريم هي عربية اهل مكة وما والاها ، وهي عربية الاعراب ، اي عربية اهل البادية . اما عربية اهل اليمن ، وهم صلب القحطانية ، فعربية اخرى . وان اردت قولاً اصح تعبيراً وأدق تحديداً ، فقل : عربيات اخرى . فعربية يعرب ان تجوزت وجاريت رأي اهل الانساب والاختبار وقلت قولهم في وجود جدّ وهو يعرب ، يجب ان تكون عربية اخرى ، بل عربيات مخالفة لعربية اهل مكة ، وذلك استناداً الى النصوص الجاهلية المدونة بأقلام ابنائه وحفدته والواصلة الينا . ولما كانت اللغة العربية ، هي عربية القرآن الكريم في رأي علماء اللغة ، وهي عندهم وحدها اللغة الفصحى ، وأشرف لغات العرب ، اذن فلغة يعرب على هذا القياس لغة اعجمية غير عربية ، او عربية من الدرجات الدنيا ان اردنا التساهل في القول . وعندئذ يكون يعرب هو العربي المتعرب ، ويكون نسله على وفق هذا المنطق ، هم العرب المستعربة ، لا العرب العدنانيين .

ويكون العدنانيون هم أصل العرب ولبّتها والعرب العاربة الأولى ، أي عكس ما يراه ويزعمه اهل الاخبار . أحكي هذا القول بالطبع متجوزاً أو مجارياً رأي اهل الاخبار ولا أحكيه لأنني أراه ، فأنا لست من المؤمنين بمثل هذه الاقاصيص التي يقصها علينا القصّاص ، ولا سيما قصّاص اهل اليمن من امثال وهب بن منبه وابن اخته ، أو ابن الكلبي ، وبعض القصّاص الذين هم من اصل يهودي

١ تاج العروس (٣٧١/١) ، (عرب) .

٢ الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١٥/١ وما بعدها) .

مثل وهب المذكور ومحمد بن كعب القرظي . فرأسي أن كل لغات العرب الجاهلية هي لغات عريية ، وأنها كانت متباينة عديدة ، وبعضها لغات وصلت مرحلة التلويين مثل المعينية والسبئية والقبتانية والحضرية وغيرها . ولغات تصل الى درجة التلويين عند المتكلمين بها ، لا يمكن أن تعد لغات سوقة ولهجات عامة .

وبعد فلست أرى أن بين (يعرب) المزعوم ، وبين لفظة (العريية) والعرب أية رابطة أو صلة ، وأن الصلة المزعومة المذكورة التي يذكرها أهل الاخبار في تفسير اللفظة ، هي صلة خلقت خلقاً وصنعت صنعاً ، لكي يجد صانعوها لهم مخرجاً في تفسيرها ، وليس تفسيرهم هذا هو أول تفسير أوجدوه ، فلدينا مئات من التفسيرات المصنوعة ، لألفاظ أشكل أمرها على الرواة وأهل الاخبار ، فوضعوا لها تفسيرات على هذا النمط ، ليظهروا أنفسهم مظهر العالمين بكل شيء .

هذا وقد قلنا ان العريية هي بمعنى الاعرابية ، أي البداوة في لغة الأعاجم وفي لغات أهل جزيرة العرب أنفسهم ، وهي نسبة الى العرب ، والعرب هم الأعراب في البدو في لغات المذكورين . فتكون العريية اذن بمعنى عريية الاعراب : أي لغة أهل الوبر ، وقد نسبت اليها ، لا الى يعرب بن قحطان . وهي بالطبع لم تكن لهجة واحدة ، أي عريية واحدة ، بل كانت لهجات . قيل لها عريية ، لأن الاعراب وان كانوا قبائل ، تجمع بينهم رابطة واحدة ، هي رابطة البداوة ، فكأنهم طبقة واحدة ، تقابلهم طبقة (أهل المدر) ، وهم الحضر . لذلك نعت لسانهم بلسان عربي . ولما كانت البداوة أعم من الحضارة في بادية الشام وفي طرفي الهلال الخصيب ونجد والحجاز والعريية الشرقية ، صار لسانها اللسان الغالب في هذه الأرضين ، ولسانها نظم الشعراء شعرهم ، ولسان عرب الحجاز نزل القرآن الكريم ، فصار لسانهم لسان الوحي والاسلام .

ومن ثم صار اعتماد اوائل علماء العريية في دراستهم لقواعد اللغة من نحو وصرف ومن استشهاد بشواهد على (العرب) ، أي أهل الوبر من أبناء البادية ، من الاعراب المعروفين بصدق لسانهم وبصحة اعرابيتهم وبعدم تأثر ألسنتهم بالسنة الحضر من أهل الحواضر ، بل لم يكتف اولئك العلماء بالسنة هؤلاء الاعراب القادمين عليهم من البوادي ، لأسباب لا مجال لذكرها هنا ، فركبوا ابلهم وذهبوا بأنفسهم الى صميم البوادي البعيدة عن الحضر ، ليأخذوا اللغة صافية نقية من افواه رجالها الأصلاء الذين لم يتعلموا خدع أهل الحاضرة وغشهم وكذبهم ، ولم تنحرف

أستهم عن السنة أجدادهم ، ولم تتأثر بأحرف الأعاجم المندسين في القرى والمدن والأرياف . فكان (سيويه) مثلاً اذا استشهد بشاهد أشار الى أنه من (العرب الذين ترضى عريبتهم) أو من (العرب الموثوق بعريبتهم)^١ ، أو من (العرب الموثوق بهم) ، أو من (فصحاء العرب) . وكان يرى أن لسان اهل الحجاز هو (الأول والأقدم)^٢ . وكان علماء اللغة اذا اختلفوا في شيء من اللغة من ألفاظ أو قواعد ، حكّموا أهل البادية ، اي الأعراب فيما شجر بينهم من خلاف ، حتى وإن كان اولئك العلماء من اوثق الناس علماً بعلم العربية ، فحكموا الاعراب مثلاً في المناظرة اللغوية التي وقعت بين سيويه والكسائي والأخفش في حضرة (يحيى بن خالد) مع أنهم اعلم الناس بعلوم العربية^٣ . وقد اورد (ابن الديم) اسماء عدد من (الاعراب) كان علماء العربية يلجؤون اليهم في الملمات ، ويأخذون عنهم ، ويحكمونهم فيما يقع بينهم من خلاف . فهم (حكام) ذلك الزمن وقضاته ، يحكمون في منازعات الناس في اللغة .^٤

والحد الفاصل بين الحضارة والبداءة ، هو طراز الحياة ونوعها ، فالحضر اهل قرار . والاعراب ينتجعون ويتبعون مساقط الغيث يرعون الكلاً والعشب اذا اعشبت البلاد ، ويشربون (الكرع) وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع الى ان يهيج العشب من عام قابل وتنش الغدران ، فيرجعون الى محضرهم على إعداد المياه .^٥ وحياتهم على الإبل فلا يعتنون بتربية ماشية غيرها . ومن هنا اقترنت البداءة بالبادية وتربية الإبل ، التي تنفرد عن غيرها من الحيوانات بقابليتها على المعيشة في البادية وبقوة صبرها على تحمل الجوع والعطش اياماً ، بينما تقصر هم الحيوانات الاخرى عن مجاراتها في هذا الباب . ومن هنا نقصد بالاعراب : البدو الحقيقيين ابناء البادية وأصحاب الجمال الذين ينتجعون ويتبعون مساقط الغيث ويشربون الكرع ويكون تماسهم بالحضارة والحضر قليلاً .^٦

-
- ١ الكتاب (٩٣/١ ، ١٥٣ ، ٤٥١) ، (٢٦٤/٢ ، ٤٢٣ ، ٤٥١) .
 - ٢ الكتاب (٤١/٢ ، ٤٢٤) ، يوهان فك ، العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، (ص ٥٠ وما بعدها) ، (تعريب عبد الحليم النجار) .
 - ٣ الفهرست (٨٢ وما بعدها) .
 - ٤ الفهرست (ص ٧١ وما بعدها) .
 - ٥ تاج العروس (٥١٩/٥) ، (نجع) .
 - ٦ De Vaux, Ancient Israel, P. 3.

وما أقوله بنحسُّ أعراب نجد وبادية الشام بالدرجة الأولى . أما أعراب العربية الجنوبية ، فإن وضعهم يختلف عن وضع هؤلاء الأعراب . فهم وإن عدّوا أعراباً ونُصّ عليهم بـ (أعرب) (أعراب) في نصوص المسند . لكنهم لم يكونوا أعراباً نقلاً ، يعيشون على تربية الإبل والغارات وعلى بعض الزراعة وكره الاشتغال بالحرف ، بل كانوا شبه مستقرين سكنوا خارج المدن والقرى في مستوطنات متجمعة مؤلفة من بيوت وأكواخ وعشش من طين . ومارسوا تربية الإبل والماشية الأخرى ، واشتغلوا بالزراعة وبالحرف اليدوية لم يجدوا في ذلك بأساً . وكانوا يغيرون على الحضر إن وجدوا فرصة مؤاتية ولم يكونوا اقوياء بالنسبة إلى الحضر ، لوجود حكومات منظمة ، في استطاعتها ضربهم إن تحرشوا بأهل المدن والقرى . ولهذا لا نجد للأعراب ذكراً في نصوص المسند القديمة ولم يظهر اسمهم فيها كقوة ضاربة إلا بعد الميلاد وقبيل الإسلام . حين ارتبك الوضع السياسي في العربية الجنوبية ، وتدخل الحبش في شؤونها ، وولع بعض ملوكها مثل الملك (شمر يهرعش) في إثارة الحروب . مما أفسح المجال للأعراب فجربوا حظهم بالدخول في لعب الحروب . فلما وجدوا لهم حظاً حسناً وربحاً طيباً ، مارسوها مع هذا الحاكم أو ذاك ، وظهر اسمهم عندئذ في المسند . بل دخل في اللقب الرسمي الذي حمله الملوك فصار اللقب : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في الهضاب وفي التهائم) . وطمع أعراب نجد في الحصول على مغنم في العربية الجنوبية فارتحلوا نحوها ، وزاد بذلك عدد الأعراب . ومن هؤلاء كندة الذين تركوا ديارهم بنجد بعد نكبتهم وانضموا إلى إخوانهم في العربية الجنوبية فصار لهم فيها شأن كبير ، حتى ذُكروا في النصوص ، ومنها نصوص أبرهة .

ومعاش الحضر ، على الأرض يزرعونها ويعيشون عليها ، أو على التجارة أو على الحرف اليدوية ونحوها . ومن طبيعة أهل الحضر الاستقرار في أرض تكون وطناً ثابتاً لهم ، ومقاماً يقيمون فيه فيحبونه ويموتون في سبيله . أما أهل الوب ، فهم رُحّل ، ينتقلون طلباً للماء والكأ والامتيار ، فوطنهم متنقل فلق غير مستقر . الأرض كلها وطنهم ، ولكنها الأرض التي يكونون فيها ، فإذا ما ارتحلوا عنها ، صارت الأرض الجديدة وطناً لهم جديداً . أما الأرض القديمة فتكون وطناً لمن يحل فيها من طارئ جديد أو طارئ قديم .

والمشهور عند العرب وعند الأعاجم ، أن العرب قوم يكرهون الزراعة والاشتغال

بالحرف والصناعات . ويستخفون بشأن من يشتغل بها ويزدرونه ، فلا يتزوجون منه ولا يزوجونه منهم . وينطبق هذا القول على الأعراب وعلى بعض الحضرة الى حد ما . لكنه لم ينطبق على كل العرب . فالعرب الحضرة ، الذين وجد الماء بغزارة عندهم ، غرسوا الأشجار أيضاً وزرعوا ، لم يجدوا في ذلك خسة ولا دناءة . والعرب الذين توفرت لهم مواد العمل وظروف العمل ، اشتغلوا بالحرف والصناعات ، كما هو شأن الطوائف والعربية الجنوبية بل وبعض رجال مكة أيضاً . أما الذين ازدروها وكرهوها فهم الذين لم تتوفر لهم الأسباب التي تغريهم على الاشتغال بالحرف والصناعات ، ولم تتوفر لديهم المواد الأولية ولا الظروف المساعدة على قيام الحرف . لذلك كرهوها كره من يكره شيئاً لأنه لا يملكه ولا يناله ، أو لأن يده لا تصل اليه ، ولو ملكه لغير حكمه عليه من غير شك .

وقد أشار (أمة بن خلف الهذلي) الى اشتغال أهل اليمن بالحرف ، بقوله :

يمانياً يظل يشدّ كيراً وينفخ دائماً لهب الشواظ^١

وقد أمدّ أهل اليمن الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب بالسيوف وبمصنوعات المعادن وبالبرد والأنسجة الأخرى . كما عرفوا باتقانهم البناء والتجارة وغير ذلك من حرف الحضرة ، التي أشير إليها في الشعر الجاهلي .

وقد عيب على أهل اليمن اشتغالهم بالحرف : كالحدادة والحياكة والصياغة وما شاكل ذلك من حرف ، على نحو ما تحدثت عن ذلك في فصل : (طبيعة العقلية العربية) . ولكنّ منّ عابهم كان عالة عليهم وعلى غيرهم من أهل الحرف في أكثر الأمور التي كانت تخصّ شؤون حياتهم اليومية ، كالسيوف والخنجر الجيدة مثلاً التي هي عماد المحافظة على حياة الإنسان في البادية . كما اعترف لهم بالتفوق على منّ كان يزدرى الصناعة والحرف . فكانوا يخافونهم في الحروب ، ويهابونهم عند القتال ، لا متلاكهم أسلحة لا يملكونها هم . وكانوا يلجئون اليهم لتنصيب رئيس منهم عليهم . تهابه القبائل لصعوبة انصياع القبائل لقيادة رئيس منها ، بسبب التحاسد القبلي ، كما كانوا يخضعون لحكم أهل اليمن بسبب تفوقهم عليهم في السلاح وفي الثقافة الى غير ذلك من أسباب ترجع في الواقع الى الطبيعة التي

١ تاج العروس (٣٧١/٩) ، (يمن) .

عظفت على اليمني وعلى العربي الجنوبي ، ففوقته على الاعراب .

ولما كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على جزيرة العرب ، كان لهذه الطبيعة أثرها في حياة العرب ، فغلبت البداوة على الاستقرار ، وأثرت في النظم والآراء السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية وفي سائر نواحي الحياة الأخرى . لقد حالت دون قيام المجتمعات الكبرى القائمة على الاستقرار والاستيطان واستغلال الأرض ، وجعلت من الصعب قيام الدول الكبيرة في هذه البلاد ، وتكوين حكومات تقوم على احترام حقوق جميع أبناء الحكومة دون نظر إلى البيوتات والعشائر والقبائل والرئاسات .

وفي الأماكن التي توافرت فيها المياه ، المياه النابعة من الأرض أو النازلة من السماء ، نشأت مجتمعات مستقرة ، وظهرت حكومات ، غير أنها حكومات تختلف طابعها وشكلها باختلاف المحيط الذي ظهرت فيه ، والأحوال الطبيعية التي ألت بها ، والقدرة المادية التي تيسرت لديها . فيها الحكومات الصغيرة التي قد تكون حكومات (قرية) ، أو رئاسات عشائر ، وفيها ما يمكن أن يعبر عنه بحكومات مدن ، إن جاز إطلاق مصطلح (المدن) عليها ، وفيها حكومات أكبر وأوسع مثل حكومات الحيرة والغساسنة ، وفيها حكومات مثل حكومات العرب الجنوبيين ، وهي حكومات كبيرة إذا قيست إلى الحكومات التي كونها سادات القبائل في أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، ولم تعمر طويلاً ، بل كانت مثل رغبة الصابون ، لا تكاد تنتفخ حتى تزول ، وذلك لأسباب وعوامل لا يتسع لها صدر هذا المكان .

فالتبيعة هي التي صيّرت العرب على هذا الحال ، وهي التي غلبت عليهم البداوة . إذ حرمتهم من الماء وجادت عليهم برمال تلفح الوحوه ، وبسموم مؤذية وبحرارة شديدة ، وبأرض متسعة تظهر وكأنها بحر من رمل لا حد له ، صيّرت من وُلد فيها انساناً قلقاً هائماً على وجهه ، ينتقل من مكان إلى مكان بحثاً عن ماء وأكل . خلا الأماكن السخية التي خرجت منها دموع جرت فوق الأرض بقدر وبمقدار ، أو مواضع قَرُبَ الماء فيها من سطح التربة فاستنبطه الانسان ، أو أماكن انهمرت من سمائها العاشقة للأرض دموع جبهها في مواسم من السنة فأصابت الأرض بطلّ ، فاستهوت الانسان ، واستقر بها وتحضر . وصار العرب من ثم بدواً وحضراً ، أهل بادية وأهل حاضرة .

ومن آيات ذلك ، أننا نجد قبيلة واحدة ، فيها بادية وفيها حاضرة ، استقرت وتحضرت وسكنت في بيوت ثابتة ، لا يهمنها أكانت بيوتها من صخر أو من حجر أو من مسلر أو من بيوت شعر ، إنما المهم أنها بيوت ثابتة ارتبطت بالأرض ، شعر قيطانها أن لهم صلة بهذه الأرض وأن لهم بها رابطة ، لا يحلّ عقدها إلا الموت أو الضرورات القصوى . فقريش حاضرة وبادية . وجهينة حضر ، أقاموا بينبع وقرية (الصفراء) ، وأعراب هبطوا رضوى و (عزور)^١ . و (همدان) حاضرة وبادية . ونهد حضر ، وهم من سكن الصفراء منهم ، وأهل وبر ، وهم من سكن دون المدر في جبلي رضوى وعزور^٢ . وتنوخ حضر ، وتنوخ أهل بادية وتنقل . إلى غير ذلك من قبائل ، استقرت أحياء منها ، وتبدت أحياء أخرى منها .

ثم إننا نجد قرى متشرة في مواضع من العربية الغربية وفي نجد والعربية الشرقية أو العربية الجنوبية ، وقد سكنها قوم عرب حضر زرعوا وحفروا لهم الآبار وتعملوا العيون بالرعاية ليستفيدوا من مياهها ، وجاءوا بأشجار من الخارج لزرعها هناك . وفي كتب (الهمداني) و (عرام) ، وكتب غيرهما من بحث عن جزيرة العرب أسماء قرى ومدن جاهلية ، كانت ذات مزارع وحدائق ، أما اليوم ، فبعضها أثر ، وبعض منها قد زال وذهب مع الذاهبين ، لم يترك له حتى بقية من أثر . وتلك المواضع هي دليل في حد ذاته على أن الماء إذا وجد في مكان ما أكره سكانه على الاستقرار به ، وأجبر قسماً من أهله على الاشتغال بالزراعة . ولم ينضب الماء من تلقاء نفسه عن المواضع التي اندثرت وماتت وإنما وقعت أحداث لا مجال لي للبحث عنها في هذا المكان ، ومنها الهجرة إلى خارج جزيرة العرب بالفتح وتحول الطرق التجارية العامة وإعراض الحكومات عن الاهتمام بشؤون جزيرة العرب ونحوها ، فأكرهت السكان على الارتحال عنها ، فأهملت آبارها وترستها الرمال فجفت وذهب ماؤها عنها .

وفي تلك المواضع التي توفرت فيها المياح من مطر وعيون وآبار ومياه جوفية

١ بفتح العين وسكون الزاي وفتح الواو ، اللسان (٥٦٣/٤) ، (عزر) ، عرام ،

أسماء جبال تهامة (٨ وما بعدها) .

٢ عرام (٧) .

قريسة من سطح الأرض ظهرت الحضارة على شكل قرى ومستوطنات وأسواق موسمية ، كان لها كلها أثر خطير في حياة العرب عموماً من عرب وأعراب . لما كان يقع فيها من اتصال ومن تبادل آراء بين الحضري والبدوي ، وبين هؤلاء جميعاً وبين الأعاجم الذين كانوا يؤمنونها للتجار بها بصورة مؤقتة أو دائمة ، حيث كانوا يقيمون بها إقامة طويلة أو أبدية ، وبالأعاجم الذين كانوا يقيمون فيها رقيقاً مملوكاً لمن اشتراهم من الملاكين . وبذلك حدث نوع من التلقيح في الآراء والأفكار وفي شؤون الحياة : تلقيح مهما قيل فيه وفي درجته ، فإنه تلقيح على كل حال ^١ . وهذه المواضع هي التي كونت وخلقت تأريخ العرب فيما قبل الإسلام .

وقد نسبته (الجاحظ) الى الاختلاف بين البدوي والحضري ، والسهلي والجبلي ، فأشار الى اختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، والى اختلاف ما بين من نزل البطون وبين من نزل الحزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار ، ثم الى ما ترك هذا الاختلاف في المواضع والمكان من أثر في اختلاف اللغة ، فتخالفت عليها تميم ، وسفلى قيس ، وعجز هوازن وفصحاء الحجاز في اللغة . وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان مخاليف اليمن . (وكذلك في الصورة والشئائل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربي خالص) . وأشار الى ما تركه هذا السكن من أثر في أخلاق العرب ، حتى يقال : (إن هذيلاً أكراد العرب) ^٢ . بسبب طباعهم وصبرهم على تحمل القتال .

كما أشار (الجاحظ) الى ان هذا الاختلاف ظاهر في العرب جميعاً ، قحطانيين وعدنانيين . ومع ذلك فهم كلهم عرب ، لأنهم استووا في التربة وفي اللغة والشئائل والهمة وفي الأنفة والحمية ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا أفرغاً واحداً ^٣ .

وكان من أثر اختلاف طبيعة الجو والأرض والضغط الجوية في أهل جزيرة العرب ، ان صار لأهل المدر مجتمع يختلف في شكله وتكوينه عن مجتمع أهل الوبر ، وان صار مجتمع أهل المدر جملة مجتمعات اختلفت في تكوينها باختلاف

^١ Hastings, Dictionary of the Bible I, P. 133.

^٢ رسائل الجاحظ (١٠/١ ، ٧١) ، (مناقب الترك) .

^٣ رسائل الجاحظ (١٠/١ وما بعدها) ، (مناقب الترك) .

الظروف المؤثرة التي تحدث عنها ، وباختلاف المؤثرات الخارجية المحيطة بها أو المجاورة لها والقريبة منها في ظروف تلك المجتمعات . وصار من ثم مجتمع العرب الجنوبيين ، ولا سيما مجتمع اليمن ، مجتمعاً خاصاً له طبيعة خاصة وشخصية مستقلة متأثرة بظروف اليمن الكلية من طبيعة أرض وطبيعة جو ، وصار لأهل مكة وهم أشبه بأهل الحضر مجتمع خاص له طابع متميز ، وصار لأهل الحيرة طابع خاص ، وصار لأهل يثرب كذلك مجتمع وطبيعة خاصة متميزة ، وهكذا قل عن بقية المجتمعات الحضرية .

فمجتمع اليمن مثلاً مجتمع خاص نجد فيه صفات المجتمع الحضري أكثر مما نراه في أي مجتمع حضري آخر في جزيرة العرب ، مجتمع يختلف حتى (عربه) أي بدوه وهم الطبقة الثانية من هذا المجتمع ، عن أعراب بقية جزيرة العرب . فهم بالقياس إلى بدو الجزيرة شبه أعراب ، ووسط بين البداوة والصرفة وبين أدنى درجات الحياة الحضرية الساذجة ، المستندة إلى الاستقرار والتعلق بالأرض . ومجتمع اليمن الحضري مجتمع استغل عقله ويده في سبيل تكييف حياته وإسعاد أيامه في الدنيا ، فاستغل الأرض وكيفها بحسب قدره واستعداداته في إنتاج الغلة الزراعية وفي إنتاج المعادن وفي تربية الحيوان ، وأقام له قصوراً وحصوناً ، واستورد آلات حية يستعملها وتيسر له ما يحتاج إليه - استوردها من كل الأنحاء من الشمال ومن العراق ومن بلاد الشام ، واستوردها من إفريقية . وسخرها في استغلال الأرض وفي إقامة الأبنية وفي أداء الأعمال اليدوية التي تحتاج إلى حلق ومهارة ، فتفوق هذا المجتمع من ثم وبمزايا إقليمية من جو وأرض على المجتمعات العربية الأخرى ، وأنتج حضارة لا نجد لها مثيلاً في بقية أنحاء جزيرة العرب .

فعرف اليمن في جاهليته واشتهر بمهارته وبحذقه بحرف ومنتجات بقي ذكرها خالداً إلى الإسلام ، وتميز عن غيره بحسن الذوق وبالبراعة في استعمال أنامله . وحين برع بقية عرب الجزيرة في التعبير عن أحاسيسهم بكلام منظوم ، نجد عرب اليمن وبقية العربية الجنوبية يعبرون عن أحاسيسهم بنقشها على المرمر وعلى بقية الأحجار وعلى المعادن والخشب ، ونجد السيوف اليمنية ، ولها شهرة وخبر ، ونجد بسط اليمن وبرودهم واكسيتهم مشهورة لها صيت في كل مكان ، لا يدانيه صيت أي صنف مما ينتج في مكان آخر من أمكنة جزيرة العرب ، ونجد لهم ذكراً في الصياغة وفي سوق الأحجار الكريمة والعطور ، وغير ذلك من المنتجات التي تحتاج إلى يد وفكر .

ومجتمع اليمن المتحضر ، مجتمع طبقي ، تكون من طبقات : طبقات رفيعة ذات منزلة ومكانة عالية ، تتلوها طبقات أخرى أقل درجة ومنزلة حتى تنتهي بالطبقات الدنيا التي تكون قاعدة لهرم هذا المجتمع وسواد الناس . وهي طبقات تكاد تكون مقفلة ، أو شبه مقفلة إن صح هذا التعبير ، ولا سيما بالقياس الى الطبقات الدنيا ، التي تجنبت الطبقات التي هي فوقها التصاهر معها والاتصال بها ، للفروق المتزلية التي تشعر بوجودها فيما بينها . ثم إن الناس فيها يرثون منازل آبائهم ودرجاتهم ، فابن النجار نجار ، وابن الحداد حداد في الغالب ، وابن التاجر يرث عمل والده ، ويستطيع تغيير حرفته وتحسين حاله ، إذ ليس لديهم قوانين الزامية تجبر الناس على البقاء في طبقتهم الى أبد الآبدين ، ولكن مثل هذا التغيير لا يقع إلا إذا كان الشخص ذا استعداد وكفاية وطموح ، فيشق طريقه بنفسه هاتكاً ستور الأعراف والعادات .

وما زالت الحياة الاجتماعية في العربية الجنوبية ، تستمد قوتها وحياتها من جذور الحياة الاجتماعية القديمة التي كانت عليها قبل الإسلام . فقد نشأت هذه الحياة ونبتت من حاصل ظروف ذلك المجتمع الذي تحدثت عنه ، وحافظ على خصائصه الى هذا اليوم ، لأنه عاش في عزلة عن العالم الخارجي ، أو في شبه عزلة ، ولهذا بقي يعيش على ما تغذيه به بقايا جذور تلك الأيام من غذاء^١ .

والحضر ، وإن استوطنوا واستقروا في أماكن ثابتة ، لم يكونوا حضراً بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا ، فلم يكونوا على شاكله حضر الروم أو الفرس ، ولا على شاكله حضر العراق أو حضر بلاد الشام من غير العرب . انهم حضر من ناحية السكنى والاستقرار ، أي من ناحية تعلقهم بالأرض ونزولهم بها واستيطانهم فيها ، وعدم ارتحالهم عنها على نحو ما يفعل الأعراب ، واتخاذهم مساكن دائمة في مكان ما . أما من ناحية التفكير وطرز المعيشة ونظم الحياة الاجتماعية : فقد بقوا مخلصين لمُثل البوادي ولطبيعتها في الحياة . فهم في قراهم ومدنهم (بيوت) و (بطون) ، يقيمون في (شعاب) ولهم عصبية . وهم مثل الأعراب في أكثر مألوف حياتهم . وما زال هذا الطابع الأعرابي بادياً على حياة من نسميهم الحضر في جزيرة العرب وفي خارجها ، مؤثراً في حياتهم السياسية والاجتماعية بل

في عقلية من نسميهم (المثقفين) الدارسين من مدنيين وعسكريين ، ذلك لأن عقول هؤلاء المثقفين وإن حُشيت بالمعلومات وبالعلوم ، لم تتمكن مع ذلك من التخلص من إرث البداوة المستمدة من طبيعة الجو وأثرها في الناس ، في الماضي السحيق وفي الحاضر ، ومن طبيعة المجتمع الذي خلقت هذه الطبيعة وجبلت الناس عليه . ومن أهم صفاته : العنجهية ، والتغني بذكرات الماضي : والابتعاد عن الواقع وعن مشكلات الحياة العلمية ، واللجوء الى العواطف والخيال ، والاسراف في تمجيد النفس الى حد أدى الى ازدياد كل ما هو غير عربي من إنسان ومن نتاج إنسان . أضف اليها (العصبية) بأنواعها : العصبية للأهل والعصبية للعشيرة ثم القبيلة فالخلف في حالة الأعرابية ، والعصبية للأهل والبيوت والشعاب ثم للقرية أو المدينة والقبيلة التي يرجع أهل القرى نسبهم اليها في الأخير ، وذلك بالنسبة الى أهل المدن . ثم الفردية المفرطة التي جعلت من الصعب على الفرد الانقياد لغيره والخضوع لأحد إلا اذا وجد نفسه أمام مصلحة خاصة أو أمام قوة ، ذلك لأنه يرى نفسه أشرف الناس ، وان من المذلة خضوعه لحكم أحد ، ولا سيما اذا كان من يحكمه من أناس هم دون أهله ، ومن عشيرة دون عشيرته . ثم ليس هو من أهل الجاه ولا من أهل المال ، فكيف يسلم أمره اليه ؟

الرعاة :

وندخل في الحضرة الرعاة : رعاة الغنم والمغز والبقر ، ذلك لأنهم اضطروا بحكم طبيعة حياة حيواناتهم الى شيء من الاستقرار ، والى عدم التنقل مسافات بعيدة طويلة في البوادي على نحو ما يفعل الأعراب . ثم انهم يعيشون على الآبار وبرك الماء وعلى مقربة من الحضرة ، وفي وضع يجعلهم شبه مستقرين في أكثر أيام حياتهم . وهم (أعراب الضواحي) ، وعنصر مهم من عناصر تكون القرى والمستوطنات ، إذ ان قربهم من الحضرة واعتماد حياتهم عليهم ، يجعلهم على التأثير بهم ، وعلى التقرب منهم ومن مستوطناتهم . فتصير (الخيمة) بيتاً مستقراً ، ثم تصير (كوخاً) من طين أو من أغصان شجر ، ثم تتحول بيتاً من بيوت قرية أو حي من أحياء مدينة ، لما في المدينة من وسائل معاشية تستهوي الناس ، لا تنوافر في الضواحي البعيدة ، فتحول الرعاة قطان مدن .

ولا يشترط في الرعاة الاقتصار في حياتهم على تربية الغنم ، إذ فيهم من يربي الإبل أيضاً ، وهم (رعاة الإبل)^١ . والفرق الوحيد بينهم وبين الأعراب وهم رعاة الإبل ، ان الرعاة يلزمون أرضهم وإذا تنقلوا طلباً للماء والكلاً فلا يذهبون الى مسافات بعيدة ولا يمعنون في اختراق البوادي ، لأنهم لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ولا يستطيعون الاكتفاء بكلاً البادية لوجود ماشية أخرى عندهم لا تستطيع الصبر على الجوع طويلاً ، كما ان اتصالهم بالحضر أكثر من اتصال الأعراب بهم . ومنازلهم هي في الغالب خليط من بيوت مدر ومن بيوت وبر . ولكنها ثابتة على العموم وحياتهم وسط بين البداوة والحضارة . والأرض التي يقيمون بها تكون ذات آبار وعيون ومتجمعات أمطار ، وهم لا يتعدون عنها كثيراً ولا يفارقونها لارتباط معيشتهم بها . بينما تكون حياة الأعراب على الغيث في الغالب ، وعلى الآبار والتنقل .

وفي العربية لفظة (جشر) . ذكر علماء اللغة انها تعني القوم يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون بيوتهم . والقوم يخرجون بدوابهم الى المرعى ويبستون مكانهم لا يأوون البيوت . والمال الذي يرعى في مكانه لا يرجع الى أهله بالليل . وان تخرج بخيلك فترعاها أمام بيتك^٢ . الى آخر ذلك من معان تدل على ان الجش رعاة يخرجون الى المجاشر ، أي المراعي لرعي إبلهم أو خيلهم بعض الوقت ، اذا شبت إبلهم واكتفت ، عادوا بها الى بيوتهم فأقاموا بها .

الأعراب :

أما أهل الوبر ، وهم الأعراب ، فحياتهم حياة تنقل وارتحال ، وعماد حياتهم (الإبل) ، ولولا هذا الحيوان الصبور لما تمكن الاعرابي أن يقهر البوادي ، وأن يوسع تنقله في أنحائها ، وأن يعيش في هذه الأرضين المقفرة الشحيحة التي يشح فيها سقوط المطر ، ويضطر الانسان فيها الى ضرب الأرض بأرجل جماله بحثاً عن الكلاً والماء . ولهذا صار (الجمل) (المال) الوحيد الذي يملكه

١ تاج العروس (١٥٢/١٠) ، (رعي) .

٢ اللسان (٢٠٧/٥) ، تاج العروس (١٠٠/٣) ، (جشر) .

الأعرابي ، به يقدر الأسعار ، وبه يقدر (الصِّداق) و ثراء الإنسان .

وقد سبق لي أن تحدثت عن معنى (عرب) ، وعن المراد منها الى قبيل الاسلام ، فلا حاجة لي هنا الى اعادة الكلام عن شيء سبق ان تكلمت عنه . أما مصطلح (أهل الوبر) ، فعناه (عرب) ، أي أعراب بالمعنى الجاهلي القديم . وذلك لأن الأعراب قوم نقل ، ينتقلون من مكان الى مكان ، حاملين بيوتهم وما يملكونه معهم ، وبيوتهم هي الخيام ، وهي مصنوعة من (الوبر) : وبر الإبل في الغالب ، ولذلك عرفوا بها^١ . وعرفوا في الموارد اليونانية بـ (أهل الخيام) وبـ (سكنة الخيام) ، وقد استعمل أعراب العراق وبادية الشام وأعراب بلاد الشام الخيام المصنوعة من شعر الماعز ، وهي خيام لونها السواد ، وقد أشير إليها في التوراة وفي موارد تأريخية أخرى .

وذكر علماء اللغة ان العرب : سكان القرى والمدن أي الحضر، أهل الحاضرة . أما الأعراب ، فهم سكان البادية من هذا الجبل . ويقال للرجل أعرابياً اذا كان بدوياً همه البحث عن الكلأ وتتبع الغيث والرعي . وأما من ينزل الريف ويستوطن القرى والمدن ، فهو عربي ، وان كان دون الأعراب في الفصاحة وفي سلامة اللغة . ويقال للأعراب (الأعراب) ، وذلك جمع للأعراب . فالأعرابي البدوي ، وهو صاحب نجعة وانتواء وارتباد للكلأ ، وتتبع لمساقط الغيث ، وسواء كان من العرب أو من مواليهم^٢ . ومن نزل البادية ، أو حاور البادين وظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم : فهم أعراب . ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي الى العرب : فهم عرب ، وان لم يكونوا فصحاء^٣ .

ويذكر علماء اللغة ان البادية من البروز والظهور . قيل للبرية لكونها ظاهرة بارزة . وان البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها ، وهي خلاف الحاضرة

- ١ تاج العروس (٥٩٤/٣) ، (وبر) .
- ٢ روح المعاني ، للألوسي (٤/١١) ، (المنيرية) ، اللسان (٥٨٦/١) ، (صادر) (عرب) .
- ٣ اللسان (٥٨٦/١) (صادر) ، (عرب) ، تاج العروس (٣٧١/١) ، (عرب) .

والخضارة . وقيل لسكان البادية البدو والبداة^١ . ومن هذا الأصل جاءت لفظة (Bedouin) في الإنكليزية وفي عدد من اللغات الأوربية الأخرى ، بمعنى أعراب .

والأعرابي بالمعنى العلمي المفهوم من اللفظة ، هو — كما قلت قبل قليل — المتبدي ، أي الذي قطن البادية وعاش معظم حياته فيها وانقطع معظم حياته عن القرى والمدن . مكثفاً باتخاذ الإبل شريكة له في حياته هذه . قاطعاً البوادي الجافة التي يقل معدل سقوط الأمطار فيها عن (٤) عقد في السنة ، للبحث عن الكلأ والماء^٢ . قانعاً بحياته التي يحياها والتي أحبها وتعلق بها على ما فيها من قساوة وضراوة وفقر وشح في العيش . حتى صار لا يفارقها لأنه ولد بها . فهو لا يعرف دنيا غيرها ، ولا يعرف ان في الدنيا مكاناً أطيب من وطنه الذي يعيش فيه . وكل مولود على ما يولد عليه .

وتعيش بين الحضر والبادية قبائل ، صيرتها اقامتها بين العالمين عالماً وسطاً ، لا هو مجتمع حضري ولا هو بدوي أصيل ، حافظ على خصائصه البدوية الموروثة من البادية ، واكتسب باحتكاكه بالحضر ما يلائم طبيعه وما فرضه عليه محيطه الجديد من حياة أهل الحضر . فصار يزرع بعض الزرع ويرعى البقر والخيول والأغنام والماعز ويأتي الى القرى والمدن للامتياز ، ويستخدم مواد لا يستخدمها الأعراب لعدم وجود حاجة لهم بها ، ولققرهم الذي لا يسمح لهم بشرائها ، وأخذ يبيع لأهل الحضارة ما يفيض عن حاجته من الألبان والزبد والجلود والأصواف والحيوانات . فأهل هذا العالم إذن هم عالم وسط عالين ، وقنطرة تربط بين العتبة الأولى من عتبات الحضارة والدرجة الأولى من درجات البداوة . ونخير مثل على هؤلاء هم عرب مشارف الشام ، وعرب مشارف العراق . ويراد بالمشارف القرى والمستوطنات والمضارب القائمة على ما بين بلاد الريف وبين البوادي^٣ .

و (الريف) في رأي بعض علماء اللغة الخصب والسعة في المأكل والمشرب وما قارب الماء من الأرض . أو حيث يكون الحضر والمياه والزرع . ولهذا قيل : (تريف) اذا حضر القرى وهي المياه ، و (راف البدوي) يريف

١ De Vauk A 3:

٢ تاج العروس (٣٢/١٠) ، (بدا) ، (١) .

٣ تاج العروس (١٥٤/٦) ، (شرف) ، (١) .

إذا أتى الريف . ومن هنا عرف البدوي بأنه جَوَّابٌ بِيْدَاءٍ ، لا يأكل البقل ولا يريف^١ .

وورد في الحديث : (كُنَّا أَهْلَ ضَرْعٍ وَلَمْ نَكُنْ أَهْلَ رَيْفٍ . أَيِ إِنْنا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لَا مِنْ أَهْلِ الْمَدَنِ)^٢ . ولكن المفهوم من لفظة (ضَرْع) ، أنها لفظة تطلق على الماشية ذوات الظلف والحف ، أو للشاء والبقر^٣ ، ولهذا فيجب تفسيرها ، بإننا من أهل ذوات الظلف والحف ، أي من الرعاة لا أهل الزرع ، والرعاة هم قُطَّانُ المِشَارِفِ ، القريبين من القرى والريف ، ولا يقيمون في البادية ، لأن الشاء والبقر وبقية الماشية باستثناء الإبل لا تعيش في البادية وإنما ترعى الأماكن الخصبية من الماء والريف .

والحاضرة خلاف البادية ، وهي القرى والمدن والريف ، سموا بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار . وذكر أن كل من نزل على ماءٍ عدّ ولم يتحول عنه شتاءً ولا صيفاً ، فهو حاضر ، سواء نزلوا في القرى والأرياف وبيوت المدر أو بنوا الأخبية عند المياه فقرّوا بها ورعوا ما حوالها من الكلاً . ولهذا قالوا : الحاضر : القوم نزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه . وقد يكون ذلك في البوادي . إذ يقيمون حول بئر أو ماء دائم ، ولا يرحلون عنه . فهذا نوع من أنواع الحاضرة في جزيرة العرب^٤ . وهم بهذا حضر جزيرة العرب ، فهم سكان مستوطنات صغيرة ظهرت في مواضع الماء وعند مفترق الطرق ، في هذه البوادي الجافة الواسعة .

وفي هذه الحواضر التي أسعفها الحظ بالماء ، ظهرت مجتمعات متحضرة ، أي مستقرة ، استفادت من الماء فبنت بعض البيوت وزرعت بعض النخيل والأشجار . ومقياس هذه الحواضر ، هو الماء . فإذا وجد بغزارة أو كان قريباً من سطح الأرض توسعت به رقعة الحضارة ، بمقدار سعة الماء وسعد الناس بالعيش في بيوت

١ جواب بِيْدَاءٍ بها غروف لا يأكل البقل ولا يريف

ولا يرى في بيته القليل

اللسان (١٢٨/٩ وما بعدها) ، (ريف) ، تاج العروس (١٢٣/٦) ، (تريف) .

٢ اللسان (١٢٨/٩) ، (ريف) .

٣ اللسان (٢٣/٨) ، (ضرع) ، تاج العروس (٤٣٠/٥) ، (ضرع) .

٤ اللسان (١٩٧/٤ وما بعدها) ، (حضر) .

مستقرة دائمة ثابتة ، أما اذا كانت الارض ضشحيحة بخيلة ، لا تسعف من يعيش فوقها بماء ، فان الانسان يتحاشاها بالطبع ويبتعد عنها خلال أيام الغيث . وحواضر البوادي هي المواضع التي يجب أن نوجه اليها أنظارنا للبحث فيها عما قد يكون الدهر قد خبأه فيها من كنوز وآثار . وهي منتشرة في مواضع عديدة من جزيرة العرب ، لا سيما عند الأودية وقرب الحسي والجعافر والعيون .

و (عرب الضاحية) أو (عرب الضواحي) ، هم العرب النازلون بظواهر الريف والحضارة و بظواهر البادية . و (الضاحية) الظاهرة الخارجة من الشيء التي لا حائل دونها ، و (الضامنة) ما أطاف بالشيء مثل سور المدينة ، أي ما كان داخل شيء . وضواحي الروم : ما ظهر من بلادهم وبرز .^١ ويراد بـ (عرب الضاحية) ، عرب مشارف العراق وعرب مشارف الشام ، لأنهم أقاموا ضواحي العراق وبلاد الشام ، وعلى تخوم البادية .^٢ وقد تأثر أكثر الاعراب الساكنين بأطراف الحضارة وبأخلاق الحضرة ، ودخلوا مثلهم في النصرانية ، بحكم تأثيرهم بهم وبعوامل التبشير والسياسة ، الا أن نصرانيتهم كانت نصرانية أعرابية مكيفة بالعقيدة الوثنية الموروثة من السنين الماضية التي كونتها طبيعة البداوة في عقلية أهل الجاهلية .

وسوف نجد في بحثنا عن اللغة ، أن لغة (أهل المشارف) أو (أهل الضواحي) و (عرب الارياف) ، قد تأثرت بلهجات (إرم) العراق وبلاد الشام ، فظهرت في لغتهم رطانة ، وبرزت فيها ألفاظ ارمية وأعجمية ، وانحازت في النطق بعض الانحياز عن عرييات أهل البوادي ، وكتبوا بقلم نبطي وبلهجات عربية ، لا تقرّها عربية القرآن الكريم ، التي صارت لسان الاسلام . ولهذا حذر علماء اللغة من الاستشهاد بشعر شعراء القرى والريف وأهل المشارف والضواحي ، لاعوجاج لسانهم بالنسبة الى لسان الاسلام .

فأعراب الضواحي ، أو عرب الضاحية ، هم أعراب أيضاً ، لكنهم لم يعزلوا أنفسهم عن العالم الخارجي ، وانما عاشوا على مقربة منه ومن مواطن الحضرة ، فصار حالهم أحسن من حال الاعراب الأقحاح ، وارتفع مستواهم العقلي عن أولئك

١ اللسان (١٤/٤٧٤ وما بعدها) ، (ضحا) .

٢ تاريخ الطبري (٣/٣٥٣) ، (ذكر وقعة الولجة) .

المعنين في حياة الاعرابية . سبب اتصالهم بالأجانب وأخذهم عنهم واحتكاكهم بالحضر ، الذين هم ارقى من الاعراب بكثير . فأخذوا عنهم وتعلموا منهم أشياء كثيرة ، من مادية ومعنوية . سأحدث عنها في المواضع المناسبة من أجزاء هذا الكتاب .

وقد عرفت الارض التي تقع بين الفرات وبين برية العرب بـ (العبر) قال علماء اللغة : (والعبر بالكسر ما أخذ على غربي الفرات الى برية العرب) . لأنها المعبر الذي يعبر عليه للوصول الى البادية ، أو الدخول من البادية الى الفرات . وقد تكونت بها قرى عربية لعبت دوراً مهماً في تأريخ العراق لموقعها العسكري المهم ، ولأنها الخط الامامي الذي كان يواجه الاعراب الغزاة ومن كان يحكم بلاد الشام من حكام . ولكونه المنطلق الذي تنطلق منه الجيوش التي تريد غزو بلاد الشام ، أو صد القوات الزاحفة على العراق من الغرب .

والبسداوة هي التي أمدت العراق وبلاد الشام وسائر جزيرة العرب بالحضر ، فقد كان الاعراب يأتون الحواضر وينبشون هناك ، ويستقرون ثم يتحولون الى حضر . لذلك تكون البادية المنبع الذي يغذي تلك الارضين بالعرب الحضر .

عيب الجاهلية :

ولقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن العقلية العربية بصفة عامة : عقلية العرب أي الحضر وعقلية الاعراب . وأعود في هذا الموضع الى الحديث عن عقلية الاعراب وما رماهم به أهل الحضر من الغلظة والجفاء والجهالة والعنجهية والكبر الى غير ذلك من نعوت عرفت عند العلماء بـ (عيب الجاهلية) . وذلك لما لهذه العيبة من صلة بهذا الموضوع في هذا المكان .

واذا اردت الوقوف على عنجهية الجاهلية وتكبر سادات القبائل وعلى نظرتهم الى من هم دونهم في ذلك الوقت ، فخذ ما روي من قصة وقعت لمعاوية بن أبي سفيان على ما يرويه أهل الاخبار . فقد روي أن الرسول أمر معاوية بانزال (وائل بن حجر) الحضرمي متزلاً بالحرة ، فشى معه ووائل راكب وكان

النهار حاراً شديداً الحرارة . فقال له معاوية : ألق اليّ نعلك ، قال : لا ، اني لم اكن لألبسها وقد لبستها . قال فأردفني ، قال : لست من أرداف الملوك . : قال : ان الرمضاء قد أحرقت قدمي ، قال : لا يبلغ اهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك . ولكن ان شئت قصرت عليك ناقي فسرت في ظلها . فأتى معاوية النبيّ ، فأنبأه . فقال : (ان فيه لعُبيّة من عُبيّة الجاهلية) .^١

و (العُبيّة) الكبر والفخر . (وعُبيّة الجاهلية : نخوتها . وفي الحديث : ان الله وضع عنكم عُبيّة الجاهلية ، وتعظمها بأبائها ، يعني الكبر) . وقد وصفت (قريش) ونعتت بتكبرها حتى قيل : (هذه عُبيّة قريش) .^٢ ونجد في القرآن الكريم اشارات الى عيبة زعماء قريش وفخرهم على غيرهم بالآباء وبالأحساب وبأمور لا تستوجب فخر مفاخر ، لانها لا تتناول عمل انسان ليحمد أو لينمّ عليه . وقد ذمها الاسلام ونهى المسلمين عن عيبة الجاهليين .

ونظراً الى ما للبداوة من فقر وقساوة وغلظ في المعاش ، ومن ضيق أفق في المدارك وقصر نظر في شؤون هذا العالم الخارجي وفي فهم الحياة - نظر العربي الى الاعرابي نظرة استجهاًل وازدراء ، ونظر الى نفسه نظرة فيها علو واستعلاء . فورد أن الاعرابي اذا قيل له : يا عربي . فرح بذلك وهشّ له ، والعربي اذا قيل له : يا اعرابي ! غضب له .^٣ لما بين الحياتين من فروق وتضاد . فقد جبلت البادية ابناءها على أن يكونوا غرباء عن العالم الحضري وعن عقلية أهل القرى والمدن . متغطرسين مغرورين على فقرهم وفقر من يحيط بهم . فخورين بأنفسهم الى حدّ الزهو والاعجاب والخروج عن الحدّ ، فكانوا اذا تكلموا رفعوا اصوتهم ، وظهرت الحشونة في كلماتهم ، واذا تعاملوا مع غيرهم ظهر الحذر عليهم ، خشية الغدر بهم . ولهذا قال الحضري : (اعرابي جلف) ، أي جاف .^٤ وفي الحديث : (من بدا جفا) ، أي غلظ طبعه لقلة مخالطة الناس .^٥ وقالوا : (اعرابي قح) و (اعرابي قُحاح) ، وهو الذي لم يدخل الامصار ولم يختلط

-
- ١ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٩ وما بعدها) ، (وفد حضرموت) .
 - ٢ تاج العروس (١/٥٧٤ وما بعدها) ، (عيب) .
 - ٣ اللسان (١/٥٨٦) ، (صادر) ، (عرب) .
 - ٤ تاج العروس (٦/٦٠) ، (جلف) .
 - ٥ تاج العروس (٦/٧٤) ، (جفا) .

بأهلها .^١ ولهذا الخشونة التي خلقتها طبيعة البادية في الاعرابي ، وهو لا دخل له بها بالطبع ، كما انه لا يشعر بها ولا يرى أن فيه شيئاً منها ، كان العرب اذا تحدثوا عن شخص فيه عنجهية وخشونة ، قالوا عنه : فيه اعرابية . كالذي ذكروه مثلاً عن (عينة بن حصن الفزاري) ، من أنه كان أحق مطاعاً ، دخل على النبي من غير اذن وأساء الأدب فصبر النبي (على جفوته وأعرايته) .^٢ الى غير ذلك من نعوت تصف الاعرابي بالغلظ والقسوة والانانية وما شاكل ذلك من نعوت تحدثت عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وهي حاصل هذا المحيط الذي ولد فيه وعاش ، والظروف التي ألمت به ، فعزلته عن العالم الخارجي ، وأبعدته عن التحسس بتنوع مظاهر الطبيعة وبتغيرها ، فلم ير الثلج في حياته وهو يتساقط من السماء . ولم يتعود على رؤية الامطار وهي تتساقط عليه على نحو ما يقع في عالم أوربة أو في البلاد الحارة ذات الامطار الموسمية الواضحة ، حتى يستفيد منها في استغلال ارضه ، ولم تعطه الطبيعة انهاراً ومياهاً جارية ، الى غير ذلك من امور تحدثت عنها اثناء كلامي على العقلية العربية في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ووصف الاعرابي بالجهل ، بل بالجهل المطبق . فهو وثني ولكنه لا يفهم شيئاً من امور الوثنية ، وهو نصراني ، لكنه نصراني بالاسم ، لا يعرف عن النصرانية في الغالب شيئاً ، وهو مسلم ولكنه لا يعرف عن الاسلام الا الاسم . ونجد في كتب اهل الاخبار والأدب قصصاً مضحكة يمثل هذا الجهل الذي رُمي به الاعراب في بعضه حق وفي بعضه باطل لأنه موضوع حمل عليهم حملاً للانتقاص منهم وليكون قصصاً وتفككةً وتسليّةً يتسلى بها الحضر في مجالسهم في اثناء قتلهم للوقت .

وهو حقود ، لا يرى ان يغفر ذنب من اساء اليه . بل يظل في نفسه حاقداً عليه حتى يأخذ بثأره منه . (قيل لاعرابي : أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسيء الى من أساء اليك ؟ فقال : بل يسرني أن أدرك الثأر وأدخل النار) .^٣

ويذكر ان الرسول كان يميز بين الاعراب وبين البادية ، وهم الذين كانوا

١ تاج العروس (٢٠٢/٢) ، (قح) .

٢ تاج العروس (٤٥/٦) ، (الف) .

٣ نهاية الأرب (٦٧/٦) .

يتزلون أطراف القارة (القارية) وحولهم . فلما أهدت (أم سنبله) الإسلامية لبناً الى بيت رسول الله ، أبت عائشة قبوله ، لأن الرسول قد نهى أهله عن قبول هدية اعرابي . وبينما كانت أم سنبله في بيته ، دخل رسول الله ، فقال : ما هذا ؟ قالت عائشة : يا رسول الله ، هذه أم سنبله أهدت لنا لبناً ، وكنت نهيئنا ان نقبل من أحد من الاعراب شيئاً . فقال رسول الله : خلوها ، فان أسلم ليسوا بأعراب ، هم أهل باديتنا .^١ ويفهم من هذا الخبر ، ان الرسول فرق بين العرب البادية المقيمين حول (القارية) أهل الحاضرة ، الذين هم على اتصال دائم بالحضر ، وبين الاعراب ، وهم البادون البعيدون عن أهل الحواضر . وهم الذين نهى الرسول عن قبول هدية منهم . وذلك بسبب جفائهم على ما يظهر ولأنهم لا يهدون شيئاً الا طمعوا في ردّ ما هو أكثر منهم لغلظ معاشهم وضيق تفكيرهم . وآية ذلك ما ورد عنهم في القرآن الكريم .

فأهل البادية المجاورون للحضر أنحف على النفس من الاعراب ، لتأثرهم بحياة الحضر . ولعل منهم من شارك أهل الحضر في التعاطي والتعامل . ونرى أهل الانخبار يروون ان أهل القرى كانوا اصحاب زرع ونخيل وفواكه ونخيل وشاء كثير ولابل ، يقيم حولهم أناس بادون . كالذي كان حول مكة ويثرب والطائف وقرى الحجاز واليمن وغير ذلك ، فان هؤلاء لم يكونوا اعراباً اي بدواً صرفاً ، هجروا الحواضر وأقاموا في البوادي البعيدة ، بل هم وسط بين الحضر وبين الاعراب . فأخلاقهم ألين من اخلاق الاعراب وطباعهم أرق . ويمكن الاعتماد عليهم نوعاً ما ، بينما لا يمكن الركون الى قول اعرابي .

وقد بلغ من استعلاء الحضر على أهل البادية ، ان الاعراب لما أرادوا التسمي بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا ، منعوا من ذلك ، فأعلموا ان لهم أسماء الاعراب لا أسماء المهاجرين ، وعليهم التسمي بها .^٢

والاعراب أهل منة ، اذا فعلوا معروفاً بقوا يتحدثون عنه ، ويمنّون بصنعه على من قدموه له . وهم يريدون منه صنع اضعاف ما صنعوه له . وهم خشنون اذا تكلموا رفعوا أصواتهم . وقد وتجنهم القرآن وأنبتهم لفعلهم هذا . فجاء فيه :

١ ابن سعد ، الطبقات (٢١٥/٨) .

٢ تفسير الطبري (٩/٢٦) .

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) ١ . وأمر المسلمين بالتأدب بأدب الاسلام . فقال : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك . ان انكر الاصوات لصوت الحمير .) ٢ وقد كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون أصواتهم ، فوعظهم الله ونهاهم عن ذلك ، يقول تعالى ذكره (يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله تتجهموا بالكلام وتغلظون له في الخطاب) ٣ .

وكان من خشونتهم وأعرابيتهم ان احدهم اذا جاء الرسول فوجده في حجرته نادى : يا محمد يا محمد ؟ وذكر ان وفداً من (تميم) وفد على رسول الله ، فوجده في حجرته ، ونادى مناديه : اخرج الينا يا محمد ؟ فان مدحنا زين وذمنا شين . او : يا محمد ! ان مدحي زين وان شتمي شين . فأنزل الله : (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون . ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم . والله غفور رحيم) ٤ .

وقد اتهم الأعرابي بماديته المفرطة وبطمعه الفظيع . فهو يحارب معك ، ثم ينقلب عليك ويصير مع خصمك ، اذا وجد ان في الجانب الثاني حلاوة ، وانه مستعد لاعطائه أكثر مما أعطيته . حاربوا مع الرسول ثم صاروا عليه وانتهبوا عسكره ، وجاؤوا اليه فعرضوا عليه الاسلام ، فلما أرادوا العودة الى بلادهم وهم مسلمون ، وجدوا رعاءً للرسول ، فانتهبوه وقتلوا حماته مع علمهم بأنه له ، وان انتهاب مال المسلم حرام ، فكيف بهم وهم ينتهبون مال رسول الله . وقد ندد القرآن الكريم بطمعهم في الآية : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا) . فهؤلاء قوم من بوادي العرب قدموا على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، المدينة ، طمعاً في الصدقات ، لا رغبة في الاسلام ، فسمّاهم الله تعالى

١ الحجرات ، الآية ٢ وما بعدها .

٢ لقمان ، الآية ١٩ .

٣ تفسير الطبري (٧٤/٢٦ وما بعدها) .

٤ الحجرات ، الآية ٤ ، تفسير الطبري (٧٦/٢٦ وما بعدها) .

الأعراب . ومثلهم الذين ذكرهم الله في سورة التوبة ، فقال : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً)^١ . وذكر عن (قتادة) قوله : (قالت الأعراب آمناً ، قل : لم تؤمنوا ، ولعمري ما عمت هذه الآية الأعراب . إن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكن إنما أنزلت في حي من أحياء الأعراب امتنوا باسلامهم على نبي الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فقال الله تعالى : لا تقولوا آمناً ولكن قولوا أسلمنا)^٢ . (وقال آخرون : قيل لهم ذلك لأنهم آمنوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، باسلامهم . فقال الله لنبيه ، صلى الله عليه وسلم : قل لهم لم تؤمنوا ولكن استسلمتم خوف السباء والقتل)^٣ .

ولا يعرف الأعرابي شيئاً غير القوة ولا يخضع إلا لسلطانها . وبموجب هذه النظرة بنى أصول الحق والعدل ، وما يتبعها من حقوق . كما سأحدث عن ذلك فيما بعد . وهو فخور بنفسه متباه بشجاعته ، لكنه لا يصبر اذا طال القتال وجد ، ولا يتحمل الوقوف طويلاً في ساحة المعركة ، لا سيما اذا شعر ان القتال غير متوازن ، وان أسلحة خصمه أمض وأقوى في القتال من أسلحته ، فيولي عندئذ الادبار ، ولا يرى في هروبه هذا من المعركة شيئاً ولا عيباً . وفي تأريخ معارك الجاهلية ولا سيما في معاركهم مع الأعاجم ومع القوات النظامية العربية أمثلة عديدة من هذا القبيل . ففي الحروب التي وقعت بين المسلمين والفرس أو الروم ، خذلت بعض القبائل المسلمين ، وتركتهن لما رأت جد القتال وان لا فائدة مادية ستحصل عليها منه . (وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لحم وجذام ، فلما رأوا جد القتال فرّوا ونجّوا الى ما كان قربهم من القرى ، وخذلوا المسلمين)^٤ . فرّوا وهربوا لأنهم وجدوا ان القتال قد طال وانه قتال جد ، ولا قبل للقبائل على القتال الطويل الشديد الجد . فاختاروا الهروب دون ان يفكروا في عقدتهم الذي عقدوه مع اخوانهم في الجنس على القتال معهم والاستمرار فيه حتى النهاية ، فلما نصر وإما هزيمة وموت وهلاك . ولكن طبيعة الأعراب لا تقيم

١ اللسان (٥٨٦/١) ، (عرب) .

٢ تفسير الطبري (٩٠/٢٦) .

٣ تفسير الطبري (٩٠/٢٦) .

٤ الطبري (٥٧١/٣) ، (دار المعارف) .

وزناً ولا تعطي أهمية للعقود في مثل هذه المواقف . إن رأت هواها في القتال قد تغير وتحول ، وإن الأمل في كسب مغنم قد تضاعف ، انسحبت منه بعذر قد يكون تافهاً وبغير عذر أيضاً . وقد لا تنسحب ، وإنما تبدل الجبهة ، بأن تذهب إلى الجانب الآخر فتحارب معه ، وتقاتل عندئذ من كانت تقاتل معه . لأنها وجدت أن الربح من هذا الجانب مضمون ، وإن ما ستنااله منه من فائدة أكثر . وذلك بعد مفاوضات سرية تجري بالطبع . وهذا ما أزعج الروم والفرس ، وجعلهم لا يطمثون إلى قتال العرب معهم وفي صفوفهم ، فرموهم بالغدر . فكانوا إذا كلفوهم بالحرب معهم عهدوا اليهم القيام فيها بأعمال حربية ثانوية ، أو الانفراد بحرب الأعراب الأعداء الذين هم من أنصار الجانب الآخر . فقد حدث مراراً أن هرب الأعراب من ساحة القتال حين سمرت نار الحرب ، وارتفع لهيبها ، فأحدث هروبهم هذا ارتباكاً في جانب من كان يقاتلون معه أدى إلى هزيمته هزيمة منكرة ، لما أحدثه فرارهم هذا من فجوة في صفوف المقاتلين . وقد أشارت إلى هذه الحوادث مؤلفات الكتاب اليونان واللاتين .

وهو صارم عبوس ، إذا ضحك ضحك بقدر ، وكأنه يدفع بصحكته هذه ضريبة فرضت عليه . يكره الدعابة ، ويرى فيها تبسلاً لا يليق صلوره من إنسان كريم . بقي هذا شأنه حتى في الإسلام . فلما وصف (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري) (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق) قال عنه : (كان امرأً صالحاً ، وقد كانت فيه دعابة)^١ . حتى أن من العلماء من عدّ (الدعابة) من الشوائب التي تنقص المروءة ، وتؤثر في صاحبها ، وتطعن فيه ، فلا تجعله أهلاً لأن يؤخذ عنه الحديث . أي جعلوه شخصاً غير موثوق به .

وقد بحث (غوستاف ليون) و (رينان) و (الأب لامانس) في عقلية الأعرابي . وما رأوه فيه من وجود (فردية) منطرفة عنده ، إلى درجة تجعله يقيس كل شيء بمقياس الفائدة التي يحصل عليها من ذلك الشيء . ثم ما وجلوه فيه في الوقت نفسه من خوفه من الأمان في القسوة ، ومن الأمان في القتل ، لما يلزمه من رد الفعل الذي سيحدث عند أعدائه ضده إذا تمكنوا منه ، ومن

١ نسب قریش (٢٧٨) .

نتائج الأخذ بالتأثر . كما بحثوا عن ميل الأعرابي الى المبالغة . المبالغة في كلامه والمبالغة في اعطائه اذا أعطى ، والمبالغة في مدح نفسه ، والتباهي بشجاعته وبكرمه وبشدة صبره الى غير ذلك ، مع وجود تناقض فيه بالنسبة الى دعاويه هذه . وهو يحب المديح كثيراً ، وهو على حد قولهم اذا اعطى ، صور ذلك غاية الجود ، ويبالغ فيه ، ويظل يذكره في كل وقت ويحب ان يطرأ عليه ، لا سيما اذا كان من شاعر وهو صحافي ومذيع ذلك الوقت^١ .

وللفوارق الموجودة بين العرب والأعراب ، بين الحضر وبين أهل البوادي رأى (الأزهري) وجوب التفريق بين الاثنين . إذ قال : (والذي لا يفرق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ، ربما تحامل على العرب ، بما يتأوله في هذه الآية . وهو لا يميز بين العرب والأعراب . ولا يجوز ان يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، إنما هم عرب ، لأنهم استوطنوا القرى العربية ، وسكنوا المدن . سواء منهم الناشئ بالبدو ، ثم استوطن القرى والناشئ بمكة ، ثم هاجر الى المدينة . فان لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم واقتنوا نعماً ورعوا مساقط الغيث بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة . قيل : قد تعربوا أي صاروا أعراباً بعد ما كانوا عرباً . وفي الحديث تمثل في خطبته مهاجر ليس بأعرابي . جعل المهاجر ضد الأعرابي . قال والأعراب ساكنو البادية من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا للحاجة . وقال أيضاً المستعربة عندي قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيأتهم وليسوا بصرحاء فيهم . وتعربوا مثل استعربوا^٢) . وقد ذهب هذا المذهب (ابن خلدون) ، إذ رأى ان الأعراب يختلفون عن العرب . ولذلك فإن ما أشار اليه (ابن خلدون) من ان العرب اذا دخلوا بلداً أسرع اليه الخراب انما قصد به الأعراب . لا العرب الحضر .

ولكي نكون منصفين في الأحكام عادلين غير ظالمين علينا التفريق بين الأعراب وبين العرب . فما يقال عن الأعراب يجب ألا يتخذ قاعدة عامة تطبق على العرب . لما بين العرب والأعراب من تباين في الحياة وفي النفسية والعقل . ثم علينا لكي

١ المشرق عدد (٢) سنة ١٩٣٢ (ص ١٠١ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣٧١ / ١) ، (عرب) .

نكون منصفين أيضاً ان نفرق بين عرب وعرب . لما أصاب عرب كل أرض من أرض العرب من أثر تركه الأجانب فيهم ، ومن امتزاج الأعاجم في العرب ودخولهم فيهم واندماجهم بهم حتى صاروا منهم تماماً . والامتزاج والاندماج يؤثران بالطبع في أخلاق أهل المنطقة التي وقعا فيها ، أضف الى ذلك عوامل البيئة والمحيط . ولهذا يرى المرء تبايناً بيناً بين عرب كل قطر ، تبايناً يللمسه حتى الغريب . فبين أهل العراق وأهل بلاد الشام العرب ، تباين وفروق في الملامح الجسمية وفي المظاهر العقلية والاجتماعية وغيرها ، مع انهم جميعاً عرب يفتخرون بانتسابهم الى العروبة . وبين عرب العربية الجنوبية وبين عرب عالية نجد فروق واضحة جلية . وهكذا قل عن بقية بلاد العرب . بل نجد هذا التباين أحياناً بين أجزاء قطر واحد . فاذا كان هذا هو ما نراه ونلمسه في الجاهلية وفي الإسلام ، فهل يجوز لأحد التحدث عن عقلية عامة جامعة تشمل كل العرب ؟

وقد أدرك المتقدمون علينا بالزمن اختلاف العرب في الصفات والشئائل ، فتحدثوا عن (حلم قريش) ، وعن لينها ورقة ذوقها وعن براعتها في التجارة ، وتحدثوا عن عمق تفكير أهل اليمن وعن اشتغالهم بالحكمة ، حتى قيل : الحكمة يمانية . وورد ان (علي بن أبي طالب) ، لما وافق على اختيار (أبي موسى الأشعري) ليكون ممثله في التحكيم ، قال له (أبو الأسود الدؤلي) : (يا أمير المؤمنين لا ترضَ بأبي موسى ، فإنني قد عجمت الرجل وبلوته ، فحلبت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، مع انه يمان)^١ .

الحنين الى الأوطان :

ومع فقر البادية وغلظ معاشها وشحها ، فإن الأعرابي يحن اليها ، ولا يصبر عن فراقها حتى وان أخذ الى جنان الريف . قال الجاحظ : (وترى الأعراب تحن الى البلد الجذب ، والمحل القفر ، والحجر الصلد ، وتستوخم الريف)^٢ . (واعتل أعرابي في أرض غريبة ، فقيه له : ما تشتهي ؟ فقال : حسل

١ أمالي المرتضى (٢٩٢/١) .

٢ رسالة في الحنين الى الأوطان ، من (رسائل الجاحظ) (٣٨٨/٢) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

فلاة ، وحسو قلات)^١ . ويروي ان (ميسون بنت بحدل) الكلية ، زوجة معاوية ، كانت تحن الى وطنها ، وقد سمعها زوجها وهي تنشد أبياتاً فيها شوق وحنين الى البادية ، فخيمتها التي تلعب الأرياح بها ، خير عندها وأحب لها من العيش في قصر منيف ، ورجل من بني عمها نحيف أحب اليها من (عالج عليف) ، أي حضري سمين من كثرة الأكل^٢ . وانتقل أعرابي من البداوة الى الحضارة ، فرأى المكاء في الحضر ، فقال مخاطبه : فارق هذا المكان ، فإنه ليس لك فيه الشجر الذي تعشش عليه ، وأشفق من ان تمرض كما مرضت^٣ .

والعربي الذي ألف الحضارة وأمن في الترف وتفنن في العيش بالمدن ، لا يفقه سحر البادية الذي يجلب اليه أهل البادية . لأنه يرى ان كل ما فيها ضيق وجوع وحرّ شمس وفقر . فيسخر من الأعرابي ويضحك عليه لحينه الى باديته . ولما استظرف (الوليد بن عبد الملك) أعرابياً واستملحه ، فأبقاه عنده وسأله عن سبب حنينه الى وطنه أجابه جواباً خشناً ، مثل جفاء الأعراب وصلفهم . فقال الوليد ، وهو يضحك : أعرابي مجنون^٤ . ولم يتأثر منه ، لأنه أعرابي ، والأعرابي في حكم المجانين . وقد سقط حكم القلم عنه .

ويروي أهل الأخبار حديثاً لكسرى أنوشروان مع وفد وفد عليه فيه بعض خطباء العرب . فسألهم عن سبب تفضيلهم السكن بالبادية وعن حياتهم بها وعن طبائعهم الى غير ذلك من أسئلة وأجوبة دَوّنوها على انها اسئلة كسرى وأجوبة العرب عليها^٥ . وفيها أمور مهمة عن حياة الأعراب . وقد يكون الخبر قصة موضوعة ، غير اننا لا ننظر اليها من جهة تأريخية ، إنما نأخذها مثلاً على ما كان يدور في خلد من صنعها عن نفسية الأعراب وعن نظرة الحضر الى أهل البوادي .

وللمسعودي كلام في اختيار العرب سكنى البادية وسبب ذلك ، كما تحدث

- ١ المصدر المذكور (٣٩٠/٢) .
- ٢ بلوغ الأرب (٤٢٦/٣) وما بعدها .
- ٣ بلوغ الأرب (٤٢٨/٣) .
- ٤ رسالة في الحنين الى الاوطان (٣٩٧/٢) .
- ٥ بلوغ الأرب (٤٣٣/٣) .

عن أثر البوادي في صحة أجسام العرب وفي تكوين أخلاقهم ، مما جعلهم يختلفون بذلك عن بقية الناس .

والعرب وإن عرفوا بالترحل والتنقل ، بسبب البداوة ، إلا أنهم يحنون الى أوطانهم ، ولا ينسون موطنهم القديم . يستوي في ذلك العربي والأعرابي . وهم يرون ان في الغربة كربة ، وان الانسان اذا صار في غير أهله ناله نصيب من العذل^١ . (وكانت العرب اذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع)^٢ . (وقيل لأعرابي : كيف تصنع في البادية اذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ، يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً ، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه ، ويجلس في فيئه يكتال الريح ، فكأنه في ايوان كسرى)^٣ .

وجاء ان (الوليد بن عبد الملك) استظرف أعرابياً فاحتسبه عنده وحباه ، ففرض فبعث اليه (الوليد) بالأطباء ، وعالجوه ، ورأى من الخليفة كل رعاية . لكن هواه بقي في وطنه ، ولم يطق على هذه المعيشة الراضية الطيبة صبراً ، فهلك بعد قليل^٤ . الى غير ذلك من قصص وشعر ورد في الحنين الى الأوطان ، وفي تفضيل الوطن على كل منزل آخر ، ولو كان آية في الجمال ومثالاً من الراحة والاطمئنان .

وهو يعجب من لغة اهل الحضر ، ولا سيما حضر ريف العراق وريف بلاد الشام ومن الاكرة الذين لا يفهم عنهم ولا يستطيع افهامهم ، فكان يجهد نفسه وكأنه في سجن مطبق ، يريد الخلاص منه . حدث ذلك حتى في الاسلام ، وقد ذكر (ابو عثمان الجاحظ) ، انه رأى اعرابياً ، وكان عبداً حبشياً لبني أسيد ، وقد صار (ناظوراً) ، وكأنه اصيب بمس من الجن ، فلما رآه ، قال له : لعن الله ارضاً ليس بها عرب^٥ .

- ١ رسالة في الحنين الى الأوطان (٣٩٠/٢ وما بعدها) .
- ٢ رسالة في الحنين الى الأوطان (٣٩٢/٢) .
- ٣ المصدر نفسه .
- ٤ رسالة في الحنين الى الأوطان (٣٩٧/٢ وما بعدها) .
- ٥ رسائل الجاحظ (٤٠٣/٢ وما بعدها) .

حياة الاعراب :

وحياة الاعراب حياة تكاد تكون حياة واحدة لا تغير فيها ولا تبدل ، فهي على وتيرة واحدة . على تعدد القبائل ، وابتعاد مواضع بعضها عن بعض . ذلك لأن الظروف المخيمية عليهم ، ظروف واحدة لا اختلاف فيها ولا تبدل . الا ما كان منها بالنسبة الى اعراب الضواحي والحوضر ، فان ظروفهم تختلف عن هؤلاء ، ومجال تفكيرهم اوسع من مجال تفكير الاعراب . بسبب نوع المعيشة المتغير ، المتصل بالارض ، وقربهم من الحضر . ولو درسنا حياة القبائل في الجاهلية ، وجمعنا دراستنا من المروي عنها في الكتب ، وجدنا ان بين الماضي البعيد وبين الحاضر شبيهاً في نمط الحياة ، وان ما ذكرته عن قبائل الجاهلية يكاد ينطبق على حياة قبائل البادية في وقتنا هذا ، ذلك لأن الظروف والمؤثرات بالنسبة الى حياة الاعراب المعنن في البادية لا تزال كما كانت عليه . ولكنها سوف لن تبقى على ما هي عليه والى ابد الأبدن بالطبع ، لأن التقدم الحضاري والاكتشافات المادية ، قد اخذت تغزو الاعراب وتضييق الحناق عليهم ، لتغير من حالهم . فبعد ان كان البدو قوم غزو ، أكرهتهم الحكومات القوية على الابتعاد عن الغزو ونبذه ، حتى اضطروا الى توديعه الى الأبد او كادوا وصاروا مغزوين ، تغزوهم الحضارة الحديثة والآليات بما لا قبل لهم بمقاومته ، لتفوق الغزو الجديد عليهم . وهم سيكونون ولا شك بمرور الوقت على شاكلة النصف الآخر من العرب . أي اخوانهم الحضر . يوائمون انفسهم مع التطور الجديد . وسوف يبدل هذا من حياتهم ولا شك ، ومن اهم ما سيفعله فيهم ، تحويل حياتهم من حياة غير مرتبطة بالارض ، الى حياة ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فتتحول البداوة عندئذ الى حضارة ، وسيشعر الاعرابي عندئذ انه مواطن له ارض ووطن وقوم هم إخوة له يشعرون بشعوره . وأن من يعزل نفسه عن العالم ، فلن يعزل بذلك الا نفسه ، ولن يضر الا بصالحه . وان الانسان بغير عمل ولا انتاح ، انسان تافه لا قيمة له . وأن العنتريات والعبيّة الجاهلية من جملة مؤخرات الحياة في كل الأزمنة والأوقات .

ملاحح العرب :

والعرب وان كانوا من الجنس السامي ، الا انهم يختلفون عن بقية (ابناء سام) في الملاحح الجسمانية وفي فصائل الدم ، وفي امور اخرى . ذلك لأن السامية ،

كما سبق ان قلت - جنسية ثقافية ، اما من الناحية (البيولوجية) وهي تتعلق بالملاصق وبأشياء بيولوجية أخرى فليست بجنسية خاصة يمكن تمييزها من بين قبائل الاجناس البشرية ، لما نراه فيما بين شعوبها من تباين . ثم ان بين العرب انفسهم ، تبايناً واختلافاً في الملاصق ، بسبب قرب العرب وبعدهم من الأعاجم ، وأثر فعل الرقيق والأسرى في امتزاج الدم بينهم ، ثم اثر فعل الطبيعة وعملها في الانسان ، وما تقدمه له من غذاء ونوع ماء وحر وبرد ومطر وضغط جوي ونوع تربة .

واليهود هم من الجنس السامي ، جنس خليط كذلك في القديم وفي الحديث فقد دخل اليهود دم غريب ايضاً ، ونجد في التوراة وفي اسفار المكابيين والكتب العبرانية الاخرى ، اكراه اليهود للشعوب التي استولوا على ارضها على اليهود . فدخلت في اليهودية ، وهي ليست من اصل يهودي ، وصارت من يهود وقد دخلت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث كعب وكندة ، وهم من العرب .^١ ودخل آخرون في اليهودية ، وصاروا يهوداً فاليهود مثل غيرهم ، فيهم اليهودي الخالص ، وفيهم اليهودي الغريب ، وفي ملامحهم المتباينة ما هو دليل على وجود الاختلاط في الدم .

وأنا اذ اتكلم عن ملاصق العربي ، فإني لا ازعم ان لديّ او لدى الباحثين مقاييس خاصة ثابتة نستطيع ان نقيس بها ملاصق العرب ، بحيث نحددها في حدود ونرسم لها رسوماً ، لا تتعداها ولا تتخطاها . فحدود مثل هذه لا يمكن ان توجد ولا يمكن ان ترسم ، لأن بين العرب تبايناً وتنازلاً في الصور وفي الملاصق بحيث يكون من الصعب علينا وضع حدود ثابتة للملاصق العرب ، يخضع لها كل العرب او اكثرهم . وسبب ذلك اتساع جزيرة العرب ، ووجود سواحل طويلة جداً تقابل قارتين : قارة سوداء هي افريقية ، وقارة أخرى هي آسية ، لون بشرة سكان سواحلها الجنوبية الشرقية السواد والسمرة الغامقة . وهي سواحل مفتوحة غدت جزيرة العرب بعناصر ملوثة اختلط دمها بالدم العربي حتى اثر ذلك اللون في سحن الناس هناك فبان السواد او اللون الداكن على السواحل العربية المقابلة لسيلان والهند . وظهرت الملاصق الافريقية على سحن الساحل الغربي لجزيرة العرب من تهامة فيما بعد حتى ساحل عمان . وظهرت سحن وملاصق اقوام بيض من روم

١ - الاعلاق النفيسة (٢١٧) .

ورومان وأهل فارس في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، بسبب سياسة الحكومات القاضية بالتهجير نكاية بالمهجرين ، او بسبب تنقلات الجيوش والحروب ، او التجارة ، او الخطط العسكرية القاضية بحماية المصالح الاقتصادية . وذلك بوضع حاميات عسكرية على سواحل الجزيرة لحماية السفن من غارات الاعراب ولصوص البحر . ثم يحدث ان تنقطع الاسباب ببرجال تلك الحاميات ، وتنقطع صلاتهم بالأم لعوامل عديدة ، فيستقرون في مواضعهم ويتعربون حتى صاروا عرباً . نسوا أصلهم وعدّوا من خلص العرب . ولكن العرق دساس كما يقول الناس ، فبقي أثره بارزاً ظاهراً على الوجوه ، نراه حتى اليوم في تغاير وتمايز سحن سكان السواحل فيما بينها ، وفي تغايرها عن سحن أهل باطن جزيرة العرب تغيراً ملحوظاً . وقد أشرت في كتابي (تأريخ العرب قبل الاسلام) وفي الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب الى أثر المستعمرات اليونانية في سحن العرب ، كما هو الحال في جزيرة (فيلكة) في الكويت والى أثر الرقيق والتجارة في باطن جزيرة العرب مما يجعلني في غنى عن اعادة الكلام عن ذلك مرة أخرى .

وقد ذكر اهل الاخبار ان الروم سكنت في الجاهلية جبل (ملكان) وهو جبل في بلاد طيء .^١ فلا يستبعد بقاء هؤلاء فيه وسكنهم فيه ، وتحولهم الى عرب بتعربهم كما تعرب غيرهم من اليونان ممن نزل المستوطنات اليونانية في بلاد العرب .

ونجد بمكة ويثرب وبمواضع أخرى من جزيرة العرب موالي اصلهم من الفرس او الروم برز منهم بعض الصحابة مثل : (سلمان الفارسي) و (رومان الرومي) ، وهو من موالي الرسول ،^٢ وغيرهم . وقد ترك هؤلاء الموالي أثراً في ملامح الناس ولا شك .

ثم يلاحظ ان اجسام سكان السواحل اقصر من اجسام ابناء الجبال والنجد . وان اهل التهام والسواحل الجنوبية لجزيرة العرب اقصر قامة من اهل نجد اليمن او اهل نجد . كما نجد اختلافاً بين ملامح القبائل لا زال بارزاً حتى اليوم . اختلافاً يتحدث عن طبيعة الامتزاج الذي وقع في الدم في ايام الجاهلية ايضاً ،

١ تاج العروس (١٨٤/٧) ، (ملك) .

٢ تاج العروس (٣٢٠/٨) ، (روم) .

لاختلاط الدماء وامتزاجها بالعوامل التي ذكرتها ، وان ذهب البعض الى ان جزيرة العرب كانت في عزلة عن العالم ، فهذه العزلة التي يتحدثون عنها ، هي عزلة لم تكن عامة ولا يمكن ان نسميها عزلة صحيحة الا بالنسبة للقبائل المتبدية التي عاشت في صميم البوادي ، غير ان تلك القبائل لم تتمكن مع ذلك من عزل نفسها عن الرقيق والأسرى الغرباء .

ثم نجد فروقاً بين العرب والاعراب ، سببه اختلاف المحيط والظروف والغذاء . فالعربي ممتلئ الجسم بالقياس الى الاعرابي الرشيق القليل اللحم ، الدقيق العظم . وتظهر هذه النحافة في وجه الاعرابي ايضاً ، فوجهه ممشوق قليل اللحم ، دقيق ممتد ذو ذقن بارز ، وأنف دقيق ، وعينان براقتان . وتعد الرشاقة في جسم العربي من محاسنه لأنها تجعله معتدل القوام . خفيف الحركة . وقد مدح (امرؤ القيس) الغلام الخف ، اي الخفيف الجسم ، السريع الحركة الذي ينزل عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثلث . اي الثقيل الجسم السمين . وقيل : الخفيف في الجسم والخفاف في التوقد والذكاء .^١ ويعد ثقل الجسم من المعيبات . ومن المجاز التخفيف ضد الثقل والخفيف ضد الثقيل . وقد اعتبروا الثقل ذمّاً في الانسان . فقليل : هو ثقل على جلسائه ، وهو ثقل الظل ، ويقال مجالسة الثقيل تضني الروح ، حتى ألف بعض العلماء في اخبار الثقلاء .^٢

و (الربيع) من الرجال ، اي المتوسط القامة ، النموذج الأوسط للانسان وحدّ الكمال في الجسم عند العرب . ويقال له : (ربيعة) و (مربع) . وقد نعت رسول الله بأنه (ربيعة) من الرجال ، وورد أنه كان أطول من المربع وأقصر من المشذب .^٣ والوسط عند العرب هو بين الجيد والرديء . وأوسط الشيء افضله وخياره . ومنه الحديث : خيار الامور اوساطها .^٤ وقد هابت العرب اصحاب الطول في الجسم ، والكبر في الرأس ، واحترموا اصحاب الهية والتأثير في النفس ، وقد ذكر بعض منهم في كتب اهل الاخبار . وقد رموا القصير

١ ناج العروس (٩٢/٦ وما بعدها) ، (خف) .

٢ (قال الراغب : الثقيل في الانسان يستعمل نارة في الذم وهو أكثر في التعارب .

وتارة في المدح) ، ناج العروس (٢٤٥/٧) ، (ثقل) .

٣ ناج العروس (٣٣٨/٥) ، (ربيع) .

٤ ناج العروس (٢٤٠/٥ وما بعدها) ، (وسط) .

بالمكر والخديعة ، ولكنهم اعتبروا القصر في الجسم من العيوب ، لا سيما اذا كان ذلك القصير غليظ البطن . وقد عرف الانسان الموصوف بهذه الصفة بالدحاح وبالداح وبالدودح وبالدحذاح^١ . والدودحة القصر مع السمن^٢ . وأما (الدرحية) ، فالرجل الكثير اللحم القصير السمين البطين ، اللثيم الحلقة . وعرف الرجل المسن الذي ذهبت أسنانه بـ (الدردح)^٣ .

واعتبر العرب طول العنق من سمات المدح . ولذلك وصف رؤساء العرب بطول العنق . وعُبر عن الرؤساء والكبراء والأشراف بـ (الأعناق) و (أعناق) . وعُبر عن الجماعة الكثيرة بـ (الأعناق) كذلك^٤ . وذكر الشاعر (عروة بن الورد) عن الآرام في شعر له في وصفه للناشئات الماشية بتبختر . إذ قال :

والناشئات الماشيات الخوزرى كعنق الآرام أو ففى أو صرى^٥

والعرب مثل غيرهم لا يحبون الصلع . ويكثر ظهوره بين العجزة والمسنين والأشراف . وقد ذكر ان أكثر الأشراف من العرب كانوا من الصلع ، وتفسير ذلك ان أكثر الأشراف هم من ذوي الأسنان ، وان الإنسان إذا تقدمت به السن ، أخذ الصلع يجد له مكاناً في رأسه فيلعب فيه . ومن ذلك قول الناس يوم بدر : (ما قتلنا إلا عجائز صلعاً) أي مشايخ عجزة عن الحرب . وأنشد (ابن الاعرابي) : (يلوح في حافات قتلاه الصلع) أي يتجنب الأوغاد ولا يقتل إلا الأشراف^٦ .

وهم يفضلون (الأفرع) على الأصلع . والأفرع هو الكثير الشعر . وكان (أبو بكر) أفرع ، وكان عمر أصلع . وكان رسول الله أفرع ذا جمعة^٧ . والصلع خير من (القرع) ، لأن القرع داء يصيب الرأس ، فيؤثر في منظره

- ١ تاج العروس (١٣٥/٢) ، (دح) .
- ٢ تاج العروس (١٣٦/٢) ، (دودحة) .
- ٣ تاج العروس (١٣٦/٢) ، (دردح) .
- ٤ تاج العروس (٢٦/٧) ، (عنق) .
- ٥ اللسان (٢٣٧/٤) ، (خزر) .
- ٦ تاج العروس (٤١٦/٥) ، (صلع) .
- ٧ تاج العروس (٤٤٩/٥) ، (فرع) .

ويسبب سقوط شعره وحدث أثر دائم فيه ، وقد تنبعت رائحة كريهة منه ^١ .
وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الأشراف عرفوا بقرعهم .

وقد اشتهر بعض العرب بطول القامة ، حتى زعم ان بعضاً منهم كان اذا ركب الفرس الجسم خبطت إبهامه في الأرض . وذكروا من هؤلاء : (جذيمة ابن عاقمة بن فراس) ، المعروف بـ (جذل الطعان) الكناني ، و (ربيعة بن عامر بن جذيمة بن علقمة بن فراس) ، وكان يمشي الظعينة فيقبلها ، فسُمِّيَ (مقبل الظعن) . و (زيد الخيل بن المهلهل الطائي) ، و (أبو زيد حرملة ابن النعمان الطائي) ، وعدي بن حاتم بن عبد الله الطائي ، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، وأبوه سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وعبد الله بن أبي ابن سلول ، وبشير بن سعد ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وجبل بن الأيهم الغساني ، وحمل بن مرداس النخعي ، ومالك الأشتر بن الحارث النخعي ، وعبد الله بن الحصين ذي الغصة الحارثي ، وعامر بن الطفيل الجعفري ، وقيس ابن سلمة بن شراحيل بن أصهب الجعفي ^٢ .

العرب أفخر الأمم :

يرى الجاحظ ان العرب أفخر الأمم ، وأرفعها وأحفظها لأيامها ، وينسب ذلك الى طبيعة بلادهم . إذ (كانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثى ، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ، ولا التخم ، أذهان حداد ، ونفوس منكرة ، فحين حلوا حدتهم ووجهوا قولهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصارييف الكلام ، بعد قيافة الأثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيال وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية . وبيعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر ، ولأيامهم أحفظ وأذكر) ^٣ . وهم

١ تاج العروس (٤٦٣/٥) ، (قرع) .

٢ المحبر (ص ٢٣٣ وما بعدها) .

٣ مناقب النرك ، من رسائل الجاحظ (٧٠/١) .

لطبيعة الأرض التي ولدوا بها صاروا على هذه الحال ، ولم يصيروا كاليونان في الحكمة وفي العلوم ، ولا كالصين في السبك والصياغة والإفراغ والاذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الحرط والنحت والتصاوير ، ولا كالهنود أو الفرس ^١ .

وقد وصف الأعرابي بالتفاخر وبالتباهي ، فهو فخور معجب بنفسه مترفع عن غيره حتى لكأنه النمر . مع انه من أفقر الناس . ولهذا صاروا اذا أرادوا وصف شخص متغطرس متجبر مع انه لا يملك شيئاً يفوق به نفسه على غيره ، قالوا عنه : (نبطي في حيوته . أعرابي في نمرته ، أسد في تامورته) ^٢ .

العجم :

ويطلق العرب على غيرهم ممن لا يتمون الى العرب ، لفظة (أعاجم) . و (العجم) عند العرب . والرجل الواحد (أعجمي) . ولعلماء اللغة آراء في تفسير هذه اللفظة ^٣ . وهي من الألفاظ الجاهلية ، لورودها في القرآن الكريم . ففيه : (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي) ^٤ . و (أعجمي وعربي . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) ^٥ ، و (لو جعلناه قرآناً أعجمياً ، لقالوا لولا فصلت آياته) ^٦ ، و (لو نزلناه على بعض الأعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) ^٧ . ففي هذه الآيات دلالة واضحة على ان المراد من (أعجمي) خلاف العربي ، وان هذا المصطلح كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام .

ويطلق العرب على العجم (الحمراء) لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم . وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالباً على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم : انهم الحمراء . والعرب اذا قالوا : فلان أبيض

- ١ مناقب الترك من رسائل الجاحظ (٦٦/١ وما بعدها) .
- ٢ تاج العروس (٥٨٥/٣) ، (نمر) .
- ٣ تاج العروس (٣٨٩/٨ وما بعدها) ، العقد الفرید (٢٢٩/٣) .
- ٤ النحل ، الآية ١٠٣ .
- ٥ فصلت ، الآية ٤٤ .
- ٦ فصلت ، الآية ٤٤ .
- ٧ الشعراء ، الآية ١٩٨ .

وفلان ييضاء ، فعناه الكرم في الأخلاق لا لون الحلقة . وإذا قالوا : فلان أحمر وفلانة حمراء عنوا يياض اللون . والعرب تسمي الموالي : الحمراء^١ . جاء في الحديث : (بعثت الى الأحمر والأسود) ، أي الى العجم والعرب كافة^٢ .

وورد ان العرب تقول : جاء بغنمه حمر الكلى وجاء بها سود البطون ، معناهما المهازيل . وهو مجاز^٣ . ويذكرون ان معنى حمر الكلى الامتلاء والسمن ، والسواد بمعنى الهزال والرشاقة . ولما كان الأعاجم ممتلئي الجسم بالنظر الى العرب ، قالوا لهم (الحمراء) . وقد كان العرب يطلقون على الموالي (الحمراء) ، وإذا سبوا أحدهم قالوا ، (يا ابن حمراء العجان أي يا ابن الأمة . كلمة في السب والذم^٤) . ولعلهم فعلوا ذلك بسبب امتلاء أجسام الموالي ولا سيما العجان ، الذين لا يتحركون ولا يتنقلون من أماكنهم ، ويأكلون الخبز فامتلأت لذلك بطونهم وتكرشوا .

ولم يشرح علماء العربية الاسباب التي حملت العرب على تلقيب العجم بـ (رقاب المزود) (رقاب المزود)^٥ . وقد ذكر بعض العلماء ، ان العرب إنما لقبوا العجم بـ (رقاب المزود) ، لطول رقابهم أو لضخامتها كأنها ملأى^٦ .

ويكنى العرب بـ (السبط) عن العجمي وبـ (الجعد) عن العربي^٧ . وذلك لان سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب . ولكنهم كانوا يفرقون بين جعودة شعر العرب وجعودة شعر الزنج والنوبة . لانهم ينظرون الى الزنج والسود على انهم دونهم في المنزلة والمكانة . ولهذا قالوا ان العرب تمدح الرجل إذ تقول رجل جعد ، أي كريم جواد كناية عن كونه عربيّاً سخياً ، لان العرب موصوفون بالجعودة ، وتندم الرجل أيضاً حين تقول : رجل جعد ، إذ يقصدون بذلك

١ اللسان (٢١٠/٤) ، (حمر) ، تاج العروس (١٥٤/٣) ، (حمر) .

٢ تاج العروس (١٥٤/٣) ، (حمر) .

٣ تاج العروس (١٥٨/٣) .

٤ تاج العروس (١٥٨/٣) .

٥ اللسان (ز/و/د) ، (١٩٨/٣) .

٦ تاج العروس (٣٦٦/٢) ، (زاد) .

٧ تاج العروس (١٤٩/٥) ، (سبط) .

رجلاً لثيماً لا يبض حجره ، وقد يراد به رجل قصير متردد الخلق . فهو من الأضداد . لذلك فالجعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذماً . وإذا قالوا رجل جعد السبوبة فمدح ، إلا أن يكون قططا مفلفل الشعر فهو حينئذ ذم^١ .

ومن المجاز قول العرب : الأعداء صهب السبال وسود الأكباد ، وإن لم يكونوا كذلك ، أي صهب السبال ، فكذلك يقال لهم . ورد في الشعر :

جساؤا يحرون الحديث جرّاً صهب السبال يبتغون الشرّاً

وإنما يريدون أن عداوتهم كعداوة الروم . والروم صهب السبال والشعر ، والافهم عرب والوانهم الأدمة والسمرة والسواد^٢ .

ويذكر علماء اللغة أن العرب تصف ألوانها بالسواد ، وتصف ألوان العجم بالحمرة . وقد افتخر الشعراء بذلك في الجاهلية وفي الإسلام . من ذلك قول الفضل بن عباس بن عتبة اللهي :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول : أنا خالص لأن ألوان العرب السمرة . ومن ذلك قول مسكين الدارمي :

أنا مسكين لمن يعرفني لوني السمرة ألوان العرب^٣

قال (الجاحظ) : (والعرب تفخر بسواد اللون .. وقد فخرت أخضر محارب بأنها سود ، والسود عند العرب الأخضر) . ثم ذكر أمثلة من أمثلة افتخار بعض القبائل والأشخاص بكونهم (خضراً) . حتى قال : (وخضر غسان بنو جفنة الملوك ؟ قال الغساني :

إن الحضارمة الخضر الذين ودّوا أهل البريص ثمانى منهم الحكم

وقد ذكر حسان أو غيره الخضر من بني عُكيم ، حين قال :

ولست من بني هاشم في بيت مكرمة ولا بني جمح الخضر الجلاعيد

١ تاج العروس (٣٢٠/٢ وما بعدها) ، (جعد) .

٢ تاج العروس (٣٤٢/١) ، (صهب) .

٣ تاج العروس (١٧٩/٣ وما بعدها) ، (خضر) ، رسائل الجاحظ ، كتاب فخر السودان على البيضان (٢٠٧/١) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة دُلماً ضحماً ، نظر اليهم عامر ابن الطفيل يطوفون كأنهم جمال جون ، فقال : بهؤلاء تمنع السدانة .
وكان عبد الله بن عباس أدلم ضحماً ، وآل أبي طالب أشرف الخلق ، وهم سود وأدم ودلم)^١ .

واشتهر بعض سودان العرب بالشجاعة والاقدام ، منهم أربعة عرفوا بـ (أغربة العرب) وذؤبان العرب . منهم : عنترة وخفاف بن ندبة السلمي ، سرى فيه السواد من قبل أمه ، وهو من حرّة بني سليم . أدرك الذي ، وكان شاعراً شجاعاً ، وقل ما يجتمع الشعر والشجاعة في واحد . ومنهم السليك بن السليكة^٢ .

وهناك قبائل غلب على لونها السواد ، حتى عبر عنها بـ (دلم) . والدلم الرجل الشديد السواد^٣ . جاء اليها السواد ، لكون أصلها من افريقية على ما يظهر ، وكانت قد استقرت بجزيرة العرب وتعربت ، حتى عدت من العرب . أما الأسر والأفراد الدلم ، فقد ظهر السواد على لونهم بالتزاوج من الملونين . فقد كان من عادة الأشراف الاتصال بالإماء السود ، فاذا ولدن منهم أولاداً نجباً شجعاناً ألحقهم آبائهم بهم ، ونسبوهم اليهم كالذي كان من أمر عنترة العبسي . وقد مال قوم من قريش الى التزوج بالإماء السود ، وقد ظهرت هذه الترة بين السادات والأشراف .

وقد ذكر (الجاحظ) في معرض حجج السودان على البيضان ، وعلى لسان الزنج قولهم للعرب : (من جهلكم أنكم رأيتمونا لكم أكفاء في الجاهلية في نسائكم ، فلما جاء عدل الإسلام رأيتم ذلك فاسداً ، وما بنا الرغبة عنكم . مع ان البادية منا ملأى ممن قد تزوج ورأس وساد ، ومنع الدمار ، وكشفكم من العدو)^٤ . وفي هذا القول اشارة الى التزاوج الذي كان بين العرب والزنج ، أي السودان المجلوبين من افريقية ، في أيام الجاهلية . والى انصراف العرب عنه

١ فخر السودان ، للجاحظ (٢٠٧/١ وما بعدها) ، من (رسائل الجاحظ) ، تحقيق عبد السلام هارون) .

٢ النعالي ، ثمار (١٥٩ وما بعدها) .

٣ تاج العروس (٢٩٢/٨) ، (دلم) .

٤ من رسائل الجاحظ (١٩٧/١) .

في الإسلام ، ما خلا البادية ، وذلك بسبب اقبالهم على التزوج بالفارسيات والروميات وبغيرهن على ما يظهر ، بسبب الفتوح وتوسع أسواق النخاسة في هذا الوقت . وارتفاع مستوى الوضع الاقتصادي للعرب في الإسلام عنه في الجاهلية ، مما مكّنهم من التزوج بالأجنبيات البيض الجميلات وتفضيلهن على السودانيات . وظهور نظرة الازدراء الى السودان في الإسلام ، بسبب الأعاجم المسلمين الذين كانوا يزدرون العبيد وينظرون اليهم على أنهم دونهم في المترلة ، فانتقلت هذه النظرة منهم الى العرب .

ويظهر من رسالة الجاحظ : (فخر السودان على البيضان) ، ان نزاعاً كان قد دبّ بين السودان والعرب في الإسلام ، بسبب نظرة الازدراء التي أخذ الفاتحون ينظرون بها اليهم فصاروا يترفعون عنهم ولا يخالطونهم . وهذا مما أغاضهم ، وحلهم على نبش الماضي ، والاتيان بالأخبار وبالأشعار عن دور الحبش في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وكيف أنهم كانوا قد ملكوا (بلاد العرب من لدن الحبشة الى مكة)^١ ، وهزموا ذا نواس ، وقتلوا أقيال حمير ، فملكوا العرب ولم يملكهم العرب^٢ . الى غير ذلك من دعاوي تجدها في قصيدة الشاعر الزنجي (الحيقطان) ، التي يفتخر فيها بالحبش على العرب ، على نحو فخر الشعوبية بأصولهم على العرب . وهي قصيدة شهيرة ، قالها يوم سمع (جرير) يسخر منه بشعر قاله في وصفه . فرد عليه رداً شديداً بقصيدته هذه التي نظمها وهو باليامة^٣ .

وقد عُرفت بعض القبائل ببياض بشرتها ، واشتهرت نساؤها ببياض البشرة ، ورد (في الحديث انه لما خرج من مكة قال له رجل : إن كنت تريسد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج)^٤ . ويقال للمرأة التي يغلب على لونها البياض (الحمراء) ، وقد لقب الرسول زوجته (عائشة) ب (الحمراء) ، لبياض لونها .

- ١ رسائل الجاحظ (١/١٩٣ وما بعدها) .
- ٢ المصدر نفسه .
- ٣ رسائل الجاحظ (١/١٨٠ ، ١٨٢ وما بعدها) .
- ٤ تاج العروس (٨/١٨١ وما بعدها) ، (آدم) .

القبيلة :

والقبيلة هي عماد الحياة في البادية ، بها يحتمي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله ، حيث لا (شُرَط) في البوادي تؤدب المعتدين ، ولا سجون يُسجن فيها الخارجون على نظام المجتمع ، وكل ما هناك (عصبية) تأخذ بالحق و (أعراف) يجب ان تطاع .

والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو (النسب) . ويفسر ذلك بارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبدم واحد وبصلب جدّ أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم . ولهذا نجد أهل الأنساب يرجعون نسب كل قبيلة الى حدّ أعلى ، ثم يرجعون أنساب الجدود ، أي أجداد القبائل الى أجداد أقدم ، وهكذا ، حتى يصلوا الى الجدّين للعرب : قحطان وعدنان .

وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبية أسماء عدد كبير من القبائل ، لم يعرف أسماء أكثرها أهل الأخبار . وهي تفيدنا من هذه الناحية فائدة كبيرة في الوقوف على هذه القبائل ، وبعضها كان قد هلك وانحل واختلط في القبائل الأخرى قبل الميلاد وبعضها بعد الميلاد وقبل الإسلام بأمد .

وتألف القبيلة من بيوت ، يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة ، وباختلاف المواسم . ففي مواسم الربيع ، تضطر أحياء القبيلة على الانتشار والابتعاد ، لتتمكن لإبلها من الرعي ومن املاء بطونها بالعشب . فتتجمع على شكل مستوطنات يتراوح عدد بيوت كل مستوطنة منها ما بين الخمسين والمائة والخمسين بيتاً . أما في المواسم الأخرى ، حيث تنحبس الأمطار وتجف الأرض ، فتعود أحياء القبيلة الى تكتلها وتجمعها ، فتكون كل مجموعة حوالى (٥٠٠) بيت أو أكثر . تتجمع حذر وقوع غزو عليها ، وللتعاون فيما بينها عند الشدة والعسر^١ .

والقبيلة في عرف علماء اللغة جماعة من أب واحد ، والقبائل في نظرهم من قبائل الرأس لاجتماعها ، أو من قبائل الشجرة وهي أغصانها^٢ ، فهي إذن جماعة من الناس تضم طوائف أصغر منها ، وهي تنتمي كلها الى أصل واحد وجذر

١ W. Caskel, Die Bedeutung der Beduinen, S., 8.

٢ تاج العروس (٧٢/٨) ، (قبل) .

راسخ ، ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة . فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة ويجمع شملها ويوحد بين أفرادها هو (الدم) ، أي النسب . والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية . والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي ، حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها . وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ ، وبها يستطيع ان يأخذ حقه من المعتدي عليه .

وهذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة ، هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على اطلاق لفظة (القبيلة) على الحضر أيضاً . مع انهم استقروا وأقاموا . فقريش عندهم قبيلة ، والأوس ، والخزرج قبيلة ، وثقيف قبيلة . ذلك لأن هؤلاء الناس وان تحضروا واستقروا وأقاموا ، وتركوا الحياة الأعرابية ، إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل الوبر ودينهم في التمسك بالانتساب الى جد أعلى وإلى أحياء وبطون . وفي اجابة النخوة والعصية ، وما شابه ذلك من سجايا البداوة ، فعبدوا في القبائل ، وان صاروا حضراً وأهل قرار ، وقد طلقوا التنقل وانتجاع الكلاً .

وتشارك الشعوب السامية العرب في هذه النظرة . لأن نظامها الاجتماعي القديم هو كالنظام العربي قائم على القبيلة . والقبيلة عندها جماعة من بيوت ترى انها من أصل واحد ، وقد انحدرت كلها من صلب جد واحد . فهم جميعاً أبناء الجد الذي تسمى به القبيلة . وهم مثل العرب في النداء وفي النسب . قد يذكرون الاسم فقط ، فيقولون مثلاً : أدوم ومثاب واسرائيل ويهوذا ، أو أبناء اسرائيل وأبناء يهوذا ، وبنو اسرائيل وبنو يهوذا . وقد يقولون : بيت اسرائيل وبيت يوسف وبيت خمرى وبيت ادنى ، بمعنى أبناء المذكورين . تماماً كما نقول : غسان ، وآل غسان ، وأبناء غسان وأولاد غسان ومن غسان ، وغساني ، وما شاكل ذلك ، ويريدون بها شيئاً واحداً ، هو النسب . أي الانتهاء الى جد واحد به تسمى القبيلة واليه يرجع نسبها .

وهم يشعرون كالعرب ان أبناء القبيلة هم إخوة وهم من دم واحد ، ومن لحم ودم ذلك الجد . وهم يخاطبون بعضهم بعضاً بقولهم : (أنت من لحمي ودمي) . وفي التوراة أمثلة عديدة من هذا القبيل . فلما ذهب (ابو مالك بن

يربعل (الى عشيرة أمه خاطب أبناءها بقوله : (أما خير لكم ! أن يتسلط عليكم سبعون رجلاً جميع بني يربعل ، أم ان يتسلط عليكم رجل واحد . واذكروا أني أنا عظمكم ولحمكم)^١ . وقد اعتبر (داوود) جميع أبناء عشيرته إخوة له^٢ . وخاطب (شيوخ يهوذا) بقوله : (أنتم لإخوتي ، أنتم عظمي ولحمي)^٣ . فأبناء القبيلة هم إخوة من دم واحد . يسري في أجسامهم جميعاً ما دامت القبيلة حية باقية . ووحدة الدم هذه هي الرابط الذي يجمع شمل القبيلة . وهي صلة رحم ، وعصبية ، والحكومة الصحيحة التي يجب ان تطاع .

والعربي مثل بقية الساميين لم يفهم الدولة إلا انها دولة القبيلة . وهي دولة صلة الرحم التي تربط الأسرة بالقبيلة . دولة العظم واللحم ، دولة اللحم والدم ، أي : دولة النسب . فالنسب هو الذي يربط بين أفراد الدولة ويجمع شملهم . وهو دين الدولة عندهم وقانونها المقرر المعترف به . وعلى هذا القانون يعامل الإنسان . وبالعرف القبلي تسير الأمور . فالحكام من القبيلة ، وأحكامهم احكام تنفذ في القبيلة ، واذا كانت ملائمة لعقلية القبيلة والبيئة ، وهذا هو ما يحدث في الغالب ، نصير سنة للقبيلة ، نستطيع تسميتها بـ (سنة الأولين) . ووطن القبيلة هو بالطبع مضارب القبيلة حيث تكون ، وحيث يصل نفوذها اليه ، فهو يتقلص ويتوسع بتقلص وبتوسع نفوذ القبيلة .

وقد واجه المسلمون في أيام الفتوح صعوبة كبيرة في فتوحهم بسبب العقلية القبلية وضيق أفقها ، وعدم تمكنها من التخلص من مثلها الجاهلية بسهولة . فقد كان على القائد ان يقاتل عدوه بجيش يحارب على شكل كتل قبائل ، تتكون كل كتلة من مقاتلي قبيلة واحدة ، لا من جنود ينتمون الى أمة هي فوق الكتل والقبائل . وكان على رأس كل وحدة مقاتلة رؤساء من القبيلة التي ينتمي اليها الجنود . وقد واجه الإمام (علي) صعوبة حيناً حارب في معركة الجمل وفي معركة صفين وغيرها ، إذ اشترطت عليه القبائل المحاربة ، ألا تحارب إلا رجال قبيلتها الذين يكونون ضده ، فالهمدانيون الذين معه يحاربون الهمدانيين الذين يحاربون مع خصمه . وهكذا فعلت بقية القبائل ، للعصبية القبلية ، لأنهم لم يكونوا يستطيعون رؤية قبيلة غريبة تفتك

١ سفر القضاة ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢ .

٢ صموئيل الاول ، الاصحاح ٢٠ ، الآية ٢٩ .

٣ صموئيل الثاني ، الاصحاح التاسع عشر ، الآية ١٣ .

بإخوانهم من قبيلتهم ، وهم ينادون بشعار العصبية ، شعار القبيلة . أما هم فإن قاتلوا لإخوانهم من قبيلتهم ، فإن قتالهم هذا يختلف عن قتال الإخوة حين يقتتلون قتالاً قد يكون أشد ضراوة من قتال الغرباء ، لا يلتفت فيه الى وجود دم واحد بين المتقاتلين ، والى أنهم من بيت أب وأم ، يحتم عليهم التكتل والتعصب ، إذ لا غريب هنا أمامهم في هذا القتال .

ولست بحاجة وأنا في هذا المكان ، لتكرار قول سبق ان قلته في الجزء الأول من هذا الكتاب — من ان أسماء القبائل لا تعني بالضرورة انها أسماء أجداد حقيقيين عاشوا وماتوا . فبينها كما سبق ان قلت أسماء مواضع ، مثل غسان ، وبينها أسماء أصنام مثل (بنو سعد العشيرة) وبينها أسماء أحلاف مثل (تنوخ) وبينها نعوت وألقاب .. الى آخر ذلك من أسماء قبائل وصلت الى علم علماء الأنساب ، فأوجدوا لها معاني واعتبروها أسماء رجال حقيقيين تزوجوا ونسلوا ومنهم من كان عاقراً فلم ينسل ، فذهب أثره ، ولم تبق له بقية ^١ .

والمفهوم من لفظة (القبيلة) في العادة : القبائل التي تتألف من عمائر وما وراء العمائر من أقسام . فاذا ذكرت القبيلة انصرف الذهن الى آلاف من البيوت تجتمع تحت اسم تلك القبيلة . ولكن الناس يتجاوزون في الكلام وفي الكتابة أحياناً فيطلقونها على عدد قليل من الناس قد يبلغ ثلاثة نفر أو أربعة مثل : (بنو عبد الله ابن أفصى بن جديلة) ، و (بنو جساس بن عمرو بن خويّة بن لوزان) ، من (بني فزارة) ، و (كليب بن عديّ بن جناب بن هبل) ، و (بنو شقرة) من تميم . وقد يطلقونها على أكثر من ذلك ، ولكن على عدد قليل من الناس أيضاً ، كأن يكون خمسين رجلاً أو ستين ^٢ . وهذا الاستعمال ، هو على سبيل التجوز لا الاصطلاح .

ويرى علماء العربية ان هناك تجمعات ، هي في نظرهم أكبر حجماً من القبيلة أطلقوا عليها (الشعوب) . فذكروا ان الشعوب فوق القبائل ، ومثاله : بنو قحطان ، وبنو عدنان ، فكل منها شعب . وما دونها قبائل . وذهب بعض منهم الى ان (الشعوب) للعجم ، فإن الشعوب بالنسبة لهم ، مثل القبائل

١ راجع الجزء الأول من كتابي (ص ٢٩٤ وما بعدها) .

٢ المحبر (ص ٢٥٦) ، (القبائل التي لا يزيد عددها) .

للعرب ، ومنه قيل للذي يتعصب للعجم (شعوبي) ، وقيل : بل هي للعرب وللعجم . والذي عليه أكثر علماء الأنساب ، ان الشعب أكبر من القبيلة ، وان الشعب أبو القبائل الذي يتسبون اليه ، أي يجمعهم ويضمهم^١ .

ويظهر ان مردّ هذا الاختلاف هو ما ورد في القرآن الكريم من قوله : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)^٢ . فقدم (الشعوب) على القبائل . فذهب أكثر المفسرين والعلماء الى ان هذا التقديم يعني ان الشعب أكبر من القبيلة ، وان الشعوب الجماع والقبائل البطون ، أو الشعوب الجمهور والقبائل الأفخاذ ، أو الشعوب : النسب البعيد ، والقبائل : دون ذلك ، كقولك فلان من بني فلان ، وفلان من بني فلان . وتأول بعض آخر هذا المعنى ، فذهبوا الى ان هذا التقديم أو التأخير ، لا علاقة له بالكبر ، أي بحجم الشعب أو القبيلة ، والآية لا تريد ذلك ، وانما تريد الأنساب ، وانها نزلت في بيان ان الإنسان لا ينسبه ، وانما بعمله . وعلى هذا ، فإن الشعب ، في نظرهم دون القبيلة في الترتيب . والشعب بعد القبيلة في الدرجة^٣ .

وقد أخذ العلماء بالتأويل الأول للفظ (الشعب) ، حتى صار هذا المعنى هو المعنى المفهوم منها عند الناس في الإسلام . فهي انما تعني اليوم جنساً من أجناس البشر له خصائصه ومميزاته ، كالشعب العربي والشعب اليوناني والشعب التركي والشعب البريطاني والشعب الأميركي ، وهكذا . أو جزءاً كبيراً مستقلاً من أجزاء أمة واحدة ، كأن نقول : الشعب العراقي ، والشعب السوري ، والشعب السعودي ، والشعب المصري ، أي وحدة جغرافية سياسية ذات كيان .

ولفظ (الشعب) ، من الألفاظ الواردة في نصوص المسند . وهي فيها بمعنى قبيلة ، وتكتب (شعبن) ، بمعنى (الشعب) . وحرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في العرييات الجنوبية . فهي إذن مرادف (قبيلة) بالضبط . والجمع (اشعب) ، أي (شعوب) . ورد (سباواشعبيهم) ، أي (سبا وشعوبهم) ،

- ١ تاج العروس (٣١٨/١) ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم (٧٤) .
- ٢ سورة الحجرات ، السورة رقم ٤٩ ، آية ١٣ ، تفسير الطبري (٨٨/٢٦) ، تفسير الألوسي (١٤٧/٢٦) .
- ٣ تفسير الطبري (٨٨/٢٦) .

أو (سبأ وقبائلهم) بتعبير أدق وأصح . وورد (شعبن معن) ، أي (قبيلة معين) ، و (شعبن همدان) ، أي (قبيلة همدان) . والظاهر أن أهل مكة ، وقفوا في الجاهلية على هذه اللفظة أيضاً فاستخدموها ، وإن قبائل حجازية مجاورة لمكة ، كانت تستعمل لفظة (شعب) و (الشعب) ، بمعنى قبيلة ، ونظراً لورودها معاً في القرآن الكريم ، فرّق العلماء بين اللفظتين ، باعتبار أن ذكرهما معاً ، يعني وجود بعض الاختلاف في المراد منها . فوقع من ثمّ بين المسلمين هذا التمييز ، وصارت لفظة (الشعب) تدل على معنى يختلف عن معنى كلمة (قبيلة) و (القبيلة) .

ويلى الشعب في اصطلاح أهل النسب : القبيلة ، ثم العماره ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعماره مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم ، وبني أمية ، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس^١ . وجعل (ابن الكلبي) مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة ، وهي رهط الرجل^٢ .

وورد أن البطن دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العماره . وذكر بعضهم أن أول العشيرة : الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ، ثم العماره ، ثم البطن ، ثم الفخذ^٣ . وذلك على رأي من جعل العشيرة : العامة . مثل : بني تميم وبني عمرو بن تميم . أي الجماعة العظيمة^٤ .

وزاد بعض العلماء الجذم قبل الشعب ، وبعد الفصيلة العشيرة ، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتبها آخرون على هذه الصورة ، جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عماره ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ،

- ١ اللسان (٥٧/١٤) ، (١٩٩/١٦) . بلوغ الأرب (١٨٧/٣) وما بعدها (، تاج العروس (٧٢/٨) ، السيرة الحلبية (٣٧/١) ، العمدة (١٩١/٢) ، (محمد محي الدين عبد الحميد) ، تاج العروس (١٤١/٩) ، (بطن) .
- ٢ العقد الفريد (٢٨٣/٣) فما بعدها (، المقرئ ، النزاع والنخاصم (٦٥) ، نهاية الأرب للنويري (٢٦٢/٢) وما بعدها .
- ٣ تاج العروس (١٤١/٩) ، (بطن) .
- ٤ تاج العروس (٤٠٣/٣) ، (عشر) .

ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة هي : بيت ، وحي ، وجماع .^١ وذكر بعض علماء اللغة أن (الجذم) ، الأصل في كل شيء . فيقال : جذم القوم أهلهم وعشيرتهم . ومنه حديث حاطب ، لم يكن رجل من قريش الا له جذم بمكة .^٢

وذكر بعض العلماء ان العماره الحية العظيم يقوم بنفسه .^٣ وان الفرق بين الحية والقبيلة هو ان الحية لا يقال فيه بنو فلان نحو قريش وثقيف ومعد وجذام . والقبائل يقال فيها بنو فلان مثل بني نعيم وبني سلول .^٤ وذكر ايضاً ان العماره : الحية العظيم الذي يقوم بنفسه ، ينفرد بظعنها واقامتها ونجعتها . وقيل هو اصغر من القبيلة . وفي الحديث : انه كتب لعائز كلب وأحلافها كتاباً . قال التغلبي :

لكل اناس من معدٍ عماره عروض ، اليها يلجأون ، وجانب .^٥

وقسم (النويري) النظام القبلي عند العرب الى عشر طبقات .^٦ وابتدأ ب (الجذم) وهو الاصل : وهو قحطان وعدنان ، والطبقة الاولى . ثم الجاهير ، وهي الطبقة الثانية ، ثم الطبقة الثالثة : الشعوب ، والطبقة الرابعة القبيلة ، وهي التي دون الشعب تجمع العماره ، ثم الطبقة الخامسة : العماره ، وهي التي دون القبائل ، وتجمع البطون ، ثم الطبقة السادسة : البطون ، وهي التي تجمع الأفخاذ ، والطبقة السابعة : الأفخاذ . وهي اصغر من البطن . والفخذ تجمع العشائر . والطبقة الثامنة : العشائر ، واحدها عشيرة ، وهم الذين يتعاقلون الى اربعة آباء . والطبقة التاسعة : الفصائل ، واحدها فصيلة ، وهم اهل بيت الرجل وخاصته ، والطبقة العاشرة : الرهط ، وهم الرجل واسرته .^٧

- ١ اللسان (٢٣٥/١٨) ، نهاية الأرب ، للنويري (٢٦٢/٣ فما بعدها) ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم (٧٤) .
- ٢ تاج العروس (٢٢٢/٨) .
- ٣ المفصليات (ص ٤١٤) ، القاموس (٩٥/٢) .
- ٤ الخوارزمي ، مفاتيح (ص ٧٤) .
- ٥ اللسان (٦٠٦/٤) ، (عمر) .
- ٦ نهاية الأرب (٢٧٧/٢) ، (الباب الرابع من القسم الاول من الفن الثاني في الإنساب) .
- ٧ نهاية الأرب (٢٨٤/٢ وما بعدها) .

ما ذكرته يمثل مجمل آراء علماء النسب عند العرب في موضوع كيان القبيلة وفروعها التي تتفرع منها درجة درجة ، حتى تصل الى البيت ، الذي يتكون من الأب والأم وأولادهما . وقد رأينا انهم قد اختلفوا فيما بينهم وتباينوا في الترتيب وفي العدد . منهم من يقدم ، ومنهم من يؤخر ، ومنهم من يزيد ، ومنهم من ينقص . واختلفهم هذا فيما بينهم ، هو دليل يشعرنا ان التقسيم المذكور لم يكن تقسيماً ثابتاً عند كل القبائل وأنه لم يكن تقسيماً جاهلياً بل كان تقسيماً محلياً اختلف بين قبيلة وأخرى ، وأن أسماء اجزاء القبيلة ، لم تكن أسماء عامة متبعة عند الجميع ، أي أسماء مقررة عند كل قبيلة ، بل هي أسماء اخذها العلماء من هنا وهناك ، ولهذا وقع بينهم هذا الاختلاف ، ولو كان عند الجاهليين تقسيم واحد لاجزاء القبيلة فما كان من المعقول ان يقع علماء النسب واللغة فيما رأينا من تباين واختلاف ، ولوجب اتفاقهم في الترتيب وفي العدد . فالتقسيم المذكورة اذن ، هي من وضع وترتيب وجمع علماء النسب واللغة في الاسلام .

وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي : الأسرة ، اي (البيت) . فهي نواة القبيلة وبنيتها وجرثومتها ، ومن نموها ظهرت شجرة القبيلة — التي يختلف حجمها وتختلف كثرة اغصانها وفروعها باختلاف منبت الشجرة والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها . من بذرة جيدة ومن تربة صالحة وماء كاف . والبيت هو نواة القبيلة عند العرب ، وهو نواة القبيلة عند كل الشعوب القبلية . بل هو نواة المجتمع في كل مجتمع انساني .

القحطانية والعدنانية :

تحدثت في الجزء الاول من هذا الكتاب عن القحطانية والعدنانية بما فيه الكفاية^١ ، وأعود هنا فأقول ان ما ذكرته عن اهل المدر وأهل الوبر ، اي عن الحضر والبدو او الاعراب وهم اهل البادية ، لا يعني ان الحضر هم القحطانيون ، وان الاعراب هم العدنانيون . كما ذهب الى ذلك بعض المستشرقين باعتبار ان غالبية من نسميهم القحطانيين هم حضر ، او اقرب من غيرهم الى الحضر ، وأن غالبية العدنانية

١ (١/٤٩٣ وما بعدها) .

اعرابية متبدية . والصواب عندي ان في القحطانيين عرباً واعراباً ، وفي العدنانيين حضراً وبادية ، وان غلبت البداوة على العدنانيين . لأن من وجد الماء الدائم تنخ عليه وتحضر ، قحطانياً كان النازل أم عدنانياً ، فالحضارة تنبت حيث يكون الماء ، والماء لا يعرف النسب والقبائل . من وجده وظفر به وأقام عليه تحضر واستقر ، فصار حضرياً .

ولهذا نجد في حضر جزيرة العرب اقواماً يحشرهم اهل الانساب في قحطان ، ونجد في حضرها اقواماً يرجعون نسبهم الى عدنان .

ونحن اذا ما رسمنا خارطة لكيفية توزع الحضر والاعراب ، أو لكيفية انتشار القبائل ، فاننا نجد ان منازل القبائل متداخلة مشتبكة . ليست بينها حدود ولا اسوار حاجزة تحجز القبائل القحطانية عن القبائل العدنانية . الا في العربية الجنوبية حيث يرجع النسابون نسب اكثر قبائلها الى أصل قحطاني . أما في الاماكن الاخرى ، فان القبائل القحطانية وكذلك القبائل العدنانية منتشرة ، انتشاراً لا يدل على وجود تكتل وتحزب . بل نجد القحطانية تجاور العدنانية وتخالطها ونجد القحطانية في جوار القحطانية ، والعدنانية في جوار العدنانية ، مما يدل على ان هذا التوزيع لم يقم ولم يستند على عنصرية وحزبية وعلى هجرات منتظمة ، وانما قام على حق القوة وتحكم القوي في الضعيف ، مهما كان عنصر القوي وأصله . وأن التكتل قد حدث بدوافع سياسية عسكرية لعبت دوراً خطيراً في تكون النسب .

وظاهرة اخرى نراها عند القبائل ، تتجلى في ان القبائل وان تنقلت وارتحلت من مكان الى مكان ، سعيّاً وراء الماء والكأ ، كما يذكر اهل الاخبار ، الا ان ذلك لا يعني ان هذه الحركة هي حركة دائمية مستمرة ، وان القبائل كانت تنتقل دوماً من مكان الى مكان . بحيث صار الترحل لها سنة دائمة لازمة . فلو ثبتنا منازل القبائل على (خريطة) صورة جزيرة العرب ، استناداً الى روايات اهل الاخبار عنها ، وجدنا ، ان منازل القبائل لم تتبدل الا للضرورات ولأسباب قاهرة تكره القبيلة على ترك ديارها والارتحال عنها الى منازل جديدة . كأن تغزوها قبائل كثيرة العدد أقوى منها او ينحبس عنها المطر سنين ، تهلك الضرع ، او تحاربها قوة نظامية أقوى منها ، كالذي وقع لـ (إياد) ، حيث ازاحها (بنو عبد القيس) عن مواطنها في البحرين ، ثم شتت الفرس شملها في العراق فعندئذ تضطر القبيلة وهي مكروهة مجبورة على ترك ديارها للبحث عن ديار اخرى

جديدة . وتكاد تكون اكثر اسباب هجرات القبائل وارتحالها من اماكنها الى اماكن اخرى هي الاسباب المذكورة .

وطراز حياة القبائل في جزيرة العرب باستثناء العربية الجنوبية ، متشابه ، بحيث يصعب ان نجد فروقاً واضحة ظاهرة بين القبائل التي ينسبها النسابون المسلمون الى قحطان او الى عدنان ، فهي متشابهة وعلى وتيرة واحدة . وأما اللغة ، فاننا لا نجد فيما بين القبائل العدنانية والقحطانية اي خلاف يذكر على ما يظهر من روايات علماء اللغة . بل نجد ان لهجات القبائل القحطانية الشمالية هي لهجات عدنانية ، مخالفة للهجات اهل اليمن المعروفة التي كانت سائدة في اليمن الى ظهور الاسلام . فلهجات اهل اليمن من الحميرية وغيرها ، بعيدة عن لهجات القبائل القحطانية والعدنانية بعداً متساوياً ، حتى بالنسبة الى القبائل البائية التي غادرت اليمن في عهد متأخر ، كما سأبحث عن ذلك فيما بعد ، وفي القسم الخاص بلغات اهل الجاهلية . وهذه الظاهرة اهمية كبيرة بالنسبة الى دراسة اللغة والنسب عند العرب الجاهليين .

وعندي أن ما يذهب اليه المستشرقون من تقسيم العرب الى عرب جنوبيين وعرب شماليين ، هو تقسيم لا يمكن اعتباره تقسيماً علمياً . فان ما نشاهده من فروق في الملامح والمظاهر بين اهل العربية الجنوبية من اهل اليمن وحضرموت ومسقط وعمان وبين اهل الحجاز ونجد ، والعرب الشماليين الآخرين ، وان كان واضحاً ظاهراً ولا مجال الى نكرانه ، الا ان هذه الفروق لا يمكن اعتبارها مع ذلك حداً فاصلاً يقسم العرب الى مجموعتين : مجموعة شمالية ومجموعة جنوبية ، لسبب بسيط جداً سبق ان بيته في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وتحدثت عنه في مواضع اخرى منه . وهو ان كل مجموعة من المجموعتين لا تكون في نفسها وحدة متناسقة متجانسة ، بل تتألف من مجموعات يختلف بعضها عن بعض في السحن وفي الملامح ، بسبب عوامل الاتصال بالعالم الخارجي ، وبسبب اختلاف الظروف الطبيعية التي يعيش بها افراد كل مجموعة . فأهل جبال اليمن والجبال المتصلة بها الممتدة الى عمان ، يختلفون اختلافاً بيناً عن اهل السواحل والارضين المنخفضة ، ليس في الملامح والسحن فحسب ، بل وفي العمل وفي النشاط وفي المدارك ايضاً . وأهل السراة في العربية الغربية يختلفون عن اهل تهامة وبقية ساحل البحر الأحمر ، وأهل نجد يختلفون عن اهل ساحل الخليج . يختلفون عنهم في السحن واللامح كما

يختلفون عنهم في المدارك وفي حدة الذهن . وهذا الاختلاف هو شيء واقعي بين
العيون ، يراه كل انسان حين يزور بلاد العرب . وهو في حد ذاته شاهد على
فساد نظرية المستشرقين في تقسيم العرب الى مجموعتين .

وبعد ، فهذه الطبيعة طبيعة جزيرة العرب — من جوت وأرض ، من انحباس
مطر ومن ارتفاع في درجات الحرارة . ومن ييوسة في الهواء ، وقلة في الرطوبة ؛
ومن اختلاف في ضغط الجو اختلافاً يخل بتوازنه فيثير فيه اعاصير وعواصف ،
تعتدي على حرمة التربة الهادئة الراقدة ، ترفع رمالها الى ارتفاعات متباينة ، وتلفح
الأوجه والأجسام بـ (سموم) وبما شاكله من اهوية مزعجة ، تثير الغضب وتلهب
العصب ، وتجعل الجو داكناً اظلم مغبراً ، اصف الى ذلك ما نراه من نور ساطع
وأشعة لامعة تحمل أمواجاً غير مرئية تؤثر في خلايا البشرة وفي النفس ، ثم هذه
الرطوبة المفرطة المتحركة في التهائم ، وهذه الندرة في الانهار ، والاسراف في
ظهور البوادي والصحارى ، وتحكم الطبيعة تحكماً جائراً في توزيع النبات والحيوان
على اهل جزيرة العرب : كل هذه الامور وامثالها أثرت اثراً كبيراً في نفس
اهل جزيرة العرب ، وفي شكل اجسامهم ، وفي حالة معيشتهم ، فجعلتهم يختلفون
عن غيرهم بأمور ، ويتباينون فيما بينهم بأمور ، وذلك لاختلاف طبيعة اجزاء
الجزيرة نفسها . ونحن لن نستطيع فهم العرب فهماً صحيحاً دقيقاً ، الا اذا درسنا
هذه الامور المذكورة وامثالها دراسة علمية دقيقة . وعندئذ فقط نستطيع فهم سبب
تفشي البداوة بين العرب ، وسبب تطبع العرب بطباع خاصة ، واتسامهم بسمات
وعلامات خاصة وبملامح ومظاهر جسمية متباينة ، وأمثال ذلك مما تعرضت له في
نحث الجنس والسامية وفي بحث طبيعة العقلية العربية وما قيل في حقها من اقوال ،
وما ورد في العرب من مدح او ذم ومن وصف صادق او كاذب .

اركان القبائل :

يرجع كل العرب من حيث النسب الى ركن من (اركان القبائل) . فقد
اصطلح علماء النسب على ان للنسب عند العرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان :

ربيعة ومضر ويمن وقضاة .^١ وذلك على رأي من جعل قضاة ركناً قائماً بذاته .
ولا يمكن ان يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول .

وورد ان العرب في النسب على أربع طبقات : خندفي وقيسي ، ونزاري ،
ويمني^٢ . ويمن هي قحطان . وكان العرب يتعززون بانتسابهم الى اليمن ، فكان
من ينقلب على نسبه يتخذ لنفسه نسباً يمانياً . (وأكثر العزوة لمن ينقلب عن نفسه
الى اليمن ، لأجل أن الملوك كانت في اليمن : مثل آل النعمان بن المنذر من
لحم ، وآل سليح من قضاة ، وآل محرق ، وآل العرنج ، وهو حمير الأكبر
ابن سبأ كالتبابعة والأذواء وغيرهم . والعرب يطلبون العز ولو كان في شاحنات
الشواقي ، وبطون الامالق البوائق ، فيتسبون الى الأعز لحاية الحمية واباءة الدنية ..)^٣

ورجع بعض النسابين المعروفين نسب العرب الى ثلاث جرائم : نزار ، واليمن
وقضاة^٤ . ويمثل رأيهم هذا رأي القائلين بالأركان الاربعة للقبائل بالضبط ،
لأن نزاراً هو في عرفهم والد ربيعة ومضر ، وكل ما فعلوه هنا ، هو انهم
حذفوا اسمي الولدين وأحلوا اسم والدهما في محلها .

ورجع (المأمون) الخليفة العباسي ، اصول العرب الى قيس ويمن وربيعة
ومضر . فلما تعرض عربي بالمأمون وهو في زيارته لبلاد الشام ، ولامه في تقديم
أهل خراسان على العرب ، بقوله : (يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما
نظرت لعجم خراسان) ، أجابه الخليفة : (أكثرت عليّ يا أخا اهل الشام ،
والله ما انزلت قيساً عن ظهور الخيل الا وأنا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم
واحد . وأما اليمن فوالله ما احببتها ولا أحبني قط . وأما ربيعة فساخطة على
ربها منذ بعث الله نبيّه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شارباً ،
اعزب عني فعل الله بك ...)^٥

فأركان العرب في رأي المأمون اربعة : قيس ويمن وربيعة ومضر . وهي كتل

١ بلوغ الأرب (٢٠٣/٣) .

٢ نهاية الأرب (٢٧٨/٣) .

٣ نهاية الأرب (٢٨٣/٢) .

٤ الانباء (٦٣) .

٥ الاسلام والمشكلة العنصرية ، لعبد الحميد العبادي (ص ٩٠ بعدها) .

كانت على عادة العرب متنافسة متحاسدة متباغضة ، ترى كل واحدة منها نفسها وكأنها أمة دون سائر الأمم و (يمن) كناية عن العرب الجنوبيين من همدان وحير وكندة وأمثالها ، وأما قيس وربيعة ومضر ، فكناية عن تكتلات وتجمعات العرب من غير اليمن .

وذهب (ابن حزم) الى ان جميع العرب من أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعُتق ، وغسان ، فان كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وذلك ان تنوخاً اسم لعشر قبائل اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسُموا تنوخاً ، والعُتق جمع " اجتمعوا على النبي ، فظهر بهم فأعتقهم فسُموا بذلك ، وغسان عدة بطون نزلوا على ماء يسمى غسان فسُموا به .^١

ولما جاء (خالد بن الوليد) الى العراق كان جيشه من (ربيعة) و (مضر)^٢ ومن قبائل يمانية . ومعنى هذا وجود ثلاثة اركان قبائل محاربة . ولما قال (خالد بن الوليد) لـ (عدي بن عدي بن زيد العبادي) : (ويحكم ! ما انتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أو عجم ! فما تنقمون من الانصاف والعدل ! فقال عدي : بل عرب عاربة واخرى متعربة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم نحادونا وتكرهوا امرنا ؟ فقال له عدي : ليدلك على ما نقوله انه ليس لنا لسان الا بالعربية ، فقال : صدقت)^٣ ولا تعني جملة (بل عرب عاربة واخرى متعربة) معنى : ان العرب عربان ، عرب عاربة وعرب متعربة ، على النحو المفهوم منها عند اهل الاخبار . بل هي تعبر عن واقع اصل اهل الحيرة . فقد كان اهلها بين عرب صرحاء وبين عرب متعربة اي جماعة لم تكن عربية في الأصل وإنما كانت من اصل عراقي وفارسي اقامت في الحيرة ، وتأثرت بأهلها العرب فتكلمت العربية حتى صارت العربية لسانها ، فهي من العرب المتعربة . وقد كان كل عرب العراق على هذا النحو في ذلك الوقت . فهم بين عرب خلص وبين عرب متعربة ، لم تكن اصولها من منبت عربي ، وإنما دخلت في العرب فتطبعت بطباعهم وأخذت لسانهم حتى نسيت ألسنتها القديمة ، وصارت من العرب .

١ بلوغ الأرب (١٩١/٣) .

٢ الطبري (٢٤٧/٣) ، (مسير خالد الى العراق وصلاح الحيرة) .

٣ الطبري (٣٦١/٣) .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان العرب من (نزار) ملكتهم الفرس . وأن العرب من غسان ملكتهم الروم ^١ . فجعل (نزاراً) في مقابل غسان . ولم يكن كل عرب العراق من (نزار) . يدلك على ذلك ان ملوك الحيرة على رأي اهل الاخبار من قحطان . والذي يلاحظ من كيفية توزيع القبائل على حسب رواية اهل الاخبار ان معظم قبائل العراق ، هي من قبائل (نزار) او من (ربيعة) و (مضر) بتعبير آخر . اما معظم قبائل بلاد الشام فهي من (يمن) . اي على عكس الحال في العراق . فهل يمثل هذا التقسيم توزيعاً تأريخياً صحيحاً ؟ بمعنى ان اكثر قبائل العراق ، قد وردت العراق من العربية الشرقية والعربية الوسطى ، اي من سواحل الخليج ونجد ، وان عرب بلاد الشام انما جاؤوا الى هناك من اليمن ، عن طريق الحجاز ونجد . او انه تقسيم سياسي اصطلاحي ، نشأ قبل الاسلام بعهد طويل من المنافسة التي كانت بين العراق وبلاد الشام ، المنافسة التي ظلت باقية في الاسلام . فقد كان بين العراق وبين بلاد الشام عداً وتباغض ، لعوامل لا مجال للبحث فيها في هذا المكان . وقد استولت حكومات العراق من حكومات وطنية وأجنبية على بلاد الشام مراراً ، مما ولد مرارة وأوجد حقداً بين اهل العراق وأهل الشام ، فانتقل ذلك الى عرب القطرين ايضاً . فحارب عرب العراق عرب بلاد الشام ، حتى وصل هذا العداء الى دعوى وجود فرق بين اصل عرب العراق وأصل عرب بلاد الشام . فصارت اكثر قبائل العراق في عرف اهل الانساب من ربيعة ومضر ونزار ، وصار معظم بلاد الشام في عرفهم من اليمن . قياساً على ما كان عليه العرب عند ظهور الاسلام من انصار ومهاجرين ، او من يمن وعدنان ، او قحطان وعدنان وما شابه ذلك من اسماء . اما رأيي ، فان لأهل الاخبار يبدأ طول في هذا التقسيم الذي ظهر وابتغ في الاسلام . وان الجاهلية لم تكن تخلو من تجمعات وتكتلات قبلية ، لكنها كانت تختلف عن التجمعات التي اثارها النعرة القبلية الجديدة التي برزت في الاسلام ، والتي اثرت على ظهورها عوامل عديدة الى ان ثبتت ودونت في كتب اهل الانساب والاخبار .

وجعل بعض اهل الاخبار العرب يمناً ونزاراً . وذكر ان اليمن اصحاب بحر وبني نزار اصحاب بر ^٢ . وقصدوا باليمن اصحاب الساحل ، الذين عركوا البحر

١ المعاني الكبير (٩٤١/٢ وما بعدها) .

٢ المعاني الكبير (٦٤٠/٢) .

ونخبروه . عكس (نزار) ، عرب البر ، وهم قوم لا علم لهم بالبحر ، انهم لم يتعودوا على ركوبه . اذ سكنوا البر ولم يعركوا البحر ، فخافوا منه وتجنبوه .

والآراء المتقدمة في تقسيم العرب الى اركان وكتل ، هي آراء عربية محضة أخذت من واقع الحال ، ولم تستمد من التقسيم المألوف للعرب الى قحطانيين وعدنانيين ، التقسيم المأخوذ من التوراة على نحو ما شرحت ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب . ذلك لأن الحياة في بلاد العرب هي حياة تكتل وتحزب ، فكان لا بد للقبائل من عقد احلاف فيما بينها للمحافظة على نفسها من افتراس القبائل الكبيرة لها ، ومن استدلالها وأخذ ما تملكه . وبهذه الاحلاف حافظت القبائل الضعيفة على حياتها ، وحدثت من طمع القبائل الضخمة في القبائل الهزيلة ، وصار في الامكان السيطرة على الأمن والتقليل من حى غزو القبائل بعضها بعضاً .

وحاجة الاعراب الى الاحلاف اكثر وأشد من حاجة الحضر اليها ، وذلك بسبب ان الغزو في البادية ضرورة من ضرورات الحياة لفقر البادية وشحها ، لانبساط ارضها وعدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزو منه . فاضطرت القبائل على خلق حماية طبيعية لها هي الاحلاف . والاحلاف هي لغاية حماية المال والنفس في الغالب ، ولكبح جماح المعتدين اذن . اما الاحلاف الهجومية التي تعقد لتحقيق اغراض هجومية مثل غزو حلف حلفاً آخر او قبيلة ضخمة قبيلة ضخمة اخرى ، فانها لا تعمر طويلاً كما تعمّر الاحلاف الدفاعية ، لأن اسباب انعقادها تزول بتنفيذ ما اتفق عليه ، وقد يتحطم الحلف بسبب ظهور اختلافات مصالح لم تكن في حسابان المتحالفين يوم عقدوا حلفهم ، فيتصدع بنيان الحلف ويتهدم ويزول الحلف ليظهر محله حلف آخر جديد .

اما الحضر ، فان لهم من حماية ارضهم لهم ، ومن طبيعة الحياة التي يحونها ما يخفف من حاجتهم الى الحلف القبلي ، ويجعل احلافهم احلافاً من طراز آخر . فقد منحت الطبيعة الحضر حجراً صلباً بنوا به ابراجاً وحصوناً ومعاقل حموا بها مستوطناتهم ، من طمع الطامعين فيهم ، ولا سيما من الاعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديمها لعدم وجود اسلحة تؤثر فيها ، ومنحتهم تربة صار من الممكن عمل الاجر او اللبن منها لبناء المحافد والآطام وما شاكل ذلك من وسائل الدفاع ، كما امدتهم بمواد بناء مكنتهم من انشاء الخيطان والأسوار حولها ،

وهي مانع يصد الأعراب عن الحضر . وهم بالاضافة الى ذلك أقدر على الدفاع عن أنفسهم وعلى اللجوء الى الحيل للتخلص من الأعراب بسبب تحضرهم وتقديمهم في التفكير على عقلية الفطرة التي جبل البدو عليها . وغاية ما فعله الحضر من الأحلاف ، هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من التحرش بهم . وعقد حبال مع القبائل لمرور تجارهم من أرضها بأمن وسلام مقابل هدايا أو أرباح أو أموال تعين ، تدفع الى ساداتها تأليفاً لقلوبهم وضماناً منهم لهم بعدم تحرش أحد بهم .

ولما تقدم انحصرت الأحلاف الكبرى أو التكتلات القبلية الضخمة بالأرضين المكشوفة التي غلب عليها الطابع الصحراوي . وبين القبائل التي غلبت البداوة عليها . والأحلاف الكبرى ، هي في نظري كناية عن النسب الأكبر عند العرب . فريضة ومضر وإياد وأنمار وقضاعة ، هي في الواقع تكتلات قبيلة تكونت من قبائل غلبت البداوة على طبعها ، وقد ظهرت خارج العربية الجنوبية ، أي خارج الأرضين التي غلب على سكانها طابع الارتباط بالأرض والقرار . أما القبائل القحطانية ، التي هي في التوراة كناية عن قبائل عربية جنوبية مستقرة ، فكتل أخذت أسماءها من الأرضين التي كانت تحكمها أو من اسم القبيلة التي سميت باسمها . وبين أسماء القبائل وأسماء الأرضين صلة متينة ، بحيث يصعب الحكم فيما اذا كانت الأرض قد أخذت اسمها من اسم القبيلة ، أو ان القبيلة أخذت اسمها من اسم الأرض .

وقد لعبت فكرة (قحطان) و (عدنان) دوراً مهماً في حصر الأنساب عند العرب في الإسلام . يذكر الجاحظ ان رجلاً اسمه (شويس الساسي التميمي العدوي) ، المعروف بـ (أبي فرعون) ، كان قد قدم البصرة ، فذهب الى رجل منها اسمه (كهمس) يلتمس العون منه ، فأعطاه رغيماً من الخبز الحواري ، ثم ذهب الى رجل آخر اسمه (عمر بن مهران) ، فلم يعطه ما كان يريد ، فضاق ذرعاً من هذا الرغيف ، وذهب الى حلقة (بني عدي) فوقف عليهم وهم مجتمعون ، وأخرج الرغيف من جرابه وألقاه في وسط المجلس ، وقال : يا بني عدي ، استفحلوا هذا الرغيف ، فإنه أنبل نتاج على وجه الأرض ! ثم قال شعراً سخر فيه من أهل البصرة ومن تشدقهم في الانتساب الى قحطان

أو عدنان ، وفحش بهما ومن انتساب الناس اليهما ، بينا الناس هنالك ما بين
نبط أو خوزان^١ .

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام ، وفي
الإسلام . حمير وكهلان . ومن مجموعة حمير قضاة ، في رأي من جعل قضاة
من اليمن . ومن قضاة كلب وأسد ومن أسد تنوخ . واما مجموعة كهلان ،
فتألف من الأزد وهمدان ومنحج وطيء ، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج .

وربيعة من القبائل العربية الكبيرة العدد ، وقد سبق ان تحدثت عنها في مواضع
من الأجزاء السابقة من هذا الكتاب . وقد عرفت (ربيعة) بـ (ربيعة الفرس) .
ويعلل أهل الأخبار اشتغارها بذلك بقولهم : (وربيعة الفرس . هو ابن نزار بن
معد بن عدنان ، أبو قبيلة . وإنما قيل له ربيعة الفرس لأنه أعطي من ميراث أبيه
الحيل ، وأعطي أخوه مضر الذهب . فسمي مضر الحمراء . وأعطي أنمار
أخوهما : الغم ، فسمي أنمار الشاة^٢ . وذكروا أيضاً : ان نزاراً لما حضرته
الوفاة ، أثر إيراداً بولاية الكعبة ، وأعطي مضر ناقة حمراء ، فسمي مضر الحمراء ،
وأعطي ربيعة فرسه ، فسموا ربيعة الفرس ، وأعطي أنمار جارية له تسمى :
بجيلة فحضنت بنيه ، فسمي بجيلة أنمار^٣ . وذكر أيضاً ان نزاراً لما حضرته
الوفاة قسم ماله بين بنيه ، (وهم أربعة : مضر وربيعة وإياد وأنمار . وقال :
يا بني ، هذه القبة وهي من آدم حمراء وما أشبهها من المال لمضر ، وهذا الخباء
الأسود وما شبهه من المال لربيعة ، وهذه الخادم وما أشبهها من المال لإياد ،
وهذه البلرة والمجلس لأنمار يجلس فيه) . ولما مات توجهوا الى (الأفعى بن
الأفعى الجرهمي) وكان ملك نجران ، وصادفوا في طريقهم أعرابياً ضل بعيده ،
فوصفوه له ، فقال لهم دلوني عليه ، ولما حلفوا له أنهم لم يروه وإنما وصفوه
من أثره ، لم يصدقهم بل أخذهم الى (الأفعى) ليحلفوا أمامه أنهم لم يروه ،
فلما بلغوه قصصهم مع الأعرابي ، وذكروا أنهم إنما وصفوه من أثره على
الأرض . فحكم لهم (الأفعى) بأنهم صادقون ، وأنهم لم يشاهدوه ، ثم احتفل
بهم بعد ان عرفهم وجرب ذكاءهم ، وحكم بأن لمضر القبة الحمراء والدنانير

١ كتاب البغال ، من رسائل الجاحظ (٣١٤/٢ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣٤٣/٥) ، (ربح) .

٣ نهاية الأرب (١٠/١٦) .

والإبل ، وهي حمر فسميت : مضر الحمراء ، وإن لربيعة الخباء الأسود من دابة ومال ، فصارت له الخيل ، وهي دهم ، فسميت ربيعة الفرس . ثم قال : وما أشبه الخادم ، وكانت شمطاء ، فهو لإياد ، فصارت له الماشية البلق من الخيل وغيرها ، وقضى لأتمار بالدراهم والأرض^١ .

و (مضر) من القبائل الكبيرة . وقد عرفت ب (مضر الحمراء) كما ذكرت . وفسر علماء اللغة والنسب اشتها (مضر) على نحو ما ذكرت قبل قليل ، وفسره بعضهم بقوله ومضر الحمراء ، لأنه أعطي الذهب من ميراث أبيه . وأخوه ربيعة أعطى الخيل . فلقب بالفرس . أو لأن شعارهم في الحرب الرايات الحمراء^٢ . وقال بعض علماء اللغة ، وإنما سُمِّي مضر بمضر : (لولعه بشرب اللبن الماضر أو لبياض لونه) ، (والعرب تسمي الأبيض أحمر ، فلذلك قيل مضر الحمراء)^٣ . وذكر بعض أهل الأخبار أن مضر مضران : مضر الحمراء لسكنائها قباب الأدم ، ومضر السوداء لسكنائها المظال^٤ .

ويظهر من هذه التفسيرات ، أن (مضر) كانت قد نعتت ب (الحمراء) قبل ظهور الإسلام . وإن (ربيعة) كانت قد عرفت ب (ربيعة الفرس) ، ولعل هذا بسبب ، أن (مضر) كانت إذ ذاك قبائل ذات إبل وتجارة ومال ، ومنها (قریش) التي عرفت بتجارتهما وبما جمعتهم من مال ، فقالوا (مضر الحمراء) . وأما (ربيعة) ، فكانت قبائل متبدية غازية محاربة ، لها خيل وفرسان لهذا عرفت ب (ربيعة الفرس) .

وقد أشار الشاعر (لبید) إلى ربيعة ومضر في شعره حين تعرض للذكر الموت ، فقال :

تمنى ابتائي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر^٥

- ١ الدميري ، حياة الحيوان (٣١/١) (الأفعى) .
- ٢ تاج العروس (١٥٨/٣) ، (حمر) .
- ٣ تاج العروس (٥٤٤/٣) ، (مضر) .
- ٤ نهاية الأرب (٩١٦) .
- ٥ ديوان لبید (٢٨/١) ، (١/٢) .

أراد : هل أنا إلا من أحد هذين الجنسين ، فسييلي ان أفنى كما فنيا ^١ .
ونسب اليه قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والدأ ودون معد فلتزعك العواذل ^٢

فأشار بذلك الى (عدنان) و (معد) .

ومن أشهر قبائل مضر (قريش) ، حتى ان الناس كانوا إذا قالوا : مضري
انصرف ذهنهم الى قرشي . على سبيل الشهرة ، لاشتهار قريش بالمضرية . فلما
رأى رجل (أبا سفيان) واقفاً بباب (عثمان بن عفان) ينتظر الإذن بالدخول
عليه . قال له : (يا أبا سفيان ، ما كنت أرى ، ان تقف بباب مضري ،
فيحجبك ! فقال أبو سفيان : لاعلمت من قومي من أقف ببابه فيحجبني) ^٣ .

القبائل القوية :

والقبائل مثل الدول ، أنماط ودرجات . منها قبائل قوية نشطة تعتمد على
نفسها في الدفاع عن كيائها ، ومنها قبائل أقل من هذه القبائل شأناً وقوة تتحالف
مع غيرها في الدفاع عن نفسها ، لتكون من الحلف كتلة قبلية مهابة . وقبائل
صغيرة ليست لها قدرة على الدفاع عن حياضها لوحدها ، لذلك تركز الى التحالف
مع قبائل أخرى أقوى منها لتحافظ بذلك على وجودها .

والقبائل القوية هي القبائل الكثيرة العدد والموارد . وإذا ترأسها سادات ذوو
كفاءة وقلرة ، هابتها القبائل الأخرى ، وسادت على غيرها ، وكونت منها
ومن القبائل التي تستولي عليها مملكة ، كالذي فعلته كندة . ولم يورد العلماء
شروطاً في الحد الأدنى أو الحد الأكبر للقبيلة . وذلك من ناحية عدد العشائر
والبطون والأفخاذ ، فلم نعثر على حد معين إذا بلغته جماعة من الناس وجب اطلاق
لفظة (قبيلة) عليها . بل نجد علماء النسب يطلقونها أحياناً على بطون وأفخاذ ،

١ أمالي المرتضخ (١٧١/١) ، (٥٥/٢) ، (تود ابنتاي) .

٢ أمالي المرتضى (١٧١/١) .

٣ نهاية الأرب (٨٨/٦) .

فيقولون : قبائل قريش ، ويذكرون أساءهما ، بينما هي في الواقع (آل)
أو أرهاط وبطون .

ويقال للقبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها (الأرحى)^١ . وعرفت
القبيلة التي لا تنضم الى أحد ب (الجمرة) . ذكر أنها القبيلة تقاتل جماعة قبائل .
وكل قبيل انضموا فصاروا يبدأ واحدة ولم يحالفوا غيرهم ، فهم جمرة . وقيل :
الجمرة : كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحداً ولا ينضمون الى
أحد . تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صبرت عبس لقبائل
قيس . ولما سأل (عمر) الخطيئة (عن عبس ومقاومتها قبائل قيس . قال :
(يا أمير المؤمنين كنا ألف فارس كأننا ذهبية حمراء ، لا نستجمر ولا نحالف ،
أي لا نسأل غيرنا ان يجتمعوا الينا لاستغنائهم عنهم) . والجمرة اجتماع القبيلة
الواحدة على من ناوأها من سائر القبائل^٢ .

وذكر ان (الجمرة) ألف فارس ، أي القبيلة التي يكون فيها ذلك العدد
من الفرسان ؛ وقيل ثلثمائة فارس أو نحوها . والذي يستتج من آراء علماء اللغة
والنسب في تعريف (الجمرة) ، أنها القبائل المقاتلة القوية التي تعتمد على نفسها
في القتال ، ولا تركز الى غيرها ، ولا تحالف غيرها لتستفيد من هذا الحلف
في قراع القبائل^٣ .

ومن مفاخر هذه القبائل كثرة ما عندها من فرسان ، والفرسان في ذلك اليوم
هم عماد حركة الجيوش ، ومن أسباب القوة والانتصار . وقد عدّوا القبيلة التي
يكون فيها ثلاثمائة فارس أو نحوها جمرة ، وقيل الجمرة : ألف فارس^٤ .

ومن جمرات العرب : ضبة بن اد ، وعبس بن بغيض ، والحارث بن
كعب ، ويربوع بن حنظلة^٥ . وذكر بعض العلماء ان جمرات العرب ثلاث

١ اللسان (٣١٤/١٤) ، (صادر) ، (رجا) ، تاج العروس (١٠/١٤٦) ،
(رجا) .

٢ اللسان (١٤٥/٤) ، (صادر) ، (جمر) ، الحصري ، زهر الآداب (١/٢٥) .

٣ تاج العروس (١٠٧/٣) ، (جمر) .

٤ اللسان (١٤٥/٤) ، (صادر) ، (جمر) .

٥ المحبر (ص ٢٣٤) .

جمرات : بنو ضبّة بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو نمر بن عامر . فطفئت منهم جمرتان . طفئت ضبّة ، لأنها حالفت الرباب وطفئت بنو الحارث ، لأنها حالفت مذحج . وبقيت (نمر) لم تطفأ ، لأنها لم تحالف . وورد ان الجمرات : عيس بن ذبيان بن بغيض ، والحارث بن كعب ، وضبّة بن اد ، وهم إخوة لأم . لأن أمهم امرأة من اليمن . تزوجها (كعب بن عبد المدآن يزيد بن قطن ، فولدت له : الحارث بن كعب ، وهم أشرف اليمن . ثم تزوجها (بغيض بن ريث بن غطفان) ، فولدت له عيساً وهم فرسان العرب ، ثم تزوجها (اد) فولدت له ضبّة . فجمرتان في مضر ، وهما عيس وضبّة وجمرة في اليمن ، وهم بنو الحارث بن كعب . وذكر بعض آخر ان الحارث ، هم بنو كعب بن علة بن جلد . ومنهم من عدّ تميمياً من الجمرات ^١ .

(قال الخليل : الجمرة كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم ، لا يحالفون أحداً ، ولا ينضمون الى أحد ، تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لمقارعة القبائل كما صبرت عيس لقيس كلها) ^٢ .

واذا تأملت كلام العلماء في جمرات العرب ، تجده يصادم بعضه بعضاً حتى ان الواحد منهم يذكر عدداً ، ثم يذكر عدداً غيره في موضع آخر من كتابه . وقد اعتذر عن ذلك بعض العلماء إذ قال : (قلت فاذا تأملت كلامهم تجده مصادماً بعضه مع بعض) ، ثم ذكر أمثلة من أمثلة هذا التصادم ، ثم خلص الى هذه النتيجة ، واعتذر عنهم بقوله : (واذا تأملت كلامهم علمت انه لا مخالفة ولا منافاة ، إلا ان البعض فصل والبعض أجمل) ^٣ .

وعندي ان للعواطف القبلية دخل في هذا الاضطراب ، فن النساءين من تعصب لقبيلة ، فجعلها من الجمرات ، بسبب صلته بها ، ومنهم من تعصب لغيرها ، ومنهم من تعصب على هذه القبيلة أو تلك ، فأخرجها من الجمرات ، فن هنا وقع هذا الارتباك عند العلماء حين سألوا نسابي القبائل ورواة الأخبار عن أيام

١ تاج العروس (١٠٧/٣) .

٢ الثعالبى ، ثمار (١٦٠) .

٣ تاج العروس (١٠٧/٣) .

الجاهلية ، وعن الأنساب والقبائل ، وهي من أهم الأمور حساسية عند العرب ، فظهرت العصبية في مؤلفات أهل النسب والاختبار حين شرعوا بالتدوين .

وعرفت القبائل القوية الكبيرة التي تفرعت منها جملة قبائل ب (أم القبائل) . ومن هذه القبائل (بكر بن وائل)^١ . وسبب ذلك ان القبيلة القوية تكبر بسبب انضمام القبائل الصغيرة ، فاذا توسعت وتضخم عددها صار من الصعب عليها البقاء في منازلها ، فتضطر عندئذ على التوسع والانتشار في أراضين جديدة . وقد تغادر أحياء منها منازلها لتجد لها منزلاً طيباً جديداً ، فتبتعد بذلك عن القبيلة الكبيرة التي جمعت تلك الأحياء . فتكون بمثابة الأم للقبائل النازحة . تربطها بها رابطة ذكرى الأمومة ، التي تتحول الى نسب تحفظه ذاكرة حفاظ الأنساب .

وعرفت أربع قبائل بشدتها وبأسها ، قليل لها : (رصفات العرب) . وهي : (شيان وتغلب وبهراء وإياد)^٢ .

وقيل لـ (كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان) من قضاة ، و (طيء ابن ادد) ، و (حنظلة بن مالك بن زيد مناة) من (تميم) ، و (عامر بن صعصعة بن معاوية) من (هوازن) ، (جهاجم العرب)^٣ . وذكر ان (الجهاجم) السادات والرؤساء ، وان القبائل المذكورة ، كانت من جهاجم القبائل ، أي من رؤسائها ، وقد دعيت بـ (جهاجم) ، لأنها بمنزلة جمجمة الرأس بالنسبة للإنسان^٤ . أي ان هذه القبائل من القبائل الرئيسة عند الجاهليين .

وبين القبائل ، قبائل دعاها (ابن حبيب) (أثافي العرب) . وهي (سليم) و (هوازن) من (قيس عيلان) ، و (غطفان) ، و (أعصر) و (محارب ابن خصفة)^٥ . و (الإثفية) العدد الكثير والجماعة من الناس^٦ . والظاهر انها إنما عرفت بذلك لكثرة عددها .

- ١ المعارف (ص ٩٦) ، (بكر بن وائل) .
- ٢ تاج العروس (١١٩/٦) ، (رصف) ، المحبر (٢٣٤) .
- ٣ المحبر (ص ٢٣٤) .
- ٤ تاج العروس (٢٣٣/٨) .
- ٥ المحبر (٢٣٤) .
- ٦ تاج العروس (٣٧/٦) (اثف) ، الثعالبي ، ثمار (١٦١) .

ومن مفاخر القبائل اعتزالها القبائل الأخرى وعدم مخالطتها قبيلة ثانية . وتنفخر الأحياء بمجردها أيضاً . فيقال (حي حريد منفرد) ، ومعناه معتزل من جماعة القبيلة لا يخالطهم في ارتحالهم وحلوله لغزته ، لأنه لا يتزل في قوم من ضعف وذلة لما هو عليه من القوة والكثرة ^١ .

وذكر أن القوم الذين يكون أمرهم واحداً يعرفون بـ (الخليط) . وذلك أنهم كانوا ينتجعون أيام الكلاً ، فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد ، فتقع بينهم ألفسة ، ويكونون يداً واحدة . فإذا افرقوا ورجعوا إلى أوطانهم ساءهم ذلك وريعوا ^٢ .

وهناك قبائل ضعيفة ، لم تتمكن أن تعيش لوحدها ، لذلك تحالفت مع غيرها من قبائل أقوى منها ، واندجت بها . كما يندمج الأشخاص بالقبائل ، بالخلف أو بالجسوار أو بالموالاة . وعند انضمام الأحياء والعشائر والقبائل الضعيفة إلى الأقوى منها ، بطريقة من الطرق ، يتم ذلك ، بطقوس دينية على نحو ما سأحدث عنه في عقد الأحلاف . بسبب أن العقود في نظر العرب تستوجب البرّ بها والوفاء ، ولهذا تعقد في ظروف خاصة أمام الكهنة وفي المعابد .

القاب بعض القبائل :

ولقد لقيت بعض القبائل بالقاب . فقد قيل : مازن غسان أرباب الملوك ، وحير أرباب العرب ، وكندة كندة الملوك ، ومذحج الطعان ، وهمدان أحلاس الخيل ، والأزد أسد البأس ، والذهلان : أحدهما ذهل شيبان بن ثعلبة ويشكر ، والآخر ضبيعة وذهل بن ثعلبة ، واللهزمتان : أحدهما عجل وتيم اللات ، والأخرى قيس بن ثعلبة وعنزة ، وكلهم من بكر بن وائل ، إلا عنزة بن ربيعة ^٣ .

١ وفي هذا المعنى قول جرير :

نبني على سنن العدو بيوتنا
لا نستجير ولا نحل حريدا

تاج العروس (٣٣٣/٢ وما بعدها) ، (حرد) .

٢ ديوان بشر بن أبي خازم (١٢٩) ، (تاج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) ،

نهاية الأرب (٩/١٨) .

٣ العمدة (١٩٤/٢) .

وبعض هذه الألقاب ألقاب حسنة جميلة ، وبعضها ألقاب تشير الى قوة وبأس وشدة ، وبعض منها مقبول لا بأس به . وهي القاب كانت القبائل الملقبة بها تفاخر وتتباهى بها ، او تقبلها ولا ترى فيها أي بأس . وهي على العموم اما ان تكون قد نعت من القبيلة ، كأن ينعت سيد قبيلة قبيلته بنعت ، فتمسك به ، او ان ينعتها بذلك شاعر منها او شاعر من قبيلة اخرى ، فيذهب هذا النعت بين الناس ، ويصير سمة للقبيلة . غير ان في الألقاب بعض آخر يشير الى استصغار شأن القبيلة التي نعتت به ، مثل (القين)^١ و (الأجارب)^٢ و (الأقرع)^٣ ، و (قراد)^٤ ، وما شاكل ذلك من ألقاب ، تحولت الى مسميات . اي تحول اللقب فصار اسم علم . وهي نعوت يظهر ان مصدرها شعر المهجاء والقبائل المعادية المتنازعة بالألقاب . وقد شاعت وثبتت لأنها أثرت في القبائل المهجوة وآلتها ، فتمسك قائلوها بها ، وشاعت بين الناس حتى نسي سبب قولها ، وصارت اسم علم للقبيلة ، ولم ير من جاء بعد ذلك بأساً من الانتماء الى القبيلة المنبوزة به .

وقد رمت بعض القبائل قبيلة إياد بالفسو ، وعيرتها به ، حتى اذا كان أحد رجالها بعكاظ ، ومعه بردا حبرة ، قام فقال : من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين ؟ فقام عبد الله بن بيلدة احد (مَهْوَ) حي من عبد القيس ، فقال : هاتهما ، واشهدوا اني اشتريت عار الفسو من إياد لعبد القيس بالبردين . فلما أتى رحله وسئل عن البردين ، قال : اشتريت لكم بهما عار الدهر ، فوثبت عبد القيس ، وقالت :

ان الفساة قبلنا إياد ونحن لا نفسو ولا نكاد

وتفرق الناس عن عكاظ بابتياح عبد القيس عار الفسو . ثم ان هذا العار زال عن اياد ولصق بعبد القيس ، فهجوا به كثيراً . وضرب المثل ب (عبد الله بن بيلدة) ، فقليل : (شيخ مَهْوَ) ، ضرب به المثل في الخسران . وقيل : أخسر صفقة من شيخ مهو^٥ .

- ١ تاج العروس (٣١٦/٩) ، (قان) .
- ٢ تاج العروس (١٨١/١) ، (جرب) .
- ٣ تاج العروس (٤٦٦/٥) ، (قرع) .
- ٤ تاج العروس (٤٦٥/٢) ، (فرد) .
- ٥ الثعالبي ، ثمار (١٠٦)

وبعض هذه النعوت قيل في الاسلام، من ذلك رمي (تميم) بالبخل واللؤم ، بسبب هجاء الطرماح لها وقوله فيها :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت^١
ونجد لجرير وللفرزدق وللأحايش ولغيرهم ذمّاً في قبائل الشعراء المتهاجين.

ومن القبائل الملقبة : الأحايش ، وقد تحدثت عنهم ، والمطيون والأحلاف ، وهم من قريش ، وقد تحدثت عنهم ايضاً ، والأراقم ، وهم : جشم ، ومالك ، وعمرو بن ثعلبة ، ومعاوية ، والحارث ، بنو بكر بن حبيب بن غنم بن ثعلب ابن وائل^٢ . وهم احياء من ثعلب ، جعلهم بعضهم ستة . هم : جشم ومالك وعمرو وثعلبة ومعاوية والحارث بنو بكر بن حبيب بن غنم بن ثعلب بن وائل . وقال بعض علماء اللغة ، الأراقم : بطون من بني تغلب يجمعهم هذا الاسم . قيل سمّوا بذلك لأن ناظراً نظر اليهم تحت الدثار وهم صغار ، فقال : كأن أعينهم اعين الأراقم ، فلج عليهم اللقب^٣ .

وعرفت بعض القبائل بـ (البراجم) ، وهم خمسة بطون من بني حنظلة : قيس ، وغالب ، وعمرو ، وكلفة ، والظليم ، وهو مرة . قيل انهم انما سموا بذلك ، لأنهم تبرجموا على اخوتهم يربوع وربيعه ومالك ، وكلهم ابوهم حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرة^٤ . وذكر ايضاً انهم انما سموا البراجم ، وذلك لأن اباهم قبض اصابعه ، وقال كونوا كبراجم يدي هذه . اي لا تفرقوا ، وذلك اعز لكم . وقيل : لا ، وانما سموا بذلك ، لأنهم تحالفوا ان يكونوا كبراجم الأصابع في الاجتماع^٥ .

وعرف (الثعلبات) بهذه التسمية ، لانهم بطون ، اسم كل بطن منهم (ثعلبة) . وهم : ثعلبة بن سعد بن ضبة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وثعلبة بن عدي

١ امالي المرتضى (٢٨٩/١) .

٢ العملة (١٩٤/٢) .

٣ تاج العروس (٣١٧/٨) ، (رقم) .

٤ العملة (١٩٥/٢) .

٥ تاج العروس (١٩٩/٨) ، (البرجمة) .

فزاره ، وأضاف اليهم قوم : ثعلبة بن يربوع ^١ . ويقال لهم (الثعالب) ايضاً .
 وهم قبائل شتى ، فثعلبة في (بني اسد) ، وثعلبة في تميم ، وثعلبة في ربيعة ،
 وثعلبة في قيس . ومنها الثعلبتان من طيء . وهما ثعلبة بن جذعاء بن ذهل بن
 رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة من طيء . وثعلبة بن رومان بن
 جندب المذكور . وذكر ان الثعالب في طيء يقال لهم مصاييح الظلام ، كالربائع
 في تميم ^٢ .

وأما (الرباب) ، فهم ضبة بن أد بن طابخة ، وتيم ، وعدي ، وعوف ،
 وهوعكل ، وثور ، وكل هؤلاء بنو عبد مناة بن أد بن طابخة ^٣ . قيل انهم
 انما سموا بذلك لتفرقهم ، وقيل : سمو رباباً لترابهم ، اي تعاودهم وتحالفهم
 على تميم . وقيل : سموا بذلك لأنهم أدخلوا أيديهم في رُبّ وتعاقدوا وتحالفوا
 عليه فصاروا يداً واحدة ^٤ .

وأما (الأجارب) ، فهم : خمس بطون من (بني سعد) ، وهم : ربيعة ،
 ومالك ، والحارث ، وعبد العزى ، وبنو حمار ^٥ . وورد الأجارب حيّ من بني
 سعد بن بكر من قيس عيلان ، واذا قيل : الأجربان ، فهما : عيس وذبيان ^٦ .
 و (الحرام) ، هم : بنو كعب بن سعد بن زيد مناة ^٧ . وذكر ان في
 العرب بطوناً ينسبون الى (آل حرام) . منهم بطن في تميم وبطن في جذام وبطن
 في بكر بن وائل . وهناك بطون اخرى عرفت بـ (حرام) ^٨ .

وأما (الضباب) ، فهم (بنو عمرو بن معاوية بن كلاب) ، قال بعض
 اهل الانساب انهم اربعة بطون من (بني كلاب) . وقال بعض آخر . انهم
 اكثر ، وأوصلوهم الى اربعة عشر بطناً ^٩ .

-
- ١ العملة (١٩٥/٢) .
 - ٢ تاج العروس (١٦٥/١) ، (ثعلب) .
 - ٣ العملة (١٩٥/٢) .
 - ٤ تاج العروس (٢٦٤/١) ، (ربب) .
 - ٥ العملة (١٩٥/٢) .
 - ٦ تاج العروس (١٨١/٢) ، (جرب) .
 - ٧ العملة (١٩٥/٢) .
 - ٨ تاج العروس (٢٤٣/٨) ، (حرم) .
 - ٩ العملة (١٩٥/٢) ، تاج العروس (٣٤٥/١) ، (ضبيب) .

واشتهرت بعض القبائل والعشائر والبيوت بنعوت لازمتها في الجاهلية وامتدت الى الاسلام ، فقد عرف بنو مخزوم وبنو جعفر بن كلاب بالتيه والكبر ، حتى قيل : (اربعة لن يكونوا ومحال ان يكونوا : زيدي سخي ، ومخزومي متواضع ، وهاشمي شحيح ، وقريشي يحب آل محمد) ^١ .

واشتهرت (طيء) بالجود . لكون حاتم وأوس بن حارثة بن لأم منهم ^٢ . وعرفت (باهلة) باللؤم ، حتى ضرب بها المثل في اللؤم ، فقيل : لؤم باهلة ^٣ . واشتهر (بنو ثعل) بالرمي ، وذكروا بذلك في شعر لأمريء القيس ^٤ . واكتسبت (مدلج) شهرة واسعة في القيافة ، اذ اختصت بها من بين سائر العرب ^٥ . وبرز (بنو لهب) في العيافة . فهم أزجر العرب وأعينهم ^٦ . وعرفت (لياد) بخطباتها ، وملوك غسان يرثيهم ، الذي قيل له : (ثريدة غسان) ^٧ . وعرفت كندة بغلاء مهور بناتهم ^٨ ، وعرفت (خزاعة) بالجوع والأحاديث ، قيل لزهان : ما تقول في خزاعة ؟ قال جوع وأحاديث ^٩ . اي فقر ودعاوى فارغة وأضغاث أحلام .

وعرفت بعض القبائل بـ (الضبيعات) . وهي (ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) ، أشرفهن . و (ضبيعة أضجم بن زبيعة بن نزار) ، و (ضبيعة بن عجل بن لجيم) ^{١٠} . وذكر أيضاً أن في العرب قبائل تنسب الى (ضبيعة) : (ضبيعة ابن ربيعة بن نزار) ، وهو المعروف بـ (الأضجم) ، و (ضبيعة بن اسد ابن ربيعة) ، قال بعضهم انما ضبيعة أضجم ، و (ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ابن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل) ، وهو ابو رقاش أم مالك وزيد مناة ابني شيان ، وهم رهط الأعشى : ميمون بن قيس . و (ضبيعة بن عجل بن

-
- ١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٧) .
 - ٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١١٧) .
 - ٣ المصدر نفسه (١١٩) .
 - ٤ كذلك (١٢٠) .
 - ٥ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٢٠ وما بعدها) .
 - ٦ المصدر نفسه (١٢١) .
 - ٧ كذلك (١٢٢ وما بعدها) .
 - ٨ كذلك (١٢٣) .
 - ٩ البيان (٩/١) ، (لجنة) .
 - ١٠ المحبر (٣٣٥) .

لجيم بن صعب بن بكر بن وائل ، رهط الوصاف . و (ضبيعة بن فريد) .
بطن من الأوس من بني عوف بن عمرو ، وضبيعة بن الحارث العبسي ^١ .

ودكر (ابن حبيب) اسماء قبائل عرفت بـ (الربائع) . هي في (تميم) .
وهي : (ربيعة الجوع بن مالك بن زيد مناة بن تميم) ، و (ربيعة بن حنظلة
ابن مالك بن زيد بن تميم) ، و (ربيعة بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد
مناة بن تميم) ، كل واحد منهم عم صاحبه . و (ربيعة بن كعب بن سعد
ابن زيد مناة) ، وهم (الحباقي) ^٢ . وورد : في تميم ربيعتان : الكبرى وهي
ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وتدعى : ربيعة الجوع . والصغرى وهي :
ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة من تميم ^٣ .

اسماء اجداد القبائل :

ولكل قبيلة - كما ذكرت - جد تنتمي اليه وتفاخر وتباهي به . وقد يكون
هذا الجـدّ جدّاً حقيقياً ، اي انساناً عاش ومات ، وساد القبيلة . وترك اثراً
كبيراً في قبيلته ، حتى نسبت القبيلة اليه . وقد يكون الجـد اسم حلف تكون ،
وتألف من قبائل عديدة ، حتى عرفت به ، ودعيت بذلك الحلف ، وصار وكأنه
اسم جد وانسان عاش . ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهل
الاخبار ، فقد رووا ان تنوخ قبائل عديدة ، اجتمعت وتحالفت ، وأقامت
في مواضعها ^٤ .

وقد يكون اسم موضع ، اقامت قبيلة به ، فنسبت اليه . كما يذكر أهل
الاخبار من اسم (غسان) . وقد يكون اسم إله عبد ، فنسب عباده اليه مثل
(بنو سعد العشيرة) ، و (تالب ريام) جد قبيلة (همدان) ، وقد يكون
اسم حيوان أو نبات أو ما شابه ذلك ، مما يدخل في دراسة أصول الأسماء

١ ناح العروس (٤٢٧/٥) ، (ضبيع) .

٢ المجبر (٢٣٥) .

٣ ناح العروس (٣٤٢/٥) ، (ربيع) .

٤ تاج العروس (٢٥٤/٢) ، (تنخ) .

ومصادرها واشتقاقها ، وهو شيء مألوف نراه عند غير العرب ايضاً ، فليس العرب بدءاً وحدهم في هذه الأمور .

وما يذكره ويرويه اهل الاخبار عن ازمنة اجداد القبائل ، فيه اغلاط وأوهام . فقد يرفعون زمان رجل فيبعدونه كثيراً عن الإسلام ، بينما هو من الرجال الذين عاشوا قبيل الإسلام . وقد يجعلون الرجل من الجاهلية القرية من الإسلام ، بينما يجب وضعه قبل الإسلام بقرون . ثم هناك أخطاء فاضحة في سرد سلاسل النسب ، وفي أسماء الأشخاص ، ولا سيما في الانساب القديمة ، بحيث يصعب على الباحث الأخذ بها والتأكد منها . اما بالنسبة الى الأنساب القرية من الإسلام ، فان وضعها يختلف عن وضع الأنساب المذكورة ، اذ يغلب عليها طابع الصحة والضبط .

وقد ذهب المستشرق (بلاشير) الى ان طريقة النسابين بالنسبة الى الارهاط ، هي طريقة ايجابية مقبولة ، ولكنها لا تستند الى اسس صحيحة بالنسبة للقبائل والاحلاف . بسبب ان تحالف القبائل وتكتلها ، راجع الى عوامل المصلحة الخاصة والمنافع السياسية ، وهي تتغير دوماً بتغير المصالح ، تتولد تبعاً لذلك احلاف لم تكن موجودة وتموت احلاف قديمة . وتظهر قبائل كبيرة وتموت غيرها . ولهذا التغير فعل قوي في تكوين الانساب وفي نشوئها اذ تتبدل وتتغير الانساب تبعاً لذلك التغير ، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد على الانساب الكبرى ، التي دوتها علماء النسب وجمعوها في مجموعات ، وشجروها حفلة وآباءً وأجداداً^١ .

والمصالح السياسية للقبائل لا تقيم وزناً للأخوة والنسب . فاذا اختلفت المصلحة ، فلا تجد القبائل عندئذ اي غضاضة في الانفصال عن قبيلة مؤاخية لها لتتحالف مع قبيلة غريبة عنها في النسب ، ومحاربة اختها التي انفصلت عنها . فعبس مثلاً تحالفت مع (بني عامر) في حرب البسوس على (ذبيان) ، وهي اختها ، وتحالفت ذبيان مع (تميم) على (عبس) ، مع ما بين (تميم) و (عبس) و (ذبيان) من عداة قديم . وقد وقعت ايام بين (تغلب) و (بكر) مع

١ بلاشير ، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) تعريب الدكتور ابراهيم كيلاني (ص ٢٥ وما بعدها) .

صلة الرحم والقربة القوية التي ربطت بين القبيلتين الاختين^١ . وقع كل ذلك وحدث بسبب تغير المصالح التي كانت تربط فيما بين هذه القبائل .

ارض القبيلة :

ولكل قبيلة ارض تعيش عليها وتترل بها وتعتبرها ملكاً لها ، تنتشر بها بطونها وعشائرها ، ولا تسمح لغريب النزول بها والمرور بها الا بموافقتها وبرضاها . وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها واعتبرها ارضاً خاصة به .

وتكون الارض التي تحمل القبيلة بها (متزلاً) لها ، و (منازل) لأبنائها الذين يتزلون بها . يضربون بها خيامهم . فتكون الارض مضارب لها . تستوطنها وتقيم بها وتصير وطناً لها ، اي دار اقامة ، ما دامت تقيم بها . وموضع بيوتها . لذلك يعبر عن الارض التي تقيم بها القبيلة بـ (بيوت القبيلة) و بـ (بيوت العشيرة) ، لأنها مضرب البيوت .

وتتد ارض القبيلة الى المواضع التي تصل بيوتها اليها . فما يقع الى الداخل فهو من موطن القبيلة ، وما وقع خارج حدود نفوذ القبيلة خرج عن موطنها . وتعين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة ، مثل تلال أو أودية أو رمال أو ما شاكل ذلك . ونظراً الى عدم تثبيت القبائل لحدودها على الارض برسم معالم بارزة لها ، صارت الحدود سبباً من اسباب التراع المستمر والقتال الدائم بين القبائل .

وتكون مواضع الماء في ارض القبيلة قبة ابنائها ، يستقون منها ما يحتاجون اليه من (اكسير الحياة) . وتكون هذه المواضع آباراً أو عيون ماء أو حسيماً وما شاكل ذلك . وتتفق القبيلة فيما بينها على حقوق السقي . ويؤدي الاخلال بحقوق السقي الى وقوع نزاع ، قد يؤدي الى قتال ، ولا سيما في ايام القبط وانجباس المطر ، حيث تشتد الحاجة الى الماء ، ويصير افتقاده سبباً لهلاك الانفس والمال . والقاعدة ان ماء القبيلة مشاع في القبيلة . اما المياه المحمية : المياه التي تحمي للسادة والرؤساء ، والمياه الخاصة ، كالآبار التي يحفرها اصحابها ، فتكون خاصة بهم . لا يجوز الاستقاء منها الا باذن .

١ بلاشير (٢٥) .

ولكل قبيلة حق حماية ارضها . شأنها في ذلك شأن الدول . واذا اراد غريب اجتياز ارضها فلا بد من ان يكون في حماية انسان منها . واذا كان المجتاز جماعة ، كأن يكون قافلة او قبيلة او حياً يريد التنقل الى ارض اخرى ، ولا بد له من المرور بأرض هذه القبيلة للوصول الى هدفه ، فعليه اخذ اذن من القبيلة يخوله جواز المرور بها ، والا تعرض للمنع والقتال . لذا كان لا بد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور ، بدفع حق المرور ، وهي اتاوات تعارفت القبائل آنذاك على اخذها من المارة .

سادات القبائل :

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة ، مثل ملك مملكة بالنسبة لمملكته . فهو الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب . يقصده ذوو الحاجات من ابناء القبيلة ان احتاجوا الى حاجة . وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل ، ويترأسها ، وقد ينصب نفسه ملكاً عليها ، كالذي فعله ملوك كندة من بني (آل اكل المرار) وغيرهم من الملوك . وقد لا نخطيء اذا ما قلنا ان اكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب ، كانوا سادات قبائل في الأصل ، استغلوا مواهبهم وقابلياتهم ، وامكانية قبيلتهم ، وسخروها في سبيل الحصول على الملك ، وعلى التلقب بلقب (ملك) ، فنالوه .

ويقال للسيد : المسود . ويذكر علماء اللغة ان السيد يطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمل أذى قومه والزوج والمقدم والرئيس . وسيد القبيلة هو رئيسها . تقول العرب : (فلان سيدنا) اي رئيسنا والذي نعظمه ، وتقول (ساد قومه) ^١ . وهي من الألفاظ المستعملة عند عرب الحجاز ونجد والعراق وبلاد الشام ، اما العربية الجنوبية ، فقد استخدمت ألفاظاً اخرى بدلاً عنها .

ويقال لسيد القبيلة (رئيس القبيلة) . والرئيس ، سيد القوم . والرياسة : السيادة . ويقال فلان رأس ورئيس القوم ^٢ . ورؤساء القبائل هم سادات القبائل

١ اللسان (٢٢٨/٣ وما بعدها) ، (سود) .

٢ اللسان (٩٢/٦) ، (رأس) .

والمثولون لامورها . كما يقال فلان : ساد قومه ، وهو سيد القوم وسيدهم . فاللفظتان مترادفتان وفي معنى واحد . ووردت لفظة (زعيم) بمعنى سيد القوم ورئيسهم والمتكلم عنهم . والجمع زعماء . كما وردت الزعامة ، الشرف والرياسة على القوم وحظ السيد من المغنم ^١ . غير ان استعمال (زعيم القبيلة) ، أقل في الكلام من استعمال (سيد) و (رئيس) .

وأنا حين استعمل (سيد قبيلة) ، اقصد بها الرئيس الفعلي لقبيلة ، المسؤول عنها ، والمدير لامورها والمرجع الاخير لها ، والذي يكون كالملك او الحاكم بالنسبة لقبيلته لأن هناك سادات آخرين سادوا في القبيلة وقد عرف خبرهم في كل مكان ، وربما اشتهر ذكرهم اكثر من اشتهار اسم سيد قبيلتهم ، ومع ذلك فانهم لا يعدون رأس تلك القبيلة . لأن الرأس المسؤول عن القبيلة رأس واحد ، الا ان العرف ان يسود الرؤساء في القبائل ، هو كما يترأس الاشراف امر مدينة ، بان يترأسوا عمائر القبيلة ثم فروعها الدنيا التي تلي العمائر ، فهم رؤساء في قبيلة بالمعنى المجازي ، الذي جوز اطلاق لفظة (القبيلة) حتى على الأفخاذ والبطون ، بل والبيوت . بأن ييزوا الرئيس بالخصال الحميدة ، التي تجلب لهم الشهرة والسيادة ، وتجعل اسمهم يعلو اسم رئيس القبيلة في كثير من الاحايين .

صفات الرئيس :

وعلى من يسود في قومه ان يتحلى بخلال حميدة وسجايا طيبة ، تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم ، كأن يتحمل أذى قومه ، ولذلك قيل للسيد (محتمل أذى قومه) ، وأن يكون شريفاً في افعاله حليماً كريماً ، يخفض نظره عن اعمال الحمقى والجهلة ، وأن يتجاهل السفلة والسفهاء الجاهلين . فلا يغضب ولا يثور ، وأن يكظم غيظه . جاء في المثل : (احلم تسد) ^٢ . وان يحترم الناس مهما كانت منازلهم . وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم ، وأن يكون ملاذهم ، وأن يجعل

١ ناج العروس (٣٢٤/٨ وما بعدها) ، (زعم) ،

Goldziher, Muh. Stud., II, S., 52.

٢ بلوغ الأرب (٩٩/١ وما بعدها) .

بيته بيتاً للجميع ومضيفاً لكل من يفد اليه من كبير أو حقير أو صغير ، وأن يفتح قلبه للجميع ^١ .

وعلى الرئيس ان يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو ، وأن يكون شجاعاً لا يهاب الموت ، حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، وعليه ان يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب . لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس ابنائه ، وهو أب القبيلة . واذا لا يكون قدوة لأبنائه في ساعات الشدة والخطر ، فترت هممُ أبناء القبيلة . ولا يثير القبائل الا الشعارات والنخوة وإلهاب المشاعر ، حتى تندفع اندفاعاً في القتال . والرئيس هو روح القبيلة وشعارها ، فاذا اصيب بمكرهه أو جبن في القتال ، واذا خرباً صريعاً في المعركة ، هربت قبيلته في الغالب ، وتراجعت القهقري ، الا اذا وجد في القبيلة من يؤجج فيها نار الحماسة ويث فيها العزيمة للوقوف والصمود . ويكون مثل هذا الرجل من الشجعان الأقوياء اصحاب الارادة القوية الذين يعرفون نفسية قبيلتهم ، والا فليس من السهل على رجل التأثير على قبيلة وهي في مثل هذا الوضع .

ولأثر الرئيس في مصير الحرب ، كان الفرسان يوجهون كل قوتهم نحو الرؤساء ، لأنهم على علم بأنهم ان تمكنوا من الرئيس فقتلوه ، غلبوا عدوهم في الغالب وقضوا عليه . فهو الروح المعنوية عند الاعراب . يليه حامل اللواء فاذا سقط حامل اللواء قتيلاً أسرع من عُن ليكون خليفته في التقاط الراية وحملها ، واذا سقط هذا ايضاً أسرع من يأتي بعده ، وهكذا . فان سقوط الراية معناه هزيمة منكرة ستحقيق بمن سقطت رايته ، ولهذا كانوا يختارون رجالاً شجعاناً يولونهم أمر اللواء ، بحيث اذا سقط احدهم اخذ من يليه مكانه ، وهكذا حتى النصر .

صعوبة انقياد القبائل :

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل يسير ، لا سيما اذا كانت القبيلة قبيلة كبيرة ذات عشائر وأرهاب متشرة في مواضع متباعدة . فان رؤساء العشائر يستغلون فرصة ابتعادهم عن ارض الأم ، ويعلنون انفصالهم عنها ، وتوليهم امرهم بأنفسهم .

١ لامانس ، مجلة المشرق ، ١٩٣٢م عدد ٢ (١١٠) .

فيحدث الانقسام والانقسام ، وقد يعلن الرئيس حرباً على العشيرة العاقبة المنشقة ، ولهذا يعد سيد القبيلة الذي تجتمع له رئاسة قبيلة كبيرة من السادات المحظوظين . وحظه هو ثمرة ذكائه ومواهبه وقابلياته ولا شك . ومن هؤلاء المحظوظين الذين دون اهل الاخبار اسماءهم : (جهنبل بن ثعلبة اليشكري) ، سيد (بكر بن وائل) ، فقد اجتمعت (بكر) حوله ، و (عمرو بن شيان بن ذهل) ، و (عمرو بن قيس الأصم) و (الكلح) و (بشر بن عمرو بن مسعود) ، و (همام بن مرة) و (الحارث بن عباد)^١ ، وقد اجتمعت حولهم (بكر ابن وائل) ، وانضوت تحت لوائهم ، وذلك في مناسبات أشار اليها اهل الاخبار ، مثل وقوع بعض الايام . ولولا هذه الايام ، وتلك المناسبات التي اضطرت القبيلة على التكتل والتجمع فيها حول زعيم واحد ، ليخلصها من المخاطر ، لما تجمعت حوله ، لأن التجمع لا يلتزم مع طبع أهل البادية ، الذين جبلتهم الطبيعة على التشتت والتفرق .

وذكر اهل الاخبار ان (خالد بن جعفر بن كلاب) ، و (عروة الرحال ابن عتيبة بن جعفر) ، و (الأحوص بن جعفر) ، و (عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب) ، هم اربعة اجتمعت عليهم (هوازن) ، ولم تجتمع (هوازن) كلها في الجاهلية الا على هؤلاء الاربعة . وهم كلهم من (بني جعفر بن كلاب)^٢ . مما يدل على صعوبة انقياد عشائر (هوازن) لزعامة رجل واحد . وهذا مثل واحد من أمثلة صعوبة انقياد القبائل لرئاسة رئيس ، لأن الانقياد لرئيس واحد ، معناه في نظر رؤساء العشائر ، خضوعهم لغيرهم واستئلاهم له وتنازلهم عن حريتهم وعن استقلالهم في ادارة شؤون عشائرهم لغيرهم ولو كان هذا الرئيس منهم ، أضف الى ذلك الحسائر المادية التي قد يصابون بها من هذا الانقياد .

وقد عرفت قبائل (ربيعة) خاصة بتخاصمها وبتباغضها وبتحاسد رؤسائها ، لذلك لم تقبل في الغالب بتملك رئيس منها عليها . بل كان ساداتها يراجعون التبابعة على ما يقوله اهل الاخبار لتمليك سيد منهم عليهم . كانوا يراجعون اليمن كلما اختلفوا فيما بينهم على تمليك ملك عليهم . وقد ذكر اهل الاخبار ان من جملة

١ المحبر (ص ٢٥٤) .

٢ المحبر (٢٥٣ وما بعدها) .

اسباب تعيين والد الشاعر (امرئ القيس) الكندي ملكاً على بني اسد وتعيين أعمامه ملوكاً على القبائل الاخرى ، هو تناحر سادات ربيعة فيما بينهم ، وتباغضهم وتفرق كلمتهم ، حتى كان كل واحد منهم يرى انه أولى من غيره بالملك ، فذب الخلاف بين القبائل ، وتطاول السفهاء على الاشراف وأهل البيوتات ، وعندئذ وجد سادات القبائل ان الأمن لا يرجع اليهم الا بذهابهم الى كندة لتنصيب ملوك منها عليهم . فكان ما كان من تنصيب والد الشاعر على (بني اسد) وتنصيب أعمامه على القبائل الاخرى . الا ان الأمن لم يستتب ولم يستقر طويلاً بين هذه القبائل المتنازعة ، اذ قرر الرحيل عنها ، وعاد الحصام داء (ربيعة) الى وطنه . وعادت حليلة الى عاداتها القديمة على ما يقوله اهل الامثال .

وقد أشار اهل الاخبار الى رجال ذكروا انهم تمكنوا من حكم معدّ وربيعة . ومعنى ذلك انهم كانوا من ذوي الشخصيات القوية . وبذلك تمكنوا من فرض انفسهم على هذه القبائل المتباغضة . من هؤلاء : حذيفة بن بدر . وهو من سادات غطفان وبيتهم . وهو والد (حصن) ابو عيينة . وقد ادرك (عيينة) النبي ، فأسلم ثم ارتد وأسلم بعد ذلك على يد ابي بكر ^١ . وقد قاد (حذيفة) (بني فزارة) و (مرة) يوم النصار ، ويوم الجفار ، وفي حرب داحس حتى قتل فيها يوم الهباءة . وقد عرف بـ (ربّ معدّ) ^٢ . وما كان ليعرف بذلك لو لم يكن من اصحاب القوة والمكانة حتى ساد قبائل معدّ .

ومن سادات (ربيعة) (الأفكل) ، و (عمرو بن جعيد) من (بني الدليل) . وكان ذا بغي ، فسارت اليه (بنو عَصَر) فقتلوه ^٣ . و (الحارث الأضجيم بن عبد الله بن ربيعة بن دوفن) ، من (بني دوفن) . قديم السؤدد فيهم كانت تجبى اليه اتاوتهم ^٤ . و (عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم بن النمر بن قاسط) ، وكان سيد (النمر بن قاسط) في الجاهلية وصاحب مرباعهم ^٥ .

- ١ ابن دريد ، الاشتقاق (١٧٣) .
- ٢ المحبر (٢٤٩) ، (٤٦١) ، جمهرة (٢٤٣) .
- ٣ الاشتقاق (١٩٧) .
- ٤ الاشتقاق (١٩٣) ، جمهرة (٢٧٥) .
- ٥ الاشتقاق (٢٠٢) ، جمهرة (٢٨٣) .

وكان (القُدَّار بن الحارث) رئيس ربيعة في أول الإسلام^١ . وورد ان (القدار بن عمرو بن ضبيعة) ، كان رئيس ربيعة ، يلي العزَّ والشرف فيهم^٢ . ويمتاز سيد القبيلة عن سائر رجال قبيلته ببيتته الكبير ، المكوّن من خيمة ضخمة ، والتي قد تتكون من جملة قطع من النسيج خيطة بعضها الى بعض لتتكون منها خيمة كبيرة . تكون مضيفاً للرئيس ومجلساً للقوم ، يؤمسه سادات القبيلة وأشرف الأحياء . وموثلاً لذوي الحاجات من الناس . وله خيام أخرى ، أعدت لحريمه ولأهله . فهي منازل رئيس القبيلة الخاصة به وبأفراد أسرته .

وامتاز الرئيس عن أفراد قبيلته بكثرة عدد نسائه . فسيد القبيلة مزواج في الغالب ، عنده المال ، وعنده الجاه والرياسة ، فلا يجد صعوبة في الحصول على زوجات صغيرات السن لينجبن له أولاداً ، يكونون له حصناً حصيناً وأمناً له على ماله ، وعوناً له على القبيلة . فيحمي بهم نفسه ممن قد يطمع في الرياسة وفي انتزاع السيادة منه بالقوة .

ومن واجب الرئيس الاشراف على تقسيم الغنائم ، ومن حقه المربع إن كان من ذوي المربع ، وله ان ينفق من جيبه على الضيوف ، وان يفتح بيته للقادمين اليه من مختلف الناس ، وان يستقبل ضيوف القبيلة بوجهه فرح بشوش . وان يرعى شؤون قبيلته ، ويسأل عن أبنائها ، وعليه ان يسعى لفك من يقع من أبناء عشيرته أسيراً في أيدي قبيلة أخرى ، وان يشارك قومه في تحمل الديات ، حين يعجز رجال القبيلة عن حملها ، وعليه ان يعين أتباعه في كل جناية ينجونها ، فهي وان صدرت من غيره لكنها تقع في النهاية على رأس سيد القبيلة . فعليه وحده ايجاد حل لها ومخرج . ومن هنا كُنَّت العربُ عن سيد القبيلة بقولها (سيد معمم) ، يريدون ان كل جناية ينجيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه^٣ .

رئاسة القبائل :

لا نملك نصاً جاهلياً فيه شيء عن الشروط التي يجب ان تتوفر في الرجل كي

١ الاشتقاق (١٩٥) .

٢ تاج العروس (٤٨٣/٣) ، (قدر) .

٣ عيون الأخبار (٢٢٦/١) .

يكون رئيساً على قبيلة . ولا نجد في روايات أهل الأخبار أخباراً واضحة صريحة عن طريقة تولي الرئاسة عند الجاهليين . لذا لا نستطيع البت في موضوع شروط انتقال الرئاسة من رئيس قبيلة متوفى أو مخلوع الى رئيس جديد . وهل كانت الرئاسة وراثية على طريقة انتقال العروش في النظام الملكي ، أم كانت اختياراً وانتخاباً وشورى ، بمعنى ان اختيار الرئيس يكون برأي من رؤساء القبيلة ، وليس بسنة الارث . والذي ظهر لنا من دراسة أخبار أهل الأخبار في هذا الموضوع ان الجاهليين كانوا قد ساروا على سنة الارث في تولي الرئاسة كما ساروا على طريقة الاختيار .

أما انها كانت رئاسة وراثية ، فلأنها رئاسة مثل سائر الرئاسات عند العرب ، كرئاسة المكربين والملوك والأقيال والأذواء والأقيان وكل الرئاسات الجاهلية الأخرى . وقد كانت هذه الرئاسات رئاسات وراثية في الأغلب ، لذا كانت رئاسة القبيلة بالوراثة أيضاً . تنتقل الرئاسة من الأب الى الابن الأكبر . ويؤيد هذا الاستنتاج ما نجده في أكثر روايات القبائل ، وتولي الأبناء رئاستها بعد الآباء .

وأما انها بالنص والتعيين ، فكالذي ذكره من أمر اختيار (حصن بن حذيفة ابن بدر) ابنه (عيينة) لرئاسة قومه من بعده . ولم يكن عيينة أليق من غيره بأن يكون سيد قومه ، فاستدعى أولاده وقال لعيينة : أنت خليفتي ورئيس قومك من بعدي . ثم قال لقومه (بني بدر) : لوائي ورياستي لعيينة ، ثم أوصاهم بما يجب ان يفعلوه على عادة السادات عند اشتداد المرض بهم وشعورهم بدنو أجلهم . من وجوب التكتل والتهيؤ للقتال وعدم التجرؤ على الملوك ، فان أيديهم أطول من أيدي الرعية . فسمعوا له وأطاعوا ، واختاروه رئيساً عليهم^١ .

وأما انها شورى ورأي ، فعند عدم وجود عقب للرئيس المتوفى ، أو عند وجود تنافس وتباغض بين أبناء الرئيس المتوفى بسبب كونهم من زوجات مختلفات فيما بينهم ، فيخشى عندئذ من انقسام القبيلة على نفسها ، ويحسم الخلاف باختيار أحزم الأبناء أو تنصيب رجل قريب أو بعيد عن الرئيس ، يجلونه أهلاً وكفوّاً لتولي الرئاسة فيولونها إياه . وقد يلجأون الى الرأي في حالة تشتت شمل القبيلة ، بظهور رجال أشراف فيها ، لهم كفاءات وقابليات وشهرة تفوق شهرة أسرة

١ أمالي المرتضى (١ / ٥٣١) .

الرئيس المتوفى ، يطمعون في الرئاسة ، فينتخبون اكفأهم وأقواهم ليكون الرئيس الجديد .

وقد لا تجتمع كلمة المتنافسين على الرئاسة ، ولا تتفق على اختيار رئيس ، فلا يكون أمام القبيلة في مثل هذه الحالة سوى اللجوء الى الملوك في الغالب لتعيين رئيس عليهم يختارونه من جماعتهم وينصبونه سيّداً عليهم . وقد كان هذا شأن قبائل (معد) في الغالب ، إذ كانت قبائلها متبديسة متنافرة ، ذات رؤساء متحاسدين ، لا يقرون برئاسة واحد منهم ، لذلك كانوا يلجأون الى ملوك اليمن لتعيين رئيس من غيرهم عليهم ، وبذلك يحل الخلاف .

ونجد في شعر (عامر بن الطفيل) ، وهو أحد مشاهير فرسان العرب - تغنياً بفعاله وبشجاعته وبدفاعه عن قومه ، وتبجحاً بسيادته على قومه : واعتزازاً بأن سيادته هذه لم تأت اليه عن وراثة ، وإنما جاءت بفعاله وبدفاعه عن قومه وذبة عن حماهم ، فسودوه لهذه الخلال عليهم ، ولم يسودوه لانه (ابن سيد عامر) ، وفي هذا الشعر دلالة على ان الرئاسة كانت بالوراثة ، وان والد (عامر) كان سيّداً ، فأراد (عامر) ان يتبجح بنفسه على غيره ، بأنه ليس من أولئك الرؤساء الذين يرثوا السيادة إرثاً ، فلا دخل لهم بمجيئها اليهم ، وإنما أخذها عن جدارة واستحقاق ، ولو لم يكن أبوه سيّداً ، لجاءته السيادة تركض اليه ، لما فيه من محامد ومكارم . فسيادته سيادة وراثة لانه ورثها عن أبيه ، وسيادة جدارة جاءت لما فيه من خصال السادة الأشراف^١ .

خصال السادة :

يذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وقالوا : قيل :

١ اني وان كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثته أبي الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب
الشعر والشعراء (١٩٢) ، البلاذري ، أنساب (١٧٩/٢) ، ابن قتيبة ، عيون
الأخبار (٢٢٧/١) .

لقيس بن عاصم بم سدت قومك ؟ قال يبذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى ، وتعجيل القيرى . وقد يسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم . ووصف بعضهم السؤدد : بأنه اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة . وقد سئل أحد السادات بأي شيء سدت قومك ؟ فقال : (إني - والله - لأعفو عن سفيهم ، وأحلم عن جاهلهم ، وأسعى في حوائجهم وأعطي سائلهم ، فمن فعل فعلي فهو مثلي ، ومن فعل أحسن من فعلي فهو أفضل مني ، ومن قصر عن فعلي فأنا خير منه)^١ . وذكر أهل الأخبار أيضاً ، ان العرب كانت تسود على أشياء . فكانت مضر تسود ذا رأيها . وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب^٢ .

والرئيس الناجح ، هو الرئيس الذكي الفطن الذي تكون له قدرة وقابلية على التصرف بذكاء وبحنر وفقاً لعقلية القبائل . فيعرف كيف يعامل كل شخص يأتي إليه المعاملة التي تلائمها وتليق به ، بحلم وصبر وأناة . وبقساوة وغلظة أحياناً من أجل اخافة أتباعه ، لخوف القبائل من البطاش الظالم . على ألا يسرف في ظلمه ويمعن في غيئه ، فيقع له ما وقع لكليب وائل ولأمثاله من الذين أسرفوا في الاعتماد على أنفسهم وعلى قابلياتهم ، فأهلكوا أنفسهم . ولهذا كان من شأن عقلاء سادات القبائل عرض المنازعات والخصومات القبلية للحكم فيها . وبذلك يخلصون أنفسهم من مشكلات صعبة كانت ستقع تبعثها على أكتافهم فيما اذا انفردوا بالنظر بها دون سائر الرؤساء .

ومن أعراف الحكم عند القبائل ، ان سيد القبيلة يستمد رأيه من رأي أشراف قبيلته ووجوهها في الأمور الهامة التي تخص حياة القبيلة . ليستنير برأيهم ، وليعرف رأي أتباعه في معالجتها . وتساعد هذه المشورة سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكن من ادارة القبيلة ادارة حسنة ترضي الغالبية . وقد توصيل الرئيس الى النجاح والنصر في الغزو . فيرتفع اسمه ويعلو نجمه . ولا زال سادات القبائل يستمعون الى مشورة رؤساء القبيلة ، ويقيمون لرأيهم وزناً الى يومنا هذا . ورأيهم هذا هو مجرد مشورة ونصح . بمعنى انه لا يلزم سيد القبيلة بوجوب العمل بموجبه . فقد ينبذه ويعمل برأيه وبقراره ، لا سيما اذا كان قوي الشخصية متجبراً عنيداً .

١ بلوغ الأرب ١٨٧/٢ وما بعدها .

٢ بلوغ الأرب (١٨٧/٢) .

وقد يكون النجاح حليفه ، فتزداد بذلك هيئته على أتباعه ، وقد يبنى بنخسرة فادحة ، فتقضي عليه وعلى رئاسته وربما تقضي على حياته أيضاً . والنظام القبلي بعد ، هو نظام استشاري ، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط ، أما الأفراد أي أبناء القبيلة وسواها ، فلا رأي لهم في تسيير الأمور ، إلا إذا برز أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يعترف بها ، كالحكمة أو الشرف ، فقد يدخل في عداد أولي الرأي ، ويكون له عندئذ عندهم رأي مسموع .

وعلى الرغم من استبداد بعض السادة برأيهم ، وحكمهم بما يوحى إليه به حسهم وشعورهم ، وتصرفهم في الأمور تصرفاً كيفياً ، فإنهم كانوا يقيمون مع كل ذلك وزناً للرأي ، وقد يكون هذا الرأي رأي رجل مغمور من عامة أبناء القبيلة ، أو رأي شاعر أو خطيب أو أي شخص آخر من أبناء القبيلة . فالحكم عند القبائل بهذا ، حكم فردي استشاري يتوقف الرأي فيه على شخصية وكفاءة رئيس القبيلة ، وعلى شخصية وكفاءة رؤساء البطون والأحياء .

وقد أدت غطرسة وعنجهية بعض سادات القبائل بهم إلى الموت فقد لجأوا إلى القسوة والقهر في الحكم واستبدوا برأيهم استبداداً فرق بينهم وبين رؤساء قبيلتهم ، مما دفع بعض فرسان القبيلة وشجعانها على قتلهم للتخلص منهم ، كالذي كان من أمر (كليب وائل) ، الذي تعسف في حكمه وتجبر فاختار خيرة الأرضين الحصبة ، فجعلها حمى له ، لا يحق لأحد الرعي بها ، إلا باذن منه . فأزعج عمله هذا من خضع لحكمه ، فكانت عاقبته القتل .

والحلم عند العرب من أهم الصفات التي تؤهل الإنسان لحكم الناس . وهو عندهم الأناة والعقل ، وقيل ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب^١ . ومعالجة الأمور بهدوء وضبط أعصاب . وهو أحزم سياسة تلائم طبع الحكم . وقد عدوه من خلال الحكماء .

ومن عرف واشتهر أكثر من غيره بالحلم : (الأحنف بن قيس) . حتى ضربت العرب به المثل . فقالت : هو أحلم من الأحنف . وقد نسب أهل الأخبار

١ تاج العروس (٢٥٦/٨) ، (حلم) .

له حكماً كثيرة وأمثالا^١ ، هي من الأمثال التي ينسبونها في العادة الى الحكماء^٢ .
 وذكروا من أمثلة حلمه انه كان قاعداً يوماً بفناء داره محتبياً بمجائل سيفه يحدث
 قومه ، حتى أتى بمكتوف ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ،
 فما قطع كلامه حتى انتهى ، ثم كلم ابن أخيه وأنبه وعفى عنه ، ثم قال لابن
 آخر له : وار أخاك وحلّ كتاف ابن عمك وسق الى أمك مائة ناقة دية ابنها
 فإنها غريبة . الى قصص آخر من هذا القيل^٣ .

النسب :

النسب هو جرثومة العصبية وأساسها ولهذا حرص العربي على حفظ نسبه ،
 ولا يزال يحرص عليه ، فيروي لك شجرة نسبه حفظاً ويرفعها الى جملة أجداد .
 وقد وجد السياح أعراباً سردوا لهم نسبهم سرداً من غير كتاب مكتوب الى
 عشرات من الأجداد ، وقد تأكدوا بعد فحوص واختبارات ان ما قيل لهم وسرد
 عليهم كان صحيحاً في الغالب .

واما أهل المدر ، فإن حرصهم على حفظ نسبهم ، وإن لم يكن حرص أهل
 الوبر ، غير ان فيهم من يحفظ شجرة نسبه ، وفيهم من يحتفظ بها مكتوبة ،
 وقد شهد على صحتها جماعة من النسّابين . وفي جملة من يعتني بنسبه اعتناءً
 كبيراً ، ويأبى الزواج من غير الأسر الكفوءة له ، السادة المتمدنون الى الرسول ،
 من ذوي الجاه والحسب والنسب ، والأشراف السادات من أهل الحضرة والوبر .

وحفظ النسب هذا هو استمرار لما كان عليه الجاهليون من حرص على حفظ
 أنسابهم . واذا كنّا لا نملك اليوم جرائد جاهلية في النسب ، فإن في بعض
 الكتابات الجاهلية تأييداً لما نقول . فبن أيدينا في هذا اليوم كتابات جاهلية ذكرت
 أسماء جملة أجداد لأشخاص دَوّنوا أسماءهم في تلك الكتابات . وقد دَوّن على
 شاهد قبر (معنو) (معن) ، اسم أبيه وجدّين من أجداده^٤ ، كما عثر على

١ العاخر (٢٤٢) ، السعالي ، ثمار (٩٢،٨٥،٤) .

٢ نهاية الأرب (٥٠/٦ وما بعدها) .

٣ F. Althelm und R. Stiehl, Die Araber. I, S., 280

أسماء عشرة أجداد في بعض الكتابات الصفوية^١ . وهناك امثلة أخرى من هذا القبيل ، تثبت عناية العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها . وهي من أهم المزايا التي حافظ عليها العرب الى هذا اليوم .

ويبدأ النسب بالأب في الغالب ، وب (الأم) في الأقل في حالات تتغلب فيها شهرة الأم على شهرة الأب ، ويكون (البيت) إذن جرثومة النسب . وحين ينسب إنسان يقول انه : (ابن فلان) . ويشمل نسب البيت الأب والأولاد والبنات والزوجة أو الزوجات ، وهم أكثر الناس التصاقاً بالأب . وقد يقال انه من (بيت فلان) تعبيراً عن الانتساب الى رئيس ذلك البيت . وقد عرف بعض علماء اللغة النسب : انه القرابة ، أو هو في الآباء خاصة ، وان النسب ان تذكر الرجل فتقول : هو فلان ابن فلان ، وذكر انه يكون من قبل الأم والأب^٢ .

والبيت هو بيت أب . ولما كان المجتمع مجتمع بيوت ، صار النظام فيه نظاماً أبوياً . السلطة العليا فيه للأب ، اليه يُنسب وهو المسؤول قانوناً عن العائلة . يتساوى في ذلك مجتمع الحضر ومجتمع أهل الوبر .

ويذكر أهل الأخبار ان العرب تنسب ولد المرأة الى زوجها الذي يخلف عليها بعد أبيهم . وذلك عنى حسان بن ثابت بقوله :

ضربوا علياً يوم بدر ضربة دانت لوقعتها جميع نزار

أراد بني عليّ هؤلاء من كنانة . وهم بنو عبد مناة . وانما قيل لهم بنو عليّ عزوة الى عليّ بن مسعود الأزدي . وهو أخو عبد مناة لأمه ، فخلف على أم ولد عبد مناة . وهم : بكر وعامر ومرة وامهم : هند بنت بكر بن وائل التزارية قرباهم في حجره فنسبوا اليه^٣ .

واذا توفي والد وله مولود في بطن زوجته ، أو كان طفلاً رضيعاً وكان له

١ Littmann, Thamud und Safa, 1940. S, 98, Inschriften, 4, 5, S., 121, Die Araber, I. S, 280.

٢ ناج الأروس (٢٦٠/٤ وما بعدها) (طبعة الكويت) ، (ن س ب) .

٣ ناج العروس (٢٥٣/١٠) ، (علو) .

أعمام ، تركه أعمامه عند أمه حتى يكبر ، ثم يأخذه أعمامه . وقد تأتي أمه معه . ولكن العادة ان الأم تبع أهلها أي عشيرتها ، فاذا توفي زوجها وهي من عشيرة أخرى ، تركت عشيرته لتعود الى عشيرتها ، فاذا كبر المولود خيّر بين البقاء مع أمه أو الالتحاق بأعمامه ، أي بعشيرة والده . والأغلب ان يختار الولد عشيرة الوالد ، لأن نسب الولد من نسب والده . فيلتحق المولود بعشيرة الأب . وتقدّم عشيرته على عشيرة الأم . إذ يشعر ان عشيرة أمه وان كانت قريبة منه ، إلا ان قربه منها ليس كقربه من عشيرة والده ، وقد يعبر باختياره عشيرة أمه عشيرة له . ولدينا أمثلة تشير الى تعيير الأولاد أولاداً آخرين ، لالتحاقهم بعشيرة أمهم وتركهم عشيرة والدهم ، كالذي كان ، من أمر عبد المطلب يوم كان طفلاً ، إذ عيره أطفال عشيرة أمه بلجوئه الى عشيرتهم ، إذ لا عشيرة له . ولو كانت له عشيرة للحق بها . مما حمله على ترك يثرب والرجوع الى أعمامه بمكة . فالعم في نظرهم بمنزلة الوالد . وهو أقرب الناس اليه ، وهو وريثه في العصابات . . وبهذه الحجة احتج العباسيون على العلويين في تقدمهم عليهم بحق الخلافة .

ومن هنا نجد العرب يوصون بأولاد العم خيراً ، والا يتهاثروا معهم ولا يختلفوا معها وقع بينهم من خلاف . وفي هذا المعنى يقول أبو الطمحان :

إذا كان في صدر ابن عمك إحنة فلا تسترها سوف يبلو دفينها^١

واللخوالة مكانة كبيرة في العصبية عند العرب . قد تقوى على العمومة ، فاذا هلك انسان ، وكان لإخوته على خلاف مع زوجته أو كان حالهم ضعيفاً ، قامت اللخوالة مقام العمومة في رعاية الأولاد وحمايتهم ومدّهم بالعصية . بل قد نجد ان عصبية اللخوالة أقوى عند العرب في الغالب من عصبية العمومة . وفي تأريخ الجاهلية والإسلام أمثلة كثيرة على ذلك .

ومن حسن حظ الإنسان في الجاهلية ان يكون له أعمام وأخوال كثيرون ، خاصة اذا كانوا أصحاب بجاه وسيادة . لأنه سيعتز بهم ، ويفتخر بكثرتهم . وكان الجاهليون يقولون : رجل معم ورجل مخول وأخول ، اذا كان له أعمام

١ امالي المرتضى (٢٥٩/١) .

وأخوال . ويقال : كريم الأعمام والأخوال ، على سبيل المدح والتقدير^١ ومنه قول امرئ القيس : بجيد^٢ معم^٣ في العشيرة مخول . وقول الشاعر :

تروح بالعشي بكمل خرق كريم الأعممين وكل خال^٤

والنسب ، نسب أهل ، ويقوم على الدم القريب ، ونسب قبيلة ، ويقوم على العصمية للدم الأبعد . دم جد القبيلة يجري في عروق المتسبين اليه .

والعرب من حيث النسب صرحاء . وحلفاء وجيران وموالي وشركاء يستلحقون بالنسب . أما الصريح ، فهو المحض من كل شيء ، والخالص النسب . ويقال جاء بنو فلان صريحة إذا لم يخالطهم غيرهم^٥ .

والنسب إذن ، نسب آباء ، وهو نسب الصرحاء الخالص من العرب المنحدرين من صلب جد القبيلة ، على حد تعبير أهل الأنساب ، ونسب حلف أو جوار ، أي نسب استلحاق . والغالب أن يتحول نسب الاستلحاق إلى نسب صريح ، حين تطول إقامة الدخيل بين من دخل بينهم : فينسى أصله ، ويأخذ أحفاده نسب من دخل جدهم فيهم . ويشمل ذلك نسب القبائل أيضاً . ونجد في كتب أهل الأخبار أمثلة كثيرة من أمثلة تحول الأنساب ، حيث نجد لها تنص على دخول نسب فلان في نسب بني فلان ، ونسب قبيلة في نسب قبيلة أخرى .

ويقال للقوم الذين ينتسبون إلى من ليسوا منهم (الدخل) . والدخيل هو الرجل الغريب الذي يتنسب إلى قوم ليس هو بواحد منهم . وذكر أيضاً أن (الدخل) بمعنى الخاصة ، وأيضاً الحشوة الذين يدخلون في قوم وليسوا منهم ، أي في المعنى المتقدم^٦ .

وفي كتب أهل الأخبار أمثلة عديدة على تنقل الأنساب وإثبات نسب قوم في قوم ليسوا منهم لغاية ومأرب . وقع ذلك في الجاهلية وفي الإسلام . قال (الكندي) : (كان أبو رجب الحولاني وفلان وفلان يتحرشون أهل الحرس

١ تاج العروس (٣١٢/٧) ، (خول) .

٢ تاج العروس (٤٠٩/٨) ح ، (عم) .

٣ اللسان (٥٠٩/٢) ، (صرح) ، بلوع الأرب (١٩١/٣) وما بعدها .

٤ تاج العروس (٣٢٠/٧) وما بعدها ، (دخل) .

ويؤذونهم ، فشئ أهل الحرس الى زكريا بن يحيى كاتب العمري ، فقالوا له حتى متى تؤذى ويطعن في أنسابنا . فأشار عليهم زكريا بجمع مال يدفعونه الى العمري ليسجل لهم سجلاً باثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، فلما صار المال الى العمري لم يجسر على ان يسجل لهم ، وقال : ارفعوا الى الرشيد في ذلك ، فخرج وقد منهم الى العراق واتفق مالا عظيماً هناك ، وادعى الوفد ان المفضل بن فضالة قد كان حكم لهم باثبات أنسابهم وأنهم بنو خوتكة بن الحاف ابن قضاعة ، ثم عاد الوفد بكتاب محمد الأمين الى العمري بالتسجيل لهم ، فدعاهم العمري الى اقامة البيئة عنده على أنسابهم فأتوا بأهل الجوف الشرقي وأهل الشرقية . وقدم جماعة من بادية الشام ، فشهدوا أنهم عرب فسجل لهم العمري . ثم تجدد نظر القضية فيما بعد وفسخ حكم القاضي العمري . ورد أهل الحرس الى أصلهم القبلي (١) .

وأشار أهل الأخبار الى قبائل كانت تنتقل من قوم الى قوم ، فتنتمي اليهم ، قالوا لها : (النواقل) . والنواقل من انتقل من قبيلة الى قبيلة أخرى فانتمى اليها (٢) . والتنقل دليل على ان النسب لم يكن من الصرامة والشدّة على نحو ما يصوره لنا النسابون المتأخرون .

وفي الذي يذكره علماء النسب عن أنساب القبائل ، أمور لا يمكن لنا قبولها ، لا سيما ما يتعلق منها بالتعصب القبلي وبسرد الأنساب وتشجيرها وفي تفرعها . وأنساب القبائل موضوع لم يبحث بعد بحثاً علمياً ، وهو يحتاج الى تفرغ وتتبع والى مقارنة ما جاء عند العرب فيه بما جاء عند غيرهم من الساميين وغيرهم عنه . فقد لعبت الأنساب دوراً خطيراً عند البشرية ، لأنها كانت الحماية والوقاية للإنسان ، قبل ان تتولد الحكومات الكبيرة التي رعت الأمن وبسطت سلطانها ، وبذلك خففت من غلواء النسب والانتساب .

الاستلحاق :

والاستلحاق ، هو ان يستلحق انسان شخصاً فيلحقه بنسبه ، ويجعله في حمايته

١ كتاب فضاة مصر (٢٩٧) ، العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٨٨) .

٢ ناج العروس (١٤٣/٨) ، (نقل) .

ورعايته ، أي في عصيته . وقد يكون الرجل صريحاً معروف النسب ، وقد يكون أسيراً أو مولى أو عبداً ، فيسميه مولاه وينسبه إليه .

ومن هذا القبيل ما كان يفعله أهل الجاهلية من استلحاق أبناء الإماء البغايا بهم . وذلك انه كان لأهل الجاهلية إماء بغايا وكان سادتهن يلمّون بهن ، فاذا جاءت احداهن بولد ربما ادعاه السيد والزاني ، فيقع خلاف بينها على الولد . وقد وقع مثل هذا الخلاف في أيام الرسول ، في أول زمان الشريعة ، ففضى الرسول بالحاقه بالسيد ، لأن الأمة فراش كالخرة ، فان مات السيد ولم يستلحقه ثم استلحقه ورثته بعده لحق بأبيه . وفي ورثته خلاف^١ .

الدعي :

ويقال للمستلحق (الدعي) . والدعي المنسوب الى غير أبيه . و (الدعوة)^٢ في النسب ان ينتسب الانسان الى غير أبيه وعشيرته وقد كانوا يفعلونه فنهى عنه وجعل الولد للفراش . ومن هذا القبيل المتبني الذي تباه رجل فدعاه ابنه ونسبه الى غيره ، وكان النبي ، تبنى (زيد بن حارثة) ، ثم الحقه بنسبه ، بعد ان نزل الوحي عليه (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم)^٣ . وقال : (ما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم)^٤ .

ويكون حكم الدعي من الناحية القانونية في حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند الجاهلين ، لذلك كان الجاهليون يورثونه كما يورثون الأبناء^٥ .

ويقال للدعي ينتمي الى قوم : منوط مذبذب ، سمي مذبذباً لأنه لا يلري الى من ينتمي^٦ . وقد يكون الرجل دعي أدعياء ، فيكون هو دعيّاً في رهطه ،

-
- ١ اللسان (٣٢٨/١٠) ، (صادر) ، (لحق) ، ناج العروس (٦٠/٧) ، (لحق) .
 - ٢ الدعوة بكسر الدال .
 - ٣ سورة الأحزاب ، الرقم ٣٣ الآية ٥ ، اللسان (٢٦١/١٤) .
 - ٤ سورة الأحزاب ، الرقم ٣٣ ، الآية ٤ ، اللسان (٢٦١/١٤) ، (صادر) ، (دعا) .
 - ٥ الأغاني (٩٤/١٧) .
 - ٦ اللسان (٤٢٠/٧) ، (صادر) ، (نوط) .

وربطه دعي في قبيلة مثل (ابن هرمسة) ، فقد كان دعيّاً في الخلع وكان الخلع دعيّاً في قریش^١ . ويقال للدعي (ملصقا) ، والملصق ، هو المقيم في الحي وليس منهم بنسب^٢ .

وقد ورد في حديث (علي بن الحسين) : المستلاط لا يرث ، ويُدعى له ويدعى به ، المستلاط المستلحق في النسب ، ويدعى له ، أي ينسب إليه؛ فيقال : فلان بن فلان ، ويدعى به أي يكنى ، فيقال : هو أبو فلان ، وهو مع ذلك لا يرث لأنه ليس بولد حقيقي^٣ . ومن ذلك قولهم : (لاط القاضي فلانا بفلان ألحقه به) ، وورد ان أناساً في الجاهلية كانوا يلبطون الأولاد بآبائهم ، أي يلحقونهم^٤ . والظاهر ان استلحاق الأبناء بالآباء ، كان معروفاً بين الجاهليين بسبب الاتصال بالإماء ويبيع بعض الأعراف الأخرى التي حرمت في الإسلام .

ويقال للدعيّ : المخضرم . وقيل هو من لا يُعرف أبوه أو أبواه ورجل مخضرم أسود وأبوه أبيض ، أو هو من ولدته السراري . وذلك ذم في الانسان^٥ . ويقال رجل (خلط ملط) ، بمعنى : مختلط النسب . وذكر ان الملط الذي لا يعرف له نسب ولا أب . وأما خلط ، فإما بمعنى المختلط النسب ، وإما بمعنى ولد الزنا . والخليط المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك . ومنه الحديث : الشريك أولى من الخليط ، والخليط أولى من الجار . والشريك المشارك في الشيوع . والخليط القوم الذين أمرهم واحد^٦ .

و (الأهل) أهل الرجال وأهل الدار ، وأهل الرجل أخص الناس به . وأهل الدار أهل البيت . و (آل الرجل) أهله . ويقال في النسب : هو من آل فلان^٧ .

- ١ الأغاني (٧٦/٣) .
- ٢ ناج العروس (٦١/٧) ، (لزق) ، (الصق) .
- ٣ اللسان (٢٦٢/١٤) ، (دعا) .
- ٤ تاج العروس (٢١٨/٥) ، (لاط) ، اللسان (٣٩٥/٧) ، (لوط) .
- ٥ ناج العروس (٢٨١/٨) ، (المخضرم) .
- ٦ ناج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) ، (٢٢٦/٥) ، (ملط) .
- ٧ اللسان (٢٨/١١) وما بعدها ، (صادر) (أهل) .

ويتهى النسب بجدة القبيلة الأكبر . فلكل قبيلة جد أكبر تنتمي إليه ، وتسمى به ، وله ابن ينتسب إليه أو أبناء ينتسبون إليهم ، ويكون هذا الجد محور (النسب) و (العصبية) للقبيلة . ونجد هذا النوع من النسب معروفاً عند غير العرب أيضاً .. عند العبرانيين والآراميين وعند الإغريق والرومان مثلاً .

الجوار :

وللجوار صلة كبيرة بـ (النسب) وبالعصبية عند العرب ، فقد يتوثق الجوار ، وتتقوى أواصره فيصير نسباً ، فيدخل عندئذ نسب (المستجير) بنسب (المجير) ، ويصير وكأنه نسب واحد ، هو نسب (المجير) . وقد اندمجت بـ (الجوار) أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة ، أو القبائل التي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها ، فتضطر إلى طلب (جوار) قبيلة أكبر منها ، لتدافع عنها ، ولتكون بذلك قوة رادعة تحمي حياتها وتحافظ على نفسها ومالها بهذا الجوار .

وهو من السنن التي حافظ عليها الجاهليون ، واعتدوها كالقوانين . فإذا استجار شخص بآخر ، أو استجارت قبيلة بأخرى ، اكتسب هذا الجوار صيغة قانونية ، ووجب على المجير المحافظة على حق الجوار . والا ، نزلت السبة بالمجير ، وازدراه الناس .

ويكتسب الجوار حكمه بإعلان الطرفين قبولهم له على الملأ ، في أماكن الاجتماع في الغالب ، في مثل المواسم من حج أو سوق . فإذا أعلن ذلك ، وعلم الناس الخبر ، صار المجار في ذمة المجير ، وترتب على المجير أن يكون مسؤولاً عن كل ما يقع على المجير وما يصدر منه .

وقد ورد في القرآن الكريم ، (والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل)^١ . والجار ذو القربى هو نسبك النازل معك في الحواء ، ويكون نازلاً في بلدة وأنت في أخرى ، فله حرمة جوار القرابة . والجار الجنب أن لا يكون له مناسب فيجئ إليه ويسأله أن يجيره ، أي يمنعه فينزل معه ،

١ النساء ، الآية ٣٦ .

فهذا الجار الجنب له حرمة نزوله في جواره ومنعته وركونه الى أمانه وعهده .
لأنه جاوره وان كان نسبه في قوم آخرين ولا قرابة له به .

وكان سيّد العشيرة إذا أجار عليها إنساناً لم ينفروه^١ . وإذا دخل قبته
أو خبائه أو دار حول خيمته ، ونادى بالجوار والأمان صار آمناً . وقد وجب
على صاحب القبّة أو الخباء أو الخيمة حمايته ، حتى وان كان من سائر
أبناء القبيلة .

والجار والمجير والمعيد واحد . ومن عاذ بشخص استجار به^٢ . ومن هذا
القبيل استجارة أهل الجاهلية بالجن . (قيل : إنّ أهل الجاهلية كانوا اذا نزلت
رقعة منهم في وادٍ ، قالت : نعوذ بعزير هذا الوادي من مردة الجن وسفهاثهم .
أي نلوذ به ونستجير)^٣ .

وللجوار حرمة كبيرة عند الجاهليين . فإذا استجار شخص بشخص آخر ،
وقبل ذلك الشخص ان يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايته ، وحق
على المجار الدفاع عن مجيره : والذب عنه . وإلا عدّ ناقضاً للعهد ، ناكثاً
للوعد ، مخالفاً لحق الجوار . وعلى القبائل استجارة من يستجير بها . والدفاع عنه
دفاعها عن أبنائها . ويقال للذي يستجير بك (جار) . والجار الذي أجرتك
من ان يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك .
وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه^٤ .

وقد أوصوا بالجار خيراً ، ورجوا من الجار ان يكون كذلك قدوة حسنة في
جواره ، فلا يسيء الى جاره او الى جيرانه ، وعلى الجار ان يغض نظره عن
عيوب جاره ، وأن يكون يقظاً في حفظ حقوق جاره ، فطناً في الدفاع عنه .

١ اللسان (١٥٥/٤) ، (جور) .

٢ اللسان (١٥٥/٤) ، (جور) .

٣ اللسان (٥٠٠/٣) ، (عوذ) .

٤ اللسان (١٥٤/٤ وما بعدها) ، (جور) .

ليس له أن يتملص من حقوق الجوار اذا استحقت ووجبت ، لأن للجار حقاً عليك .^١

وكان يقال في الجاهلية للرجل اذا استجار يثرب : قوئل في هذا الجبل ثم قد أمنت . فاذا فعل أحد ذلك ، وجب على اهل يثرب قبول جواره والدفاع عنه . وذكر ان (قوئل) رجل من الخزرج ، اسمه (غنم بن عوف بن عمرو ابن عوف بن الخزرج) ، سمي به (لأنه كان اذا اتاه انسان يستجير به او يثرب قال له : قوئل في هذا الجبل ، وقد أمنت . أي ارتق) . وقيل : (لانهم كانوا اذا أجاروا أحداً أعطوه سهماً . وقالوا : قوئل به حيث شئت . أي سر به حيث شئت) . وذكروا ايضاً أن (القوئل) اسم أبي بطن من الانصار ، اسمه ثعلبة بن دعد بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن الخزرج . وقالوا : هو النعمان بن مالك بن ثعلبة .^٢

والغاية من الجوار طلب الحماية والمحافظة على النفس والأهل والمال ، لذلك لا يطلبه في العادة الا المحتاج اليه . ولا يشترط في الجوار نزول الجار قرب المجير ، أو في جواره أي أن يكون بيته ملتصقاً ببيته . فقد يكون على البعد كذلك . لأن الجوار حماية ورعاية ، وتكون الحماية حيث تصل سلطة المجير ، وتراعى فيه حرمة وذمته . ويكون في امكانه الدفاع عن جاره . ولهذا كان على الجار أن يعرف حدود (الجوار) ، وقد يعلقانه بأجل احترازاً وتحفظاً من الجوار المطلق ، الذي لا يعلق بزمن وانما يكون عاماً .

ولا يجير أحد انساناً الا اذا أحس ان في امكانه اداء امانة الجوار . والا عرض نفسه وأهله وقبيلته للأذى والسبّة ، ان قبل شخص جوار أحد ، وهو في وضع لا يمكنه من الوفاء بحقوق الجوار . ولا يطلب رجل مجاورة رجل آخر الا اذا شعر أن من سيستجير به هو كفؤ لأن يجيره . والا فما الفائدة من الاستجارة برجل ضعيف قد يكون هو نفسه في حاجة الى الاستجارة بأحد .

ولا يشترط في الجوار أن يكون جوار أحياء . فقد يستجير انسان بقبر ، فيصير

١ قال قيس بن عاصم :

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن
المرزوقي ، شرح الحماسة (٥٨٤/٤) .

٢ المعارف (ص ٥٠) ، تاج العروس (٨٤/٨) ، (القوئل) .

في جواره وفي حرمة ذلك القبر . وعلى أصحاب ذلك القبر الذبّ عن هذا الجار والدفاع عنه . ومن هذا القبيل استجارة الناس بقبر (عامر بن الطفيل) . فقد ذكر أن قومه من (بني عامر) ، وضعوا حول قبره أنصاباً على مسافة منه ، إذا اجتازها اللاجئ ودخل (الحرم) المحيط بالقبر ، صار آمناً على ماله ونفسه ، لا يخشى خشية أحد ، يريد انزال سوء به . وقد منعوا دخول حيوان اليه أو مرور راكب به ، احتراماً لحرمة صاحب هذا القبر .^١ وكالذي كان من أمر قبر (تميم بن مرّة) جدّ قبيلة تميم في عرف النسابين .

وقد يستجير الانسان بمعبود أو بأي موضع مقدس ، فيكون في جوار وحرمة ذلك المكان . وعلى أصحابه اداء حقوق الجوار . ومن هذا القبيل جوار مكة . فمن دخل حرم (البيت) صار في جواره ، آمناً مطمئناً لا يجوز الاعتداء عليه ولا اخافته ، لانه في حرمة (البيت) وعلى قریش الذبّ عنه .

وقد كان لآل (محلم بن ذهل) قبة بوادي (عوف) عرفت بـ (قبة المعادة) ، من لجأ اليها أعادوه . و (آل عوف) من اشرافهم في الجاهلية ومن رجالهم (عوف) الذي يضرب به المثل : لا حرّ بوادي عوف .^٢ والعود الالتجاء . ولهذا عرفت بتلك التسمية . وهو (عوف بن محلم بن ذهل بن شيان) . وقد ضرب به المثل في الوفاء . فورد : (هو أوفى من عوف) . وذلك لأن عمرو ابن هند طلب منه مروان القرظ . وكان قد أجاره فمنعه عوف وأبى أن يسلمه ، فقال عمرو : لا حرّ بوادي عوف . أي أنه يقهر من حل بواديه وكل من فيه كالعبيد له لطاعتهم إياه . وهو من أمثال العرب في الرجل العزيز المنيع الذي يعز به الدليل وينذل به العزيز . وقيل ان كل من صار في ناحيته خضع له . أو قيل ذلك لأنه كان يقتل الأسارى .^٣ ولما توفي (عوف) دفن بواديه ، وأقاموا قبة على قبره صارت ملاذاً لمن يطلب الجوار .

ومن طرق الجوار ، أن يأتي رجل الى رجل ليستجير به فلا يجده ، فيعقد

١ الاغانى (١٨٤/٢) ، (١٤٩/١٥) .

٢ الاشتقاق (٢١٥) .

٣ ناج العروس (٢٠٦/٦) ، (نعوف) .

طرف ثوبه الى طنب البيت ، فاذا فعل ذلك عدّ جاراً ، ووجب على صاحب البيت أن يجيره .^١

والجوار جواران : جوار جماعة كجوار بيت أو فخذ أو بطن أو ظهر أو عشيرة أو قبيلة ، وجوار أفراد . وللجوارين حرمة وقُدسية ليس أحدهما دون الآخر في الحرمة والوفاء .

واذا نزل انسان على انسان آخر جاراً ، فان من المتعارف عليه أن تكون حرمة جواره ثلاثة أيام ، : (وكانت خفرة الجار ثلاثاً)^٢ فاذا انتهت ، انتهت مدة الجوار . وعلى الجار الارتحال ، الا اذا جدد (المجير) جواره له ، وطلب منه البقاء في جواره . فيكون عندئذ لهذا الجوار حكم آخر ، اذ يبقى الجوار قائماً ما دام عقده باقياً . وقد استفاد من حق الجوار الغرباء والمسافرون ، والمحتاجون وأمثالهم . فقد أمنوا على راحتهم ورزقهم وهم في محيط صعب ، كما أمنوا على حياتهم ، حتى أن المجير ليغفر لجاره ما قد يبدل منه من سوء بسبب حكم الجوار . قال مجير لجاره : (لولا أنك جار لقتلتك)^٣ . ويشمل هذا الجوار المسافر والضيف .

ومن عاداتهم في الجوار ، أن أحدهم اذا خاف ، فورد على من يريد الاستجارة به ، نكس رمحاً ، فاذا عرفه المجير ، رفع رمحاً . فيصير في جواره . فلما هرب (الحارث بن ظالم المرتي) من ملك الحيرة ، وأخذ يتنقل بين القبائل حتى وصل عكاظ وبها (عبد الله بن جدعان) ، نكس رمحاً أمام مضرب (ابن جدعان) ، ثم رفعه حين عرفوه ، وأمن . وأقام بمكة ، حتى أتاه أمان ملك الحيرة .^٤

وقد يحدد الجوار بمحدوده . كأن يذكر من يطلب الاستجارة لمن يريد ان يستجير به ، ان استجارته به من قبيلة كذا أو من القبائل الفلانية أو من الشخص

-
- ١ الأغاني (١٨٤/٢) .
 - ٢ الفاخر (٢٢٠) .
 - ٣ الفاخر (٢٢٠) .
 - ٤ البلاذري (٤٢/١) وما بعدها .

الفلاحي . فاذا قبل المجير ذلك حدد جواره بما حدد في عقد الجوار . فاذا اعتدت على المستجير قبيلة أخرى لم تذكر في نص الجوار ، فلا ذمة للمستجير على المجير ، وليس من حقه طلب مساعدته له . كما قد يحدد الجوار بزمان ، كإقامة شخص في مكان ، أو إيصاله من موضع الى موضع ، أو تعيين أمد له .

والخفارة الخفرة : الأمان ، والخفير : المجير ، والخفارة : الذمة . ويقال : خفرت الرجل : أجرته وحفظته ، وتخفرت به إذا استجرت به . وأنخفرت الرجل إذا تقضت عهده وضمّاه .^١ بأن يعلن ذلك ليقف عليه الناس ، والا بقيت التبعة في عنق الخفير .

وعلى من أعطى خفارته لأحد ، الوفاء بما أعطى ، والوفاء بما ألزم نفسه به عليه ، والا عد ناكثاً للعهد حقيراً .^٢

المؤاخاة :

وتكون المؤاخاة بين الأفراد كما تكون بين الجماعات ، كالعشائر والقبائل . وهي تدعو الى العناصر والمؤازرة والمساعدة . وتؤدي الى الموارثة . وخير مثل على المؤاخاة ، ما فعله الرسول يوم مقدمه المدينة من مؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين لتوحيد الكلمة وليساعد بعضهم بعضاً .^٣

ولا يشترط في المؤاخاة أن تكون بين أعراب وأعراب ، أو بين حضر وحضر ، اذ يجوز أن تعقد ايضاً بين العرب والأعراب ، اي بين الحضر والبدو . لأن المؤاخاة عقد ، والعقد يقع بين كل الناس ، كما قد تقع بين عربي وأعجمي ، فقد آخى الرسول بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء .

١ اللسان (٢٥٣/٤ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (١٨٦/٣) ، (خفر) .

٣ تاج العروس (١١/١٠) ، (أخا) .

الموالي :

والمولى : الولي والعصبة والخليف وابن العم والعم والأخ والابن وابن الأخت والعصبات كلهم والجار والشريك^١ . فللفظة إذن معان عديدة ، أهمها بالنسبة لنا ، ان المولى : العبد ، أي المملوك الذي يمنّ عليه صاحبه ، بأن يفك رقبته ، فيعتقه ، ويصير المملوك بذلك مولى لعاقته . وسوف نرى ان الموالي أنواع . وهم الذين نبحث عنهم في هذا المكان .

و (الموالي : العصبة . هم كانوا في الجاهلية الموالي ، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم اسماً ، فقال الله تبارك وتعالى : فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم . فسمّوا الموالي .. والمولى اليوم موليّان : مولى يرث ويورث ، فهؤلاء ذوو الأرحام ، ومولى يورث ولا يرث . فهؤلاء العتاقة)^٢ .

والعرب تسمّي ابن العم المولى ، ومنه قول الشاعر :

ومولى رمينا حوله وهو مدغل بأعراضنا والمندبات سرور

يعني بذلك وابن عمّ رمينا حوله . ومنه قول الفضل بن العباس :

مهلاً بني عمّنا ، مهلاً موالينا لا تظهرنّ لنا ما كان مدفوناً^٣

والموالي أنواع . مولى عتق ومولى عتاقة ، وهو الرقيق أو الأسير الذي تفك رقبته بعتقه . كأن يشتري رجل مملوكاً فيشتريه فيعتقه^٤ . وفي جملة ما كان يفعله الجاهليون في مقابل فك رقبة المملوك اشتراطهم على المملوك عمل عمل يعيّن له ، فإنّ قام به وأتمه ، اعتقت رقبته . ويصير مولى لعتقه إن شاء ، وله الخيار في ان يختار غير سيده مولى له ، إن اشترط ذلك على سيده ، أو اشترط

١ اللسان (٤٠٨/١٥ وما بعدها) ، (صادر) ، (ولي) . قال الشاعر :

هم المولى وإن جنفوا علينا وأنا من لفائهم لـرور

يعني بني العم . وقال اللهبي يخاطب بني أمية :

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا أمشوا رويدا كما كنتم تكونونا

تاج العروس (٣٩٩/١٠) ، (ولي) .

٢ تفسير الطبري (٣٣/٥) .

٣ تفسير الطبري (٣٢/٥) .

٤ اللسان (٢٤٣/١٠) ، (عتق) .

سيده عليه ذلك الشرط . وقد يقع الاختيار على ذلك بعد وقوع العتق .

ومن الموالي : موالي مكاتبه (موالي المكاتبه) وذلك ، بأن يشترط في عقد البيع ، ان العبد يكتب على نفسه بضمنه ، فإذا سعى وأداه عتق . وذكر أيضاً ان المكاتبه ، ان يكتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجماً ، فإذا أداه صار حرّاً . والعبد مكاتب . وقيل : المكاتبه : ان يكتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجّمه عليه ، ويكتب عليه انه اذا أدى نجومه في كل نجم كذا وكذا ، فهو حرّ ، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه ، فقد عتق ، وولاؤه لمولاه الذي كاتبه . وذلك ان مولاه سوغه كسبه الذي هو في الأصل لمولاه ، فالسيد مكاتب ، والعبد مكاتب اذا عقد عليه ما فارقه عليه من أداء المال . سميت مكاتبه لما يكتب للعبد عليه على السيد من العتق اذا أدى ما فارق عليه ، ولما يكتب للسيد على العبد من النجوم التي يؤديها في محلها ، وان له تعجيزه اذا عجز عن أداء نجومه يحلّ عليه^١ .

والأصل في ولاء المكاتبه ، ان من أعتق عبداً كان ولاءه له ، فينسب اليه . واذا مات كان هو وارثه . وقد لا يتحول الولاء للولي ، اذا اشترطوا أولاً ألا يكون ولاءه لمعتقه ، بل لمن يؤدي ثمن المكاتبه مثلاً . وقد يعتق المملوك ولا يكون لأحد ولاء عليه . وتكون العتاقة عندئذ (سائبة) . و (السائبة) : العبد يعتق على ان لا ولاء له ، أي عليه . ويحق عندئذ ان يضع ماله حيث يشاء^٢ . ومن أسباب العتاقة : التدبير . وهو ان يعلق المالك عتق مملوكه على شرط ، هو بعد وفاته . كأن يقول له : أنت حرّ بعد موتي . فلا يرثه أهله^٣ .

واما مولى العقد ، ويقال له مولى حلف ومولى اصطناع ، فيكون بانتهاء رجل الى رجل آخر بعقد ، أو قبيلة الى قبيلة أخرى بحلف . وذلك بأن يتعاقد ضعيف مع قوي على ان يساعده ويعاضده ، ويقوم في مقابل ذلك بأداء ما اتفق عليه من شروط . وينتسب المولى عندئذ الى سيده ، أي مولاه الذي قبل ولاءه . ومن هذا القبيل يهود يثرب ، فقد كانوا في ولاية الأوس والخزرج ، لجأ كل بطن

١ اللسان (٧٠٠/١) ، (كتب) .

٢ تاج العروس (٣٠٥/١) .

٣ تاج العروس (٢٠٠/٣) ، (دبر) .

منهم الى بطن من الأوس أو الخزرج يتغزون بهم، وصاروا موالي لهم. اذا وقع عليهم ضيم لجأوا الى من انتموا اليه بالولاء للدفاع عنه. ولما ظهر الإسلام كان من دخل في ولاء (عبد الله بن أبي) ، ومنهم من دخل في ولاء (سعد بن معاذ) ومنهم من كان في ولاء (عبادة بن الصامت) . وكان عليهم في مقابل ذلك ، العون والنصرة لمن دخلوا في ولائه أو ولائهم ، والدفاع عنهم ، وان يكونوا بمثابة العون لهم .

وكان من موالي الحلف ، قوم من اليهود والنصارى والمجوس . ولما ظهر الإسلام ، أبطل عن تولي أهل الكتاب ^١ . إذ جعلهم في ذمة المسلمين . ويدخل في هذا الولاء ولاء قبائل وعشائر صغيرة لقبائل أكبر منها . وذلك في سبيل الحصول على حمايتها لها ودفاعها عنها . فيتوجب عليها أداء ما شرط عليها من شروط عند طلبها الولاء ، من العصبية والعقل وما شاكل ذلك من حقوق .

أما مولى الرحم ، فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها ^٢ .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الموالي ثلاثة : مولى اليمين المحالف، ومولى الدار المجاور ، ومولى النسب ابن العم والقراة . وقد ذكرت هذه الأنواع في هذا البيت :

نبئت حياءً علي نعمان أفرادهم مولى اليمين ومولى الدار والنسب ^٣

وقد ذكر (الجاحظ) (ان الموالي أقرب الى العرب في كثير من المعاني ؟ لأنهم عرب في المدعى ، وفي العاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل لقوله : مولى القوم منهم ، ومولى القوم من أنفسهم . والولاء لحمه كلحمة النسب) ^٤ . ولهذا عدّ الموالي في نسب من دخلوا في ولائه . وتعصبوا وتحزبوا لولاء المولى .

والموالي مها كانوا : عرباً أم عجماً ، كانوا أقل شأناً في مجتمعهم من

-
- ١ المائدة ، الآية ٥١ ، تفسير الطبري (١٧٧/٦) ، الألوسي ، تفسير (١٤٠/٦) .
 - ٢ تاريخ التمدن الاسلامي (٣١/٤) .
 - ٣ العمدة (١٩٨/٢) .
 - ٤ مناقب الترك (١٢/١) ، من رسائل الجاحظ ، (تحقيق عبد السلام هارون) .

الأحرار . إذْ نظر اليهم على أنهم دون العرب الأحرار في المكانة . ولهذا فقلما زوج الأحرار بناتهم للموالي . حتى ضرب بهم المثل في القلة والذلة ولا سيما اذا كان الانسان مولى مولى مولى . فقيل : (مولى المولى) ، قيل ذلك في الاسلام أيضاً . ورد في الشعر :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا^١

وقد بقيت نظرة الازدراء المذكورة حتى في الاسلام . فمع مساواة الاسلام للعرب بغيرهم واثباته بمقياس جديد في تفضيل الخلق بعضهم على بعض هو مقياس العمل الصالح ، المتجسم في قوله : (أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى)^٢ . أو قوله : (الناس في الاسلام سواء ، الناس طف الصاع لآدم وحواء . لا فضل لعربي على عجمي ، ولا عجمي على عربي إلا بتقوى الله) ، (لا تأتوني بأنسابكم وأتوني بأعمالكم ، فأقول للناس هكذا ولكم هكذا)^٣ ، نجد ان العرب بقيت في الاسلام أيضاً تأنف من تزويج بناتها الى الموالي بسبب شرط (الكفاءة) الذي كان سنة من سنن أهل الجاهلية في الزواج : كفاءة النسب والمنزلة والحرفة . واذا تزوج مولى بنتاً عربية ، عُبرت القبيلة به . وقد هجا الشاعر (أبو بجير) (عبد القيس) ، لتزويجهم بناتهم للموالي^٤ . وذهب البعض الى قاعدة : (الكفاءة في النسب والدين والصناعة والحرية ، ولا تزوج عربية بأعجمي ولا قرشية بغير قرشي ، ولا هاشمية بغير هاشمي ، ولا عفيفة بفاجر)^٥ . وان (قريشاً بعضهم أكفاء لبعض بطن بطن ، والعرب بعضهم أكفاء لبعض ، قبيلة بقبيلة ، والموالي بعضهم أكفاء لبعض رجل برجل)^٦ .

- ١ النعالي ، ثمار (٦٩٠) .
- ٢ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٥٨) .
- ٣ اليعقوبي (١٠٠/٢) ، (حجة الوداع) ، وتروى الخطبة بصور مختلفة .
- ٤ العقد الفريد (٢٣٢/٣) .
- ٥ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٦٧) ، أبو اسحاق الشيرازي كتاب التنبيه في الفقه على مذهب الامام الشافعي (٩٥) .
- ٦ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٦٦) .

أما كفاءة النسب ، فراد بها النسب العربي ، أي ان الرجل لا يزوج بنتاً عربية إلا اذا كان عربياً . وأما المتزلة ، فيراعى فيها الكفاءة في المكاة ، كأن يراعى في اختيار الزوجة ان تكون من عائلة ليست منزلتها دون منزلة الزوج ، وإلا عيّر بزواجه ، وأما الحرفة ، فان يتزوج الرجل بنتاً من بنات حرفته ، فلا يتزوج الرجل ابنة صائغ مثلاً وإلا عيّر ابنها به ، كالذي كان من أمر (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، فقد عيّرته الناس بأمه لأنها ابنة صائغ ، ثم لأنها يهودية . وكان هذا العرف صارماً في اليمن ، فحصرُوا الزواج بأصحاب الحرف على نحو ما سأتحدث عنه في باب الزواج .

ونظراً الى ازدياد العرب لشأن الموالي ، وما كان يجلبه الولاء من ازدياد العرب بعضهم بعضاً لهذا السبب ، بسبب ولاء العتق أو ولاء الموالاة ، فقد أمر الخليفة (عمر) بإبطال الولاء بين العرب ، وجوز بقاءه فيما بين العرب وغير العرب^١ ، فاقصر الولاء على هذا النوع وحده في الاسلام .

الأحلاف :

وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين . والحلف في اصطلاح علماء اللغة العهد بين القوم ، والحلف والمخالفة : المعاهدة ، وأصله اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد ، ثم عُيّر به عن كل يمين . والمخالفة ان يحلف كل للآخر^٢ . فعنى الحلف في الأصل المعاهدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . وتحالفوا بمعنى تعاهدوا وعقدوا اتفاقاً وعهداً ، وتأخوا على العمل ببدأ واحدة^٣ ، وقد حالف الرسول بين المهاجرين والأنصار ، أي آخى بينهم^٤ .

وفي كلمة الحلف شيء من الدلالة على الشعائر والأيمان والمعاني الدينية ، ولذلك قيل للحلف اليمين ، لأن من عادتهم عند عقد الحلف بسط أيماهم إذا حلفوا

- ١ العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية (٧٤) .
- ٢ المفردات (ص ١٢٨) ، اللسان (٥٣/٩) (بروت) ، تاج العروس (٧٥/٦) ، المنخصص (١٠٩/١٣) ، (رو) المعاني (١٢٥/١٦) .
- ٣ تاج العروس (٧٥/٦) ، اللسان (٥٣/٩) ، الصحاح (٥١٢/١) ، اللسان (٤٠٣/١٢) ، الصحاح (١٣٤٦/٤) ، اساس البلاغة (١٩٣/١) .

وتحالفوا وتعاهدوا وتبايعوا^١ . وكانوا ينظرون اليها على ان لها قداسة خاصة وحرمة ، والحائث يمينه ينظر اليه بأشد أنواع التحقير والازدراء . ويُعد الحنث باليمين من الموبقات ومن الكبائر التي لا يغتفر صدورها من شخص في شريعة الجاهليين . وقد أمر الإسلام بالوفاء بالعهد^٢ .

و (العهد) بمعنى الحلف أيضاً وقيل : العهد كل ما عوهد عليه ، وكل ما بين الناس من الموائيق . وهو أيضاً الموثق واليمين . ولذلك ورد : (على عهد الله) و (أخذت عليه عهد الله) ، و (ولي العهد) ، لأنه ولي الميثاق الذي يؤخذ على من بايع الخليفة . وعلى من يعطي العهد الوفاء به : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)^٣ . (وما وجدنا لأكثرهم من عهد)^٤ ، أي من وفاء^٥ . ووردت لفظة (عاهدتم) بمعنى التحالف والتعاقد في مواضع من كتاب الله^٦ .

ويرد (الميثاق) بمعنى العهد . والمواثقة المعاهدة . وأما (التواثق) ، فالتحالف والتعاهد . وفي القرآن الكريم : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق)^٧ (فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)^٨ ، (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه)^٩ . وقد قال العلماء في الميثاق إنه : عقد مؤكد بيمين

-
- ١ اللسان (٣٥٦/١٧) ، (٤٦٢/١٣) (بيروت) ، تاج العروس (٧٥/٦) .
 - ٢ تفسير ابن كثير (٥٠٩/٢) ، تفسير الرازي (١٤٧/٢) ، تفسير الطبري (١٨٢/١) ، جامع أحكام القرآن ، للقرطبي (٢٤٦/١) ، (٣٠٧/٩) ، تفسير ابن حبان الأندلسي : البحر المحبط (١٧٤/١) ، تفسير الطبرسي (٤٠/١) ، تفسير ابن مسعود (٧٦/١) ، تفسير الخازن (٦١/١) ، تفسير البيضاوي (٨٣/١) .
 - ٣ النحل ، الآية ٩١ ، الكشف (٤١/١) ، تفسير الطبري (٣١٩/٣) ، (١٨٢/١) ، تفسير الطبرسي (٣٧٩/٢) .
 - ٤ الأعراف ، الآية ١٠٢ .
 - ٥ اللسان (٣١١/٣) .
 - ٦ التوبة ، الآية ١ ، ٤ ، ٧ النحل ، ٩١ ، تفسير الرازي (٤٧/٥) ، شرح صحيح البخاري (٢٠٣/١١) ، النهاية لابن الأثير (١٥٩/٣) ، تفسير الخازن (٤٢٣/١) .
 - ٧ الرعد ، الآية ٢٠ .
 - ٨ الأنفال ، الآية ٧٢ .
 - ٩ الرعد ، الآية ٢٥ .

وعهد^١ . والحلف الذي نتحدث عنه هو (ميثاق) ، لأنه عهد يؤخذ بحلف مؤكد بيمين .

وتكون بين المتحالفين موثيق على الوفاء بالالتزامات التي نص عليها ، واتفق الطرفان المتعاقدان أو الأطراف المتعاقدة على الوفاء بها كاملة غير منقوصة .

ويكون الحلف بين الأفراد ، كما يكون بين الجماعات والحكومات ، فيتحالف الأفراد بعضهم مع بعض ، ويعلن ذلك الحلف ليكون معلوماً بين الناس ، وتتحالف القبائل بعضها مع بعض ، ويعلن حلفها هذا ليكون معلوماً عند أفرادها وعند القبائل الأخرى ، وتتحالف الحكومات : حكومات عربية مع حكومات عربية ، أو حكومات عربية مع حكومات أعجمية . وفي المسند أمثلة عديدة على مخالقات الحكومات العربية بعضها مع بعض ، أو مخالقتها لحكومة أجنبية مثل : الحبشة ، كما في الكتابات الآشورية وفي مؤلفات اليونان واللاتين ، وفي كتب أهل الأخبار أمثلة من مخالقات العرب مع غيرهم ، أو مخالقاتهم بعضهم مع بعض .

والفكرة التي حملت العرب على عقد الأحلاف ، هي نفس الفكرة التي تدفعهم اليوم على عقد الأحلاف بينهم أو مع غيرهم . وهي الضرورة والدفاع عن مصالح خاصة أو عامة ، أي نفس الفكرة التي تدفع الدول على التكتل والتحزب وعقد الأحلاف الدولية ، في هذا اليوم ، أو في المستقبل . وهناك أحلاف عقدت لأغراض هجومية ، وأحلاف عقدت لمصالح اقتصادية ، مثل أكثر أحلاف قريش مع القبائل . وأحلاف لتثبيت نظم وإقرار قوانين وأخذ حقوق وردع ظالم وانصاف مظلوم .

وقد تعقد الأحلاف لأغراض معينة ، فتكون لها آجال محددة ، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صدّ غزو سيقع عليها أو لمساعدتها في غزو قبيلة أخرى ، أو الوفوف موقف حياد تجاه الغزو . أو مساعدة قبيلة قبيلة أخرى للأخذ بثأر من قبيلة لها ثأر معها . ومثل هذه الأحلاف لا تعمر طويلاً ، إذ ينتهي أجلها بانتهاء الغاية التي من أجلها عقد الحلف .

١ المفردات (٥٢٢) ، اللسان (١٥٤/١٢) ، الصحاح (١٥٦٤/٤) ، الكشف (١٧/١) ، البيضاوي (١٦١/٧) ، تفسير الطبري (٣٢٩/٣) ، اللسان (٣٧٠/١٠) (بيروت) ، تفسير الطبرسي (١٥٧/٦) .

والغالب ان الضعيف هو الذي يبحث عن حليف يحالفه ، ليقوّي بهذا التحالف نفسه ، ويعز به مكانه . قال البكري : (فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلا ، والتاسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضعاف القوي للضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم)^١ .

لقد دفعت الضرورات قبائل جزيرة العرب الى تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول . واذا دام الحلف أمداً ، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة ، فإنّ هذه الرابطة تنتهي الى نسب يشعر معه أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جدّ واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتتضم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى ، وهكذا نجد في الجزيرة أحلافاً تتكون ، وأحلافاً قديمة تنحل أو تضعف^٢ .

لم يكن في مقدور القبائل أو العشائر الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي يشدّ أزرها إذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الأخذ بالثأر منها . لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف ، إلا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد ، وكانت تتفاخر بنفسها ، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن ، وقد تنزل القبائل على حلفائها ، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة^٣ .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً ، وطالما انتهت تلك الأحلاف كما انتهت عند العرب الى نسب ، فيشعر المتحالفون أنهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد^٤ . ويقال للحلف (تكلع)

١ معجم ما استعجم (٥٣/١) .

٢ Goldziher, Muh. Stud., I, S., 64.

٣ الأغاني (١١٨/١٢ ، ١٢٣ وما بعدها) .

٤ Keunen. De Godsdienst van Israel, I, P. 113, Noldeke, in ZDMG., XI, S. 15.

عند اليابانيين^١ . (وبه سُمّي ذو الكلاع ، وهو ملك حميري من ملوك اليمن من الأذواء ، وُسُمّي ذا الكلاع ، لأنهم تكلعوا على يديه أي تجمعوا ، وإذا اجتمعت القبائل وتناصرت فقد تكلعت)^٢ .

ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل المؤثر في تأليف الأحلاف ، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح . وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها ، كأن تعقد لغزو قبيلة ، أو للوقوف أمام غزو محتمل ، أو لأجل معين . ومتى نفذت أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ ، انحل الحلف . وتعدّ هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التاريخ العربي ، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة ، لذلك نجدها تتألف للمسائل الداخلية التي تخص قبائل جزيرة العرب ، ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب ولمقاومة أعداء العرب . ولا يمكن ان نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية ان يفعل غير ذلك . فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها ، فاذا ارتحلت عنها ، ونزلت بأرض جديدة ، كانت الأرض الجديدة هي الوطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادات القبائل ، أصبحت حتى اليوم من أهم العوائق في تكوين الحكومات الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية للأعراب .

وخير مثال للقبائل التي اقتضت مصالحها التكتل والتحالف بينها ، هو الحلف الذي قيل له (تنوخ) . فقد اجتمع بالبحرين قبائل من العرب ، وتحالفوا وتعاضدوا على التناصر والتساعد والتآزر فصاروا يداً واحدةً ، وضمهم اسم (تنوخ)^٣ . وحلف (فرسان) ، وهو حلف آخر قديم تكون من انضمام قبائل عديدة بعضها الى بعض للتناصر والتآزر^٤ . ولما لم يعرف أهل الأخبار واللغة شيئاً من تلك الأمور العادية ، أوجدوا تلك القصص والأخبار والأنساب المدوّنة

١ المخصص (١٠٩/٣) .

٢ اللسان (٣١٣/٨) ، (كلج) .

٣ تاريخ ابن الأثير (١٣٥/١) ، تاريخ الطبري (٧٤٦/١) (طبعة لندن) ، الأغاني (١٥٥/١١) .

Muh. Stud., I, S. 66.

٤ الاشتقاق (ص ٨) ،

عن تنوخ وأمثال تنوخ^١ .

ومن هذا القبيل ، الحلف الذي قيل له : (البراجم) . وهو من عمرو وظليم وقيس وكلفة وغالب . زعم أهل الأخبار ، أن (حارثة بن عمرو بن حنظلة) ، قال لهم : أيتها القبائل التي قد ذهب عددها ، تعالوا فلنجتمع ولنكن كبراجم يدي هذه . فقبلوا ، فقيل لهم البراجم . وهم يد مع عبد الله بن دارم . فنحن أمام حلف من أحياء قلّ عددها وذهب أمرها ، ونخافت على نفسها ، فلم تجد أمامها من وسيلة للمحافظة على حياتها سوى التحالف ، فكان من ذلك حلف البراجم^٢ .

ونجد لفظة (الحليفان) للدلالة على تحالف قبيلتين ، أو (الأحلاف) تعبيراً عن حلف عقد بين قبيلتين أو أكثر ، تردد في كتب أهل الأنساب والأخبار . وقد قصد بها أحلاف عديدة . فقد قيل لأسد وغطفان (الحليفان) ، لأنها تحالفاً وتعاقداً وعقداً حلفاً بينهما على التناصر والتآزر ، كما قيل لهما (الأحلاف) . والأحلاف أسد وغطفان^٣ . وقيل لقوم من ثقيف : (الأحلاف) . والظاهر أنهم كانوا في الأصل طوائف لم تتمكن من البقاء وحدها في وسط عالم لا يعيش فيه إلا القوي ، فتحالفت للدفاع عن نفسها ، ويقال لأسد وطيء (الحليفان) وليفزارة وأسد (حليفان) ، لأن خزاعة لما أجلت بني أسد عن الحرم ، خرجت فحالفت طيئاً ، ثم حالفت بني فزارة^٤ .

ولما تحالفت غطفان وبني أسد وطيء ، قيل لهم : الأحاليف ، لعقدتهم حلفاً على التناصر والتآزر^٥ .

١ Muh. Stud., I. S., 66.

٢ خلق الانسان (٢٣٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/١٩٩) ، (البرجمة) .

٣ قال زهير :

فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم ؟
وفي رواية (ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة) ، اللسان (١٠/٤٠٠) ، ديوان زهير (ص ١٨) ، اللسان (٩/٥٤) ، شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٩) ، الصحاح (٤/١٣٤٦) .

٤ اللسان (١٠/٤٠١) .

٥ قال ربيعة بن مقروم :

إذا حل أحياء الأحاليف حوله بني لجب هداته وصواهله
المفضليات (ص ٣٦٤) ، تاج العروس (٦/٧٥) ، شرح ديوان زهير (١٨) .

وقد ورد في معلقة (الحارث بن حلزة الشكري) اسم (حلف ذي المجاز) الذي عقد بين بكر وتغلب بوساطة (عمرو بن هند) ، وقد أخذ فيه عمرو بن هند اليهود والمواثيق والكفلاء من الطرفين حذر الجور والتعدي .^١

وتكون الهيمنة في الاحلاف التي تعقد بين قبائل غير متكافئة للقبائل القوية ، أي للقبائل التي لجأت اليها القبائل الضعيفة لعقد حلف معها . فتكون الكلمة عندئذ لسادات القبائل البارزة في هذا الحلف . وعلى القبائل الضعيفة دفع شيء للقبائل القوية في مقابل حمايتها لها وبسط سلطانها عليها ، ومنع ما قد يقع من اعتداء من قبائل اخرى عليها .

وقد كانت هذه الاحلاف تدوم ما دامت المصالح متشابهة ، فاذا اختلف التوازن بين المتحالفين ، أو وجد أحد الطرفين أن مصالحه تقتضي الانضمام الى حلف آخر ، فسخ ذلك العقد ، وعقد حلفاً آخر ، وحالف قبائل أخرى قد تكون معادية لقبائل الحلف السابق ، ويقال لفسخ الأحلاف (الخلع) .^٢

وهكذا كانت الحياة السياسية في الجاهلية : أحلاف تتكون وأخرى قديمة تنحل . ولا سيما اذا كانت قد تكونت من قبائل لا رابطة دموية بينها ولا اشتراك في المواطن ، وانما كانت عوامل مؤقتة وأحوال طارئة اقتضت تكتلها ، ثم اقتضت انحلالها لزوال تلك الأسباب .

وتعقد الاحلاف احياناً بين عشائر وبطون قبيلة واحدة ، تعقد على نمط الاحلاف التي تعقد بين القبائل . وقد يعقد الحلف بين عشائر وبطون قبيلة ، وبين عشائر وبطون قبائل غريبة . وذلك بسبب حدوث مشاحنات ومنافسات بين عشائر وبطون القبيلة ، فتتكتل العشائر والبطون وتتحزب وقد تتقاتل ، وتضطر عندئذ الى تأليف أحلاف بينها لتغلب بها على العشائر والبطون المنافسة . ومثل هذه الاحلاف تضعف القبيلة وتؤدي الى تصدها ما لم يتدارك أمرها أصحاب الرأي والسداد فيتولوا

١ وادكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه اليهود والكفلاء

شرح المعلقة السبع ، للزوزني (ص ١٦٦) .

٢ Muh. Stud., I. 8., 68.

اصلاح ما قد وقع بين رجال القبيلة من فساد وتهدة الحال حفظاً لمصلحة القبيلة .
ونجد أمثلة من هذا القبيل عند أهل الاخبار .

ولم يكن من الواجب على كل أحياء قبيلة ، الاشتراك في الاحلاف التي تعقدها
غالبية أحياء تلك القبيلة . فقد اعتزلت (حنيفة) الحلف الذي عقده قبائل
(بكر) في الجاهلية . لأنها كانت من أهل المدر ، وكان الحلف في أهل الوبر .
فلما جاء الاسلام ، دخلت في (عجل) ، وصارت لهزمة .^١

وكان في العرف الجاهلي أن الاحياء التي تتحضر من قبيلة ما ، لا تدخل في
الاحلاف التي تعقدها الاحياء المتبدية ، لاختلاف الحالة ، لا سيما اذا كانت المواطن
بعيدة . فالحضارة تبعد الاعراب عن يتحضر منهم . الا اذا وجدت مصالح
خاصة ، والمصالح اساس التعامل .

ونظراً الى ما للحلف من قدسية في النفوس ، أصبح من المعتاد عقده في مراسيم
مؤثرة ورد وصف بعضها في الاخبار ، مثل حلف (المطيبين) الذي عقد في
مكة بعد اختلاف بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل مع بني عبد الدار بن
قصي ، واجماعهم على أخذ ما في أيدي بني عبد الدار مما كان قصي قد
جعله فيهم من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً
مؤكداً ، على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضاً (ما بل بحر صوفة) ،
فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فيزعمون أن بعض نساء بني عبد مناف
أخرجنها لهم ، فوضعوها لاحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم
فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسكوا الكعبة بأيديهم توكيداً على
أنفسهم ، فسُموا المطيبين ، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند
الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فسُموا الاحلاف .^٢

- ١ النفائض (٧٢٨) ، تاج العروس (٦٩/٩) ، (لهزم) .
- ٢ ابن هشام (١٤٣/١) وما بعدها ، ابن الأثير ، الكامل (١٨٣/١) ، الطبري (١١٣٨/١) (لیدن) ، اللسان (٤٠٠/١٠) ، المعارف (٢٠٤) (طبعة وستنفلد) ،
اليقوي (٢٨٧/١) (هوتسما) ، التنبيه (١٨٠) (طبعة الصاوي) ، تاج العروس
(٧٥/٦) ، (حلف) .

(والأحلاف ست قبائل : عبيد الدار ، وجمع ، ومخزوم ، وبنو عدي ، وكعب ، وسهم) .^١

ومن هذا القبيل حلف الفضول ، اذ تداعت قبائل من قريش الى حلف وتعاهدوا وتعاهدوا على ألا يجلدوا بمكة مظلوماً من اهلها ومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عنه مظلّمته ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول .^٢ وهو من الاحلاف التي ظل الناس يحترمونها أحكامها حتى في الاسلام . وقد عقد على هذه الصورة : اجتمعت بنو هاشم وأسد وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان ، وصنع لهم طعاماً كثيراً ، ثم (عملوا الى ماء من ماء زمزم فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه ، ثم أتوا به فشربوه) .^٣

وأضيف الى هذه الاحلاف ، حلف (الرباب) . وهو حلف عقد بين المتحالفين بادخال أيديهم في (رُبّ) وتحالفوا عليه ، أو لانهم جاؤوا برُبّ فأكلوا منه ، وغمسوا أيديهم فيه ، وتحالفوا عليه . فصاروا يداً واحدة ، وقيل : لانهم اجتمعوا كاجتماع الربابة ، وهم : تيم وعدي وعُكُل ومُزَيِّنَة وضَبّة ، أو : ضبّة وثور ، وعُكُل ، وتيم ، وعدي .^٤

ومن تلك الاحلاف ، حلف لَعَقَة الدم . وقد عقد على أثر تخاصم القبائل من

١ اللسان (٥٤/٩) ، ابن هشام ، سيرة (٨٤/١) ، البداية والنهاية (٢٠٩/٢) ، ابن الأثير ، الكامل (٢٦٧/١) ، المسعودي ، التنبيه (١٨٠) ، المروج (٥٩/٢) ، ابن خلدون (٦٩٤/٢) ، المحبر (١٦٦) ، تاج العروس (٧٥/٦) ، القاموس (٢٨٠/٣) ، النويري ، نهاية الأرب (٣٥/١٦) ، المعارف (ص ٢٠٤) (طبعة هوتسما) ، دائرة المعارف الاسلامية (٤٩/٨) (الترجمة العربية) ، لسان العرب (٥٤/٩) .

Caetani, Annali, Vol., I, Intro., 120, 2, I, Anno., 8, 20-21, Ency.; 2; P. 307.

٢ ابن هشام (١٤٥/١) ، الأغاني (٦٤/١٦) وما بعدها ، المعارف (٢٠٤) (طبعة هوتسما) ، الاشتقاق (١١١) (طبعة وسننفلد) ، العقد الفريد (٤١/٢) ، اللسان (٣٩٩/١٠) ، السيرة الحلبية (١٤٦/١) ، تاريخ الخميس (٢٦١/١) ، المحبر (١٦٧) ، عيون الأثر (٥٢/١) .

٣ الأغاني (٦٤/١٦) .

٤ الاشتقاق (١١١) ، الصحاح (١٣١/١) ، اللسان (٣٨٨/١) ، (٤٠٣) ، تاج العروس (٢٦٤/١) ، الأغاني (١٤/٩) ، العقد (٥٩/٢) .

قريش في وضع الحجر الأسود في موضعه . فلما استعدت للقتال (قريت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لُؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا (لَعَقَةَ الدم) .^١ ويظهر أن عقد الحلف بادخال الأيدي في الدم من المراسيم المعروفة . وقد عرف قوم من بني عامر بن عبد مناة بن كنانة بلعقة الدم . وكانوا ذوي بأس شديد .^٢ وجاء أن خثعمًا انما سُموا خثعمًا لانهم غمَسوا ايديهم في دم جزور .^٣

وتعقد الاحلاف على النار كذلك ، وقد وصف (هيرودوتس) طريقة من طرق التحالف والمؤاخاة والمحافظة على العهود عند العرب ، فذكر أن العرب يحافظون على العهود والمواثيق محافظة شديدة ، لا يشاركهم في ذلك أحد من الأمم ، ولها قداسة خاصة عندهم ، حتى تكاد تكون من الامور الدينية المقدسة . واذا ما أراد أحدهم عقد حلف مع آخر ، أوقفا شخصاً ثالثاً بينها ليقوم باجراء المراسيم المطلوبة في عقد الحلف ، ليكتسب حكماً شرعياً ، فيأخذ ذلك الشخص حجراً له حافة حادة كالسكين يخدش به راحتي الشخصين قرب الإصبع الوسطى . ثم يقطع قطعة من ملابسها فيغمسها في دمي الراجتين ، ويلوث بها سبعة أحجار . ويكون مكان هذا الشخص الذي يقوم باجراء هذه الشعائر في الوسط ، يتلو أدعية وصلاة للإلهين (بانخوس) (Bachus) و (اورانيا) (Urania) ، حتى اذا انتهوا منها قاد الحلف حليفه الى أهله وعشيرته لإخبارهم بذلك ، وللإعلان عنه ، فيصبح الحليف أخاً له وحليفاً ، أمرهما واحد بالوفاء .^٤

وما ذكره (هيرودوتس) عن عقد العرب احلافهم على النار ، هو صحيح على وجه عام . يؤيده ما ذكره اهل الاخبار عن (نار التحالف) . وقولهم : كان أهل الجاهلية اذا أرادوا أن يعقدوا حلفاً ، اوقدوا ناراً وعقدوا حلفهم

١ ابن هشام (٢١٣/١) ، عيون الأثر ، لابن سيد الناس (٥٢/١) ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر (١١٤/١) ، تاج العروس (٦٢/٧) ، القاموس (٢٨٠/٣) ، نسب قريش (٢٨٣) .

٢ الأغاني (٢٦/٧) .

٣ المفضليات (ص ٧٠٥) (واشتقاق خثعم فيما ذكر ابن الكلبي أنهم نحروا جزورا ، فتخثعموا عليه بالدم ، أي تطلوا به) ، الاشتقاق (٣٠٤/٢) .

٤ Harodotus, Vol., I, P. 213, (Rawlinson).

عندها ، ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ، ويحلّ العقد ، وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت ، فاذا استشاطت ، قالوا للحالف : هذه النار تهددتك ، يخوفونه بها حتى يحافظ على العهد والوعد ، ولا يحلف كذباً ، ويضمر غير ما يظهر . ولذلك عرفت هذه النار بنار التحالف . وهي نار يقسم المتخاصمون عليها كذلك ، فان كان الحالف مبطلاً نكل ، وان بريئاً حلف ولهذا سمّوها أيضاً (نار المهور) و (الهولة) ^١ . وذكر أنهم كانوا لا يعقدون حلفاً الا عليها . وقد أشار الى هذه النار (أوس بن حجر) ، اذ قال :

اذا استقبلته الشمس ، صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهور حالف
كما أشار اليها الكميت :

هُمُو خَوْفُونِي بِالْعَمَى هُوّة الردي كما شبّ نار الحالفين المهور ^٢
وقد ذكر أهل الاخبار حلفاً سمّوه : (حلف المحرقين) ، وزعموا أن المتحالفين تحالفوا عند نار حتى أمحشوا أي احترقوا ، وأن (يزيد بن أبي حارثة ابن سنان ، وهو أخو هرم بن سنان الذي مدحه زهير ، بمحش المحاش ، وهم بنو خصيلة بن مرة وبنو نشبة بن غيظ بن مرة على بني يربوع بن غيظ بن مرة رهط النابغة ، فتحالفوا على بني يربوع على النار ، فسّمّوا المحاش بتحالفهم على النار . ^٣ وزعموا أن المحاش القوم يجتمعون من قبائل شتى ، فيتحالفون عند النار . ^٤ وذكر علماء اللغة أن (المحاشن) : القوم يجتمعون من قبائل يحالفون غيرهم من الحلف عند النار . وكانوا يوقدون ناراً لدى الحلف ليكون أوكد . وقد أشير الى ذلك في شعر النابغة ، اذ يقول :

جمع محاشك يا يزيد ، فإنني أعددت يربوعاً لكم ، وتبما

قليل : يعني صرمة وسهماً ومالكاً بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وضبة بن سعد ، لانهم تحالفوا بالنار ، فسّمّوا المحاش . ^٥

١ صبح الأعشى (٤٠٩/١) ، اللسان (٧٠٣/١١) ، سبائك الذهب ، للسويدي (١١٩) ، بلوغ الأرب (١٦٢/١) .

٢ نهاية الأرب (١١١/١) .

٣ اللسان (٢٣٨/١٤) ، و (ورد غيظ) و (غيظ) .

٤ ناج العروس (٣٨٤/٤) .

٥ اللسان (٣٤٤/٦) وما بعدها ، (محش) ، ناج العروس (٣٤٨/٤) ، (محش) .

وقريب من هذا ما كانت تفعله قريش حين تعقد حلفاً ، فيأخذ الحليف حليفه الى الكعبة ، ثم يطوفان بالأصنام لإشهادها على ذلك ، ثم يعود الحليف بحليفه لاشهاد قريش ومن يكون في الكعبة آتخذ على صحة هذا الحلف ، وقبوله مخالفة الحليف ، اذ أصبح وله ما له وعليه ما عليه ، وعلى قومه حمايته حمايتهم له . وقد ذكرت كتب السيرة والخبار والأدب طرقاً من اخبار المحالفات التي كانت تعقد بمكة وكيفيتها وبعض المراسيم التي تمت فيها .

ولا تعرف صيغة واحدة معينة للقسم الذي يقسم به المحالفون . فمنهم من أقسم بالأصنام التي يعبدونها ويقفون عندها حين يعقدون الحلف . ومنهم ، وهم أغلب أهل مكة ، من كانوا يحلفون عند الركن من الكعبة ، فيضع المتحالفون أيديهم عليه ، فيحلفون . وقد ذكر أن قَسَمَ قريش والاحابيش عند الركن يوم تحالفوا وتعاهدوا ، حلفوا (بالله القاتل وحرمة البيت والمقام والركن والشهر الحرام على مصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الارض ومن عليها ، وعلى التعاقد والتساعد على من عاداهم من الناس ما بلّ بحر صوفة ، وما قام حراء وثبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم القيامة) .^١

ومنهم من أقسم بالآباء والاجداد ، لا لهم من مكانة ومقام في نفوسهم . ومنهم من حلف وعقد الحلف عند المشاهد العظيمة ، أو في معابد الاصنام ، أو عند قبور سادات القبائل المحترمين ، فيحلفون بصاحب هذا القبر ويذكرون اسمه على التعاقد والتآزر أو على ما يتفق المتحالفون عليه ، وعلى الوفاء بالعهد . وقد روي أن النبي أدرك (عُمَرَ) في رَكْب وهو يحلف بأبيه ، فنادى رسول الله : (اما ان الله عزّ وجلّ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . من كان حالفاً ، فليحلف بالله ، أو يصمت) .^٢

وفي كتب أهل الاخبار والأدب أسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عقدت في مراسيم خاصة ، يمكن الوقوف عليها وتعيينها من دراستها والوقوف على معانيها ، مثل الرباب والمحاش وما شاكل ذلك من أسماء .

ومن عاداتهم في عقد الاحلاف ما ذكرته من التحالف على الطيب أو النار أو

١ اليقوبي (٢١٢/١) .

٢ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، للشيخ منصور على ناصف (٧٤/٣) .

القسم عند صنم . (وفي حديث الهجرة : وقد غمس حلفاً في آل العاص ، أي أخذ نصيباً من عقدهم وحلقهم يأمن به . وكان عاداتهم أن يحضروا في جفنة طيباً أو دماً أو رماداً ، فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد)^١ . وحلقوا بالملح وبالماء . (قال ابن الأعرابي) : (والعرب تحلف بالملح والماء تعظيماً لهما)^٢ . ومن المجاز (ملحه على ركبته) ، بمعنى قليل الوفاء .^٣ وحلقوا بالخبز والملح ، وعلى من يأكل خبز وملح شخص الوفاء لذلك الشخص . ولا يجوز الاعتداء على من أكل خبز وملح قبيلة . وعليها الدفاع عنه وأخذ حقه ممن ظلمه من أهل تلك القبيلة .

وتدونّ الاحلاف أحياناً لتوكيدها وتثبيتها ، وتحفظ عند المتعاقدين ، وقد تودع في المعابد ، كالذي روي في خبر (صحيفة قريش) يوم تأمر المشركون وتحالفوا على مقاطعة (بني هاشم) في شعبهم ، اذ كتبوا صحيفة بما اتفقوا عليه ، ثم أودعوها كما يقول أهل الأخبار جوف الكعبة ، كالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب ، وتعاهدوا وأقسموا على اتباع ما كتب فيه ، والعمل به ، وإلى ذلك أشير في شعر قيس^٤ ونجد في شعر (زهير) :

الا أبلغ الاحلاف عني رسالة وذبيان : هل أقسمتم كل مقسم ؟

إشارة إلى قسم أخذ من المتعاقدين ، ليلتزموا الوفاء بما تحالفوا عليه ، وهم (الاحلاف) . كما نجد في شعر الحارث بن حلزة الشكري :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قد م فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدّي ، وهل ينقض ما في المهارق الأهواء

إشارة إلى العهود والرهائن التي أخذت من (بني تغلب) و (بني بكر) للوفاء بما توافقوا وتعاهدوا عليه ودوّنوه من شروط على (المهارق) ،

١ تاج العروس (٢٠٣/٤) ، اللسان ٦/١٥٧ ، (غمس) .

٢ تاج العروس (٢٣٠/٢) ، (ملح) .

٣ قال مسكين الدارمي :

لا تلمها أنها من نسوة ملحها موضوعة فوق الركب
أي هذه قليلة الوفاء ، تاج العروس (٢٣٠/٢) ، ملح .

٤ لعمرى لقد حالفت ذبيان كلها وعبسا على ما في الأدم الممدد
شعر قيس (٢١) .

أي القراطيس ، توكيداً لما اتفقوا عليه مشافهة . وكان الملك (عمرو بن هند) ، قد أصلح بين الطرفين بحلف ، سمي حلف ذي المجاز ، فأخذ عليهم الموائيق والرهائن^١ .

ويوثق ما اتفق عليه عن عهود وأحلاف وموائيق ، رؤساء الأطراف المتعاقدة ، بأن تدون أسماؤهم وتختم بخواتيمهم ، لتكون شهادة بصحة ما اتفق عليه ، كما يفعل المتعاقدون على صحة العقد ، وعلى صحة الخواتيم ، وبأن ما اتفق عليه كان بحضورهم ، وبأنهم شهود على كل ذلك .

وفي أخبار أهل الأخبار شواهد تشهد بتدوين الجاهليين لعقود الأحلاف . ورد في شرح (التبريزي) على المعلقات قوله في معرض شرحه لمعلقة (الحارث بن حلزة الشكري) : إن كانت أهواؤكم زينت لكم الغدر والحياة بعد ما تحالفنا وتعاقدنا ، فكيف تصنعون بما هو في الصحف مكتوب عليكم من العهود والموائيق والبيئات فيما علينا وعليكم^٢ ؟ وورد أن أهل الجاهلية (كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان)^٣ . وورد في شعر ينسب إلى (درهم بن زيد الأوسي) ، ما يفيد بوجود صحف مكتوبة بعهود عقدت بين الأوس والخزرج^٤ . ووردت إشارة إلى (الصحف) : صحف العهود والموائيق في شعر للشاعر : قيس بن الخطيم^٥ .

وروي أنه قد كان عند (عمر بن إبراهيم) من ولد (أبرهة بن الصباح) الحبشي المعروف ، كتاباً دوت (الدينوري) صورته ، فيه حلف اليمن وربيعة في حكم الملك (تبع بن ملكيكرب) . وقد دون بشهر رجب الأصم^٦ . وهو كتاب يظهر أنه دوت في الإسلام ، وإن واضعه لم يكن له علم بأحوال اليمن في

- ١ شرح القصائد العشر ، للزوزني (٣٤٥) ، شرح الفصائد السبع (٢٠١) ، الحيوان ، للجاحظ (٦٩/١ وما بعدها) ، المغرب للجواليقي (٣٠٣) .
- ٢ شرح المعلقات (٢٦٨ وما بعدها) .
- ٣ الحيوان ، للجاحظ (٦٩/١ وما بعدها) .
- ٤ وإن ما بيننا وبينكم حين : يقال : الأرحام والصحف ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي (ص ٦٦) .
- ٥ ديوان قيس بن الخطيم (١٩) .
- ٦ الأخبار الطوال (٣٥٤) .

ذلك العهد . على كل ، فإنه يشير الى وجود تدوين العهود عند الجاهليين .
ولما تحالفت قريش على مقاطعة (بني هاشم) و (بني المطلب) كتبت كتاباً
بما اتفقت عليه ، كتبه (منصور بن عكرمة العبدي) ، وذكر انه حفظ عند
(أم الجلاس بنت مخربة الحنظلية) خاله أبي جهل ، وذكر انه علق في
جوف الكعبة^١ .

وشهادات الشهود على صحة العقود أو الأوامر ، معروفة عند أهل اليمن ،
لذا وردت في الأوامر الملكية التي أصدرها ملوك اليمن وفي قوانينهم التي كانوا
يصدرونها لأتباعهم . وقد عرفت عند أهل مكة ، وهم قوم تجار وأصحاب
مصالح ، ولهم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القرى وسادات
القبائل . وفي القرآن الكريم ألفاظ لها صلة بالشهادة والشهود ، منها : (شهدتم) ،
و (شهدوا) ، و (أشهد) و (تشهد) ، و (تشهدون) ، و (شاهد) ،
و (الشهادة) ، وقد أمر بوجوب المحافظة على الشهادة وعدم كتمانها : (ولا
تكنتموا الشهادَةَ ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه)^٢ .

ولما كانت مراسيم الأحلاف من المراسيم المهمة ومن الأحداث الخطيرة ، افترنت
من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين . فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على
مائدة واحدة كالذي ذكرته من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين يوم
عقدوا (حلف الفضول) . وقد تكون الوليمة نفسها مظهراً من مظاهر مراسيم
عقد الأحلاف ، لما للخبز والملح من أثر عند العرب . فعلى من يأكل خبز رجل
وملحه ان يمرّ به ويوفي له ، ولهذا يعنف الإنسان الإنسان الغادر ويوبخه ، لأنه
لم يراع حرمة الخبز والملح ، وهي حرمة تكاد تصل الى حرمة الدم والرحم .

يتبين مما تقدم ان العرب كانت ترى توكيد الأحلاف بكسوتها بقديسية خاصة ،
وذلك بعقدتها مراسيم ذات صبغة دينية . وقد راعت في تلك المراسيم جهد إمكانها
إيلاج ما يوضع في تلك المراسيم الى أجسام المتحالفين ، وكأنهم أرادوا بذلك
ادخال القسم وما حلف عليه في جسم المتحالفين ، ولهذا كان الذين يغمسون
اصبعهم في جفنة الدم أو في دم الجزور ، يقطعون إصبعهم ، وكان الذين يغمسون

١ ابن سعد ، طبقات (٢٠٨/١ وما بعدها) .

٢ البقرة ، الآية ٢٨٣ .

أصابهم في الطيب يلطعون أصابعهم أيضاً ، وكان الذين يقسمون على الماء المقدس يشربون من ذلك الماء ؛ وكان الذين يجرحون أيديهم ويعقدون الحلف يضعون راحتي المتحالفين اليمنى إحداهما فوق الأخرى ، الى آخر ذلك من مظاهر توحى ان المتحالفين لم يكونوا قد فعلوا ذلك عبثاً ومن غير هدف ولا قصد ، بل أرادوا من كل ذلك التأثير في المتحالفين وجعلهم يشعرون بأن حلفهم هذا أي قسمهم على التحالف لتنفيذ ما اتفق عليه قد صار جزءاً من جسمهم ، وقد حل في دهم ، كما يحل الدم والخبز في دم الجسم .

وتعقد الأحلاف الخطيرة المهمة أمام الأصنام وفي المعابد في الغالب ، وذلك كي تكتسب قدسية خاصة . ويشرف على عقدها سادن الصنم ، وقد يساعده مساعدون ، ليقوموا بمساعدته في إتمام المراسيم .

ويكون بين قبائل الحلف سلم وود ، لذلك يستطيع أبناء القبائل المتحالفة المرور بمواطن هذه القبائل غير خائفين ، وتمر قوافلهم بأمان لا يتعرض لها ، ولا تجبي إلا على وفق ما اتفق عليه وجرت عليه عادة المتحالفين . وعلى أبناء هذه القبائل حماية من يجتاز بأرضهم وتقديم المساعدات له وإضافته ودفع الأذى عنه ، وإذا وقع عليه اعتداء من قبائل غريبة فعليه مساعدته والذب عنه واستصراخ قومه لنجده ، لأنهم من حلف واحد . وعلى الإنسان ان يتعصب للحلف تعصبه لقبيلته .

ويلاحظ ان الأحلاف إذا طالت وتماسكت ، أحدثت اندماجاً بين قبائل الحلف ، قد يتحول الى النسب . بأن تربط القبائل والعشائر الضعيفة نسبها بنسب القبيلة البارزة المهيمنة على الحلف . وينتمي الأفراد الى سيد تلك القبيلة البارزة ، فتدخل أنسابها في نسب الأكبر . وفي كتب الأنساب والأدب أمثلة عديدة على تداخل الأنساب ، وانتفاء قبائل من أنسابها القديمة ودخولها في أنساب جديدة .

ويؤدي انحلال الحلف أو انحلال عقد عشائر القبيلة الذي هو في الواقع حلف سمي (قبيلة) الى انحلال الأنساب وظهور أنساب جديدة ، فان القبائل المنحلة تنضم الى حلف جديد ، فيحدث ما ذكرته آنفاً من تولد أنساب جديدة ، ومن تداخل قبائل في قبائل أخرى ، وأخذها نسبها . ومن هنا قال (كولد زيه) : إنه لفهم الأنساب عند العرب ، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف ، فإنها تكون القبائل ، لأن أكثر أسماء أجداد القبائل هي أسماء أحلاف ، ضمت عدداً

من القبائل توحدت مصالحها فاتفقت على عقد حلف فيما بينها على نحو ما مر^١ . وفي كتب الأنساب والأدب أدلة عديدة معروفة على أسماء أحلاف ، مشتهرة بين الناس وفشت وشاعت حتى صارت كأنها نسب من الأنساب . من ذلك (الأحلاف) و (المطيبون) . جاء (ابن صفوان) الى (عبد الله بن عباس) ، فقال له : (نعم الإمارة إمارة الأحلاف ، كانت لكم) فقال (ابن عباس) : (الذي كان قبلها خيراً منا . كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من المطيبين ، وكان عمر من الأحلاف) يعني (إمارة عمر)^٢ . وقيل لعمر : أحلافي ، لأنه عدوي . والأحلاف صار اسماً لهم كما صار الأنصار اسماً للأوس والخزرج^٣ .

وقد أشرت سابقاً الى اسم (تنوخ) . و (الأحابيش) ، حلف عقد عند جبل حبش بأسفل مكة ، فعرف المتحالفون به . وهم (بنو المصطلق ، والحيا ابن سعد بن عمرو ، وبنو الهون بن خزيمه) ، وذلك على حد قول أكثر أهل الأخبار^٤ .

و (الرباب) حلف أيضاً ، ضم خمس قبائل ، هي : تيم ، وعدي ، وعكّل ، ومزينة ، وضبة ، ولكنه سار بين الناس ومشى وكأنه اسم جماعة ترجع الى نسب واحد^٥ . وأما (الأحلاف) ، الذين ورد اسمهم في شعر (زهير ابن أبي سلمى) ، فهم (أسد) و (غطفان) ، ويقال لحلفها المذكور أيضاً (الحليقان)^٦ . و (الأحلاف) : كذلك قوم من (ثقيف)^٧ .

لقد تركت الأحلاف أثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل

١ Muh. Stud., I, S., 64.

٢ اللسان (٥٤/٩) (بيروت) ، وفي حديث ابن عباس : وجدنا ولاية المطيبي خبراً من ولاية الأحلاف . يريد أبا بكر وعمر . يريد أن أبا بكر كان من المطيبين ، وعمر من الأحلاف .

٣ اللسان (٥٤/٩) ، ناه العروس (٧٥/٦) ، المعارف (٦١٦) .

٤ اليعقوبي (٢١٢/١) ، البلدان (٢٢٥/٢) .

٥ الاشتقاق (ص ١١١) ، اللسان (٤٠٣/١) .

٦ شرح العوائد العشر ، للسبرنزي (٢١٩) ، شرح ديوان زهير ، لثعلب (١٥) ، اللسان (٥٤/٩) .

٧ اللسان (٥٥/٩) ، ناه العروس (٧٥/٦) ، الصحاح (١٣٤٦/٤) .

الإسلام وعند العرب في الإسلام كذلك ، على الرغم من الحديث المنسوب الى الرسول الذي يناهض الحلف : (لا حلف في الإسلام)^١ . وقد أدرك الرسول ، ولا شك ، ضررها بالمجتمع العربي إذ كانت من أسباب التفريق ، فحلّ الأحلاف وأحل الدولة مكانها ، وحتم على القبائل إطاعة الرسول أو من يقوم مقامه من المسلمين .

وأما ما رواه (قيس بن عاصم) من ان الرسول قال : (لا حلف في الإسلام ، ولكن تمسكوا بحلف الجاهلية) ، فالظاهر انه قصد بذلك الجوار^٢ . وقد أكد الإسلام احترام الجار ، ووجوب الدفاع عنه ، كما أيد الأحلاف الجاهلية التي تدعو الى الخير ونصرة الحق . أما الممنوع ، فما خالف حكم الاسلام ، ودعا الى الهلاك والضرر والفتن والقتال ، فذلك الذي ورد النهي عنه في الاسلام^٣ .

واستعمل الجاهليون لفظة (حبل) و (حبال) للعهد والمواثيق . ف (الحبل) هو العهد والذمة والأمان ، وهو مثل الجوار . وكان من عادة العرب في الجاهلية ان يخيف بعضهم بعضاً ، فكان الرجل إذا أراد سفراً أخذ عهداً من سيد كل قبيلة ، فيأمن به ما دام في تلك القبيلة ، حتى ينتهي الى الأخرى ، فيأخذ مثل ذلك أيضاً ، يريد به الأمان . فهذا حبل الجوار ، أي ما دام مجاوراً أرضه . وفي هذا المعنى جاء قول الأعشى :

واذا تجوزها حبال قبيلة أخذت من الأخرى اليك حبالها

وجاء في الحديث : (بيننا وبين القوم حبال) ، أي عهود ومواثيق . وفي هذا المعنى ، أي العهد والذمة والأمان ، جاء :

ما زلت معتصماً بحبل منكم من حلّ ساحتكم بأسباب ، نجا^٤

١ تاج العروس (٧٥/٦) ، النهاية في غريب الحديث (٢٤٩/١) ، اللسان (٥٣/٩) ، الكامل ، لابن الأثير (٢٦٧/١) .

٢ الاغانى (١٥١/١٢) .

٣ اللسان (٥٤/١) ، النهاية في غريب الحديث (١٤٣/٣) .

٤ اللسان (١٣٤/١١ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣٠/٤) ، روح المعاني ، للآلوسي (١٧/٤) ، تفسير الرازي (١٧٣/٨) ، جامع احكام القرآن ، للقرطبي (١٥٨/٤) .

وقد استفادت قريش من (الحبال) التي عقدتها بينها وبين القبائل ، إذ أمنت بذلك على تجارتها ، وقد كانت واسعة تشمل كل جزيرة العرب ، وتتصل بالعراق وبلاد الشام ، فصارت قوافلها العامة والخاصة تمرّ بأمن وسلام من كل مكان بفضل حنكة سادة مكة وذكائهم في تأليف قلوب سادات القبائل وربطهم بهم بعهود ومواثيق . جعلت التحرش بقوافلهم من الأمور الصعبة ، وإذا طمع بها طامع أدبه سيد قبيلته الذي يخضع له .

ولقريش ولغيرها أحلاف مع أسر وأفراد . فقد كان لـ (بني دارم) من تميم حلف مع (بني عبد مناف) من قريش . وكان لـ (عكاشة بن محصن) حلف مع رجال من مكة . روي أن رسول الله قال : (منا خير فارس في العرب : عكاشة بن محصن . فقال ضرار بن الأزور الأسدي ذاك رجل منا يا رسول الله . قال : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف القوم منهم . كما جعل ابن أخت القوم منهم)^١ . وكان للأخنس بن شريق ، وهو رجل من ثقيف ، وكذلك (يعلى بن منبه) ، وهو رجل من (بلعدوية) ، وكذلك (خالد ابن عرفة) وهو رجل من عذرة حلف مع قريش ، فصاروا منها بالحلف . ذلك لأن (حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم)^٢ .

وقد يقع أسير في أسر أسر ، فلا يتمكن من فداء نفسه ، ثم يطلب من أسرِه أن يكون حليفاً له ، فإذا قبل أسرُه منه ذلك ، صار في حلقه وفي حلف قبيلته . أي يكون ذلك الشخص حليفاً لقبيلة أسرِه . ويكون حكمه بالنسبة للإرث ، إنه يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها . أما إذا قتل ، فديته نصف دية الصريح^٣ . وكان (معقيب بن أبي فاطمة) حليفاً لبني أسد ، وكان يكتب مغنم الرسول^٤ .

التخالع :

وإذا أراد المتحالفون إنهاء حلفهم وعهدهم الذي تعاهدوا عليه بينهم ، أعلنوا

-
- ١ مناقب الترك ، من رسائل الجاحظ (١٣/١) ، (تحقيق عبد السلام هارون) .
 - ٢ مناقب الترك (١٢/١) وما بعدها .
 - ٣ تاريخ التمدن الاسلامي (٢٣/٤) .
 - ٤ الجهشيارى (١٢) ، (القاهرة ١٩٣٨) .

عن ذلك ، وكتبوا به كتاباً ، ليكون مشعراً بتخالعهم ، وانهم نقضوا الحلف الذي كان بينهم ، فتسقط بذلك كل مسؤولية تولدت عن الوفاء بذلك الحلف أو العهد ، فلا يطالب طرف الطرف الثاني بالوفاء به . ورد في كتب اللغة : وتخالعوا : نقضوا الحلف والعهد بينهم وتناكثوا^١ .

ويكون التخالع باتفاق الطرفين عليه ، وبرضاها عنده . أما إذا نكل طرف واحد بتنفيذ ما جاء في الحلف ، أو أعلن عن انسحابه منه ساعة الحاجة اليه ، كأن يتبرأ منه في وقت يكون فيه حليفه في شدة وضيق ، عدّ ذلك غدرأ وخيانة ، لتلكؤه عن تنفيذ ما اتفق عليه . وليس الغدر من سجايا إنسان شريف .

وقد كان للحلف أثر مهم في تلاحم الأنساب وفي انفكاكها وتجزئتها ، وطالما نقرأ في الكتب عبارات تشير الى تلاحم الأنساب وتداخلها بسبب العوامل المتقدمة . مثل : (ومنهم سليم بن عباد . كان حليفاً لأبي طالب . وولده اليوم يدعون في آل أبي طالب)^٢ .

والأحلاف بنوعها أحلاف القبائل وأحلاف الأفراد قد لا تدوم أمداً طويلاً ، ولا سيما أحلاف القبائل ، فالقبائل في تنقل وحركة ، ومصالحها وضرورات الحياة عندها متغيرة غير ثابتة ، وهي قلقة غير مستقرة . وأحلاف تقوم على مثل هذه الأسس لا يمكن ان تدوم وتعمر ، ولا سيما إذا ما تشتت شمل الحلف ، وتنقلت قبائله ، وتحولت الى أماكن بعيدة . فتضعف الروابط والصلات التي تجمع بين شملها ، ثم ترخي وتزول ولا يبقى من الحلف غير الاسم . تزول بغير تخالع ولا تقاتل أو تباغض ، تزول لأن الظروف التي دعت الى عقدها ، تكون قد زالت وتغيرت ولأن التباعد قد برّد من نار الحب التي كانت قد قاربت بين القلوب فجعلها تنسى ذلك الحب ، ولا تذكره إلا عندما تذكره .

إخاء القبائل :

وإخاء القبائل ، هو إخاء اصطناعي ، وان عدّه أهل الأنساب والأخبار إخاءً

١ اللسان (٧٦/٨ ح ، (صادر) ، (خلع) ، تاج العروس (٣٢٢/٥) ، (خلع) .

٢ الاشتقاق (١٨٩) .

حقيقياً من اقتران والد بأم . فنحن نعلم في هذا اليوم ومن قراءاتنا للكتابات الجاهلية ، ومن نقدنا وغربلتنا لأخبار أهل الأخبار ولروايات أهل الأنساب ، ان التآخي ، هو في الواقع جوار ، ونزول قبيلة بجوار قبيلة أخرى ، أو نتيجة حلف تأخت قبائله واتحدت ، فقد تأخيتها تأخياً بالمعنى المفهوم من الاخوة . أو حاصل تضخم قبيلة لم تعد أرضها يتسع صدرها لها ، فاضطرت عشائرها وبطونها على التنقل والارتحال الى مواطن جديدة ، وعدت نفسها لذلك من نسل تلك القبيلة التي كانت تعيش معها ، فقد ذلك أهل الأنساب نسباً حقيقياً بالمعنى المفهوم من النسب عندنا .

وقد تضطر بعض القبائل على ترك مواطنها والارتحال عنها ، بسبب غزو قبيلة أقوى منها لها ، فتتزل بين قبيلة جديدة وتتخالف معها ، أو تقهرها على النزول بأرضها . وفي كتب أهل الأنساب والأخبار أمثلة عديدة على ذلك . فتتداخلك أنسابها ، ويتولد من ذلك نسب جديد . من ذلك ، ما يرويه أهل الأنساب عن (عك) وهو أخو (معد) على زعم أهل النسب ، فلما حارب (مختصر) (عدنان) ، والد (معد) و (عك) ، هاجر أبناء (عك) نحو الجنوب فراراً من (مختصر) وأقاموا في اليمن ، فدخل نسبهم في اليمن ، وعدتهم بعض أهل الأنساب من قحطان ، ومن ذلك قضاة وقبائل أخرى عديدة .

الهجن :

وتزوج العرب من الإماء ، وذلك ان من الإماء من كانت جميلة الصورة حلوة المنظر والكلام ، ولهذا تزوج ساداتهن منهن ، فولد لهم نسل ، قيل للواحد منه الهجين . والهجين : ولد العربي من غير العربية ، قيل له ذلك لأن الغالب على ألوان العرب الأدمة^١ ، ويقال للزواج الذي يقع بين عربي وأعجمية : (مهاجنة) . وقد عابته العرب وعدت الهجين دون العربي الصريح ، لوجود دم أعجمي فيه . والأعاجم هم ، مهما كانوا عليه من منزلة ، دون العرب في نظر العرب^٢ .

ويظهر من تعريف علماء اللغة للفظ (الهجين) ، انها خصصت بمن يولد

- ١ اللسان (أ/د/م) ، (٤٣١/١٣) .
- ٢ اللسان (أ/د/م) ، (٤٣١/١٣) .

من أم أعجمية بيضاء ، كأن تكون الأم رومية أو فارسية . فقد ذكروا ان العرب أطلقت على أولادها من العجميات اللاتي يغلب على ألوانهن البياض ، الهجن والهجناء ، لغلبة البياض على ألوانهم وإشباههم أمهاتهم ، فيجب ان تكون الأمهات الأعجميات إذن من ذوات البشرة البيضاء ، تمييزاً لهن عن ذوات البشرة السوداء من الرقيق المستورد من إفريقية . ويذكر علماء اللغة أيضاً ان العرب قالت للعجم (الحمراء) و (رقاب المزاد) ، لغلبة البياض على ألوانهم ، ويقولون لمن علا لونه البياض : أحمر^١ . وقد هجا (حسان بن ثابت) (سعد بن أبي سرح) بأن أمهم بأنه عبد هجين ، أحمر اللون فاقع ، موتر علباء القفا ، قَطَط^٢ ، جعد^٣ .

والهجنة من الكلام : ما يعيبك^٣ . وقد جاء هذا المعنى من الفساد الذي قد يظهر في كلام الهجن ، بسبب عجمة الأمهات وعدم اتقانهم العربية . ولما كان الخطأ في اللغة عيباً ، عدت الهجنة من الأمور المعيبة .

ويطلق العرب لفظة (رجل مولد) على الرجل إذا كان عربياً غير محض . و (المولدة) الجارية المولودة بين العرب ، وقيل : تولد بين العرب وتنشأ مع أولادهم ويغذونها غذاء الولد ويعلمونها من الأدب مثل ما يعلمون أولادهم . و (التليد) التي ولدت ببلاد العجم وحملت فنشأت ببلاد العرب ، وقيل : هي التي تولد في ملك قوم وعندهم أبوها^٤ .

الجوار :

وللجوار حرمة كبيرة عند الجاهليين . فإذا استجار شخص بشخص آخر ، وقبل ذلك الشخص ان يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايته ، وحق على المجار الدفاع عن مجيره ، والذب عنه . وإلا عدّ ناقصاً للعهد ، ناكثاً للوعد ، مخالفاً

١ اللسان (٤٣١/١٣) ، الأغاني (٧٣/١٦) .

٢ أعبد هجين أحمر اللون فاقع موتر علباء القفا قطط جعد

ديوان حسان (ص ١٤٩) (البرقوقي) .

٣ اللسان (هـ/ج/ن) ، (٤٣١/١٣) .

٤ اللسان (ولد) ، (٤٦٧/٣) وما بعدها .

لحق الجوار . وعلى القبائل استجارة من يستجير بها ، والدفاع عنه دفاعها عن أبنائها . ويقال للذي يستجير بك (جار) . والجار الذي أجرته من ان يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك ، والمجير هو الذي يمنعك ويجيرك . وأجاره : أنقذه من شيء يقع عليه ^١ .

العصية :

وأساس النظام القبلي هو العصية ، العصية للأهل والعشيرة وسائر متفرعات الشعب أو الجذم أو القبيلة ، أو العشيرة . ومن شروطها ان يدعو الرجل الى نصره عصيته والتألب معهم على من يباؤتهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين ، وليس له ان يتساءل : أهو ظالم أم مظلوم ^٢ ، وهي ضرورة للقبائل ، لأنها لا تستطيع ان تدافع عن نفسها إلا اذا كانت ذات عصية ونسب ، وبذلك تشتد شوكتها ، ويخشى جانبها ، كما انه لا يمكن وقوع العدوان على أحد مع وجود العصية . وتقوم العصية على النسب ، وهي تختلف لذلك باختلاف درجات تقارب الأنساب ، ولذلك نجد عصيات مختلفة ^٣ . وتشمل العصية الصرحاء والموالي والجيران .

وتشمل العصية أهل المدر كذلك ، فأهل المدر وإن تحضروا واستقروا واقاموا في بيوت ثابتة ، إلا ان نظامهم الاجتماعي والسياسي بني على العصية أيضاً ، فتألفت المدن والقرى من (شعاب) ، وتكوّنت الشعاب من جماعات بينها روابط دم ووشائج قرابة . والشعب هو وحدة ، وهو الذي يأخذ بحق المظلوم من الظالم ، وبظلامة من تقع عليه ظلامة . وغالباً ما تكون بين الشعاب المتجاورة قرابة وصلة رحم ، وإذا حدث حادث لهذه الشعاب ، هبت للنظر فيه واتخاذ ما ينبغي اتخاذه من موقف ، ثم تكون عصية الشعاب للمدينة أو للقريّة ثم إن سكان هذه المدن وإن تحضروا واستقروا كانوا يرجعون أنفسهم كأهل الوبر الى

-
- ١ اللسان (١٥٤/٤ وما بعدها) ، تاج العروس (١١١/٣ وما بعدها) ، (جار) .
 - ٢ (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، الأمثال (٢٢) ، لسان العرب (٦٠٦/١) ، فاموس المحيط (١٤٠٥/٢) ، (للبسناني) .
 - ٣ راجع بحث العصية في مقدمه ابن خلدون (ص ١٠٨ فما بعدها) ، الحيوان (١٦٦/١) .

قبائل وعشائر . فهم اذن أعراب من حيث التعصب والأخذ بالعصية ، واختلافهم عن الاعراب ، هو في استقرارهم وفي عيشهم في محيط ضيق محدود وفي خطط مثبتة مرسومة .

وفي المعنى المتقدم من العصية ، ورد قول الشاعر :

إذا أنا لم أنصر أخى وهو ظالم على القوم ، لم أنصر أخى حين يظلم
فالعصية : أن يدعو الرجل عصيته الى نصرته . وهي (النصره على ذوي القربى وأهل الارحام ، أن يناههم ضم أو تصيهم هلكة)^١ .

وفي هذا المعنى أيضاً ورد قول الشاعر ، قريظ بن أنيف ، حيث يقول :

قوم اذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زُرافات ووحدانا
لا يسألون أحسّاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا^٢

فهو يهبّ اذا سمع نداء العصية حاملاً سيفه أو رمحه أو أي سلاح يملكه ، وبغير سلاح ، لينصر أخاه : لا يسأله : لم ؟ فليس من العصية والاخوة القبلية أن تسأل أخاك عما وقع له ، بل عليك ثلّية نداءه وتقديم العون له ، معتدياً كان أم معتدى عليه .

وللعصية صلة كبيرة بالمسؤولية وبالعقوبات . فعلى درجة العصية تقع المسؤولية . فأقرب الناس الى الجاني ، يكون أول من يتناوله الأخذ بالثأر ، ثم الأبعد فالأبعد . ومن هنا كان الطالبون للثأر يبدأون بالجاني أولاً . فان فاتهم أخذوا أقرب الناس رحماً به ، فان فاتهم أخذوا الذي يليه أو من هو في درجته وهكذا .

وكما بعدت العصية عن دم الأبوين ، خفت حدتها ، وطبيعي ألا تكون العصية الى القبيلة مثل العصية الى الاهل في الشدة . ولهذا فان العصية ترتبط بدرجة الدم والتحام النسب ارتباطاً طردياً . وهذا شيء طبيعي ، وهو حاصل هذه الحياة .

ولا تمنع العصية بطون القبيلة من محاربة بعضها بعضاً ومن القتال فيما بينها ، بسبب تغلب المصالح الشخصية على عاطفة (العصية) . ومنى اصطدمت المصالح

١ اللسان (٦٠٦/١) ، (عصب) ، ابن خلدون ، مقدمة (١٣٨) .

٢ المرزوقي ، شرح الحماسة (٢٧/١) وما بعدها .

بالعواطف ، تغلبت المصلحة عليها . فالمصلحة حاجة وواقع عمليّ ، والعصبية شعور ، والحاجة أقوى منها . ولهذا نجد المصلحة تدفع بطون القبيلة المتخاصمة على الاستعانة ببطون غريبة عنها ، أو بقبائل بعيدة عنها في النسب لمقارعتها أحواتها وللتغلب عليها ، مدفوعة الى ذلك بدافع المصلحة وغريزة المحافظة على الحياة . فتقاتلت بطون من طيء وتحاربت فيما بينها ، وتقاتلت قبائل بكر ووائل مع وجود النسب والدم ، وتقاتل بنو جعفر والضباب .^١ تقاتلت لظهور مصالح تغلبت على العصبية وتغلبت على الشعور بالاخوة . ومتى ظهرت المصالح المادية عجزت عاطفة النسب والعصبية من التغلب عليها .

وجرثومة العصبية ، العصبية للدم ، وأقرب دم الى انسان هو دم أسرته وعلى رأسها الأبوان والاخوة والانشوات ثم الأبعد فالأبعد ، حتى تصل الى العصبية للقبيلة . ولهذا تكون شدة العصبية وقوتها تابعة لدرجة قرب الدم والنسب وبعدهما . فاذا ما حلّ حادث بإنسان ، فعلى أقرب الناس دماً اليه أن يهب لاسعافه والأخذ بالثأر ممن ألحق الأذى بقريبه . ولهذا صارت درجات العصبية متفاوتة بحسب تفاوت الدم ومنازل النسب .

وآخر مرحلة من مراحل العصبية ، العصبية للقبيلة ، والعصبية للحلف ، أو العصبية للنسب الأكبر ، وذلك في حالة تكتل القبائل وتخاصمها كتلاً . وتكون العصبية للقبيلة أقوى من العصبية للحلف أو النسب الأكبر مثل معدّ أو نزار أو حمير أو ما شاكل ذلك ، وذلك لشعور أبناء القبيلة بأن الرابطة التي تربطهم هي رابطة الدم ، والدم أبرز وأظهر في القبيلة من رابطة الحلف أو رابطة النسب الأكبر ، ولا سيما رابطة الحلف ، فانها رابطة مصلحة في الغالب لا رابطة دم ، والشعور بروابط المصالح لا يكون مثل الشعور بروابط الدم .

وتدفع العصبية للحلف ، قبائل الحلف على التناصر والتآزر والتكتل ، والوفاء بالعهد ، والا لم تكن للمتحالفين فائدة ما من الحلف ، وعلى أفراد الحلف أن ينصر بعضهم بعضاً ، وعلى قبائل الحلف أن يتآزروا في دفع الديات أيضاً . وبالمطالبة بديات من يُقتل من قبائل الحلف ، اذا عجز أهل القتل أو قبيلة القاتل عن الأخذ بحقه .

١ ابن الأنبر (٣٨٨/١) ، البلدان (٢٥٠/٨) ، العمدة (٢٠٠) وما بعدها .

وتشمل العصبية كل منتمٍ الى القبيلة ، تشمل أحرارها أي أبناءها الخلق الصرحاء ، وتشمل الموالى أي الرقيق وكل مملوك تابع لحرّ ، كما تشمل أهل الولاء والجوار . فالعصبية لا تعرف تفريقاً في هذه الناحية ، فعلى كل من ينتمي الى قبيلة ويحمل اسمها أن يتعصب لقبيلته وينود عنها ، وان كان عبداً مملوكاً ، ذلك قانون وأمر محتوم ، لا جدال فيه ولا نقاش ، من حيث وجود حقوق أو عدم وجودها ، ومن حيث ان اصل هذا حرّ وأصل هذا عبد . لأن ما يصيب الحر يصيب المولى والجار ، وما يصيب المولى والجار يؤثر على الحر ، لأنه مسؤول عن مولاه وعن جاره بحكم التملك والجوار ، وعلى الرقيق والجار تبعة الدفاع عن الصريح وعن القبيلة التي ينتمي اليها الصريح .

وتلزم العصبية أبناء القبيلة بوجوب تحمل التبعة والقيام بواجبها وتلبية ندائها واجابة الصارخ بالعصبية ، ليس له ان يسأل عن السبب ، ولا ان يعتذر عن تلبية النداء ، وانما عليه ان يعمل بقول الشاعر :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا^١

واذا قُتل قتيل لزم الأخذ بثأره ، واذا كان القتيل سيد قبيلة وجب على القبيلة الأخذ بثأر سيدها ، وهيات ان تسكت عن قتله ، وعلى كل فرد من افراد تلك القبيلة واجب الأخذ بثأره ممن قتله .

ويفرض قانون العصبية على القبيلة تحمل التبعة ، اذ جعلها تبعة جماعية . فاذا جنى رجل جناية قتل ، تكون قبيلته مسؤولة عن جنايته ، وعليها تقع تبعة قتل القاتل اذا تعذر الأخذ بالثأر منه او تعذر تسليم القبيلة له ، كما يقع على القبيلة دفع الدية اذا عجز القاتل او آله عن دفعها ، وذلك لتوزيعها على المتمكنين من افرادها ، او بقيام ساداتها او سيدها بدفعها كاملة او بدفع ما تبقى منها .

ومن هنا خضعت فردية الاعرابي المتطرفة لقانون الجماعة ، اي لسلطان العصبية فصار واجباً عليه ان يضع نفسه تحت إمرة القبيلة ، وذلك بتلبية ندائها حين يبلغه ذلك النداء ، وتقديم نفسه طائعاً مختاراً لإمرة القبيلة ليدافع عنها او ليشترك معها في الغزو ، ليس له ان يفرّ او يعتزل او يتلكأ ، فهذا واجب مفروض عليه ، اذا خالفه خالف جماعته ونخر حمايتها له ، وصار مستبواً من الناس .

١ حاشية أبي تمام (١٦/١) .

الحمية :

ومن مظاهر العصبية : (الحمية) وهي الأتفة والغرة والغضب ، وذلك أن الشخص كان يأنف من عمل قبيح ، وتأخذه حميته من أن يفعل شيئاً يعاب ويعار عليه .^١ وهو يغضب وتأخذه حميته من أن يترك سنة آبائه وأجداده . وقد نهى الاسلام عن الحمية ، واعتبرها من أخلاق أهل الجاهلية والكفر . ونزل الوحي يندد بها : (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية . فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى) .^٢ وذلك حين جعل (سهيل بن عمرو) في قلبه الحمية فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين الرسول والمشركين بسم الله الرحمن الرحيم ، وأن يكتب فيه محمد رسول الله ، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله مكة عامه ذلك .^٣ فوضع الاسلام (السكينة) في موضع حمية الجاهلية .

و (النعرة) ، وهي الصياح ومناداة القوم بشعارهم طلباً للغوث والاستعانة ، أو لإهانتهم ولتجمعهم في الحرب . ومن هنا ورد في الحديث (ما كانت فتنة الا نعر فيها فلان) . أي نهض فيها . وفي حديث الحسن : كلما نعر بهم ناعر اتبعوه ، أي ناهض يدعوهم الى الفتنة ويصبح بهم اليها .^٤ ولما كان العرب اصحاب حس مرهف ، وعاطفة ذات حساسية شديدة ، لذلك لعبت النعرات فيهم دوراً خطيراً في اثاره الفتن بينهم . وكانت سبباً لحدوث حوادث مؤسفة عند الحضر وعند الاعراب .

واذا أصيب شخص بضم ، او نزلت به اهانة أو نازلة ، نادى قومه بشعائر العصبية ، وعلى قومه تلييته ونصرته . وقد ينادي الانسان شخصاً طالباً منه العون والنصرة ، فتلزمه مساعدته كأن ينادي (يا لفلان) ، وهو شعار يستعمل عند الحزب والتعصب ، ينادي به بصوت عال مسموع ، عند بيت المنادى او في موضع عام او في مكان مرتفع^٥ ليصل الصوت الى ابعد مكان .^٥

- ١ تاج العروس (٩٩/١٠) ، (حمى) ، اللسان (٢١٦/١٨) وما بعدها ،
- ٢ سورة الفتح ، رقم ٤٨ ، الآية ٢٦ .
- ٣ تفسير الطبري (٦٥/٢٦) ، تفسير القرطبي (٢٨٨/١٦) وما بعدها .
- ٤ تاج العروس (٥٧٧/٣) ، (نعر) .
- ٥ الروض الأنف (٩٣/١) وما بعدها ، الأغاني (٧١/١٥) ، شرح ديوان الحماسة (١٦٨/١) .

وللقبائل شعار ينادون به عند العصبية ، فاذا وقع على احد من اهل يثرب اعتداء وأراد المؤازرة والنصرة ، نادى : يا لآل قبيلة ، واذا كان من تميم نادى : يا لَتَمِيم ، وهكذا ، فيهرع من يكون حاضراً ساعة النداء لينصر صاحبه الذي هو من قومه وليؤازره . وتعد التلبية من اهم مفاخر الرجال والقبائل وواجباً من الواجبات .^١

ويتداعى الناس الى العصبية في القتال . واذا ارادوا اهاجة قومهم نادوا بالعصبية . وقد وقع خلاف بين المهاجرين والانصار في المدينة والرسول فيها . فقال قوم : يا للأنصار . وقال قوم يا للمهاجرين . فسمع النبي تداعيهم وصراخهم ، فقال لهم : دعوها فإنها متنتة . ودعاها ب (دعوى الجاهلية) . (وفي الحديث : ما بأل دعوى الجاهلية ؟ هو قولهم : يا لفلان كانوا يدعون بعضهم بعضاً عند الأمر الشديد) .^٢

الاسلام والعصبية :

وقد تركت (العصبية) اثرأ مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل الاسلام . وقد كانت اذ ذاك ضرورة من الضرورات اللازمة بالنسبة الى الحياة في الجاهلية ، لأنها الحائل الذي يحول بين الفرد وبين الاعتداء عليه ، والرادع الذي يمنع الصعاليك والخلعاء والمستهترين بالسنن من التطاول على حقوق الناس ، اذ لا حكومة قوية رادعة ولا هيئة حاكمة في استطاعتها الهيمنة على البوادي وعلى الإعراب المتنقلين . بل هنالك قبائل متناحرة وامارات متنافرة ، اذ ارتكب انسان جريمة في ارضها ، وفرّ الى ارض اخرى ، نجا بنفسه وأمن على حياته هناك ، ولكنه كان يخشى من شيء واحد ، لم يكن لأحد فيه عليه سلطان ، هو (العصبية) وسنة (الأخذ بالثأر) ، وهي العصبية في ثوبها العملي . كان يخشى من سلطان الأخذ بالثأر ، حيث يتعقبه اهل الثأر ، فلا يتركون الجاني يهنأ بالحياة ولو بعد مضي عشرات من السنين ، حتى يُقتل او يقتل اقرب الناس اليه . وبذلك صارت العصبية ضرورة من ضرورات الحياة ، بالنسبة لسكان جزيرة العرب ، لحمايتهم وصيانتهم من عبث العابثين .

١ اللسان (٨١/٦) ، ابن هشام (٢٨/٤) ، الأغاني (٧١/١٥) ، (يالطيء) ،

شرح دبوان الحماسة (١٦٨/١) .

٢ اللسان (دعا) ، (٢٥٩/١٤) .

وقد أدرك الإسلام ما في العصبية من أخطار على المجتمع ، ولما في الأخذ
بالتأثر من ضرر على الأمة ، إذ يحول المجتمع الى مجتمع ذئاب ، يأخذ كل ذئب
بحقه من غريمه ، فهي عنها ، وحول العصبية الجاهلية الى عصبية إسلامية . بأن
يتعصب المسلم لأهل عصبية ، ولدينه ، فيدافع عنه ويقاوم في سبيله وفي سبيل
رفع الظلم عن وقع الظلم عليه بمساعدة من بيدهم الأمور على إحقاق الحق وإظهار
حق المظلوم لديهم . وحرمة العصبية الجاهلية المعروفة ، فورد في الحديث : (ليس
منا من دعا الى عصبية أو قاتل عصبية)^١ . ومنع الأخذ بالتأثر ، إذ جعل حقه
من حقوق أولي الأمر ، ومن يده سلطان المسلمين ومن ينيونه عنهم للقضاء
بين الناس .

من أعراف العرب :

وللأعراب بصورة خاصة أعراف أوجبت الطبيعة عليهم اطاعتها والعمل بها
لأن في تنفيذها مصلحة الجميع ، وفي الخروج عليها ضرراً بالغاً . من ذلك وجوب
الأخذ بالتأثر ، والبحث عن القاتل لقتله مهما طال الزمن ، لان (الدم لا يغسل
إلا بالدم) . وقد أملت طبيعة المحيط الذي يعيش فيه العرب عليهم هذا العرف .
فليس في البادية من يحول بين قتل الناس بعضهم بعضاً إلا الأخذ بالتأثر ، وقيام
أهل القتل والعصبية بالأخذ بدمه . ولولا الخوف من الأخذ بالتأثر لعمّ القتل
الحياة : فالحياء في البوادي وفي أكثر أنحاء جزيرة العرب شدة ومحنة وفقر وقسوة .
وليس في البادية أي خير كان مما يستمتع به أهل الحواضر ، ولا سيما تلك التي
امتازت بوفرة الماء فيها وبحسن جوتها واعتدالها . لذلك صارت حياة الأعراب
ضئلاً في العيش وفقراً مُرّاً ، وصار كل شيء تقع عليه عين الاعرابي ذا قيمة
وفائدة عنده مهما كان نافعاً ، فريد الاستيلاء عليه وسلبه من صاحبه ، لانه
محتاج اليه وفقير ، ويرى ان من حقه ان يستولي على كل ما يراه عند من هو
أضعف منه ، وان أدى ذلك الى ازهاق حياته . ولكن الطبيعة التي علمت

١ اللسان (٦٠٦/١) ، (عصب) .

ونوف ناركم شررا ويرفع لكم في كل مجمعة لواء
المفضليات (ص ٥٦) ، ناج العروس (٤٤٠/٣) ، بلوغ الارب (١٦٢/٢) .

الاعرابي هذا المنطق ودرسته هذا الدرس درسته في الوقت نفسه ان الاستهتار بالسلب والهبب والقتل ، يؤذيه ويهلكه ، وانه لا بُدَّ له من الحدّ من غلوائه ومن أعدائه على غيره ، ووضعت له حدوداً وقيوداً من طبيعة هذه الحياة التي يحياها . منها عرف (العصية) ، والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من أعراف أملتھا الطبيعة على سكان هذه البوادي ، وصارت سنناً متبعة بعضها يتعلق بالأعراف التي تخص داخل القبيلة ، وبعضها يتعلق بالأعراف التي تتعلق بالقبائل المتحالفة ، ومنها ما يتعلق بالأعراف التي تكون بين القبائل المتعادية .

والقاعدة عند العرب ان الدم — كما سبق ان قلت — لا يغسل إلا بالدم ، وان تعويض الدم بمال يرضى عنه (آل) القتل ، منقصة وذلة لا يقبل بها إلا ضعاف النفوس . أما أهل البيوت والحمولة ، فلا يقبلون إلا بالقصاص وبأخذ الثأر ، وبقتل رجل كفاء يكافئ المقتول في المترلة والدرجة والمكانة ، فإذا كان القتل سيد قبيلة والقاتل من عامة الناس أو من عبيدهم ، أبوا الاكتفاء بقتله به اقتصاصاً منه ، إذ أنه دون القتل في المترلة والشرف والمكانة ، بل لا بسد عندهم من قتل سيد من سادات القبيلة التي يكون منها القاتل ، على ان يكون مكافئاً للقتيل ، حتى يغسل الدم . وان كان ذلك السيد بعيداً عن القاتل ولا صلة له به . فالسيد سيد ولا يغسل دمه إلا بدم سيد مثله . ولعلّ الطبيعة وضعت لهم هذه السنة لتأديب سادات القبيلة أو غيرهم ، ممن قد يحرضون العبيد أو غيرهم من السوق على قتل خصومهم وأعدائهم ، فاذا عرفوا ان أهل القتل سينتقمون منهم بقتلهم ، حاربوا سفكة الدماء من أتباعهم ولاحقوهم ، وبذلك ينظفون المجتمع منهم ، ويخلصون الناس من سفاكي الدماء .

والأصل في القتل : القصاص ، وقتل القاتل بدل القتل . فيطالب أهل المقتول بالقود وهو قتل النفس بالنفس . وقد ورد ذكره في الحديث ، إذ جاء : (من قتل عمداً ، فهو قود)^١ . واذا لم يتم القود ، أو لم يحدث التراضي على الدية ، أو اذا فرّ القاتل ، فلا بد من الأخذ بالثأر . ولا يستقر لأهل القتل قرار الا بعد الأخذ بثأر القتل . وقد يتركون الخمر والطيبات ولا يقربون النساء طيلة طلبهم للثأر . وقد يلبسون ألبسة الحزن ويجزّون شعورهم ، ولا يأكلون لحماً ،

١ تاج العروس (٤٧٨/٢) ، (قود) .

ولا يميلون الى ضحكك ولا سماع دعاية ولا الى الاستراحة ، حتى ينالوا مناهم من الأخذ بثأر القتل . كالذي روي في قصة طلب امرئ القيس الكندي ثأر أبيه من بني أسد . وقد آلى على نفسه ان لا يمس رأسه غسل ولا يشرب خمرًا حتى يثأر بأبيه . فلما ظفر ببني أسد قتلتته وأدرك ثأره حلّ له ما حرم على نفسه^١ . وكالذي روي في قصة طلب قيس بن الخطيم ثأر أبيه^٢ . أو عن (يوم الأقطانين) ، إذ أقسموا ألا يغسلوا أجسامهم حتى يأخذوا بثأرهم^٣ .

وقد يستغرق طلب الأخذ بالثأر عشرات السنين ، لا يكلّ في خلال هذه المدة أصحاب القتل عن إدراك الثأر . وينظر الى الذين يتوانون عن ادراك الثأر نظرة ازدراء واحتقار ، وقد يلحق بهم وينسلهم العار من هذا الاهمال ، وقد يلحق ذلك العشيرة أو القبيلة برمتها ويكون لها سبة ، اذا كان القتل من أشرفها أو من ساداتها . لهذا لا يتهاون أهل القتل عن تتبع آثار القاتل أو أقربائه أو أفراد قبيلته التي ينتمي اليها لغسل هذا العار ، فإن الدم لا يغسل الا بالدم . ومتى أدرك أهل الثأر ثأرهم ، ووجدوا المقتول كفؤاً لدم القاتل ورضوا عن ذلك ، قالوا لهذا النوع من الثأر (الثأر المنيم)^٤ . وقد عرفه بعضهم : أنه الذي اذا أصابه الطالب رضي به فنام بعده . وقيل هو الذي يكون كفؤاً لدم وليك . ويقال أدرك فلان ثأراً منيماً ، اذا قتل نبيلاً فيه وفاء لطلبته ، وكذلك أصاب الثأر المنيم . قال أبو جندب الهذلي :

دعوا مولى نفائسة ثم قالوا : لعلك لست بالثأر المنيم

أي لست بالذي ينم صاحبه ، أي ان قتلتك لم أنهم حتى أقتل غيرك ، أي لست بالكفؤ فأنام بعد قتلك^٥ .

ومتى أخذ بثأر القتل بكنه النساء . لأن من عادة نساء الجاهليين ألا ييكن المقتول

١ حلت له من بعد تحريم لها أو أن يمس الرأس منه عسولا

شرح دبوان امرئ القيس (ص ١٥٦) .

٢ شعر قيس بن الخطيم (١ ، ١٥) ، بلوغ الأرب (٢٤/٣) .

٣ الفاخر (٢٥٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٧٠/١٧) .

٤ اللسان (١٦٧/٥) ، المعاني الكبير (١٠١٨/٢) .

٥ ناج العروس (٧٢/٣) ، (ثأر) .

إلا ان يدرك بثأره ، واذا أدرك بثأره ، بكينه ^١ .

ويشبه الثأر ان يكون عقيدة من العقائد الدينية عند العرب . لما يكتنفه أحياناً من (حلف) و (قسم) بوجوب الأخذ بالثأر . ولما تحوط به من شعائر تحافظ عليها ، من أخذ على نفسه القسم بوجوب الأخذ بالثأر . وهي من شعائر الدين عند الجاهليين . ولا يتركها حتى ير بقسمه ^٢ .

واذا عجز الإنسان عن أخذ ثأره بنفسه ، استغاث بغيره لينجده على ثأره . وعلى من قبل نداء الاستغاثة ووافق على النجدة ، مساعدة المستغيث في الأخذ بالثأر وعدم تركه حتى يأخذ بثأره من طلبته .

وقد لعب الأخذ بالثأر دوراً خطيراً في الاسلام كذلك . ولا سيما في الأحداث السياسية . فلما قتل (عثمان) ارتفع نداء : يا لثارات عثمان . قال حسان :

لتسمعن وشيكاً في ديارهم الله أكبر يا لثارات عثمانا

ومن ذلك قولهم : (يا لثارات الحسين) ، و (يا لثارات زيد) الى غير ذلك ^٣ . وهو لا يزال يلعب دوراً خطيراً في الحياة العربية الى اليوم .

وقد عيّر أحد الشعراء (بني وهب) ، لانهم أخذوا دية قتيل ، فاشتروا بها نخلاً ، فقال لهم :

الا أبلغ بني وهب رسولا بأن التمر حلو في الشتاء

أي اقموا واكلوا التمر ولا تطلبوا بثأركم ^٤ .

وهناك رجال ضرب بهم المثل في ادراكهم الثأر . ويقال للواحد من هؤلاء : البيهس ^٥ .

١ نهاية الأرب (١٢٢/٣) .

٢ حلفت فلم تائم يميني لاثارن عدياً ونعمان بن قيل وإيهما .

٣ ناج العروس (٧١/٣) ، (ثار) .

٤ المعاني الكبير (١٠١٩/٢) .

٥ ناج العروس (١١٣/٤) ، (البيهس) .

الاستغاثة :

ومن مظاهر العصبية : الاستغاثة . وهي ان يصبح الإنسان واغوثاه . طلباً للعون والنصرة^١ وعلى من يسمع نداء الاستغاثة من أهل المستغيث أو من رجال قبيلته أو الحلف الذي تكون قبيلته فيد مدّ يد العون له ونصرته . ويعاب من يسمع الاستغاثة فلا يعمل على مساعدة المستغيث . وقد يهجو المستغيث قومه اذا تباطأوا في إغاثة المستغيث أو لم يستجيبوا لندائه ، وقد يتبرأ منهم ويتركهم ليلحق بقوم آخرين .

ومن أخلاق الجاهلية المناداة بالنصرة^٢ . وقد ذكرت معناها في العصبية فهي أيضاً وجه من وجوها . ذكر ان الرسول قال : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، وتفسيره ان يمنع من الظلم ان وجده ظالماً . وان كان مظلوماً أعانه على ظلمه . والتناصر التعاون^٣ ، وقد حول الإسلام نصرة الجاهلية الى تناصر ، أي تعاون وتعاضد لأن المسلمين إخوة . ويكون بالانتصار من الظالم وبالانتصاف حتى يؤخذ بحق المظلوم من الظالم^٤ .

الوفاء :

وعلى الانسان الوفاء لأهل عصبته ، ليس له مخالفتهم ولا معاكستهم مهما كانت درجة الخلاف بينه وبينهم ، لانه واحد ، وهم جماعة ، ان أصابه ضيم فلا بد لجماعته من مواساته ومن الانتصار له مهما كانت أسباب الفرقة . وما يصيب جماعته سيصيبه ، وما سيصيبه ، سيؤثر في جماعته حتماً ، فيجعلها الى جانبه في الأخير .

وهل أنا من غَزِيَّةَ إن غوت غَوَيْت وإن ترشُدْ غَزِيَّةُ أرشد^٥

وهي في الأخير كما يقول الشاعر (المتلمّس) لشخص ظن انه منتقل عنهم

١ اللسان (١٧٤/٢) ، (غوث) ، المعاني (١١٠٦/٢) .

٢ العقد الفريد (٥٨/١) .

٣ اللسان (٢١٠/٥) ، (نصره) .

٤ هذا البيت لدريد بن الصمة ، حماسة أبي تمام (٣٠٦/٢) ، شرح المازوني على

الحماسة (٨١٥/٢) ، الأصمعيات (١١٢) .

لخلاف وقع بينه وبينهم :

أمنتقلًا من نصر بهشة خيلتني ألا إنني منهم وإن كنت أينما
ألا إنني منهم وعرضي عرضهم كذبي الأنف يحمي أنفه إن يصلما^١

فإذا أعطى رجلٌ رجلاً عهداً ، فلا يسعه أن يغدر به ، ولا بد له من
المحافظة على العهد وما برح العرب يحافظون على عهودهم حتى اليوم . وقد
يضحى الإنسان بنفسه على أن يخذش سمعته فيوسم بالغدر . وكانوا في الجاهلية
إذا غدر الرجل رفعوا له في سوق عكاظ لواءً^٢ ليعرفوه الناس^٣ . وقد ورد :
(أن لكل غدره لواء) ونصب اللواء في المواضع العامة وفي المواسم للإشارة إلى
غدر شخص بشخص آخر من أشهر الأشياء عند العرب^٤ .

والى هذا اللواء أشار (الحادرة) ، (قطبة بن أوس) إذ قال :

أسمي ويحك هل سمعت بغدره^٥ رفع اللواء لما بها في مجمع^٦

وإذا غدر الرجل بجاره ، أوقدوا النار بمنى الحج على أحد الأخشبين،
ثم صاحوا : (هذه غدره فلان) ليمحذره الناس^٧ . وقد قيل لهذه النار :
نار الغدر^٨ .

وربما جعلوا للمغادر مثلاً من طين ، ينصبونه ليراه الناس ، وكانوا
يقولون : ألا إن فلاناً قد غدر فalcنوه . جاء في الشعر :

فلنقتلن بخالد سرّواتكم ولنجعلن لظالم تمثالا

فهذا التمثال ، هو تمثال الغدر والحياة ، نصب ليقف الناس على خبر غدر
الشخص الذي نصب له^٩ .

-
- ١ نوادر أبي زيد (١٦٠) ، الأصمعيات (٢٨٦) .
 - ٢ (أن لكل غادر لواء) ، المفضليات (ص ٥٦) .
 - ٣ ارشاد الساري (١٠٦/٩) .
 - ٤ المفضليات (٥٦) ، البحتري ، حماسة (٢١٦) .
 - ٥ ونوفد تاركهم شررا وبرفع لكم في كل مجمعة لواء
 - ٦ المفضليات (ص ٥٦) ، تاج العروس (٤٤٠/٣) ، بلوغ الأرب (١٦٢/٢) .
 - ٧ نهاية الأرب (١١١/١) .
 - ٨ بلوغ الأرب (٢٨/٣) .

وقد عاب الناس الغادر وعيّرُوا به فاذا شتموا شخصاً قالوا : يا غُدَر !
وقد جعلوا الذئب من الحيوانات الغادرة ، فقالوا : الذئب غادر ، أي لا عهد
له . كما قالوا : الذئب فاجر ^١ .

أهل الغدر :

وقد حفظ أهل الأخبار أسماء رجال عرفوا بالغدر . وقد قال بعضهم : أعرف
الناس بالغدر (آل الأشعث بن قيس بن معد يكرب) . وذكر أن الغدر ارث فيهم
انتقل بهم الى الاسلام ^٢ . وضربوا المثل بغدر الضيزن بأبيها صاحب الحصن ^٣ .

ومن الوفاء : الوفاء بالعهود والمواثيق . فلا يجوز لمن أعطى عهداً وميثاقاً الغدر بهما
والتنصل من الوفاء بهما . والوفاء من أنبل الخصال الحميدة التي يتخلق بها انسان .
وهو من المثل العليا عند العرب ومن أخلاق (الإنسان الفاضل) عندهم . وقد
أوفى (حنظلة الطائي) بعهده الذي أعطاه للملك (النعمان) يوم يؤسه بأن يعود
إليه ، ليرى الملك رأيه في قتله . فعاد ، وهو يعلم أن الملك سيقتله ، لأنه أعطاه
قولاً بالعودة ، وجعل (شريكاً) نديم الملك ضامناً له بالعودة . فلما عساذ ،
واستمع الملك الى قصة وفائه أبطل عادته في قتل أول من كان يظهر أمامه يوم
يؤسه ، اكراماً لعمله ^٤ . ورأى (السموأل) ابنه وهو في أيدي أحد ملوك
الغساسنة أو ملوك كندة ، وهو يناديه بوجوب دفع ما عنده من دروع وأسلحة
مودعة عنده ، من دروع وأسلحة (امرئ القيس) فقال له : (ما كنت
لأنخر ذمامي وأبطل وفائي فاصنع ما شئت) . فذبح ولده واحتسب السموأل
ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه ، ولم يسلم الوديعة إلا الى ورثة امرئ القيس ^٥ .
وقد دَوّن أهل الأخبار أسماء أناس عرفوا بالوفاء . منهم : (أوفى بن

١ اللسان (٨/٥) ، (غدر) .

٢ نهاية الأرب (٣/٣٦٥) .

٣ نهاية الأرب (٣/٣٦٦) .

٤ المستطرف في كل فن مستظرف (١/١٩٩ وما بعدها) ، (عبد الحميد أحمد
الحنفي) .

٥ المحبر (٣٤٨ وما بعدها) .

مطر المازني) ، جاوره رجل ومعه امرأة له ، فأعجبت قيساً أخاه ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك (أوفى) فقتل قيساً بجاره ^١ . و (الحارث بن عبّاد) ، وكان من وفائه انه أسر يوم (قضية) (عدي بن ربيعة أخا مهلهل) ، وهو لا يعرفه . فقال له : دلي على عدي . فقال له عدي : ان دلتك عليه فأنا آمن ؟ فأعطاه ذلك . فقال له : فأنا عدي . فخلّى سبيله ^٢ .

ومن أوفياء العرب (عوف بن محلم الشيباني) ، وهو من مشاهير سادات العرب . وكان من وفائه ان (مروان بن زنباع العبسي) كان قد وتر (عمرو بن هند) ، فجعل على نفسه ألا يؤمنه حتى يضع يده في يده . وان (مروان) غزا (بكر بن وائل) فأسر ، ولم يكن أسره منيعاً ، فطلب من أم أسره ان توصله الى (عوف بن مسلم) ، ولها منه مئة بعير ، فحمل الى (عوف) ، ولاد بقبته ، وبلغ (عمرو بن هند) مكانه ، فبعث يطلبه ، فأبى عوف ان يسلمه الا ان يؤمنه . ثم أخذه عوف الى (عمرو بن هند) ، وجعل يده بين يد عمرو ويد مروان ، وأصلح بينهما ، فعفا (عمرو) عنه وآمن مروان . فقال عمرو : (لا حر بوادي عوف) فذهبت مثلاً ^٣ .

وعدّ (مروان بن زنباع) من أوفياء العرب ، لأنه وفى بعهده الذي أعطاه لأم أسره ، وكان قد أعطاه عوداً التقطه من الأرض ليكون رمز وفائه ، على ان توصله الى (محلم) فلما أوصلته دفع اليها المئة بعير ، كما تعهد لها بذلك ^٤ .

وضرب المثل بوفاء (عمير بن سلمى الحنفي) ، وله قصة في الوفاء تشبه قصة (أوفى بن مطر المازني) . ذكروا ان من وفائه ان رجلاً من (بني عامر بن كلاب) استجار بعمير وكانت معه امرأة جميلة . فرآها (قرين بن سلمى الحنفي) أخو عمير ، وصار يتحدث اليها حتى بلغ ذلك زوجها ، فنهاها . فخافته فانتهت . فلما رأى (قرين) ذلك وثب على زوجها ، فقتله . وعمير غائب ، فأتى أخو المقتول قبر (سلمى) فعاذ به . فقدم (عمير بن سلمى) ،

١ المحبر (٣٤٨) .

٢ المحبر (٣٤٨) .

٣ المحبر (٣٤٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢١٥) ، الأمثال للميداني (٥٣١/٢) .

٤ المحبر (٣٥١) .

فأخذ أخاه . وبلغ وجوه (بني حنيفة) الخبر ، فأتوه فكلموه ، فأبى إلا أن يقتله أو يعفو عنه جاره ، وأبى أخو المقتول أخذ دية أخيه القتل ولو ضوعفت ، فأخذ عندئذ (عمير) أخاه وقتله لغدره بجاره ^١ .

ومن الأوفياء (أبو حنبل : جارية بن مرّ الطائي ثم الحنبلي) . وكان من وفائه أن (امرئ القيس بن حجر الكندي) ، كان جاراً (لعامر بن جوين الطائي) فقَبَّلَ (عامر) امرأة (امرئ القيس) ، فأعلمته ذلك فارتحل الى (جارية) ليستجير به . فلم يجده ، ووجد ابناً له أجاره ، فلما جاء (جارية) ورأى كثرة أموال (امرئ القيس) طمع فيها ، وعزم على الغدر بـ (امرئ القيس) ، ثم فكر في أمره ورأى أن الغدر عار ، فعقد له جواره ، ثم أخذه الى (عامر بن جوين) ، فقال لامرئ القيس : قبل امرأته كما قبل امرأتك . ففعل ^٢ .

ومنهم (المعلي الطائي) ، أحد (بني تيم) من جديلة . وهم (مصايح الظلام) . وكان (المنذر) يطلب امرئ القيس ، فلجأ الى (المعلي) فأجاره ، وبلغ المنذر مكان (امرئ القيس) فركب حتى أتى منزل المعلي ، ولم يكن المعلي موجوداً ، وأبى ابنه تسليم امرئ القيس الى المنذر ومنعوه ^٣ .

ومن الأوفياء (عصيمة بن خالد بن سنان بن منقر) ، وكان (النعمان) قد غضب على (بني عامر بن صعصعة) ، فقتل منهم ناساً وشردهم ، فالجأهم (عصيمة) وأجارهم . فبعث اليه النعمان : (ابعث اليّ بعبيدي) فأبى ونادى في قومه شعاره (كوثر) ، وأقبل (النعمان) فأهوى (عصيمة) بالرمح الى معرفة فرسه ، ورجع الملك خائباً . ثم كسا (عصيمة) (بني عامر) وبلغهم مأمّنهم ^٤ .

وقد عدّ الوفاء حمداً وواجباً ، ولأجل توكيد الوفاء وترسيخه ، كانوا يضعون رهناً ، قد يكون ثميناً مثل أبناء سادات القبائل ، يقدمونهم رهينة لدى

١ المحبر (ص ٣٥٢) .

٢ المحبر (٣٥٢ وما بعدها) .

٣ المحبر (٣٥٣ وما بعدها) .

٤ المحبر (٣٥٤) .

الملوك ضماناً لهم في مقابل وفائهم بما تعهدوا للملك وبما عاهدوه عليه من شروط ، وقد يكون شيئاً لا قيمة كبيرة له من الوجهة المادية ، مثل رهن قوس ، أو سهم ، أو التقاط عود من الأرض وايداعها رهناً بالوفاء ، كما مرّ معنا في قصة (مروان ابن زنباع العبسي) مع (عوف بن محم الشيباني)^١ ، أو في مقابل اعطاء كلمة بالوفاء ، كما في قصة (الحارث بن عباد)^٢ ، أو الوفاء بسبب استجارة انسان بقر ، كما في قصة وفاء (عمير بن سلمى الحنفي)^٣ .

العرض :

وعرض الرجل نفسه وبدنه ، وقيل العرض : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره . وقيل أيضاً : هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحمي عنه ان ينتقص ويثلب . وذكر أيضاً ان العرض : عرض الانسان ، ذم أو مدح^٤ . ويحرص الجاهلي على ألا يمس بسوء . واذا تحرش أحدهم به ، أو شعر ان شخصاً أراد الانتقاص منه . ولو بتلميح أو بإشارة أو بغمز ثار وهاج مدافعاً عن نفسه وعرضه ، لأن عرض الانسان أشرف شيء بالنسبة له في هذه الحياة .

ومن العرض صيانة أعراض الناس ، لأن من ينتهك عرض غيره ، ينتهك الناس عرضه ويعرض نفسه وماله وأهله للتهلكة . فقد لا يصبر شخص أهنت كرامته على هذه الإهانة فينتقم ممن تعرض به شرّ انتقام . ان لم يتمكن هو بنفسه ، ساعده في أخذ حقه أهل عصبته ورجال قبيلته ، حتى يثار لنفسه ممن تعرض لعرضه بسوء .

ونجد في الشعر الجاهلي تبجحاً بالنفس وإشادة في الدفاع عن العرض ، وتهديداً ووعيداً لمن يحاول النيل منه بأي سوء . وهو كلام يحمل حساد المتبجح بنفسه على الردّ

- ١ المحبر (٣٤٩) .
- ٢ المحبر (٣٤٨) .
- ٣ المحبر (٣٥١) .
- ٤ اللسان (١٧١/٣) ، (عرض) .

عليه وعلى الطعن فيما قاله . وبذلك تتولد خصومة قد تطول وتكبر وتؤدي الى سقوط قتلى كانوا في غنى عنها لولا هذه الحمية الجاهلية القائمة على التفاخر والتباهي والزهو والحمق .

الحرية :

والعربي مجبول على الحرية ، وهو لا يطيق الخضوع لأحد غير قبيلته على ان لا يؤثر ذلك في حرите الشخصية ، وقد أعجب (هيرودوتس) وغيره من كتبة اليونان والرومان بحب العرب للحرية ولقاومتهم للاسترقاق ، فذكروا انهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الآسيوية الذي لم يخضع لحكم الفرس ، فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم ، وانما اضطروا الى معاملتهم معاملة اصدقاء حلفاء ، فقاموا لهم بخدمات جليلة سهلت لهم فتح مصر ، ولو كان العرب حرباً على الفرس لما تمكنوا قط من حملتهم على مصر .

والعربي من هذه الناحية شديد التعلق بالحرية ، والاعرابي يشعر ، وهو في الحضر بين سكان القرى او المدن ، انه في سجن لا يطاق ، لكثرة القيود التي تقتضيها عادات المتحضرين ، ويسعى للعودة الى وطنه حيث ينطلق حراً كما يشاء . والقبائل تشعر هذا الشعور نفسه ، فهي تعيش منمتعة بأعظم قسط من الحرية ، لا تضحي بها ، الا لمقتضيات المحافظة على الحياة حيث ترتبط بواجبات التحالف مع القبائل الاخرى للدفاع عن النفس وضمان ضروريات الحياة .

ولما كان لكل شيء حد ونهاية ، غدت هذه الحرية انانية شديدة ، وفردية مطلقة حالت دون تعاون الافراد ، ومنعت من مساعدة القبائل بعضها بعضاً مع وجود خطر اجنبي داهم ، وحالت دون تكون المجتمعات الكبرى وهي الحكومات ، واقتصرت التنظيمات السياسية على القبائل ، وأصبحت العصبية للقبيلة تعني القومية . وزاد في حدة هذه الانانية القبلية اعتقادهم بالرابطه الدموية التي تربط الأسر بالعشائر ، والعشائر بالقبائل ، وارجاع ذلك الى الانساب فلا تتعصب القبائل الا لتلك القبائل التي تعتقد انها واياها من شجرة واحدة وأصل واحد .

ان الحياة الصحراوية التي طبعت اصحابها بطابع الافراط في حب الحرية الفردية ، قد اثرت كثيراً في الحياة السياسية والتفكير السياسي في بلاد العرب ، فاقترنت

الافعال السياسية على افعال القبيلة ، وتراجع الفرد بل الامل والعشيرة تجاه القبيلة ، وأثرت في اشكال الحكومات التي تكونت في الاماكن الحصبة وبين المتحضرين ، فجعلت منها اتحاداً مع قبائل جمعت بينها مصالح متشابهة ومنافع مشتركة . فاذا ما شعرت بزوال مصلحتها او ان من مصلحتها الانفصال عن هذا الاتحاد فلا تتوانى عن تنفيذ رغباتها وتحقيقها بالقوة . ولهذا نجد القبائل تهيج وتثور على الحكومات التي تخضع لها ، وتدين بالولاء لها ، لأسباب تافهة منبعها ومبعثها هذه الانانية الضيقة التي تدفع سادات القبائل الى الانفصال والخروج من عبودية الخضوع لحاكم ، عليهم تقديم واجب الاخلاص والطاعة له . حاكم يرون انه لا يمتاز عنهم بشيء ، بل يرى كل واحد منهم لأنانيته انه اولى منه بالحكم ويتسلم القيادة ، وان من حقه الخروج عن طاعته ان وجد ظروفأ ملائمة متهيئة للانفصال عنه . فلما وجدت القبائل التي خضعت لحكم (ملوك كنده) ضعفاً في الاسرة الكندية الحاكمة ، ثارت عليها ، وقتلت منهم من قتلت ، وطردت من طردت ، وكوّن سادات القبائل امارات عديدة ، حلت محل مملكة كنده . ولما كان سادات القبائل يجلبون ضعفاً في العلاقات بين ملوك الحيرة والفرس ، وبين ملوك الغساسنة وبين الروم ، كانوا يسارعون الى الاتصال بالفرس وبالروم لتنصيبهم مكان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة ، لا يرون في هذا العمل اي شين او بأس .

ويصعب في الحقيقة التوفيق بين الفكرة القبلية الضيقة والفكرة القومية التي تسمو فوق القبائل ، فالفكرة القبلية لا تعترف بوجود قومية غير قومية القبيلة ، ولا ترى وجود وطن غير الوطن الذي تنزل فيه القبيلة . فاذا ارتحلت عنه ، وحلت في ارض اخرى اصبحت هذه الارض وطن القبيلة الجديد ، الذي يجب أن يدافع عنه . وأما الأوطان الاخرى ، ومنها وطن القبيلة السابق ، فليست بأوطانها . ومن هنا كان بون شاسع بين هذه الفكرة الوطنية الضيقة ، وبين الفكرة القومية التي تدين بعقيدة الايمان بالقوم اي الجنس الذي هو فوق القبائل والأمكنة ، وبالوطن العام الذي يشمل كل الارضين التي يستوطنها ذلك الجنس .

وقد جابهت الحكومات العريضة في الجاهلية ثم في الاسلام متاعب كثيرة من الروح القبلية العنيفة ، ومن الفردية المتطرفة ، فكانت هذه من اهم عوامل هدم المجتمعات السياسية الكبرى في بلاد العرب ، وكانت من اعنف اعداء القومية العربية ، لا في الجاهلية حسب ، بل في الجاهلية وفي الاسلام كذلك .

وأهم ما يعوز العرب في الجاهلية الشعور بفكرة (الأمة) ، التي تسمو فوق القوميات القبلية ، وفوق الاقليميات الضيقة التي هي ايضاً صفحة من صفحات الانانية . والشعور بلزوم الحد من الفردية الجامحة التي لا تعترف بحريات الآخرين ، وبضرورة اطاعة المجتمع في سبيل المصلحة العامة ، وانخضاع ارادة الحاكمين لمصلحة حكم الجماعة ، والتحديد من انانيتهم المفرطة ومن البت في امور الرعية ، وكأن الرعية سواد من ماشية ، عليها اطاعة سوط الحاكم وأوامره ، دون ان يكون لها حق في ابداء الرأي . فان غلطة الاستبداد بالرأي تؤدي الى أسوأ العواقب ، غير أن الحرية المفرطة ، أو الانانية الشديدة بتعبير أصبح ، التي كادت تجعل المجتمع فوضى ، ضبطتها من ناحية أخرى قوة كبحت جماعها ، وحدثت من حريرتها ، وأجبرتها على التقيد بقيود ، وعدم التحرك الا بحد وحلود . هي سنة وجوب اطاعة أوامر المجتمع ، والاستجابة لنداء الجماعة ، ولأحكام رؤساء الاحياء والبطون والافخاذ ، والصيحات التي تصرخها القبيلة أو فروعها لتنادي بنداء ، (العصبية) . والا عدّ الخارج على نداء الجماعة والمخالف لقرار رؤساء الأسرة او الحي أو القبيلة خارجاً على القانون وعلى العصبية فاستحق بذلك واجب خلعه من عصبية القبيلة له وطرده من قومه . وهو اشد عقاب يفرض على مخالف ما . عقاب : الخلع .

الخلع :

ويبقى الفرد متمتعاً بعطف قبيلته عليه ، وبجمايتها له ما دام قائماً بواجباته المترتبة عليه ، شاعراً بعظم التبعة . فاذا أجرم ، أو عمل عملاً ينافي شرفه أو شرف قبيلته ، واستمر في غيّه لا يسمع نصائح أهله وعشيرته ، كاسراً اعراف آله وقبيلته ، فقد عصية اهله وقبيلته له ، وهام على وجهه طريداً يلتمس مجاورة رجل من عشيرة أو قبيلة اخرى قريية من موطنه او بعيدة عنه . وتكون هذه الفترة من حياة الانسان شرّ فترة في حياته ، ولا يهدأ للطريد بال الا اذا وجد له حليفاً او جاراً يتعهد له بجمايته ويبذل (العصبية) له ، وبالدفاع عنه .

ويقال للرجل الذي تغضب عليه قبياته وتحرمه عطفها وعصبيتها له (الخليع) ، ويقال ذلك لمن يخلعه اهله أيضاً . وقد يقال له (الرجل اللعين) و (اللعين) . واللعين هو المطرود ، ولذلك يقال له (الطريد) ، الى غيرها من مصطلحات .

وربما خلعوا الرجل من القبيلة ولو كان من صميمها ، ويسقط عن أهله وقبيلته كل واجب يترتب عليهم أو عليها اذا عمل عملاً يستوجب خلعه ، كما تسقط عن القبائل التي قد تتعرض للخليع بشرّ كل تبعة تقع عليها من الاعتداء عليه ، لخلع أهله أو قبيلته له ، وتبرّثهم أو تبرّثها منه ، فلا يطالبون بثأر .

ولا بد من اعلان خلع أهل (الخليع) أو خلع قبيلته له وتبرّثها منه ، ليكون ذلك معلوماً عند افراد قبيلته أو القبائل الاخرى ، فتسقط العصية عندئذ عن (الخليع) عند اعلان قرار الخلع ، والا بقيت في رقبة أولياء امره وقبيلته ، وذلك كأن يعلن الأب في المواضع العامة وفي المواسم انه خلع ابنه ، بأن يقول : الا ، اني قد خلعت ابني هذا ، فان جرّ لم اضمن ، وان جر عليه لم اطلب . او يعلن قومه : انما خلعنا فلاناً ، فلا نأخذ احداً بجنایة تجنى عليه ، ولا نؤخذ بجنایاته التي يجنيها .

وقد كان الحج من المواسم المناسبة لاعلان خلع الخلعاء ، وكذلك كانت مواسم الاسواق كسوق عكاظ . فهي مواسم تجمّع ، ينادي فيها المنادي بخلع من يراد خلعه . وكان أهل مكة يكلفون منادياً بالطواف بالاحياء ، ينادي بأعلى صوته عن خلع الخليع . وقد يكتبون كتاباً يحفظونه عندهم او يعلقونه في محل عام ليقف عليه الناس .^١

وقد عاش الخلعاء عيشة صعبة ، لا احد يساعدهم أو يؤويهم خشية ان يتزل بهم أذى ، او يترتب على قبول جوارهم تبعة تجاه من يقتص آثارهم طلباً للثأر منهم . ولذلك تكتل الصعاليك احياناً وكونوا عصابات تغزو وتغير وتقطع الطريق . وكان الشاعر (عروة بن الورد) وهو منهم يجمع حوله الصعاليك والفقراء في حظيرة ويغزو بهم ويرزقهم مما يغنمه ، ولذلك سُمّي (عروة الصعاليك) .^٢ ذكر أنه كان اذا شكا اليه فتيان قومه الفقر ، أعطاه فرساً ورحلاً ، وقال له : ان لم تستغن بهما فلا أغناك الله .^٣

١ الأغاني (٥٢/٨) .

٢ اللسان (٤٥٦/١٠) ، (صعلك) .

٣ النعالي ، ثمار القلوب (١٠٣) .

والصعلوك الفقير الذي لا مال له .^١ ومن الصعاليك (السليك بن سلكة) الشاعر العداء . وهو من العدائين الذين ضرب بهم المثل في العدو .^٢ وكان (حاجز بن عوف بن الحارث) ، وهو شاعر جاهلي مقل ، احد الصعاليك العدائين . كان يعدو على رجليه عدواً يسبق به الخيل . وكان يغير على قبائل العرب .^٣ وكان (قيس بن الحداية) من الشعراء الصعاليك الفاتكين الشجعان . خلعتة خزاعة بسوق عكاظ ، وأشهدت على نفسها بخلعها اياه ، فلا تحمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه .^٤

ومن بقية الصعاليك (الشنفرى) و (تأبط شرآ) . غير ان اعرفهم وأشهرهم وحامل لواء الصعلكة فيهم ، هو (عروة بن الورد) ، الذي نصب نفسه سيّداً على الصعاليك . فكان يجمعهم وبشرهم فيما يغنمه ويرزقهم من رزقه . ويبذل جهده لمواساتهم . فاجتمع حوله صعاليك (عبس) ، وهو منهم واتخذ لهم حظائر آووا اليها ، ولهذا نعت بـ (عروة الصعاليك) . قال اهل الاخبار : انما قبل له عروة الصعاليك مع انه عروة بن الورد ، لانه كان يجمع الفقراء في حظيرة ، فيرزقهم مما يغنمه .^٥ فعروة لم يكن فقيراً محتاجاً معدماً ، كما يفهم من لفظة (صعلوك) . لقد كان في وسعه ان يجمع مالا مما كان يغنمه من غاراته على العرب ، فيكون حسن الحال غنياً . لكنه فضّل الصعلكة على اكتناز المال ، ورجّح اشراك الفقراء فيما يغنمه على جمعه له واستثارته له وحده ، لأن له مروءة تأبى عليه ان ينام شعباناً وجاره فقير جائع . فكان ينفق ما يغنمه على المحتاجين . فهو صاحب مذهب انساني أحس بالألم ، وأدرك ما أصابه يوم خلعه اهله من شدة وضنك ، فأراد ان يخفف من آلام امثاله ممن خلعهم مجتمعهم لعدم وقوفه على اسباب خروجهم عليه . فصار بذلك نصير الصعاليك . ولقد ذكره (عبد الملك ابن مروان) ، فقال : (ما كنت احب ان احسداً ولدني من العرب الا

١ اللسان (٤٥٥/١٠ وما بعدها) ، (صعلك) .

٢ الأغاني (١٣٣/١٨) .

٣ الأغاني (٤٧/١٢) .

٤ الأغاني (٢/١٣) .

٥ ناح العروس (١٥٣/٧) ، (صعلك) .

عروة بن الورد) . ^١ فعروة صعلوك فلسف الصعلكة ، بأن جعلها مثلاً من مثل الحياة ، بينما كانت تعني فقراً مدقعاً وجوعاً قتالاً وهياماً على وجه الأرض للاستجداء .

وقد كوّن الصعاليك عصابات تنقلت من مكان الى مكان تسلب المارة وتغير على احياء العرب ، لترزق نفسها ومن يأوي اليها . ^٢ انضم اليها الصعاليك من مختلف القبائل . ولكون اكثر الصعاليك من الشبان الطائشين الخارجين على اعراف قومهم ، ومن الذين لا يبالون ولا يمحشون احداً ، صاروا قوة خشي منها ، وحسب لها حساب . خاصة وفيها شعراء فحول ، يحسنون الهجاء ويتقنون فن ثلب الاعراض ، وفيها مقاتلون شجعان لا يعبأون بالموت ، يفتكون بمن يريدون الثمك به . وخافهم الناس وامتنعوا جهد امكانهم من التحرش بهم ومعاداتهم ، ومنهم من قبل جوار الصعاليك وردّ عنهم وأحسن اليهم ، فاستفاد منهم واستفادوا منه .

وقد كان العرب ينفون الخلعاء الى اماكن معينة مثل (حصّوَضى) ، وهو جبل في الجزيرة العربية كان الناس في الجاهلية ينفون اليه خلعاءها . ^٣ وقيل جبل في البحر او جزيرة فيه ، كانت العرب تنفي اليه خلعاءها . ^٤

- ١ الأغاني (٧٨/٣) ، ديوان عروة بن الورد (ص ١٣٨ وما بعدها) ، العقد الفريد (١٩١/١) .
- ٢ الأغاني (١١١/١٩) .
- ٣ البلدان (٢٩٦/٣) .
- ٤ نأج العروس (٢٠/٥) ، (حض) .

الفصل السادس والأربعون

أنساب القبائل

تحدثت في مواضع متعددة من هذا الكتاب عن تقسيم القبائل العربية المؤلف عند الأخباريين . أما الحديث في هذا الفصل ، فهو عن أثر القبائل العربية في الجاهلية المتصلة بالإسلام . وبعبارة أخرى القبائل العربية التي كانت في القرن السادس للميلاد . ويضيق بنا هذا الفصل لو أردنا الكلام على جميع القبائل وبطونها وأفخاذها وعمائرها ، لذلك سأكتفي في هذا الفصل بذكر القبائل الكبرى وبالإشارة إلى بطونها ان كانت مهمة . وفي كتب الأخباريين والمؤلفات المدونة في الأنساب الكفاية لمن طلب المزيد .

والتصنيف المؤلف للقبائل هو حاصل عرف جرى عليه النسّابون ، ولا نعرف تدويناً لأهل الجاهلية للأنساب ، انما نعرف ان أول تدوين رسمي كان هو التدوين الذي تم في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، حيث ظهرت الحاجة الى التسجيل ، فسجلت . ولم تصل ويا للأسف سجلات ذلك الديوان اليينا ، ولم يصرح أحد من النسابين انه أخذ مادة أنسابه من تلك السجلات . وانما الذي بين أيدينا هو خلاصة وجهة نظر النسابين في أنساب القبائل ، وعلى هذا التقسيم اعتمد المعنيون بهذا الموضوع .

واذا غضضنا الطرف عن التصنيف المتبع في حصر أنساب العرب كلها في أصلين أساسيين قحطان وعدنان ، فاننا نرى القبائل كما يفهم من روايات الأخباريين كتلاً ، ترجع كل كتلة منها نسبها الى جدّ قديم تزعم ان قبائلها انحدرت من صلبه . وقد تحدثت مراراً عن طبيعة هؤلاء الأجداد .

ومن هذه الكتل التي كانت عند ظهور الإسلام ، كتلة حمير ، وكتلة كهلان ، وكتلة قضاة ، وكتلة مضر ، وكتلة ربيعة . وكل كتلة مجموعة قبائل كبيرة ، ترجع في عصبيتها الى تلك الكتلة .

أما حمير ، فقد تحدثت عنها سابقاً ، وأشارت الى ورود اسمها لدى بعض الكتبة الكلاسيكيين مثل (سترابون) والمؤرخ (بلينيوس) وذلك في أثناء كلامه على حملة (أوليوس غالوس) حيث عدّها من أشهر القبائل العربية التي كانت في اليمن إذ ذاك^١ ، كما أشارت الى ورود اسمها في نصوص المسند التي يعود تأريخها الى ما بعد الميلاد^٢ ، وهو اسم أرض معينة واسم شعب . أما الذي نفهمه من الأخباريين ، فهو ان حمير اسم واسع يشمل قبائل قحطان عند ظهور الاسلام^٣ . وقد يكون مرد ذلك الى ظهور هذه القبيلة في هذا الزمن وبرزها في هذا العهد في اليمن ، فانتمى اليها كثير من القبائل على العادة الجارية في الانتماء الى المشاهير .

ويرجع النسابون نسب حمير الى حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب ، ويقولون ان اسمه (العرنج)^٤ (العرنجج)^٥ ، وهو في نظرهم والد جملة

١ Pliny, VI, 161

٢ تاريخ العرب قبل الاسلام (١٣٧/٣) .

٣ Rubin, Ancient West Arabian, P. 42

٤ منتخبات (ص ٢٨ ، ٧٠) ، المبرد ، نسب عدنان وقحطان (ص ١٨) ، (العرفج) شرح فصيحة ابن عبدون (ص ٨٤) .

٥ (والعرنجج ، اسم حمير بن سبأ . قاله السهيلي في الروض وابن هشام وابن اسحاق في سيرتهما) ، تاج العروس (٧٣/٢) ، لسان العرب (١٤٧/٣) ، (وحمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، أبو قبيلة . وذكر ابن الكلبي أنه كان يلبس حلاً حمراً . وليس ذلك بقوى . قال الجوهري : ومنهم كانت الملوك في الدهر الأول . واسم حمير العرنجج . قال الهمداني : حمير فسي فحطان ثلاثة : الأكبر والأصغر والأدنى . فالأدنى : حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة . وهو حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن كعب بن سهل بن زيد بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حذار بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميح بن العرنجج وهو حمير الأكبر بن سبأ الأكبر بن يشجب) ، تاج العروس (١٥٨/٣) ، (وزرعة هو الأصغر) ، الاشتقاق (ص ٣١١ ، حاشية) .

أولاد ، جعلهم بعضهم تسعة ، هم : الهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ،
ووائل و (مشروح) مسروح^١ ، ومعد يكر ، وأوس ، ومرة^٢ . وجعلهم
بعض آخر أقل من ذلك ، أو أكثر عدداً^٣ .

وهم أنفسهم أجداد قبائل حمير . ومن نسل هؤلاء : بنو مرة ، وهم في
حضر موت ، والأماوك ، وبنو خيران ، وذو رعين ، وبنو هوزن ، والأوزاع^٤ ،
وبنو شعبان^٥ ، وبنو عبد شمس ، وبنو شرعب ، وزيد الجمهور . وبنو الصوآر ،
وأكثر قبائل حمير منهم . وقد كان الملك فيهم وبقي إلى مبعث الرسول . ومنهم
الحارث الرائش الذي غزا - على زعم الأخباريين - الأعاجم والروم . وعرف
بـ (ملك الأملاك) ، وحملت إليه الهدايا من أرض الصين وبلاد الترك والهند ،
وملك الأرض بأسرها ، وأدت إليه جميع الناس الحراج^٦ . وقد جعلوا مدة
حكمه خمساً وعشرين ومئة سنة ، وهي مدة لا أدري كيف اكتفى بها أصحاب
الأخبار الذين اعتادوا منح العمر الطويل للملك هم أقل شأنًا ودرجة بكثير من
هذا الملك المظفر السعيد .

ويظهر لنا من تدقيق منازل القبائل والبطون المنسوبة إلى حمير ، أنها كانت
في العربية الجنوبية ، وأنها بقيت في مواضعها على الغالب في الإسلام . بينما نجد
قبائل (كهلان) وبطونها ، وهي فرع سبأ الثاني وقد سكنت في مواضع بعيدة
عن اليمن . وهي قبائل ضخمة . أضخم من قبائل حمير . ثم أنها كانت تتكلم بلهجة
قرية من لهجة القرآن الكريم في الإسلام . أما بطون حمير ، فقد كانت تتكلم
بلغة ركيكة رديئة غير فصيحة بعيدة عن العربية على حدّ تعبير الأخباريين ،
ويظهر أن هذا التباين كان عاملاً مهماً في تمييز حمير عن غيرها وفي حشر البطون
في جذم حمير . فمن حافظ على لهجته القديمة ، وبقي يستعملها ، عدّ في هذا

- ١ (مسروح) ابن حزم : حمرة (ص ٤٠٦) (تحقيق ليفي بروفنسال) .
- ٢ ابن خلدون (٢٤٢/٢ وما بعدها) (والهميسع أحد قبيلي حمير ، وهما الهميسع
ومالك ابن حمير الأكبر) . منجبات (ص ١١٠) .
- ٣ سبائك الذهب ، (ص ١٨) .
- ٤ ابن حزم (ص ٤٠٦ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٤٢/٢ وما بعدها) .
- ٥ خلاصة الكلام (ص ٥٢) ، مسخات (ص ٥٦) . سبائك الذهب ، (ص ١٨) .
- ٦ طرفة الأصحاب في معرفه الأنساب (ص ٤٣ وما بعدها) .

الجنم . ولم يحافظ على هذه اللهجات الا الذين بقوا في أماكنهم وفي مواضعهم ، ولم يختلطوا بالقبائل الأخرى التي تأثرت لهجتها بلهجة القرآن الكريم .

وحمير عند الأخباريين أبو الملوك التبابعة والادواء والأقيال ، وهو شقيق كهلان أبي الملوك من الأزد من بني جفنة ومن لحم^١ . ويلاحظ أنهم قد حصروا حكم اليمن والقبائل القحطانية المقيمة بها في حمير ، على حين جعلوا الملك على 'عرب الشام وعرب العراق ويثرب في أيدي المنتسبين الى كهلان ، أي أنهم خصوا الحكم في خارج اليمن بأيدي إحوة حمير ، فوزعوا الملك في اليمن وفي خارجها بين الأخوين . وحمير في عرفهم هو الابن الأكبر لسبأ ، فلعل هذا الكبر هو الذي شفع له ان يكون الوارث لليمن ، والحاكم على قبائل قحطان وعدنان فيها . وأخذ مكانة الأب بعد موته والجلوس على عرشه ، ميزة لا ينالها الا الابن البكر ، وقد ملك حمير بعد أبيه على حد قولهم أكثر من مئة عام^٢ .

ويذكر قوم من الأخباريين ان حكم حمير كان للملوك منها ، ثم للأقيال . والقيال هو الذي يخلف الملك في مجلسه ، فيجلس في مكانه ، ويحكم فلا يرد حكمه . ومن هؤلاء الأقيال على زعمهم الثمانية ، (وهم ثمانية رجال كانوا من حمير ، وكانوا ملوكاً على قومهم ، وهم من تحت أيدي ملوك حمير ، وأولادهم قبائل من حمير ، ويسمون الثمانية . وكان من شأنهم لا يتملك ملك من حمير الا بإرادتهم ، وان اجتمعوا على عزله عزله . وهم : يزن ، وسحر ، وثعلبان الأكبر ، ومرة ذو عثكلان . هؤلاء من أولاد سبأ الأصغر . ومقار بن مالك من أولاد حمير الأصغر ، وعلقمة ذو جلدن ، وذو صرواح)^٣ .

١ طرفه الأصحاب (ص ٤٣) .

٢ المصدر نفسه .

٣ طرفه الأصحاب (ص ٤٨ وما بعدها) ، (ثمانية أملاك من ولد حمير الأصغر بن سبأ الأصغر سميون الثمانية ، جعلوا ذلك اسماً علماً لهم للفرق بينه وبين ثمانية العدد النكرة . قال رجل من العبيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، لرجل من بني يربوع :

تطول علي بالأنساب حتى	كانك من ثمانية الملوك
من آل مرائد أو ذي خليل	وذي جلدن بني القيل المليك
ودي صرواح أو ذي ثعلبان	ومن ذي حزفر عالي السموك
ومن ذي عنكلان وذي مقار	وي العلماء والجند العتيك

ويُلي الأقيال في الحكم الأذواء ، وهم كثيرون منهم : ذو فيفان ، وذو يهر ،
وذو يزن ، وذو أصبح ، وذو الشعبين ، وذو حوال ، وذو مناخ ، وذو يحضب ،
وذو قينان ^١ .

ولما أعاد (عمر بن يوسف بن رسول) مؤلف كتاب (طرفة الأصحاب في
معرفة الأنساب) المتوفى سنة ست وتسعين وستمائة ، وهو نفسه ملك من ملوك
اليمن ، الحديث عن المئامنة ، ذكر انهم ثمانية أقيال استقاموا بعد سيف بن ذي
يزن ، وهم : آل ذي مناخ ، وآل ذي يزن ، وآل ذي خليل ، وآل ذي
مقار ، وآل ذي عثكلان ، وآل ذي ثعلبان ، وآل ذي معافر ، وآل ذي
جدن . وأعظمهم آل ذي يزن لخؤولة أسعد الكامل ^٢ . وهكذا نجده يرجع تأريخ
ظهورهم الى ما بعد أيام سيف بن ذي يزن ، ثم يرجعها الى ما قبل ذلك ،
ويغير في الأسماء ويبدل . ولكن علينا ان نعلم ان الأخباريين لا يعرفون التواريخ
على وجه صحيح مضبوط ، ثم انهم يخلقون من الرجل جملة رجال ، فخلقوا
من أبرهة مثلاً ، وقد عرفنا زمانه ، جملة أبرهات ، وزَعَوْا أيامها في أزمان
تبدأ عندهم قبل أيام سليمان بن داود وتنتهي بأبرهة الحقيقي حاكم اليمن بعد
لميلاد . فلا غرابة إن ذكروا أكثر من سيف بن ذي يزن ورجعوا بتاريخ أيامه
الى الوراء .

وكثير من أسماء البطون والقبائل التي يرجع النسابون سببها الى حمير ، هي
أسماء وردت في نصوص المسند ، ومنها أسماء قبائل وبطون حقاً ، ولكنها ليست
بالطبع على الشكل الذي يراه الأخباريون ، ولا من حمير بالضرورة . هي أسماء
أقوام ولكنها خالية من الآباء والأجداد . أما الآباء والأجداد ، فهي من مولدات

وأرباب الفخار بلا شريك

فما سبب الملوك الى العتيك
بصدق شهادتي لهم ألوكي
وعالي مفخر صعب السلوك
لهم كانت ردافات الملوك

= أولئك خير أملاك البرايا

فأجابه اليربوعي :

فما خرنسي بقوم لست منهم
شهدت بما شهدت به فابلغ
ولكن لي عليك قديم مجد
ببروع وغلب من بنييه

مسحبات (ص ١٦) .

١ طرفة الأصحاب (ص ٥٠ وما بعدها) .

٢ طرفة الأصحاب (ص ٥٥) .

المتأخرين منهم ، وأغلب ظني انها من المستحدثات التي ظهرت في الجاهلية المتصلة بالإسلام وفي الإسلام . وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد كبير من البطون والقبائل المنتسبة الى حمير ، كان لها شأن كبير في تأريخ اليمن في الإسلام . أما في خارجها ، فقد أعطى الأخباريون الأدواء الكبرى لأبناء كهلان .

وأما (قضاة) فللنسابين في أصلها آراء ، منهم من أرجع نسبها الى حمير ، فجعل نسبها قضاة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن حمير^١ . ومنهم من نسبها الى معد ، فجعل قضاة الابن البكر لمعد^٢ ، ومنهم من صيرها جذماً مستقلاً مثل جذم قحطان وعدنان . ومرد هذا الاختلاف الى عوامل سياسية أثرت تأثيراً كبيراً في تصنيف الأنساب ، ولا سيما في أيام معاوية وابنه يزيد اللذين بذلا أموالاً جسيمة لرؤساء قضاة في سبيل حملهم على الانتفاء من اليمن والانتساب الى معد ، لكونها قوة كبيرة في بلاد الشام في ذلك العهد ، ولا سيما ان منهم بني كلب ، فذكر ان رعماءها وافقوا تجاه هذه المغريات على الانتساب الى معد ، غير ان الأكثرية رفضت ذلك ، وأبت إلا الانتساب الى قحطان^٣ . ويرى بعض النسابين والمستشرقين ان انتساب قضاة الى يمن غير قديم^٤ . (قال أبو جعفر بن حبيب النسابة : لم تزل قضاة في الجاهلية والاسلام ، تعرف بمعد حتى كانت الفتنة بالشام بين كلب وقيس عيلان أيام مروان بن الحكم . فالت كلب يومئذ الى اليمن ، فانتمت الى حمير ، استظهاراً منهم بهم الى قيس . وذكر ابن الأثير في الأنساب هذا الاختلاف ، ثم قال : ولهذا قال محمد بن سلام البصري النسابة لما سئل : أنزار أكثر أم ايمن ؟ فقال : إن تعددت قضاة ،

- ١ منجبات (ص ٨٧) ، ابن خلدون (٢٤٧/٢) ، المبرد (ص ٢٣) ، ابن حرم : جمهرة (ص ٤١١ وما بعدها) ، (عمرو بن مالك بن حمير) ، القاموس (٦٩/٣) ، الاشفاق (ص ٣١٣) ، خلاصة الكلام ، (ص ٤٩) ، سبائك الذهب (ص ١٩ ، ٢٣) .
- ٢ ابن عبد البر . الانباه على فبائل الرواة (ص ٥٩ ، ١٢١) ، (ونزعم نسب مضر ، انه قضاة بن معد بن عدنان ، والصواب هو الأول) ناج العروس (٤٧٠/٥) ، اللسان (١٤٧/١٠) .
- ٣ منجبات (ص ٨٧) ، ويجد القصة في شكل آخر في كتاب : الانباه على فبائل الرواة لابن عبد البر (ص ٦٠ وما بعدها) . ولكنها لا تغفل العامل السياسي في هذا الباب . الجاحظ : كتاب الحيوان (١٠٧/٤) ، الأغاني (٧٧/٧) وما بعدها .

فتزار أكثر ، وان تيمنت ، فاليمن ^١ . والظاهر ان اختلاط قبائل قضاة بقبائل قحطان وبقبائل عدنان هو الذي أحدث هذا الارتباك بين أهل الأنساب ، فجعلهم ينسبون تارة الى قحطان ، وأخرى الى عدنان . تضاف الى ذلك العوامل السياسية التي يغفل عن ادراكها أهل الأخبار .

ولا استبعد كون قضاة كتلة من القبائل كانت قائمة بنفسها قبل الاسلام . ربما كانت حلفاً كبيراً في الأصل ، ثم تجزأت وتشتت ، فالتحق قسم منها بمعد ، وقسم منها باليمن .

وقد صرح بعض النسابين المعروفين ان العرب ثلاث جرائم : نزار ، واليمن وقضاة ^٢ . فجعل قضاة جذماً قائماً بذاته مما يشير الى أهميتها قبل الاسلام وفي الاسلام ، خاصة اذا ما تذكرنا مكانة القبائل المتتمة اليها وأثرها الكبير في السياسة في الجاهلية وبعدها . ولما للنسب من أثر خطير في الميزان السياسي لذلك العهد ، خاصة في أيام معاوية وفي دور الفتن التي وقعت في صدر دولة الأمويين ، ولثقل هذه الكتلة ، كان من المهم لمعاوية اجتذابها اليه ، وضمها الى معد وهو منها ، لتقوية هذا الحزب .

وكان قضاة جد القضاة الأكبر على رواية أهل الأخبار ، مثل سائر أبناء سبأ ، مقيماً في اليمن أرض آبائه وأجداده . ولكنه تشاجر مع وائل بن حمير ، وتخاصم معه وأثر الهجرة الى الشحر ، فذهب اليها ، وأقام في هذه الأرض مع ابنائه ، وصار ملكاً عليها الى ان توفي بها ، فقبّر هناك . فصار الملك لابنه (الحاف) (الحافي) ^٣ ، وهو في زعم الاخباريين والد ثلاثة أولاد ، هم : عمرو ، وعمران ، وأسلم . ومن نسل هؤلاء تفرعت قبائل قضاة ^٤ . وأما أهمهم ، فبنت غافق بن الشاهد بن عك ^٥ . فكان من صلب عمرو : حيدان :

١ تاج العروس (٥/٤٧٠) .

٢ الانباه (ص ٦٣) .

٣ (والحافي بن قضاة والد عمران ، معروف) تاج العروس (١٠/٩٤) .

٤ ابن خلدون (٢/٢٤٧) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٦) ، سبائك الذهب (ص ٢٣) ، (ولد الحاف رجلين : عمران بن الحاف ، وعمرو بن الحاف . هذا ما لم يختلف

فيه) ، الانباه (ص ١٢١) .

٥ ابن حزم ، جمهرة (ص ٤١٢) .

وبلي^٢ ، وبهراء . وكان من عمران ابنه حلوان^١ ، وأمه^٣ ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد . فولد حلوان : تغلب ، وربان^٢ ، ومزاحا وعمرا وهو سليح ، وعابداً وعائذاً وقد دخلا في غسان ، وتزيد وقد دخل نسله في تنوخ^٣ . وكان من نسل أسلم : سعد هذيم ، وجهينة^٤ ، ونهد^٥ .

وجعل من رجّع نسب قضاة الى معد ، الارض التي أقام فيها قضاة وأبناؤه

١ (وحلوان بالضم بن عمران بن الحاف بن فضاة) القاموس (٣١٩/٤) ، (وحلوان ابن عمران بن الحاف بن فضاة من دريه الصحابيون . وهو بابي حلوان بالعراق) ، تاج العروس (٩٦/١٠) .

٢ (وربان ، ككتاب ، اسم شخص من جرم . وليس في العرب ربان بالراء غيره ومن سواه بالزاي قلت : الذي صرح به أئمة النسب : انه ربان ، كشداد . وهو : ابن حلوان . وهو والد جرم من فضاة . ينسب اليه حماعه من الصحابة وغيرهم . وهكذا ضبطه الحافظ الذهبي وابن حجر وابن الجواني النسابة . وقوله : اسم شخص من جرم غلط أيضا . فنأمل) ، تاج العروس (٣١١/٩) ، القاموس (٢٢٦/٤) .

٣ الاشتقاق (ص ٣١٤) ، ابن حزم ، جمهرة (٤٢١) ، (وتزيد بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن فضاة . هكذا بالمتناة الوفية . وفي تسخنا بالفوفية والنحية . أبو قبيلة . ومنه البرود التزيدية . وقال علفمة :

رد القيان جمال الحي فاحتملوا فكلها بالتزيديات معسكوم وهي برود ، فيها خطوط حمر . يشبه بها طرائق الدم . قال أبو ذؤيب :

يعثرن في حد الضبأة كأنما كسيت برود بني تريد الأذرع

قال أبو سعيد السكري : العامة تقول بني تزايد . ولم أسمعا . هكذا قال شيخنا . فيل وصوابه تزايد بن حيدان كما نبه عليه العسكري في التصحيح في لحن الخاصة . وفي كتاب الايناس للوزير المغربي في فضاة : تزايد بن حلوان . وفي الأنصار : تزايد بن جشم بن الخزرج بن حارثة . وسائر العرب غير هذين فبالياء المنقوطة من أسفل . وقال التسهيل في الروض . ان في بني سلمى من الأنصار شاردة بن تزايد بن جشم بالفوقية . ولا يعرف في العرب الا هذا وتزايد بن الحاف ابن فضاة . وهم الذين نسب اليهم النساب التزيدية) ، تاج العروس (٣٦٨/٢) .

٤ ابن خلدون (٢٤٧/٢) ، (وجهينة : قبيلة من فضاة . وهو ابن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن فضاة . وفضاة من ريف العراق . وبسبب نزول جهينة في الحجاز قرب المدينة ، مذكور في الروض .) تاج العروس (١٦٩/٩) .

٥ ابن حزم ، جمهرة (٤١٥) ، (ونهد) ، قبيلة باليمن . وهم : بنو نهد بن زيد بن ليث بن أسلم بن الحاف بن فضاة ، وفي همدان : نهد بن مرهبة بن دعام بن مالك ابن معاوية بن صعب) ، تاج العروس (٥١٩/٢) ، (وفي فضاة سعد هذيم) ، تاج العروس (٣٧٧/٢) .

جُدَّة وما دونها الى متهى ذات عرق ، الى حيز الحرم ، من السهل والجبل .
وبجُدَّة ولد جُدَّة بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة
وبها سُمي على قول أصحاب الأخبار^١ .

أما حيدان^٢ ، فتنسب الى حيدان بن عمرو بن الحاف ، والد مهرة في نظر
النسابين^٣ ، فهو جدّ قبيلة عربية جنوبية على هذا الرأي^٤ ، وما زال اسم مهرة
معروفاً حتى الآن . ولمهرة لغة خاصة ، عني بدراستها المستشرقون . وهم من
القبائل العربية القديمة التي ورد ذكرها في مؤلفات (الكلاسيكيين)^٥ . وقد علل
بعض العلماء القدماء بعد لغة مهرة عن العربية بقوله : (مهرة انقطعوا بالشحر ،
فبقيت لغتهم الأولى الحميرية لهم ، يتكلمون بها الى هذا اليوم)^٦ . وذكر ابن
حزم لحيدان أولاداً آخرين ، هم يزيد ، وعريب ، وعربد ، وجنادة^٧ .

ويظهر من روايات النسابين ان بطون حيدان لم تكن كثيرة ، وان مواطنها
لم تتجاوز العربية الجنوبية ، وانها كانت تتكلم بلهجات العربية الجنوبية القديمة ،
وحافظت عليها في الاسلام . فهي مثل بطون حمير ، تختلف في لهجتها عن القبائل
الأخرى التي تكلمت بلهجة مقاربة من اللهجة العربية الفصحى . إذن فما الرابط
الذي جعل النسابين يرجعون نسب قبائل حيدان الى قضاعة مع هذا الاختلاف
البن في اللهجات ؟ ومع سكنها في محل قاصٍ بُنَاءٍ عند الساحل الجنوبي للجزيرة ؟

-
- ١ البكري (١٧/١) ، (وبجُدَّة ولد جده بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن
الحاف بن قضاعة ، فسمي جدّة باسم الموضع) البلدان (٦٧/٣) وما بعدها .
 - ٢ (وبنو حيدان . قال ابن الكلبي : هو أبو مهرة بن حيدان) ، تاج العروس (٣٤٢/٢) .
(وحيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، أبو مهرة بن حيدان) ، منتخبات
(ص ٣٠) .
 - ٣ منتخبات (ص ٣٠) ، ابن خلدون (٢٤٧/٢) . القاموس (١٣٧/٣) ، (ومهرة بن
حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة بالفتح ، أبو قبيلة . وهم حي عظيم واليها
يرجع كل مهري) تاج العروس (٥٥١/٣) .
 - ٤ منتخبات (ص ١٠٠) .
 - ٥ Ency., III, P. 138
 - ٦ الاشتقاق (٣٢٣) .
 - ٧ جمهرة (ص ٤١٢) .

اللهم إلا ان تكون كل فروع قضاة على هذا الطراز من اللهجات ، وهذا أمر لم يتحدث عنه الأخباريون ولم يعرفوه .

وأما بلي^١ ، فقد كانت مواطنهم عند ظهور الاسلام على مقربة من تيماء بين مواطن جهينة وجندام ، أي في المنطقة التي كانت لثمود في جغرافية (بطلميوس) . ومن بلي^٢ ، بنو فرآن^٣ وهي^٤ .

ولم يذكر الأخباريون بطوناً ضخمة عديدة لبهراء^٥ ، ويظهر انها لم تكن من القبائل الكثيرة العدد . ومن بطونها : قاسط ، وعبد ، وأهود (أهوذ) ، ومبشر ، وبنو هنب بن القين^٦ ، وبنو فائش (بنو قاس) ، وشيب ابني دريم ، ومطروود ، وثمامة ، وعكرمة ، وثعلبة ، ودهر ، وسعد^٧ .

وأما عمران بن الحاف (الحافي) ، فولد حلوان ، وقد ولد هذا جملة أولادهم : تغلب ، وربان وهو علاف ، ومزاح ، وعمرو ، وهو سليح^٨ ،

١ (بلي . فعبل) ، بلي قبيلة من اليمن من قضاة والنسبة اليهم بلوى . وهم ولد بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاة . قال الملم بن فرط البلوى :
ألم ير أن الحى كانوا بغيطة بمأرب اذ كانوا يحلون بها معا
بلى وبهراء وحولان إخوة لعمر بن حاف فرع من فد بفرعا
منتخبات (ص ٩) .

٢ الاشفاق (ص ٣٢٢) ، القاموس (٤/٢٥٥) .

٣ ابن حزم ، الجمهرة (ص ٤٠١٣) .

٤ (بهراء : قبيلة من اليمن ، وهم ولد بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاة ، والنسبة اليهم بهرائي بنون على غير قياس) منتخبات (ص ١٠) .

٥ ابن حزم . حمهرة (ص ٤١٢ وما بعدها) ، (وهب اسم رجل . وهو أبو قبيلة . وهو هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد . وهو أخو عبد العيس وأبو عمرو وقاسط . قاله ابن فتيبة . ولا عجب في تفسير المصنف . كما بوهمه شبخنا . وقبيلة أخرى ، يعرف بهنب بن القين بن أهوذ بن بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاة . ذكره الصاعاني) . تاج العروس (١/٥١٨) .

٦ (بنو فائش) ، Wustenfled Genea., Tab. 2 (بنو فاس) هكذا ضبطه لبهي بروفنسال وهو خطأ ، ابن حزم (ص ٤١٣) .

٧ (سليح كجريج) ، قبيلة باليمن . هو سليح بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاة فلت : واسمه عمرو . وهو أبو قبيلة . وإخوته أربع قبائل : تغلب العلباء ، وغشم (عشم) ، وربان ، ونزيد بني حلوان بن عمرو) ، تاج العروس (٢/١٦٥) ، سبائك الذهب (ص ٢٣) .

وعابد ، وعائد ، وهم أجداد قبائل ، كما ذكرت ذلك آنفاً .

ومن بني سليح^١ : حماطة^٢ ، وهم ضجع بن سعد بن سليح ، وهم الضجاعة الذين ملكوا بالشأم قبل غسان . وبني سليح هم أسلاف الغساسنة كذلك ، وهم في نظر النسابين أبناء : سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف^٣ . ونسبت الى سليح بطون أخرى منها : أشجع وعمرو والأبصر والعبيد^٤ .

ومن نسل (ربان) (زبان)^٥ ، قبيلة (جرم) ، ومن ولد جرم : قدامة ، وملكبان ، وناجية ، وجدّة^٦ . ومن جرم كان (عصام) حاجب النعمان^٧ . ومن بطون جرم الأخرى : بنو راسب ، وبني شمش^٨ .

أما تغلب بن حلوان ، فولد وبرة ، وولد وبرة أسداً ، والنمر وكلباً . وهي قبائل ضخمة ، والبرك ، والثعلب ، وهما بطنان ضخمان^٩ . وولد أسد ، تيم الله وشيع اللات . فولد تيم الله بن أسد : فهم ، وهم من تنوخ ، وقسم ، وهم بالجزيرة ، حلفاء لبني تغلب ، ومن فهم : مالك بن زهير بن عمرو بن فهم ابن تيم الله بن أسد بن وبرة . وعليه تنخت تنوخ وعلى عم أبيه مالك بن فهم ، فتنوخ على ثلاثة أبطن : بطن اسمه فهم ، وهم هؤلاء . وبطن اسمه نزار ، وهم

١ (وعمرو ، وهو سليم) ، (وهؤلاء بنو سليم ، وهو عمرو بن حلوان) ، ابن حزم : جمهرة (ص ٤٢١) ، (حقيق لبني روفنسال) ، (بنو سليم) ، هكذا صبطه (ليفي بروفنسال) الاسم ، وهو خطأ ، وصوابه : سليح ، سبائك الذهب (ص ٢٣) ، راجع كسب الأنساب الأخرى ، Wustenfled Genea., Tab. 2

٢ جمهرة (ص ٤٢١) .

٣ الانباه (ص ١٢٣) .

٤ سبائك الذهب (ص ٢٤) .

٥ الانباه (ص ١٢١) ، منجبات (ص ٢٠) ، الاشتقاق (٣١٤ ، ٣١٨) ، (جرم بن زبان) ، تاج العروس (٢٢٦/٨) ، اللسان (٣٦٢/١٤) . راجع ملاحظة رقم (٣) من صفحة ٢٤٠ من كتابي . تاريخ العرب قبل الاسلام .

٦ ابن حزم . الجمهرة (٤٢١) .

٧ الاشتقاق (ص ٣١٨) ، ابن خلدون (٣٤٧/٢) ، (وجرم بن زبان بن حلوان بن عمران ابن الحاف ، بطن في فضاة) ، تاج العروس (٢٢٦/٨) ، (وجرم بطنان : بطن في فضاة . وهو حرم بن زبان ، والآخرون في طيء) ، اللسان (٣٦٢/٤) .

٨ ابن حزم . الجمهرة (ص ٤٢٢) .

٩ ابن حزم : الجمهرة (ص ٤٢٣ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٢٤) .

لوث ، ليس نزار لهم بوالد ولا أم . ولكنهم من بطون قضاعة كلها ، من بني العجلان بن الثعلب ، ومن بني تيم الله بن أسد بن وبرة ، ومن غيرهم ؛ وبطن ثالث يقال له الأحلاف ، وهم من جميع القبائل كلها ، ومن كندة ولحسم وجذام وعبد القيس^١ .

ومن نسل شيع اللات : بنو القين . وهو النعمان بن جسر بن شيع اللات بن أسد بن وبرة^٢ . ومن بطون بني القين ، جشم (جسم)^٣ ، وزعيزعة ، وأنس ، وثعلبة ، وفالج ، وبنو مالك بن كعب بن القين . وكعب وكنانة ، ومالك ومعاوية . وبطون أخرى ذكرها (وستفلد)^٤ . وكان للقين جمع عظيم وثروة في أكناف الشام ، فكانوا يناهضون كلب بن وبرة ، ثم ضعف أمرهم ووهن حتى ما يكاد ان يعرفوا^٥ .

ومن نسل النمر بن وبرة بن تغلب : التيم ، وجعثمة ، ووائل وهو خُشَيْن ، وقتبة ، وغاضرة ، و (عاينة) عاتية ، وبطون أخرى دخلت في قبائل عديدة ، فعدت منها^٦ ، مما يدل على أنها لم تكن ذات عدة وعدد ، لذلك كان لا بد

-
- ١ ابن حرم : الجمهرة (ص ٤٢٣) .
 - ٢ ابن حرم ، الجمهرة (ص ٤٢٤) . (القين هذا الذي نسبوا اليه اسمه : النعمان بن شيع الله بن أسد بن وبرة بن تغلب ؟ (تغلب) بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة . وقال ابن الكلبي : النعمان حضنه عبد يقال له العين ، فغلب عليه . ووهن ابن التيم . فعال : بنو القين قبيلة من تميم) ، تاج العروس (٩/٣١٦) . (شيع الله) هكذا ضبطه (ليفني بروفنسال) ، والأصح (شيع اللات) الانباه (ص ١٢٣) (بنو العين بن جسر بن شيع اللات بن أسد بن وبرة) ، (العين بن جسر) ، الاشتقاق (ص ٣١٧) .
 - ٣ (جشم) هكذا حققه (ليفني بروفنسال) ، جمهرة (ص ٤٢٤) ، والصحيح (جشم) ،
 - ٤ Wustenfled Genea., Tab. 2
 - ٥ الانباه (ص ١٢١) .
 - ٦ ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٢٤) ، (وخشين بن النمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان في قضاعة . واسمه وائل بن النمر) ، تاج العروس (٩/١٩١) ، (وفي قضاعة تيم بن النمر بن وبرة . منهم الأفلاج الشاعر الفارسي) ، تاج العروس (٨/٢١١) ، (وجعثمة بالضم ، اسم . وقال أبو نصر : حي من هذيل ، أو حي من أزد السراة . قاله الأزهرى . وفي شرح الديوان من أزد شنوءة أو من اليمن) ، تاج العروس (٨/٢٣٠) .

لها من الدخول في القبائل الاخرى والاندماج فيها ، لحماية نفسها من تعديات القبائل والبطون القوية عليها .

وكلب من قبائل قضاة الشهيرة . وتنسب الى هذه المجموعة : تغلب بن حلوان فجدّها في عرف النسابين كلب بن وبرة بن تغلب^١ بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وكانوا ينزلون في الجاهلية دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام .^٢ وقد كانت لهم لهجة خاصة لم يستعملها احد من الشعراء الجاهليين .^٣ ولعل ذلك بسبب اتصال هذه القبيلة بالنبط ، اي ببقية بني ارم وبغيرهم ممن لم تكن لهم لهجة عربية نقية ، فتأثرت لهجتها بهذا الاختلاط .

واشتهر من رجال هذه القبيلة زهير بن جناب ، وهو ممن يدخله الاخباريون في المعمرين الجاهليين .^٤ وجعلوا عمره أربع مئة وعشرين سنة ، ونسبوا اليه مثنى وقعة ، وجعلوه سيد قومه وخطيبهم وشاعرهم ووافدهم الى الملوك وطيبهم وكاهنهم وفارسهم ، ونسبوا اليه الامثال والشعر ، وذكروا ان من شعره قوله :

ونادمت الملوك من آل عمرو وبعدهم بني ماء السماء^٥

وأنه قاله وقد بلغ من العمر مثنى عام ، فجعلوه بذلك معاصراً للمناذرة ملوك الحيرة ، فيكون على قولهم هذا قد عاش طويلاً في الاسلام . وقد ادرك هشام ابن الكلبي هذا التناقض في احدى رواياته ، فصحح عمر زهير واقتصر على مثنى عام .^٦ وهو عمر كاف ولا شك يشاق ان يبلغه كل انسان . ولكنه عمر استقله

١ الانبياء (ص ١٢١) ، خلاصه الكلام (ص ٤٩) ، سبائك الذهب (ص ٣٠) ، ابن حرم : جمهرة (ص ٤٢٥) ، (وكلب وبنو كلب ، وبنو آكلب ، وبنو كلبه ، وبنو كلاب . فبائل من العرب . قال الحافظ ابن حجر في الاصابة : حيسما أطلق الكلبي ، فهو من بني كلب بن وبرة . قال شيخنا : هو أخو نمر وبنوح ، كما في معارف ابن فتيبة ، وقال العيني : في طي كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة . وأما تغلب بن وائل فعدناني ، وهذا فحطاني (٠) ، ناج العروس (١/٤٦١) ، (وكلب : حي من قضاة) ، اللسان (٢/٢٢٢) .

٢ خلاصه الكلام (ص ٤٩) .

٣ Ency., II , P. 688.

٤ السجستاني . كتاب المعمرين (٢٧ وما بعدها) .

٥ السجستاني (ص ٢٨) .

٦ السجستاني (ص ٢٨) .

الأشياخ الكليون الذين لا يرضيهم هذا التقيص في السن .

ولم يكن زهير رئيساً لكلب خاصة ، بل كان على رأي الرواة الكليين رئيساً على كل قضاة . ويذكر الاخباريون ان قضاة لم تجمع على اطاعة رئيس الا زهيراً والا رزاح بن ربيعة ، وهو من عذرة . وكان رزاح هذا اخا قصي بن كلاب لأمه .^١ وقد جعل الاخباريون زهيراً معاصراً لكليب بن وائل . ويفهم من شعر منسوب الى المسيب بن الرفل ، وهو من ولد زهير بن جناب قاله مفتخراً به : ان ابرهة كان قد اصطفى آل زهير ، وسودها على الناس ، وأعطاه الإمرة عليهم ، وجعله اميراً على حيي معدة وعلى ابني وائل حيث أهاهما وأذلها .^٢ ومعنى ذلك ان زهيراً كان في ايام ابرهة ، اي في النصف الاول من القرن السادس للميلاد ، وأنه على ذلك كان معاصراً لقصي زعيم قريش .

ولم يقنع الرواة الكليون بكل ما ذكروه عن حياة زهير ، بل أرادوا ان تكون خاتمة زهير خاتمة غريبة كذلك كغرابة حياته ، فذكروا انه كبر حتى خرف وحتى استخفت به نساؤه ، وأنه لم يتمكن من الأكل بنفسه ، فصارت معزبته تطعمه بنفسها ، الى ان ملّ الحياة على هذا النمط ، فأخذ يشرب الخمر صرفاً اياماً حتى مات . وذكروا ان احداً من العرب لم يفعل هذا الفعل غير زهير وغير أبي براء عامر بن مالك بن جعفر ، والشاعر عمرو بن كلثوم .^٣

ومن حروب زهير حربه مع بكر وتغلب ابني وائل ، ويروي الاخباريون في ذلك ان ابرهة حين طلع على نجد اتاه زهير فأكرمه وفضله على من اتاه من العرب ، ثم أقره على بكر وتغلب ابني وائل ، فوليه . وصار يجبي لهم الخراج ، وحدث ان اصابته سنة شديدة لم يتمكنوا فيها من دفع ما عليهم اليه . فلما طالبهم بها ، اعتذروا عن الدفع ، فاشتد عليهم ، ومنعهم من النجعة حتى يؤدوا ما عليهم ، فكادت مواشيهم تهلك . فلما رأى ذلك (ابن زبابة) احد بني تيم الله ابن ثعلبة ، وكان فاتكاً معروفاً ، اتى زهيراً وهو نائم ، فاغمد السيف في بطنه ، ثم فرّ هارباً ظاناً انه قد أهلكه . ولما افاق زهير ، اخذه من كان معه من قومه

١ السجستاني (ص ٢٨) .

٢ السجستاني (ص ٢٩) .

٣ السجستاني (ص ٢٨) .

حتى وصلوا به الى قبيلته ، فجمع عندئذ جموعه ومن قدر عليه من اهل اليمن ، وغزا بهم بكرة وتغلب ، وقاتلهم قتالاً شديداً انهزمت به بكر ، وقاتلت تغلب بعدها ، فانهزمت ايضاً ، وأسر كليب ومهلل ابنا ربيعة ، وأخذت الأموال ، وكثرت القتلى في بني تغلب ، وأسرت جماعة من فرسانهم ووجوهم ، وانتصر زهير نصراً عظيماً .^١

ونسبت اليه حرب اخرى مع غطفان ، قالوا ان سبيها ان بني ريث بن غطفان حين خرجوا من تهامة ساروا بأجمعهم ، فتعرضت لهم صداة ، وهي قبيلة من مذحج ، فقاتلوهم ، وبنو بغيض سائرون بأهلهم وأموالهم ، فقاتلوهم عن حريمهم فظهروا على صداة وفتكوا فيهم ، فعزت بغيض بذلك ، وأثرت ، وكثرت أموالها ، فلما رأت ذلك ، قالت : (والله لتتخذن حرماً مثل مكة لا يقتل صيده ولا يهاج عائلته) ، فبنوا حرماً ، ووليه (بنو مرة بن عوف) فلما بلغ فعلهم وما اجمعوا عليه زهير بن جناب ، أبى ذلك ، وفرر منع غطفان من اتخاذ هذا الحرم ، فسار اليها بجموع كبيرة ، فظفر بها ، وأصاب حاجته منها ، وأخذ فارساً منهم في حريمهم فقتله ، وعطل ذلك الحرم .^٢

وروى الاخباريون انه حارب بني القين بن جسر . وكانت له اخت متروجة فيهم ، فأرسلت من اخبره بعزم بني القين على محاربتة ، فاستعد لها ، فقاتلها ، وقتل رئيسها وانصرفت خائبة عنه .^٣

ويظهر من غربة روايات الاخباريين عن زهير بن جناب ، ان بطل كلب هذا كان من رجال القرن السادس للميلاد ، وأنه لم يكن بعيد عهد عن الاسلام ، وأنه كان معاصراً لأبرهة ، ولعله كان قد تحالف معه ، فترك حلفه معه اثرأ في ذاكرة الاخباريين . والظاهر انه كان ذا شخصية قوية ، محارباً ، حارب جملة قبائل فاخضعها ، وبذلك بسط نفوذه عليها ، ورفع اسم قبيلته على القبائل الاخرى . ولعل انصالة بابرهه وباليمن هو الذي أوجد رابطة نسب قبائل قضاعة بحمير . وقد سبق ان قلت ان المحالفات كانت تؤدي في الغالب الى الالتحام في الانساب .

-
- ١ ابن الأثير (٢٠٥/١) .
 - ٢ ابن الأثير (٢٠٥/١) .
 - ٣ ابن الأثير (٢٠٦/١) .

اما ما أورده الاخباريون بشأن زمانه وعمره ، فهو مما لا قيمة له . فمن عادة القصص ، رفع من كانوا يتحدثون عنهم من الشخصيات البارزة التي كانت لها شأن وخطر في القدم ، وازدادة السنين الطويلة الى اعمارهم ، والمبالغات والاغراب الى قصصهم ليكون ذلك اوقع في نفوس السامعين وفي مخيلة المعجبين بهذا النوع من الحكايات . ولهذا الاغراب جعل بعض المستشرقين زهيراً شخصية خرافية ، وبطلاً خيالياً اوجدته على رأيهم مخيلة الاخباريين^١ ولكن الاغراب في القصص مهما بولغ فيه لا يكون حجة قاطعة في كون من قيل فيه شخصية خرافية لا وجود لها . فقد اغرب الاخباريون في ابرهة معاصر زهير ، وبالقوا في الذي روه عنه ، ورفعوا ايامه الى ايام داود وأيام سليمان ، وجعلوا له اياماً اخرى . ولكن ابرهة فنّد اقايصهم عنه ويّسّن في كتاباته التي دوّنها على سد مأرب انه من رجال القرن السادس للميلاد .

ومعظم من روى عنهم الاخباريون هذا النوع من القصص ، هم رجال مثلنا ، عاشوا وماتوا ، وكانت ايامهم في الغالب في القرن السادس للميلاد ، أي في عهد لم يكن بعيداً جداً عن الاسلام لم تتمكن ذاكرة الرواة وحفظة الاخبار من حفظ شيء عنهم ، الا هذا النوع من القصص المحبوب ، المطلوب من الناس ، يقصه القصّاصون في الليالي القمرية الجميلة ويقصه المعمرون من رجال القبيلة ليكون فخراً لقبيلتهم . وهذا النوع من القصص هو نوع بدائي من انواع حفظ التاريخ ، وأكثر من حفظ وروى اخبار زهير بن جناب الشرقي بن القطامي ، وهشام بن الكلبي ، وأبوه محمد ، وجماعة آخرون من المشايخ الكلبين .^٢ كانوا يروون هذا النوع من القصص عن رجال كلب ، حملهم على ذلك تعصبهم لقبيلتهم كلب .

وأكثر ما روي عن كلب ، هو من اخراج تلك الأيدي الكليسة ، نشرته وأذاعته بين الناس ، ومن حسن حظ كلب ان شيوخ الاخباريين الذين ذكروهم كانوا منها ، فكان لقصصهم هذا صدى البعيد عند جمهرة الاخباريين .

Ency., II., P. 688 ١

Ency., II., P. 688. ٢

وكلب في حد ذاتها جملة قبائل وبطون ضخمة ، منها : رفيدة ، وعُرَيْنة ،
وصحب ، وبنو كنانة ، وهي قبيلة ضخمة من بطونها : بنو عدي ، وبنو زهير ،
وبنو عليم ، وبنو جناب .^١

وذكر بعض الاخباريين ان كلباً كانت تحكم دومة الجندل ، وأن اول من
حكمها منهم هو دجاجة بن قنافة بن عدي بن زهير بن جناب . وذكروا ايضاً
ان الملك على دومة الجندل وتبوك ، كان لهم الى ان ظهر الاسلام ، وانهم كانوا
يتداولونه مع السكون من كندة . فلما ظهر الاسلام ، كان على دومة الجندل
الأكيدر بن عبد الملك بن السكون .^٢

وأظهر قبائل مجموعة أسلم ، جهينة ، وسعد هذيم ، ونهد . ابناء زيد بن ليث
ابن الأسود بن اسلم بن الحاف بن قضاة . اما جهينة ، فقد كانت منازلها في
نجد في الأصل ، وعند ظهور الاسلام كانت تقيم في الحجاز على مقربة من المدينة
بين ساحل البحر الاحمر ووادي القرى .^٣

ومن جهينة : قيس ومودة . فولد فيس : غطفان وغياث . ويعرفون برشدان
كذلك . عرفوا في ايام الرسول .^٤

وأما نهد ، ففسد سكنت اكبر بطونها في منطقة نجران . وقد دخلت بطون
منها في قبائل اخرى واندججت فيها . وأما سعد هذيم ،^٥ فأشهر قبائلها : بنو
عذرة ، وبنو ضنة .^٦

١ الجهمرة (ص ٤٢٦) ، سبائك الذهب (ص ٢٩) .

٢ ابن خلدون (٢/٢٤٩) .

٣ Ency., I, P 1060, Caetani, Annali, II, 367.

٤ الجهمرة (ص ٤١٥ وما بعدها) ، الانباه (ص ١٢٣) .

٥ الجهمرة (ص ٤١٨ وما بعدها) . (وسعد ابن هذيم كزبر ، باثبات الألف بن سعد
وهذيم ، أبو قبيلة . وهو ابن رند بن ليث بن سود . لكن حصنه عبد حبشي أسود ،
اسمه هذيم ، فغلة عليه . ونسب اليه . ومن سعد هذيم هذا ، بنو عذرة بن سعد
اليه يرجع كل عدري ، ما خلا ابن عذره بن زبد اللآب في كلب . قاله ابن الجواني
النسابة) ، ناح العروس (٩/١٠١) .

٦ (وضنة بالكسر . خمس قبائل من العرب . وقول الجوهري . ومله فصور . قال
سديحنا : اذا فصد من قبيلة جس القبيلة ، فتدعى بكل قبيلة ، فلا فصور ، على أن

وتقع منازل بني عذرة في اعالي الحجاز في جوار عدد من القبائل المنتمسة الى مجموعة قضاة ، وهي : نهد ، وجهينة ، وكلب ، وبلي . وتقع ارضها في جوار غطفان ، ومن مواضعها : وادي القرى ، وتبوك حتى ايلة . ويذكر الاخباريون ان بني عذرة حيا وفدوا الى وادي القرى من مواطنهم الاصلية على اثر الحروب التي وقعت بين قبائل قضاة وحميز ، وجدوا اليهود في هذه الديار ، فتحالفوا معهم ، وعاشوا في هذا الوادي وفي المواضع المجاورة له .^١

وقد ذهب شبرنكر الى ان (عذرة) هي (ادريته Adrithae) القبيلة التي ذكرها (بطلميوس) .^٢ اما تأريخ (عذرة) البعيدة عن الاسلام فلا نعرف عنه شيئا يذكر . وما نعرفه منه يخص الايام القريبة من الاسلام . والى صلاتها الوثيقة وحلقها مع قبائل سعد هذيم ، خاصة بني ضنة وبنو سلامان ، يعود نشوء هذا النسب الذي ربط فيما بين فروع هذه الكتلة ، وكذلك كتلة بني أسلم ومنها جهينة التي كانت ذات صلات حسنة ببني عذرة . ولهذا السبب أطلق النسابة على هذه الجماعة (صحار) .^٣

وكان لبني عذرة صلات بقبيلة قريش تتجلى في خبر الاخباريين عن مساعدة رزاح ، وهو منهم لأخيه من أمه قصي زعيم قريش في نزاعه مع خزاعة كما أشرت اليه في أثناء كلامي على مكة . كذلك كانت لهم صلات بالأوس والخزرج

الجوهرى لم يلزم ذكر كل شيء كالمصنف حتى يلزمه الفصور . بل يلزمه أن يذكر ما بصح عنده . ضنة بن سعد هذيم في قضاة ، وضنة بن عبد الله . كذا في السبخ . والصواب : ضنة بن عبد بن كبير في عذرة بن سعد هذيم ، فهم أشراهم الى اليوم . من ذريته : رزاح بن ربيعة بن حزام بن ضنة أخو قصي بن كلاب . وضنة ابن الحلاف في أسد بن خزيمة ، وضنة بن العاص بن عمرو في الأزد . وضنة بن الحرث في بني نمر بن عامر بن صعصعة . أخي خويلعة بن عبدالله بن الحرث بطن أيضا .) ، ناج العروس (٢٦٦/٩) .

١ الأغاني (١٦١/١٤) .

٢ Wustefeld, Die Wohnsitze und wanderungen der Arabischen Stamme, S., 25, 31, 37, 41, Ency., VI, P. 988.

٣ Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, S., 205

حيث يذكر الأخباريون ان والدته الأوس والخزرج كانت من تلك القبيلة ، فهي - في عرفهم - قَيْلَة بنت كاهل (هالك) بن عذرة . وهكذا نجد لنبي عذرة علاقات بأهل المدينتين المتنافستين : يثرب ، ومكة ^١ . والزواج بين القبائل من الأمور التي تقرب بينها وتصل أنسابها بعضها ببعض .

ومن بطون هذه القبيلة : بنو ضنة ، وبنو جلهمة ، وبنو زقرقة ، وبنو الجلهاء ، وبنو حردش ، وبنو حنّ ، وبنو مدلج على رأي بعض النسابين ^٢ ، وبنو رفاعه ، وبنو كثر ، وبنو صرمة ، وبنو حرام ، وبنو نصر ، وبنو بطون أخرى يذكرها أهل الأنساب ^٣ .

وتنسب قبائل كثيرة من اليمن الى كهلان بن سبأ ، وكهلان هو شقيق حمير ، فهناك إذن صلة بين قبائل حمير وقبائل كهلان . ويذكر النسابون ان بني كهلان وبني حمير كانوا يتداولون الملك في بادية الأمر بينهم ، ثم انفرد به بنو حمير ، وبقيت بطون كهلان في حكمهم في اليمن . فلما تقلص ملك حمير ، صارت الرياسة على العرب البادية لبني كهلان ، لما كانوا بادين لم يأخذ ترف الحضارة منهم . وهكذا نجد النسابين يقسمون أبناء سبأ الى قسمين : حضر ، وهم في رأيهم أبناء حمير ، وأهل وبر أو متزعمون لأهل الوبر وهم من نسل كهلان . والابن الذي ذكره الأخباريون لكهلان ، هو زيد ومن ظهره تسلسلت قبائل كهلان ^٤ .

وقد نَجَلَ زيد ، على حد قول النسابين ، ولدين ، هما : مالك وعريب . وأضاف الهمداني الى هذين الولدين ولداً ثالثاً سماه غالباً . ومن صلب هؤلاء الأبناء انحدرت قبائل كهلان ^٥ .

١ Ency., VI, P. 989

٢ الاشفاق (ص ٣٢٠) ، Ency., VI, P 989

٣ سبائك الذهب (ص ٢٨) .

٤ منجيات (ص ٩٤) ، الاكليل (١/١٠) وما بعدها . الهمداني . مشبه (تحقيق أوسكار لوفكرس Oscar Lofgren) (سنة ١٩٥٣) (ص ١٦) ، جمهره النسب الكبر لابن الكلبي . رواه محمد بن حبيب . مخطوطة المجمع العلمي العراقي مصورة (ورقه ٢٤٧) . وسيكون رمزها . جمهره النسب .

٥ الاكليل (١/١٠) وما بعدها . سبائك الذهب (ص ٣٢) وما بعدها ، الاشفاق (ص ٢١٨) .

وَنَجَلَّ مَالِكٌ مِنَ الْوَلَدِ الْخِيَارِ وَنَبْتًا ، فَوَلَدَتْ الْغُوثَ وَوَلَدَ الْغُوثُ أَدَدَ ،
وَهُوَ الْأَزْدُ ، وَعَمَرًا . وَمِنْ وَلَدِ عَمْرِو خُثْعَمٌ^١ وَبَجِيلَةٌ^٢ . وَنَجَلَّ عَمَرًا وَقَدَارٌ
وَمُقَطْعَانُ (مَقْطَعَا) عَلَى رِوَايَةِ الْهَمْدَانِيِّ^٣ .

أَمَّا الْخِيَارُ فَقَدْ وَلَدَ رِبِيعَةً ، وَوَلَدَ رِبِيعَةُ أَوْسَلَةَ ، وَوَلَدَ أَوْسَلَةُ زَيْدُ بْنُ أَوْسَلَةَ ،
وَوَلَدَ زَيْدُ بْنُ أَوْسَلَةَ مَالِكًا وَسَبِيحًا وَسَاعًا الْأَكْبَرُ عَلَى رَأْيٍ^٤ . وَمَالِكَا وَتَبَعَ ،
وَعَبْدًا ، عَلَى رِوَايَةِ ابْنِ حَزْمٍ^٥ . وَقَدْ دَخَلَ تَبَعَ وَعَبْدٌ فِي هَمْدَانَ . وَوَلَدَ مَالِكُ
ابْنَ زَيْدٍ مِنَ الْوَلَدِ هَمْدَانُ^٦ وَالْهَانُ . وَقَدْ وَلَدَ هَمْدَانُ نَوْفًا (نَوْفَلٌ^٧) ابْنَ هَمْدَانَ^٨
عَلَى رَأْيٍ . وَجُمْلَةُ أَوْلَادِ آخَرِينَ عَلَى رِوَايَاتٍ أُخْرَى^٩ . وَمِنْ نَسْلِ نَوْفٍ^٩ تَفَرَّعَتْ

١ (وختعم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث من اليمن . واسمه أفل . أبو
قبيله . وختعم لقبه . قال الجوهري . ويقال : هم من معد بن عدنان ، وصاروا من
اليمن . وقيل : خثعم ، حمل بحره ، فسمي به أبو العيسله) ، تاج العروس
(٢٦٨/٨) .

٢ ابن حزم ، جمهره (ص ٣١٠ وما بعدها) . (وبجيلة ، كسفينة . حي باليمن من
معد . والنسبة اليه بجلي . محرقة . قال ابن الكلبي في جمهرة نسب بجيلة : ولد
عمرو بن العوث بن نسب بن مالك بن زيد بن كهلان ، أراشا ، فولد أراش ، أنمارا ،
فولد أنمار ، أفل ، وهو خثعم . وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن
عك . وعبفرا ، والغوث ، وصهبية ، وحريمة . دخل في الأزد ، ووادة . بطن مع
نبي عمرو بن يشكر ، وأشهل وشهلا ، وطريف ، وسمية رجل ، والحرب ، وخدعة ،
وأهم بجيلة بنت صعب بن سعد العنبرية . بها يعرفون . قال . وقد اختلف أئمة
النسب في بجيلة ، فمنهم من جعلها من اليمن . وهو قول ابن الكلبي الذي تقدم .
وهو الأكثر . وفيل . هم من نزار بن معد . قاله مصعب بن الربير . كان المصنف
جمع بين العولين . وفيه نظر لا يحفي) ، تاج العروس (٢٢٢/٧) .

٣ الاكليل (٥/١٠) . (مقطعا) ، جمهرة النسب (ورقه ٢٤٧) .

٤ الاكليل (٦/١٠) .

٥ جمهرة (ص ٣٦٩) .

٦ ابن حزم ، جمهره (ص ٣٧٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٣٣) .

٧ (وهمدان . بفتح فسكون . قبيلة باليمن من حمير ، واسمه أوسلة بن مالك بن ربد
ابن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ) ، تاج العروس
(٥٤٧/٣) .

٨ الاكليل (١١/١٠) ، سبائك الذهب (ص ٧٨) ، (ولد همدان ، نواف ، وخران ،
فمهم بنو حاشد ، وبنو بكل) ، الاشتقاق (ص ٢٥٠) .

٩ (نوفل) هكذا ضبطه (ليفى بروفنسال) ، جمهرة (ص ٣٦٩) ، وهو خطأ وصوابه .
نوف ، ابن حلدون (٢/٢٥٢) ، الاشتقاق (ص ٢٥٠) ، (فأولد همدان بن مالك .
نواف وفيه العدد والعز ، وعمراف وفيه الشرف والملك . ورفاش زوج عدى بن الحارث) ،
الاكليل (١١/١٠) . (وبنو نوف : بطن من همدان) ، الفاموس (٣/٢٠٣) .

قبائل همدان : حاشد^١ ، وبكيل^٢ ابنا جشم بن خيران بن نوف .

أما عريب ، فولد يشجب على رواية ابن حزم^٣ ، وعمراً على رواية الهمداني^٤ ، فولد يشجب أو عمرو زيد بن يشجب أو زيد بن عمرو على اختلاف الروايتين . والهميسع وهو ذو القرنين السيار ويكنى بالصعب على رواية ذكرها الهمداني^٥ . ونَجَلْ زيد أدد بن زيد ، فولد أدد مرة ، ونبتاً ، وهو الأشعر ، وجلهمة وهو طيء ، ومالكاً ، وهو ملحج . وقد تفرعت من هؤلاء قبائل وبطون .

والأرد قبائل عديسة تنتمي كما قلت الى الأزد ، وهو الغوث . وينسب الأخباريون بيتاً من الشعر الى حسان بن ثابت ، يقولون : إنه قاله في نسب الأزد ، هو :

ونحن بنو الغوث بن بت بن مالكِ بن زيد بن كهلانِ وأهل المفاخر^٦

يذكرون انه قاله مفتخراً بهذا النسب ، وهو منهم . وهو شعر قد يكون وضعه النسابون وأهل الأخبار على لسانه ، وهو ما أظنه ، ليكون دليلاً لهم على صحة دعواهم في نسب الأزد ، وهم يعلمون ما كان عليه الشاعر من تعصب لليمن . وقد ذكر الأخباريون أيضاً ان حمير تقول ان الأزد منهم ، وانه هو الأزد بن الغوث الأكبر بن الهميسع بن حمير الأكبر . ولم يكفهم ذلك ، بل أرادوا ان يثبتوا هذا القول ويؤيدوه بشعر . والشعر في نظرهم سند قوي لإثبات رأي ، ولا سيما اذا كان من شعر معمر أو ملك من الملوك القدماء . وقد قرأت في كتبهم ولا شك ما كتبوه من الأشعار على لسان آدم وهايل وقايل وعاد وثمود وأمثال ذلك من شعر زعموا انهم نظموه بهذه العريضة الجميلة التي نكتب اليوم بها ، فكيف لا يأتون بشعر لإثبات رأيهم في هذا الباب ينسب الى التبابعة ،

١ (وحاشد . حي من همدان . نذكر مع بكيل ، ومعظمهم في اليمن) ، تاج العروس (٣٣٦/٢) .

٢ (وبكيل : كامير حي من همدان . وهو : بكيل بن حشم بن خيران بن نوف بن همدان) ، تاج العروس (٢٣٢/٧) .

٣ ابن حزم . جمهرة (ص ٣٧٤) .

٤ الاكلیل (١/١٠) .

٥ الاكلیل (١/١٠) .

٦ مستحبات (ص ٣) .

وهم من خلص العرب وملوكها المعروفين البارزين ؟ فرووا شعراً للتبع أسعد تبع ،
قالوا ، انه ذكر فيه الأزدي ، وكانوا معه ، فهم من حمير إذن وهو :

ومعي مَقاولُ حمير وملوكها والأزديُّ أزد شنوءة وعمان^١

وهكذا أضافوا الى حمير الأزدي بجمليتها .

وأسعد تبع " من التبابعة الذين لهم حظ سعيد عند الأخباريين ، فهو مؤمن في
نظرهم ، وهو ذو القرنين . وهو من أعظم التبابعة ، وأفصح شعراء العرب .
ولم يكتفوا بما أغدقوا عليه من نعوت ، بل أرادوا أكثر من ذلك وأبعد ، فقالوا
انه كان نبياً مرسلًا الى نفسه ، وانه تنبأ بظهور الرسول ، صلى الله عليه وسلم ،
قبل ظهوره بسبع مئة سنة ، وانه قال شعراً في ذلك حفظه الناس هذه السنين
الطويلة عنه ، وانه لذلك نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن سبته^٢ . فهو إذن
من المؤمنين الصالحين ومن رجال الجنة ولا شك ، وهو قصص روجيه ولا شك
الحميريون والقحطانيون المتعصبون في الاسلام ، ليسكتوا بذلك خصومهم السياسيين.
وهم في نظرهم العدنانيون الذين شرفتهم النبوة ورفعت مقامهم في الاسلام ،
فافتخروا بها على القحطانيين ، ولم يكن القحطانيون أقل باعاً في توليد القصص
في الفخر من منافسيهم القحطانيين ، فأوجدوا هذه الحكايات عن تباعتهم ، وأوجدوا
لهم الفتوحات العظيمة ، ثم لم يكفهم ذلك كله ، فقالوا : ان النبوة اذا كانت
في العدنانيين ، فانها كانت أيضاً في القحطانيين ، بل هي أقدم عهداً فيهم منهم ،
فهم كان عدة أنبياء . وهكذا سدّوا الثغرة التي كان يهاجم منها العدنانيون .

وقد ولد الأزدي عدة أولاد ، منهم : مازن ، ونصر ، وعمرو ، وعبد الله ،
ووقدان ، والأهوب^٣ . ومن ولد مازن عمرو ، وعدي ، وكعب ، وثعلبة .
ومن ولد ثعلبة : عامر ، وامرؤ القيس ، وهو البطريق ، وكرز . فولد
امرؤ القيس حارثة ، وهو الخطريف ، وولد حارثة هذا عامراً المعروف بمساء

١ مسخبات (ص ٣) .

٢ منتخبات (ص ١٢ وما بعدها) .

٣ جمهرة (ص ٣١١) ، تاج العروس (٢/٢٨٩) ، سبائك الذهب (ص ٤٥) ، جمهرة
السبب (ورقه ٢٤٧) ،
Wustenfled, Genea, Tab. 10,

السماء ، والتوأم ، وهو عامر ، وعلياً .^١

وولد عامر ماء السماء عمران الكاهن ، وعمراً مزريقاً (مزيقياً) ، فولد عمرو مزريقاً ذهل بن عمرو ؛ وهو وائل ، وقد سكن نسله بنجران ، وعمران بن عمرو ، وحارثة بن عمرو ، وجفنة بن عمرو ، وثعلبة العنقاء بن عمرو ، وأبا حارثة بن عمرو ، ومالك بن عمرو ، وكعب بن عمرو . وقد نزل بعض هؤلاء الولد على موضع ماء اسمه غسان ، فشرّبوا منه ، فسُمّوا به . وهم بنو الحارث ، وجفنة ، ومالك ، وكعب .^٢

ويظهر من فحص روايات الاخباريين عن الأزد انها كانت مجموعة ضخمة من القبائل ، ودليل ذلك عدّ النسايين اياها جرثومة من جرائم قحطان ، وقد ذكروا انها كانت سبعاً وعشرين قبيلة ،^٣ منها الأوس والخزرج . وهم من نسل حارثة ابن ثعلبة بن عمرو مزريقاً بن عامر ماء السماء بن حارثة الخطريف ،^٤ وأهمهم قبيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزريقاً .^٥

ومن ولد عليّ بن حارثة بن عمرو مزريقاً ، سعد ، وهو بارق جد القبيلة المسماة بهذا الاسم^٦ . اما من ولد عمران بن عمرو مزريقاً ، فقد ولد الأزد والحجر^٧ ، وولد الأزد لعتيك وشهميلاً^٨ ، ومن ولد الحجر زهران

١ جمهرة (ص ٣١١) . Wustenfled, Tab. 11. جمهرة النسب (ورقة ٢٤٧) .

٢ جمهرة (ص ٣١٢) ، منتحبات (ص ٨٠) ، البلدان (٦/٢٩٢) .

٣ الانباء (ص ١٠٦) .

٤ (ومزريقاً : لعب عمرو بن عامر ماء السماء . أي حارثة الخطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن السبراح بن الأزد . ملك اليمن ، وهو جد الأوصار ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ومزقهما بالعشي . يكره العود فيهما ، ونائف أن يلبسها غيره . وقيل : انه كان بمزرق كل يوم حلة ، فيخلعها على أصحابه . وقيل لأنه كان يلبس كل يوم توباً ، فادا أمسى مرفه ووهبه والأفوال مفاربة) ، ناج العروس (٧/٦٩) جمهرة النسب (ورقة ٢٤٧) .

٥ جمهرة (ص ٣١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٢٤٩) .

٦ منتحبات (ص ٦) ، جمهرة (ص ٣٤٧) .

٧ سبائك الذهب (ص ٦٥) .

٨ جمهرة (ص ٤٧) ، الاشتقاق (ص ٨) .

وزيد مناة ، وسود ومرحوم وعمرو .^١

وذكر ابن حزم ان الازد تدعي ان عمرو بن حجر هذا كان نبياً^٢ ، وبذلك يكون القحطانيون قد اضافوا اليهم نبياً آخر من الانبياء الذين نسبوهم الى قحطان .

وقد نزلت بارق في ارض تسمى بارقاً ، فنسبت اليها . وقيل وجاء في نسبها انها من نسل سعد بن عدي بن حارثة بن عمرو مزريقاء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد ، وهم اخوة الأوس والخزرج ، وليسوا من غسان . ولابن الكلبي اخبار عن بارق وعن القبيلة التي نزلت بها .^٣ وقد نزل مع سعد بن عدي ابنا اخيه عمرو بن عدي بن حارثة ، وهما مالك وشبيب فسُموا بارقاً كذلك .^٤

ومن نسل جفنة بن عمرو مزريقاء كان آل جفنة ملوك الشام ،^٥ ويقال ان اسم جفنة هو علبة ، ولذلك عرف آل علبة كذلك .^٦ وعرف ولد عمرو ابن مازن بن الازد ، وهم عدي وزيد الله ولوذان ، وامرو القيس ، والحارث ، وحارثة ومالك وثلعة وسودة وعوف والعاصي وخالد والوجيه بغسان كذلك ، وكان منهم بنو شقران وهم بالشام ، وبنو زِمَّان بن تيم الله بن حقال ، وهو بالحيرة من العباد . واليهم نسبت بيعة ربيعة بن زِمَّان ، ومنهم ايضاً الحارث الاعرج ابن ابي شمر الغساني على رأي بعض النسابين ممن اخرجوه من آل جفنة وأدخله في نسل عمرو بن مازن ، ومنهم عبد المسيح بن عمرو بن حيَّان بن بقبيلة وهم من آل بقبيلة ، وكان نصرانياً ، وهو الذي صالح خالد بن الوليد عن اهل الحيرة ، ومنهم ثعلبة بن عمرو بن المجالد رئيس غسان ايام ساروا من بطن مرّ الى الشام وشقيق جذع ، وكذلك سطيح الكاهن على رأي ابن حزم . ومنهم

- ١ منخبات (ص ٦) ، حمرة (ص ٣٥١) ، مع بعض الاختلاف في سبائك الذهب (ص ٦٥) .
- ٢ حمرة (ص ٣٥١ وما بعدها) .
- ٣ البلدان (٣٢/٢) وما بعدها .
- ٤ الانبياء (ص ١١٢) .
- ٥ حمرة (٣٥١) ، منخبات (ص ٢١) .
- ٦ طرفه الأصحاب (٦٩) .

بنو غافق ، وبنو صوفة ، وبنو تفلد . ويطون اخرى اشار اليها النسابون .^١

وولد عبد الله بن الازد عدثان وقرناً ، وهما قيلتان ، والحارث ، وعبد الله بنو عبد الله بن الازد . والى عدثان يرجع بعض النسابين نسب عك ، فيقولون : انه عك بن عدثان بن عبد الله بن الازد .^٢ وكان من ولد عمرو بن الازد ماوية وعمران ، وهما بطنان بعمان ، وألمع وجدجنة وهما ازديون بالحجاز ، وسعد والضيق وقد دخلا في عبد القيس ، وربيعة وامرؤ القيس وهما من غسان .^٣

ومن ولد دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب ، منهب وغنم ، فولد غنم فهم ابن غنم ، وولد فهم مالك بن فهم وأكثرهم بعمان ، وسليم بن فهم ، وطريف بن فهم ، وهم بالحجاز . فولد مالك بن فهم ثوبة وولده بعمان ، وجدعة الوضاح ملك الحيرة ، وعوفاً وجهضماً وسلمة ، ومعناً وهناءة وشبابة والحارث وعمرأ وثعلبة بني مالك بن فهم . وقد دخلت ثعلبة في تنوخ .^٤

ومن قبائل الازد المعروفة خزاعة .^٥ وتنسب الى عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو مزريقاء ،^٦ او عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن

١ جمهرة (ص ٣٥٤) ، الاشقاق (٢٨٥) .

٢ جمهرة (ص ٣٥٤) .

٣ جمهرة (ص ٣٥٤) .

٤ جمهرة (ص ٣٥٨) .

٥ العقد الفريد (٧٥/٢) ، فؤاد حمزة ، فلب جزيرة العرب (ص ٢٣١ وما بعدها) ، البكري (٢٩٦/١) ، الهمداني . صفة (ص ١٢٠ ، ٢١١) ، الأغاني (٣/١٣) ، (٧٦/١٩) ، أبو الفداء (١٠٧/١) ، نهابة الأرب (٣٠١/٢ و ٣٢٥) ، كحالة ، (٣٣٩/١) ، Ency., II, P. 984.

٦ خلاصة الكلام (ص ٥٣) ، (وخزاعة ، حي من الأزد . قال ابن الكلبي : ولد حارثة ابن عمرو مزريقاء بن عامر ، وهو ماء السماء : ربيعة وهو لحي ، وأفصي ، وعديا ، وكعبا وهم خزاعة . وأمه بنت أد بن طابخة بن إلياس بن مضر . فولد : ربيعة عمرا . وهو الذي بحر الحيرة ، وسبيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي ، ودعا العرب الى عبادة الأوثان . وهو حراة . وأمه فهيرة بنت عامر بن الحارث بن مضاخ الجهمي . ومه نعرع خزاعة . وإنما صارت الحجابة الى عمرو بن ربيعة من قبل فهيرة الجهمية ، وكان أبوها آخر من حجب من جرهم . وقد حجب عمرو .) ، تاج العروس (٣١٧/٥) .

عامر ،^١ او خزاعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن الغطريف ،^٢ ويذكر الاخاريون عن عمرو والد خزاعة انه اول من بحر البحيرة وسيب السايبة ووصل الوصيلة وحى الحامي .^٣ وانها سميت بخزاعة لأنها تخزعت عن بقية قومها وهم الأزد ، اي تخلفت عنهم فلم تذهب معهم ، ثم أقامت بمكة .^٤

ويروي الاخباريون بيتاً ينسبونه الى الشاعر حسان بن ثابت هو :

ولما هبطنا بطن مر تخزعت خزاعة عنا في حلول كراكر^٥

وفهم من هذا البيت ان خزاعة انما تخلفت عن الارد بموضع (بطن مر) ، وهو موضع من نواحي مكة ، فأقامت به ، ولم تلحق ببقية ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من مأرب يريدون الشام ، وقد نسب (ياقوت الحموي) هذا البيت

١ المبرد . نسب عدنان وفحطان (ص ٢٢) ، (وسميت خزاعة بهذا الاسم ، لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب ، فاننهموا الى مكة ، بحرخوا عنهم ، فأقاموا وسار الآخرون الى الشام . وقال ابن الكلبي : إنما سُمُوا خزاعة ، لأنهم ، انخرعوا من قومهم حين أقبلوا من مأرب ، فنزلوا طهر مكة . وقبل خزاعة من الأزد . مشتق من ذلك لنحلفهم عن قومهم . وسُمُوا بذلك لأن الأزد لما خرجت من مكة لتفرق في البلاد نحلفت عنهم خراعة وأقامت بها . قال حسان بن ثابت :

فلما هبطنا بطن مر نخزعت خزاعة عنا في حلول كراكر

وهم بنو عمرو بن ربيعة . وهو لحى بن حارثة . فإنه أول من بحر البحائر ، وعير دين ابراهيم . (، اللسان (٤٢٢/٩) .

٢ البلدان (٢١/٨) .

٣ الاشفاق (ص ٢٧٦) .

٤ منتخبات (ص ٣٢) ، (وهذه خراعة . سُمُوا بذلك ، لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب ، فاننهموا الى مكة ، بحرخوا عن قومهم وأقاموا بمكة . وسار الآخرون الى الشام . وقال ابن الكلبي : لأنهم انخرعوا عن قومهم حين أقبلوا من مأرب ، فنزلوا طهر مكة . وفي الصحاح ، لأن الأزد لما خرجت من مكة ، لتفرق في البلاد ، نحلفت عنهم خزاعة ، وأقامت بها . قال الشاعر :

فلما هبطنا بطن مر نخزعت خزاعة عنا في حلول كراكر

والبيت لحسان ، كما هو في هوامش الصحاح . وهكذا أشده له الليث ، والصواب انه لعدي بن أيوب الأصبغى أحد بني عمرو بن سواد بن غنم كما حقه الصاغانى ، ناج العروس (٣١٧/٥) . منتخبات (ص ٣٣) ، الاشفاق (ص ٢٧٢) ، الأزرقى (٥٠/١) .

٥ البلدان (٢٠/٢) وما بعدها ، ابن خلدون (٢٥٣/٢) .

مع ابيات اخرى الى عون بن ايوب الانصاري الخزرجي .^١

ولبعض النسابين والاختباريين رأي في نسب خزاعة ، فهم يرون انها من معدّ ، اي من العدنانية ، وانها من نسل خزاعة بن لحي بن قعدة بن الياس بن مضر .^٢ ولكن الاكثرية من النسابين ترى انها من الازد ، اي من قحطان .

وقد اختارت خزاعة بعد اعتزالها الازد الداهيين الى الشام الاقامة بمكة ، وكانت مكة بأيدي جرهم يومئذ اخذتها في ايام ملكها مضاض بن عمرو من العماليق اصحابها قبل جرهم ، وساعده في ذلك (السמידع) ملك قطورا ، وبقيت جرهم فيها الى ان أجلتهم خزاعة عنها اجلاهم رئيسها يومئذ ، وهو ثعلبة بن عمرو مزريقاء بعد حرب ، فانتقل الحكم الى الخزاعيين . وتولاها رجال منهم تلقبوا كسابقيهم بألقاب الملوك .

وانفرد زعيم خزاعة لحيّ بالحكم ، وتزوج فهيبة بنت عامر بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي ملك جرهم ، فولدت له عمراً ، وهو عمرو بن لحيّ على نحو ما ذكرت . ثم انتقل الحكم من بعده الى اولاده ، فكان مجموع ما حكموا خمس مئة عام ، وآخرهم حليل بن حبشية في ايام قصي .^٣

وللأخباريين روايات في كيفية استيلاء خزاعة على مكة ، وفي الذي استولى عليها من رؤساء خزاعة ، وهم يبالغون كثيراً في الزمن الذي استولت خزاعة فيه على مكة . وربما لا يتجاوز ذلك القرن الخامس للميلاد^٤ . اما تأريخ انتهاء حكمها على مكة وانتقاله الى قريش في أيام قصي ، فقد كان في النصف الأول من القرن السادس للميلاد . ولكن انتقال السلطة منها الى قريش لا يعني انها أصيبت بمسا أصيبت جرهم أو غير جرهم به من ضعف وانحلال ، فقد بقيت خزاعة معروفة مشهورة ذات بطون عديدة في الاسلام .

١ اللدان (٢١/٢) .

٢ الانباه (ص ٩٢) .

٣ الأزرقي (١/٤٦ وما بعدها) .

٤ Ency., II, P. 984.

فمن جملة خزاعة كعب ومليح وسعد ، ومنهم بنو سلول بن عمرو ، وبنو حليل بن حبشية سادن الكعبة ، وبنو قير ، وبنو المصطلق الذين غزاهم الرسول ^١ ، ويطون اخرى عديدة يذكرها النسّابون ^٢ .

وكانت خزاعة مخالفة للرسول في نزاعه مع قريش . ولما وقعت حرب بينها وبين بني بكر ، وأعان مشركو قريش حلفاءهم بني بكر ، وتقضوا بذلك العهد ، نصر الرسول خزاعة ، وأعلن الحرب على قريش ، فكان ذلك سبب فتح مكة ^٣ .

ويعد آل الجُلندي ، وهم ملوك عُمان ، من الأزد كذلك . والجُلندي لقب لكل من ملك منهم عُمان . وآخر من ملك منهم جيفر وعبد ابن الجُلندي ، أسلما مع أهل عمان على يد عمرو بن العاص ^٤ ، وقد كان (الجُلندي بن المستكر) يعثر من يقصد سوق (صحار) ، ومن يقصد ميناء (دبا) من التجار القادمين من مختلف أنحاء الجزيرة أو من الهند والصين وأفريقية . ويفعل في ذلك فعل الملوك ^٥ . ويرجع نسب (المستكر) الى (بني نصر بن زهران بن كعب) . وهو في عرف النسّابين (المستكر بن مسعود بن الجرار بن عبد الله ابن منولة بن شمس بن عمرو بن غنم بن غالب بن عثمان بن نصر بن زهران) . أما جيفر ، فهو ابن الجُلندي بن كركر بن المستكر وكان أخوه عبد الله ، ملك عمان .

وقد جعل بعض علماء الأنساب الأزد ستاً وعشرين قبيلة يجمعها جميعها الأزد ،

- ١ خلاصة الكلام (ص ٥٢) .
- ٢ المبرد : نسب عدنان وفحطان (ص ٢٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
- ٣ الانباه (ص ٩٥) ، تاريخ أبي العلاء (١/١٠١ وما بعدها) .
- ٤ خلاصة الكلام (ص ٥٤) . (جيفر بن الجُلندي الأزدى ، ملك عمان ورئيسها ، أسلم هو وأخوه عبد الله على يد سيدنا عمرو بن العاص بن وائل السهمي ، رضى الله عنه ، لما وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهما ، وهما على عمان) ، ناج العروس (٣/١٠٥) ، (وجلنداء : بضم أوله وفتح ثانية وممدودة وبضم ثانية مقصورة اسم ملك عمان) ، (قال الأعشى :
- وجلنداء في عمان مقيما ثم قيسا في حضرموت المنيف)
- ناج العروس (٣٢٣٢) ، لسان العرب ٤/١٠١) .
- ٥ المجبر (٢٦٥ وما بعدها) .

وهي : جفنة ، وغسان والأوس والخزرج ، وخزاعة ، ومازن ، وبارق ، وألع ، والحجر ، والعتيق (العتيق) وراسب ، وغامد ، ووالبة ، وثمالة ، ولهب ، وزهران ، ودهمان ، والحندان ، وشكر ، وعك ، ودوس ، وفهم ، والجهاضم ، والأشقر ، والقسامل والفراheid^١ . وهي أكثر من ذلك ، أو أقل عدداً على حسب مذاهب أهل الأنساب في ضبط أسماء البطون^٢ .

ويصنف النسابة قبائل الأزد جميعها في أربعة أصناف من الأزد ، هي : أزد عمان وأزد السراة وهم الذين أقاموا في سراة اليمن ، وأزد شنوءة أبناء كعب ابن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد ، وهم من سكة السراة كذلك ، وأزد غسان وهم من شرب من ماء غسان^٣ . ويلاحظ ان هذا التصنيف مبني على أسماء مواضع نزلت فيها قبائل الأزد .

ومواطن الأزد القديمة هي مثل مواطن بقية الفحطانيين في اليمن ، وقد تركتها على أثر حادث سيل العرم ، ففرقت مع من تفرق من الفحطانيين الى الأماكن المذكورة . وذكر ان أزد السراة حاربت قبيلة خثعم التي كانت نازلة في السراة ، فتغلبت عليها وانتزعت الأرض منها ، وان (أردشير) الاول أسكن الأزد في عمان . فبقوا فيها تحت حكم الفرس^٤ .

وكان مائة وذو الخلصة من أصنام الأزد الرئيسية التي تعبدت لها ، كما تعبدت لصنم اسمه العائم كان في السراة^٥ . ولصنم آخر اسمه باجر ، كان للأزد ولن جاورهم من طيء^٦ .

وأما القبائل المتفرعة من عمرو بن الغوث ، فهي أنمار ، وتنسب الى أنمار بن

- ١ ابن خلدون (٢٥٣/٢) ، أبو العلاء (١٠٢/١) .
- ٢ راجع شجرة الأزد في كتاب سبائك الذهب (٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩) ، المبرد : نسب عدنان (ص ٢١ وما بعدها) و Wustenfeld Genea, Tab., 10 ، نهايه الأرب (٢٩٦/٢) .
- ٣ Ency , I, P. 529. ، صبح الأعشى (٣١٩/١) ، كحالة (١٥/١) وما بعدها) .
- ٤ Ency., P. 530
- ٥ Ency., I, P. 530. ذو الحصة وهو خطأ مطبعي ولا شك : في
- ٦ Wellhausen, Reste, S., 45. العاموس (٣٦٢/١) ، لسان العرب (١٠٣/٥) . صبح الأعشى (٣٢٩/١) .

(أراش)^١ (إراش) (أراشة)^٢ ، وأراش هو ابن عمرو ، وقد نسب بعض النسابين أنماراً الى أنمار بن نزار بن معد بن عدنان ، فجعلوها من العدنانيين^٣ ، ويدل ذلك على اختلاط هذه القبيلة بالقبائل التي ترجع نسبها الى مجموعة معد .

وولد أنمار أفتل^٤ ، وهو خثعم ، وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد ابن عكّ ، فهي ذات صلة بعكّ من ناحية الأم . وولد أنمار أيضاً خزيمه وقد دخلت في الأزد ، ووادة ، وعبقراً ، والغوث ، وصهيبه ، وأشل ، وشهلاً ، وطريقاً ، وسنية ، والحارث ، وخذعة . وأمهم كلهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشرة ، وكانوا كلهم متحالفين على ولد أخيهم خثعم^٥ . ولهذا يرجع كثير من النسابين قبائل أنمار الى أصلين : خثعم وبجيلة^٦ .

١ حمهرة (ص ٣٦٥) ، الاشتقاق (ص ٣٠٢) ، (إراشة بالكسر : أبو قبيلة من بلي وهو إراشة بن عامر بن عبيلة بن شميل بن فران بن عمرو بن بلي . وأريش كريب ، بطن . وقال ابن حبيب : من لحم جدس بن أريش بن إراش بالكسر . وأراش هو ابن الحيان بن الغوث . وفيل . أراش هو ابن عمرو بن الغوث . وهو والد أنمار أبو بجيلة من خثعم . وأراشة بطن من خثعم ، وأراشة ، أيضاً من العماليق . وبالضم في أزدي وفي فضاغة) ، ناج العروس (٢٨٠/٤) . صبح الأعشى (٣٢٩/١) .

٢ الاكليل (٥/١٠) ، منتخبات (ص ٣١ ، ١٥٠) .

٣ (أنمار بن نزار . مصى الى اليمن ، فتناسل بنوه ، ثم حسبوا من العرب اليمانية) ، ناربج ابن الوردى (٩٢/١) ، ابن هشام : (ص ٤٩) (طبعة وستنفلد) ، ابن قتيبة : المعارف (ص ٥٠) ، البلخي : كتاب البدء والتاريخ (١٠٧/٤) (تحقيق كليمان هوار) . وسبكون رمزه : البلخي .

٤ (أقبل) حمهرة (أفتل) الاشتقاق (ص ٣٠٤) ، وهو الصحيح . ناج العروس (٣٢١/٣) . الصحاح للجوهري (٢٨٠/٢) ، النووي : بهذب الأسماء (ص ٢٨٩) ، نهاية الأرب (٣١٠/٢) ، لسان العرب (٢٩٥/٨) ، (٥٦/١٥) . ناج العروس (٢١٦/٦) ، لسان العرب (٢٩٥/٨) ، (٥٦/١٥) . ناج العروس (٢١٦/٦) ، العائق للزمخشري (٦٦/١) ، كحالة (٢٣١/١) وما بعدها . (أقبل) نسب فريش (ص ٧) .

٥ حمهرة (ص ٣٦٥) .

٦ البلخي (١٠٧/٤) ، ناربج ابن الوردى (٩٠/١) .

وولد خثعم ولداً اسمه حلف أو خلف ، ويعود هذا الاختلاف الى غلط
النسّاخ ، ومن نسله عفرس ، فولد عفرس ناهساً^١ وشهران^٢ وناهياً ونهشاً
وكوداً وريبعة أبا اكلب^٣ . ومن بني (ناهش) ناهس حام بن (ناهس)^٤
ناهش^٥ ، وهم بطن ، وبنو أجرم وهم بطن أيضاً . ويُسمّون ببني معاوية
كذلك ، وأوس مائة بن ناهس ، وهو الحنيك ، وهم بطن ، وبنو عنة ،
وبنو قحافة^٦ .

وكانت منازل خثعم في الهضبة الممتدة من الطائف الى نجران عند طريق القوافل
الممتدة من اليمن الى الحجاز .

ولا تزال بطون خثعم معروفة حتى الآن . ومنها بطون في تهامة وفي عسير .
منها ما هي بادية ، ومنها ما هي مستقرة تتكسب قوتها من الزرع^٧ .

وذهب (ليفي ديلافيدا) في (المعلمة الإسلامية) الى ان خثعماً ليست قبيلة
في الأصل إنما هي حلف نألف من قبائل متعددة تحالفت بينها لمصالح مشتركة

- ١ (وناهس بن خلف ، بطن من خثعم) ، ناج العروس (٢٦٦/٤) . (عفرس . . .
أبو حي باليمن . وهو عفرس بن خلف بن أقبل ؟ وهو خثم ؟ بن أنمار) ، ناج
العروس (١٩٣/٤) ، العقد القربد (٧٨ / ٢) ، كحالة (٧٩٤/٢) ، ناهش بن
عفرس) ، كحالة (١١٦٩/٣) . (شهران وربيعه وناهش أولاد عفرس بن خلف
بن أفتل) نهاية الأرب (٢٩٤/٢) .
- ٢ جمهرة (ص ٣٦٩) ، (خثعم بن أنمار بن أراشة بن عمرو بن الغوث بن نيب بن
زيد بن كهلان بن سبأ الأكبر . ويقال انما سمي خثعم بجمل له اسمه خثعم . فكان
يقال ارتحل آل (خثعم) ، منتحبات (ص ٣١) ، الاشتقاق (ص ٣٠٤) وشهران
ابن عفرس بن خلف بن أفتل) ، أبو قبيلة من خثعم . وأفتل هو خثعم) . تاج
العروس (٣٢١/٣) ، نهاية الأرب (٢٩٣/٢) ، العقد القربد (٧٨/٢) ، كحالة
(٦١٧/٢) .
- ٣ الاكليل (٥/١٠) .
- ٤ جمهرة (٣٦٨) .
- ٥ Ency, II, P. 924
- ٦ الاشتقاق (ص ٣٠٥) ، (أجرم) الفاموس (٨٩/٤) ، ناج العروس (٢٢٦/٨) ،
كحاله (٥/١) . (بنو قحافة) ، لسان العرب (١٨٣/١١) ، الفاموس ،
(١٨٣/٣) ، كحالة (٩٣٩/٣) .
- ٧ فؤاد حمزة : في بلاد عسير (ص ٦٠) ، (القاهرة ١٩٥١) .

جمعت بينها ، كما يحدث في سائر الأحلاف^١ ، والذي أداه الى هذا الفهم اختلاط هذه القبيلة في القبائل العدنانية واختلاف النسابين في نسب خثعم وتفسيرهم معنى كلمة خثعم .

وقد ورد ذكر خثعم في روايات الاخباريين عن حملة أبرهة على مكة ، إذ هم يذكرون انها عازمت على منعه من الوصول الى مكة ، وان ثقيف بن حبيب الخثعمي رئيس خثعم إذ ذاك ، خرج بقبيلي خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب ، وقاتله حينما بلغ أرض خثعم ، غير ان أبرهة تغلب عليه ، وأسره ، وأبقاه حيّاً على ان يكون دليله في طريقه الى مكة ، وقد سار معه حتى أبلغه الطائف ، وهناك قام بوظيفة إرشاد الحبش الى مكة أبو رغال الثقفي ، وذلك بأمر من مسعود بن معتب رئيس ثقيف^٢ . ويقول الاخباريون ان العرب صارت ترجم قبر أبي رغال بالمغمس ، وصار سبّة للناس ، ولست أدري لم خص الاخباريون قبر أبي رغال بالرجم ، ولم يشركوا معه قبر مسعود بن معتب ، وهو الذي كلف - على حد قولهم - أبا رغال ان يرشد أبرهة الى مكة .

وقد اشتركت خثعم في المعركة المعروفة عند الاخباريين باسم يوم فيف الريح ، وهو يوم كان لِمَذْحِجٍ على بني عامر بن صعصعة . اشتركت فيه عدة قبائل أخرى مع المتخاصمين^٣ . وقد كانت بطون من مذحج تسكن في جوار خثعم ، وعند ظهور الاسلام كانت خثعم في حلف مع مراد ، وقد اشتركت معها في حربها مع قيس^٤ .

وقد تعبدت خثعم مثل بجيلة ودوس وباهله والأزد للصنم المسمى بنذي الخلصة الذي هدم في الاسلام ، هدمه عبد الله بن جرير البجلي^٥ . وكان لها بيت يدعى كعبة الهامة به الخلصة . تعبدت اليه^٦ .

١ Ency., II, P. 924

٢ الطبري (١١١/٢) ، الاشتقاق (ص ٣٠٦) .

٣ ابن الأثير (٢٦٥/١) ، الأمثال : للميداني (٣٠٨/٢) ، البلدان (١٣/٦) ، الأغاني (٢١/٥) النقائض (ص ٤٦٩) العقد الفرید (٣٥٩/٣) .

٤ Blau, in, ZDMG, 23, (1869), S., 562.

٥ Ency., II, P. 924.

٦ المحبر (ص ٣١٧) ،

كحالة (٣٣٢/١) .

أما بجيلة^١ ، فهم بطون عديدة متفرقة ، تفرقت في أحياء العرب منذ يوم حربها مع كلب بن وبرة بالفجار ، وقد أعاد شملها وجمعها جرير بن عبد الله ابن جابر البجلي ، وهو الشليل بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن جشم ، صاحب رسول الله^٢ . ومن أشهر بطون بجيلة قسر ، وعلقمة ، وبنو أحس^٣ . وقيس كبة ، وبنو عرينة بن نذير ، وبنو دهن بن معاوية . ومن قسر خالد بن عبد الله القسري^٤ .

وأعرف قبائل المجموعة الثانية من قبائل كهلان ، وهي المجموعة التي ترفع

- ١ منتخبات (ص ٥ وما بعدها) ، (بجيلة : امرأة • وهي ابنة صعب بن سعد العشيرة ، ولدت لأنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث • وعمرو بن الغوث ، أخو الأزدي بن الغوث) ، الانباه (ص ١٠٠) ، (وبجيلة ، هو عقر بن أنمار بن أراش • ولد عقر ، والغوث وصهبية • أمهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة ، فزسوا إليها ، وعرفوا بها) ، الابناء (ص ١٠١) ، البلخي (١١٨/٤) ، الاشتقاق (ص ٣٠٢) ، الكري (٦٣/١) ، وبجيلة كسفية ، حي باليمن من معد والسببة إليه بجلى • محرقة • قال ابن الكلبي في جمهرة سبب بجيلة : ولد عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن ربه بن كهلان أراشا • فوالد أراش أنمارا ، فولد أنمار أفتل وهو خنعم • وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن عك • وعبرها ، والغوث ، وصهبية ، وخزيمة • دخل في الأزدي ، ووادعه بطن مع سى عمرو بن يشكر ، وأشهل وشهلا ، وطربعا ، وسومية رجل والحارث وخدعة • وأمهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة • بها يعرفون • فلب وفد اخلف أئمة السبب في بجيلة ، فمنهم من جعلها من اليمن ، وهو قول ابن الكلبي الذي تقدم وهو الأكثر • وقيل هم من نزار بن معد • قال مصعب بن الزبير ، كان المصعب جمع بين القولين • وفيه نظر لا يخفى) • تاج العروس (٢٢٢/٧) ، كحالة (٦٣/١) •
- ٢ جمهرة (ص ٣٦٥ وما بعدها) ، ابن الوردي (٩٠/١) •
- ٣ الاشتقاق (ص ٣٠٥) ، المبرد ، سبب عدنان (ص ٢٣) •
- ٤ المبرد : نسب عدنان ومطحطان (ص ٢٣) ، وفي بجيلة ، أحمس بن الغوث بن أنمار ، وقبس كبه بن الغوث بن أنمار بن أراش • بطون • وفي بجيلة بطون عبر هؤلاء • ومن بطون بجيلة : دهن بن معاوية بن أسلم بن أحمس بن الغوث بن أنمار • • • وقد مضى دهن في عبد القيس • ومن بطون بجيلة : قسر بن عمرو بطن • وهو رهط خالد بن عبد الله القسري • وعرينة بن نذير بطن • ومنهم • النضر) • الانباه (ص ١٠٢) ، البلخي (١١٨/٤) • (وبدو دهن بالضم ، حي من بجيلة • وهم بنو دهن بن معاوية بن أسلم بن أحمس بن الغوث) • تاج العروس (٢٠٥/٩) لسان العرب (٢٠/١٧) ، العاموس (٢٢٤/٤) •

تسبها الى الخيار بن زيد بن كهلان ، هي قبيلة همدان . وهي من القبائل المعروفة في الجاهلية والإسلام ، وكان لها شأن خطير في كلا العهدين .

وقد تحدثت في الجزء الثاني من كتاب : تأريخ العرب قبل الإسلام عن همدان استناداً الى كتابات المسند ، وأشارت الى صنمها وهو (تألب ريام) والى نهر من ملوكها ، والى منازل في الأرض التي عرفت ببلد همدان^١ . أما الأخباريون وأهل الأنساب ، فيروون ان هذه القبيلة من نسل جدّ أعلى هو (همدان) وكان يسمى (تلاد الملك)^٢ ، وهو في نظرهم والد نوف^٣ (نوفل)^٤ ، وعمرو ، ورقاش زوج عديّ بن الحارث^٥ . ويختلف النسابون بعض الاختلاف في سرد أسماء آباء همدان^٦ ، وهو اختلاف لا يهمننا نحن كثيراً أو قليلاً بعد ان وقفنا على طبيعة هذه الأنساب .

وأولد نوف بن همدان (حبران)^٧ (خيوان)^٨ (خيران)^٩ ، ويعود اختلاف هذا الاسم الى الخطأ الذي وقع فيه النُسخ ولا شك . وولد حبران (خيوان) ولداً اسمه 'جشم' ، وهو والد حاشد وبكيل . وهما قبيلة همدان

-
- ١ (٢١٤/٢ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٣٢٨/١) ، كحالة (١٢٢٥/٣) وما بعدها .
 - ٢ الاكليل (١٠/١٠) .
 - ٣ الاكليل (١١/١٠) .
 - ٤ (نofلا) هكذا حققه (ليفي بروفنسال) ، جمهرة (ص ٣٦٩) . وهو خطأ . وصوابه (نوف) نهاية الأرب (٢٠٣/٢) .
 - ٥ الاكليل (١١/١٠) .
 - ٦ طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب (ص ٢٩ وما بعدها) .
 - ٧ (حبران) هكذا في طبعة الاكليل (٢٨/١٠) ، وفي منتخبات (ص ٢٧) .
 - ٨ (خيوان) هكذا في طبعة جمهرة ابن حزم (ص ٣٦٩) ، (تحقيق ليفي بروفنسال) . (خيوان) ، سبائك الذهب (ص ٧٨) .
 - ٩ (خيران) هكذا في الاشتقاق (ص ٢٥٠) . (خيران : هكذا ذكره ابن الجواني النسابة . ولد نوف بن همدان . وقال شيخ الشرف النسابة : هو خيوان بالواو ، فصحف) ، تاج العروس (١٩٥/٣) ، (وخيران . . . والد نوف بن همدان) القاموس (٢٥/٣) .

العظيمان ، والحارث وقد غبر في قيس ، وزيد وقد دخل في حاشد^١ .

وأولد حاشد جشمًا ، وعوصاً وقد دخل في كلب . وولد جشم بن حاشد مالكا ومعد يكرب وعمراً وأسعد وعريباً وزيداً ومرثداً وضاماً ويريم الأكبر وعامراً وربيعاً . وأولد يريم بن جشم حاشد الوحش ، وهم بطن بالوحش من أرض الكلاع بين السحول وزيد ، وعمراً . وأولد عمرو زيداً وهو والد تباع جدّ التباعين ، وتقع منازلهم بالسحول من بلد الكلاع بعلقان ووادي النهي^٢ .

والى حاشد^٣ تنسب مرثد ، وهو مرثد بن جشم بن حاشد في عرف النسابين . وقد سبق ان أشرت الى مرثد ، وهو والد ولد اسمه ربيعة . وهو ناعط ، وهو بطن ، وولد آخر اسمه الحارث وهم اسم بطن كذلك . وأولد ناعط مرثداً وشراحيل وعامراً وشرحيل ، فولد شرحيل أفلح ، وأولد أفلح عُميراً ذا مرآن وكان معاصراً للنبي^٤ .

ومن همدان بطون عديدة كان لها صيت في الجاهلية وفي الاسلام ، مثل بني عليان ، وبني حجور ، وبني قدم ، وبني فائش ، وبني شاحذ ، وبني جحدن ، وبني ابنز ، وبني شبام . وذو جعران وذو حدآن ، وبني ناعط . وهم في الواقع عدة بطون ،^٥ ومنهم آل ذي المشعار .^٦

ومن بطون بكيل^٧ بن جشم بن حبران آل ذي لعوة ، وبنو جذلان وثعلان ،

١ الاكليل (٢٨/١٠) ، (حاشد وبكيل قبلا همدان بن جشم بن حيران بن نوف بن همدان مالك زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الحيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا) الهمداني : مشتبّه . (ص ٤٥) .

٢ الاكليل (٢٩/١٠) ، سبائك الذهب (٧٨) ، وفي قائمة الاسماء اوهام واخطاء .

٣ (حاشد) الصفة (١١١) ، ناج العروس (٣٣٦/٢ ، ٥٤٧) ، كحالة (٢٣٥/١) ،

٤ الاكليل (٣٠/١٠) .

٥ الاشتقاق (ص ٢٥٠ وما بعدها) ، الاكليل (٩٦/١٠ وما بعدها) .

٦ الاكليل (٣٦/١٠) .

٧ (بكيل) البلدان (٧٠٧/١) ، الاشتقاق (٢٥٠) ، ناج العروس (٢٣٢/٢ ،

٥٤٧) ، الصفة (١١٠ وما بعدها) ، الفاهوس (٣٣٦/٣) ، لسان العرب

(٦٧/١٣) ، نهاية الأرب (٣٠٣/٢) .

وبنو دومان ، ومنهم النشقيون ، وبنو صعب بن دومان ، وبنو مرهبة من الصعب ، وبنو أرحب من الصعب كذلك ، ويطون أخرى ذكرها الهمداني في الجزء العاشر من الأكليل .^١ وهو الجزء الخاص بقبائل همدان .

ويظهر من روايات الأخباريين أن الهمدانيين كانوا يتعبدون للصنمين : يغوث ويعوق عند ظهور الإسلام .^٢ ومعنى ذلك أن تطوراً خطيراً كان قد طرأ على عبادة هذه القبيلة ، فابتعدت عن صنمها الخاص بها وحاميها الذي كانت تلجأ إليه في الملأ ، وهو (تألب) الذي كان معبده بمدينة (ريام) ، ونسيته وتعبدت للصنمين المذكورين اللذين لم يرد اسمهما في كتابات المسند ، وهما من الأصنام التي استوردت إلى الحجاز ونجد على ما يظن من الشمال .

وقد وقع بين مراد وحمدان والحارث بن كعب يوم عرف بيوم رزم (يوم الرزم) ، وهو موضع في بلاد مراد ،^٣ وقد أخذ فيه الصنم يغوث .^٤ أما قبائل مجموعة عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، فاشهرها الأشعر ، وطيء ، ومذحج ، وبنو مرة .

أما الأشعر ، فولد نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، وهم الأشعريون والأشعرون والأشاعرة ، وتقع منازلهم في ناحية الشمال من زبيد .^٥

-
- ١ (ص ١٠٨ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٥٦ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٧٨ وما بعدها) .
 - ٢ (وكان يعوق لهمدان ، وخولان ، وكان في أرحب ، المحبر (ص ٣١٦) .
Ency., II, P. 246
 - ٣ البلدان (٢٤٧/٤) .
 - ٤ Blau, in, ZDMG , 23, S , 562.
 - ٥ جمهرة (ص ٣٧٤) ، ابن خلدون (٢ / ٢٥٤) ، (الأشعرون . أخلف فيهم . فمنهم من يقول أنهم من ولد الأشعر بن سبأ . ومنهم من يقول أنهم من ولد الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبأ . واسم الأشعر : نبت بن أدد) ، الأنباة (ص ١١٥) ، طرفة الأصحاب (ص ١٠) ، البكري (٥٣/١) ، الصفة (١١٩،٥٣) ، الصحاح (٣٤١/١) ، ناح العروس (٣٠٢/٣) ، لسان العرب (٨٤/٦) ، صبح الأعشى (٣٣٥/١) .

ومن بطون الأشعر : الجواهر ، وجدة والأنعم (الانعم) (الاتعم) ، والأرغم ،
ووائل ، وكاهل . ومن بطونهم : غاسل ، وناجية ، والحنيك ، والرك^١ .

وأما طيء ، فانها من ولد جلهمة بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد
كهلان ، ويذكر الاخباريون انها كانت باليمن ، ثم خرجت على اثر الازد الى
الحجاز ، ونزلوا سميراً وفيداً في جوار بني اسد ، ثم استولوا على اجأ وسلمى
وهما جبلان من بلاد اسد ، فأقاموا في الجبلين حتى عرفا بجبلي طيء^٢ .

وتفرقت طيء الى بطون عديدة ، يرجع اصولها النسابون كعادتهم الى آباء
وأجداد ، ومن هؤلاء جديلة ، وتيم الله (بنو تيم) وحيش والأسعد ، وقد جلا
هؤلاء عن الجبلين . ويحتر بن عتود ، وبنو نبهان ، وبنو هنيء ، وبنو ثعل
والشعالب . وهم بنو ثعلبة بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن
طيء ، وهم في طيء نظير الربائع في بني تميم . ومن بني ثعلبة بن جدعاء تيم بن
ثعلبة ، وعليهم نزل امرؤ القيس بن حجر ، وعمرو بن ثعلبة بن غياث ، وكان
على مقدمة عمرو بن هند يوم اواره^٣ ، وبنو لأم بن ثعلبة^٤ .

ويذكر الاخباريون ان طيئاً بعد ان بلغت جبلي اجأ وسلمى ، شاهدت هناك
شيخاً كان مع ابنته يمتلكان جبلي اجأ وسلمى ، وقد ذكرا لطيء انها من بقايا

١ طرفة الأصحاب (ص ١٠) ، الحمرة (ص ٣٧٤ وما بعدها) ،

Wustenfled, Genea , Taf., 8. الاشنفاق (٢٤٨) ، كحالة (٣١/١) .

٢ ابن خلدون (٢٥٤/٢) ، (وعاش طيء بن أدد . . . خمسمائة سنة . وذكر هشام
أنه سمع أشياخاً من طيء ، يدكرون ذلك ، وأنه حمل من حبله باليمن . وكان يقال
له طريب الى جبلي طيء . وأقام بهما حبناً . وفنل العادي الذي كان بالجبلين) ،
كتاب المعمرين من العرب (ص ٦٤) . أبو الفداء (١٠٢/١) ، العاموس (٦٥/١) ،
٦٤/٤ ، ٢٢٩ ، ٣٤٨) ، لسان العرب (١٥/١ ، ١٦٠) ، صبح الاعشى (٣٢٠/١) ،
الاشنقاق (٢٢٧ وما بعدها) ، ابن صاعد (٤٣) ، ناج العروس (٩٢/١ ، ٢/٥) ،
٣٦٢ ، ١٩٧/٦ ، ٢٨٧ ، ١٥٠/٧) ، الاعاني (٤٧/١٠ ، ١٩٣/١٨ ، ١٢٨/١٩) ،
الميداني الامال (١٩٤/١) السوبري ، بهذب الاسماء واللغات قسم أول (٢٨٩/٢) ،
كحالة (٦٩١/٢) .

٣ حمرة (ص ٣٧٥ وما بعدها) . الابيه (ص ١١٦) ، (ويحتر من طيء) ،

الهمداني : مشبه (ص ٤٧) ، طرفة الأصحاب (ص ١٠) .

٤ ابن خلدون (٢٥٤/٢) .

صحار ، وذكروا ان لغة طيء هي لغة هذا الشيخ الصحاري .^١ وقد اوجد الاخباريون هذه القصة تفسيراً لبعض المميزات اللغوية التي امتازت بها لهجة طيء . وصحار اسم موضع واسم بطن من قضاة ايضاً . وقد اخذت بطون قضاة مواطن طيء في الشمال ، واختلطت بعض بطون طيء بقضاة . فهل عنى الاخباريون بصحار هذا البطن من قضاة ، ولا سيما اذا تذكرنا ان علماء اللغة يذكرون وجود التثنية في لغة طيء ، وقد نسبوا التثنية الى قضاة كذلك ؟ ولا يستبعد ان يكون لأسطورة الاخباريين عن الشيخ الصحاري ، شيء من الواقع ، كأن يشير ذلك الى صلة صحار بطيء .

ويذكر الاخباريون ان الرئاسة في الجاهلية على طيء كانت لبني هنيء بن عمرو ابن الغوث بن طيء ، وهم رمليون واخوتهم جليلون ، ويعنون بذلك انها كانت تنزل البوادي ، لا جبلي طيء . ومن ولده اياس بن قبيصة بن ابي غفر بن النعمان بن حية بن سعة بن الحارث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سمر بن هنيء بن عمرو بن الغوث بن طيء^٢ الذي ولي ملك الحيرة بأمر كسرى - كما سبق ان اشرت الى ذلك في الفصل الخاص بتاريخ الحيرة - وكان له شأن يذكر عند الفرس .

وكان لطيء جد هذه القبيلة من الولد : فطرة ، والغوث والحارث . فأما ولد الحارث فدخلوا في مهرة بن حيدان . وأما ولد فطرة^٣ ، فمنهم : جديلة ، وولد خارجة بن سعد بن فطرة ، وتيم الله ، وحيش ، والأسعد . ومن نسل هؤلاء تفرعت سائر بطون طيء^٤ .

ومن بني الغوث بن طيء بنو ثعل^٥ ، ومنهم سلامان وجرول^٦ . ومن بني

- ١ البلدان (١١٧/١) .
- ٢ الجمهرة (٣٧٧) .
- ٣ نهاية الارب (٢٩٨/٢) ، كحالة (٩٢٣/٣) .
- ٤ الجمهرة (ص ٣٧٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٢٨ وما بعدها) ، الانبأه (ص ١١٦) .
- ٥ (بنو ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء) ، نهاية الارب (٢٩٩/٢) ، الاشتقاق (٢٣١) . لسان العرب (٨٩/١٣) ، كحالة (١٤٢/١) .
- ٦ (سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء) ، الاشتقاق (٢٣١) ، صبح الاعشى (٣٢١/١) ، كحالة (١٨٤/١) (٥٣١/٢) .

سلامان محتر ، ومعن ، وهما بطنان ضحخان ، وجرول بن ثعل . ومن بني جرول ابن ثعل ربيعة بن جرول . وهم بطن ضخم ، ولوذان بن جرول بن ثعل . ومن بني ربيعة بن جرول اخزم والنجد . والأخزم بطون عديدة ، ومنها عدي بن اخزم ، ومن رجالها حاتم الطائي المعروف بجوده ^١ . وعمر بن الشيخ وكان أرمى الناس في زمانه ^٢ .

وفي استطاعتنا ان نقول عن طيء ، وان كنا لا نعرف شيئاً يذكر من تاريخها في الجاهلية ، انها كانت ذات مكانة خطيرة في تلك الايام ، بدليل اطلاق اسمها عند بعض الكتبة الكلاسيكيين وعند الفرس والسريان وعند يهود بابل ، على جميع العرب كما اشرت الى ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب . ولا يعقل اطلاق اسم هذه القبيلة على جميع العرب لو لم تكن لها منزلة ومكانة في تلك الايام ، ولو لم تكن قوية كثيرة العدد ممعنة في الغزو ومهاجمة الحدود ، حتى صار في روع السريان انها اقوى العرب ، فأطلقوا اسمها عليهم . وبدليل اختيار الفرس لإياس بن قبيصة ، وهو من طيء لتولي الحكم في الحيرة مرتين ، ولا بد ان يكون لمركز قبيلته سند قوي اسنده في الحكم . وليس بمستبعد ان تكون قبائل قضاعة قد حلت محل طيء في الشمال مما اضطر الاخيرة الى الترحل من أماكنها والدخول في غيرها والاكتفاء بمنطقتها في جنوب النفود . أي في جبلي طيء ^٣ .

وبالرغم من انتزاع طيء لجزء من أرض بني أسد ، وهم من مضر ، وسكناهم فيها ، فإن بني أسد وكذلك بني ضبة التي كانت قد تحولت عن بني تميم الى طيء ، انضموا الى طيء وساعدوها في الحرب التي وقعت بينها وبين بني يربوع ، وهم من تميم ، تساعدهم بنو سعد . وانتهت بهزيمة بني يربوع في

١ الجهمرة (ص ٣٧٨) .

٢ أبو الفداء (١٠٢/١) .

٣ ARABIN, ANCIENT WEST — Arabian, P 193

موضع « رجلة النيس »^١ . ولكن ذلك لا يعني ان العلاقات بين بطون طيء وأسد كانت حسنة دوماً ، وثيقة لم يعكر صفوها ما يقع عادة بين القبائل من حروب . فقد وقعت بين القبيلتين حروب كذلك . منها : الحرب التي وقعت بالخص في العراق على مقربة من قادسية الكوفة . وقد انتهت هذه الحرب كما تنتهي الحروب الأخرى بتصفية حسابها بدفع الديات وبعقد صلح^٢ .

وقد وقعت بين عبس وطيء جملة غزوات . قضت احداها على حياة (عنزة ابن شداد) ، البطل الأسود الشهير^٣ . أغار عنزة مع قومه على بني نبهان من طيء ، وهو شيخ كبير ، قد عبثت به يد الدهر ، فجعل يرتجز ، وهو يطرد طريدة لطيء . فانهزم عبس . وأصيب عنزة بجرح قضى عليه^٤ . وهناك رواية أخرى في مقتل بطل عبس^٥ .

وفي رواية للأخباريين ان ابن هند ملك الحيرة أغار على إبل لطيء ، فحرض زرارة بن عدس ، عمرو بن هند على طيء ، وقال له انهم يتوعدونك ، فغزاهم فوفعت بسبب ذلك جملة حوادث تسلسلت الى يوم أواره . وكان عمرو ابن هند كما يقول الأخباريون قد عاقد الحي الذي غزاه على ان لا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا ، فلما غزا عمرو بن هند اليمامة ، ورجع ، مرت بطيء ، انتهز زرارة بن عدس - وكان كارهاً لطيء مبغضاً لها - هذه الفرصة ، وأخذ يحرضه على غزوها ، ويشجعه عليه . وما زال به على ذلك ، حتى غزاها ، بعد ان بلغه هجاء الشعراء الطائيين له ، لاصابته بعض النسوة من طيء . فتمكن منها وأخذ جملة أسرى ، من بطن (أنخزم) ، وهم رهط حاتم الطائي^٦ .

وكانت صلة هذه القبيلة بالفرس حسنة ، ولما أراد الملك النعمان الالتجاء اليهم والدخول فيهم ليمنعوه من الفرس ، لمصاهرته لهم ، وأخذ زوجتين هما فرعة

- ١ Ency, IV, P. 623. (رجلة النيس) ، البلدان (٢٢٨/٤) ، البكري (٦٤٠/٢) (تحقيق السقا) .
- ٢ الاغانى (١٦٣/١٨) ، (الخص : فرقة قرب القادسية) ، البلدان (٤٤٤/٣) .
- ٣ الاغانى (٢٣٩/٨ ، ٢٣٥) (طبعة دار الكتب المصرية) .
- ٤ الاغانى (٣٤٥/٨) (طبعة دار الكتب) ، (١٤٥/٧) (طبعة الساسي) .
- ٥ المصدر نفسه .
- ٦ الاغانى (١٢٧/١٩) وما بعدها .

بنت سعد بن حارثة بن لام وزينب بنت أوس بن حارثة بن لام منهم ، لم تقبل طيء جواره ولا مساعدته ، وقالت له : (لولا صهرك قاتلناك ، فإنه لا حاجة لنا في معاداة كسرى)^١ . وقد جعل كسرى إياس بن قبيصة على الرجال من الفرس والعرب في حرب بكر بن وائل في معركة ذي قار .

ويظهر من روايات الأخباريين أن رؤساء طيء كانوا يحكمونها ، وكانوا يلقبون بملك . فقد ذكروا أن عدي بن حاتم الطائي كان رئيس طيء في أيام الرسول ، وكان مالكا عليهم يأخذ منها المرباع . فلما جاءت خيل الرسول إليه بقيادة علي بن أبي طالب ، فرّ إلى الشام ، ثم ترك الشام ، وذهب إلى الرسول فأسلم^٢ .

أما صنم طيء ، فكان (الفلّس) ، وكان بنجد ، قريبا من فيد . وسدنته من بني بولان^٣ . هدمه علي بن أبي طالب بأمر النبي ، وكانت طيء قد قلدت الصنم سيفين يقال لأحدهما مخدّم وللآخر رسوب ، أهداهما إليه الحارث بن أبي شمر ، فأخذهما علي بن أبي طالب . وتعبدت طيء لصنم آخر هو (رضى)^٤ . كما تعبدت لصنم ثالث هو سهيل^٥ .

ومذحج من القبائل اليمنية الكبيرة ، وقد تفرعت منها قبائل كبيرة كذلك . وتنسب إلى جده أعلى لها ، هو مذحج . وهو مالك بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان ، وأبو عدة أولاد ، هم : جلد بن مذحج ، وبجابر . وهو مراد : وزيد . وهو عنس ، وسعد العشيرة^٦ ، ولهيس بن مذحج .

١ الطبري (١٥١/٢ وما بعدها) .

٢ (ذكر غزوة طيء وإسلام عدي بن حاتم) ، ابن الأثير (١١٩/٢) .

٣ المحبر (ص ٣١٦) .

٤ Ency., IV, P. 624

٥ كحالة (٦٩١/٢) .

٦ الجمهرة (ص ٣٨١) ، ابن خلدون (٢٥٥/٢) . الاشتقاق (ص ٢٣٧ وما بعدها)

Wustenfled, Genea., Taf., 7, 8. (فولد بجابر مذحج . وولد مذحج مرادا ،

وجلدا ، وعنسا ، وسعد العشيرة . وإنما سمي سعد العشيرة ، لأنه شهد الموسم ،

ومعه بنون عشيرة ، ف قيل له من هؤلاء ؟ فقال : هم العشيرة . وولد سعد العشيرة

جعفن بن سعد ، وجبيب بن سعد ، وصعب بن سعد ، وعائذ الله بن سعد) ،

البلخي (١١٩/٤ وما بعدها) ، (وأما مذحج ، فكل من انتسب إلى مالك بن أدد =

وأهمهم كلهم سلمى بنت منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر^١ .
ومن بني عَنَس بن مذحج : عَمَّار بن ياسر الصحابي المعروف ، والأسود
العنسي المتنبي^٢ .

ولمذحج مثل القبائل الأخرى أيام . منها يوم فيف الريح^٣ ويوم السلان . وهو
لربيعه على مذحج^٤ . وسأتحدث عن أيام مذحج في الفصل الخاص بأيام العرب
قبل الإسلام .

ويشير هذا النسب الذي يذكره النسابةون الى وجود صلات قديمة وثيقة بين
مراد ونخشم ، وبين مجموعة القبائل المعروفة بمذحج . وهم أبناء أحوه على رأي
النسابةين^٥ .

ويذكر الأخباريون ان مواطن مراد القديمة هي في الجوف ، في منطقة رملية
جرداء . ويظهر انها كانت متبدية وكان معبودها الصنم يغوث^٦ ، الصنم الذي
تعبدت له مذحج كذلك^٧ . روي ان الصنم يغوث ، كان لمذحج كلها . وكان في

ابن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، فهو مذحجي ومن لم ينسب
الى مالك بن أدد ، فليس بمذحجي . ومالك بن أدد ، هو جماع مذحج . وقال ابن
اسحاق : مذحج بن يحابر بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . ولم ينابع ابن
اسحاق في ذلك) ، الانباء (ص ١١٦) ، ابن الوردي (٩٠/١) ، أبو الفداء
(١٠٢/١) ، العاموس (١٧١/١) ، لسان العرب (٤٨٠/٢) ، (١٠٣/٣) ،
الروص الانف (١٣٩/١) ، البكري (٢٩٨/١) ، كحالة (١٠٦٢/٣) وما بعدها .
الجمهرة (ص ٣٨١) .

٢ الاغاني (١٣٥/١٨) ، ابن الوردي (٩٠/١) ، (عس ابن مالك وهو مذحج) ،
الاشقاق (٢٤٧) ، نهاية الارب (٣٠١/٢) صبح الاعشى (٣٢٧/١) ، الصفه
(١٠٤ ، ٥٤) ، كحالة (٨٤٧/٢) وما بعدها .

٣ نهاية الارب (٤١٤/١٥) ، العقد الفريد (٨٠/٢) ، الامالي للعالي (١٤٧/٣) ،
البكري (١٠٣٨/٣) (طبعة السعيا) .

٤ بين معد ومذحج وكلب يومئذ معدون . وشهدها زهير بن جناب الكلبي . . . وقال
شهدت الموفدين على خزاز وفي السلان جمعا ذا زهاء

البلدان (١٠٤/٥) .

Wustenfelf, Genea., I.

Ency., III, P. 726

٧ الاصنام (١٠) .

أنعم ، فقاتلتهم عليه غطيف من مراد ، حتى هربوا به الى نجران ، فأقروه عند بني النار من الضباب ، من بني كعب ، واجتمعوا عليه جميعاً^١ .

ويذكر الأخباريون ان المنذر بن ماء السماء حينما بغى على أخيه عمرو ، هرب عمرو الى مراد ، فاحتفلت به ، وعينته رئيساً عليها . غير انه اشتد عليها حينما تمكن وقوي أمره ، فغلرت به وقتلته . لذلك غزاها عمرو بن هند ، وقتل قتلة عمرو^٢ .

وكانت بين مراد وهمدان حرب ، وقعت في عهد لم يكن بعيداً عن الاسلام . عرفت بيوم الرزم ، انتصرت فيها همدان على مراد . وكان رئيس مراد أيام الرسول فروة بن مسيك المرادي . وقد استعمله الرسول على صدقات مراد وزيد ومنحج ، فاستاءت زيد ومنحج من ذلك . وارتد عمرو بن معديكرب في مرتدين من ريد ومنحج . فاستجاش فروة النبي^٣ ، فوجه اليهسم جيشاً ، هزم المرتدين^٤ .

وقيل الاسلام كان هيرة بن المكشوح بن عبد يغوث رئيساً بارزاً على مراد ، وقد عدّه الأخباريون من (الجرارين) في اليمن ، ويقصد بالجرار من ترأس ألفاً في الجاهلية^٥ . وقد كان ابنه قيس من رؤساء مراد البارزين عند ظهور الاسلام^٦ . وهو الذي قتل الأسود العنسي^٧ . وكان هناك رئيس آخر على مراد عند ظهور الاسلام هو فروة بن مسيك المتقدم ذكره ، كان كذلك من الجرارين^٨ .

وأشهر أولاد محابر ، وهو مراد ، ناجية وزاهر^٩ . ومن ولد ناجية مفرج ، وكنانة ، وعبد الله ، ومالك ، ويشكر ، وردمان . وقد انتسب ردمان الى

١ المحبر (ص ٣١٧) .

٢ Ency., III, P. 726

٣ البكري (٦٤٩/٢ وما بعدها) ، الاغانى (٢٥/١٥ وما بعدها) .

٤ المحبر (ص ٢٥٢) .

٥ Ency., III, P. 726

٦ الاشفاق (ص ٢٤٧) .

٧ المحبر (ص ٢٥٢) .

٨ (وسحابر بن مالك ، وهو مراد ، وابنا سمي مرادا ، لانه أول من نمرد باليمن) ،

الاشتقاق (ص ٢٣٨ ، ٢٣٦) نهاية الارب (٢/٢٨٥) .

حمير . ومن ولد عبد الله غَطِيفٌ^١ ، وهم بطن^١ . ومن نسل ردمان^٢ قرين
ونابية ، وهما بطنان . ومن بني زاهر قيس بن المكشوح ، وبنو الحصين والربض
والصنابح وهما بطنان^٣ .

وأولاد سعد العشيرة كثيرون ، تفرعت منهم قبائل ويطون ، ويذكر
الأخباريون ان سعد العشيرة كان رجلاً كثير الأولاد حتى انه كان اذا ركب
ركب معه ثلاث مئة فارس من صلبه . والظاهر انها كانت من القبائل الكبيرة ،
وأظن انها كانت تحتمي بصنم هو (سعد العشيرة) ، ثم نسبته فتصور أبنائها
انه إنسان ، وانهم من صلبه منحدرون ، وليس هذا بأمر غريب ، وقد ذكرت
أمثلة من هذا القبيل ، ومنه (تالب) صنم همدان المذكور في المسند ، الذي صيره
النسابون جدّاً من أجداد همدان .

ومن أولاد سعد العشيرة : الحكم^٤ ، والصعب^٥ ، ونمرة ، وجعفي ،
وعائذ الله ، وأوهن الله ، وزيد الله ، وأنس الله ، والحرّ . ومن البطون
المتفرعة من هؤلاء الدئل ، وهم من نسل الحكم ، وقد دخلوا في تغلب^٦ .
وأسلم . ومن جعفي مرّان وحريم^٧ . أما بنو صعّب فأشهرهم أود ومنبه^٨ ،
ويسمى أيضاً بزويد . ومن نسل زبيد مازن ، وهم بطن^٩ . ومن قبيلة أود
الأفوه^{١٠} الأودي الشاعر المعروف^{١٠} .

- ١ (عطيف بن عبدالله بن ناجيه بن مراد) ، تاج العروس (٢١٣/٦) ، الفاموس
(١٨١/٣) ، كحالة (٨٨٩/٣) .
- ٢ (ردمان بن ناجيه) ، الاشتقاق (ص ٢٤٧) ، تاج العروس (٣١٠/٨) .
- ٣ الجمهرة (ص ٣٨٢ وما بعدها) .
- ٤ تاج العروس (٢٥٥/٨) ، نهاية الارب (٣٠١/٢) ، لسان العرب (٣٤/١٥) ،
كحالة (٢٨٧/١) .
- ٥ (الصعب بن سعد العشيرة بن مالك) ، نهاية الارب (٣٠١/٢) ، كحالة (٦٤١/٣) .
- ٦ الجمهرة (ص ٣٨٣) .
- ٧ (جعفي بن سعد العشيرة) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، نهاية الارب (٣٠١/٢)
أبو العداء (١٠٨/١) ، لسان العرب (٣٧١/١٠) .
- ٨ الكري (٥٧/١) ، تاج العروس (٢٩٧/٢) ، لسان العرب (٤١/٤) ، أبو
العداء (١٠٨/١) ، كحالة (٤١/١) .
- ٩ الجمهرة (ص ٣٨٥) ، الاشتقاق (ص ٢٤٥) ، نهاية الارب (٢٨٥/٢) .
- ١٠ ابن الوردي (٩٠/١) ، الاعاني (٤٤/١١ وما بعدها) ، الجمهرة (ص ٣٨٦) .

وأبن بطون جلد بن مالك بن أدد ، أي جلد بن مذحج ، بنو علة بن جلد .
ومن أولاد علة : عمرو ، وعامر ، وحرب تفرعت جملة قبائل أظهرها :
النخع بن عمرو بن علة . وبنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة . ورهاء
وهو ضبة بن الحارث بن علة^١ ، وصداء وهم من نسل يزيد بن حرب
ابن علة^٢ .

وقد تحالفت منبه والحارث والعلاء (العلي) وسيحان (سيحان) (سنجان)
وهفان وشمران ، وهم ولد يزيد بن حرب بن علة بن جلد على بني أخيههم صداء
ابن يزيد بن حرب ، فسُموا جنبا ، لأنهم جانبوا عمهم صداء ، وحالفوا
بني عمهم بني سعد العشيرة . ومن جنب ، معاوية الخير الجنبي ، صاحب لواء
مذحج في حرب بني وائل ، وكان مع تغلب^٣ .

أما صداء ، فحالفت بني الحارث بن كعب . ومن بني منبه ، كان معاوية
ابن عمرو بن معاوية بن الحارث بن منبه بن يزيد الذي تزوج بنت مهلهل بن
ربيعة التغلبي^٤ .

وتتنسب قبيلة النخع الى النخع وهو جسر بن عمرو^٥ بن علة بن جلد بن

-
- ١ (رهاء بن مبه بن حرب بن علة بن جلد بن مالك) ، تاج العروس (١٠ / ١٦١) ،
لسان العرب (١٩ / ٦٣) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، نهاية الارب (٢ / ٢٨٦) ،
كحالة (٢ / ٤٤٨) .
 - ٢ الانباه (ص ١١٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ٢٣٧ ، ٢٤٢) .
 - ٣ خلاصة الكلام (ص ٥٥) ، ابن الوردي (١ / ٩٠) ، الاشتقاق (ص ١٣٠) ، صبح
الاعشى (١ / ٣٢٦) ، كحالة (١ / ٢١٠) ، تاج العروس (١ / ١٩٢) ، أبو الفداء
(١ / ١٠٨) .
 - ٤ الجمهرة (ص ٣٨٨) ، الاشتقاق (ص ٢٤٢) ، تاج العروس (١ / ٨٨) ، القاموس
(١ / ٢٠) ، نهاية الارب (٢ / ٢٨٦) .
 - ٥ (ولد عمرو بن علة كعبا ، وعامرا ، وجسرا وهو النخع) ، الجمهرة (ص ٣٨٩) .
وبعد أسطر من هذا النسب ، وفي باب (وهؤلاء بنو جسر أخيه ، وهو النخع بن
عامر) جاءت هذه الاسطر (ولد النخع بن عامر بن علة . الخ) ، فصار والد النخع
عامر في هذا الباب ، بينما هو (عمرو) . ولم يشر (ليفي بروفنسال) الى هذا
النافض الناشئ من تحريف النساخ ، وفي تحفيقه هفوات من هذا القبيل .
الانباه (ص ١١٦) .

مالك ، وهو مذحج^١ . ومن النخع الأشتر النخعي ، واسمه مالك بن الحارث ، صاحب رسول الله ، ثم علي بن أبي طالب . وللنخع بطون عديدة^٢ منها : صُهَيْبان ، ووهييل . وجسر ، وجذيمة ، وقيس ، وحارثة^٣ ، وصلاة ، ورزاق ، والأرت ، ومن الأرت بنو عبد المدان وعبد الحجر بن المدان^٤ .

وولد مرة بن أدد رُهمًا ، والحارث . ومن رهم كان الأفغي الذي كان يتحاكم اليه بنجران على رواية ابن حزم^٥ ، أو من رهم ، من طيء على رواية ابن دريد^٦ . أما الهمداني ، فذهب الى انه من رهم بن مرة بن أدد ، أي على نحو ما ذهب ابن حزم اليه^٧ .

وبنو مرة بن أدد ، اخوة طيء ومذحج والأشعريين ، بطون كثيرة تنتهي كلها الى الحارث بن مرة ، مثل خولان ومعاقر ولحم وجذام وعاملة وكندة^٨ . أما خولان ، فيرجع نسبها الى خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد . ويسمى النسابةون خَوْلَان فِكْلَا (أفكلًا) كذلك^٩ . والخوليون هؤلاء هم خولان أدد ، وعرفوا بخولان العالية أيضاً^{١٠} ، وهم غير خولان بن عمرو ابن الحاف (الحافي) بن قضاة ، أي خولان القضاة ، وهي قبيلة يمانية كذلك في نظر من جعل قضاة من اليانين^{١١} . وأظن ان هناك صلة بين (فكل)

- ١ منتخبات (ص ١٠٢) ، الاشتقاق (ص ٢٣٧) ، ابن خلدون (٢/٢٥٥) ، نهاية
- الارب (٢/٣٠٢) ، أبو الفداء (١/١٠٨) ، لسان العرب (١٠/٢٢٦) ، القاموس
- (٣/٨٧) ، المصباح المير (٢/١١٤) ، كحالة (٣/١٨٧٦) .
- ٢ أبو الفداء (١/١٠٣) صبح الاعشى (١/٣٢٧) .
- ٣ جمهرة (ص ٣٨٩) .
- ٤ الاشتقاق (ص ٣٣٧) .
- ٥ جمهرة (ص ٣٩٢) .
- ٦ الاشتقاق (ص ٢١٨) .
- ٧ الاكلیل (٢/١٠) ، (مرهم) ، نهاية الارب (٢/٢٨٦) ، كحالة (٣/١٠٧٧) .
- ٨ ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، نهاية الارب (٢/٢٨٦) وما بعدها .
- ٩ جمهرة (ص ٣٩٢) ، الاشتقاق (ص ٢٢٧) ، ابن خلدون (٢/٢٥٦) ، نهاية الارب (٢/٢٨٧) ، تاج العروس (٦/٦٥٢ ، ٧/٣١٢) ، القاموس (٢/٢٣٢) ، لسان
- العرب (١٣/٢٤٠) ، صبح الاعشى (١/٣٢٥) ، القاموس (٣/٢٧٢) ، كحالة
- (١/٣٦٥ وما بعدها) .
- ١٠ الاكلیل (١٠/٤٢٠) .
- ١١ منتخبات (ص ٣٥) ، الاكلیل (١٠/٢٩٣) ، الانباه (ص ١١٥ ، ١٢٠) .

و (أفكل) و (يكل) أو (ركل) المذكور عند بعض الأخباريين ، وقد زعم الهمداني انه شقيق خولان ، وابن الابن الآخر لعمر بن مالك . وقد نشأت هذه الصور للاسم من تحريف النُسخ ، ومن التبيل الذي يحدثه أمثاله للنسابين والباحثين في الأنساب . واما ان يكل أو فكل هو شقيق خولان ، أو انه خولان نفسه ، فأمر لا قيمة له .

ورجح نشوان بن سعيد الحميري كون المراد بـ (خولان العالية) خولان قضاة ، وقد ذكر الرأيين وناقش كل واحد منها ، ثم رجح ان خولان العالية هي خولان قضاة^١ .

واسم خولان من الأسماء التي ورد ذكرها في كتابات المسند . ورد اسماً لأرض ، كما ورد اسماً لقبيلة ، هي قبيلة خولان^٢ ويعود تأريخ هذه الكتابات الى ما قبل الميلاد . وتقع أرض خولان في نفس المكان الذي عرف في الإسلام بـ (عرّ خولان) وبأرض خولان^٣ . وقد ذهب (شرنكر) الى ان خولان هي (حويلة) إحدى القبائل العربية المذكورة في التوراة^٤ .

وعند ظهور الاسلام ، كانت خولان تتبع للصنم ، عم أنس (عميانس) وللصنم يعوق .^٥ وفي السنة العاشرة للهجرة ، وصل وفد منها الى الرسول معلناً له الدخول في الاسلام . وقد اشتركت خولان مع من اشترك من القبائل العربية في الفتوح ، فلعبت دوراً هاماً فيها خاصة في فتوحات مصر .^٦

والى جعفر بن مالك بن الحارث بن مرة يرجع نسب المعافر .^٧ جدّ المعافرين ، ويسمى بالمعافر الأكبر تمييزاً له عن المعافر الأصغر ، وهو ابن حضرموت .^٨

١ منتخبات (ص ٣٥ وما بعدها) .

٢ Halevy 585, Glaser 1076, Glaser 119.

٣ Ency , II, P. 933.

٤ Ency., II, P. 933.

٥ الاصنام (٤٣) . كحاله (٣٦٦/١) .

٦ Ency., II, P 933.

٧ جمهره (ص ٢٩٣) ، بهاه الارب (٢٨٧/٢) ، كحاله (١١١٥/٣) .

٨ الاكليل (٣/١٠) ، الاشفاق (ص ٢٢٨) ، ابن خلدون (٢٥٦/٢) ، الانبياء (ص ١١٨) .

وقد اشتهرت المعافر بنوع من الثياب سميت باسمهم .^١

ومن ولد عديّ بن الحارث بن مرة بن أد بن يشجب ، كان الحارث بن عديّ وهو عاملة ، وعمرو بن عديّ وهو جذام ، ومالك بن عديّ وهو لحم ، وعفير بن عدي وهو والد كندة .^٢ وكلها كما نرى قبائل معروفة شهيرة تنسب الى القحطانيين . وأما أمهم ، فهي رقاش بنت همدان .^٣

وذكر ابن خلدون ان الحارث بن عديّ والد عاملة ، سمي عاملة باسم أمه عاملة ، وهي من قضاعة . وذكر انها كانت في بادية الشام .^٤

وقد يستتج من هذه الصلة بين القبائل الثلاث ، انها كانت حلفاً في الأصل جمع بينها لمصالح مشتركة ولظروف متشابهة ألقت بينها على نحو ما رأينا عند قبائل اخرى فصارت نسباً بمرور الايام .^٥ وقد كانت هذه الصلة قوية خاصة بين لحم وجذام ، حيث اقترن اسمها معاً في الغالب ، ولا سيما في الاسلام ، مما يدل على اشتراك المصالح بين القبيلتين .

وكانت عاملة حليفة لكلب ، (وغزت معها الى طيء ، فأسر رجل من عاملة ، اسمه قعيسيس ، عديّ بن حاتم ، فانتزعه منهم شعيب بن مسعود العلّيمي من كلب ، وقال له : ما أنت وأسر الاشراف ؟) ، وأطلقه بغير فداء .^٦ ومن عاملة الشاعر عديّ بن الرقاع .^٧

ويذكر الاخباريون ان بطوناً من عاملة كانت في الحيرة ، كما ان بعضاً منها كانت خاضعة للزبّاء .^٨ واذا صح زعم الاخباريين هذا ، فانه يدل على قدم

١ (المعافرية) منتخبات (ص ٧٣) .

٢ حمهرة (ص ٣٩٤) .

٣ الاكليل (٤/١٠) .

٤ ابن خلدون (٢٥٧/٢) ، (عاملة) ، ناج العروس (٣٥/٨) ، الفاموس (٢٢/٤) ،

نهاية الارب (٢٨٧/٢) ، صبح الاعشى (٣٣٥/١ وما بعدها) .

٥ Ency., III. P. 11.

٦ حمهرة (ص ٣٩٤) .

٧ منتخبات (ص ٧٧) ، حمهرة (ص ٣٩٤) .

٨ Ency., I, P. 327.

وجود هذه القبيلة في بلاد الشام والعراق ، ولكننا لا نجد لها ذكراً مثل أكثر القبائل الأخرى في كتب (الكلاسيكيين) .

وكانت منازلها عند ظهور الاسلام في المنطقة الجنوبية الشرقية للبحر الميت . وقد اشتركت مع القبائل العربية الأخرى التي ساعدت الروم ، وانضمت الى جانب (هرقل) (Heraclius) ، ولكن اسمها لم يرد كثيراً في اخبار فتوح المسلمين لبلاد الشام ، وإنما كان من الاسماء المعروفة في ايام الامويين . وتدل اقامتها في هذه البلاد منذ ايام الجاهلية على ان صلتها ببلاد الشام كانت اقوى وأمتن من صلتها بالعراق .

وصنم عاملة هو الأقيصر ، وكان في مشارف الشام ، يحجون اليه ، ويحلقون رؤوسهم عنده .^١

وولد جذام : وهو عمرو بن عديّ بن الحارث بن مرة^٢ والد قبيلة جذام الشهيرة من الولد حراما ، و (جُشَم) .^٣ ومن بني حرام غطفان وأفصى ، وهما ابنا (سعد بن اياس بن افصى بن حرام بن جذام) . وذكر ابن حزم : ان روح بن زنباع ، وهو من بني افصى ، اراد ان يردّ نسب جذام الى مضر ، فيقال جذام بن أسدة اخي كنانة وأسد ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فعارضه في ذلك نائل بن قيس .^٤

ومن بطون جذام : (بنو ضبيب ، وبنو مخزومة ، وبنو بعجة ، وبنو نفثة ، وديارهم حوالي ايلة من اول اعمال الحجاز الى ينبع من اطراف يثرب . وكانت لهم رئاسة في معان وما حولها من ارض الشام لبني النافرة من نفثة ، ثم لفروة ابن عمرو بن النافرة . وكان عاملاً للروم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب . وهو الذي بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامه ، وأهدى

- ١ كحالة (٧١٤/٢) .
- ٢ منتخبات (ص ١٩) ، ابن خلدون (٢٥٧/٢) . ناج العروس (٣٢٣/٨) ، لسان العرب (٣٥٦/١٤) ، أبو الفداء (١٠٩/١) ، نهاية الارب (٣٠٣/٢) ، صبح الاعشى (٣٣٠/١) ، الصحاح (٢٦٩/٢) ، كحالة (١٧٤/١) .
- ٣ (جشم) ، جمهرة (ص ٣٩٥) ، وهو في الاشتقاق (ص ٢٢٥) (جشم) .
- ٤ جمهرة (ص ٣٩٥ وما بعدها) Ency., I, P. 1058

له بغلة بيضاء وسمع بذلك قيصر ، فأغرى به الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان ، فأخذه وصلبه بفلسطين)^١ .

أما لحم ، الأخ الآخر لعاملة وجذام ، فولد جزيلة ونمارة ، وولد نمارة عدياً ، وهو عَمَمٌ وحبيب وجذيمة ، وهم العباد ، وغيرهم . وولد حبيب ، هانثاً ، ومن نسله تميم الداري صاحب رسول الله ، ومن نمارة عمرو بن رزين ابن لحسم ، ومن ولده قصير الوارد اسمه في قصة الزبَاء ، ومن نسل عَمَم بنو نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مسعود بن مالك بن عمم بن نمارة ابن لحم ، رهط آل المنذر ملوك الحيرة^٢ .

ويظهر ان اللخمين كانوا أقدم جماعة في هذا الحلف ، وقد كانوا قبل الاسلام في بلاد الشام والعراق وفي البادية الفاصلة بينهما وفي مواضع متعددة من فلسطين . ومنهم كما رأينا كان آل لحم ملوك الحيرة . ولا يستبعد ان يكون ظهور هذه القبيلة على أثر تصدع حكومة تدمر . حيث مكن هذا التصدع رؤساء القبائل الكبرى من الظهور . وقد كان اللخميون على النصرانية مثل الغساسنة في الشام^٣ .

ويدل القصص المروي عن أصل لحم ، وانحدارها من صلب ابراهيم ، على قدم هذه القبيلة في نظر أهل الأخبار . ومما جاء في هذا القصص ان أحد بني لحم هو الذي أخرج يوسف من البشر^٤ . وقد لعب اللخميون دوراً هاماً كما رأينا في سياسة البادية وفي مقدرات عرب الشام والعراق .

وفي الاسلام صارت كلمة (لحسم) تطلق على جذام . ويدل ذلك على الصلات الوثيقة التي ربطت بين القبيلتين . ثم قل استعمال كلمة (لحم) ولحمي ، بالقياس الى جذام . حتى صارت لحم تعني في الغالب الأمراء اللخمين .

١ ابن خلدون (٢٥٧/٢) .

٢ حمهرة (٣٩٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٢٥) ، صبح الاعشى (٣٣٤/١ وما بعدها) لسان العرب (١٢/١٦) ، فاح العروس (١٢٦/٤) ، الصحاح (٣٣٣/٢) ، كحالة (١٠١٢/٣) .

٣ Ency , III, P. 11.

٤ Ency., III, P. 11

وشقيق لحم هو غفير بن عديّ والد ثور ، وهو كندة جدّ قبيلة كندة الشهيرة . وولد كندة معاوية بن كندة ، وأشرس ، وأمها هي رملة بنت أسد ابن ربيعة بن نزار^١ . ويمثل هذا النسب صلة كندة بقبائل معدّ . وقد نسب بعض النسابين كندة الى كندة ، وهو ثور بن مرتع بن معاوية بن كندي بن غفير بن عديّ بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان^٢ ، وقد ولد هذا النسب من نسب آخر جعل اسم ولد غفير (كندي) ، ثم ساقوا النسب على هذا النحو الى ان وصلوا الى ثور بن مرتع ، فقالوا : إنه هو كندة وانه شقيق مالك وهو الصدف ، وقيس^٣ .

ومن بطون كندة معاوية بن كندة ، ومنه الملوك بنو الحارث بن معاوية الأصغر بن ثور بن مرتع بن معاوية^٤ أسلاف الشاعر امرؤ القيس ، وقد حكموا القبائل الأخرى من غير كندة ، ومنها قبائل من عدنان .

ومن ولد أشرس : السكون والسكاسك^٥ ، ومن السكون بنو عديّ وبنو سعد وأمها من مذحج اسمها تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رها بن مذحج ،

١ جمهرة (ص ٣٩٩) ، الاكليل (٤/١٠) . (كندة ، واسمه ثور بن غفير بن عدي ابن الحارث بن مرة بن أدد بن شجب بن عريب بن زيد كهلان بن سبأ . هذا قول ابن الكلبي . وقال ابن هشام : كندي ويقال كندة بن ثور بن مرتع . وقال ابن اسحاق : كندة هو ثور بن مرتع . وقال الزبير . ثور بن مرتع بن كندة من ولد معاوية الأصغر) الانباء (ص ١١٤) ، الاشتقاق (ص ٢١٨) ، تاريخ ابن خلدون (٢٥٧/٢) ، تاج العروس (٤٣/١ ، ٢٨٧/٢) ، لسان العرب (٣٨٦/٣) ، صبح الاعشى (٣٢٨/١) ، نهاية الارب (٣٠٣/٢) ، الروض الانف (٣٤٥/٢) ، كحالة (٩٩٨/٣ وما بعدها) .

٢ منتخبات (ص ٩٤) . (كندة بن غفير بن الحارث . من ولد زيد بن كهلان) ، خلاصة الكلام (ص ٥٥) وما بعدها .

٣ الاكليل (٥/١٠) .

٤ ابن خلدون (٢٥٧/٢) .

٥ الانباء (ص ١١٥) . (السكاسك . نسل حمس السكسك بن أشرس بن ثور . وهو كندة بن عمر من بطونها : خداس ، صعب ، ضمام ، والاحدر) ، الاشتقاق (٢٢١) ، تاج العروس (١٤١/٧) ، كحالة (٥٢٧/٢) .

ولذلك عرفوا بـ (تجيب)^١ .

وكان أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل في أيام الرسول من السكون ، وأخوه بشر بن عبد الملك . يذكرون انه ذهب الى الحيرة ، وتعلم بها الخط ، ثم رجع الى مكة فتزوج الضهياء بنت حرب أخت أبي سفيان^٢ .

وأما الصدف ، فهو عقب مالك بن أشرس على رواية . وقد نسب الى كندة ، كما نسب الى حضرموت . ونسبه بعض النسابين الى حمير . فمن نسبه الى كندة ، قال : الصدف هو : عمرو بن مالك بن أشرس بن شبيب بن السكون ابن أشرس بن ثور وهو كندة^٣ ، أو عمرو بن مالك بن أشرس أخي السكون ابن أشرس . ومن نسبه الى حضرموت ، قال : الصدف ، هو الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر^٤ . وقد قال عنه بعض الأخباريين : انه مالك بن الصباح ، أخو أبرهة بن الصباح^٥ . وأبرهة بن الصباح هو عربي في نظر أكثر الأخباريين . ولم يعرفوا انهم يقصدون به أبرهة الحبشي ، صاحب حملة القيل . ومن نسبه الى حمير قال : الصدف هم من نسل : الصدف ابن عمرو بن ديسع بن السبب بن شرحبيل بن الحارث بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر^٦ . أو : الصدف بن سهلة بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن

١ (نجيب . قال الزبير وغيره : نجيب امرأة . وهي ابنة نوبان بن سليم بن رها بن مذحج . نسب اليها ولدها . وولدها عمر بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد . وغير بن عدي ، سوعم خولان ، بجمعهم الحارث بن مرة بن أدد . ولدت نجيب في السكون من كندة ، فهم أشراف السكون) ، الانباه (ص ١١٥) . ابن خلدون (٢٥٧/٢) ، نهاية الارب (٣٠٤/٢) ، الاشتقاق (٢٢١) ، كحالة (٥٢٨/٢) وما بعدها .

٢ جمهرة (ص ٤٠٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢٥٧/٢) .

٣ كحاله (٦٣٧/٢) ، نهاية الارب (٣٠٤/٢) ، لسان العرب (٩٠/١١) .

٤ الجمهرة (ص ٤٣١) .

٥ الانباه (ص ١١٤) ، نهاية الارب (٣٠٤/٢) ، لسان العرب (٩٠/١١) ، كحاله (٦٣٧/٢) .

٦ منتخبات (ص ٥٩) ، (الصدف بن مرثع ، والصدف من حمير هذا قول الهمداني . وعمره نفول . جميع الصدف من حمير) ، الهمداني : مشبهه (ص ٤٠) ، (الصدف بالضم ابن عمرو بن الغوث بن حيدان . الصدف بن ديسع : الصدف بالفصح وهو مالك بن مرثع أخو كندة في قول الهمداني . وفي قول غيره : الصدف من حمير) ، الهمداني : مشبهه (ص ٣٢) .

عبد شمس بن وائل بن الغوث بن هميسع بن حمير^١ .

واختلاف أهل الأنساب ، وأهل الأخبار في نسب الصدف ، دليل على اختلاط هذه القبيلة ببطون كندة وحمير وحضرموت . ودخول بطونها فيها ، وانتسابها إلى البطون التي دخلت فيها ، ويؤدي ذلك في الغالب كما رأينا إلى اختلاط الأنساب .

١ كحالة (٦٣٧/٢) .

الفصل السابع والأربعون

القبائل العدنانية

أوجزت الكلام في الفصل المتقدم على القبائل القحطانية ، أي القبائل التي يرجع نسبها الى اليمن ، وفي هذا الفصل سأحاول الكلام على قبائل القسم الثاني من العرب ، أي قبائل العدنانيين ، مقتصرأ في الغالب على ذكر القبائل الكبرى ، سالكأ ما سلكته في الفصل المتقدم من طريقة أهل الانساب في ترتيب القبائل .

وجدت قبائل هذا الفصل عدنان من سلسلة تنتهي باسما عيل بن ابراهيم الخليل ، جد الاسماعيليين . وهو مثل قحطان شخصية لا نعرف من امرها شيئاً ، ولا من خبرها غير هذا الذي يقصته علينا الاخباريون . وهو على حد قولهم من معاصري الملك بختنصر ملك بابل (٦٠٤ - ٥٦١ ق.م) الذي اوحى الله اليه على لسان (برخيا بن احنيا بن زربابل بن سلتيل) ان يغزو العرب في ايام ابنه معد بن عدنان على حد قول الاخباريين ^١ .

ويزعم الاخباريون انهم وجدوا في كتب (برخيا) هذا نسب عدنان ، وأنه كان معروفاً عند أهل الكتاب وعلمائهم ، مثبتاً في اسفارهم . واستشهدوا على نسبه بشعر لأمية بن ابي الصلت ^٢ . فمن ذرية عدنان اذن ، تفرعت هذه القبائل التي سأحدث عنها في هذا الفصل .

١ الطبرى (٢٩١/١) .

٢ الانباه (ص ٤٧) .

وقد بخل الاخباريون على عدنان ، فلم يمنحوه من الولد غير ولدين ، هما : معد ، والحارث وهو عك^١ . وأمها : منهاد بنت لهم بن جليد بن طسم .^٢ وقد بخلوا عليه بأسماء نسائه ايضاً على ما يظهر ، اذ لم يذكروا لنا اسم زوجة اخرى له . ولا ندري نحن ، وقد عشنا بعدهم بقرون ، سرّ هذا البخل الشنيع . ومن نسل هذين الولدين تفرعت قبائل عدنان ، فأولد معد نزاراً ،^٣ وأضاف بعض النسابين قضاة اليه . وأمها معانة بنت جوشم بن جهلمة بن عامر بن عوف ابن عديّ بن دُب بن جرهم .^٤ وقد اشرت الى اختلاف النسابين في نسب قضاة وارجاع بعضهم اياه الى معدّ وبعضهم الى قحطان ، والى محاولة كل فريق جرهم اليه ، لعوامل سياسية بحثة وان اكتسبت صبغة نسب وأصل وحسب ، فالموضوع هو تكتل وتحزب وتنافس . وقضاة كتلة من القبائل كبيرة ، لذلك كان لاجتذابها الى احد المعسكرين السياسيين المتطاحنين اهمية عظيمة في سياسة ذلك العهد ، لذلك نجد نسابي كل فريق يحاولون بجهدهم اثبات نسب قضاة في فريقهم ، حريصين على نفي نسبتها الى الفريق المعارض ، واخراجها منها ، وتفنيد حجج الخصوم . هذا ابو عبد الله الزيري (١٥٦ - ٢٣٦ هـ) وهو قرشي ، ومعدود من مشاهير النسابين ، يذكر نسب قضاة فيقول : « وقد انتسبت قضاة الى حمير ، فقالوا : قضاة بن مالك بن حمير بن سبأ ، وأمه عكبرة ، امرأة من سبأ ، خلف عليها معد ، فولدت قضاة على فراش معدّ ، وزوّروا في ذلك شعراً فقالوا :

يا ايها الداعي ادعنا وأبشر ولكن قضاة لا تنزّر
قضاة بن مالك بن حمير النسب المعروف غير المنكر

- ١ وقد منحه ابن الكلبي خمسة أولاد . هم . (معد ، والديث ، وأبى ، والعبي ، وعبد . قوله الديث : الحارث ، وهو عك . فولد عك بن الديث : الساهد وصحارا . وهو غالب .) جمهرة النسب (ورقة ٣) .
- ٢ أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزيري : كتاب نسب قرش بن حبيب (ليحي بروفسال) (ص ٥) . (وقد قيل . عك بن الديث بن عدنان) ، جمهره (ص ٨) ، وأمهم مهدد بنت اللهم بن حنبل من حدبس) ، جمهره النسب (ورقة ٣) .
- ٣ طرفه الاصحاب (ص ٥٧) ، سبائك الذهب (ص ٢٠) ، ابن خلدون (٢ / ٣٠٠) .
- ٤ نسب فريش (ص ٥) .

قال : وأشعار قضاة في الجاهلية ، وبعد الجاهلية ، تدلّ على ان نسبهم في معدّ ١ .

وجعل ابن حزم لمعدّ خمسة اولاد ، هم : نزار بن معدّ ، وإياد بن معدّ ، وقنص بن معدّ ، وعبيد الرماح بن معدّ ، والصحاح بن معدّ . وذكر ان من الاخباريين من يزعم ان ملوك الحيرة من الماذرة هم من ولد قنص ، وأن عبيد الرماح دخلوا في بني مالك بن كنانة ، وأن الصحاح بن معدّ هو الذي اغار على بني اسرائيل في اربعين من تهامة ٢ . ونسب ابن الكلبي لمعدّ جملة اولاد آخرين ٣ .

ويذكر بعض الاخباريين ان الامارة بعد معدّ على العرب كانت الى قنص بعد ابيه ، فأراد اخراج اخيه نزار من الحرم ، فأخرجه اهل مكة ، وقدّموا عليه نزاراً ٤ .

وقد ولد لنزار مضر وإياد ، وأمهما ، خبيّة بنت عك بن عدنان ، وربيعة وأنمار ، وأمهما حُدالة بنت وعلان بن جوشم بن جهلمة بن عامر بن عوف بن عديّ بن دُبّ بن جرهم ، فهما ليسا صريحيين في نظر النسابين كمضر وإياد ، لأنهما ليسا مثلها من أب عدنان وأُم عدنانية . ومن النسابين من قال : ان (ربيعة ومضر الصريحيان من ولد اسماعيل) ٥ ، فلم يجعل اياداً بذلك من العدنانيين الصريحيين .

وفي رواية الاخباريين ان نزاراً حينما شعر بدنوّ اجله قسم ما عنده على اولاده ، فجعل لربيعة الفرس ، ولمضر القبة الحمراء ، ولأنمار الحمار ، ولإياد الحلمة والعصا . ثم تخاصموا بعد ذلك ، واتفقوا على التحكيم ، فحكم بينهما أفعى نجران ٦ .

- ١ نسب قريش (ص ٥) .
- ٢ جمهرة (ص ٨) .
- ٣ جمهرة النسب (ورقة ٣ وما بعدها) .
- ٤ ابن خلدون (٣٠٠/٢) .
- ٥ نسب قريش (ص ٦) ، (ولد نزار بن معدّ مضر وإيادا ، وأمهما سودة بنت عك ابن الديث بن عدنان . وربيعة ، وأنمارا ، وأمهما الحُدالة بنت وعلان بن جوشم بن جهلمة بن عمرو بن هلبنية بن دوة) ، جمهرة النسب (ورقة ٤) ، سبائك الذهب (ص ٢٠) .
- ٦ ابن خلدون (٣٠٠/٢) ، نهاية الارب (٣١٠/٢) .

ولم يجزم ابن حزم في نسبة انمار نزار ، فبعد أن ذكر مضر وريعة واياً ،
 وهم ولد نزار ، قال : (وقيل : أنمار) ، تم قال : (وذكروا أن خثعم
 وبجيلة من ولد أنمار)^١ . أما ابو عبدالله المصعب بن عبدالله مصعب الزبيري ،
 فأثبت نسب أنمار في نزار ، وذكر ان من انمار بجيلة (انتسبوا الى اليمن ، الا
 من كان منهم بالشام والمغرب ، فانهم على نسبهم الى انمار بن نزار)^٢ .

ويظهر ان نسابي خثعم وبجيلة يأبون انتسابهم الى انمار ، اذ ذكروا ذلك ،
 ويرون ان اراش بن عمرو تزوج ابنة انمار ، وهي سلامة ، فولدت له ولداً
 سمي انمار بن اراش . ويذكر النسابون انه لم يشتهر احد من ولد انمار^٣ . ومعنى
 هذا ان هذه القبيلة ، كان قد ضعف حالها ودابت في غيرها ، لذلك لم يذكر
 لها النسابون شيئاً من البطون .

وقد نسب (الزبيري) خثعماً الى اقبل (اقل) بن انمار بن نزار ، وذكر
 ان خثعماً هم اسم جبل تحالفوا عليه ، (فنسبوا اليه ، وهم بالسراة على نسبهم
 الى انمار بن نزار . واذا كانت بين اليمن فيما هنالك وبين مضر حرب ، كانت
 خثعم مع اليمن على مضر) . كذلك نسب خزيمه ، وهو يشكر الى انمار^٤ .

وكان اياد على رواية الاخباريين اكبر اولاد معد^٥ ، واليه يرجع نسب كل
 ايادي . وأولد اياد زهراً ودعماً ونمارة ، ومن نسلهم تفرعت سائر اياد^٦ .

وقد ارتحلت اياد عن منازلها الأصلية ، بسبب الحروب ، فذهب قسم كبير
 منها الى العراق حيث نزلوا في الانبار وفي عين أباغ وسنداد وتكريت وبطن اياد
 وباعجة وأماكن أخرى ، وذهب قسم آخر منهم الى البحرين حيث انضموا الى
 قضاة ، كما سكن قسم منهم في بلاد الشام^٧ .

-
- | | |
|---|---|
| ١ | جمهرة (ص ٩) . |
| ٢ | نسب قريش (ص ٧) . |
| ٣ | سبائك الذهب (ص ٢٠) . |
| ٤ | نسب قريش (ص ٧) . |
| ٥ | خلاصه (ص ٥٨) . |
| ٦ | جمهره (ص ٣٠٨) ، بهامه الارب (٣١٠ / ٢) (طبعة الكتب المصرية) ، صبح الأعشى
(٣٣٦ / ١) (طبعة دار الكتب المصرية) . |
| ٧ | الآغاني (٩٣ / ١٥) ، Ency., II, P. 585. |

ويروي الاخباريون ان اباداً الذين كانوا اختاروا الاقامة في البحرين وهجر بعد تركهم مواطنهم القديمة في تهامة اضطروا الى ترك مواطنهم الثانية والهجرة منها الى العراق على اثر قدوم بني عبيد القيس وشن بن اقصى ومن معهم مهاجرين من منازلهم الى هجر والبحرين ، فان هؤلاء القادمين الجدد لما بلغوا هجر والبحرين ضاموا من وجلوهم بها من اباد والازد ، ثم اجلت عبد القيس اباداً عن تلك البلاد ، فساروا نحو العراق ، وتبعتهم شن بن اقصى ، فعطفت عليهم اباد واقتلوا معهم حتى كاد القوم يتفانون ، وقد بادت بسبب ذلك قبائل من شن ^١ .

اما منازل اباد القديمة ، فكانت تهامة مع ابناء انمار ما بين حد ارض مضر الى حد نجران وما والاها وصاقبها من البلاد ^٢ . ثم فارقت انمار اخوتها ربيعة ومضر واباداً ، فكثرت اباد وزاد عددها وكثرت قبائلها ، فأخذت تعتدي على ابناء ربيعة ومضر ، ف وقعت بينها وبينهم من جراء بغيتها هذا حروب ، واجتمعت مضر وربيعة عليها ، ثم تحاربوا في موضع من ديارهم يسمى (خاتقاً) وهو لكنانة ، فغلبت اباد ، وظننت من منازلها ، وافترقت عن اخوتها ، وتفرقت على رأي بعض الاخباريين ثلاث فرق : (فرقة مع اسد بن خزيمه بن ذي طوى ، وفرقة لحقت بعين اباغ . وأقبل الجمهور حتى نزلوا بناحية سنداد . ثم اتفقوا ، فكانوا يعبدون ذا الكعبات : بيتا بسنداد - وعبدتها بكر بن وائل بعدهم - فانتشروا فيما بين سنداد وكاظمة ، والى بارق والخورنق وما يليها ، واستطالوا على الفرات ، حتى خالطوا ارض الجزيرة ، فكان لهم موضع دير الأغور ودير الجماجم ودير مُرّة ، وكثر من بعين اباغ منهم ، حتى صاروا كالليل كثرة ، وبقيت هناك تعير على من يليها من أهل البوادي ، وتغزو مع ملوك آل نصر المغازي) ^٣ ، وحالها حسن معهم ومع الأكاسرة ، حتى حدث حادث افسد ما بينهم وبين الفرس ، يرجعه الاخباريون الى اعتداء نفر من اباد على نسوة من اشراف الأعاجم ، وذلك في ايام (انو شروان بن قباد) او (كسرى بن هرمز) ، فسار اليهم الفرس ، فانحازت اباد الى الفرات ، وجعلوا يعبرون ابلهم بالقراير ، ويجوزون الفرات . فتبعتهم الأعاجم ، وكان على اباد يومئذ (بياضة

- ١ البكري (٨٠/١) وما بعدها .
- ٢ البكري (١٨/١) .
- ٣ البكري (٦٩/١) وما بعدها .

ابن رباح بن طارق الايادي) . فلما انتهى الناس ، ارنجرت (هند بنت بياضة)
شعراً مشهوراً معروفاً ، اوله :

نحن بنات طارق نمشي على المقارق^١

ثم هجمت اباد على الفرس ، وهزمتها آخر النهار ، وقتلت الجيش الذي كان
يتعقبها ، فلم يفلت منه الا الشريد ، وجمعوا جثثهم ، فجعلوها كالكوم ،
فسمي ذلك الموضع دير الجاهم^٢ .

هذه رواية من عدة روايات وردت عن الحرب التي وقعت بين الفرس واباد ،
وهي الرواية الوحيدة التي يرد فيها خبر انتصار اباد على الفرس . اما الروايات
الآخري ، فتقول بانتصار الفرس على اباد . فرواية ابي علي القالي مثلاً عن
رجاله تنص على غزو انوشروان لاياذ على اثر اعتداء نفر من اباد على نسوة
الاعاجم ، وتعقيبه لهم ، وقتله خلقاً منهم ، حتى اضطر بعضهم الى التزول
بتكريت ، وبعضهم ارض الموصل والجزيرة ، عندئذ بعث انوشروان ناساً من
بكر بن وائل مع الفرس ، فنفوههم عن تكريت والموصل الى قرية يقال لها
الحرجية . ثم اتقوا بهم ثانية في هذا الموضع ، فهزمهم الفرس ، وقتلت منهم
كثيراً ، ودفنت اجسادهم بها في مقبرة ذكر صاحب الرواية انها كانت معروفة
بها الى يومه . وسارت البقية حتى نزلت بقرى من ارض الروم ، وسار بعضهم
الى حمص وأطراف الشام . وكان الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيان
فيمن سار اليهم من بكر بن وائل مع الأعاجم ، فأجار ناساً من اباد ، كان
فيهم : ابو دواد الايادي^٣ .

وفي رواية أخرى ان اباداً كانت مقربة عند الفرس ، حتى ان كسرى بن
هرمز كان قد اتخذ جماعة منهم امتازوا بحسن الرماية ، فجعلهم رماة عنده ،
وجعلهم مراصد على الطريق فيما بينه وبين الفرات لئلا يعبره احد عليهم ، الى
ان حدثت حادثة الاعتداء على النسوة ، فعضب كسرى على اباد ، وأرسل جيشاً

١ وهو من الرجز القديم ، نسب الى ساء أخربات غير هند بنت بياضة ، البكري

(٧٠/١ حاشيه ٢) ، شرح الحماسة للسريزي (٣٥/٣) .

٢ البكري (٧٠/١) .

٣ (جار كجار أبي داود) ، البكري (٧١/١) .

عليهم ، لحقهم وقد عبروا دجلة ، فجثا الاياديون على الركب ، ورموا الفرس رشقاً واحداً . عندئذ امر كسرى بارسال الخيل عليهم ، وأمر (لقيط بن يعمر ابن خارجة بن عَوْبَثَان الايادي) ، وكان كاتبه بالعربية وترجمانه ، وكان محبوباً عنده ان يكتب الى من كان من شداد قومه ، فيما بينهم وبين الجزيرة ، ان يقبلوا الى قومهم ، فيجتمعوا ، ليغير على اباد كلهم ، فيقتلهم . فكتب لقيط الى قومه ينذرهم كسرى ، ويحذرهم اياه في جملة قصائد رواها الاخباريون ^١ ، فهربت اباد وأمر كسرى الخيل ، فأحدثت بهم وبالذين بقوا من خلف الفرات . ثم وضعوا فيهم السيوف ، ومن غرق منهم بالماء اكثر ممن قتل بالسيف . ولما بلغ كسرى شعر لقيط قتله ^٢ .

اما من هرب من اباد الى الشام ، ومن كان قد هاجر اليها ، فقد دان للغساسنة ، وتنصر كأكثر عرب الروم ، ولحق اكثرهم بلاد الروم فيمن دخلها مع جبلة بن الايهم من غسان وقضاة ولحم وجذام ^٣ .

ولدينا رواية اخرى في اسباب تسمية موضع دير الجماجم بهذا الاسم ، تشير الى حدوث معركة بين الفرس واباد ، وقتل اباد لقوم من الفرس ، ولكنها حادثة اخرى غير الحادثة المتقدمة على ما يظهر ، يرويها ابن الكلبي ، خلاصتها : ان رجلاً من اباد اسمه بلاد الرماح او بلال الرماح ، وهو انبت بن محرز الايادي ، قتل قوماً من الفرس ، ونصب رؤوسهم عند الدير ، فسمي دير الجماجم . ولم تذكر هذه الرواية زمن حدوث هذا القتل ، وهل كان قبل اجلاء اباد عن العراق او بعده كما جاء في الروايات السابقة ؟ وهل كان هذا انتقاماً من الفرس بعد ما فعلوه بإياد ؟ غير ان هناك رواية اخرى يرويها ابن الكلبي ايضاً تشير بوضوح الى ان فتك اباد بالفرس في موضع دير الجماجم انما كان بعد نفي كسرى اياهم الى الشام وفتكه بهم ، اي ان هذا الفتك كان عملاً انتقامياً من الفرس ، لما فعلوه بإياد . يقول ابن الكلبي : (كان كسرى قد قتل اباداً ، ونفاهم الى الشام ، فأقبلت ألف فارس منهم حتى نزلوا السواد ، فجاء رجل منهم وأخبر كسرى

١ منها :

سلام في الصحيفة من لقيط على من بالجزيرة من اباد

البكري (٧٢/١) وما بعدها .

٢ البكري (٧٣/١) .

٣ البكري (٧٥/١) ، الاعاني (٢٣/٢) وما بعدها ، كحالة (٥٣/١) .

بخبرهم ، فأنفذ اليهم مقدار ألف وأربع مئة فارس ليقتلوهم ، فقال لهم ذلك الرجل الواشي : انزلوا قريباً حتى أعلم لكم علمهم . فرجع الى قومه وأخبرهم ، فأقبلوا حتى وقعوا بالأساورة ، فقتلوهم عن آخرهم ، وجعلوا جماجمهم قبة . وبلغ كسرى خبرهم ، فخرج في اهلهم ليكون . فلما رآهم ، اغتم لهم ، وأمر ان يني عايهم دير سمي دير الجماجم)^١ . وهذه الرواية عن فتك اباد بالفرس ، هي اقرب الى المنطق من الرواية الاولى التي ذكرتها عن النزاع بين كسرى وايااد .

على ان هناك اخباراً اخرى ذكرها الاخباريون في تعليل اسم موضع (دير الجماجم) لا تشير اشارةً ما الى هذا الاصطدام بين الفرس وايااد ، انما اشار بعضها الى حرب وقعت بين ايااد وبين بني نهد في هذا المكان ، قتل فيها خلق من ايااد وقضاة ، ودفنوا هناك ، فسمي الموضع بهذا الاسم ، كما نسبت الحرب الى قبائل اخرى لم يرد بينها اسم ايااد^٢ .

وفي رواية الاخباريين عن فتك كسرى بايااد ، ونفيه اياهم الى الشام ، مبالغة كبيرة ولا شك . فاننا نجدهم انفسهم يذكرون ايااداً مع الفرس تحارب في معركة (ذي قار) ، ثم يذكرون انها اتفقت سراً مع بكر على ان تخذل الفرس يوم اللقاء . وقد خذلتهم بالفعل ، اذ ولت منهزمة ساعة اشتداد القتال فانهمزمت الفرس^٣ . ثم تراهم يذكرون ايااداً في اخبار الفتوح ، فيروون انها حاربت تحت امرة (بهران ابن بهران جوبين) المسلمين ، اي انها كانت تحارب مع الفرس في العراق^٤ . وأن صلاتهم كانت حسنة بهم . وهذا يناقض ما زعموه عن نفي الفرس لهم عن العراق . ولم تكن ايااد من القبائل العربية النصرانية التي مالت الى تأييد المسلمين ، ففي الفتوحات الاسلامية للعراق كانوا مع الفرس على المسلمين وإن ساعدتهم قسم منهم بالاتفاق معهم سراً ، كما حدث في فتح تكريت . وفي الشام انضم قسم منهم الى (هرقل) (Heraclius) في محاولاته اليائسة التي قام بها للاحتفاظ ببلاد الشام ولاستخلاص ما استولى عليه المسلمون من تلك البقاع . ولما حلت الهزائم بالروم ، فضل قسم منهم الهجرة الى بلاد الروم والاقامة فيها . وقد كان ذلك عن عاطفة دينية ولا شك .^٥ غير ان هذا لا يعني ان جمهرة ايااد كانت كلها مع الروم .

١ البلدان (١٣١/٣) .

٢ البلدان (١٣١/٤) .

٣ الطبري (٢٥٣/٢) وما بعدها .

٤ Ency., II, P. 566.

٥ Ency., II, P. 566.

ذكرت ان من المواضع التي كانت لإياد في العراق ، موضع سنداد . ويفهم من روايات الأخباريين عنه ، انه قصر ونهر ومنازل نزلت بها إياد حين مجيئها الى العراق ، وانه كان في الأصل اسم حاكم فارسي كان قد عين على هذه المنطقة ، فأقام بها مدة طويلة ، وبنى أبنية كثيرة من جملتها القصر الذي ذكر في شعر ينسب الى الأسود بن يعفر النهشلي ، جاء فيه :

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي اشرفات من سنداد

وانه أيضاً اسم قصر كانت العرب تحجج اليه^١ ، هو الذي قصده الهمداني بقوله : (وكانوا يعبدون بيتاً يسمى ذا الكعبات ، والكعبات حروف الترابيع)^٢ . ويظهر من روايات الأخباريين عن هذا القصر انه كان من القصور الضخمة المعروفة . يظهر انه كان مربع الشكل ، أو ذا مربعات ولذلك عرف بـ (الكعبات) ، وبـ (ذي الكعبات) . وذكر أيضاً انه كان لربيعه ، وانها كانت تطوف حوله حيث قالوا : (الكعبات ، بيت كان لربيعه ، كانوا يطوفون به)^٣ .

ويظهر من أقوال الأخباريين وجود عدة بيوت كانت على هيئة كعبات في جزيرة العرب لعبادة الأصنام ، تحجج القبائل اليها وتطوف حولها ، سألتحدث عنها في الجزء الخاص بالحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، ومنها بيت كان بـ (أحد) على رواية ، أو على مقربة من شداد (سنداد) على رواية ابن دريد ، أو على شاطئ الفرات على رواية تنسب الى ابن الكلبي عرف بـ (السعيدة) كانت ربيعة تحججه في الجاهلية^٤ ، وأظنهم يقصدون هذا البيت بيت سنداد .

أما مضر^٥ ، فولد الياس والناس ، ويعرف أيضاً بعيّلان ، وأمهما الخنفاء

- ١ البلدان (١٤٩/٥) وما بعدها ، (والبيت ذي الكعبات من سنداد) ، اللسان (٢١٣/٢) . تاج العروس (٤٥٧/١) ، الأصنام (ص ٤٥) .
- ٢ الصفة (ص ١٧١) (طبعة القاهرة ١٩٥٣ ، بعناية محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي) .
- ٣ تاج العروس (٤٥٧/١) ، اللسان (٢١٣/٢) ، (وكان لربيعه بيت يطوفون به ، يسمونه الكعبات وقيل ذا الكعبات) .
- ٤ تاج العروس (٣٧٨/٢) ، لسان العرب (١٩٩/٤) .
- ٥ تاج العروس (٥٤٤/٤) ، جمهرة (٩) ، صبح الأعشى (٣٣٩/١) ، منتخبات (ص ٣٥ ، ٥٥) .

ابنة إِيَاد بن معد^١ ، وسماها ابن حزم (أسمى بنت سود بن أسلم بن الحارث ابن قضاة)^٢ ، فهي قضاة على هذا الرأي . وجعل بعض النسابين أم الياس امرأة دعوها الرباب بنت إِيَاد المعدية^٣ ، فهي إذن على هذه النسبة من معد .

ومضر هو شعب في نظر أهل الأنساب ، والشعب في عرفهم أعظم من القبيلة^٤ ، فهو أكبر وحدة اجتماعية سياسية في اصطلاح النسابين . وهو من أعظم شعوب مجموعة عدنان ، ولم يعثر على هذا الاسم في الكتابات الجاهلية ، ولا في مؤلفات الكلاسيكيين . أما اسم معد ، فقد أشير إليه كما ذكرت سابقاً في بعض مؤلفات الكلاسيكيين . وأما اسم نزار فقد ورد في نص النماة الذي يرجع عهده الى سنة ٣٢٨ للميلاد . وقد عرف مضر بـ (مصر الحمراء) عند النسابين ، ويقولون انه عرف بذلك (لأن أباه أوصى له من ماله بالذهب) . ويظهر انها كانت قبيلة عظيمة عند ظهور الاسلام ، ثم اندمجت في غيرها من قبائل هذه المجموعة : مجموعة عدنان . حتى تغلبت على مضر تسمية قيس ، أي تسمية أبناء قيس عيلان (قيس بن عيلان) في الاسلام ، فصارت (قيس) تؤدي معنى العدنانية ، واستعملت في مقابل عرب اليمن قاطبة ، فيقال : قيس ويمن^٥ .

وولد لألياس مدركة واسمه عامر ، وعمرو وهو طابخة ، وقعة واسمه عمير ، وأمهم خندف ، واسمها ليلي بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة . وقد نسبوا الى أمهم فقيل لهم خندف^٦ . وقد حصر بعض النسابين نسل خندف في مدركة وطابخة ، ولذلك حصروا قبائل مضر في أصليين خندف وقيس عيلان^٧ .

- ١ نسب قريش (ص ٧) ، سبائك الذهب (ص ٢١) .
- ٢ جمهرة (ص ٩) .
- ٣ نهاية الأرب (٢/٣٢٥) .
- ٤ منتخبات (ص ٥٥) .
- ٥ صبح الأعشى (١/٣٢٩) ، وهناك حملة تعاسر لـ (مصر الحمراء) ، نهاية الأرب (٢/٣١٠) .
- ٦ (خندف : فعل ، بكسر الهمزة واللام) منتخبات (ص ٥٥) ، جمهرة النسب (ورقة ٤) ، وتجد في هذه الورقة تفسير ابن الكلبي على طريقته المألوفة في وضع القصص عن معنى مدركة وطابخة وقمعه وخندف ، نهاية الأرب (٢/٣٣٠) ، اللسان (خندف) .
- ٧ نسب قريش (ص ٧) ، جمهرة (ص ٩) ، طرفه الأصحاب (ص ٥٧) ، ناج العروس (٣/٥٤٤) ، صبح الأعشى (١/٣٣٩) ، كحاله (٣/١١٠٧) ، منتخبات (ص ٥٥) =

أما مدركة^١ ، فولد له خزيمه ؛ وهذيل . وأمها سلمى بنت أسد بن ربيعة ابن نزار^٢ ، ونسب بعضهم له ولداً آخر هو غالب^٣ . وولد خزيمه كنانة ، وأمه عوانة بنت فيس بن عيلان^٤ ، وأسداً ، وأسدة ، والههون ، وأمههم برّة بنت مرّ بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن مضر بن نزار ، وهي أخت تميم ابن مرّ^٥ . وهذيل قبيلة متسعة ، لها بطون كثيرة^٦ .

وليس السابون على اتفاق بينهم في تعيين أولاد أسدة ، فجعلهم بعضهم جذاماً ونحماً وعاملة ، ونسب هؤلاء في اليمن كما أشرت الى ذلك في أنساب قبائل قحطان على رأي أكثر النسابين^٧ .

وأما نسل الهون^٨ فهم : عضل^٩ ، وديش^{١٠} ، ويعرفون

= فال العجاج :

لا فـدح إن لم نور بارا بهجر ذات سنني يوقدها من افتحر
من شاهد الأمصار من حيي مضر

بـعني فيسا وخندف • وقال جرير :

إذا أخذت فبس علبك وخندف ناقطارها لم ندر من حيث تسرح
المبرد (ص ١ وما بعدها) •

- ١ صبح الأعشى (٣٤٨/١) ، ابن خلدون (٣١٩/٢) •
- ٢ نسب قرش (ص ٨) ، وهي (سلمى بنت أسلم بن الحاف بن فضاة) ، في جمهرة النسب (ورقة ٤) •
- ٣ جمهرة (ص ٩) ، وأضاف ابن الكلبي ، اليهم (عالب) و (سعدا) و (فيسا) ، وأمههم (ليلي بنت السيد ؟ بن الحاف بن فضاة) ، جمهره النسب (ورقة ٤) •
- ٤ (وبال : هـد بنت عمرو بن فيس عيلان) ، حمهرة النسب (ورقة ٤) •
- ٥ نسب قرش (ص ٨) ، حمهرة (ص ٩) ، (وعبد الله) ، جمهرة النسب (ورقة ٣) •
- ٦ صبح الأعشى (٣٤٩/١) •
- ٧ نسب قرش (ص ٨ وما بعدها) • (وأسدة • فجدام ، نسب الى أسدة) ، جمهرة (ص ٩) جمهرة النسب (ورقة ٤) •
- ٨ (الهون بن خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر) ، نهاية الأرب (٣٩٤/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٩/١) ، لسان (٢٣١/١٧) ، كحالة (١٢٣٥/٣) ، أبو الفداء (١٠٧/١) •
- ٩ صبح الأعشى (٣٤٩/١) ، لسان العرب (٤٨٠/١٣) ، الصحاح للجوهري (٢١٥/٢) ، كحالة (٧٨٧/٢) •
- ١٠ (الديش بن مليح بن الهون) ، صبح الأعشى (٣٤٩/١) ، ناج العروس (٣١٦/٧) ، (الديش بن الهون • وهو أخو عضل • ويقال لهاتين العبلتين ، وهما : عضل والديش العارة) أبو الفداء (١٠٧/١) •

بالقارة^١ ، وهم بنو بيشع بن مليح بن الهون^٢ . على حدّ قول بعض النسابين وبطنان من خزاعة هما الحيا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبيد مناة بن كنانة . ويعرفون على حدّ قولهم بالأحابيش : أحابيش قريش . لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبيد مناة بن كنانة على بكر بن عبيد مناة ، فهم حلفاء قريش^٣ .

وأولاد كنانة ، هم : النضر ، وهو أكبر أولاده وبه يكنى ، ومالك (مالكا) ، وملكان ، ومليك وغزوان ، وعمرو ، وعامر ، وأمهم برّة بنت مرّأخت تميم بن مرّ^٤ ، وهي نفسها زوج خزيمة والد كنانة ، تزوجها كنانة بعد وفاة أبيه . وكانت العادة في الجاهلية ان يتزوج الولد البكر زوجة أبيه بعد وفاته إذا لم تكن أمه ، وان يرث خيار ماله ، وهو زواج معه الاسلام . ويعرف هذا الزواج بزواج المقت^٥ .

وكانت لكنانة زوج أخرى ، هي هالة بنت سويد بن الغطريف ، ويقصدون بالغطريف حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن النبت ، وقد ولدت له 'حدال وسعداً وعوفاً ومجربة . وقد ترك هؤلاء الأولاد ذرية ، فكان من نسل حدّان جماعة أقامت بعدن أبين ، وكان من نسل مجربة بنو ساعدة^٦ .

أما زوج كنانة الثالثة ، فكانت الذفراء : واسمها فكيهة . وهي بنت هني ابن بليّ بن عمرو بن الحاف بن قصاعة . وقد ولدت له : عبد مائة^٧ .

- ١ جمهرة (ص ١٧٩) ، ناج العروس (٣/٥١٠) ، لسان العرب (٦/٤٣٦) ، الاباء (ص ٧٣) ، كحالة (٣/٩٣٥) .
- ٢ جمهرة (١٧٩) .
- ٣ (فأما الهون بن خزيمة ، فهم عضل ، ودش ، والقارة ، بنو ستع بن الهون ، وهم ، وبطنان من خزاعة يقال لها الحيا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبد مائة بن كنانة ، وهم كلهم يقال لهم . الأحابيش أحابيش قرش) ، نسب فرس (ص ٩) .
- ٤ نسب قرش (ص ١٠) ، (وبنو عبد مائة) ، الجمهرة (ص ٤٣٤) ، وأضاف ابن الكلبي اليهم أولاداً آخرين ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
- ٥ نسب قرش (ص ١٠) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) ، بلو الأرب (٢/٥٢ وما بعدها) .
- ٦ نسب قريش (ص ١٠) .
- ٧ نسب قرش (ص ١٠) .

وولد النضر ، وهو قريش على بعض الآراء^١ مالكا على رأي أكثر النسابين ، وأضاف بعضهم اليه ولدين آخرين ، هما : يخلد الصلت ، وأمهم عكرشة بنت علوان بن عمرو بن قيس ابن عيلان^٢ . ومن يخلد قريش بن بدر بن يخلد بن النضر ، وكان دليل قريش في التجارة في الجاهلية ، وبه سميت قريش على رأي بعض النسابين ، وباسم بدر والده دعي بدر^٣ ، وإلى الصلت بن النضر ينسب بنو مليح^٤ (ملح)^٥ ، على رأي ، بينما يعدون من خزاعة في رأي آخر^٦ .

أما ولد مالك ، فهو فهر ، وهو قريش ، وأمهم جندلة بنت الحارث بن جندل بن عامر بن سعد بن الحارث بن عضاض بن جرهم^٧ ، فهي جرهمية على هذا النسب . وبه سميت قريش قريشاً على رأي أكثرية أهل الأخبار . ولهذا يقال لهم بنو فهر^٨ . وللأخباريين روايات عديدة في معنى قريش^٩ .

وولد فهر غالباً والحارث ومحارباً وجندلة ، وأمهم ليلى بنت الحارث بن تميم ابن سعد بن هذيل بن مدركة^{١٠} ، وولد غالب بن فهر لؤياً وتميماً وهو الأدرم ، وأمهما عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة^{١١} ، وقيس بن غالب وقد انقرض نسله^{١٢} .

- ١ المبرد (ص ٢) .
- ٢ نسب قريش (ص ١١) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
- ٣ الجمهرة (ص ١٠) ، البلدان (٨٨/٢) ، البكري (٢٣١/١) . (تحقيق السقا) .
- ٤ نسب قريش (ص ١١) .
- ٥ الجمهرة (ص ١١) .
- ٦ الجمهرة (ص ١١) ، نسب قريش (ص ١١) .
- ٧ نسب قريش (ص ٢٢) ، الجمهرة (ص ١١) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
- ٨ قال الحطيفة :
- وإن الذي أعطيتهم أو معنهم لكالتمر أو أحلى لحلف بني فهر
- المبرد (ص ٢) .
- ٩ راجع كتب اللغة مادة (قريش) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، القاموس (٢٨٤/٢) ، الصحاح (٤٩٥/١) .
- ١٠ نسب قريش (ص ١٢ وما بعدها) ، وأضاف ابن الكلبي أولادا آخرين اليه ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
- ١١ نسب قريش (ص ١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٥) .
- ١٢ جمهرة (ص ١١) .

ومن ولد لؤي كعب وعامر ، وهما البطاح ، وسامة ومن نسله بنو ناجية ، وخزيمة وهم عائلة ، وقد نزلوا في بني أبي ربيعة من شيبان ، والحارث وهو جشم ، وهم في همدان ، وأمهم مارية بنت كعب بن القين بن جسر بن شيع الله ابن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وسعد ابن لؤي وهم بنانة ، وقد نزلوا في بني شيبان ، وأمه يسرة بنت غالب بن الهون بن خزيمة^١ ، وعوف بن لؤي وقد دخل نسله في بني ذبيان بن غطفان ابن قيس عيلان ، وهم بنو مرة بن عوف بن ذبيان رهط الحارث بن ظالم المري . وقد دخل أكثر هؤلاء الأبناء في غيرهم . ولذلك أدخلهم النسابة فيمن دخلوا فيهم ، وعدوا نسل كعب وعامر الصرحاء من ولد لؤي وحده^٢ .

وولد كعب مرة^٣ ، وهصيصاً^٤ ، وأمها وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر ، وعديّ وأمّه حبيبة بنت بجالة بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر^٥ ، وولد مرة كلاباً ، وأمّه هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة ، وسرير والد هند هو أول من نسا الشهور ، ثم نساها القلمس ابن أخيه من بعده واسمه عديّ بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة . ثم صار النسيء في ولده ، وكان آخرهم جنادة بن عوف . وولد أيضاً تيم بن مرة ويقظة بن مرة ، وأمها بنت سعد ، وهو بارق بن حارثة بن عمرو بن عامر . جد قبيلة بازق^٦ ، ومن عديّ بن كعب عمر بن الخطاب وريد^٧ .

أما كلاب ، فكان له من الولد قصيّ وزهرة . ومن نسل قصي : عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى^٨ . وقد تحدثت سابقاً عن قصيّ منظم قريش .

- ١ سب قريش (ص ١٣) ، ويجد في هذا الكتاب بعض الاختلاف عما ورد في جمهرة النسب (ورقة ٥ وما بعدها) .
- ٢ جمهرة (ص ١١) .
- ٣ ابن خلدون (٣٢٦/٢) ، صبح الأعشى (٣٥٤/١) ، العاموس (١٣٣/٢) ، لسان العرب (٣٢٦/٢) ، تاج العروس (٥٣٩/٣) .
- ٤ نهاية الأرب (٣٥٥/٢) ، كحالة (١٢١٩/٣) .
- ٥ نسب قريش (ص ١٣) ، الجمهرة (ص ١٢ وما بعدها) ، جمهرة النسب (ورقة ٦) .
- ٦ نسب قريش (ص ١٣ وما بعدها) .
- ٧ المبرد (ص ٣) .
- ٨ نسب قريش (ص ١٤) ، الجمهرة (ص ١٢) ، جمهرة النسب (ورقة ٦) .

فولد عبد مناف بن قصي^١ : عمراً وهو هاشم ، والمطلب وهو عبد شمس ونوفلاً^٢ . وأم هاشم وعبد شمس والمطلب عاتكة بنت مرة بن هلال بن قالح بن ذكوان السلمية ، وأم نوفل واقدة من بني مازن بن صعصعة السلمية ، خلف عليها هاشم بن عبد مناف بعد أبيه ، فولدت له ابنتين خالدة وضعينة^٣ .

ومن بطون كلاب بنو رهرة^٤ ، ومن بطون تيم^٥ بن مرة أبو بكر الصديق ، وعبد الله بن جدعان سيد قريش في الجاهلية ، ومن بطون يقظة بن مرة بنو مخزوم ، ومنهم خالد بن الوليد^٦ .

ومن نسل هصيص بن كعب ، بنو جمح . وهم ولد جمح بن عمرو بن هصيص^٧ ، وبو سهم بن عمرو بن هصيص^٨ . ومن بني سهم ، عمرو ابن العاص^٩ .

وقد وقعت حرب بين بني جمح وبني محارب بن فهر في موضع عرف بردم بني جمح بمكة ، قتلت فيه بنو محارب بني جمح أشد القتل ، فعرف ذلك الموضع بالرمد ، بما ردم عليه من القتلى يومئذ^{١٠} . وكان أمية بن خلف على بني جمح في حرب الفجار^{١١} .

-
- ١ الجمهرة (ص ١٢) .
 - ٢ (بنو رهرة بن كلاب) ، تاج العروس (٣/٢٤٨) ، أبو العداء (١/١١٤) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٧) ، حمهرة (١١٩ وما بعدها) .
 - ٣ (نيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٧) ، أبو العداء (١/١١٣) ، صبح الأعشى (١/٣٥٤) ، كحالة (١/١٣٨) .
 - ٤ المبرد (ص ٣) ، الاشتقاق (ص ٦١ ، ٨٨) ، (بنو بفظه بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٦) ، ابن خلدون (٢/٣٢٦) ، أبو العداء (١/١١٣) ، صبح الأعشى (١/٣٥٤ ، ٣٥٥) ، (بنو محروم بن بظظة) حمهرة (١٣١ وما بعدها) ، لسان العرب (١٥/٦٨) ، الاشتقاق (٦٠) ، تاج العروس (٦/٢٦٣) ، (٨/٢٧٦) ، الاباء (١٧) ، كحالة (٣/١٠٥٨) .
 - ٥ الجمهرة (ص ١٥٠) ، تاج العروس (٢/١٣٣) ، صبح الأعشى (١/٣٥٣) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٦) ، الانباء (ص ٧١) ، كحالة (١/٢٠٢ وما بعدها) .
 - ٦ الجمهرة (ص ١٥٤ وما بعدها) .
 - ٧ المبرد (ص ٣) ، أبو العداء (١/١١٣) ، العاموس (٤/١٣٤) ، الاباء (٧١) ، نهاية الأرب (٢/٣٥٦) ، تاج العروس (٨/٣٥٢) ، كحالة (٢/٥٦٠) .
 - ٨ البكري (٢/٦٤٩) (تحقيق السفا) ، أبو العداء (١/١١٣) .
 - ٩ الأغاني (١٩/٧٧) .

أما نسل ربيعة بن نزار ، فهم أسد وضيعة^١ . ويضاف اليهما أكلب^٢ على بعض الروايات . ومن نسل هؤلاء تفرعت قبائل ربيعة . فمن أسد كانت جدية وعترة وعمير^٣ . ومن بني عترة بنو هزان بن صباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عترة . وبني جلاتن بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عترة . وبني الحارث بن الدؤل بن صباح بن عتيك بن أسلم . كان إذا مصر ثوبية مصرت عترة معه . وعرف من بني هزان آل ضرور بن رزاح بن مالك بن سعد بن وائل بن هزان ، والحارث بن رزاح أخو ضرور بن رزاح وهو الذي يقال انه الحارث بن لؤي بن غالب الذي يسمى جشمأ ، وجشم كان عبداً لأبيه ، حضنه فسمى به^٤ .

وتعد عترة^٥ من القبائل العربية الكبيرة ، وهي لا تزال من القبائل البارزة في الزمن الحاضر ، ولها بطون عديدة في الحجاز ونجد وبادية الشام والشام . أما تأريخها قبل الاسلام ، فهو مثل تواريخ القبائل الأخرى من حيث الغموض . وقد كانت تتعبد في الجاهلية لمحرق ولسعير^٦ .

وأما ولد ضيعة^٧ ، فهم أحس^٨ والحارث . ومن بني أحس الشاعر المسيب ، وهو زهير بن علس ، والحارث الأضجم بن عبد الله بن ربيعة بن دوفن سيد

- ١ ابن خلدون (٣٠٠/٢) ، نسب ربيعة بن مصر بن عدنان . وهو ربيعة بن مصر بن نزار بن معد بن عدنان ، طرفة الأصحاب (ص ٦٢) ، سبائك الذهب (ص ٥٣) ، لسان العرب (٤٦٩/٩) ، صبح الأعشى (٣٣٧/١ ، ٣٣٩) ، نهاية الأرب (٣٢٨/٢) ، لسان العرب (٣٩/٤) ، الاشتقاق (١٩٤) ، كحالة (٢٢٤/١) ، ٦٦٣/٢ ، ناج العروس (٤٢٧/٥) .
- ٢ جمهرة (ص ٢٧٥) ، نهاية الأرب (٣١٠/٢ ، ٣٢٨) .
- ٣ نهاية الأرب (٣٢٨/٢) ، الاشتقاق (١٩٤) .
- ٤ جمهرة (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
- ٥ ابن خلدون (٣٠٠/٢) ، نهاية الأرب (٣٢٨/٢) ، الاشتقاق (ص ١٩٤ ، ٢٠٢) ، لسان العرب (٢٥١/٧) ، جمهرة (٢٧٧) ، ناج العروس (٦٢/٣) ، الفاموس (١٨٤/٢) ، كحالة (٨٤٦/٢ وما بعدها) .
- ٦ Ency , I, P 346
- ٧ الاشتقاق (ص ١٩٠) ، ابن خلدون (٣٠٠/١) ، نهاية الأرب (٣٢٨/٢) صبح الأعشى (٣٣٩/١) ، ناج العروس (٤٢٧/٥) ، كحالة (٦٦٣/٢) .
- ٨ الاشتقاق (ص ١٩٠) ، كحالة (١٠/١) .

ربيعة الذي نشبت بسبب مقتله حرب بين بني ربيعة ، والمتلمس الشاعر . ومن بني أحمر أيضاً بنو الكلبة ، وهم أولاد مرة بن مازن بن أوس بن زيد بن أحمر بن صبيعة . ومنهم الحُلَيْس وابن المسيب^١ .

أما جديلة^٢ ، وهو جد جديلة ، فولد دُعَمِيَّاً^٣ وجدياً^٤ . وقد دخل بنوه في بني شيان ، وجدار (جدانا)^٥ ، وقد دخل نسله في بني زهير بن جشم من بني الممر بن قاسط . وولد غير ذلك في بعض الروايات^٦ . وولد دُعَمِي أَفْصَى^٧ ، وولد أَفْصَى هَنْبِئاً وعبد القيس وجشمأً ودخل بنوه في عبد القيس ، وناسما ، ودخل بنوه في بني تغلب^٨ .

ومن نسل عبد القيس بن أَفْصَى ، شن^٩ ولكيز^{١٠} . ومن ولد لكيز وديعة وهو جد بطن ، وصباح ، وهم بطن كذلك ونكرة ، ومن بطون وديعة عمرو ، وغنم ، ودهن ، ومن عمرو بن وديعة مالك وثعلبة وعائدة وسعد وعوف والحارث ، ومن الحارث ، ابن أنمار بن عمرو بن وديعة البراجم ، وهم عبد شمس وعمرو وحي بني معاوية بن ثعلبة بن عوف بن أنمار بن عمرو بن ربيعة ، وهؤلاء

-
- ١ حمرة (ص ٢٧٥ وما بعدها) .
 - ٢ الاشتقاق (١٩٦) ، ابن خلدون (٣٠٠/٢) ، نهاية الأرب (٣١١/٢) ، كحالة (١٧٣/١) ، (حدله بفتح الجيم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المنناة نحت وفتح اللام ، وهاء في الآخر ، والنسبة اليهم جدلي) ، صبح الأعشى (٣٢٧/١) .
 - ٣ (دُعَمِي) ، لسان العرب (٩٢/١٥) ، الفاموس (١١٢/٤) ، ناج العروس (٢٩١/٨) ، نهاية الأرب (٣١١/٢) .
 - ٤ حمرة (٢٧٨) .
 - ٥ (جدار) حمرة (٢٧٨) ، (جدان بن حديلة بن أسد بن ربيعة) ، ناج العروس (٣١٦/٢ ، ١٦٠/٩) ، كحالة (١٧٠/١) ، جمهره (ص ٢٧٨) ، سبائك الذهب (ص ٥٣) ، المبرد (١٨) .
 - ٦ سبائك الذهب (ص ٥٣) .
 - ٧ نهاية الأرب (٣٢٩/٢) .
 - ٨ حمرة (ص ٢٧٨) ، سبائك الذهب (٥٣) .
 - ٩ (شن بن أَفْصَى بن عبد القيس بن أَفْصَى بن دُعَمِي بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار) ، الاشتقاق (ص ١٩٦) ، ناج العروس (٢٥٦/٩) ، لسان العرب (١٧/١٠٩) ، الصحاح للجوهري (٣٨٧/٢) ، حمرة (٢٨٢) ، سبائك الذهب (ص ٥٤) .
 - ١٠ سبائك الذهب (ص ٥٤) ، الاشتقاق (١٩٦) ، لسان العرب (٢٧٢/٧) .

البراجم هم غير براجم تميم^١ ، والجارود وقد كانت له صحبة بالرسول وولى أولاده منازل رفيعة في الاسلام^٢ .

ومن نسل عجل بن عمرو بن وديعة بن لكيز . ذهل وذاهل ، ومن بني ذهل ليث وثعلبة ، وهما ابنا حداد بن ظالم بن ذهل بن عجل بن عمرو . ومن ليت بن حداد ، بنو دهل بن ليث ، ومنهم جيفر بن عبيد عمرو بن خولي^٣ ابن همام بن الفاتك^٤ ، ومن نسل عمرو بن وديعة بنو محارب^٥ ، ومنهم الحطم بن محارب ، واليه تنسب الدروع الحطمية ، وبني الدتيل بن عمرو بن وديعة^٦ ، ومن نسل وديعة بن لكيز بنو دهن وبني غم . ومنهم الدتيل ومازن^٧ .

واشتهر من ولد نكرة بن لكيز ، الشاعر المثقب ، والشاعر الآخر الممزق ، وهو شأس ، والمفضل بن معشر بن أسجم وهو شاعر كذلك^٨ .

أما شن بن أفصى ، فكان من نسله يزيد بن شن ، يذكر أهل الأخبار انه أول من ثقف القنا بالخط ، وعدي^٩ ، والدتيل . ومنهم عمرو بن الجعيد بن صبرة بن الدتيل بن شن بن أفصى بن عبد القيس ، وهو الذي ساق عبد القيس من تهامة الى البحرين ، وعرف بالأفكل^{١٠} ، وكان سيد ربيعة في الجاهلية ، وكان ذا بغي ، فسارت اليه بنو عصر ، فقتلوه . ومن بني عمرو رثاب بن البراء ، وكان على دين المسيح^{١١} .

ومواطن بني عبد القيس بتهامة في الأصل ، ثم ارتحلت عنها بسبب الحروب التي وقعت بين أبناء ربيعة ، فذهبت الى البحرين ، فتغلبت على من كان قد

-
- ١ الأغاني (٢٠٩/١) .
 - ٢ الجمهرة (ص ٢٧٨ وما بعدها) ، المرد (١٨) ، الاصابة (١٠٤٢) ، الاشتقاق (١٩٧) ، المعارف (١١٥) .
 - ٣ حمهرة (ص ٢٨٠) .
 - ٤ الصفة (١٣٢) ، كحالة (١٠٤٣/٣) .
 - ٥ الصحاح (١٨٦/٢) ، لسان العرب (٢٤٩/١٣) .
 - ٦ حمهرة (ص ٢٨٠ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٥٤) .
 - ٧ جمهرة (٢٨٢) ، شيوخ : شعراء النصرانية (القسم الثالث : في شعراء نكر بن وائل من بني عدنان - ص ٤٠٠ وما بعدها) .
 - ٨ حمهرة (ص ٢٨٢) ، الاشتقاق (ص ١٩٧) .
 - ٩ الاشتقاق (ص ١٩٧) .

سكن قبلهم بها من اباد ومن بكر بن وائل وتميم . واقتسمتها بينهم ، فترلت جذيمة بن عوف بن بكر بن عوف بن انمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز الخط وأفاءها ، ونزلت شن افصى طرفها وأدناها الى العراق ، ونزلت نكرة بن لكيز القطيف وما حوله والشفار والظهران الى الرمل وما بين هجر الى قطر وبينونة ، ونزلت عامر بن الحارث بن انمار بن عمرو بن وديعة والعمور ، وهم بنو الدليل ابن عمرو ، ومحارب بن عمرو ، وعجل بن عمرو الجوف والعيون والاحساء ، ودخلت قبائل منهم جوف عُمان فصاروا شركاء للأزد في بلادهم^١ . وقد بقيت بنو عبد القيس في هذه المواضع محتفظة بها عند ظهور الاسلام .

ويظن ان (Aboukarun) ، وهو اسم قبيلة وموضع ذكر في جغرافية (بطلميوس) هو (عبد القيس)^٢ . ولم يتحدث (الكلاسيكيون) شأنهم في أكثر ما كتبه عن بلاد العرب بشيء عن هذه القبيلة . ولكن الاخباريين يروون ان عرب بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة غزوا السواحل المقابلة لهم من ارض ايران ، وذلك لضيق معاشهم ، وللضنك الذي حلَّ بهم في عهد سابور ذي الاكتاف (سابور الثاني) متتهزين فرصة اضطراب الأمن في تلك البلاد وضعف الحكومة بسبب صغر سن الملك . فلما كبر الملك واشتد ، جمع جموعه وسار بها على الغازين ، فقتل بهم ، وأسر منهم خلقاً كثيراً ، ثم عبر البحر (فورد الخط واستقرى بلاد البحرين ، يقتل اهلها ولا يقبل فداء . ولا يعرج عن غنيمة ، ثم مضى على وجهه ، فورد هجر ، وبها ناس من اعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، فأفشى فيهم القتل) (ثم عطف على بلاد عبد القيس ، فأباد اهلها) ثم سار الى اليمامة ، فقتل بها مقتلة كبيرة ، ولم يمر في طريقه بماء الا غوره ، ولا جب من جبابهم الا طمة ، حتى وصل قرب المدينة ، فقتل من وجد هناك من العرب ، وأسر . ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشام ، فقتل من وجد بها من العرب ، وسبي وطمَّ مياهم ، ثم أسكن من

١ البكري (١/٨٠ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٣٠٠) ، نهاية الأرب (٢/٣٢٩) ،
الاشنعاقي (ص ١٩٦) ، صبح الأعشى (١/٣٣٧) ، القاموس (٢/٢٤٤ ، ٣٨٧) ،
لسان العرب (٨/٧٢ ، ٣٩٨) ، الأغاني (١٣/٥٦ ، ١٤/٤٤ ، ١٠٣ وما بعدها) ،
كحاله (٢/٧٢٦ وما بعدها) .

بني تغلب من البحرين دارين واسمها هيبج والخط ، ومن كان من عبد القيس وطوائف من بني تميم هجر ، ومن كان من بكر بن وائل كرمان ، ومن كان منهم من بني حنظلة بالرميلة من بلاد الاهواز ^١ .

وهم يذكرون ايضاً ان عرب الشام قد تأثروا بما فعله سابور بهم ، فاتفقوا مع الروم ، وانتقموا منه . ولكن سابور بعد انتصاره على الروم ، عاد فاتبع سياسة استرضاء العرب ، فاستصلحهم ، وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والاهواز ^٢ . وهذه الرواية الثانية هي ، ولا شك الجزء الاخير من حديثهم عن حملة سابور على بلاد العرب ، اخذها الطبري أو المورد الذي اعتمد عليه من مورد كان قد جزأ الكلام ، فصار الحديث الواحد حديثين اثنين . ونجد ذلك واضحاً وضوحاً تاماً في اتفاق العبارات بين الروایتين ، ثم ان الاسكان الاجباري في ارض ما ليس نوعاً من الاستصلاح والاسترضاء .

وفي حديث الاخباريين عن حملة سابور على بلاد العرب ووصوله الى مقربة من المدينة وعن تنكيهه بالعرب وحرقة المدن وطمه المياه ، مبالغات كبيرة ولا شك ، اخذت من موارد فارسية بولغ فيها ، وليس في روايات المؤرخين الروم عن هذا الحادث ما يؤيد هذا الزعم .

وكان والي البحرين عند ظهور الاسلام ، المنذر بن ساوى ، وهو من بني تميم ، يحكمها باسم الفرس على حدّ رواية الاخباريين ، وقد ارسل اليه الرسول رسولا عنه يدعوه وقومه من بني عبد القيس الى الاسلام . وكان رسول الله هو العلاء بن الحضرمي . فلما اتاه العلاء يدعوه ومن معه بالبحرين الى الاسلام أو الجزية ، اسلم المنذر ، وأسلم جميع العرب بالبحرين ^٣ . وقد اوفدوا وفداً عنهم الى الرسول برئاسة المنذر بن الحارث بن النعمان بن زياد بن نصر بن عمرو بن عوف بن جزيمة بن عوف بن انمار بن عمرو بن وديعة بن بكر ، فاتصل بالرسول ، وصارت له صحبة ومكانة منه . ووفد منهم الى الرسول ايضاً الجارود وهو (بشر

١ الطبري (٢/٦٦ وما بعدها) .

٢ الطبري (٢/٧٠) .

٣ ابن الأثير (٢/٨٦ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢ بقية الجزء الثاني ص ٢٦) ، المحبر (ص ٢٦٥) .

ابن عمرو بن خناش) ، وثعلبة أخو عوف بن جذيمة ، وقفا في بني عبد القيس سنة تسع مع المنذر بن ساوى . وكان نصرانياً فأسلم .

وكان بين بني عبد القيس وسكان البحرين والعربية الشرقية بصورة عامة جماعة على دين يهود ، وجماعة أخرى على دين المجوس ، وجماعة على دين النصارى . وقد صالح من قرر البقاء في دينه العلاء بن الحضرمي والمنذر بن ساوى على الجزية ^١ .

وينسب الى ابي عبيدة معمر بن المثنى كتاب في اخبار بني عبد القيس ، اسمه (كتاب نحر عبد القيس) والى علان الشعبي كتاب اسمه (مثالب عبد القيس) ، كذلك ينسب الى المدائني كتاب اسمه (كتاب اشراف عبد القيس) ^٢ .

ومن ولد هنب بن أفصى ^٣ قاسط بن هنب ^٤ ، وهو والد وائل بن قاسط ^٥ ، والنمر ^٦ ومن بني النمر تيم الله وأوس مناة وعبد مناة وقاسط ، ومن بني تيم الله ابن النمر عامر الضحيان ، وقد ساد ربيعة اربعين عاماً وأخذ منها المربع وهو عامر بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط . وأبو حوط الحظائر ابن جابر ، والد جابر الخير ، اخو المنذر بن ماء السماء لأمه ^٧ .

ومن رجال بني النمر بن قاسط سنان بن مالك ، وكان على الأبله ، استعمله كسرى عليها . وهو والد صهيب من اصحاب الرسول . وقد عرف (صهيب) بصهيب الرومي . وذكر ابن خلدون انه ينسب الى الروم ^٨ ، فهل غنى بذلك

١ ابن الاثير (٨٩/٢) .

٢ Ency. I, P. 46

٣ ناج العروس (٥١٨/١) ، لسان العرب (٢٨٧/٢) ، نهاية الأرب (٣٢٩/٢) ، ابن خلدون (٣٠١/١٢) ، كحالة (١٢٢٩/٣) .

٤ لسان العرب (٢٥٥/٩) ، الاشعاق (٢٠٢) .

٥ نهاية الأرب (٣٣٠/٢) ، الاشعاق (٢٠٢) ، لسان العرب (٢٤٥/١٤) ، القاموس (٦٣/٤) ، كحالة (١٢٤٤/٣) ، ابن خلدون (٣٠١/٢) .

٦ جمهرة (٢٨٣) ، القاموس (١٤٩/٢) ، لسان العرب (٩٥/٧) ، ناج العروس (٥٨٦/٣) ، صبح الاعشى (٣٣٨/١) ، كحالة (١١٩٣/٣) .

٧ جمهرة (ص ٢٨٣ وما بعدها) .

٨ جمهرة (ص ٢٨٣ وما بعدها) .

ان امه من الروم ، او ان اجداده من اصل رومي ، عُدّوا من النمر بن قاسط ؟
ومن اشهر ديار النمر بن قاسط رأس العين (رأس)^١ .

وقد كانت النمر بن قاسط في جملة القبائل العدنانية الاخرى التي خضعت لحكم كندة ، ويذكر الاخباريون في تعليل ذلك ان الحارث بن ابي شمر الغساني لما قتل عمرو بن حجر (ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو ، وامه بنت عوف بن محم ابن ذهل بن شيان . ونزل الحيرة . فلما تفاسدت القبائل من نزار ، اتاه اشرافهم ، فقالوا : انا في دينك ، ونحن نخاف ان نتفانى فيما يحدث بيننا ، فوجه معنا بنيك ، يتزلون فينا ، فيكفون بعضنا عن بعض . ففرق ولده في قبائل العرب ، فملك ابنه حُجْرًا على بني اسد وغطفان ، وملك ابنه شرحبيل قتيل يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم والرباب ، وملك ابنه معديكرب ، وهو غلفاء ، على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن مالك بن حنظلة والصنائع ، وهو بو رُقَيْيَّة قوم كانوا يكونون مع الملوك من شذاذ العرب ، وملك ابنه عبد الله على عبد القيس ، وملك ابنه سلمى على قيس)^٢ . فكانت هذه القبيلة اذن في جملة القبائل العدنانية التي جمع شنائها تاج كندة . وليس في رواية الاخباريين هذه غرابة ، فقد رأينا امراً القيس يحكم قبله قبائل عديدة ، ويفرض تاجه عليها ، ثم يوزع ابناءه على تلك القبائل . ولكن هذا التوحيد لا يدوم في العادة امدأ طويلاً ، انما يتوقف على حكمة الحكام ، وعلى حسن تصرفهم ، وعلى قوتهم وقدرتهم ، وسلطة ذات يدهم . فاذا ظهر ضعف على الحاكم او الحكام ، او حدث حادث ، يتبين منه للقبائل الخاضعة ان من خضعت له لم يعد قوياً متمكناً ، ثارت عليه ثم لا يلبث ذلك البناء ان ينهار .

اما نسل وائل بن قاسط ، فهم بكر ودثار ، وهو تغلب ، وعبد الله ، وهو عنز ، والشُّخَيْص^٣ ، وقد دخل نسله في بني تغلب ، والحارث وقد دخل في بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن بكر بن وائل . امهم كلهم همد

١ ابن خلدون (٣٠١/٢) .

٢ الأغاني (٨١/٩) وما بعدها .

٣ الجهمرة (٢٨٥) .

بنت مُرّة بن طابخة بن الياس بن عامر^١

وولد تغلب بن وائل غنماً ، والأوس ، وعمران . ومن ولد غنم عمرو ووائل
ومن ولد وائل شيبان ولودان ، ومن ولد عمرو بن غنم بن تغلب حبيب ومعاوية
وزيد ، ومن نسل حبيب بكر وجشم ومالك ، ومن جشم بن بكر بن حبيب بن
عمرو بن غنم بن تغلب كان الشاعر عمرو بن كلثوم ، وبنوه : عبد الله والأسود ،
وهما شاعران كذلك ، وعباد ، وهو قاتل بشر بن عمرو بن عدس . وكان من
بني جشم مُرّة بن كلثوم ، وهو فارس من فرسان الجاهلية ، وكان أخاً لعمرو
ابن كلثوم ، وأبو حنيس عاصم بن النعمان بن مالك بن عتاب وهو ابن عم عمرو
ابن كلثوم ، وعاصم هذا هو قاتل شرحبيل بن الحارث الملك آكل المزار
يوم الكلاب^٢ .

ومن بني الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب ، كليب ، ومهلل ،
وعديّ ، وسلمة بنو ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم ، ومن نسل مهلل
ليلي وهي أم عمرو بن كلثوم ، ومن نسل كليب هجرس بن كليب^٣ .

تغلب :

وتغلب من القبائل العربية الكبيرة التي ورد اسمها كثيراً في مؤلفات الاخباريين
والمؤرخين ولها ايام مع القبائل الاخرى ، وهي مثل سائر القبائل العدنانية الاخرى
مهاجرة على عرف النسابين ، تركت ديارها وارتحلت الى الشمال ، فسكنت في
العراق وفي بادية الشام ، واتصلت منازلها بالغساسنة والمناذرة والروم والفرس .
وكانت غالبيتها على النصرانية عند ظهور الاسلام .

١ الجهمرة (ص ٢٨٧) ، المبرد (١٧) .

٢ الجهمرة (ص ٢٨٧) .

٣ (تغلب بن وائل بن فاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة
ابن نزار) ، لسان العرب (١٤٥/٢) ، ناج العروس (٢٣١/١) ، الاشعاق
(ص ٢٠٢) ، العاموس (١١٣/١) ، الصحاح (٨٨/١) ، نهاية الأرب (٣١٦/٢) .

وينسب النسابون تغلب الى جدّ أعلى زعموا ان اسمه (تغلب) ، وهو (تغلب) ابن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار)^١ .

وقد عرفت هذه القبيلة بـ (الغلباء)^٢ . وهو نعت يدل على فخر القبيلة بنفسها وعلى تباهاها على غيرها من القبائل . وقد ذكر بعض أهل الأخبار عنها قوله : (لو أبطأ الاسلام قليلاً ، لأكل بنو تغلب الناس)^٣ . تعبيراً عن قوتها وكثرتها وأهميتها إذ ذاك بين القبائل .

وقيل في اسمها تغلب بنت وائل بالتأنيث ، ذهاباً الى القبيلة ، كما قالوا : تميم بنت مرّ . جاء في شعر الفرزدق :

لولا فوارس تغلب ابنة وائل ورد العدو عليك كل مكان^٤

وقد كانت لرؤساء تغلب الرئاسة على قبائل ربيعة ، كما صار لها اللواء . أي رئاسة الحرب . فن يحمل اللواء تكون له الرئاسة في الحرب^٥ .

ويرى أهل الأخبار ان قبيلة تغلب مثل سائر قبائل ربيعة كانت تسكن في الأصل في تهامة ، ثم انتشرت فترلت الحجاز ونجد والبحرين ، فلما تحاربت مع (بكر بن وائل) ، زحفت نحو الشمال حتى بلغت أطراف الجزيرة ، فسكن قوم منها جهات سنجار ونصيبين ، حتى عرفت تلك الديار بـ (ديار ربيعة)^٦ . وديار ربيعة بين الموصل الى رأس عين ونصيبين و (دنيسر) والخابور ، وما

١ لسان العرب (٢/١٤٥) ، ساج العروس (١/٢٣١) ، الاشعاق (ص ٢٠٢) ، الفاموس (١/١١٣) ، الصحاح (١/٨٨) ، نهاية الأرب (٢/٣١٦) ، جمهرة أنساب العرب ، لابن حرم (٢٨٦) .

٢ فلاتد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، للعلفشندي (ص ١٣٠) ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، للعلفشندي (ص ٢٨٧) .

٣ شرح العصائد العشر ، للنبريري (ص ٢٨٣) (الهاجرة ١٩٦٢ م) ، الصراية (١٢٥) ، شرح السريري لمعلقة عمرو بن كلثوم (١٠٨) ، (طبعة لائل) ، الصراية (١٢٥) .

٤ العلفشندي ، نهاية الأرب (١٨٦) .

٥ اس الأثير ، الكامل (١/٣١٢) .

٦ نهاية الأرب (١٧٠) ، فلاتد الجمان (١٣٢) ، سبائك الذهب (٥٢) .

بين هذه من المدن والقرى . وجمعت هذه الديار بين (ديار بكر) و (ديار ربيعة) وسميت كلها بـ (ديار ربيعة)^١ . وقد انتشرت بطون تغلب في الثرار ، بين سنجار وتكريت^٢ .

ويروي أهل الأخبار أن أول من نزل بطون تغلب في الجزيرة الفراتية هو : (علقمة بن سيف بن شرحبيل بن مالك بن سعد بن جشم بن بكر) وقد قاتل أهل الجزيرة حتى غلبهم ، وأنزل قومه بها . ويؤيدون رأيهم هذا بما جاء في معلقة (عمرو بن كلثوم) :

ورثنا مجدّ علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجدّ دينا^٣

وقد كان شريفاً رئيساً في الجاهلية^٤ .

وقد أدى اتصال تغلب بالروم وبنصارى العراق والجزيرة وبلاد الشام إلى دخول قسم منهم في النصرانية كمعظم القبائل التي دخلت العراق وبلاد الشام . وهي من القبائل المنتصرة ومن سكان الحيام^٥ .

وقد تغلب الشاعر (جابر بن حني التغلي) ، ويقال أنه قال في شعر له مخاطباً بهراء :

وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى الدم^٦

وهو بيت من قصيدة يفتخر فيها بقومه وبشجاعتهم : ومعنى هذا البيت إن صح ، أن النصارى لم يكونوا أشداء في الحروب ، وأنهم لم يكونوا على شاكلة العرب الوثنيين في الطعن والضرب .

ومن ولد تغلب في رأي النسابين : غم والأوس وعمران . ومن بطون غم :

١ ابن خلدون (١٠٤/٢) ، صبح الأعشى (٣٣٧/١) ، البلدان (٤٩٤/٢) (بيروت ١٩٥٦م) .

٢ البلدان (٩٢١/١) (طهران) .

٣ جمهرة أشعار العرب (١٢٤) ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٢٩) ، شرح القصائد العشر ، للتبريري (ص ٤١١) .

٤ الاشتقاق (٢٠٣) .

٥ Raccolta, P 142

٦ النصرانية (١٢٦) ، شعراء النصرانية (١٩٠) .

(الأرقام) . وهم جشم ومالك وعمرو وثعلبة والحارث ومعاوية وهم بنو بكر ابن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب^١ . ومنهم : عمرو بن الحنيس قاتل (الحارث بن ظالم) ، وكان (الأسود بن منذر) ملك الحيرة قد طلب ذلك منه . ومنهم (الهذيل بن هبيرة) وكان قد رأس تغلب في الجاهلية^٢ . وكان جراراً للجيش ، أسره يزيد بن حذيفة السعدي^٣ .

ومن (بني تغلب) (السقاح بن خالد) ، واسمه (سلمة) . وكان جراراً للجيش في الجاهلية . وإنما سمي (السقاح) ، لأنه سفح المزاد يوم كاظمة ، وقال لأصحابه : قاتلوا فإنكم ان أهرتمم ممت عطشاً^٤ .

ومن بني غنم : بو جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب . ومنهم الشاعر : عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم ، ومن ولده : عبد الله والأسود ، وهما شاعران سيدان . وعبداد ، وهو قاتل بشر بن عمرو بن عدس^٥ .

ومنهم (أبو حنش) ، عاصم بن النعمان بن مالك بن عتاب ، وهو ابن عم عمرو بن كلثوم . وهو قاتل (شرحبيل بن الحارث) الكندي ، وذلك يوم الكلاب^٦ . ومنهم (الفدوكس) الذين منهم (الأخطل)^٧ .

ومن بني جشم بن بكر بن الحارث ، (كليب وائل) ، ذو الصيت الشهير في كتب أهل الأخبار شقيق (مهلهل) . و (كليب وائل) هو (وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير) . وقد ضرب به المثل في العز فقيل (أعز من

١ المبرد ، نسب عدنان وفحطان (ص ١٧) ، المعارف (٣٢) ، الاشتقاق (٢٠٣) ، ابن رشيقي ، العملة (١٥٧) .

٢ الاشتقاق (٣٣٩) .

٣ الاشتقاق (٢٠٣) .

٤ قال الشاعر :

وأخوهما السقاح ظمأ خيله حتى وردن جبء الكلاب بهالا

الاشتقاق (ص ٢٠٣) .

٥ المعارف ، لابن فنييه (ص ٤٣) ، شرح المعلفات ، للنبرنزي (ص ٢٨٣) ، حمهرة ابن حرم (ص ٢٨٧) .

٦ ابن حزم ، حمهرة (ص ٢٨٧) .

٧ الاشتقاق (٢٠٤) .

كليب وائل (١) . وكان والده (ربيعة) ، قد قاد مضر وربيعة يوم السلان الى أهل اليمن ، وأدخله (السكري) في جملة (الجرارين) (٢) .

أما السبب الذي حمل (ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير التغلبي) على مقارعة قبائل اليمن وحروبها ، فهو شعور أبناء تغلب بوجوب التخلص من نفوذ اليمن عليها ، ومن حكم (زهير بن جناب الكلبي) عليها . فقد زعم أهل الأخبار ان (تغلب) كانت مثل سائر قبائل (معد) خاضعة لنفوذ حكام اليمن ، وقد سئمت من جوار الحكام الذين ينصبهم (التبابعة) عليها ، فظهر رجال فيها عزموا على التخلص من ذلك النفوذ ، وتكوين حلف قوي يكبح جماح اليمن يتألف من قبائل معد . وكان من بين أولئك الرجال (ربيعة بن الحارث ابن زهير) والد (كليب وائل) ، وكانت خطته ضرب اليمن للتخلص من حكم (زهير بن جناب) الذي كان حكام اليمن قد أقاموه على قبائل معد . وجمع قبائل مضر وربيعة تحت زعامة واحدة ، وبذلك تتخلص تلك القبائل من تحكم اليمن في شؤونها ومن دفع الاتاوة لها .

ويذكر أهل الأخبار ان (زهير بن جناب) الكلبي القضاعي ، كان قد ولي أمر (معد) بمساعدة حكام اليمن وتأييدهم له ، ويذكر بعض منهم ان (أبرهة) الحبشي هو الذي نصب زهيراً عليها وأعاناه على معد . وذلك حينما غزا (أبرهة) نجداً وتوسع فيها ، فجاءه (زهير) ليتقرب اليه ، وليعينه على بعض قبائل معد (٣) .

وسار (زهير) في حكم معد ، حتى اشتط وبغى وقسا في جمع الاتاوة ، فضجر الناس منه ، وهاجمه (زيابة) من (بني تيم الله) ، وطعنه طعنة ظن انه قد قضى بها عليه . ولكن زهيراً نجى منها ، فجمع عندئذ قومه ومن كان معهم من قبائل قحطان وغزا بكرة وتغلب ، فانهزمت بكر ثم تغلب ، وأمر كليب ومهلل ابنا ربيعة ، وجاعة من أشراف تغلب . فتأثرت قبائل ربيعة من هذه الهزيمة ، وعينت (ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير التغلبي) رئيساً

١ الإشتقاق (٢٠٤) ، ابن الأثير ، الكامل (٢١٤ / ١) .

٢ المحبر (ص ٢٤٩) .

٣ ابن الأثير ، الكامل (٢٠٥ / ١) .

عليها ، فحمل ربيعة ومن انقاد اليه على زهير ، واسترجع الأسرى ولكن زهيراً لم يلبث ان عاد الى ما كان عليه من جمع الاتاوة من معدة^١ .

وكليب وائل ، كما يظهر من روايات الأخباريين ، رجل صلب قوي ، ارتفع بجمه بعد يوم (خزازي) (خزاز) الذي أظهر قوة معدة لما اجتمعت ، فانتخب رئيساً مطاعاً على هذه القبائل ، وأعطى الملك والتاج ، وبقي على ذلك دهرأ ، حتى دخله زهو شديد ، فأخذ يبغى على القبائل ويشط في أخذ الاتاوة منها وفي اتخاذ خيرة الأرض المخصصة ذات المياه الغزيرة مناطق حتى لا يجور لإبل غيره الرعي فيها ، وفي الاستيلاء على مواضع الماء ، حتى ضجرت الناس منه وشمت حكمه وودت لو تمكنت من التخلص من جوره وتعسه^٢ .

قال (ابن الكلبي) : لم تجتمع معدة كلها إلا على ثلاثة من رؤساء العرب ، وهم : عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحارث : والثاني ربيعة ابن الحارث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب ، وهو قائد معدة يوم السلان . وهو كما رأينا والد (كليب) . والثالث : كليب بن ربيعة^٣ . ويظهر من ذلك انه ورث رئاسة قومه ورئاسة معدة من والده ، وانه زاد في قومه وفي مكانته يوم قاوم قبائل اليمن ، وتغلب عليها في (يوم خزاز) ، وكانت معدة تهاب اليمن ، وتخضع للوكةها ، لذلك كان يوم السلان ويوم خزاز ، نصراً معنوياً كبيراً لها ، جرأها على الوقوف أمام اليمن ، وعلى تحديها . وجعلها تشعر بأنها قوة وأن في امكانها صد اليمن لو اتحدت قبائل (معدة) فيما بينها ، ووحدت كلمتها تحت رئاسة رئيس قوي قدير .

ويذكر أهل الأخبار ان معدة اجتمعت كلها تحت رايته ، وجعلت له قسم الملك وتاجه وتحيته وطاعته ، فغبر بذلك حيناً من الدهر ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حمسه ،

١ المحبر (ص ٢٤٩) ، العقد العريد (٩٧/٦) (العريان) ، نهاية الأرب (١٥/٤٢٠ وما بعدها) .

٢ ابن الأثير ، الكامل (٢١٤/١) ، النعائض (٩٠٥ وما بعدها) المبدائي ، الأمال (٢٥٤/١) ، حزانه الأدب (٣٠١/١) وما بعدها ، المحبر (٢٤٩) ، المعارف (٦٠٥ وما بعدها) (دار الكتب (سنة ١٩٦٠م) .

٣ نهاية الأرب (١٥/٣٩٦ وما بعدها) .

ويقول : وحش أرض كذا في جوارى ، فلا يهاج ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ولا توقد ناره . وكان إذا رأى أرضاً فأعجبته حماها ومنع الناس عنها ، وذلك بأن يطلق جرواً يعوي ، فيكون المكان الذي ينقطع فيه صوت العواء فلا يسمع ، هو حد تلك الأرض . قيل ولذلك عرف بـ (كليب)^١ .

وكان (كليب) قد تزوج (جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيان بن ثعلبة) ، وهي أخت (جَسَّاس بن مرة بن ذهل بن شيان بن ثعلبة بن عكابة)^٢ . وهي أيضاً من أشرف قومها ، و (ذهل بن شيان) من الأسر المعروفة التي نجسدها لها اسماً بين الجاهليين .

وقد أدت عنجهية (كليب) وخطرتة إلى مقتله ، وسبب ذلك على ما يقوله أهل الأخبار أن ناقة كانت للبسوس خالة (جَسَّاس) ، أو إلى (جليلة أخت جَسَّاس) على رواية ، أو إلى رجل اسمه (سعد الجرمي) واسم الناقة (السراب) كانت قد اختلطت بإبل (كليب) وأخذت ترعى معها ، فلما رآها كليب ، أنكرها واستعظم أمر دخولها المرعى مع إبله ، فرمى ضرعها بسهم فنفرت وهي ترغو . فلما رأت (البسوس) ، أو (جليلة) أو رأى (سعد الجرمي) الناقة وقد أصيبت بسهم كليب ، عز على صاحبها ذلك ، أو على صاحبها حسب اختلاف الروايات ، وذهب أو ذهبت كل واحدة منها إلى (جَسَّاس) ، صارخاً أو صارخة ، وكل منهم في جواره وعند فناء بيته ، فثار الدم في رأسه ، وأخذته الغزة ، وذهب غاضباً إلى (كليب) ومعه (عمرو بن الحارث) فكلما ، وأظهر جَسَّاس ما حلّ به من ذل وإهانة برمي (السراب) بالسهم ، فلم يبال بهما ، فطعنه (جَسَّاس) وضربه (عمرو بن الحارث) ، فقتل كليب^٣ .

وقد أثار مقتل (كليب وائل) هذا حرباً استمرت أربعين سنة على ما يذكره أهل الأخبار عرفت بـ (حرب البسوس) . وهي في الواقع معارك وغزوات

- ١ نهاية الأرب (٣٩٦/٥١) ، أبو الفداء ، المحنصر في أخبار البشر (٦٥/١ وما بعدها) (طبعة بيروت) ، السويدي ، سبائك الذهب (١٠٥) .
- ٢ المحبر (ص ٣٠٠) .
- ٣ العقد الفريد (١٥٠/٥) ، النويري ، نهاية الأرب (٣٩٦/١٥) ، اللسان (٢٨/٦) ، (دار صادر) .

وقعت في أوقات متقطعة وقعت بين (تغلب) ومن حالفها وبين (بكر) .
أثارها وأشعل نارها (مهلهل) أخو (كليب) أخذاً بثأر أخيه من (بني بكر)
قوم (جسّاس) . وأعلنها دون اهتمام لتوسط عقلاء (بكر) بحل القضية حلاً
سليماً حقناً لدماء الطرفين . بتأدية دية الملوك ، وهي ألف ناقة سود المقل ، أو
ان يأخذوا أحد أبناء (مرة بن ذهل) والد جسّاس ، فيقتلوه بدم (كليب)^١ .

وأبت بعض قبائل بكر الدخول في حرب مع (تغلب) . واعتزلت عن
(بني شيان) قوم جسّاس ، ومن هؤلاء (بنو لجيم) و (بنو يشكر) .
وانسحبت (الحارث بن عباد) . وعشائر أخرى . وتولى (مرة بن ذهل)
قيادة قومه من (بني شيان) من بكر . فكانت معارك وملاحم ذكر أساءها
أهل الأخبار . منها (يوم النهي) ، وهو أول يوم من أيام حرب البسوس
على رواية ، ويوم عنيزة ، وهو أول يوم من هذه الأيام على رواية أخرى^٢ .
ثم وقعت أيام أخرى منها يوم الذنائب ، وهو يوم قتل فيه : (شراحيل بن
مرة بن همام) والحارث بن مرة ، وهمام بن مرة أخو جسّاس من أمه وأبيه .
وعمر بن سدوس بن شيان . وهو من بني ذهل بن ثعلبة ، وسعد بن ضبيعة ،
وهو من بني قيس بن ثعلبة وآخرون . وقد قيل إن منهم من قتل في أيام أخرى .

ومن بقية الأيام : يوم واردات ، ويوم عويرضات ، ويوم الحنو ويوم أنيق ،
ويوم ضربة ، ويوم القصيبات ، ويوم العصيات ، ويوم قضة ، وهو يوم التحالق ،
وفيه حلق رجال بكر لمتهم ، وذلك ليميز البكريون عن غيرهم ، إلى غير
ذلك من أيام تجد أساءها في كتب الأخبار والتاريخ والأدب .

وقد توسط رؤساء بكر عند (مهلهل) بأن يوقف القتال ، بعد ان سقط
القاتل وهو (جسّاس) قتيلاً في معركة من هذه المعارك ، يقال أنها معركة
(يوم واردات) لكنه لم يقبل وأبى إلا الاستمرار في القتال حتى يشفي نفسه من
(بني بكر) ، فتدخل (الحارث بن عباد) عندئذ واشترك مع البكرين ، وتولى
أمر (بني بكر) ، ووقعت أيام أخرى أثرت في (بني تغلب) . وقد وقع

١ نهاية الأرب (٣٩٦/١٥) - ابن الأثير ، الكامل (٣١٢/١) .

٢ أبو الفداء ، المحاصر (٩٥/١) وما بعدها (طبعة دروب) ، المعارف (٦٠٥) وما بعدها ،
(دار الكتب المصرية) .

(مهلهل) في يوم (قصة) وهو يوم (تحلاق اللحم) أسيراً في أيدي (الحارث ابن عباد) ولم يكن يعرفه . فسأله الحارث عن مكان (مهلهل) قائلاً له : دلي على عدي بن ربيعة (وهو اسم مهلهل) وأخلي عنك . فقال له عدي : عليك العهود بذلك إن دلتك عليه ؟ قال . نعم . قال : فأنا عدي . فجزّ ناصيته وبركه . وقال فيه :

لهف نفسي على عديّ ولم أعرف عديّاً إذْ امكتني اليدان^١

وورد في بعض الأخبار ان الذي قتل (جسّاساً) هو (الهجرس) ، وهو ابن كليب ، وابن أخت جسّاس ، إذْ ان أمه هي (جليلة) . وكان جسّاس قد سباه ، ثم روجه ابنته ولكنه أبى إلا ان يقتل خاله ، أخذاً منه بدم والده . ويقال ان جسّاساً لم يقتل وإنما مات حتف أمه^٢ .

وفي هذا الأسر وجز الناصية كانت نهاية زعامه (مهلهل) على قومه ، فقد ترك أهله ، وفرّ الى (مذحج) ، حيث نزل بـ (بني جنب) ، فخطبوا اليه ابنته وقيل أخته فنعهم ، فأجبروه على تزويجها ، وساقوا اليه جلوداً من آدم . وكان قد كبر وتقدم في السن وضعف حاله فجاءه أجله بعد مدة غير طويلة ، ويقال ان عبيدين من عبيده اشتراهما (مهلهل) ليغزوان معه ، سئاً منه ، فلما كانا معه موضع قفر أجمعا على قتله ، فقتلاه ، وبذلك انتهت حياته ، وحياة حرب البسوس^٣ .

ويذكر أهل الأخبار ان العرب صارت تضرب المثل في شؤم (البسوس) وفي شؤم (سراب) ، فقالت (أسأم من البسوس) و (أسأم من سراب)^٤ .

- ١ العقد العرند (٢١٣/٥) وما بعدها ، صبح الأعشى (٣٩١/١) .
- ٢ الكامل ، لابن الأثر (٣١٩/١) ، الأغاني (٢٩٤/٤) ، (٢٩٤/٥) (بيروت) .
- ٣ النوبري ، نهاية الأرب (٣٩٦/١٥) ، ابن الأثر (٣١٢/١) ، صبح الأعشى (٣٩٩/١) ، العقد العرند (٢١٣/٥) ، سبائك الذهب ، الفصل الحادي عشر ، لسان العرب (٢٨/٦) .
- ٤ الميداني ، مجمع الأمثال (٣٨٧/١) ، ابن الأثر ، الكامل (٣١٢/١) ، سبائك الذهب (١٠٤) ، معامات الحريري (٢٦٠) ، (المكنبة التجارية) ، فرائد اللال في مجمع الأمثال (٣١٩/١) وما بعدها (المطبعة الكاثوليكية بيروت) ، ابراهيم بن السيد على الأحمد الطرابلسي ، جمال الدين محمد بن محمد بن نبانه المصري ، سرح العيون =

وقد اقحم الرواة شعراً في قصصهم عن هذه الحرب ، وذلك على عادتهم في رواية اخبار الايام ، وهو لا يخلو من أثر الإثارة والعواطف القبلية . ونجد في الشعر المنسوب الى البسوس تحريضاً أثار حساساً حتى دفعه على قتل (كليب) دون أن يفكر في سوء عاقبة ذلك القتل . ويعرف هذا النوع من الشعر بـ (الموثبات) . وهو من شعر التحريض . ومن هذا النوع الشعر الذي تقوله النساء في ندب الموتى لإثارة شجون الحاضرين ^١ .

ويعد (مهلهل) في جملة فرسان العرب الشجعان المعروفين . كما يعد في جملة الشعراء المتقدمين . لقب بـ (مهلهل) ، لانه اول من رقق الشعر ، او لقوله :

لا توغل في الكراع هجينهم هلهات أثار مالكاً او صنبلا فتدبر ^٢

وقد كان لتغلب جملة رؤساء ، منهم رئيس يقال له الجرّار ادرك النبي ، وأبى الاسلام فبعث رسول الله زيد الحيل الشاعر المشهور وأحد الشجعان المشهورين ، ليطلب منه الدخول في الاسلام كما نقول احدى الروايات او القتال ، فأبى الاسلام وقاتل حتى قتل ^٣ .

ولاعتزاز تغلب بنفسها ، ولشعورها بعزتها ، امتنعت عن دفع الجزية المفروض اداؤها على اهل الكتاب ، وذهبت الى عمر بن الخطاب قائلة له : (نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم ، ولكن خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض) . ورضيت بدفع ضعف ما يدفعه المسلمون صدقة أنفه من كلمة (جزية) ^٤ . وافندت قبائل

= شرح رساله ابن خلدون (٢٨ وما بعدها) (مصطفى البابي) ، الشعر والشعراء (٩٩ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، القسم الثاني (١٦٤ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٣٩١/١) .

- ١ دائرة المعارف الاسلاميه (٦٤٥/٣) (ترجمه ابراهيم شيتاوي وجماعته) .
- ٢ بلوغ الأرب (١٠٨/٣) ، الشعر والشعراء (٩٩) ، جمهوره أشعار العرب (٢١٨) ، شرح البريرى (٣١٠) ، الاشنفاى (٣٣٩) ، شرح العيون (٥٦) ، الكامل (٣١٦/١) .
- ٣ الاغانى (٥٢/١٦) (أخبار زيد الحيل) .
- ٤ السنين الكبرى (٢١٦/٩) ، (باب بشارى يغلب بصعف عليهم الصدقه) ، (فصل في شأن بشارى يغلب وسائر أهل الدمه وما يعامون به) . كتاب الحراج (١٢٠ وما بعدها) ، (الفاهره ١٣٥٢ هـ) . الدلادرى . مروج (١٨٥ وما بعدها) .

اخرى مثل تنوخ وهرء بتغلب ، فرضيت بدفع الصدقة التي يدفعها المسلمون مضاعفة مفضلين اياها على دفع الجزية ، لكي لا تكون في مصاف النبط ، ومن اف لفهم من غير العرب ، والمساواة فيها تعد اهانة لهم في نظرهم ، وان كان داعوها نصارى مثلهم ، وهم اخوانهم في الدين .

ودكر ان (عمر بن الخطاب) لما همّ بفرض الجزية عليهم ، قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم ، فإطلق (النعمان بن زرعة) أو (زرعة بن النعمان) الى (عمر) ، فقال له : انشدك الله في بي تغلب ، فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية ، وهم قوم سديدة نكايتهم ، فلا يعن عدوك بهم . فأرسل عمر في طلبهم وأضعف عليهم الصدقة ^١ .

ومن مواضعها التي كانت تبرك بها قبر القديس مارسرجيوس (مارسرجس) بالرصافة ^٢ .

وكانت تغلب ايضاً في جملة القبائل العدنانية التي خضعت لآل كندة ، حكم منهم عليها معديكرب المعروف بغلفاء ^٣ ، وخضعت ايضاً لحكم ملوك الحيرة الذين حاولوا اصلاح البين بين تغلب وبين بكر بن وائل ، فأخذوا رهائن من الطرفين ، ليمنعواهم بذلك من القتال ^٤ . وقد وقعت بين الحيين حروب طويلة ترد اخبارها في الايام ، كما وقعت بينها وبين يربوع وقبائل اخرى حروب سأحدث عنها في الفصل الخاص بأيام العرب قبل الاسلام .

وقد ثار التغليبيون مراراً على ملوك الحيرة وحاربوهم ، والواقع ان خضوع تغلب والقبائل الكبيرة الاخرى للملوك الحيرة لم يكن الا خضوعاً اسماً ، يتمثل في حمل الاتاوات الى الملوك ما داموا اقوياء ، ولذلك كان ملوك الحيرة كما كان

١ البلاذري ، فتوح (١٨٥ وما بعدها) .

٢ من شعر الأختل :

لما رأونا ، والصلب طالعا
وأبصروا راياتنا لوامعا
ومار سرجس ، وسما ناعا
خلوا لنا راذان والمزارعا

المشرق ١٩٣٦ (ص ٢٤٧) .

٣ الأغاني (٨٢/٩) .

٤ الأغاني (٤٢/١١) وما بعدها .

الأكاسرة والقياصرة يسترضون الرؤساء بالهبات والمال ، ومن جملة هؤلاء ، سادات (مشايخ) هذه القبيلة .

وأما بكر بن وائل ، فكان من نسله علي^١ ، ويشكر ، وبدن . وقد دخل بنو بدن في بني يشكر ، ومن بني يشكر الشاعر الحارث بن حلزة ، والريان الشكري ، سيد بني بكر في حربهم مع بني تغلب . وكان من نسل علي بن بكر ، صعب بن علي^٢ ، وهو والد مالك ولُجَيْم وعكابة . ومن مالك بن صعب سهل بن شيان بن زمان المعروف بالفد^١ . ومن بطون يشكر ، بنو غبر بن غم بن حبيب بن كعب بن يشكر ، وبنو كنانة ، وبنو حرب بن يشكر ، وبنو ذبيان بن كنانة بن يشكر^٢ .

وبكر بن وائل ، من القبائل الكبيرة التي كان لها شأن معروف عند ظهور الاسلام . وهي مثل القبائل العدنانية الاخرى من القبائل المهاجرة التي تركت ديارها القديمة على حد قول الاخباريين ، وهي تهامة ، على اثر الحروب الكثيرة الممّلة التي وقعت بين العدنانيين ، فهاجرت الى البهامة ثم الى البحرين والعراق . ويذكر انها اخذت تغزو مع تميم وعبد القيس حدود الفرس ، حتى اضطر (سابور) الثاني المعروف بـ (سابور ذي الاكتاف) حوالي سنة (٣٥٠ للميلاد) على مهاجمة هذه القبائل ومحاربتها ، وتخریب المنازل التي كانت تنزل بها . فلما انتهى من حروبه ، أمر بنقل كثير من الأسرى الى الأهوار وكرمان لإسكانهم هناك^٣ .

وفي القرن الخامس للميلاد ، كان الحكم على بكر وأكثر قبائل معدة على حد رواية الاخباريين في ايدي التبابعة ، ثم في ايدي ملوك كندة ، نصبهم التبابعة انفسهم ملوكاً على تلك القبائل . وكان أولهم حجر آكل المرار الذي انتزع من اللخمين ما كان في ايديهم من ملك بكر بن وائل ، ووسّع ملكه . فلما توفي حجر تولى الملك ابنه عمرو المعروف بالمقصور من بعده ، وبقيت بكر تابعة له ، وكذلك لابنه الحارث مغتصب عرش الحيرة على نحو ما ذكرت . وكان الحارث

١ جمهوره (ص ٢٩١) ، (بنو رمان) ، الاشعاف (٢٠٧) ، المعارف (٣٢) .

٢ المبرد (١٧) .

٣ أبو المداء (٤٨/١) ، الطبري (٦٦/٢) .

قد وزَّع أبناءه على القبائل ، ليتولوا ادارة شؤونها فعين ابنه شراحيل او شرحبيل او سلمة حاكماً على بكر . فلما اعاد انوار شروان عرش الحيرة الى اصحابه اللخمين ، وانتكس الأمر مع الحارث ، حتى اضطر الى الهرب الى ديار كلب او غيرها ، حيث لاقى مصيره بكيفية لم يتفق على وصفها الاخباريون ، وقعت النفرة بين اولاده ، ودب الخلاف بين ابنائه ، فاقتلوا ، وتحزبت القبائل واقتلت . ثم وجد رؤساؤها انها فرصة سانحة ، فاستقلوا عن كنده ، وعادت الى ما كانت عليه من الفرقة والاستقلال . وترأس كليب وائل تغلب وبكراً وقبائل معد ، وقاتل جموع اليمن ، وهزمهم ، وعظم شأنه ، وصار ملكاً زماناً من الدهر ، ثم داخله الزهو والعرور ، فبغى على اتباعه ، وحمل اكثر الارصين ، فلم يسمح لأحد بالرعي فيها الا باذنه ، فقتله رجل من بكر اسمه (جساس) في قصة يرويها الاخباريون ، فثارت تغلب ، وطالب اخو كليب وهو (مهلهل) بالأخذ بالثأر من بكر . فجرت بين القبيلتين حروب طويلة استمرت على ما يذكر الاخباريون اربعين عاماً ، هلك فيها خلق كثير وانتهت بمقتل جساس ، وهلاك مهلهل في قصص مُنمَّقة من هذا القصص الذي يرويها اهل الاخبار .^١

وقد أضعفت هذه الحروب القبيلتين ولا شك ، وقد تدخل ملوك الحيرة في الأمر ، فأصلحوا بينهم : أصلح بينهم المنذر بن ماء السماء على رواية ، أو عمرو ابن هند في رواية اخرى^٢ ، وقد كانوا مع المنذر الثالث في غزوته التي غزا بها الغساسنة ، كما كانوا مع النعمان بن المنذر . وقد حاربوا الفرس مع بني شيان ، فانتصروا عليهم في معركة ذي قار . وكان يؤيد الفرس من العرب تغلب وطيء واياذ وبهراء وقضاعة والعباد والنمر بن قاسط . وقد اتفقت اياذ سرّاً مع بكر بن وائل ، فانهزمت حين اشتباك المعركة ، فانهزمت الفرس ومن ساعد الفرس من القبائل التي اشتركت معها تأييداً لإياس بن قبيصة ، او بغضاً لبكر كما هو شأن تغلب ، او طمعاً في ربح من الفرس او رغبة في التقرب اليهم . وقد كان لهذه المعركة اثر كبير في نفوس القبائل ، ومركزها مع الفرس .

١ أبو الفداء (٧٧/١ وما بعدها) ، ابن خلدون (٣٠١/٢) .

٢ الأغاني (٢٢/١١ ، ٤٤ وما بعدها) .

ويظهر ان بكرأ لم تخضع للفرس ، ولا لحكم الحيرة بعد معركة ذي قار . وفي السنة التاسعة من الهجرة دخل قسم منها في الإسلام ، فعين الرسول المنذر بن ساوى عليها وعلى بني عبد القيس . غير انها ارتدت عنها بعد وفاة الرسول ، فهاجمت مع قيس بن ثعلبة برئاسة الحطيم بن ضبيعة البحرين ، وعينت (الغرور) ملكاً على هذه الديار . عندئذ أرسل أبو بكر عليهم جيشاً بقيادة العلاء الحضرمي ومن بقي على الإسلام من بكر وشيبان ، تمكن منهم وراحهم الى حظيرة الإسلام .

ومن لجييم بن صعب ، بنو حنيفة ، وبنو عجل ، ابنا لجيم بن صعب بن علي ، وبنو حنيفة هم أهل اليمامة ^١ . ومن حنيفة الدثئل ، وتقع مواطهم في اليمامة كذلك ^٢ . ومن ولد الدثئل بن حنيفة بنو مرة وعبد الله وذهل وثلعة . ومن بني مرة هودة بن علي بن ثمامة الذي توجه الى كسرى ، وعمرو بن عبد الله ابن عمرو بن عبد العزى ، وهو قاتل المنذر بن ماء السماء يوم عين أباغ ^٣ . ومن عدي بن حنيفة مسيلة الكذاب ^٤ .

وأما ولد عكابة بن صعب ^٥ . فهم : ثعلبة وهو الحضن ، وقيس وقد دخل بنوه في بني ذهل بن ثعلبة . فولد ثعلبة بن عكابة شيبان ، ودهل ، وقيساً ، والحارث . وقد دخل بنوه في بني أنمار بن دب بن مرة بن ذهل بن شيبان . وأهمهم رقاش ، وهي البرشاء بنت الحارث بن العتيك بن غم بن تغلب . وولد ثعلبة أيضاً تيم الله بن ثعلبة . وأمه الجدماء بنت حل بن عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ، وأتيد ، وضنة . ودخل بنو ضنة في بني عذرة . ودخل بنو أتيد في بني هند من بني شيبان ^٦ .

- ١ الجهمرة (٢٩١ ، ٤٣٩) ، نهاية الأرب (٣٣١/٢) ، الاشنفاق (٢٠٧) ، (لحيم) ، سبائك الذهب (٥٦) ، الانباء (ص ٩٧) .
- ٢ ناج العروس (٣٢٧/٧) ، لسان العرب (٢٤٩/١٣) ، الاشنفاق (٢٠٩) ، نهاية الأرب (٢٣١/٢) ، ابن خلدون (٣٠٢/٢) .
- ٣ جهمرة (ص ٢٩٢) ، البربري ، شرح الحماسة (١٥/٤) .
- ٤ المررد (١٦ وما بعدها) .
- ٥ لسان العرب (١٨/٢) ، الاشنفاق (٢١٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٣١/٢) ، ابن خلدون (٣٠٣/٢) ، كحاله (٨٠٣/٢) .
- ٦ حمهره (ص ٢٩٥ وما بعدها) ، سبائك الذهب (ص ٥٨) .

ومن ولد ثعلبة بن عكابة ، تيم الله ^١ . ومن ولد تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ، شيان ^٢ ، ومنهم أوس بن محصن ، وهو الذي أطلق له السي يوم أواره ، وصعير بن عامر وكان من فرسان بكر ^٣ .

ومن بني ذهل بن ثعلبة بن عكابه ، بنو سدوس بن شيان بن ذهل بن ثعلبة ، وتقع مواطنهم في اليمامة ، وكانوا أرداف ملوك كندة ^٤ . ونو رقاش وهم الرقاشيون أبناء مالك (ملكان) وزيد (زيد مناة) ابني شيان بن ذهل ابن ثعلبة بن عكابة من زوجه رقاش بنت ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ^٥ . وكان بنو شيان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابه من البطون الضخمة ، ورئيسهم في الجاهلية مرة بن ذهل بن شيان ، ومن نسله جساس قاتل كليب ^٦ .

ومن نسل قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ، ضبيعة ، وتيم ، وثلعة ، وسعد . ومن نسل ضبيعة الأعشى ميمون بن قيس الشاعر المعروف ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قيثة ، وشعراء آخرون . وتعدت هذه القبيلة في طليعه القبائل بكثرة من ظهر فيها من الشعراء ^٧ . وتقع منازل قيس في اليمامة . وكانت صلاتهم وثيقة بالناذرة . ومنهم كتيبة الصنائع إحدى كتائب النعمان بن المنذر ^٨ .

ومن بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيان ، عمرو بن أبي ربيعة بالزدلف ، وانه حارثة ذو التاج ، وكان على بني بكر يوم أواره ، وهانيء بن مسعود

- ١ ناج العروس (٢٠٣/٧) ، (٢١٦/٨) ، الاشفاق (٢١٢) ، ابن خلدون (٣٠٣/٢) .
- ٢ لسان العرب (٤٩٥/١) ، صبح الأعشى (٣٣٨/١) ، نهاية الأرب (٣٣٢/٢) ، ابن خلدون (٣٠٣/٢) ، الاشفاق (٢١٠) .
- ٣ حمرة (ص ٢٩٦) .
- ٤ لسان العرب (٤١٠/٧) ، الاشفاق (٢١١) .
- ٥ حمرة (ص ٢٩٨ وما بعدها) ، العاموس (٢٧٥/٢) ، لسان العرب (١٩٥/٨) ، ناج العروس (٨٤/٩) ، كحالة (٤٤٢/٢) .
- ٦ ابن خلدون (٣٠٣/٢) .
- ٧ حمرة (ص ٣٠٠) ، شيجو . شعراء البصريين : القسم الثالث في شعراء بكر بن وائل من بني عدنان (٢٦٤ وما بعدها) ، كحالة (٩٧١/٣) .
- ٨ ابن خلدون (٣٠٣/٢) ، ناج العروس (٢٤٢/٢) ، (٢٣٣/١٠) ، نهاية الأرب (٣٣٢/٢) ، حمرة (٣٠٠ وما بعدها) .

الشياني الذي هاج القتال بين بني بكر وبني تميم وضبة والرباب يوم ذي قار ، ومفروق واسمه النعمان بن عمرو الأصم ، وهو من فرسان بكر وساداتهم ، وأعشى بني ربيعة ، وهو عبد الله بن حارجة بن حبيب بن قيس بن عمرو ابن أبي ربيعة الشاعر^١ .

ومن بني مرة بن ذهل بن شيان ، همام ، وجساس فائل كليب التغلبي ، والمثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل الشياني القائد الإسلامي الشهير فائل مهران^٢ .

وأما عك ، فهم من القبائل العربية القديمة ، وهم (أكيتة) (Akkitai) عند (بطلميوس) ، ولا نعرف من أخبارها في نصوص المسند شيئاً . ويظهر من اختلاف النسابين في نسبها ، ومن جعلها من قحطان تارة ومن عدنان تارة أخرى ، أنها كانت على اتصال بالجماعين ، واختلطت بهما بالفعل ، ولهذا الاختلاط أثره في تكوين الأنساب ، كما أن لمحالقاتها لقبائل عدنان وقحطان أثره في النسب .

ولهذا نجد بعض النسابين يجعلون عكاً ابناً لعدنان ، فهو على حد قولهم شقيق معد ، ونجد بعضاً آخر يسميه الحارث ، ويجعل عكاً لقباً له ، ثم يصيره ابناً للديث بن عدنان فيقول : هو عك بن الديث بن عدنان ، أي أنه حفيد عدنان . ثم نجد قسماً آخر يصيره من الأزد ، أي من قحطان ، فيجعله عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد ، بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان^٣ . وأرى أن (عدنان) و (عدنان) كلمة واحدة . وقع فيها تحريف ، فصارت الكلمة الواحدة كلمتين ، وليس من المستغرب وقوع ذلك . فالكلمتان واحدة في الحروف ، ما عدا حرفي الثاء والون اللذين يتشابهان في الرسم أيضاً فيما عدا عدد النقط .

- ١ جمهرة (ص ٣٠٥) .
- ٢ جمهرة (ص ٣٠٥ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٣٣/٢) ، الاشتقاق (١٥) ، كحالة (١٠٧١/٣) .
- ٣ جمهرة (ص ٣٠٩) ، ابن خلدون (٢٩٩/٢) ، طرفه الأصحاب (ص ٦٥ وما بعدها) ، ناج العروس (١٦٤/٧) ، لسان العرب (٣٥٧/١٢) ، الصحاح (١٤١/٢) ، الصفة (٥٤) .

وقد رجح نشوان بن سعيد الحميري ، وهو من اليمن من حمير ، رأي القائلين من النسابين برجوع نسب عكّ في الأزد ، فقال : (عكّ قبيلة من العرب يقال لهم ولد عكّ بن عدنان أخي معد ، ويقال لهم ولد عكّ بن عدنان بن عبد الله بن الأزد ، وهو أصح القولين . وإنما سبب انتسابهم في معدّ ان غسان وقت خروج الأزد من مأرب نزلوا تهامة وبها عكّ ، فخيرتهم عكّ بين شرقي تهامة وغربيها ، فاختارت غسان الشرقي ، ومكثت به زماناً ، حتى قيل لهم إن عكاً أئخن منكم لبناً ، وأدسم منكم سمياً ، لأن أموالكم إذا سرحت استقبلت الشمس ، وإذا راحت استقبلت الشمس ، فأحرّت الشمس رؤوسها ، وأموال عكّ تستدبر الشمس عند الطلوع والغروب ، فاستقالت غسان عكاً ، فلم تقلها ، فاقتلوا ، فقتلت غسان عكاً قتلاً ذريعاً وأجلتها عن كثير من أوطانها ، فن ثم انتف عكّ من اليمن ، وانتسبت الى معدّ)^١ .

وقد ذكر نشوان شعراً جاء فيه :

ألم ترَ عكاً هامة الأزد أصبحت مذبذبة الأنساب بين القبائل
وعقت أباهما الأزد واستبدلت به أباً لم يلدّها في القرون الأوائل ؟

ومن ولد عكّ علقمة ، ومن ولد علقمة الشاهد ، ومن ولد الشاهد غافق ، من نسل هؤلاء تفرعت سائر عكّ^٢ . ونجد بعض النسابين يغفلون علقمة ، ويجعلون الشاهد ولداً من أولاد عدنان ، ومنهم من جعل لعك ولدين ، هما : الشاهد ، وعبد الله ، وجعل للشاهد ولدين كذلك ، هما غافق ، وساعدة ، ولعبد الله بطنين كذلك ، هما : عبس وبولان . ومن بطون غافق ، القيانة ، والمقاصرة ، ودهنة . ومن بطون ساعدة : لام ، وصخر ، ودعج ، ونعج ، وزعل ، وقين ، وقاضية ، وعلاقة ، وهامل ، ووالبة- ، وقحر . ومن بطون عبس : زهير ، ومالك ، وطريف ، وزيد ، والعساق ، والحجبية ، وغنم ،

١ مننخبات (ص ٧٤) .

٢ سبائك الذهب (ص ٦٣) ، جمهرة (ص ٣٠٩) ، ابن خلدون (٢/٢٩٩) ، نهاية الأرب (٢/٣١٢) ، ناج العروس (٧/٣٧) ، أبو الفداء (١/١٠٧) ، كحالة (٣/٨٧٥) .

وتاج ، ومنسك ، ومن بطون بولان : الهليلي ، والحربي^١ . ويلاحظ ان معظم قبائل عكّ وبطونها ، هي في اليمن ، بينما هي قبائل عدنانية على رأي أكثرية النسابين . وقد علل بعض النسابين ذلك بقوله : (وإنما كثرت قبائل عكّ بن عدنان باليمن ، لأن عكّا تزوّج بنت أشعر ، فأولد فيهم ، فكانت الدار واحدة لذلك السبب)^٢ .

وسمى النسابون ابن مضر عيلاناً كذلك^٣ ، وقال بعضهم (إن عيلاناً لم يكن بأب لقيس ولا ابن لمضر ، وإنما هو قيس بن مضر . وعيلان اسم فرس لقيس مشهور في خيل العرب مفضل ، وكان قيس بن مضر يسابق عايه . وكان رجل من بجيلة يقال له قيس كة الهرس له مشهورة أيضاً ، وكانا متجاورين في دار واحدة قبل ان تلحق بجيلة بأرض اليمن . وهذا على مذهب من جعل بجيلة ابناً لأنمار بن نزار . وكان فرسهما مشهورين مذكورين ، فكان الرجل إذا سأل عن قيس ، أو ذكر قيساً ، قيل له : أقيس عيلان نريد ، أم قيس كبّة ؟ فصار قيس لا يعرف إلا بقيس عيلان ، وهو قيس بن مضر بن نزار . وقد قيل إن قيساً سُمتي عيلان بغلام كان له ، وقيل سُمتي عيلان بكلب كان له يقال له عيلان)^٤ الى غير ذلك من تفاسير وتعليلات تشير الى اضطراب النسابين والاختبارين في الناس وفي قيس عيلان^٥ .

وقد عرف المتنبون الى قيس عيلان بـ (قيس) و (بقيس عيلان) و بـ (عيلان) و بـ (القيسيين) و بـ (القيسية) كذلك^٦ ، وهي من الكتل القبائلية الضخمة . ومع ذلك لا نعرف من تأريخها قبل القرن السادس للميلاد شيئاً يذكر . ولم يرد اسمها في كتب (الكلاسيكيين) . وقد ذكر لها الاخباريون

١ طرفة الأصحاب (ص ٦٤ وما بعدها) .

٢ طرفة الأصحاب (ص ٦٦) .

٣ سبائك الذهب (ص ٢١) ، الصحاح للجوهري (٤٧٢/١) ، لسان العرب (٧١/٨) .

تاج العروس (٤٠/٨) ، العاموس (٢٤٤/٢) ، الاشتقاق (١٦٢) ، ابن حلتون

(٣٠٥/٢) ، أبو الفداء (١١١/١) ، بهانه الأرب (٣٣٤/٢) وما بعدها . كحاله

(٩٧٢/٣) وما بعدها) .

٤ الانباه (ص ٨١ وما بعدها) .

٥ راجع التفاسير الأخرى لمعنى عيلان في : الاشتقاق (ص ١٦٢ وما بعدها) .

٦ Ency , II, P 652

أياماً عديدة . تشمل حروباً وقعت بين القبائل القيسية نفسها ، وحروباً وقعت بين قيس وقبائل أخرى من غير قيس . وقد خضعت قبائل قيس مثل أكثر القبائل العدنانية الأخرى لحكم مملكة كندة القصير^١ .

وقد ولد الناس أو عيلان قيساً ودهمان . وقد جعل بعض النسابين . قيساً ابناً لمضر ، وقالوا : انه عيلان ، وان عيلان عبد حضنه ، فنسب قيس اليه^٢ . وقد ولد قيس عدة اولاد ، هم : خصفة^٣ ، وسعد ، وعمرو^٤ . ومن ولد عمرو فهم ، والحارث وهو عدوان^٥ ، وأمهها جديلة بنت مر بن أد ، فنسبوا اليها . وقيل : هي جديلة بنت مدركة بن الياس^٦ .

وكان لفهم عدة أولاد ، منهم : قيس ، وسعد ، وعامر ، وعائد ، ومن بني سعد تأبط شراً الشاعر^٧ . وكانت الطائف من مواطن فهم ، وعدوان ، ثم غلبتهم عليها ثقيف ، فخرجوا الى تهامة ونجد . ومن بني طرود ، وهم بطن من فهم ، كان بأرض نجد ، الأعشى^٨ .

أما أبناء عدوان بن عمرو ، فهم زيد ، ويشكر ، ودؤس . ويقال انهم دؤس التي في الأزد ، وكانت ديارهم بالطائف ، ثم تركوها بعد نزول ثقيف فيها وارتحلوا الى تهامة^٩ . ومن ولد زيد بن عدوان ، أبو سيارة الذي كان يدفع

Ency., II, P. 654.

- ١
- ٢ جمهرة (ص ٢٣٢) ، الاشتقاق (ص ١٦٢) .
- ٣ ابن خلدون (٣٠٧/٢) ، لسان العرب (٤٢١/١٠) الصحاح (٢٠/٢) ، كحالة (٣٤٥/١) .
- ٤ جمهرة (ص ٢٣٢) ، سبائك الذهب (ص ٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٦٢) ، المبرد (ص ١٠) .
- ٥ طرفة الأصحاب (ص ٦١) .
- ٦ جمهرة (ص ٢٣٢) ، لسان العرب (١١٢/١٣) ، الانساب (٨٣) ، كحالة (١٧٣/١) .
- ٧ جمهرة (ص ٢٣٢) ، الاشتقاق (ص ١٦٢ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٤٣/٢) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، تاج العروس (١٦/٩) .
- ٨ الأغاني (٧٥/٤) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) .
- ٩ ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، نهاية الأرب (٣٤٣/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٦/١) ، أبو الفداء (١١٢/١) ، لسان العرب (٢٧٠/١٩) ، القاموس (٣٦٠/٤) ، كحالة (٧٦٢/٢ وما بعدها) .

بالناس في المواسم . ومن بني يشكر بن عدوان ، عامر بن الظرب بن عمرو بن عبيّاذ بن يشكر بن عدوان ، وقد عرف عامر بن الظرب هذا بـ (حاكم العرب) في الجاهلية . وهو شقيق سعد ، وعمر ، وصعصعة ، وثعلبة . ومن بني ثعلبة بن الظرب ، ذو الأصبع العدواني من الشعراء المعروفين^١ . ومن بطون عدوان الأخرى ، بنو خارجة ، وبنو وابش ، وبنو رهم بن ناج^٢ .

ومن نسل سعد بن قيس عيلان ، غطفان ومنبه وهو أعصر^٣ . أما غطفان ، فقبيلة كبيره معروفة ، وهناك قبيلة أخرى تسمى بـ (غطفان) كذلك ، وهي يمانية ، تنسب إلى غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام^٤ . أما هذه ، فعدنانية في عرف النسّابين ، وتقع منازل هذه القبيلة شرقي خيبر وحدود الحجاز إلى جبليّ طيء^٥ .

وقد وقعت بين غطفان وبني عامر بن صعصعة عدة أيام ، منها : يوم الرقم ، ويوم القرنين ، ويوم طوالة ، ويوم قرن^٦ . وقد كانوا مع الأحزاب في محاربة الرسول . وكانوا يعبدون العزّى . شجرة بنخلة عندها وثن تعبدها غطفان ، سدنتها من بني صرمة بن مرة ، وكانت قریش تعظمها ، وكانت غنى وباهلة تعبدها معهم . هدمها خالد بن الوليد ، وهدم البيت وكسر الوثن . وكانوا يطوفون حول البيت ، بيت بساء تشبهاً بطواف القبائل الأخرى حول الكعبة بمكة ، ولهم صنم آخر موضعه في مشارف الشام يسمى الأقيصر^٧ .

ومن رؤساء غطفان الذين سادوا فيها ، زهير بن جذيمة العبسي ، وقد قاد غطفان كلها ، وعمرو بن جؤيّة بن لوذان الفزاري ، وقد قاد غطفان كلها إلى

١ جمهرة (ص ٢٣٢ وما بعدها) ، الاشنفاقي (ص ١٦٤) .

٢ الاشنفاقي (ص ١٦٣) .

٣ جمهرة (ص ٢٣٣) ، الاشنفاقي (ص ١٦٤) ، المررد (ص ١٠) .

٤ ابن خلدون (٢٥٦/٢) ، نهاية الأرب (٣٠٨/٢) ، كحالة (٨٨٩/٣) .

٥ Ency , II, P. 144.

٦ كحالة (٨٨٨/٣) .

٧ المجبر (ص ٣١) ، كحالة (٨٨٩/٣) .

يوم الحنان الى بكر بن وائل ، وبدر بن عمرو ، وقد قاد غطفان لبني أسد ، وعيينة بن حصن بن حذيفة ، قاد غطفان الى بني تغلب يوم الساجسي^١ .

ويبدأ تاريخ غطفان باستقلال قبائل معدّ ، وخروجها من حكم اليمن على ما يرويه الاخباريون . وكان رئيس قبائل غطفان في هذا العهد زهير بن جذيمة العبسي سيد عبس ، وعبس من غطفان . وقد تلقب بلقب ملك وجي الإتاوة من هوازن ، ثم قتله خالد بن جعفر بن كلاب ، فترأس عبس ابنه قيس ، وترأس دبيان - وهي من قبائل غطفان كذلك - حذيفة بن الفزاري . وتمكن الحارث بن ظالم أحد القُتاتك في الجاهلية من قتل خالد بن جعفر ، وهو في جوار ملك الحيرة ، وقد أدت هذه الحوادث الى تشتيت قبائل غطفان ، والى نشوب حروب بينها خاصة بين عبس وذبيان^٢ .

وقد كانت قبائل غطفان في جملة القبائل التي قاومت الإسلام ، واشتركت مع القبائل الأخرى في محاربة الرسول ومهاجمة المدينة ، ثم أسلمت في السنة الثامنة للهجرة . وبعد وفاة الرسول عادت أكثرية غطفان ، فارتدت عن الإسلام ، وهاجمت المدينة . ولكن أبا بكر تمكن من صدّها ، ثم عادت كما عاد غيرها الى حظيرة الإسلام .

وولد غطفان ثلاثة أولاد ، هم : ريث ، وبغيض وأشجع على رواية^٣ ، وولد ريثاً وعبد العزّي على رواية أخرى . وقد بدل رسول الله اسم عبد العزّي فجعله عبد الله ، فعرف نسله بالاسم الجديد^٤ . وقد ولد ريث من الولد أهون ، ومازناً وأشجع وبغيضاً^٥ ، وذلك على رواية من جعل لغطفان ولدين ، هما : ريث وعبد العزّي .

١ المحبر (ص ١٩٢ ، ٢٤٨ وما بعدها) .

٢ المحبر (ص ١٩٢ وما بعدها) ،

٣ الاشتقاق (ص ١٦٧) ، ناج العروس (٦٢٦/١) .

٤ جمهرة (ص ٢٣٧) .

٥ جمهرة (٢٣٨) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، ناج

Wustenfled, Genea , Taf. H.

العروس (٦٢٦/١) ،

ومن بطون أشجع^١ بكر وسبيع ، ومن سبيع حلاوة^٢ (خلاوة)^٣ ، وهفان وفتيان ، وقنفذ ، وذبيان^٤ .

وتقع مواطن أشجع في الحجاز بضواحي يثرب ، وكانوا حلفاء للخزرج من الأزد . وقد ساعدوهم في يوم بعاث^٥ . وقد كان بينهم وبين سليم بن منصور يوم كان في موضع الجر^٦ .

ومن ولد بغض^٧ : عبس ، وذبيان ويضاف إليهما أنمار في بعض الروايات . ومن نسل عبس قطيعة ، ووردة ، والحارث ، وورقة^٨ . ومن نسل قطيعة^٩ زهير بن جذيمة سيد بني عبس ، وجميع غطفان ، وفيس بن زهير بن جذيمة صاحب حرب داحس والغبراء ، والربيع بن زياد ورير النعمان ، والحارث بن زهير قتله كليب يوم عراعر ، وشأس بن زهير قتله فزارة^{١٠} ، ومن عبس عنزة بن شداد البطل الجاهلي الشهير^{١١} .

وهناك جملة قبائل وبطون عرفت بعبس ، ففي أسد وحنيفة وهوارن وعمرو

- ١ (أشجع) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، تاح العروس (٩٢/٣ ، ٣٩٣/٥) ، البكري (٣٢٩/١ وما بعدها) ، لسان العرب (٤٠/١٠) ، نهابة الأرب (٣٢٣/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٤/١) .
- ٢ (حلاوة) جمهرة (ص ٢٣٨) ، (هكذا ضبط الاسم ليهي بروفسال) .
- ٣ سبائك الذهب (ص ٥٠) ، تاح العروس (١١٩/١٠) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، Wustefeld, Genea, Taf H.
- ٤ سبائك الذهب (ص ٣٥) ، (نجد أخطاء عديدة في الطبع) ، تاح العروس (٢٧٦/١٠) ، Wustefeld, Genea, Taf H.
- ٥ الأغاني (١٥٢/١٥) .
- ٦ كحالة (٢٩/١) .
- ٧ نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، لسان العرب (٣٩٠/٨) ، كحالة (٨٦/١ وما بعدها) .
- ٨ جمهرة (ص ٢٣٩) ، أما أسد دريد فاكتفى بذكر ولد بن لعبس ، هما : قطيعة وورقة . الاشتقاق (ص ١٦٩) ، نهابة الأرب (٣٢٣/٢) ، Wustefeld, Genea, Taf II
- ٩ (قطيعة بن عبس) ، نهابة الأرب (٣٢٣/٢) .
- ١٠ جمهرة (ص ٢٣٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٦٩) ، نهابة الأرب (٣٢٣/٢) ، ابن خلدون (٣٠٦/٢) .
- ١١ طرفة الأصحاب (ص ٦٢) .

ابن قيس عيلان وعكّ بطون عرفت بعبس ، وهي تسمية معروفة وردت في الكتابات الصفوية والتدمرية والنبطية ^١ ، فهي من الأسماء القديمة المعروفة عند العرب الشماليين .

وتعد عبس جمرة من جمرات العرب ، وجمرات العرب هي : ضبة بن أد ، وعبس بن بغيض ، والحارث بن كعب ، ويربوع بن حنظلة ، وبنو نمير بن عامر أو أقل من ذلك على حسب تعدد الروايات ^٢ . ويقصدون بالجمرة القبيلة التي لا تنضم الى أحد ، ولا تحالف غيرها ، وتصبر في قتال من يقاتلها من القبائل ، أو القبيلة التي يكون فيها ثلاث مئة فارس أو ألف فارس ^٣ . وهو تعريف لا يمكن ان ينطبق على قبيلة ما من القبائل ، حتى على هذه القبائل التي قالوا عنها أنها الجمرات ، فلا بد في القتال بين القبائل من حلف ، ومن طلب مساعدة القبائل الأخرى . ولذلك نجد الأخباريين يذكرون ان بعض هذه القبائل طفئت لأنها حالفت القبيلة الفلانية . فذكروا ان ضبة طفئت لأنها حالفت الرباب ، وان الحارث طفئت لأنها حالفت مذحجاً ، وان عبساً طفئت أيضاً لانتقالها الى بني عامر بن صعصعة يوم جيلة ^٤ . وهكذا إذا استقيصت كلام الأخباريين الوارد في مناسبات أخرى عن هذه القبائل ، تجد انه يصادم ما قالوه من عدم تحالف القبائل المذكورة وانضمامها الى القبائل الأخرى . وظني ان شهرة عبس في الشجاعة خاصة من دون القبائل الأخرى إنما وردت اليها من هذا القصص المروي عن عنرة ابن شدّاد .

ومن ولد ذبيان ^٥ فزارة وسعد ^٦ ، وفي روايات أخرى ان والد سعد هو ثعلبة

١ Ency., I, P. 73.

٢ المحبر (ص ٢٣٤) .

٣ ناج العروس (١٠٧/٣) ، لسان العرب (٢١٥/٥) ، الفاموس (٣٩٣/١) .
٤ من شعر بنسب لأبي حية النميري :

لما جمرات ليس في الأرض مثلها كرام وفد جرين كل النجارب

نمير وعبس بقي بعنائها وصبة فوم بأسهم غير كادب

ناج العروس (١٠٧/٣) ، لسان العرب (٢١٥/٥) ، منتخبات (ص ٢٢) .

٥ ابن خلدون (٣٠٦/٢) ، ناج العروس (٢٨٧/٦ ، ١٣٥/١٠) ، الصحاح

(٤٧٧/٢) ، لسان العرب (٣٠٩/١٨) ، الاشتقاق (١٧١) .

٦ الاشتقاق (ص ١٧١) ، حمرة (ص ٢٤٠) .

ابن ذبيان^١ . وولد سعد عوفاً ، وهو والد مُرّة وثعلبة^٢ . ومن بني مُرّة بن عوف خزيمّة ، وغطفان ، وسانان . ومن بني سان هَرم بن سنان ، وبنو يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف ، ومنهم النابغة الذبياني ، والحارث بن ظالم ابن جذيمة بن يربوع بن غيظ من الفتاك ، ومن بني مرة بنو سهم بن مرة^٣ . ومن بني ثعلبة بن سعد ، بنو بجالة بن ثعلبة بن سعد ، وبنو عجب بن ثعلبة بن سعد ، وبنو رزام بن ثعلبة بن سعد^٤ .

وقد وقعت بين بني عبس وذبيان حروب عديدة ، سأحدث عنها في الايام ، والظاهر انه كانت بين القبيلتين منافسة شديدة .

اما فزارة ،^٥ فولد عدياً ، وظالماً ، ومارباً ، وشمخاً^٦ (سمخا)^٧ (شمجا)^٨ ، ومرة . ومن بني عدي : بغيض بن مالك بن سعد الذي اجتمعت عليه قيس في الجاهلية ، وبنو بدر بن عمرو بن حويّة بن لوزان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة ، وهم بيت فزارة وعددهم ، وبنوه حذيفة الذي يقال له ربّ معد ، وحمل ، المقتولان يوم الهبأة ، ومالك ، وعوف ، المقتولان في حرب داحس والعبراء ، والحارث ، وربيعة ، وقد سادوا كلهم^٩ . ومن بني ظالم ،

- ١ الاشتقاق (ص ١٧٤) ، كحالة (٥١٤/٢) .
- ٢ حمهرة (ص ٢٤٠) ، نهاية الأرب (٣٢٤/٢) .
- ٣ حمهرة (٢٤١) ، المحبر (١٩٢) .
- ٤ نهاية الأرب (٣٢٤/٢) .
- ٥ (فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر) ، نهاية الأرب (٣٢٤/٢) ، لسان العرب (٣٦١/٦) ، القاموس (٨٤/٢ ، ١٤٩) ، تاج العروس ، (٤٧٠/٣) (١١٧/٩) ، المبرد (١١) ، أبو الفداء (١١٢/١) .
- ٦ الاشتقاق (ص ١٧١) ، القاموس (٢٦٢/١) ، لسان العرب (١٣٣/٣) ، ابن خلدون (٣٠٦/٢) ، تاج العروس (٦٥/٢) ، المعري . البيان (ص ٥٣) .
- ٧ (سمخ) هكذا ضبطه (لبقي بروفسال) ، حمهرة (ص ٢٤٣) .
- ٨ (شمع) (شمع) ، كحالة (٦٠٨/٢) ، بنو شمع بن فزارة من ذبيان . قال ابن بري : قال الجوهري : بنو شمع من ذبيان بالجمع قال : والمعروف عند أهل النسب . بنو شمع بن فزارة بالخاء المعجمة ساكنة الميم ، لسان العرب (١٣٣/٣) .
- ٩ حمهرة (ص ٢٤٣ وما بعدها) .

نعامة الذي يتمثل به في ادراك الثأر ، وكان فيه هوج ، ورويت له امثال كثيرة ^١ .
ومن بني شمع ، ظويلم المعروف بمانع الحريم ، (سُمّي بذلك لأنه خرج في
الجاهلية يريد الحج ، فزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فأراد ان يأخذ
منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ، ولذلك سُمّي الحريم .
وكانوا يأخذون بعض ثيابه او بعض بدنته التي ينحر ، فامتنع عليه ظويلم ، وقال :

يا ربّ ، هل عندك من غفيره ان منى مانعه المغيره
ومانع بعد منى ثبيره ومانعي ربّي أنْ أزوره

وظويلم الذي منع عمرو بن صرمة الإتاوة التي كان يأخذها من غطفان ^٢ .

وتقع مواطن فزارة بنجد وبوادي القرى ^٣ ، وانتشروا بعد ذلك - وخاصة
في الفتوحات الاسلامية - في مواطن اخرى ، وذهبت بطون منهم الى شمال
افريقية . وكان الحذيفة بن بدر رئيس فزارة اثر خطير في حرب داحس التي
وقعت بين عبس وذبيان ، ولهم حروب وايام مع القبائل الاخرى مثل حربها مع
عمرو بن تميم ومع التيم ومع هوازن ومع بني جشم بن بكر ومع بني عامر .
يذكرها اهل الاخبار في حديثهم عن الايام . وقد قاد حذيفة بن بدر فزارة ،
ومرة يوم النصار ، ويوم الجفار ، وفي حرب داحس حتى قتل فيها يوم الهبأة ^٤ .
وقد عرف (حذيفة) هذا ب (ربّ معد) ^٥ . وكان ابنه (حصن) من
سادات فزارة .

ومن بني مازن بن فزارة : بنو العشراء ^٦ ، (وبنو سيار بن عمرو الذي

-
- ١ الاشتقاق (ص ١٧١) .
 - ٢ الاشئفاق (١٧٢) .
 - ٣ الهمداني : الصفة (١٧٤ ، ١٧٧ وما بعدها) ، البكري (٦٣/١ ، ١٦٠ ، ٢٢٣ ،
٢٥٦ ومواضع أخرى) ، لسان العرب (٣٦١/٦) .
 - ٤ المحبر (ص ٤٦١) .
 - ٥ المحبر (ص ٢٤٩) .
 - ٦ (بنو العشراء ، وهو عمرو بن جابر بن عميل بن هلال) ، الاشتقاق (ص ١٧٢) ،
القاموس (٩٠/٢) ، لسان العرب (٣٥١/٦) ، المحبر (ص ١٣٥) .

رهن قومه بألف بعير ، وضمنها لملك من ملوك اليمن ، وذلك ان بني حارث بن مرة ، قتلوا ابناً لعمر بن هند ، فرهن سيار قوسه ^١ . ومن ولد سيار ، زبّان ، وقطبة . ومن ولد قطبة هرم بن قطبة ، وهو من حكماء العرب ، واليه تحاكم عامر بن طفيل وعلقمة بن علاثة ، وكان ممن أدركوا الاسلام ^٢ .

وأما ولد أعصر بن سعد بن قيس عيلان ^٣ ، فهم : مالك ، ومن نسله باهلة ، وعمر بن غني ، وأمه من همدان ، وثعلبة وعامر ومعاوية ، وأمه الطفاوة بنت جرم بن (زبّان) ^٤ .

ومن ولد مالك ، سعد مناة ، وأمه باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج ، وبها عرف سعد مناة ونسله . ومعن بن مالك وهو الذي خلف أباه علي باهلة ، ومن نسله عمارة بن عبد العزى ، قاتل عبد الدار بن قصي ^٥ . ومن بطون باهلة بنو قتيبة ، ومنهم بنو سهم ، وبنو أصمع ، ووائل بن معن ^٦ . وتقع منازل هذه القبيلة في الهامة في الأصل ^٧ ، ويظن بعض المستشرقين انها قبيلة (Bahilitae) (Pachylitae) التي ذكرها (بلينيوس) ^٨ . وقبيلة (Biliulac) الوارد اسمها في جغرافية (بطلميوس) ^٩ .

١ الاشتقاق (ص ١٧٢) ، (سيار ذو القوس الذي رهن قوسه على ألف بعير في قتل الحارث بن ظالم ، من النعمان الأكبر) ، المحبر (ص ٤٦١) .

٢ الاشتقاق (ص ١٧٢) ، المحبر (١٣٥) .

٣ تاج العروس (٤٠٦/٣) ، الصحاح (٣٦٦/١) ، لسان العرب (١٤٦/٦) ، كحالة (٣٥/١) .

٤ لسان العرب (٢٣٤/١٩) ، نهاية الأرب (٣٣٤/٢) ، جمهرة (ص ٢٣٣) ، الاشتقاق (ص ١٦٤) ، المبرد (ص ١٠) ، (الطعارة) ، البلخي (١٢٣/٤) .

٥ جمهرة (ص ٢٣٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٠٦/٣) ، وفد نسبت (باهلة) الى همدان كذلك ، الصحاح (١٥٩/٢) ، لسان العرب (٧٦/١٣) ، ابن خلدون (٣٠٥/٢) ، أبو الفداء (١١١/١) .

٦ المبرد (١٠) ، الاشتقاق (١٦٤ وما بعدها) ، منتخبات (ص ١٠) .

٧ (ديار باهلة) ، (أرض باهلة) ، مراصد (٣٠/١ ، ٤٩٦ ، ٢٦/٢) ، Ency., I, P 576, Blau, in ZDMG., 1869 (XXIII), S., 584.

٨ تاريخ العرب قبل الاسلام (٣٢١/٣) ، Pliny, 6, 32, Glaser, Skizze, II, P. 145.

٩ تاريخ العرب قبل الاسلام (٤١٦/٣) ، Blau, in ZDMG , (1898), 22, S, 670, 1869, 23, S, 584.

وأما غنيّ ، فقبيلة كانت ديارها في جوار طيء وعند حمى ضَرِيّة^١ . ومنها رباح بن الأشل ، وابن أخيه ثعلبة قاتل شأس بن زهيرة بن خزيمه العبسي . وقيل : ان رباحاً هو قاتل شأس . وكانت لهم طاعنة ضحمة بالشام^٢ . ومن بطون غنيّ عبد ، وزبان ، وصريم ، وضينة^٣ ، وبنو عتريف^٤ . وكانت لهم حروب مع عبس ومع زيد الخيل . ومن اصنامهم التي عبدوها : اللات ، ومناة ، والعزى^٥ . ومن شعرائهم طميل بن عمرو الغنوي^٦ ، وكعب بن سعد الغنوي^٧ .

ومن ولد خصفة بن قيس عيلان . عكرمة ، وأمه اخت كلب بن وبرة لأبيه^٨ ، ومحارب^٩ . ومن محارب : عامر بن وهب بن مجاشع المعروف بذي الرحين ، وكان سيّد قومه ، وقد غزا باهلة وأوقع فيها ، وأسر منها ، وسبع الوارث ، وهو مالك بن عمرو بن حارثة بن عبد بن سلول الكيدبان ، واسمه عبد الله . القائل لرسول الله : (جملي احب اليّ من ربك)^{١٠} ، والعقب من

١ نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، البكري (٨٦٦/٣) (تحقيق السفا) ، الصفة (ص ١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧٤) ، الأغاني (١٤٧/٧ ، ٩/١٠ وما بعدها) ، كحالة (٨٩٦/٣) ،
Ency. II. P. 584.

٢ جمهرة (ص ٢٣٦) .

٣ وفيهم نقول لبيد :

ابني كلاب كف ننمي جعفر
وبنو ضبيينة حاصروا الأجباب
الاشتقاق (١٦٥) ، المبرد (١٠) ،

Wustenfled, Genea., 2 Abt., Taf., Reglster, S, 170.

٤ المبرد (١٠) ، Register, S. 170

٥ Ency., II, P 140

٦ Ency., II, P 140

٧ شيخو : شعراء النصرانية (القسم الخامس في شعراء نجد والحجاز والعراف)
(ص ٧٤٦) .

٨ لسان العرب (٣١٠/١٥) ، الفاموس (١٥٣/٤) ، حمهرة (٢٤٧ وما بعدها) ،
كحالة (٨٠٤/٢) .

٩ جمهرة (٢٤٧) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، المبرد (١٢) ،

Wustenfled, Geagea , Taf., F.

١٠ جمهرة (ص ٢٤٨) .

محارب لصلبه في فخذين : طريف ، وجسر ^١ .

والفرع الثاني من فرعي خصفة ، فرع ضخم كبير بالقياس الى فرع محارب ، فهو يشتمل على ولد منصور بن عكرمة ، وهم : مارن ، وهوازن ، وسليم ، وسلامان ، وأبو مالك ^٢ . ومن بني هوازن : بكر بن هوازن ، ومن ولد بكر : معاوية ، ومنبه ، وسعد ، ويزيد . وقد قتل معاوية ، فجعل عامر بن الظرب العدواني دية مئة من الإبل . ويقول الاخباريون ان هذه اول دية قضى فيها بذلك ، وان لقمان كان قد جعلها قبل ذلك مئة جدي ^٣ . وفي بني سعد بن بكر ابن هوازن استرضع الرسول . ومن بطون بكر الاخرى : جشم بن معاوية بن بكر ، ومنهم بنو جداعة ، رهط دريد بن الصمة ، وبنو سلول وهم بنو مرة ابن صعصعة بن معاوية بن بكر ، وعامر بن صعصعة ^٤ .

وهوازن من القبائل العربية الضخمة ، وقد تفرعت منها قبائل كبيرة معروفة كانت لها شهرة بين القبائل . سكنت في مواضع متعددة من نجد على حدود اليمن وفي الحجاز ^٥ . ويظهر من انتساب هذه القبائل المعروفة الكبيرة اليها ، ثم من اقتصار اسم هوازن على قبيلة واحدة فيما بعد ، واختصاصها به ، أنها كانت في الأصل حلفاً ضم جملة قبائل ، ثم انفصل لعوامل سياسية واقتصادية مختلفة ، فلم يبق من ذلك الحلف الا الرابطة التاريخية التي بقيت في ذاكرة نسابي القبائل ، وهي رابطة النسب . وقد وقعت بين القبائل التي ترجع نسبها الى هوازن وبين قبيلة هوازن حروب عديدة .

وقد كانت هوازن في جملة القبائل الخاضعة للتبابعة ، فلما استقلت قبائل معد عن اليمن ، كانت هوازن في جملة من استقل من تلك القبائل . ولكنها أخذت تدفع الإتاوة لزهير بن جذيمة سيد عيس من غطفان . فلما قتل زهير ، استقلت من غطفان ، ولم تدفع الإتاوة اليها . ولما انتهت حرب عيس وذبيان ، وعقد الصلح بين القبيلتين المتنافستين ، وقعت حروب وأيام بين بطون غطفان

١ نهابة الأرب (٣٢٣/٢) .

٢ حمهره (ص ٢٤٨) ، طرفه الأصحاب (ص ٦١) نهابة الأرب (٣٢٣/٢) .

٣ جمهرة (ص ٢٥٢) .

٤ المبرد (١٣) ، الأشعاف (ص ١٧٧) ، طرفه الأصحاب (ص ٦١) .

٥ Ency , II, P 293, Blau, in ZDMG . 1869, 23, S, 586

وهوازن ، منها : يوم الرقم ، ويوم النباع ، ويوم اللوى ، دارت الدائرة فيها على هوازن ، كما وقعت بينها وبين قبائل كنانة وقريش وثقيف أيام عديدة^١ .

وكانت هوازن في جملة القبائل التي قاومت الاسلام . وقد غزاها الرسول ، بعد فتح مكة ، فتمكن منها ، ودخلت في الاسلام ثم ارتدت بعد وفاته ، ثم عادت مع التوآبين بعد ان غلبهم الخليفة أو بكر الصديق .

وكان لهوازن صنم يعظمونه في عكاظ اسمه جِهار ، سدننه من آل عوف النصرين ، تشاركهم في عبادته محارب ، وكان في سفح أطحل^٢ .

ومن ولد مُنبّه بن بكر بن هوازن بن منصور ، قسيّ وهو ثقيف^٣ . وولد قسي جشمًا وعوفًا ودارسًا^٤ . وقد دخل ولده في الأزد . ومن بني عوف بن ثقيف ، الحجاج بن يوسف الثقفي . ومن بني غيرة بن عوف بن ثقيف ، الشاعر أمية بن أبي الصلت . والأخنس بن شريق ، والحارث بن كلدة وأبو عبيد بن مسعود ، والد المختار^٥ . ومن بطون ثقيف الأخرى بنو عُقدة بن غيرة ، وبنو مُعتب ، وبنو حبيب ، وبنو اليسار بن مالك بن حطيظ^٦ . ومن بني مُعتب ، غيلان بن مسلمة بن معتب ، وكانت له وفادة على كسرى^٧ .

ولثقيف حروب يظهر انها كانت في الغالب دفاعاً عن النفس ، إذ نجد ثقيفاً تهاجم فيها في الطائف ، فتضطر عندئذ الى الدفاع عنها . وقد كان من أصنامها اللات ، وله بيت بالطائف على صخرة يضاھون به الكعبة بمكة . وكانوا يهدون

1 Ency., II, P., 293

2 المحبر (ص ٣١٥) ، (أطحل) ، البكري (١٦٧/١) (طبعة السعا) ، البلدان (٢٨٢/١ وما بعدها) ، Ency., II, P., 293.

3 ابن خلدون (٣٠٩/٢) ، الأغانى (٤٤/١٢) ، القاموس (١٢١/٣) ، لسان العرب (٣٦٣/١٠) ، الصحاح (١١/٢) ، الاشفاق (١٨٣) .
4 (جشم بن ثقيف) ، لسان العرب (٣٦٧/١٤) ، تاج العروس (٢٣٩/٨) ، الصحاح (٢٧١/٢) ، (حهم بن ثقيف) ، ابن خلدون (٣٠٩/٢) ، كحالة (١٤٨/١) .

5 الجمهرة (ص ٥٢٦ وما بعدها) ، (غيرة بن عوف بن ثقيف) ، ابن خلدون (٣٠٩/٢) ، تاج العروس (٤٥٩/٣) ، الاشفاق (١٨٥) ، كحالة (٩٠٢/٤) .

6 المبرد (ص ١٣) ، الاشفاق (ص ١٨٥ وما بعدها) .

7 ابن خلدون (٣٠٩/٢) .

اليه الثياب لستره به ، ويطوفون حوله . وسدنته من آل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك من ثقيف^١ .

وولد سليم بن منصور ، بُهثة^٢ (بُهثة) . ومن ولد بهثة الحارث ، وثعلبة ، وامرؤ القيس ، وعوف ، ومعاوية . ومن بطون امرئ القيس ، بنو عصية . ومن بني عصية ، مالك ذو التاج ، وكرز ، وعمرو ، وهند ، وبنو خالد بن صخر بن الشريد . وقد توجت بنو سليم مالكا ملكا عليها ، وقتل مالكا وكرزا عبد الله بن جذل الطعان الكناني . وقد اشتهرت بلاد بني سليم بالمعدين الذي فيها ، ولذلك قيل لها معدن بني سليم^٣ . ومن بني الحارث بن بهثة بنو ذكوان^٤ . ومن بني عبس بن رفاعه بن الحارث ، العباس بن مرداس^٥ ، وهم من القبائل التي لعنها الرسول ، لقتلها أهل بئر معونة . وقد لعن الرسول بني عصية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة كذلك للسبب نفسه^٦ . ومن بني ثعلبة بن بهثة بن سليم حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص ، وكان بمكة في الجاهلية محتسبا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر^٧ .

وتعد قبيلة بني سليم من القبائل المهمة الساكنة في الحجاز في أرض اشتهرت بمعادنها وبخصبها ، وبها حيرار^٨ منها : حرة بني سليم ، وحرة ليلي ، وبها مياه

-
- ١ المحبر (ص ٣١٥) .
 - ٢ (بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر) ، لسان العرب (٤٢٤/٢) ، الاشنفاق (١٩٢) ، الحماسة للتبريزي (٢٣١/١) صبح الأعشى (٣٤٥/١) .
 - ٣ جمهرة (ص ٢٤٩ ، ٢٥١ /) ، الصفة (١٥٤) .
 - ٤ (ذكوان بن رفاعه بن الحارث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم) ، الاشنفاق (٢٨٧) لسان العرب (٣٠٧/١٣) ، ناج العروس (١٣٧/١٠) ، ابن خلدون (٣٠٧/٢) .
 - ٥ (بنو عبس بن رفاعه بن الحارث بن رجا بن الحارث بن بهثة بن سليم) ، ابن خلدون (٣٠٧/٢) ، الأعمى (١٣٨/١١) ، الاشنفاق (١٨٨) .
 - ٦ جمهرة (ص ٢٥١) ، الاشنفاق (ص ١٨٧ وما بعدها) ، ابن خلدون (٣٠٨/٢) ، نهاية الأرب (٣٢٣/٢) ، لسان العرب (٢٩٨/١٩) ، كحالة (٧٨٦/٢) .
 - ٧ جمهرة (ص ٢٥١) .

استفادت منها القبيلة في الزرع . وتجاورها من القبائل غطفان وهوازن وهلال .
وكانوا على صلوات حسنة باليهود ، كما كانوا على صلوات وثيقة بقريش . وقد
تحالف معهم أشراف مكة وكبارها لما لهم من علاقات اقتصادية بهذه القبيلة^١ .

ويروى ان النعمان بن المنذر كان قد نقم على بني سليم لأمر أحدثوه ، فأرسل
عليهم جيشاً ، ولكنه لم يتمكن منهم ، وهزم الجيش^٢ . ولبنى سليم ككل
القبائل الأخرى أيام : منها : يوم دات الرّمم وهو لبني مازن على بني سليم ،
ويوم تثليت وهو بين مراد وبني سليم^٣ .

وكان لهم صنم يقال له (ضمار) كان عند مرداس والد العباس بن مرداس .
فلما توفي مرداس ، وضعه العباس في بيت يتعبد له . فلما ظهر الاسلام ، أسلم ،
وأحرق ذلك الصنم^٤ .

وولد معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور أولاداً ، هم : نصر ، وجشم ،
وصعصعة ، وعوف . ويسمون بنيه الوقعة^٥ . وقد دخلوا في بني عمرو بن
كلاب بن الحارث^٦ . ومن بني نصر معاوية ربيعة بن عثمان ، وهو أول عربي
قتل عجمياً في يوم القادسية . ومن بني جشم بن معاوية ، دريد بن الصمة من

Ency., IV, P. 518

١ صبح الأعشى (٣٤٥/١ وما بعدها) ،

٢ كحالة (٥٤٤/٢) . بعث النعمان بن المنذر جيشاً (الى بنى سليم لشيء كان
وجد عليهم من أحله . وكان مقدم الجيش عمرو بن فرتنا ، فمر الجيش على
غطفان ، فاستنجاشوهم على بني سليم ، فهزمت بنو سليم جيش النعمان ، وأسروا
عمرو بن فرتنا ، فأرسلت غطفان الى بنى سليم . وقالوا ننسلكم بالرحم النبي
بيننا الا ما أطلعنم عمرو بن فرسا . فقال أبو عامر هذه الأبيات ، أي لا نسب بيننا
وبينكم ولا خله . أي ولا صداقه بعدما أعننم جيش النعمان ، ولم نراعوا حرمة
النسب بيننا وبينكم) ، لسان العرب (٤٢٨/٦) .

٣ كحالة (٥٤٤/٢) .

٤ الاعاني (٩٢/١٣) .

٥ (بنو عوف بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور) ، الاشتقاق (١٧٧) ، لسان
العرب (٢٩٠/١٠) ، الفاموس (٩٦/٢) ، كحالة (١٢٥١/٣) .

٦ جمهرة (ص ٢٥٧) ، الصفة (١٢١) ، ابن خلدون (٣١٠/٢) ، تاج العروس
(٣٠٠/٢ ، ١٠٥/٣٠ ، ٥٧٠ ، ١٣/٤) الاشتقاق (١٧٨) ، كحالة (١١٨١/٣) .

الفرسان المعروفين . ولهم حروب مع أسد وغطفان وعبس ، وكانت مواطنهم بالسروات^١ .

اما ولد صعصعة بن معاوية ، فهم : عامر ، ومرة ويعرف أبناؤه ببني سلول نسبوا الى أمهم^٢ ، وغالب وأمه تماضر ، وقد نسب ولده الى أمهم . وربيعة وأمة عوبصرة ، واليها نسب . وعبد الله ، والحارث : وأمهما عادية^٣ ، واليها نسباً ، وكبير ، وعمرو ، وزبير وأمهم وائلة ، واليها نسبوا . وقيس ، وعوف ، ومساور ، وسيار ، ومشجور أمهم عدبة ، فنسبوا اليها^٤ . ويلاحظ ان النسابين قد جعلوا لصعصعة عدة نساء ، ونسبوا الى هؤلاء النسوة أولادهم ، فعلوا ذلك للتمييز بين هؤلاء الأولاد ولا شك .

وذهب بعض المستشرقين الى احتمال كون بني عامر هم : (Hamirei) ، (Hamirou) ، (Hamirinoei) المذكورين في تاريخ (بلينيوس)^٥ . وتقع منازلهم بين منازل قبائل هوازن وسام وثقيف ، ولهم مع القبائل الأخرى مثل بني حنيفة وعبس وذيان وفزارة وتيم وبني نهد وسعد والرباب حروب عديدة ، ترد أخبارها في الأيام .

ومن نسل عامر بن صعصعة : ربيعة ، وهلال ، ونمير ، وسواء . ومن بني ربيعة بن عامر بن صعصعة كلاب ، وعامر ، وكليب^٦ . ومن بني عامر

١ جمهرة (ص ٢٥٨) ، ابن خلدون (٣١٠/٢) ، الاشعاق (١٧٧) ، ابو العداء (١١١/١) ، لسان العرب (٣٦٨/١٤ ، ٢٨٧/١٥) ، تاج العروس (٥٢/٤) ، ٢٢٩/٨ ، ١٤٦/٩) ، القاموس (٣٢٧/٢ ، ٤٤/٤) ، الصحاح (٢٧١/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٣/١) ، المحبر (٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢١١) .

٢ (وهي ابنة ذهل بن شيبان بن نعل بن عكابة بن صعيب بن علي بن بكر بن وائل) تاج العروس ، (٣٧٨/٧) ، لسان العرب (٣٦٥/١٣) ، الصحاح (١٩٩/٢) ، ان خلدون (٣١٠/٢) ، القاموس (٣٩٧/٣) ، جمهرة (ص ٢٥٩) .

٣ تاج العروس (٢٣٨/١٠) ، كحالة (٧٠١/٢) .

٤ جمهرة (ص ٢٥٩) .

٥ Ency., I, 329

٦ جمهرة (ص ٢٦٣ وما بعدها) ، صبح الأعشى (٣٤٠/١ وما بعدها) ، الاشعاق (١٧٨) ، ابن خلدون (٣١٠/٢) ، تاج العروس (٣٥٠/٧) ، القاموس (١٤١/٢) ، لسان العرب (٢٧٢/٣ ، ٢٨٦/٦) ، كحالة (٧٠٨/٢ وما بعدها) .

ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، معاوية ذو السهمين ، لأنه كان يأخذ سهمه من غزوات بني عامر ، أقام أو غزا^١ . وبنو عمرو بن عامر المعروف بـ (فارس الضحياء)^٢ . ومن بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة^٣ . وهم خالد الأصبغ وربيعة الأحوص ، ومالك الطيآن ، أمهم بنت رياح بن الأشل الغنوي . وعتبة ، وعوف ، أمهما فاطمة بنت عبد مناف بن قصي بن كلاب . فولد الأحوص عوفاً ، وعمراً ، وشريحاً ، قاتل لقيط بن زرارة يوم جيلة ، وقد سادوا جميعاً . ومن عوف بن الأحوص علقمة بن علاثة الذي نافر عامر ابن الطفيل^٤ .

ومن نسل خالد بن جعفر بن كلاب أرْبَدُ بن قيس بن جزء بن خالد ، وهو الذي أراد مع عامر بن الطفيل قتل رسول الله^٥ . ومن نسل مالك بن جعفر ابن كلاب ، عامر ، وهو أبو براء ربيعة ملاعب الأسنة ، والطفيل ، وهو والد عامر بن الطفيل ، وليد الشاعر^٦ . ومن نسل عتبة بن جعفر بن كلاب عروة الرحال بن عتبة بن جعفر الذي أجار لطيمة الحيرة ، فقتله البرأض الكناني ، ومن أجله كانت حرب الفجار . وابنته كبشة هي أم عامر بن الطفيل ، ولدته يوم جيلة^٧ .

ومن نسل عمرو بن كلاب الصعق ، وهو عمرو بن خويلد بن ثعلبة بن عمرو ابن كلاب . وكان سيداً يطعم بعكاظ ، ومن ولده الشاعر يزيد بن عمرو الصعق^٨ . ومن بني الضباب بن كلاب بن ربيعة شمير بن ذي الجوشن قاتل

-
- ١ جمهرة (ص ٢٦٤ وما بعدها) .
 - ٢ جمهرة (ص ٢٦٤) ، المحبر (ص ٤٥٨) .
 - ٣ الأغاني (١٣٢/١١ ، ٥٢/١٥ وما بعدها) ، المحبر (ص ٢٥٣) ، جمهرة (٢٦٤ وما بعدها) الاشتقاق (١٨٠) ، كحالة (١٩٥/١) .
 - ٤ جمهرة (٢٦٧ ، وما بعدها) .
 - ٥ الأغاني (١٣٧/٥ وما بعدها) ، جمهرة (ص ٢٦٨) .
 - ٦ الأغاني (٩٣/١٤) ، جمهرة (ص ٢٦٨) ، المحبر (٢٥٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣) .
 - ٧ جمهرة (ص ٢٦٨ وما بعدها) .
 - ٨ جمهرة (ص ٢٦٩) ، الاشتقاق (ص ١٨٠ وما بعدها) .

الحسين بن علي^١ . ومن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة جَعْدَة ،
والحَرِيش ، وعُقيل ، وقشير ، وعبد الله ، وحيب . ومن ولد عبد الله نهم
والعجلان^٢ ، وهم قبيلة . ومن جعدة الشاعر النابغة الجعدي^٣ . ومن بني قُشير
مالك ذو الرقية بن سلمة الخير الذي أسر حاجب بن زرارة يوم جبلة . ومن
عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، المنتهق بن عامر بن عقيل ،
وهم بطن ، وربيعة بن عامر ، ومنهم الحارث الأبرص قاتل زيد بن عمرو بن
عدس يوم جبلة ، وبنو خفاجة بن عمرو بن عقيل .

وتقع منازل الضباب في أرض كلاب ، ومن بطونهم ضبّ وضييب وحسل
وحسيل ، وقد وقعت بينهم وبين جعفر بن كلاب يوم عرف يوم حرايب^٤ ،
ويوم آخر عرف يوم هراميت^٥ .

وأما منازل جعدة ، فهي في الفلج من اليمامة^٦ . وأما الحريش ، فكانت
منازلهم باليمامة ، واشتركت في يوم الرحرحان^٧ . وكانت مساكن عقيل بالبحرين ،
وهاجروا الى العراق ، وكان لهم أثر ملحوظ في تأريخ العراق في الإسلام .

والفرع الثاني من فروع مضر ، هو من نسل الياس^٨ ، ويتكون هذا الفرع
من ثلاث كتل : طابحة ، وقعة ، ومدركة . ولكل كتلة من هذه الكتل
قبائل وبتون .

- ١ جمهرة (٢٧٠) ، المبداني (٢٦٩/٢) ، العمدة لابن رشبقي (١٥٧/٢ ، ١٦٧) ،
كحالة (٦٦٠/٢) ، الاشفاق (ص ١٨٠) .
- ٢ جمهرة (ص ٢٦٩ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٨١) .
- ٣ جمهرة (ص ٢٧٣) ، الاشتقاق (ص ١٨١) ، صبح الأعشى (٣٤١/١) وما
بعدها ، الأنساب للمقدسي (ص ١١٠) ، نهاية الأرب (٣٢٢/٢) ، كحاله
(٨٠١/٢) .
- ٤ كحاله (٦٦٠/٢) ، نهاية الأرب (٣٢١/٢) .
- ٥ (هراميب بالفصح وكسر الميم ثم ناء وباء مساة) ، (يوم الهراميب) البلدان
(٤٥٠/٨) ، البكري (١٣٠٥/٤) وبهذا الموضع آبار بسببون حفرها الى لعمان
ابن عاد ، مما يدل على أنها من الآبار القديمة .
- ٦ Ency, I, P 991
- ٧ الاشفاق (١٨٣) ، كحامه (٢٦٧/١) .
- ٨ صبح الأعشى (٣٤٦/١) ، سبائك الذهب (ص ٢١) ، حمهرة السب (ورفه ٤٤٥) .

أما طامحة ، واسمه عمرو (عامر)^١ ، فهو والد ولد يسميه النسابةون أداً ، وأد والد عدة أولاد هم : مرث ، وضبة ، وعمرو وهو مزينة ، وعبد مناة ، وحميس (خميس) . وذكروا ان بني حميس ، شهدوا يوم القيل مع الحبشة ، فقتلوا ، فقل نسلهم^٢ .

أما ضبة بن أد ، فولد سعد بن ضبة ، وسعيد ولا عقب له ، قتله الحارث ابن كعب ، ثم قتل ضبة الحارث بن كعب ، وفي ذلك سارت الأمثال الثلاثة : (أسعد أم سعيد) و (الحديث ذو شجون) و (سبق السيف العذل) قالها كلها ضبة^٣ ، وباسل بن ضبة . ويذكر الأخباريون ان الديلم من نسله . وولد سعد ابن ضبة بكر بن سعد ، وثعلبة ، وصريم . ومن بكر بن سعد ضرار بن عمرو ابن مالك ، سيد بني ضبة . وقد شهد يوم القرنين ، والمفضل بن يعلى صاحب المفضليات ، وحميش بن دلف بن العون ، وكان ينازع ضرار بن عمرو الرياسة وحضر يوم القرنين ، وبني تيم بن ذهل^٤ .

وتعد ضبة جمرة من جمرات العرب التي أشرت اليها ، وتقع منازلها في اليمامة ، وفي خلال الحرب التي وقعت بين عبس وذيان دخلت عبس أرض ضبة ، ولكنها اضطرت الى مغادرتها بعد النزاع الذي حدث بين عبس وضبة . وجاورت بني عامر بن صعصعة . وفي يوم (جبلة) ، وهو من الأيام المشهورة التي وقعت بعد يوم رحرحان بعام ، ويصادف ذلك عام مولد النبي على رواية^٥ . أو قبل مولده بسبع عشرة سنة على رواية أخرى^٦ . كانت ضبة مع ذيان وتميم

١ (عامر) جمهرة النسب (ورقة ٤) ، ابن خلدون (٣١٥/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٧/١) ، جمهرة (١٨٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٣٢٥/٢) .

٢ (حميس) ، جمهرة (ص ١٨٧) ، ويختلف النسابةون فيما بينهم في عدد ولد طامحة ، سبائك الذهب (ص ٢٥) ، نسب فريش (ص ٨) ، المبرد (ص ٦) ، ابن خلدون (٣١٥/٢) ، (بنو خميس) نهاية الأرب (٣٢٥/٢) ،

Wustenfled, Genea., Taf., J.

٣ الميداني : مجمع الأمال (٣٥٠/١ ، ٥٩٩ ، ٦٠١) .

٤ جمهرة (ص ١٩٢ وما بعدها) .

٥ البكري (٣٦٥/٢) (طبعة السقا) (مادة جبلة) ، نهاية الأرب (٣٥٠/١٥) وما بعدها .

٦ البلدان (٥٢/٣) .

وأسد والرباب وفزارة في مهاجمة بني عامر بن صعصعة^١ . وبالرغم من كثرة هذه القبائل ، تمكنت بنو عامر من الظفر به ومن إلحاق الهزيمة بتميم وبمن ضامها . وإلى مشورة قيس بن زهير العسبي يعود الفضل في انتصار بني عامر . وفي رواية أن لقيطاً استنجد أيضاً بالنعمان بن المنذر ، فأنجده بأخيه لأمه حسان ابن وبرة الكلبي ، وبصاحب هجر وهو الجون الكندي ، فأنجده بابنيه معاوية وعمرو وغزا بني عامر^٢ . وقد أصيب تميم ومن كان معها من القبائل بخسائر ، وبوقوع عدد من الزعماء أسرى في أيدي بني عامر ، فقتل في هذا اليوم لقيط بن زرارة ، وأسر حاجب بن زرارة ، أسره ذو الرقيصة ، وأسر سنان بن أبي حارثة المرثي وجزت ناصيته ، وأطلق إمعاناً في امتهانه ، وأسر عمرو بن عدس وجزت ناصيته كذلك ثم أخلي سبيله . وقتل معاوية بن الجون ، ومنقذ بن طريف الأسدي ، ومالك بن ربيعي بن جندل^٣ . ويعد حزن الناصية بعد الأسر خاصة من أشد درجات الامتهان ، ولا سيما حزن نواصي السادة والرؤساء .

وفي يوم النصار ، لحقت ضربة وعدي بأسد وطيء وغطفان في غزوهم لبني عامر ، وقد ألحقوا خسائر فادحة ببني عامر ، وهذا مما غاظ تميمًا ، فجعلها تلحق طيئاً وغطفان وحلفاءهم من ضربة وعدي يوم الفجار ، حتى قتلت من طيء أكثر مما قتلت طيء يوم النصار^٤ .

ومن ذرية عبد مناة بن أد : تميم^٥ ، وعدي ، وعوف ، وثور ، وأشيب . وهؤلاء هم الرباب ، لأنهم تحالفوا مع بني عمهم ضبة على بني عمهم تميم بن

١ Ency , I, P 884.

٢ البكري (٣٦٦/٢) .

٣ نهاية الأرب (٣٥٠/١٥ وما بعدها) .

٤ (يوم الفجار) نهاية الأرب (٤٢١/١٥) ، (يوم الفجار) ، البكري (١٣٠٦/٤)

(تحقيق السفا) ، مادة ، (النصار) ، (النصار ٠٠٠٠ جبال صغار كانت عندها

وفعة بين الرباب وبين هوازن وسعد بن عمرو بن تميم ، فهرمب هوازن ، فلما

رأوا العللة ، سألوا ضبه أن شاطرهم أموالهم وسلاحهم وبحلوا عنهم) ، البلدان

(٢٨٤/٨) .

٥ المبرد (ص ٦) ، الاشتقاق (ص ١١٤) ، ناج العروس (٣١٦/٨) ، كحالة

(١٣٨/١) .

مرّ ، فغمسوا أيديهم في رُبّ^١ . ومن بني عوف بن عبد مناة بنو عكل .
ومن بني عمرو بن أد : مزينة ، نسبوا الى أمهم مُزينة بنت كلب بن وبرة^٢ .
وتقع ديار الرباب بالدهناء في جوار بني تميم^٣ .

ومن ولد أد بن طابخة مرّ بن أد^٤ فولد مرّ تميماً وثعلبة ، وهو ظاعنة ،
وبكر بن مرّ ، وهو الشعراء ، ومحارب بن مرّ ، وهو صوفة . ومن النساء
برة أم النضر ، وملك وملكان بني كنانة . وهي أيضاً أم أسد بن خزيمة ، وهند
ابنة مرّ وقد ولدت بكرأ وتغلب وعتر بني وائل بن قاسط ، وتُكمة بنت مرّ
وقد ولدت غطفان بن سعد ، وسليماً وسلامان بن منصور ، وجديلة بنت مرّ
وقد ولدت فهماً وعدوان ، واليها ينسبون ، وعاتكة بنت مرّ . وهي والدة عذرة
ابن سعد وإخوته^٥ .

وأما صوفة ، فانهم كانوا يجيزون بالحاج . وقد انقرضوا عن آخرهم في
الجاهلية ، فورث ذلك آل صفوان بن شجنة (سجنة) (شحمة) ، من بني
سعد بن زيد مناة بن تميم^٦ . ومن هؤلاء على رواية كان عامر بن احيمر السعدي

١ جمهرة (ص ١٨٧) ، (فالرباب ، نيم ، وعدى ، وعكل ، ومزينة ، وضبة ، وانما
سموا الرباب لانهم تحالفوا ، فقالوا اجتمعوا كاجتماع الربابة . وهي خرقة تجمع
فيها العداح . وقال قوم : بل غمسوا أيديهم في رب وتحالفوا . والقول الأول
أحسن) ، الاشتقاق (ص ١١١) ، المبرد (ص ٦) ابن خلدون (٣١٨/٢) ،
لسان العرب (٣٨٨/١) (والرباب : ولد نيم بن عبد مناة وعدى بن عبد مناة
وعوف بن عبد مناة : سموا الرباب لانهم غمسوا أيديهم في رب ، اذ تحالفوا على
بني تميم . قال : ومن النسابين من يجعل الرباب بني تميم وعدى وثور وعكل وهم
بنو عبد مناة وضبة بن أد) ، نهاية الأرب (٣٢٩/٢) .

٢ جمهرة (ص ١٩٠) ، صبح الأعشى (٣٤٨/١) ، ابن خلدون (٣١٨/٢) ،
الاشتقاق (١١١) ، ابو العداء (١١٢/١) ، ناج العروس (٣٤٥/٩) ، لسان
العرب (٢٩٤/١٧) ، القاموس (٣٦٦/١) ، كحالة (١٠٨٣/٣ وما بعدها) .
٣ ابن خلدون (٣١٨/٢) ، كحالة (٤١٥/٢) .

٤ المبرد (ص ٦) ، الصحاح (٣٩٨/١) ، نهاية الأرب (٣٢٥/٢) ، ابن خلدون
(٣١٥/٢) .

٥ جمهرة (١٩٥ وما بعدها) ، (طابخة ، مر ، أد) ، سبائك الذهب (ص ٢٥) .
٦ القاموس (١٦٤/٣) ، (وبدو صوفة ، وهم ولد الغوث ، وهو الربيط بن مر) ،
نهاية الأرب (٣٢٥/٢) ، (شحمة) ، ابن خلدون (٣١٩/٢) ، (سجنة) ،
كحالة (٦٥٥/٢) الصحاح (٣٩/٢) ، اللسان (١٠٢/١١) ، جمهرة (١٩٦) .

الذي حصل على برديّ "مُحوّق" من النعمان بن المنذر في مجلس مفاخر حضرته وفود العرب عقد بحضرة النعمان بن المنذر في الحيرة. وقد برّ عامر هذا الحاضرين في الفخر وفي الانتساب على الطريقة المألوفة. ولما سأله النعمان : بِمَ أنت أعز العرب ؟ قال : العِزُّ والعدد من العرب في معدّ ، ثم في نزار ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في عوف ، ثم في بهدلة ، فن أنكر هذا من العرب فلينافرنى ؟ فلما لم ينافره أحد ، ذهب بالبردين ^١.

وتميم من القبائل العربية الكبيرة المعروفة ، وقد نعتهم ابن حزم بقوله : (وهم قاعدة من أكبر قواعد العرب) ^٢. وتعدّ في مقابل قيس وربيعة ، وهي الممثلة لمجموعة مضر في بعض الأحيان. وهي أقرب جغرافياً وتاريخياً الى قيس وربيعة منها الى كنانة ^٣. ومعارفنا عن تأريخها مستمدة مثل معارفنا عن القبائل الأخرى المماثلة من الروايات المدوّنة في كتب الأخباريين ^٤.

ويزعم الأخباريون ان جدّ هذه القبيلة مدفون في موضع (مُرّان) ^٥ ، وهم يروون قصصاً عنه وعن ميلاد أولاده من هذا النوع الذي ألفنا وروده عن الأخباريين ^٦.

ولا نستطيع في الوقت الحاضر ان نرتقي بتاريخ تميم عن القرن السادس للميلاد ، فليست لدينا موارد تاريخية يعتمد عليها ترفع تاريخ هذه القبيلة الى

١ وفيه يقول الفرزدق :

فما تم في مسعد ولا آل مالك علام اذا ما فيل لم يبهدل
لهم وهب النعمان بردي محرف بمحمد معد والعبد المحصل
وفي أهل هذا البيت من سعد بن مائة ، يقول أوس بن مغراء السعدي :
ولا يريمون في التعريف موقفهم حتى يقال أجزوا آل صفوانا
العقد الفريد (٦٥/٢) ، (تحقيق محمد سعيد العريان) .

٢ جمهرة (ص ١٩٦) .

٣ Ency., IV, P. 643

٤ ابن قتيبة : المعارف (٣٧ وما بعدها) (طبعة وسنمعد) ، جمهرة السب (ورقة ٦٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (ص ١٢٣ وما بعدها) ، الأغاني (٧/٤ وما بعدها) ، ٣٦/١٢ ، ٦٩/١٥ وما بعدها) ، ابن خلدون (٣١٥/٢) ، أبو العداء (١١٢/١) .

٥ البلدان (٧/٨) .

٦ Ency., IV, P. 644

ما قبل ذلك ، ولا يعني هذا اننا ننكر ان يكون لها تأريخ قديم ، اذ يجوز ان يكون لها عهد اقدم من هذا العهد الذي نتحدث عنه . ولكننا لا نملك الآن نصوصاً جاهلية او موارد اسلامية يُطمأن اليها ، ترجع تأريخ تميم الى ما قبل هذا القرن .

اما في القرن السادس ، فقد كانت تميم قبيلة بارزة ظاهرة ، بطونها منتشرة في العربية الشرقية ، وفي نجد وفي العراق ، وفي انحاء مختلفة من جزيرة العرب ، مجاورة لقبائل معروفة مثل اسد وغطفان وبني عبد القيس وتغلب ، متصلة بها . ومن بني دارم من تميم كان المنذر بن ساوى حاكم البحرين والذي أسلم في ايام الرسول ^١ .

وكانت لتميم صلات متينة بملوك الحيرة ، وكان من عاداتهم جعل الرداقة في بطن من بطونهم ، وهو بطن بني يربوع . وقد ثار هذا البطن وهاج ، لما حولت الرداقة الى بطن آخر من بطون تميم ، هو بطن بني دارم ، ولم يقبلوا الا برجوعها اليهم ، لما كان للرداقة من مكانة ومترلة في ذلك الوقت ^٢ .

ونجد في كتاب الاخباريين اسماء ايام عديدة وقعت بين تميم وغيرها من القبائل ، خاصة قبائل بكر بن وائل ، كما نجد اشارات الى حروب وقعت بينهم وبين بعض ملوك الحيرة . وقد اشرت الى القصص الذي يرويها اهل الاخبار عن غزو (سابور ذي الاكتاف) لجزيرة العرب والى ما زعموه من تنكيله بالقبائل وانتزاعه اكتافهم ، ومن هذه القبائل قبيلة تميم ^٣ . ويذكر الاخباريون ايضاً ان (كسرى برويز) (كسرى أبرويز) (Khusrawparwez) ، كتب الى عامله على هجر ، وهو (المكبر) ، ان ينتقم من تميم ، لتعرضها لقافلة كانت محملة بالتجارات وبالهدايا مرسله اليه ، فقتل المكبر بالمشقر عدداً كبيراً منهم ^٤ .

ولتميم صلات متينة برجال مكة ، وقد كان لرجالهم ذكر ونخبر في سوق

Ency., IV, P. 644. ١

Ency., IV, P. 945. ٢

Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. VIII, 1965
PP. 113.

Noldeke, Geschichte der Perser und Araber, S., 56. ٣

Ency., IV, P. 645 ٤

(عكاظ) . فمنهم كان حكام الموسم . كما تولوا اقيام ببعض مناسك الحج .
وقد صاهرهم بعض رجال مكة .

ويظهر من بعض روايات الاخباريين ان تميماً وبقية القبائل المنتمة الى (أد)
كانت تتعبد لـ (شمس) . وكان لشمس بيت (تعبد بنو أد كلها : ضبّة ،
وتميم ، وعدي ، وعكّل ، وثور . وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن
معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، فكسره هند بن أبي
هالة بن أسيد بن الحلال بن أوس بن مخاشن)^١ . وعبدت طائفة من تميم
(الدّبران) من النجوم ، ولهم قصة عن هذه النجوم^٢ .

وكان بعض تميم على الصرانية ، ومنهم عدي بن زيد العبادي ، كما كان
بعض منهم من دان بالمجوسية ، ومن هؤلاء زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب
ابن زرارة والأقرع بن حابس^٣ .

وفي شواهد كتب النحو والصرف امثلة عديدة من لهجة تميم^٤ ، وهي تشير
الى وجود فوارق ومميزات في تلك اللهجة تميزها عن اللهجة التي نزل بها القرآن
الكريم . وقد اخرجت هذه القبيلة عدداً من الشعراء في الجاهلية والاسلام . وللاستشهاد
بلهجة تميم ، ولوجود عدد من الشعراء الذين يعدون من كبار الشعراء عند علماء
الشعر ، اهمية كبيرة ولا شك في دراسة اللهجات العربية ، وعلاقاتها بلهجة
القرآن الكريم^٥ .

وقد أدى تعدد بطون تميم وانتشارها الى نشوب حروب بينها ، والى تكتلها
كتلاً وتكوين احلاف بينها ، كالحلف الذي كان بين بني يربوع وبني نهشل .
وقد نسب لأبي اليقظان النسابة كتاب في احلاف تميم اسمه : (كتاب حلف تميم
بعضها بعضاً)^٦ .

-
- ١ المحبر (ص ٣١٦) .
 - ٢ بلوغ الأرب (٢٣٩/٢) .
 - ٣ بلوغ الأرب (٢٣٣/٢ وما بعدها) .
 - ٤ ابن فارس : الصحاح (٢٤) . المزهر (٢١١/١) ، السيوطي : الاغان (ص ١٠٩) .
 - ٥ Voller, Volkssprache und Schriftsprache in Alten Arabien, S. 8ff., Ency.,
IV, P. 645.

٦ العهرست (ص ٩٤) ، Ency , IV, P 644.

وبطون تميم عسيلة ، تفرعت على رأي النسابين من الحارث ، وعمرو ،
وريد مناة اولاد تميم ^١ . ومن ولد عمرو : العنبر ، والهجم ، وأسيد ، ومالك ،
والحارث ، وقليب ^٢ . والحرماز ، وكعب على رواية اخرى ^٣ . ومن بطون بني
كعب بنو فهد . وقد عرف نسل الحارث بالحبيطات ^٤ . ومن بطون بني مالك
ابن عمرو بن تميم : مازن ، والحرماز ، وغيلان ، وغسان ^٥ . ومن بني أسيد
ابن عمرو بن تميم بنو كاهل ، ومنهم أوس بن حجر الشاعر الجاهلي المعروف .
وكان شاعر مضر حتى أسقطه زهير ^٦ ، وبني شريف ومنهم أكثم بن صيفي من
حكماء العرب في الجاهلية ، وحنظلة بن ربيعة ، ابن اخي اكثم . وقد كتب للنبي
الوحي ^٧ . ومن بني مالك بن زيد مناة بن تميم البراجم ، وبني دارم ^٨ ، ومن
بني حنظلة بنو يربوع ، ومن بني يربوع بنو ثعلبة ^٩ ، ومن بني الحارث بن
يربوع بنو سليط ، ومن نسل مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم :
بنو فقيس ، وبني نهشل ، وبني مجاشع ^{١٠} ، وفي بني رياح بن يربوع كانت
ردافة قبل الاسلام ^{١١} ، ومن بني العنبر بن يربوع كانت سجاح ^{١٢} .

- ١ حمرة (ص ١٩٦) ، (وبني أسيد بن عمرو بن تميم) ، هكذا في الصفحة (٤٣٥) ،
من الجمهرة ، (والحارث أبا شعرة ، وانما سمي أبا شعرة لبيت فاله :
وقد احضب الرمح الاصم كعوبه به من دماء العوم كالشقراب
المبرد (ص ٦) ، الانباه (٧٦) الاشتقاق (١٢٦) ، المعارف (٢٦) .
- ٢ حمرة (ص ١٩٧) ، المبرد (ص ٧) ، الاشتقاق (١٢٦) ، المعارف (٢٦) .
- ٣ الاشتقاق (ص ١٢٣ وما بعدها) ، المبرد (ص ٧) .
- ٤ المبرد (ص ٧) ، الاشتقاق (ص ١٢٤) ، العقد (٢٢٢/٢) .
- ٥ الاشتقاق (ص ١٢٤) ، حمرة (ص ٢٠٠) .
- ٦ الاشتقاق (ص ١٢٧) .
- ٧ الاشتقاق (ص ١٢٧) ، حمرة (ص ٢٠٠) .
- ٨ الانباه (ص ٧٦ وما بعدها) ، حمرة (ص ٢١٢) ، المبرد (ص ٧) ، طرفة
الأصحاب (ص ٦٠) .
- ٩ حمرة (٢١٣) ، الاشتقاق (ص ١٢٥) ، المبرد (ص ٧) .
- ١٠ حمرة (ص ٢١٧ وما بعدها) ، المبرد (ص ٧) ، (وأما تميم بن مر ، فهي قبيلة
كبيرة ، ترجع الى طابخة بن الياس بن مضر ، فطونها . دارم ومجاشع) ، طرفه
الأصحاب (ص ٦٠) الاعاني (٤٨/١٢) ، نهاية الأرب (٣٢٦/٢) وما بعدها .
- ١١ المبرد (ص ٨) ، الاشتقاق (١٣٥) ، العمدة لابن رشيقي (١٦٥/٢) ، ناج العروس
(٣٥٨/٥) ، لسان العرب (٢٩٥/٣) ، كحالة (٤٥٧/٢) .
- ١٢ المبرد (ص ٨) ، حمرة (٢١٥) ، صبح الأعشى (٣٤٨/١) ، ابن خلدون
(٣١٧/٢) ، كحالة (٨٤٥/٢) .

وذكر (البلاذري) ان (بكر بن وائل) أغارت على (بني عمرو بن تميم) يوم (الصليب) ، ومعها ناس من الاساورة ، فهزمتهم بنو عمرو وقتلت (طريفا) رأس الاساورة ^١ . وذكر ان (بكراً) كانت تحت يد كسرى وفارس ، فكانوا يقوونهم ويجهزونهم . وكان يشرف عليهم عامل (عين التمر) ^٢ . ويظهر ان (بني عمرو) ، كانوا قد اعتدوا على (عير كسرى) ، فجهز (بكر بن وائل) عليهم .

اما بنو قعدة بن الياس ، فهم من نسل عامر بن قعدة ، واسم قعدة عمير ^٣ . وقد ولد عامر أفصى وربيعه وهي لحي ، فولد لحي عامر بن لحي ، وولد عامر ابن لحي عمراً وهو عمرو بن لحي ، نسب الى جدّه ، فعرف بعمر بن لحي . وهو على قول الاخباريين اول من غير دين اسماعيل ودعا العرب الى عبادة الأوثان ^٤ .

وأشهر بطون قعدة أسلم ، وخزاعه في رأي بعض النسابين ^٥ . ولم يشر الى عقب يذكر لقعدة بعض آخر من علماء الانساب ^٦ . اما اسلم ، فهم بنو أفصى ابن عامر بن قعدة ، وأما خزاعة ، فهم بنو عمرو بن عامر بن لحي وهو ربيعة . وقد كانت موطن خزاعة في انحاء مكة في مرّ الظهران وما يليه . وكانوا حلفاء لقريش . ودخلوا في عام الحديبية في عهد رسول الله ، وقد ذهب بعض النسابين كما اشرنا سابقاً الى ذلك ان خزاعة من غسان ، وانها من نسل حارثة بن عمرو (عامر) مزقياء ، وانها اقامت بمرّ الظهران حين سارت غسان الى الشام ، وتجزعوا عنهم ، فسمّوا خزاعة . والى نسبة خزاعة الى غسان ذهب نسابو خزاعة ^٧ .

M J. Kister, in Journal of the Economic and Social History of the Orient, ١
p 114.

٢ النقائض (٥٨١) .
٣ نسب فريش (ص ٨) .
٤ الجمهرة (ص ٢٢٣) ، (وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : أول من سيب السائبة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامي ، عمرو بن لحي بن قعدة . رأبته في النار بحر فصبه . وأشبهه ولده به أكثم بن أبي الجون . فقال أكثم . أضرني ذلك يا رسول الله ؟ قال . أنت مؤمن ، وهو كافر) ، نسب فريش (ص ٨) .
٥ ابن خلدون (٣١٥ / ٢) ، جمهره (ص ٤٣٧) .
٦ صبح الأعشى (٣٤٨ / ١) .
٧ نسب فريش (ص ٨) .

ومن صلب عمرو بن لحي^٢ ، اي خزاعة ، بنو سلول بن كعب بن عمرو بن عامر بن لحي^٢ ، ومنهم قير (قر) ، ومطروود ومازن وسعد وحليل ، وحُبُشِيَّة وهم بطن ، وهو حاجب الكعبة^١ . ووالد حُبِّي التي تزوجها قُصَيّ بن كلاب . ومن نسل حليل ابو غبشان ، واسمه المحترش ، باع الكعبة بزق خمر من قُصَيّ ابن كلاب . ومن ولد حبشية بن كعب بن عمرو بن عامر بن لحي : حرام ، وغاضرة^٢ . ومن نسل بني عوف بن عمرو بن عامر بن لحي^٢ : جفنة (بنو جهينة) ، وهم عباد بالحيرة . ومن نسل سعد بن عمرو بن لحي بنو المصطلق . ومن بني اقصى بن عامر بن قعدة بن عامر بن قعدة : بنو اسلم ، وسلامان وهوازن ، وبنو ملكان بن اقصى بن عامر بن قعدة وبنو مالك بن اقصى^٣ .

وقد تحدثت سابقاً عن رأي نسابي اليمن في خزاعة ، وعدّها من جماعة قحطان . ونظراً لعد بعض النسابين اياها من عدنان تحدثت عنها في هذا الباب .

اما فرع مدركة ، فيتكون من اصلين : خزيمية ، وهذيل . وأمه سلمى بنت أسد بن ربيعة بن نزار^٤ . واضاف بعض النسابين ولداً آخر اليها اسمه غالب بن مدركة ، دخل نسله في بني الهون بن خزيمية بن مدركة^٥ .

اما ولد خزيمية ، فهم كنانة وأمه عوانة بنت قيس بن عيلان ، وأسد ، وأسدة ، والهون ، وأمهم برّة بنت مر بن أد بن طابخة . اخت تميم بن مر^٦ . ويرى بعض النسابين ان جذاماً ونحلاً وعاملة هم نسل أسدة ، ولكنهم انتسبوا في اليمن ، فقالوا جُذَام بن عدي بن الحارث بن مُرّة بن أدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن مالك بن زيد بن كهلان ، وأن هذا الانتساب كان لعوامل سياسية كما حدث لقبائل اخرى ، خاصة في ايام الامويين^٧ .

- ١ نهاية الارب (٣٠١/٢) ، الاشئفاق (ص ٢٧٦) ، جمهره (٢٢٣) .
- ٢ نهاية الارب (٣٠١/٢) ، جمهرة (٢٢٣) ، الاشئفاق (٢٧٨) ، كحالة (٨٧٤/٢) .
- ٣ نهاية الارب (٣٠١/٢) ، جمهرة (٢٢٣ وما بعدها) ، ابن خلدون (٣١٥/٢) .
- ٤ ابن خلدون (٣١٩/٢) ، جمهرة (٩) ، نسب قريش (ص ٨) ، سبائك الذهب (ص ٢٢ وما بعدها) ، (مدركة ٠٠٠٠ وله فرع واحد على حاشية عمود النسب ، وهو هذيل) ، صبح الأعشى (٣٤٨/١) .
- ٥ جمهرة (ص ٩) .
- ٦ نسب قريش (ص ٨) ، الجمهرة (ص ٩) ، (فولد خزيمية بن مدركة كنانة وأسد والهون) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٩) .
- ٨ نسب قريش (ص ٩) .

وكانت منازل كنانة عند ظهور الإسلام في أطراف مكة بين هذيل وأسد بن خزيمه ، وكان لها أثر مهم في تأريخ مكة على ما يفهم من روايات الأخباريين . وقد ساعدت قريشاً ، وقريش من كنانة في نزاعها على رئاسة مكة مع خزاعة ، ولها مع خزاعة جملة وقائع ، كما كان لها أثر خطير في حروب الفجار^١ .

وتألف كنانة من بطون عديدة ، هي : النضر ، والنضير ، ومالك ، وملكان ، وعامر ، وعمرو ، والحارث ، وعروان (عزوان) ، وسعد ، وعوف ، وغنم ، ومخرمة ، وجرول . وفي رواية لابن الكلبي ان جميع هؤلاء الأبناء هم من أم واحدة هي برّة بنت مرّة ، أخت تميم بن مرّة^٢ ، وهي أم أسد وأسدة والهون أبناء خزيمه في رواية أخرى . أما أم عبد مناة بن كنانة ، وذلك في رواية من جعله ابناً لكنانة ، فهي بنت هنيء بن بليّ من قضاة . ولهذا السبب نسبت الى قضاة عند بعض النسابين^٣ .

ومن بطون عبد مناة بن كنانة : بكر ، وعامر ، ومرّة ، وغفار . وهي بطون . ومن بكر : ليث ، والدثيل وأمهها أم خارجة البجلية ، وضمرة ، وعريج . ومن ليث بن بكر : عامر وجندع ، وسعد . ومن الدثيل أبو الأسود الدؤلي . ومن بني مرّة بن عبد مناة : بنو مدلج ، وقد اشتهروا بالقيافة^٤ . ومن بطون مالك بن كنانة : ربيعة بن مكدّم ، فارس بن كنانة ، وبني فراس بن تميم ، وبني فقيم ، وهم الذين كانوا ينسأون الشهور في الجاهلية ،

١ نسب فريش (ص ١٠) ، الصفة (٥٤) ، الفاموس (٦٦/٢ ، ١٠/٣) ، تاج العروس (٢٤٠/٨ ، ١٧٨/١٠) ، لسان العرب (١٥٤/١٢ ، ٢٤٣/١٧) ، ابن خلدون (٣٢٠/٢) ، صبح الأعشى (٣٥٠/١) ، الانباه (٧٢) ، زيدان : العرب قبل الاسلام (٢٤١) ، كحالة (٩٩٦/٣) ،
Ency., II, p. 1017.

٢ جمهرة النسب (ورقه ٤) ، الاشتقاق (١٠٥ وما بعدها) ،
Wustenfeld, Genea., Taf., N

٣ Ency., II, p. 1018

٤ جمهره (ص ١٧٠ وما بعدها) ، (الدئل) ، الاشتقاق (١٠٥ وما بعدها) ، المعارف (٢٢ ، ١٥٠) المبرد (ص ٤) ، طرفة الأصحاب (ص ٥٩) ، صبح الأعشى (٣٥٠/١ وما بعدها) ، الأغانى (٧٧/١٩) ، تاج العروس (٣٢٣/٩) ، أبو العداء (١١٢/١) ، ابن خلدون (٣٢٠/٢) ، كحالة (٧٣٥/٢) ، (١٠٦١/٣) .

ثم أبطل ذلك في الاسلام^١ .

ومن نسل الهون : عضل^٢ ، وديش^٣ ، والقارة^٤ . وبنو يتع (يتع)^٥ (يشيع)^٦ ، بن مليح بن الهون . وهم ، وبطنان من خزاعة هما : الحيا والمصطلق ، حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . ويقال لهم جميعاً الأحابيش ، أحابيش قريش ، لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة على بكر بن عبد مناة ، فهم وأحلافهم حلفاء قريش^٧ .

أما نسل أسد بن خزيمه ، فهم : دودان^٨ ، وكاهل^٩ . وعمرو ، وصعب ، وحمة^{١٠} . ويقال لبني عمرو بنو نعامة^{١١} . وجعل بعض النسابين بني النعامة من نسل عبد الله بن صعب بن أسد ، وهم : بنو جعدة ، ونو البحر بن عبد الله

- ١ صبح الأعشى (٣٥١/١) ، الانباه (٧٤) ، المعار (٢٢) ، المبرد (٥) ، الأغاني (٤٨/١٢) ، (فعيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة) ، كحالة (٩٢٦/٣) ، نهاية الأرب (٣٥١/٢) .
- ٢ لسان العرب (٤٨٠/١٣) ، الصحاح (٢١٥/٢) ، أبو العداء (١١٢/١) ، صبح الأعشى (٣٤٩/١) ، كحالة (٧٨٧/٢) .
- ٣ ناج العروس (٣١٦/٧) ، أبو العداء (١١٢/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٩/١) .
- ٤ طرفة الأصحاب (ص ٦٠) ، الاشتقاق (ص ١١٠) ، ويطلق بعض النسابين القارة على عضل والديش مجتمعين ، ناج العروس (٥١٠/٣) ، لسان العرب (٤٣٦/٦) ، الصحاح (٣٩١/١) ، الانباه (ص ٧٣) ، كحالة (٩٣٥/٣) ، (عضل والديش ابني بلع بن الهون وهم القارة ، سموا فارهم لأن يعمر بن عوف بن السداه أحد بني لبث لما أراد أن يعرفهم في بطون كنانة قال رجل منهم : دعونا قارة لا تنفرونا فنجفل مل أحمال الطليم فسموا قارة . وهم رماة العرب) ، نهاية الأرب (٣٣١/٢) .
- ٥ نسب قريش (ص ٩) ، Wustefeld, Genea., Taf., N.
- ٦ (ينيع) جمهرة (ص ١٧٩) .
- ٧ نسب قريش (ص ٩) ، جمهرة (ص ١٧٩) .
- ٨ لسان العرب (١٤٧/٤) ، صبح الأعشى (٣٤٩/١) ، ناج العروس (٣٤٧/٢) ، أبو العداء (١١٢/١) ، نهاية الأرب (٣٢١/٢) .
- ٩ لسان العرب (١٢٤/١٤) ، الصحاح (٢٣٧/٢) ، أبو العداء (١١٢/١) ، ابن خلدون (٣٢٠/٢) ، نهاية الأرب (٣٣١/٢) ، صبح الأعشى (٣٥٠/١) ، كحالة (٩٧٦/٣) .
- ١٠ جمهرة (ص ١٧٩) .
- ١١ الاشتقاق (ص ١١٠) ، المبرد (ص ٦) .

ابن مرة بن عبد الله بن صعب بن أسد^١ . وحصر بعض النسابين بطون أسد
ابن خزيمه في كاهل ، وفقعس ، والقعين ، ودودان^٢ .

ومن نسل عمرو بن أسد بن خزيمه : القليب ، ومعرض واسمه سعد ،
والهالك^٣ ، ومن نسل كاهل بن أسد بن خزيمه مازن بن كاهل ، ومنهم علباء
ابن حارثة بن هلال الشاعر قاتل حجر بن عمرو الكندي والد الشاعر امرئ القيس^٤ .
وولد دودان بن أسد : ثعلبة ، وغنما^٥ . فولد غنم بن دودان كبيراً ،
وعامراً ، ومالكاً . ومن بني غنم بنو جحش^٦ . ومن بني ثعلبة^٧ بن دودان
الشاعر عبيد بن الأبرص ، والكميت الشاعر . ومن بني سعد بن مالك بن ثعلبة
ابن دودان عمرو بن مسعود الذي يقال إن النعمان بنى عليه الغري^٨ . ومن بني
الحارث بن ثعلبة بن دودان : قعين ، ووالبة ، وسعد ، ومن بني قعين عامر
ابن عبد الله بن طريف بن مالك بن نصر بن قعين ، صاحب لواء بني أسد في
الجاهلية . ومن بني عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان ، طليحة
ابن خويلد بن نوفل الذي ادعى النبوة^٩ . وأشهر بطون بني ثعلبة : بنو غاضرة ،
وبنو مالك ، وبنو والبة ، وبنو نصر بن قعين ، وبنو الصيذاء ، وبنو فقعس ،
وبنو دبير^٩ .

أما ولد هذيل بن مدركة ، فهم : سعد ، ولحيان . وولد لحيان طابخة ،
ودابغة . ومن طابخة أبو قلابة الحارث بن صعصعة الشاعر . ومن سعد بن هذيل :

- ١ جمهرة (ص ١٨٠) .
- ٢ طرفة الأصحاب (٥٩) .
- ٣ جمهرة (ص ١٨٠) .
- ٤ جمهرة (ص ١٨٠) ، وفيه يقول امرؤ القيس :
أفلتتهن علباء جريضاً ولو أدركته صفر الوطاب
المبرد (ص٦) .
- ٥ تاج العروس (٨/٩) ، ابن خلدون (٣٢٠/٢) ، كحالة (٨٩٤/٣) .
- ٦ جمهرة (ص ١٨٠ وما بعدها) .
- ٧ ابن خلدون (٣٢٠/٢) ، تاج العروس (١٦٥/١) ، لسان العرب (٢٣١/١) ،
كحالة (١٤٤/١) .
- ٨ جمهرة (ص ١٨٠ - ١٨٥) ، وهو من بني فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين
ابن الحارث بن ثعلبة بن دودان ، المبرد (ص ٥) ، الاصابة (٤٢٩٠) .
- ٩ جمهرة (ص ٤٣٥) ، المبرد (ص ٥) .

الشاعر أبو كبير الهذلي ، وحوية . وقيل إن الخطيئة منهم . ومنهم خناعة وهم بطن ، ورهم ، وتميم ، والحارث ، ومعاوية ، وعوف . ومن سعد هذيل : عبد الله بن مسعود ، والمؤرخ المسعودي . وقد اشتهرت هذيل بكثرة من نبغ فيها من الشعراء ، حيث بلغ عددهم نيفاً وسبعين شاعراً^١ . ومن بطون هذيل الأخرى : بنو دهمان ، وبنو عادية ، وبنو صاهلة ، وبنو ظاعسة^٢ ، وبنو مخزوم ، وبنو قُريم ، وبنو قرد بن معاوية^٣ .

وتعدّ هذيل من القبائل العربية الكبيرة التي كانت في القرن السادس للميلاد ، أما منازلهم في هذا الوقت ، ففي سراة هذيل بين مكة والمدينة وفي جوار بني سُليم وكنانة^٤ ، وهي مثل أكثر القبائل الأخرى لا نعرف من تأريخها قبل الإسلام شيئاً يذكر . ويذكر الأخباريون أنها كانت في جملة القبائل التي أرادت الدفاع عن مكة حينما عزم أبرهة على احتلالها . وكانت تتعبد للصنم سواع بـسَعْمَان ، وسدنته بنو صاهلة من هذيل ، وتعبدت له بنو كنانة وبنو مزينة وبنو عمرو بن قيس عيلان كذلك^٥ . وله معبد آخر بموضع (رهاط)^٦ ، كما تعبدت للصنم (مناة) ومعبد به بقديد^٧ .

إن ما ذكرته في هذين الفصلين ، هو خلاصة آراء علماء الأنساب في أنساب القبائل . وهي آراء لا نستطيع أن نذهب مذهبهم في أنها جاهلية قديمة ، وإنها على هذه الصيغة كانت معروفة قبل الإسلام ، وإن قالوا إنهم توارثوها عن الجاهليين ، ونقلوها عن المشتغلين بالنسب في الإسلام والجاهلية كابراً عن كابر ، ولا نستطيع أيضاً أن نزعّم أنها تمثل أنساب القبائل على نحو ما دوت وصنفت في الديوان بأمر الخليفة عمر بن الخطاب . فلم نجد في أقدم ما انتهى إلينا من

١ جمهرة (ص ١٨٥ وما بعدها) .

٢ طرفة الأصحاب (ص ٦٠) .

٣ جمهرة (ص ٤٣٥) ، المبرد (ص ٦) .

٤ الصفة (ص ١٧٣) ، ابن خلدون (٣١٩/٢) ، صبح الأعشى (٣٤٨/١) ، نهاية

الأرب (٣٣٠/٢) ، كحالة (١٢١٣/٣) وما بعدها .

٥ المحرر (ص ٣١٦) .

٦ الكرى (٦٧٩/٢) (طبعة السفا) (مادة رهاط) ،

كتب النسب إشارة تفيد ان ما قصّوه علينا وما ذكروه في النسب ، متزع من سجلات ديوان الخليفة . ثم اننا رأينا أمثلة عديدة ، لتقل نسب القبائل في أيام الأمويين بين قحطان وعدنان لأسباب سياسية وعوامل ترجع الى هذا التعصب المزري الذي انتشر في ذلك العصر ، حتى جزأ العرب الى قيس وعين .

وهذه الحصومة السياسية العنيفة التي جزأت العرب ويا للأسف الى جزئين ، وأسالت الدماء بين الفريقين ، صارت سبباً لتثبيت أنساب القبائل وضمها في مجموعتين : إما الى قحطان ، وإما الى عدنان ، ولا وسط بين الكتلتين . وقد صادف هذا التحزب عصر بدء التدوين ، فكان النسب (لأهميته عند القبائل والناس وفي الحياة السياسية في ذلك العهد) في طبيعة الأمور التي شملتها حركة التدوين ، فبدلاً من ان يعتمد السابون على الذاكرة والرواية سطرّوا تلك الروايات في الأوراق ، وضبطوا أنساب القبائل التي عاشت قبيل الاسلام وفي صدر الاسلام بهذا التدوين .

وقد أحدث عدم ضبط قواعد الخط في صدر الاسلام ، وعدم استعمال القط في أول العهد بالتدوين بعض المشكلات للمؤرخين في ضبط الأعلام . فاختلاف النقط يحدث كما هو معروف اختلافاً في ضبط الأسماء ، وهذا ما حدث فعلاً . وإنك لتجد في كتب الأنساب المطبوعة والمحفوظة أمثلة عديدة من هذا القبيل . كذلك أدى إهمال بعض النسابين ذكر الآباء أو الأجداد الى حدوث شيء من الارتباك في ضبط الأنساب . يضاف الى هذا تشابه أسماء بعض القبائل والبطون في قحطان وعدنان .

وقد أشار الهمداني الى العصبية التي كان لها أثر خطير في وضع الأنساب في عهد معاوية وغيره في الشام وفي العراق ، ثم الى تقصير نسابي العراقي والشامي في عدة آباء كهلال وحمير ، ليضاهوا بذلك على حد تعبير الهمداني عدة الآباء من ولد اسماعيل ، وذكر انه كانت عند أهل اليمن مثل حمير وهمدان والمرانيين وغيرهم رُبُرٌ مَدُونَةٌ فيها أنسابهم ، يتناقلها الناس ، وهي تختلف عن الأنساب التي يتداولها أهل النسب في العراق والحجاز والشام بعض الاختلاف ، وان بعضاً من أنساب عرب الحجاز دخل في أنساب الناس من أهل اليمن ، وذلك على رأيه لأسباب ، منها : فتك (تحت نصر) بأقيال اليمن في عهد أسعد تبّع ،

وفي أيام حسان بن أسعد وتخريبه حصونهم ، وقتل حسان لجديس التي أفنت طسماً^١ . وفي هذا الحديث على علاته ما فيه من اعتراف صريح باضطراب النسابين في ضبط الأنساب .

ولا يخلو بعض هذه الأنساب من تحمل العصبية التي كانت في نفوس القبائل والبطون ، إذ خلقت هذه مثالب لصقتها بآباء القبائل المتباغضة وأجدادها حفظت على مرور الأيام ، ولازمت من قيلت فيهم ، ليس من الصعب الوقوف عليها ومعرفتها كما هو الحال في نسب ثقيف مثلاً . وقد أوجدت قسوة الحجاج بن يوسف ، وهو من ثقيف ، ذلك القصص الذي قيل في جدّ ثقيف ولا شك .

وقد أشرت فيما سبق الى أثر التوراة وأثر نفر من أهل الكتاب ممن ادعوا العلم بكتب الأولين في النسابين والأخباريين ووضعهم أسس النسب ، وارجاعها الى قحطان وعدنان ، وبناء نسب القبائل على هذين الأساسين . وقد وجدنا (يقطان) في التوراة أباً لشبا وحضر موت وبقية إخوتها ، وهم من العرب الساكنين في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية . ويقطان هو قحطان . ثم وجدنا الإسماعيليين في التوراة كذلك ، والإسماعيليون هم الإسماعيليون أبناء إسماعيل جدّ العرب العدنانيين . ووجدنا ثابت وقدار في التوراة كذلك وعند النسابين أيضاً ، وثابت هو (نابات) .

أما الذي يتجلى لنا من استعراض كل هذه الأنساب ودراستها ، سواء أكانت قحطانية أم عدنانية ، فهو ان الحياة السياسية للقبائل كانت حياة كتل ، وهي حياة اقتضتها ضرورات الحياة للدفاع عن النفس والمصالح ، كما هو شأن الدول في كل زمان ، حيث تعقد بينها المحالفات . فالخلف بين القبائل ، هو كالحلف بين الدول بكل ما للحلف من معنى . وقد رأينا نماذج من تلك الكتل الضخمة أشرت اليها في أثناء كلامي على القبائل . وينحى إلى ان فكرة رجوع العرب الى قحطان وعدنان ، فكرة تثبت في الإسلام ، ساعد في ترسيخها وتثبيتها تلك العصبية التي أشرت اليها ، وتلك النظرية التي انتزعها ابن الكلبي وأضرابه من التوراة ومن أهل الكتاب بخصوص يقطان وقدار .

١ الاكليل (٨/١٠٠ وما بعدها) (طبعة نبيه أمين فارس) ، (١٠/٣٠ وما بعدها) .

وفي الذي يذهب اليه أهل الأخبار والأنساب من ادعاء وجود خلاف بين القحطانيين والعدنانيين ، شيء من الصحة ، لا سبيل الى نكرانه ، غير انه ليس على النحو الذي ذهبوا اليه . والكتابات الجاهلية التي تحدثت عنها سابقاً ، وأسماء الأشخاص والأصنام ، شواهد على وجود هذا الاختلاف . ولكنه ليس اختلافاً بالمعنى الذي ذهب اليه الأخباريون . فبين العرب الذين يطلق الأخباريون عليهم (القحطانيين) اختلاف في اللهجة وفي الأسماء لا يقلّ عن الاختلاف بين القحطانيين والعدنانيين . كذلك نجد مثل هذا الاختلاف بين العدنانيين أنفسهم . وقد وجدنا نص النارة لامرئ القيس ، وهو أصل قحطاني على حدّ تعبير الأخباريين وأهل الأنساب ، بلهجة قريبة من لهجة القرآن الكريم بعيدة عن لهجات أهل اليمن . بلهجة نستطيع ان نقول إنها من الأم التي ولدت عربية القرآن الكريم . كذلك نجد النصوص الأخرى قريبة من هذه العربية ، مع انها لأناس يحب عدّهم من قحطان إن سرنا مع النسابين في مذهبهم في تقسيم العرب الى قحطانيين وعدنانيين . ثم ان الأخباريين لم يسيروا الى وجود فروق في اللسان بين القحطانيين والعدنانيين ، وإنما جعلوهم يتكلمون بعربية واحدة هي عربية القرآن الكريم ، ونسبوا اليهم أصناماً مشتركة . وشعراء الجاهلية هم في عرفهم من قحطان وعدنان . ولهذا قالوا عن اللهجات العربية الجنوبية التي ظلت حية في اليمن وفي حضرموت انها غير فصيحة وانها ليست بعربية ، وان لسان حمير ليس بلساننا ، الى غير ذلك مما أشرت اليه في أجزاء الكتاب السابقة مأخوذة من أقوال العلماء .

وقد ذكرت في كتابي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، في أثناء كلامي على النبط ما كان من وجود أداة (ال) المستعملة في عربية القرآن الكريم ، في كتاباتهم ، وأشرت الى استعمالهم أسماء استعملتها قريش وغيرهم من العرب العدنانيين^١ . وهي أسماء لم نعر عليها في الكتابات العربية الجنوبية حتى الآن ، كما أشرت الى مشاركتهم العرب الشماليين في أسماء الآلهة التي تعبدوا لها ، وأوردت آراء بعض المستشرقين في أصلهم ، وفي انهم عرب مثل العرب الآخرين .

ولهذه الملاحظات أهمية كبيرة في الحديث عن العرب الشماليين ، وفي النواحي التي يختلفون فيها عن العرب القحطانيين . كما أن لنص النارة ولتأريخ (بروكويوس)

اهمية خطيرة كذلك في هذا الموضوع لإشارتهما لأول مرة الى (معدّ) . فقد وردت كلمة (معدو) اي معدّ في السطر الثالث من النص ، ووردت كلمة (نزار) اي (نزار) في السطر الثاني منه . يضاف الى ذلك ورود اسماء قبائل اخرى هي (الأسدين) ، اي قبيلة أسد ، ومذحج .

أما تأريخ (بروكوبيوس) ، فقد وضع (Madden) اي معدّ في الاقسام الشمالية من الحجاز . وقد ذكر هذا المؤرخ ان القيصر (يوسطيان) طلب من (السيفع أشوع) (Esimiphaius) أن يوافق على تعيين سيد قبيلة اسمه (قيس Kaisus) (Caisus) رئيساً على (معدّ)^١ . وقد ذكرت ان هذا يدلّ ضمناً على خضوع معدّ لحمير ، ولو كان خضوعاً بالاسم . ولوجود معدّ في هذا الزمن ، أي في القرن السادس للميلاد ، في أرض كانت مأهولة بالنبط اهمية كبيرة ولا شك .

كما أشرت الى ورود كلمة (مضر) في نص يمني ، والى اشتراكها في حرب خاصتها سبأ وحمير ورجة وكدت ومضر وثعلبة^٢ . وهي حرب يظهر انها كانت واسعة من الحروب التي وقعت قبيل الاسلام . ومضر في هذا النص قبيلة من هذه القبائل التي اشتركت في الحرب ، وليس اسماً عاماً لقبائل كثيرة ، أي على نحو ما يذهب اليه الاخباريون .

فيتبين من هذه النصوص ان معدّ ونزاراً ومضر كانت قبائل تقيم في الأقسام الشمالية من جزيرة العرب وفي العربية الغربية . وقد لاحظنا ان نص الهارة قد فرق بين معدّ ونزار ، ولم يشر الى وجود رابطة بين القبيلتين ، بمعنى ان كلاً من نزار ومعدّ كان قبيلة مستقلة، في حين يضع النسابون نسباً بينها ويربطون بين القبيلتين . والظاهر ان هذا الارتباط الذي ذهب اليه الاخباريون وأهل الانساب انما حدث في صدر الاسلام ، بعد تثبيت القبائل في الديوان .

وفي اثناء كلام الاخباريين على تأريخ الحيرة ، ذكروا ان معدّ كانت خاضعة لها ، وأن ملوكها كانوا يحكمون معدّاً . ذكروهم في جملة من كان قد خضع

١ تأريخ العرب قبل الاسلام (٢٠٥/٣ وما بعدها) .

٢ تأريخ العرب قبل الاسلام (١٦٦/٣) .

لحكم أولئك الملوك . والذي يستتج من كلامهم أن معداً كانوا بادين ، أي
اعراباً ، وأنهم كانوا يقطنون مناطق كانت في نفوذ ملوك الحيرة . فهل قصد
الاخباريون معداً الذين كانوا يسكنون في أعالي الحجاز كما ذكر ذلك (بروكويوس)
أم قصدوا جماعات منهم هاجرت الى بادية الشام ، وخضعوا لحكم أهل الحيرة ؟
ويلاحظ ان الاخباريين يتوسعون أحياناً في ملك ملوك الحيرة فيبلغون به البحرين والحجاز .
اما كيف تطورت هذه الانساب ، وكيف توزعت ، وكيف حصرت في
جديين ومن قام بذلك ، وأمثال هذا ؟ فليس من السهل إيجاد جواب وأمثال هذه
الأسئلة ما دمنا لا نملك الاسباب التي تهيء لنا العلم الكافي للإجابة عنها .

الفصل السابع والأربعون

الناس منازل ودرجات

وأهل الجاهلية مثل غيرهم من شعوب ذلك الزمن : أحرار وعبيد ، يستوي في ذلك الأعرابي وأهل المدر . والحرّ تقيض العبد ، والحرّة تقيض الأمة^١ . والحرّ هو الذي يتصرف بأموره كما يشاء . وأما العبد فلا ، فأمره بيد مالكة ، فلا يجوز له ان يفعل شيئاً من غير رضا سيده ومالك رقبته . ويعبر عن الحر بلفظة (حرم) في المسند ، فيقال : (حرم) ، أي (حرّ) . والجمع (أحرر) ، أي (أحرار)^٢ .

والجاهليون وان بدوا (ديمقراطيين) شعبيين ، لا فرق عندهم بين حر وعبد ، كبير أو صغير . يخاطب الفقير ملكه أو سيد قبيلته بلهجة بسيطة تم عن (ديمقراطية) عميقة أصيلة إلا انهم في الواقع طبقيون يعاملون الناس حسب منازلهم ودرجاتهم ، ويعملون بمبدأ عدم التكافؤ بين الناس . وآية ذلك عرف جلوس الناس في مجالس الملوك والمجتمعات ، وعرف تقديم الطعام أو الشراب مبتدئين بالملك ثم بمن يجلس على جانبه الأيمن باعتبار انه أشرف القوم ثم بالجالس على الجانب الأيسر من الملك ، على ترتيب الناس في درجات جلوسهم أو حسب إشارة الملك الى الساقى أو مقدم الطعام . ثم في نظرتهم الى (الحق) والى الأعراف الاجتماعية كالأخذ بالتأثر والزواج . فلم في الأخذ بالتأثر مبدأ مقرر

١ اللسان (١٨١ / ٤) .

٢ Rep. Epig., VII, p. 416, Nu. 4912, Philby 84

معروف . هو ان القتيل اذا كان شريفاً في قومه ، وكان قاتله وضيعاً صعلوكاً ، أو عبداً فلا يقبل أهل القتيل بـ (القود) ، بل بعرف تكافؤ الدم . فعندهم ان دم القتيل الشريف ، لا يغسل إلا بدم شريف مثله ومن أهل مكانته ، ومعنى هذا ان قتل القاتل لا يكفي ، بل لا بد لأهل القتيل في هذه الحالة من البحث عن شريف من قوم القاتل يكون مكافئاً للقتيل في المنزلة والمكانة حتى يقتل به ، فيغسل عندئذ بقتله دمه . وينام الثأر . وقد يكون المقتول وهو ما يحدث في الغالب بريئاً ولا علاقة له بالقتيل ولا القاتل . ولكن العرف القائم على نظرية التكافؤ بين الطبقات ، لا يفهم براءة بريء ، وحق قتل القاتل وحده ، بل يدين بعقيدة ان الدم لا يغسل إلا بدم موازٍ له ، فلا بد من قتل شريف بشريف إذن حتى ينام أهل القتيل .

والى ما تقدم من الإسراف في القتل وقتل البريء بدم مقتول ، أشير في القرآن الكريم : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً ، فقد جعلنا لوليه سلطاناً ، فلا يسرف في القتل)^١ . (وذلك ان أهل الجاهلية ، كانوا يفعلون ذلك ، اذا قتل رجل رجلاً عمداً ولي القتيل الى الشريف من قبيلة القاتل فقتله بوليه ، وترك القاتل ، فنهى الله عز وجل عن ذلك عباده ، وقال لرسوله ، عليه السلام ، قتل غير القاتل بالمقتول معصية وسرف ، فلا تقتل به غير قاتله . وان قتلت القاتل بالمقتول ، فلا تمثل به)^٢ .

وعلى هذه النظرية الطبيعية بنوا تقييم أثمان الديات ، أي ثمن الدم . فدية الملوك في الجاهلية أغلى ما دفع ثمناً عن دم . إذ جعلت دية الملك ألفاً من الإبل ، فعرفت لذلك بدية الملك . تليها في الثمن ديات الأشراف وسادات القوم حسب الشرف والمنزلة حتى تصل الى ديات المغمورين المطمورين فتكون أقلها ثمناً . إذ تبلغ خمساً من الإبل ، وقد تنقص في ذلك . وعلى هذه النظرية القائمة على (الفوقية) و (التحتية) ، قدرت فدية الأسرى أيضاً . فدية الملوك الذين يقعون في أسر أسر ألف من الإبل ، وعرفت بـ (فدية الملوك) وفدية من هم دونهم أقل حتى تصل الى أنحس ثمن ، وهي فدية سواد الناس . ولهذا حرص

١ الاسراء ، الآية ٣٣ .

٢ تفسير الطبري (٥٩/١٥) .

الأسير الشريف الذي لا يعرفه أسرته على إخفاء شخصيته وعلى التظاهر بالإملاق وبأنه من المغمورين ليجنب نفسه دفع فدية عالية قد يفرضها أسرته عليه ، فتوجهه وتؤله .

ومن هذه النظرة أيضاً ولد اعتقاد أهل الجاهلية ان دم الرئس يشفي من عضه الكلب الكلب^١ . فإذا كلب إنسان أتوا رجلاً شريفاً فيقطر لهم من دم إصبعه فيسقون المكلوب فيبرأ . أو يسقونه من دم ملك فيشفى . جاء في المثل : دماء الملوك شفاء الكلب . ودماء الملوك أشفى من الكلب . قال أهل الأخبار عن الكاب : (وأجمعت العرب ان دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاها) ، فيشفى بذلك من الكلب^٢ . ولو لم يكن للجاهليين رأي خاص في الملوك والأشراف ، وفي وجود تفوق لهم على سواد الناس ، لما اعتقدوا هذا الاعتقاد في اشفاء دماء الملوك والأشراف لمن يصاب بالكلب . وبعدم شفاء دم غيرهم لهؤلاء المرضى .

ومن هذه النظرة أيضاً ، تولد امتناعهم من تزويج بنات الأشراف والأسر من رجال هم دون البنت في المترلة . وهو عرف يراعونه ويحافظون عليه الى يومنا هذا . ويزدرون من شأن الخارج على (التكافؤ) بين البنت والولد في الزواج . وقد يرفضون تزويج رجل ثري مكتنز للمال ، من امرأة فقيرة شريفة الأصل ، اذا كان الرجل من أصل ذابل ، كأن يكون أبوه أوجده (صانعاً) أو (خضاراً) ، لأن الأصل في نظر العرب فوق المال . والشريفة يجب ألا تزوج إلا من شريف مثلها ، مراعاة منهم لمبدأ نقاوة الأصل وانجاب الأولاد النجباء . ومن هذه النظرة امتنع العرب من تزويج بناتهم من الأعاجم حتى لو كان ذلك الأعجمي ملكاً . وقد رأينا كيف ان (النعمان بن المنذر) ، رد طلب (كسرى) لما طلب منه تزويجه لإحدى بناته من أحد أبنائه . وشق ذلك عليه حتى انه لم يتألك من ضبط نفسه ، فقال للرسول : أما في عين السواد وفارس ما تبغون حاجتكم . ومراده من لفظة (عين) البقر . ومن اغتنام (زيد بن عدي بن زيد العبادي) هذه الفرصة ، وكان هو الذي اقترح على (كسرى) ان يزوج أحد ولده من بنات النعمان ، فقال لكسرى : (قد كنت أخبرتك بفضنهم بنسائهم على غيرهم ،

١ بلوغ الأرب (٣١٩/٢) .

٢ ناج العروس (٤٦٠/١) ، (كلب) .

وان ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري على الشيع والرياش ، واختيارهم السموم والرياح على طيب أرضك هذه حتى انهم ليسمونها السجى (. ومن قوله له : (أيتها الملك : إن شرَّ شيء في العرب وفي العمان انهم يتكرمون عن العجم)^١ . فكان ما كان من غضب (كسرى) على العمان ومن القضاء عليه على النحو الذي تحدثت عنه^٢ .

وقد جعل بعض العلماء تخوف العرب من القهر عليهم ومن طمع غير الأكفاء في بناتهم ، في جملة العوامل التي حملتهم على وأد البنات . (قال قتادة : كان مضر ونخزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدّهم في هذا تميم . رعموا خوف القهر عليهم ، وطمع غير الأكفاء فيهن)^٣ . ومن شروط الكفاءة في الزواج عند الجاهليين ، التكافؤ في النسب والحسب والمكانة وفي الأصل .

وسبب امتناع العربي من تزويج ابنته الى أعجمي ، هو تكريم العرب عن الأعاجم واستعلاؤهم عليهم . ونظرتهم الى الأعاجم على انهم دونهم في المتزلة والكرامة . لذلك رأوا ان تزويج بنت عربية الى عجمي أعجمي ، خسة ما بعدها خسة ودناءة ما وراءها دناءة . حتى وان كان العربي فقيراً لا يملك شيئاً . بل عابوا العربي الذي يتزوج أعجمية بسبب النسل ، واستصغروا شأن المولود من أب عربي ومن أم أعجمية . فهو وان كان عربياً في عرف العرب من أجل ان النسب الى الأب ، ولكنه أعجمي من ناحية الأم ، فهو دون الأصل في المرتبة .

وفي غنى العربية بالمصطلحات الكثيرة التي تطلق على السادة والأشراف وعلى الفقراء والمعدمين التربين وعلى الطبقات الأخرى ، دلالة ليس فوقها دلالة على وجود هذه النظرة الطبقية عندهم ، وعلى نظرتهم الى أنفسهم على انهم مازل ودرجات ، وانهم غير متكافئين . وان القيادة في المجتمع يجب ان تكون للبيوت .

- ١ (الطبرى) ٢٠٢/٢ وما بعدها) ، (ذكر خبر يوم دى فار) .
- ٢ (وفد هجا عند العيس بن حفاف البرحمي ، العمان بن المنذر ، في الجاهلية ، وذكر ولادة الصائغ له ، فعال) .

لعن الله من ثنى بلعن اس دا الصائغ ، الطلوم الجهول
بجمع الجيش ذا الألوف وعرو سم لا سرراً العدو فبلا

الجبوان ، (٣٧٩/٤) ، (هارون) ، الاعانى (١٥٨/٩) .

- ٣ (العرطى ، الجامع (١١٧/١٠) ، (نفسير سورة النحل)) .

ثم ان الأحرار على منازل ودرجات . وهم متفاوتون من حيث الشرف والمال . ويظهر التفاوت بين أهل المدّر أكثر مما يظهر بين أهل الوبر ، ذلك لأن الأعرابي فخور بنفسه ، يرى انه « شريف » مثل غيره نبيل وان قل ماله وشح . ثم ان التفاوت بين الطبقات لا يمكن ان يظهر في البادية ظهوره بين الضواحي والقرى ، لأن طبيعة البادية لا تساعد على ظهور ذلك التباين ، حتى ان عبيد الأعراب لم يكونوا يكوّنون طبقة خاصة مضطهدة ، ينظر اليها نظرة أهل القرى بازدراء ، بل كانوا يعدون في البادية كأعضاء من أعضاء الأسرة^١ .

والتباين الطبقي هو على ما أوضح ما يكون في اليمن ، لأن الطبيعة قد حبت أرض اليمن خيرات وجوّاً لم تحب المناطق الأخرى من جزيرة العرب مثلها ، فكانت نتيجة ذلك ظهور الاقطاع فيها ، واشتدت الحاجة الى شراء الرقيق واستجلابه لاستغلال التربة واستثمار جيرات الأرض وتشغيله في المهن الوضيعة ، وظهر في اليمن أغنياء ومتوسطو حال وفقراء معدمون ، أي طبقات اجتماعية كونت ذلك المجتمع بشكل واضح لا نراه في المجتمعات العربية الأخرى ، أشير اليهم في الكتابات .

رجال الدين :

ورجال الدين طبقة في رأس طبقات المجتمع مكانة ومنزلة ، ولها امتيازات خاصة ، لأنها ألسنة الآلهة الناطقة على هذه الأرض ، والآمرة والناحية باسمها ، وهي تقرب الناس الى الآلهة ، وتحرم وتحلل . وقد رأينا ان أوائل حكام العربية الجنوبية هم « مكربون » ، أي رجال دين . ولرجال الدين أملاك وأموال ، ولهم على الناس حقوق ، يأخذونها منهم ، كما تأخذ الحكومة حقها من الشعب . وهم طبقة كبيرة ذات قوة وسلطان مصالحها مع مصالح الحكام بالرغم من الانفصام الذي وقع فيما بين الدولة والمعبد ، وإبعاد « المكرب » عن الحكم ، وحصر حق الحكم في الملك وحده ، وحصر حق ادارة المعبد في رجال الدين وخدمهم ، وذلك لأن مصالح الملك ومصالح رجال الدين متشابهة ، وكل جهة من

^١ Ancient Israel, p. 68.

الجهتين بها حاجة الى مساعدة الجبهة الأخرى .

وكثيراً ما نقرأ في كتابات معين : ان الـ « شوع » او الـ « رشو » الفلاني قدّم قرباناً الى آلهة معين ، او بنى معبداً ، او أقام بناءً ، او عمل عملاً تقديمياً لآلهة معين . ولفظنا « شوع » و « رشو » تعنيان الكاهن والسادن ، أي منزلة دينية ذات مركز سام ، وهي أعلى درجات الكهنوت في العربية الجنوبية .

السادة والأشراف :

ويعبر عن السادة والأشراف بتعابير التعظيم والتخيم ، ومنها لفظة « أبعل » « ابعل » ، أي سيد ورئيس . وهي لفظة استعملت للآلهة كذلك . استعملت بمعنى رب وإله . فورد « ود بعل ... » و « عشتار بعل ... » وهكذا . وقد استعملت في البصوص القديمة خاصة .

ويقال للسادة « أسود » « اسواد » في العربية الجنوبية ، وهم السادة الأشراف^١ . وتقابل اللفظة لفظة « سادات » في عربيتنا . وهم سادة القوم وأشرافهم وأصحاب المنزلة والمكانة في المجتمع .

ويعدّ أعضاء الأسرة المالكة في طليعة السادات ، وهم في السيادة على حسب قربهم او بعدهم من الملك ، ويقدمون على هذا الأساس عند حضورهم الى الملك وفي المواسم الرسمية . ولهم أرضون يستغلونها ، ورقيق يخدمهم .

ويعبر عن وجيه القوم وذو المنزلة والمكانة بلفظة « كهتم » « كهث »^٢ وعكسها الوضع والحامل والصغير والحقير ، فقد ورد : « كل انسم كهتم وقطن » ، ومعناها : « كل إنسان : كبير وصغير » او « كل انسان وجيه ووضع » . وتطلق لفظة « القطين » وهي « قطن » و « قطن » في لغة المسند ، على الخدم والأتباع والإماء في لغة القرآن الكريم^٣ . فهي إذن في نفس

١ Arablen, S 128.

٢ Glaser 509, Rhodokanakis, Stu , I, S , 68

٣ راجع النص .

اللسان (٢٢٢/١٧) .

المعنى المراد من اللفظة في لغة المسند . وقد ذكر علماء اللغة ان القطين أتباع الملك وماليكه^١ .

ويقابل أهل الوجاهة والمنزلة في المجتمع ، من يطلق عليهم « صغرم » « صغرم » ، أي صغير . ويراد بها سواد الناس ، ممن لا وجاهة لهم ولا مركز لدى الحكومة والمجتمع ، كما في هذه الجملة : « كبرم فاوصغرم » ، ومعناها : « كبير أو صغير »^٢ .

وفي الدرجات العليا من درجات المجتمع ، الأقبال وهم إقطاعيون كبار ، لهم أرضون واسعة وسلطان ، وقد يجد « القول » القيلُ قوة في نفسه ومنعة ، فينازع الملوك على الملك ، ويأخذ الحكم بيده .

وترد في الموارد الاسلامية درجة أخرى تذكر عادة مع الأقبال ، هي درجة « ذو » وتجمع أذواء . ويظهر انها من الدرجات الإقطاعية التي صار لها شأن في العهود المتأخرة القريبة من الاسلام . ويراد بها أصحاب الأرضين ورؤساء الإقطاعيات ، كما تطلق على رؤساء القبائل . وقد أخذت من (ذو) التي ترد في المسند ، ومعناها (ذو) في عريتنا وهي بمعنى (صاحب) في العريسات الجنوبية .

الوجوه :

وسادة القوم هم وجوه المجتمع وسادات القبائل وقادة الجيوش . من (مقتوين) ومن أمراء حرب ، ومن المقربين الى الملوك وكبار موظفي الدولة . وهم أنفسهم من الطبقات العالية في الغالب . وقد ورثوا منازلهم إرثاً ؛ ولهم أرضون وثراء وفصور يقيمون فيها ، وبيوت مشيدة ، وخدم يخدمونهم ، وقد حصلنا على أسماء عدد منهم من الكتابات .

والتجارة من أشرف ما يشتغل به إنسان عند قريش وعند غيرهم من العرب .

١ اللسان (٢٢٢/١٧) .

Oslander 35

٢ راجع الفقرة السادسة من النص المرسوم ب :

وقد اشتغل بها أكثر أشراف مكة ، إذ كانوا تجاراً يتاجرون مع اليمن ومع بلاد الشام والعراق . وقد كانت الحرفة الوحيدة المربحة في جزيرة العرب . فالزراعة لا تدر عليهم ربحاً كبيراً ، لعدم توفر الماء الكافي لزراعة أرضين واسعة تأتي لأصحابها بغلات واسعة وبأموال طائلة ، والصناعة غير متيسرة ، لذلك عافوها وعابوها ، ولم تكن لديهم وسيلة مربحة أخرى غير التجارة .

ومن الألفاظ الدالة على الوجاهة والمكانة عند العرب الجنوبيين ، لفظة « قرمن » ، أي « القرم »^١ . وهي في هذا المعنى في عربيتنا كذلك ، فيقال للسيد قرم . والقرم من الرجال السيد المعظم و (المكرم) ، هو أيضاً السيد المعظم^٢ .

المحاربون :

ويكون المحاربون طبقة خاصة بهم ، وهم أناس احترفوا الخدمة العسكرية وعاشوا عليها ، وقد أشير اليهم في الكتابات وعرفوا بـ « قسم » « قسد » « قسد » . وقد ذكروا بعد أصحاب الأرض في إحدى الكتابات^٣ ، وقبل « التجار » « مكر » و « الكياليين » « سلا » في كتابة أخرى^٤ . وقد أشار اليهم « سترابو » إذ جعلهم في الطبقة الأولى من طبقات المجتمع في « العربية السعيدة » . وكان قد قسم هذا المجتمع ثلاث طبقات : المحاربين ، والمزارعين ، وأصحاب الحرف اليدوية^٥ .

ويظهر من دراسة بعض النصوص التي وردت فيها كلمة (قسدن) ، ان

١ Ryckmans 508.

٢ اللسان (٤٧٣/١٢) ، ناج العروس (قرم) .
قال أوس بن حجر :

إذا مكرم منا زر أحد نابه نخمط مادرا ناب آخر مكرم
أما لي المرتضى (٢٥٨/١) .

٣ Glaser 1210, A. Grohmann, S., 123.

٤ Glaser 1571, Rhodokanakis, Bodenwirtschaft, S., 183,

Altsabäische Texte, I, 105, Kata Texte, I, 73.

٥ Handbuch, I, 123, A. Grohmann, S., 123

(القسود) ، ، كونوا طبقة كبيرة خاصة في دولة سبأ ، كانت منزلتها دون منزلة الاشراف واصحاب الاقطاع وفوق رقيق الارض ، المسمون بـ (ادومت) ، التابعين للأرض والذين يباعون معها عند بيع الأرض . وكانوا يستعلون الأرض التي تعطى لهم لاستغلالها في مقابل اداء الخدمة العسكرية والاشتراك في القتال عند وقوعه ، فهم عساكر وفلاحون في آن واحد . ويتببه حال العساكر الذين منحهم الخلفاء الراشدون ارضين زراعية لاستغلالها في مقابل هرعهم الى القتال مع المحاربين عند توجيه الدعوة لهم . وهو نظام كان عند الساسانيين والبيزنطيين .

وقد كان الاشراف وأصحاب الاقطاع يستأجرون من لا ارض له ، باعطائه ارضاً لاستغلالها في مقابل الدفاع عنهم والقتال دونهم . ولذلك كان لكل اقطاعي (قسود) استطيع تسميتهم بالفلاحين المحاربين . يحاربون معه ويدافعون عنه . واذا مات سيدهم ، صارت السيادة الى من ينتقل الارث اليه .

ويعرف المحارب بـ « اسدم » « اسد » في العربيات الجنوبية ، اي جندي وعسكري في اصطلاحنا اليوم . وهم احرار وعبيد . وورد في بعض الكتابات حملة « اسد املكن » « اسد املكان » ، اي « جنود الملك » و « جنود الملوك » وذلك تعبيراً عن جماعة اختصت بالخدمة في جيش الملك . وقد اشير اليهم في كتابة بمناسبة انشاء طريق ^١ .

ويلحق هذه الطبقة طبقة الـ « اتمت » ويراد بها الجنود المرتقة ، او ما يعبر عنه بـ (العساكر) في الزمن الحاضر ^٢ ، وقد كَوّن « العساكر » أو « عساكر السلطان » كما عرفوا في بعض البلاد الاسلامية في ايام الخلافة طبقة خاصة ، اعتمدت على سلطانها وقوتها ، فلم تحفل بأحد وأخذت تعتدي على الاهلين . وقد كانوا خليطاً من الاحرار ومن الرقيق ، اعتمد عليهم الحكام في الدفاع عنهم وفي القضاء على خصومهم ، فعاشوا على خدمة سادتهم ، وقد صارت حرفتهم وراثية ، فابن الـ « اتمت » ، يتسب الى الخدمة في المعسكر ايضاً حين بلوغه سن الخدمة ويعيش في خدمة سيده .

Rep Epig 4624, J Ryckmans, L'institution Monarchique, 147, Arabien, S. 123.

A Grohmann, S, 123

التجار وتوابعهم :

ويكون « التجار » طبقة خاصة من طبقات المجتمع العربي الجنوبي . ويقال لهم « مكر » في لغة المسند . وقد كانوا يتاجرون في البر والبحر ، ولهم فوافل وطبقات دنيا من رقيق وخدم تؤدي الواجبات التي يريدها سادتهم منهم . وكان لهذه الطبقة شأن خطير في تأريخ العربية الجنوبية في القديم ، وأثر بليغ في اقتصاد البلاد ، وتزويد الحكومة بمصدر كبير من مصادر دخلها وهو الضرائب التي كانت تدفعها اليها .

وقد تعرض علماء العربية للفظه (المكر) ، فقالوا : ان من معانيها السوق ، وفيها يقع المكر والخداع . وان (الماكر) العير تحمل الزيب ، والتمكير احتكار الحبوب في البيوت^١ . ولهذه المعاني صلة مباشرة بالتجارة وبالاتجار في البر والبحر . وفي العربية طبقة عرفت بـ « سلا » ، تعاطت تجارة الملح ، كانت تبيعه وتستورده وتصلره وتقوم بنقله من مواضعه الى الاسواق . وقد شبه « رودوكتناكس » هذه الطبقة بـ « الكواليان » في الوقت الحاضر^٢

الطبقات الدنيا :

ومن الطبقات الدنيا عند العرب الجنوبيين : الـ (ادم) والـ (صغرم) (الصغر) (الصغار) ، والأجراء (اجرم) ، والمتربون (غبر) ، والـ (ومي) (امي) .

الادم :

وترد في كتابات المسند كلمة هي « ادم » و « ادومت » . وتقابل لفظي « ادم » و « ادومت » و « آدمي » و « أوادم » في العراق ، بمعنى خدام وخدم^٣ . ووردت في صورة : « اديمت » « اديمت » و « ادوم » في الكتابات

١ ناج العروس (٥٤٩/٣) ، (مكر) .

٢ Glaser 1571, A Grohmann, S., 124

٣ راجع النصوص الموسومة بـ : ٦٨٩ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ، ٧٠٧ ، ٧١٢ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٣٠ ، ٧٨٤ من كتاب :

Jamme, Southarabian Inscriptions, p 76, 77

راجع المعش رقم (١٦) ، ص (٢٣) ، من كتاب خليل يحيى نامي : نهوش خبره معين .

القتبانية المتأخرة^١ . وتؤدي معنى التبعية . وأعني بالتبعية الاعتراف بسيادة رئيس على مرؤوس^٢ . فقد كان اصحاب الارض يؤجرون الارض لمن لا ارض لهم ، ومن لا مال لهم ، فيقيمون فيها يشتغلون لأصحابها ، ويكونون تبعاً لهم . ويعبرون عن هذه التبعية بتلك اللفظة المعبرة عنها . فهم في هذه الحالة اذن مزارعون يعيشون من كراء الارض^٣ .

وقد وردت هذه اللفظة بهذا المعنى ، خاصة في النصوص المتعلقة بقبيله « سخيم »^٤ . وهي ذات املك واسعة وأرضين خصبة ، وأجرتها لمن لا ارض له من الوافدين عليها من الاماكن الاخرى ، لتستغل هذه الارضين وتعيش عليها ، معترفة بذلك انها في حماية هذه القبيلة وفي خدمتها .

وهي فضلاً عن ذلك تعبر عن التبعية بكل اشكالها ، فتعبر عن الانتماء الى شخص او قبيلة كذلك ، بمعنى ان « ادم » تابع لذلك الشخص او القبيلة ، منتمٍ اليه . ولذلك يذكر الـ « ادم » اسم سيده الذي ينتمي اليه ويحتمي به ، كأن يذكر اسمه او اسم القبيلة التي ينتمي إليها . وقد يعبر باللفظة عن معنى (تابع) و (خادم) بالمعنى المجازي ايضاً ، في مثل مصطلح « ادم ملكن » أي « خادم الملك » و « عبد الملك » و « آدم الملك »^٥ . وذلك تعبيراً عن الاحترام للملك وعن الاقرار بتبعية الشخص المذكور له ، وباخلاصه له اخلاص للعبد لسيده ، وان كنا نجد ان للملك حاشية كبيرة هي حاشية (ادم) حقيقية ، اي طبقة لا تملك ارضاً ولا ملكاً ، ومعاشها من خدمة الملك ، حيث يتولى القصر الانفاق عليها ، كما كانت للأسرة الكبيرة جماعات من الـ « ادم » تخدمها وتؤدي لها مختلف الأعمال .

١ Glaser 1398, Handbuch, I, S., 122, Anm 4.

٢ Rep Epig, VII, p. 296, 4651,

٣ Rep Epig, VII, p. Num 4651, 4662.

٤ Rep. Epig., VII, p 301, 4659, p 302, 4660, p. 303, 4662.

٥ SE 80, Rhodokanakis, Die Inschriften an der Mauer von Kohlan-Timna',

25, A. Grohmann, S. 124.

قال « ادم » إذن وفي الغالب ، تعبير عن جماعة من الناس كانوا أحراراً ، إلا أنهم لم يكونوا من المتمكنين في حياتهم من حيازة أرض أو ملك ، لذلك جعلوا أنفسهم في خدمة غيرهم ، بأن كروا الأرضين من أصحابها ، لاستغلالها في مقابل حق معلوم ، أو اتفقوا مع ثري على أداء عمل له في مقابل أجر يقدمونه إليه . وهم طبقة واسعة العدد . وهي لذلك أرقى منزلة وأحسن حالاً من حال العبيد المملوكين ، والرقيق المشتري من الأسواق .

وقد فسر بعض الباحثين كلمة (ادوم) (ادوام) و (اديمت) ، و (ادومت) ، بمعنى عمال الأرض ، أو طبقة واطئة من المزارعين الذين لا يملكون أرضاً ، أحوالهم ضعيفة ، لأن ما ينتجون لا يكفي لاعاشتهم . وذكروا ان كلمة « ضعيف » المستعملة في العربية الجنوبية تعبر عن ذلك المعنى المراد من تلك الكلمات^١ .

وقد ورد في بعض النصوص لفظ (ا ج ر م) بمعنى (أجير) و (أجراء)^٢ ، وهم الأشخاص الذين يشتغلون بأجور يدفعها لهم أصحاب الأرضين أو أصحاب المال أو أصحاب العمل . وقد كانوا طبقة من الطبقات الدنيا ، بدليل ذكرهم في هذه الجملة : « كل معتم حرم واجرم »^٣ ، (كل معني حر وأجير) ، أي كل فرد من أبناء معين حر وأجير ، بتعبير أوضح . والأجراء هم أكثر حرية من العبيد ، لأنهم يشتغلون بأجر وبعقود يتفقون عليها . فإذا انتهى العقد ، أو حصل خلاف ، جاز للأجير الانتقال الى موضع آخر ، أو الى صاحب محل آخر للعمل لديه ، على حير لا يجوز للعبد فعل ذلك ، لأنه ملك يمين . والأجراء أناس أحرار ، يستطيعون التنقل والتصرف بحرية ، ولكنهم فقراء معدمون لا يملكون شيئاً ، وعيشتهم من العمل الذي يقومون به لغيرهم مقابل الأجر الذي يقدمه رب العمل لهم .

وقد يكون الأجر الذي يدفع عن عمل مقطوع ، وقد يكون عن أمد محدد كأن يكون أجر يوم واحد أو أيام ، فإذا تم النهار دفع الأجر للأجير . وقد

١ A Grohmann, S, 124

٢ النعش رقم ٥٧٧ ، Jamme, Southerarablan Inscriptions.

٣ النعش رقم ٥ ، الفقرة ٣ من كتاب . نعوش خربة معين (ص ٥) .

يكون الأجر لموسم كامل ، كموسم زرع . وقد كان الأجراء يشتغلون في الزراعة خاصة كحرث الأرض وزرعها او حصاد الزرع او قطف الثمر . ولضعف هذه الطبقة ، وعدم تمكنها من أخذ حقها بالقوة ، كان بعض من يؤجرهم يأكل حقوقهم ، ولا يدفع أجورهم ، او يأكل قسماً منها . ونجد هذه الطبقة في العراق حيث أشير إليها في شريعة « حمورابي » ، كما نجدها في أماكن أخرى من العالم ، وما زال العامل يستخدم في مقابل أجور يومية للقيام بمختلف الأعمال ^١ .

وقد ورد في الكتابات القبطانية ذكر جماعتين : جماعة عرفت بـ « غبر » ، وجماعة عبر عنها بـ (ومي) ، او (امي) ^٢ . و « الغبر » في عربية القرآن الكريم هم الفقراء والصعاليك ، وفي العربية كلمة أخرى تؤدي هذا المعنى هي لفظة (غبّراء الناس) ، أي فقرائهم ، ومنه قيل للمحاييج بنو غبّراء ، كأنهم نسبوا الى الأرض والتراب . وبنو غبراء الفقراء . وأما (الغرباء) ، فهم الصعاليك ^٣ . فالغبر ، إذن هم طبقة من الطبقات البائسة الدنيا التي كانت في قتيان وفي غير قتيان ، طبقة من الفقراء والصعاليك ، لا تملك شيئاً ، ليس لها في حياتها غير البؤس والتعاسة لأنها ولدت بائسة تاعسة فعاشت في تعاستها هذه في هذا العالم على صدقات الناس وعلى ما يحصلون عليه بالسرقة او بالاستجداء وبالقيام بالخدمات والأعمال المتعبة في سبيل الحصول على ما يقوتهم الى يوم خلاصهم من هذا العالم بالوفاة .

وبمعنى المحاييج والصعاليك فُسر بيت (طرفة بن العبد) ، بقوله :

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هناك الطراف الممدد^٤

وعرف (بنو غبراء) بـ (المدقعين) للصوقهم بالدقعاء ، وهي الأرض . كأنهم لا حائل بينهم وبينها ^٥ ، و (الدوقة الفقر والذل) و (جوع أدقع وديقوع شديد) ^٦ .

١ Ancient Israel, p. 76

٢ A Grohmann, S., 124.

٣ اللسان (٥/٥ وما بعدها) .

٤ ناج العروس (٤٣٧/٣) ، (غبر) .

٥ المصدر نفسه .

٦ ناج العروس (٣٣١/٥) ، (دفع) .

وأما (الومي) (امي ؟) ، فطبقة من الطبقات الدنيا كذلك ، من هذه الطبقات العاملة البائسة التاعسة التي لا تحصل على عيشها إلا بشق الأنفس . ولعلها الطبقة التي يقال لها « شفلوت » في العربية الجنوبية في هذه الأيام^١ . ويجوز ان تكون للكلمة صلة بلفظة « امي » في عربيتنا التي تعني الجاهل والشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب .

وفي العربية لفظة « الحشم » ، قيل انها تعني المالك والأتباع ، مما يليك كانوا او أحراراً^٢ . وورد ان الحشم الأحرار ، والقطين : المالك^٣ .

رؤوس وأذنان :

ونجد التفاوت الاجتماعي في ذروته عند العرب الجنوبيين كما بينت ذلك من إيراد المصطلحات الاجتماعية المتقدمة . ويقع هذا التفاوت في الدولة وفي المجتمع عند الحضر وعند (اعرين) الأعراب . ويقع بين القبائل كما يقع في القبيلة الواحدة . فالقبائل أيضاً منازل ودرجات . وعلى رأس القبائل القبيلة التي يتسب لها المكربون او الملوك . مثل (معين) و (سبأ) و (قتيان) و (حضرموت) و (أوسان) . ولهذا ذكرت مع الآلهة والحكام ونسبت اليها الحكومات . ثم ذكر بعدها القبائل الأخرى التي هي أقل أهمية منها . أما في القبيلة الواحدة ، فنجد تفاوتاً بين أبنائها ، وقد رتبوا وصنفوا في درجات ومنازل . أعلاها عند السبئيين مثلاً أعضاء ال (مزود) و (حسود ؟) ، أصحاب المشورة والرأي والدين يستشيرهم الملوك ، وهم طبقة ممتازة كانت فوق القانون ، ذات امتيازات خاصة . يليها أصحاب الأملاك والأرض والمال المسمون بـ (مسخن) في السبئية ، و بـ (طبن) في القتيانية . ثم تليها طبقات أخرى تتدنى حتى تصل الى أسفل ، وهي طبقة (الادومت) (ادم) : طبقة (الاوادم) أي الخدم . ويعتدّ المكربون الى الملوك من أشرف الناس ومن أصحاب الحظوة والجاه .

١ A. Grohmann, S, 125

٢ اللسان (١٣٦/١٢) .

٣ اللسان (٣٤٣/١٣) .

وهذا شيء طبيعي ، بالنسبة لكل مكان وزمان ، فالذي يصل الى الملك او الحاكم لا بد وان يكون من ذوي الجاه والمترلة والمكانة . وقد عرف من اختص بالملوك ب (أصفياء الملوك) وب (أحباء الملك) وب (ندماء الملوك) ، وهم من الخاصة بالطبع . ويعبر عنهم ب (مودد ملكن) في العرييات الجنوبية .

وأدنى الطبقات منزلة في المجتمع ؛ هي طبقة العبيد ، هي طبقة تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الإنسان الحر من ممارستها . وقد يكون معظم أفرادها من الزوج المستوردين من افريقية . وأما الباقيون فمن الرقيق الأبيض المستورد من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشام . وقد كان العبيد ملكاً يباع ويشترى بيع الأموال المنقولة ، ويتصرف صاحب العبد به تصرفه بملكه الخاص ، ولم يخول القانون العبد حق ابداء رأيه في مستقبله في أي حال من الأحوال ، لأنه ملك وبضاعة مملوكة ، وكالماشية ، وان كان إنساناً حياً له ما لكل إنسان من روح وادراك وشعور .

ويعرف العبد بلفظة (عبيد) في الكتابات العربية الجنوبية ، أي (عبد) . ولفظة (عبدن) ، أي « العبد »^١ . وتشمل كل العبيد ، مهما اختلفت ألوان بشرتهم . وترد هذه اللفظة في عربية القرآن الكريم كذلك ، وفي سائر اللهجات العربية الأخرى مثل اللهجة (اللحيانية)^٢ ؛ كما ترد في لغة بني إدم (عبدو) وفي اللغة العبرانية^٣ . وتستعمل اللفظة للتعبير أيضاً عن العبودية المعنوية ، مثل نسبة عبودية الإنسان الى الآلهة أو للملوك أو الكبار وللأشراف والسادات .

وتؤدي لفظة (قن) معنى عبد ؛ أما (قنت) (قنيت) (قنية) ، فتؤدي معنى عبدة . وردت بهذا المعنى في الكتابات الصفوية^٤ . وتعبّر عن طبقة العبيد التي كانت منتشرة في كل أنحاء جزيرة العرب ، وفي كل أنحاء العالم إذ ذاك . إذ كانت القوانين الحكومية والقوانين الدولية تعدّ الاتجار ببيع الرقيق تجارة

Rep. Epig., VII, p. 148, Num 4217, p. 155, Num. 4230, Southarabian
Inscriptions, P. 444.

Lihyan und Lihyanisch, S., 143

Hastings, p 864

Littmann, Safa., p. 139

مشروعة وتعدّ العبد ملك يمين لصاحبه ، متى أبق جاز لصاحبه ومالكة قتله .
وهو ملك مثل أي ملك ، وحق الملكية حق مقدس مصون .

و « القن » في عربية القرآن : العبد الذي ملك هو وأبواه . وعرف انه
العبد الذي ولد عندك ، ولا يستطيع ان يخرج عنك . وورد (لم تكن عبيد قن ،
إنما كنّا عبيد مملكة) . وفيل : عبد فن الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه ، فإذا
لم يكن كذلك فهو عبد مملكة^١ . فالقن إذن هو عبد بالولادة ، وقد ورثه سيده ؛
فهو عبّد عبداً ، أو عبداً عبداً .

و (القني المماوك ، فهو في ملك سيده . وقد اقتني وصار في مقتنيات مالكة ،
فهو من طبقة المملوكين . ومن هذه الطبقة المملوكة جماعة عرفت بـ (رب ملكن)
(رب ملكن) (ريب الملوك) (ريب الملك) ، بمعنى (عبد الملك)
و (عبيد الملك)^٢ .

أبناء الحبش والأبناء :

وقد تولد من استيلاء الحبش على اليمن جيل جديد تعرب وكون طبقة
خاصة من طبقات مجتمع البن . وقد تكون هذا الجيل من عنصرين : حبش ولدوا
في اليمن من أبوين حبشين ، ثم بقوا في اليمن وعاش أبناؤهم فيها ، وحبش
تزوجوا من اليمن ، فنشأ لهم نسل فيه دماء الحبش ودماء أهل اليمن . وقد
عاش الجيلان في اليمن وتعربا ونسيا أصلهما وصارا يتكلمان العربية واعتدّاهما لغتهما ،
ولكن ملامحها الإفريقية ، أو الملامح المختلطة دساسة ، لم تتمكن من الاختفاء
عن الجيلين ، بل بقيت تنطق بأصلهما وبصلتها القديمة بالأرض السوداء .

وعرف الجيل الذي ظهر في اليمن من تزوج الفرس في العرب بـ « الأبناء » ،
وغلب عليهم الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم^٣ . وقد كتب اليهم النبي
يدعوهم الى الاسلام . وقد ساعدوا المسلمين ودافعوا عن الاسلام وفاوموا الردة ،

١ اللسان (٣٤٨/١٣) ، ناح العروس (٣١٤/٩) ، (فن) .

٢ Rep. Eplg 4145, Arablen, S, 125

٣ اللسان (٩١/١٤) ، (بنى) .

ومنهم وهب بن منبه بن سيج بن ذكبار ، وطاووس ، وذادويه ، وفيروز الديلمى^١ . وقد قيل عنهم : الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن لما جاء يستنجد على الحبشة فنصره وملكوا اليمن وتديروها وتزوجوا في العرب ؛ فقبل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . وذكر أنهم عرفوا بـ (أبناوي) في لغة (بني سعد) و (بنوي) في لغة بعض العرب^٢ .

ويظهر من بعض الأخبار أن العرب توسعت في مفهوم الأبناء فأطلقتها على كل الفرس الذين اجتذبتهم الحروب إلى جزيرة العرب^٣ .

وعرف « الأبناء » بتسمية أخرى أيضاً هي (بنو الأحرار) . أما الذين ولدوا من آباء فرس وأمّهات عربيات فقد عرفوا في الكوفة بالأحامرة ، وفي البصرة بالأساورة ، وفي جزيرة العرب بالخصامرة ، وفي الشام بالجراجمة^٤ .

وقد ذهبت بعض كتب التواريخ التي ألفها أهل اليمن ، (أن أبناء اليمن ينتسبون إلى (هرمز) الفارسي الذي أرسله كسرى مع سيف بن ذي يزن . فاستوطن اليمن . وأولد ثلاثة ، بهلوان ودادوان وبانيان ؛ فأعقب بهلوان بهلول . والدادويون يسعوان ، ومنهم بنو المتيمر بصنعاء وصعدة وجراف الطاهر ونحر البون . والدادويون خوارج . ومنهم غزا كراذمار وهم خلق كثير)^٥ .

وعرف العربيّ المولود من أمة بـ (المهجين) . وهو معيب . وقيل هو ابن الأمة الراعية ما لم تحصن ، فإذا حصنت فليس الولد بهجين . أو (من أبوة خير من أمه) . (قال المبرد : قيل لولد العربي من غير العريّة هجين ، لأنّ الغالب على أولاد العرب الأدمة . وكانت تسمى العجم الحمراء ورقاب المزود ، لغلبة البياض على ألوانهم)^٦ .

- ١ الروض الأنف (٥٤/١) .
- ٢ تاج العروس (٤٨/١٠) ، (بنى) .
- ٣ البيان (١١٤/٣) .
- ٤ الأغاني (٧٣/١٦) .
- ٥ تاج العروس (٤٨/١٠) ، (بنى) .
- ٦ تاج العروس (٣٦٥/٩) ، (هجن) .

أما طبقات المجتمع الحضري بالنسبة إلى العرب الآخرين وأسمائها ، فلا ذكر لها في النصوص الجاهلية ، وإنما ذكرت في الموارد الإسلامية، وأكثره مما يخص عرب الحجاز ؛ لأن أكثر ما ورد عن الجاهلية القريبة من الإسلام هو مما يخص موطن الإسلام . فكل اعتمادنا فيه على هذه الموارد الإسلامية .

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن منازل الناس في الشرف والسيادة . هي في الواقع من النعوت التي أطلقها الناس على الأشراف مبالغة في مدحهم وتفخيمهم . وأشرف القوم هم سادتهم من أرباب البيوت . ويجد في الموارد الإسلامية ذكر (أشراف قريش) . وهم كبار قريش وسادتها وأصحاب البيوت فيها . كما نجد تعبيراً يدل على الرئاسة والرعاية هو (رحي القوم) ، يقال لسيد القوم الذي يصدر عن رأيه ويتجهون إلى أمره ^١ .

وقد عُيِّرَ السودان في الجاهلية وفي الإسلام . عيِّروا بسوادهم وعلامح اجسامهم وبطريقة تكلمهم . هذا حسان يهجو أحدهم بقوله :

وأملك سوداء نويصة كأن أناملها الخنظل ^٢

و (الخلاسي) الولد ^٣ بين أبوين أبيض وأسود ، أبيض وسوداء أو اسود ويبيضاء . فهو المضرب . وقال بعض علماء اللغة : تقول العرب للغلام إذا كانت أمه سوداء وأبوه عربياً آدم فجاءت بولد بين لونها غلام خلاسي والأنثى خلاسية قال الجاحظ : (ورأينا الخلاسي من الناس ، وهو الذي يتخلق بين الحبشي والبيضاء ، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصله ومثمره . ورأينا البيسري من الناس ، وهو الذي يتخلق من بين البيض والهند ، لا يخرج ذلك التاج على مقدار ضخم الأبوين وقوتها ، ولكنه يجيء أحسن وأملح) ^٤ .

وقد شابت السنة هؤلاء (طمطمانية) ، أي عجمة . قال عنتره :

تأوي له فلص النعام كما أوت خرق يمانية لأعجم طمطم ^٥

-
- ١ اللسان (٣١٤/١٤) ، (صادر) ، (رحا) .
 - ٢ العملة (٣٠٠/١) .
 - ٣ تاج العروس (١٣٨/٤) ، (خلس) .
 - ٤ الحيوان (١٥٧/١) ، (هارون) .
 - ٥ تاج العروس (٣٨١/٨) ، (طم) .

السادات :

وسادة القوم اشرافهم ورؤساؤهم ، وذكر ان السيد الذي فاق غيره بالعقل والمال والدفع والجمع ، المعطي ماله في حقوقه المعين بنفسه . وذكر ان السيد : الحليم لا يغلبه غضبه ^١ .

والسيادة منزلة ودرجة ، ولا تأتي احداً الا باعتراف قومه له بسيادته عليهم وبتنصيبهم له سيداً عليهم . وكانوا اذا سؤدوا شخصاً عصبوه ، والتعصيب التسويد ، ولهذا كانوا يسمون السيد المطاع معصباً . وذكر ان العصابة العامة . وكانت عمائم سادة العرب هي العمامة الحمراء ^٢ .

وتعدّ الأسر الحاكمة التي ينشأ فيها عدد كبير من الملوك والحكام اسراً عريقة في الشرف ، وينظر اليها نظرة تقدير واحترام ، لأنهم ورثوا المجد عن آبائهم أباً بعد أب . وينطبق ذلك على سادات القبائل الذين يرثون سيادتهم قبائلهم أباً عن جد ، فانهم يفتخرون بذلك على غيرهم ، لأنهم ليسوا من اولئك الذين انتزعوا السيادة فصاروا سادة ، على حين كان آباؤهم او اجدادهم من الخاملين . وفصده سادات القبائل وبعض الشعراء الكبار الملوك ، ورحلوا اليهم من منازلهم ، وتقربوا اليهم ، وتوسطوا لديهم لبعض الناس . وقد عرف هؤلاء بـ (الرحال) . ولهذا نجد في الكتب ، انها اذا تعرضت لمثل هؤلاء قالت عنهم انهم من (الرحال) . فقد عرف (عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب) بـ (عروة الرحال) ، (وانما سُمّي الرحال لرحلته الى الملوك) ^٣ . كما عرفوا بـ (زوآر الملوك) ، ومنهم (ابو زيد الطائي) .

وأشراف الناس ، هم الذين نالوا الشرف والسؤدد بين قومهم ، فسادوهم . والسيد هو الرئيس ، ويطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم وعلى من ساد قومه ، مثل سادات القبائل . وقد نعت رسول الله (سعد بن معاذ) بـ (سيد الانصار) . وتقول العرب (هذا سيدنا) و (فلان سيدنا) ،

١ اللسان (٢٢٨/٣) وما بعدها .

٢ ناج العروس (٣٨٦/٣) (طبعة الكويت) .

٣ البلاذري (١١٠/١) .

أي رئيسنا والذي نعظمه . وتقول (ساد قومه) ، اي صار سيدهم ورئيسهم ^١ . ونعت (قيس بن عدي) بـ (سيد قریش) ^٢ . وكان يوم وفاة (سعد بن معاذ) بالمدينة يوماً مشهوداً . حتى حضر الرسول جنازته وكبر عليه تسعاً ، كما كبر على حمزة ، تعظيماً لشأنه . وشهد دفنه ^٣ . وكان من عادة اهل مكة في الجاهلية انه اذا مات لهم سيد كبير اغلقوا اسواقهم اعظاماً لموته ، وتعبيراً عن تقديرهم له ^٤ . فغلق الاسواق عند الجاهليين عند وفاة رجل خطير من امارات التقدير والتعظيم .

ومن امارات تكريم الميت الشريف ، تجمع الناس عند بيته ، احتفالاً به لنقله الى موضع دفنه . واذا كان الميت خطير الشأن كان الجمع اكبر . وهو يتناسب في كثرته مع مكانة ودرجة الميت في المجتمع . وقد ذكر انهم كانوا يقولون للرجل الشريف يقتل : (العقيرة) ^٥ .

والسادات هم الرؤوس ، رؤوس الناس . اما من دونهم فأذئاب . وعرفوا بـ (أذئاب الناس وذنباتهم) ، اي اتباعهم وسفلتهم ، والاتباع دون الرؤساء . يقال : جاء فلان بذنبه ، اي اتباعه . قال الخطيب يمدح قوماً :

قوم هم الرأس والاذئاب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا ^٦

والسادات (مصاييح الظلام) ومشاعله ، بنورهم يهتدي الفقراء واصحاب الحاجة والفاقة ، فينالون منهم ما يخفف عن كربهم وفقيرهم . يطعمون الناس في الحضر والسفر ، فهم سادة الناس وملاذهم حين تغلق كل الابواب بأوجه الاذئاب التاعسين البائسين .

ويقال لأشراف قوم ولبارزين منهم وجوه القوم ووجهاء القوم ، فورد (وكان من وجوه القرشيين) ، و (كان من وجوه قریش) . وأما (سروات) مثل

١ اللسان (٢٢٩/٣ وما بعدها) ، (صادر) ، (سود) .

٢ نسب قریش (٤٠٠) .

٣ الثعالبى ، ثمار (٦٤) .

٤ البلاذري ، أنساب (٨٧/١) .

٥ تاج العروس (٤١٥/٣) ، (عقر) .

٦ تاج العروس (٢٥٤/١) ، (ذنب) .

(سروات الانصار) و (سروات قريش) ، ففي هذا المعنى ايضاً ، وجوه الانصار وأشرافهم ووجوه قريش وأشرافهم . و (السري) ، هو الرئيس ^١ . وتعني كلمة (النواصي) خيار العرب واشرافهم . فيقال هو ناصية قومه ، وهو من ناصيتهم ونواصيتهم . و (النصية) من القوم الخيار الاشراف ^٢ .

ويعرف الاشراف المعرقون بـ « النجوم » ، وواحدهم « نجم » . وقد اشار اليهم « حسان » في شعره ، فذكر ان الذين يحملون « اللواء » اي « لواء الحرب » ، هم النجوم ^٣ . ويقال لسادة الناس (الجحاجح) كذلك ^٤ . ويقال لهم : (العرى) ، وهم سادات الناس الذين يعتصم بهم الضعفاء ، ويعيشون بعرفهم . شبهوا بعري الشجر العاصمة الماشية في الجلب ^٥ .

وأما لفظة (رب) التي تعني بعلا ايضاً ، وإلهاً ، والتي تعبر عن معنى (إله) في الرمز الحاضر ، فقد اطلقت في لغة المسند على السيد والشريف ، لتعبر عن معاني التفخيم والاحترام ، وأطلقت في معنى (إله) ايضاً في النصوص المتأخرة في الغالب ، وهي من الألفاظ السامية القديمة التي وردت في معظم لغات الساميين .

وقد وردت في عربيتنا بمعنى المالك والسيد والمدبر ، وأطلقت بمعنى الملك كذلك . وقد كان اهل الجاهلية يطلقونها على الملك ، قال الحارث بن حليزة :
وهو الربّ والشهيد على يو م الحيارين والبلاء بلاء ^٦

هذا وللسنّ اهمية كبيرة عند العرب ، لأن الانسان اذا ما تقدم في السن ازدادت حكمته وتجاربه في الحياة ورجح عقله . لذلك يكون مرجعاً لمن هو دونه في العمر ، وملاذاً في المشورات ، ويعبر عنهم بـ (ذوي الاسنان) ^٧ . وهم الطبقة الذكية

١ تاج العروس (١٧٦/١٠) ، (سره) .

٢ تاج العروس (٣٧٠/١٠) ، (نصا) .

٣ لم يطق حملته العواتق منهم انما يحمل اللواء النجوم

البرفوفي (ص ٣٨٠) ، ديوان حسان (هرشعلد) (ص ١٩) .

٤ ديوان حسان (ص ٣٦) (هرشعلد) .

٥ اللسان (٤٦/١٥) ، (عرا) .

٦ تاج العروس (٤٥٩/٢) (الكوبت) ، (رب) (ربب) .

٧ اللسان (٢٢٢/١٣) ، (صادر) ، (سنن) .

الفطنة المجربة من ذوي المكاة في الناس بالطبع . ولهذا نجد القبائل تتمسك بأخذ الرأي والمشورة من ساداتها المسنين ومن حكائنها المعمّرين ، لأنهم عركوا الحياة وخبروها وعرفوا ما فيها من مرّ وحلو . لذلك جعلوهم في الطبقات العليا من الناس .

و (الربّ) الرئيس والمرجع ومن تكون اليه الطاعة . والارباب ، هم السادات (قال المنذر يوماً لخالد ، وهم على الشراب ، يا خالد ، من ربك ؟ فقال خالد : عمرو بن مسعود ربّي وربك . فأمسك عليها)^١ . و (المنذر) هو المنذر الأكبر اللخمي ، وخالد ، هو خالد بن نضلة . ولهذا كان يقول العبد لسيّده : ربّي . وتقول حاشية السيّد والمك لسيدها ومكها : ربنا .

قال الحارث بن حازة :

ربنا وابننا وأفضل من ي شي ومن دون ما لديه الثناء

وقال ليّد حين ذكر حذيفة بن بدر :

وأهلكن يوماً ربّ كندة وابنه وربّ معدّ بين خبّيتٍ وعرعر^٢

و (الخطر)^٣ الاشراف من الرجال العظيمو القدر والمنزلة . والخطير الواحد . ويقال للرجل الشريف ، هو عظيم الخطر . وقوم خطيرون : قوم اشراف^٤ . ويقال (العبقرى) للكامل والسيد من الرجال . وهو سيد القوم وكبيرهم والذي ليس فوقه شيء والشديد القوي^٥ .

وقد عرف سادة قرّيش ووجوهها بـ (خضراء قرّيش) . ولما صعد الرسول (الصفا) ، عام الفتح ، وجاءت الانصار فأطافوا بالصفا وجاء (ابو سفيان) ، فقال : (يا رسول الله أُبيدت خضراء قرّيش ! لا قرّيش بعد اليوم)^٦ . يقصد

١ أسماء المغتالين ، (ص ١٣٣) ، (نواذر المخطوطات) ، (عبد السلام هارون) .

٢ الجبوان (٣٢٨/١ وما بعدها) ، (هارون) .

٣ بضم الحاء .

٤ ناج العروس (١٨٤/٣) ، (خطر) .

٥ ناج العروس (٣٧٩/٣) ، (عبقرى) .

٦ صحيح مسلم (١٧٢/٥) ، (باب فصح مكة) .

نخبة قريش وخاصتها ، في مقابل (أوباش قريش) ، الذين قال عنهم الرسول
للأنصار : يا معشر الانصار ! هل ترون أوباش قريش ^١ .

والأخضر عند العرب الأسود . وقد افتخر (الفضل بن عباس بن عتبة اللهي)
بلونه ، اذ قال :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول : أنا خالص لأن الوان العرب السمرة ، وأنه عربي محض لأن العرب
تصف ألوانها بالسواد ، وتصف الوان العجم بالحمرة ، والخضرة عند العرب
السواد ^٢ . وورد (خضر غسان) ، و (خضر محارب) . قال الشاعر :

ان الحضارمة الخضر الذين غدوا أهل البريس ثمانٍ منهم الحكم

والحضارمة جمع خضرم ، وهو السيد الحمول ^٣ .

ويقال لمن هم دون الاشراف وفوق الطبقات الدنيا ، (اوساط الناس) ،
و (الاوساط) ، و (الهازم) . يقال هو من لهازم القبيلة ، اي من اوساطها
لا اشرافها ^٤ .

المستضعفون من الناس :

والمستضعفون من الناس ، كثيرون ، وقد نظر اليهم مجتمعهم نظرة ازدراء
واستهجان ، واعتدّهم من الطبقات الدنيا . إما لفقرهم وضيق ذات يدهم ، ومنهم
الفقراء والصعاليك والمحتاجون وأبناء السبيل ، واما لطيشهم وخروجهم من مجتمعهم ،
ومنهم الطريد والضالّ والخليع ، واما لانشغالهم بحرف يدوية ، وهي حرف لا تليق
بالرجل الكريم ، ولا سيما الحرف الدنيا مثل الحلاقة والحجامة والحالة وأمثالها ،
واما من ناحية اصلهم ، مثل ان يكونوا عبيداً او عبيداً مملوكين .
ولاستصغارهم شأن الحرف اليدوية ، لم يقبل عليها الاحرار وابناء البيوت ، الا

١ صحيح مسلم (١٧٠/٥ وما بعدها) ، (باب فتح مكة) .

٢ ناج العروس (١٧٩/٣ وما بعدها) ، (خضر) .

٣ الحيوان (٢٤٧/٣) ، (هارون) .

٤ ناج العروس (٦٩/٩) ، (لهزم) .

من اضطرته الفاقة ووجد الا سبيل له الى العيش الا بالاستغال بها ، فانصرف اليها صاغراً . ولهذا كان اكثر اصحاب الاعمال اليدوية من الرقيق والاعاجم واليهود . واذا اخذنا بروايات اهل الاخبار نجد ان عدد اصحاب الحرف اليدوية كان قليلاً جداً ، فلم يكن في مكة مثلاً احد من النجارين البارعين على ما يفهم من رواياتهم كروايتهم عن اعادة بناء الكعبة قبل النبوة بخمس سنين ، او كانوا قلة يعدون عدداً . وكذلك يقال عن بقية الحرف ، ويقال مثل ذلك عن يثرب . ولا استبعد ان تكون في روايات اهل الاخبار مبالغات ، ولكننا لا نستطيع نكران ازدياد العرب للحرف والصناعات .

وكانوا يعيرون من يتزوج من ابنة صائغ او حداد او نجار ، ويعيرون نسله ، ولا سيما اذا كان من بيت رفيع . وقد وجد اعداء (النعمان بن المنذر) آخر ملوك الحيرة وحساده في أمه (سلمى) التي قيل انها ابنة قين او صائغ يهودي ، سبباً قوياً من اسباب استهزائهم به والاسنصغار لشأنه . اما الحرفي ، اي الذي يشتغل بالحرف اليدوية ، فلم يكن من السهل عليه التزوج من بنات الاحرار ، لما قد تتعرض له أسر البنات من تعيير وسبّة واهانة بين الناس ، بتزويجهم ابنة حرة لشخص وضعف مستصغر .

وأدنى المتعشين بالحرف منزلة ، الحلاقون والحجّامون والحمّالون ، ثم اولئك الذين يعيشون على تلهية الناس ، مثل سائس قرد ، وهو الشخص الذي يربي القردة ويعلمها القيام ببعض الالعب لتسلية المتفرجين واضحاكهم في مقابل صدقة يقدمونها لقردته وله ، ومثل اناس آخرون يربون حيوانات اخرى للغرض نفسه ، او يتخذون لهم مهنة اضحاك الناس عليهم لدر عطفهم والجود عليهم ، ومثلهم المختثون والمغنون المطربون .

وقد عرف المعدمون المتربون ، وهم الذين لا يملكون شيئاً بـ (بني غبراء) ، للزقهم بغبراء الارض ، ويقال لهم (الصعاليك) ايضاً^١ ، وقد ذكرت قبل قليل

١ اللسان (٩٢/١٤) ، (بى) ، (هم اللصوص والصعاليك المهتدون في مجاهل الارض ، والعالمون بطرقها . وفيل : بل هم العراء اللاصفون بالعبراء من سوء الحال ، على غير عطاء ولا وطاء ، فال طرفه بن العبد :

رايت بني عبراء لا يكروني ولا اهل هذاك الطرف الممدد
بقول : أنا معروف عند الاحبار والاشرار ، وعند اللثام والكرام) ، الثعالي ، ثمار
(٢٧٠/١) .

ورود لفظة « غبر » في الكتابات القبطانية ، وان لها صلة بـ (غبراء الناس) وبـ (بني غبراء) في عريتنا . وقد تكون لهذا المصطلح صلة بمصطلح اختلف علماء التوراة في المراد منه ، هو مصطلح (عسم ه - ارز) ، أي (ناس الأرض) (أهل الأرض) ، فقد ذهب بعض العلماء الى انها تعني طبقة وضيفة من سواد الناس ، أو (الفلاحين) الذين يعيشون على استغلال الأرض .

ونعت الخادم الذي يخدم بطعام بطنه (بالعضروط) ، وهو الصعلوك ، والعضاريط الصعاليك . وتعهد الى العضروط مختلف الخدمات ، مثل العناية بالراحة وأداء أي عمل آخر يقوم به في مقابل طعام بطنه ^١ . ويقال للعضروط : اللعموظ ، وهو الذي يخدم بطنه . و (العضاريط) الأجراء ^٢ .

و (الخول) العبد والخدم ، ويقال : القوم خول فلان ، أي أتباعه ، وهم حشم الرجل وأتباعه . ويقع على العبد والأمة ^٣ فهم إذن الأتباع المغلوبون على أمرهم الخاضعون لحكم المتحكمين في رقابهم من السادة .

والمملوك خلاف الحر ، والرقيق : المملوك واحد وجمع . والرقيق العبد ^٤ . ورقق صار في عبودية ^٥ . والعبد : المملوك خلاف الحر ^٦ . ونجد لعلماء اللغة تفاسير كثيرة لمعنى (العبد) ، والرقيق ، وفي مدى حرية كل واحد منها . وقد استعملت لفظة (العبد) للدلالة على معان مجازية ، ومعان حقيقية . فقد قصد بها الخضوع والتذلل ، ولهذا نهى عن استعمالها بهذا المعنى في الاسلام ، فورد : (لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي) ^٧ . وقصد بها أيضاً العبودية الحقيقية .

ولفظة (عبد) و (العبد) لفظة عامة في الأصل ، وقد وردت بهذا المعنى في أكثر اللغات السامية ، فاستعملت في معانٍ مجازية وفي معانٍ حقيقية ، ولم تكن

- ١ اللسان (٣٥١/٧) .
- ٢ اللسان (٣٥١/٧ ، ٤٦٠) .
- ٣ اللسان (٢٢٥/١١) ، (صادر) ، (حول) .
- ٤ اللسان (١٢٤/١٠) ، (صادر) ، (رفق) .
- ٥ اللسان (١٢٣/١٠) ، (صادر) ، (رفق) .
- ٦ اللسان (٢٧٠/٣) ، (عبد) .
- ٧ اللسان (٢٧١/٣) ، (عبد) .

تعني شخصاً مملوكاً بالمعنى الحقيقي من لفظة (مملوك) بالضرورة . وطالما نقرأ في كتب أهل الأخبار جملاً ، مثل : (ومن هو ؟ إنما هو عبد من عبيدي) ، و (أنت عبد من عبيدي) ، وذلك تعبيراً عن ازدياد شخص لشخص آخر ، واستصغاراً لشأنه ، لأنه جعله في منزلة خدمه وعبيده .

واستعملوا لفظة : (عبد) و (العبد) بالمعنى الحقيقي الخاص بالعبودية ، وقصدوا بها (مملوكاً) ، فقالوا : (كان عبداً رومياً) ، وقالوا : (كان عبداً حبشياً) ، فقصدوا بها (مملوكاً) كائناً ما كان لونه ، أو جنسه . والظاهر ان المتأخرين قد غلبوا استعمالها على العبيد والأسود ، فأطلقوها عليهم من غير ذكر صفتهم ، وعنوا بها الرقيق الأسود حسب .

وقد ذكر بعض علماء اللغة ان (العبد) اذا مُلك ولم يملك أبواه ، أو الذي سبي ، ولم يملك أبواه . وقالوا : هم عبيد مملكة ، وهو ان يغلب عليهم ويستعبدوا وهم أحرار . وفي الحديث : « ان الأشعث بن قيس خاصم أهل نجران الى عمر في رقابهم ، وكان قد استعبدتهم في الجاهلية ، فلما أسلموا ، أبوا عليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا انما كنا عبيد مملكة ولم نكن عبيد قن^١ . أي ان يغلب عليهم فيستعبدتهم وهم في الأصل أحرار .

وذكر علماء العربية ان القن : العبد الذي مُلك هو وأبواه ، وان العبد القن الذي ولد عندك ولا يستطيع ان يخرج عنك . وعبد قن خالص العبودية^٢ . فالقن إذن ، هو العبد المملوك ، الذي تنقل اليه العبودية عن أبيه . وقد أسلفت ان هذه اللفظة وردت في لغة المسند ، وانها كانت تعني هذا المعنى عندهم أيضاً . ويشبه العبد القن ، العبد الذي يقال له (CERF) عند الرومان . و « القين » : العبد والجمع قيان^٣ .

ويعبر عن العبد بلفظة « مولى » أيضاً ، ويراد بها المعتق كذلك . وتؤدي معاني اجتماعية أخرى ذكرها علماء اللغة منها : الخليف ، والعقيد ، والرب

١ اللسان (٤٩٣/١٠) ، (ملك) .

٢ اللسان (٣٤٨/١٣) ، (فنن) .

٣ اللسان (ق/ي/ن) ، (٣٥١/١٣) .

والمالك ، والسيد . ويتبين معناها من الاستعمال^١ . وقد كان بمكة وسائر الأمكنة الأخرى من جزيرة العرب عدد كبير من الموالى .

والعبيد هم حاصل الحروب . فإذا وقع انسان أسيراً في غزو أو حرب صار ملكاً لآسره ، ان شاء مَنْ عليه فقلك رقبته ، وان شاء ملكه فصار عبداً له . يحتفظ به لنفسه ان أراد ، او أن يهديه لغيره فيصير في ملك من أهدي له ، او ان يبيعه ، فيقبض ثمنه ، فتنتقل ملكية العبد الى شاريه . فالسبأ هو مصدر مهم من مصادر الرقيق .

ومورد آخر أمدّ الجاهليين بالعبيد ، هو التجارة : تجارة العبيد . وقد اختص بها قوم عرفوا بالنخاسين . يأتون بالرقيق من مختلف الأماكن ويبيعونه . وكانت تجارة رابحة .

ومن العبيد ، قوم كانوا مدينون فلم يتمكنوا من سداد ديونهم فبيعوا رقيقاً . ومنهم من صار رقيقاً لعدم تمكنه من دفع مال يجب عليه تأديته . كالذي روي من تقامر أبي لهب والعاص بن هشام ، على ان من قر صار عبداً لصاحبه ، ففهره أبو لهب فاسترقه واسترعاه ابله^٢ .

ويكون عدد ما يملكه الانسان من الرقيق اشارة على الغنى والمترلة والجاه والقوة . هم قوة لأنهم 'عدة' لسيدهم في القتال وفي الدفاع عنه حتى وان كرهوه . وهم خدام له يؤدون له كل ما يطلبه منهم من أعمال ، ولا يخلو منهم بيت . وذكر ان بعض السادات كان يملك المئات من العبيد فلما وفد (ذو الكلاع ملك حمير) على أبي بكر (ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته وعليه التاج ، وما وصفنا من البرود والحلل)^٣ .

وكان كثير من ملاك الرقيق ذوو قلوب غلاظ ، لا يرحمون عبيدهم ولا يرفقون بهم . واذا شهد العبد غزواً أو حرباً وغنم فلا يعطى حقه له ، ويؤخذ

١ اللسان (و/ل/ي) ، (٤٠٩/١٥) .

٢ الأعاني (١٠٠/٣) .

٣ النبیه (٢٩٩/٢) ، (باب ذكر خلافة أبي بكر الصديق) .

سهمه ويعطى الى سيده . ولم يكونوا يثقون بأمانة رقيقهم^١ لذلك حقد العبيد على سادتهم ، وانضموا الى أعدائهم ان وجدوا فرصة مؤاتية لهم أملاً منهم باصلاح الحال . ولما حاصر الرسول الطائف نادى مناديه : (أما عبيد نزل فهو حرّ وولأؤه لله ورسوله) فتزل جمع منهم وأسلموا وصاروا أحراراً^٢ .

ويذكر علماء اللغة طبقة سمّوها (القطين) ، وهم في عرفهم تباع الملك ومماليكه ، والخدم والأتباع . وقالوا أيضاً : ان القطين تبع الرجل ، ومماليكه ، ونخلعه^٣ .

ويقال للرعية من الناس (السُّوقَة) سمّوا بذلك لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم^٤ . وأما (سواد الناس) ، فعامتهم .

وكل من ذكرت من الطبقات الدنيا هم « سوقة » . و « عوام » ، و « سواد » .

ويقال للأخلاق والسفلة من الناس : الأوباش . وهم مثل الأوشاب^٥ . وأما الأشابة فأخلاق الناس تجتمع من كل أوب والتأشب التجمع . ويقال : أوباش من الناس وأوشاب . وهم الضروب المتفرقون^٦ .

ويذكر علماء اللغة ان أهل اليمن يطلقون على المستضعفين من الناس (مستخمرون) . و (المستخمرون) هم الجيران الضعفاء . من (أخره الشيء) ، بمعنى أعطاه إياه أو ملكه بلغة اليمن^٧ .

ويقال لأوغاد الناس وأرذالهم (الطغام) و (الطغامة) . وذكر ان (طغامة)

- ١ الأغاني (٣٢/١) ، (١٢٤١/١٤) .
- ٢ العقد الفريد (٢/٣) .
- ٣ اللسان (٣٤٣/١٣) ، (طن) .
- ٤ ديوان بشر بن أبي خازم (ص ٢٠٠) .
- ٥ ناج العروس (٣٦١/٤) ، (وبش) .
- ٦ ناج العروس (١٤٨/٢) ، (أشب) ، (هل برون أوباش فربش) ، صحيح مسلم (١٧١/٥) ، (فتح مكة) .
- ٧ اللسان (٢٥٨/٤) ، (خمر) .

و (دغامة) الأحق . وورد (ياطاسة الأحلام) ، بمعنى من لا عقل له ولا معرفة ، وقيل : هم أوغاد الناس وأسافلهم^١ .

وعرف أوغاد الناس بـ (أولاد درزة) . وذكر ان أولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغاء من الناس ، كذلك أولاد ترني . و (أولاد درزة) أيضاً الخياطون . ويقال : أولاد درزة هم الحاكة ، وهم من أسافل الناس ، كما صرح به المفسرون في قوله تعالى : واتبعك الأرذلون . وابن درزة الدعي ، أو ابن أمة تُساعي ، فجاءت به من المساعدة ولا يعرف له أب^٢ .

أهل الوبر :

ما ذكرته عن المجتمع يتناول الحضر ، أما المجتمع البدوي ، أي مجتمع الأعراب ، فمجتمع ساذج ليس في تكوينه تعقيد ولا تعدد طبقات . صقلت البادية أهلها ، وبسطت لهم أسلوب الحياة ، وقلصت من الفروق الطبقية ، فلا تجدد فيها ما نجده عند الحضر من اختلاف كبير في منازل الناس .

وكل ما هنالك من طبقات : سادات القبائل ، وهم رؤساء القبيلة وأشرافها ، وأحدهم (سيد القبيلة) أو رئيس القبيلة . ثم أشراف العشائر ومتفرعاتها . ولهم أموال ، ورقيق يخدمونهم . أما سواد القبيلة ، فهم منتشرون في أرض القبيلة على هيئة مجتمعات صغيرة متفرقة مبعثرة ، لضيق العيش الذي لا يساعد على تجمع أفراد القبيلة تجمعاً كبيراً في محل واحد ، تظهر فيه الحرف وتنوع الأعمال التي تكون ضرورية لمجتمع الحضر .

ولسادات القبائل المال ، وهي : الإبل . يشربون من البانها ، ويأكلون لحومها ، وهم الذين في استطاعتهم الذهاب إلى القرى والمدن ومواطن الحضارة للعيش فيها زمناً ، ولشراء ما يجدون في أسواقها مما يحتاجون إليه من سلع .

١ اللسان (٣٦٨/١٢) ، (صادر) ، (طغم) ، تاج العروس (٣٨٠/٨) ، (طغم) .
٢ تاج العروس (٣٥/٤) ، (درز) ، (أبناء درزة كناية عن السفلة والسقاط ، ويقال لهم : أولاد درزة . قال المبرد : هم خياطون من أهل الكوفة خرجوا مع زيد بن علي) ، النيسابوري ، ثمار (٢٧١) .

وللتمتع بمناظر الحضارة . ولزيارة الملوك والحكام . والساكن منهم على مقربة من الحضر ، يخالطهم وقد يشتري له ملكاً يعيش فيه بينهم . فاذا جاء الربيع ، وحده وقت البادية عاد الى وطنه ، ليرعى ماله ، ولينظر في شؤون قبيلته .

وقد استخدم الاعراب (العبيد) ايضاً ، ولكنهم لم يكثروا من استخدامه استخدام اهل الحضر له ، لعدم وجود حاجة كبيرة عندهم اليه . وقد كان عبيد الاعراب اكثر حرية وأحسن حالاً من عبيد اهل الحضر ، ذلك لأن البادية لا تعرف الاعمال المرهقة ، ولا الحرف الكثيرة التي فرضتها الحضارة على اهل الحضارة ، لذلك صارت الاعمال التي يقوم بها عبيد الاعراب اقل بكثير من الاعمال التي يقوم بها عبيد اهل القرى ، وصار العبد في البادية الصق بصاحبه من مثيله في القرية ، حتى صار وكأنه جزء من اهل البيت الذي اشتراه أو ورثه .

بيوت العرب :

لقد تبين لنا مما تقدم ان العرب وان بدوا وكأنهم سواسية كأسنان المشط ، الكل متساوون في المعاملة لا فرق عندهم بين غني وفقير ، كل معتر بنفسه فخور بفعاله ، الا انهم مع ذلك وفي الواقع طبقون ، لكل طبقة عرف وتقاليد ، فبيوتهم متفاوت عندهم في الشرف والمكانة ، هناك بيوت اشتهرت في القبيلة وحافظت على فعالها ومكانتها ، وكانت تتفاخر وتتباهى على غيرها فلا تزوج احداً من ابنائها او بناتها الا لمن كان كفؤاً لها .

وقد تحدث اهل الاخبار والانساب عن بيوت برزت في القبائل وتفاوتت على غيرها في ناحية من نواحي الفضل والفخر . فذكر ابن الكلبي : مثلاً ان العدد من تميم في بني سعد ، والبيت في بني دارم ، والفرسان في بني يربوع ، والبيت من قيس في غطفان ، ثم في بني فزارة ، والعدد في بني عامر ، والفرسان في بني سليم ، والعدد من ربيعة في بكر ، والبيت والفرسان في شيان^١ .

وكان يقال : اذا كنت من تميم ففاخر بمنظلة ، وكاثر بسعد ، وحارب بعمر ،

واذا كنت من قيس ففاخر بغطفان ، وكاثر بهوازن ، وحارب بسليم ، واذا كنت من بكر ففاخر بشيبان ، وكاثر بشيبان ، وحارب بشيبان ^١ .

وقد اشتهرت ثلاثة بيوت شهرة خاصة في الجاهلية القريبة من الاسلام ، وهي : بيت بني زرارة ، وهم من (بني عبد الله بن دارم) في تميم ، وبيت (بني بندر) ، وهم من (بني فزارة) من (بني قيس) ، وبيت (ذي الجدين) ، وهم من (بني شيبان) من (بكر بن وائل) ^٢ .

وجعل (أبو عبيدة) بيوت العرب ثلاثة : فبيت قيس في الجاهلية بنو فزارة ، ومركزه بنو بلدر ، وبيت ربيعة بنو شيبان ، ومركزه ذو الجدين ، وبيت تميم بنو عبد الله ابن دارم ، ومركزه بنو زرارة ^٣ . وذكر انه قال : ليس في العرب اربعة اخوة انجب ولا أعدّ ولا أكثر فرساناً من بني ثعلبة بن عكابة . وكان يقال له الأغر والحصن . وبنوه : شيبان وذهل وقيس وتميم الله . وفارس غطفان الربيع بن زياد العبسي ، وفاتكها الحسارث بن ظالم ، وحكمها هرم بن قطبة ، وجوادها هرم بن سنان المري ، وشاعرها النابغة الذبياني . وفارس بني تميم عتيبة بن الحرث بن شهاب احد بني يربوع . وفارس عمرو بن تميم طريف بن تميم العنبري . وفارس دارم عمرو بن عدس ، وفارس سعد فدكي بن المنقري ، وفارس الرباب زيد القوارس ابن حصين الضبي ، وفارس قيس عامر بن الطفيل ، وفارس ربيعة بسطام ابن قيس ^٤ .

وقال ابو عمرو بن العلاء : بيت بني سعد الى الزبرقان بن بلدر من بني بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد ، وبيت بني ضبة بنو ضرار بن عمرو الرديم ، وبيت بني عدي بن عبد مناة آل شهاب من بني ملكان ، وبيت التيم آل النعمان ابن جساس ^٥ .

وزعم (ابن الكلبي) ان آل حصن الفزاريين ، وآل الجدين الشيبانيين ،

١ العملة (١٩٢/٢) ، بلوغ الأرب (١٨٩/٢) .

٢ الكامل (٣٥/١) .

٣ العملة (١٩٢/٢) .

٤ بلوغ الأرب (١٨٩/٢) .

٥ العملة (١٩٢/٢) وما بعدها .

وآل عبد المدان الحارثيين . هم اعلى بيوت العرب . ويقال : بيت تميم في بني حنظلة ، اي شرفها ^١ . فهذه البيوت هي البيوت البارزة المسلم لها بالسيادة والشرف عند الجاهليين على رأي (ابن الكلبي) .

وذكر (الجمحي) : ان الفروسية في اليمن في بني زبيد بن عمرو بن معديكرب . وان شاعر اليمن امرؤ القيس ، وأن بيتها في كنده : في الأشعث ابن قيس . لا يختلف في هذا وانما اختلف في نزار . وقال اخباري : كان بيت قيس في آل عمرو بن الظرب العدواني ، ثم في غني في آل عمرو بن يربوع ، ثم تحول الى بني بدر . فجاء الاسلام وهو فيهم . وقال الانخفش : فرعا قریش هاشم وعبد شمس . وفرعا غطفان بدر بن عمرو بن لودان وسيار بن عمرو بن جابر . وفرعا حنظلة رياح وثعلبة ابنا يربوع . وفرعا ربيعة بن عامر بن صعصعة جعفر وأبو بكر ابنا كلاب . وفرعا فضاة عنزة والحارث بن سعد ^٢ .

وقد ذكر (الجاحظ) ان هناك قبائل في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرف وضعة . (فن القبائل المتقدمة التي في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرف وضعة ، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ، ومثل فزارة ومرة ، وثعلبة ، ومثل عبس ، وعبد الله بن غطفان ، ثم غني وباهلة ، واليعسوب والطفافة . فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم ، مثل باهلة وغني . ومن هذا الضرب تميم بن مر ، وثور وعكل ، وتمر ومزينة . ففي عكل وتمر ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور) ^٣ .

وذكر (الجاحظ) ان بعض الناس تكبروا على غيرهم ، لما وجدوا لأنفسهم من الجاه والثراء والمكانة ، ومنهم : بنو مخزوم ، وبنو أمية ، وبنو جعفر بن كلاب ، وبنو زارة بن عدس . فلم يكونوا كبني هاشم في تواضعهم ، وفي انصافهم لمن دونهم ^٤ .

الشرف :

وللشرف مقام كبير عند العرب . وادا دخل شريف قوم في مجتمع جلس في

١ ناج العروس (١ / ٥٣٠) ، (ست) .

٢ بلوغ الأرب (٢ / ١٩٠) .

٣ الحيوان (١ / ٣٥٩ وما بعدها) ، (هارون) .

٤ الحيوان (٦ / ٧٢) ، (هارون) .

المقام اللائق به . ويلعب هذا المقام دوراً كبيراً في مجالس الملوك وفي مجالس سادات القبائل وفي اندية الحضر . واذا لم يأخذ الشريف مكانه ، كأن يجلس في مجلس هو دون مجلسه اللائق بمقامه بالنسبة الى الحاضرين ، عدّ ذلك اهانة له ، ومعاملة سيئة متعمدة . قد تأتي بأوخم النتائج اذا كان الشريف من اصحاب الحول والطول . ولهذا كان الملوك خاصة وسادات القبائل يراعون حرمة المكان ، ويُعيّنون للقادم مكانه ، بأسلوب لطيف لا يثير مشاعر الجالسين ولا يشعرهم بأنهم فصلوا اهانتهم ان طلبوا من القادم التقدم على الحاضرين ، والجلوس على مقربة منهم . وذلك على حسب مكانته ومترلته ، والغالب أن ينص على المكان الذي سيجلس به .

والشرف في العرف الجاهلي ، هو الحسب بالآباء . والشرف والمجد عندهم لا يكونان الا بالآباء . اما الحسب والكرم فيكونان ، وان لم يكن له آباء لهم شرف^١ . ولهذا حرصوا على استمرار الشرف في الأسر الشريفية ، وعلى امدادها بالحياة والنشاط حتى يبقى الشرف متألقاً لامعاً فيها . ومن ذلك الزواج المكافئ والفعال الحميدة والمحافظة على سجايا الأسرة الطيبة ، والأعراف المثالية ، والتمسك بالنسب وعدم تلويثه بدم من هو دونهم في الشرف ، ورعاية ذلك النسب وحفظه ، ليكون نسب كل شريف بيتاً واضحاً ظاهراً للناس .

ومن الشرف : التخلق بالأخلاق الحميدة ، وعمل الامور المحببة المفيدة التي تخلد الذكر لصاحبها وتجعل الناس يلهجون باسمه من ذلك .

العرض :

والعرض في معنى الشرف ، ويتجلى في مظاهر متنوعة يراد بها صيانة السمعة وطرد سوء الظن وما ينجس شرف الانسان من سوء او مكروه . وهو لا يكتفي بالدفاع عن عرضه ، بل يلزم نفسه ايضاً بالدفاع عن عرض قبيلته وعن عرض من يدخل في جواره او في حلقه ، لأن اعراضهم عرضه . فهو يلزم نفسه بلوازم كثيرة ثقيلة ، يحاول مهما كلفه الأمر الوفاء بها خشية العار . وهو في سبيل الوفاء بالتزامات العرض يفعل ما يشاء ، ويدخل في ذلك القتل والعنف في سبيل الدفاع عن الالتزامات التي ألزم نفسه بها في سبيل حماية العرض^٢ .

١ اللسان (١٦٩/٩) ، (شرف) .

٢ بلاشير (ص ٣٨ وما بعدها) .

واذا مُسَّ عرض امرئ بأذى هاج وأهاج مَنْ هو من ذوي دمه ولحمه ،
للاقتصاص ممن دنس عرضه . وهو لا يهدأ حتى يأخذ بثأره ممن داس على عرضه .
فثأر العرض مثل ثأر القتل ، لا يهدأ صاحبه ولا يهجع الا اذا اخذ بثأره ممن
تجاوز على عرضه . والغالب في عفوبة هذا الثأر الذبح . اي بقطع الرأس عن الجسد .
يذبح حتى في حالة اذا كان قد توفي من طعنة بخنجر يقضي عليه ، فانه يذبحه
عندئذ . ويكون هذا غسلاً للعار الذي الحفه ذلك المتجاسر بعرض القاتل .

المروءة :

وتتمثل المثل الجاهلية العليا في (المروءة) ، وقد فسرت المروءة بأنها كمال
الرجولية . ومن المروءة : الحلم ، والصبر ، والعفو عند المقدرة ، وقرى الضيف ،
واغاثة الملهوف ، ونصرة الجار ، وحماية الضعيف . فاذا تمثلت امثال هذه السجايا
في رجل ، كان كاملاً ، عظيم الشأن في قومه . والمروءة عند الجاهليين كالدين
عند المسلم .

وقد ورد ان المروءة الا تفعل في السرّ امرأ وأنت تستحي ان تفعله جهراً^١
فهي اقصى ما تكون من اخلاق في الرجل الكامل الشجاع . وقد اقرها الاسلام
في جملة ما اقره من فضائل الجاهلية ، ورد : الدين ، المروءة ، ولا دين الا بالمروءة^٢ .
والشهادة هي من صفات السيّد الشريف النبيل . والشهم ، هو السيّد النجد ،
الذي اذا دُعي أنجد ، واذا طلب أجاب^٣ .

الكلمة :

وتحدث اهل الاخبار عن جماعة من الجاهليين قالوا انهم عرفوا بين قومهم
بالكلمة . منهم (بنو زياد العبيسون) ، وهم أنس الحيفاظ ، ويقال له ايضاً
أنس الفوارس ، وعمارة الوهاب ، وربيع الكامل ، وقيس الجواد . وقيل : ربيع
الحيفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس ، امهم فاطمة بنت الخُرْشَب الانمارية^٤ .

- ١ اللسان (١٤٩/١) ، (١٥٤/١ وما بعدها) ، (صادر) ، (مرا) .
- ٢ Muh Stud , I, S, 14
- ٣ ناج العروس (٣٦١/٨) ، (شهم) .
- ٤ العملة (١٩٧/٢) ، المحبر (٣٩٨) .

وكان (الربيع بن زياد العبسي) المعروف بالكامل ، ممن ينادم الملك النعمان ، ويكثر عنده ، ويتقدم على من سواه . وينزله في قبة يضربها له . حتى أفسد (لبيد) الشاعر ، وكان إذ ذاك غلاماً ما كان بينها من ودّ في خبر ترويه كتب الأدب والأخبار ^١ .

وعرف قوم بـ (الأكابر) ، قيل هم : شيان ، وعامر ، وجليحة ، والحارث بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ^٢ .

والإنسان الكامل عند الجاهليين وفي أول الاسلام ، هو الذي يكتب بالعربية ، ويحسن العوم والرمي . وقد لقب رجال عديلون بهذا اللقب ، منهم : (أوس ابن خولي) ، وهو من المخضرمين ^٣ . قال (ابن سعد) عنه : (وكان أوس ابن خولي من الكملة ، وكان الكامل عندهم في الجاهلية وأول الاسلام الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي) ^٤ .

من الخصال الحميدة :

ومن الخصال الحميدة عند العرب : النخوة . والنخوة في اللغة الافتخار والتعظيم ، والنخوة الكبر والعظمة . ومن صفات العرب أنها كانت تتنحى من الدنيا أي تستنكف ^٥ .

الكرم :

ومن الأعراف عرف إكرام الضيف ، وتقديم حق الضيافة له مهما كانت درجة تلك الضيافة ومرتلة المضيف . يقدم له ما يقدر عليه وما يتسع حاله له . والضيافة درس من الدروس التي لقتها الطبيعة للإنسان أيضاً . لفتته ان الانسان مهما كان

١ المرتضى ، أمالي ١ / ١٨٩ وما بعدها ، المعارف (٨٢) .

٢ العمدة (١٩٦ / ٢) .

٣ ابن سعد ، الطبقات (٥٤٢ / ٣) ، الإصابة (٩٥ / ١) وما بعدها ، (رقم ٣٣٤) .

٤ ابن سعد ، الطبقات (٥٤٢ / ٣) .

٥ ناج العروس (٣٦٢ / ١٠) ، (نخا) .

فقيراً ، عليه ان يقدم ما عنده لمن يأتيه من ضيف قريب أو غريب ليضيفه ، إنقاذاً لحياته من قحط البادية ومن شحها . فليس في البادية ملجأ يلجأ الفرد اليه غير الخيام المضروبة هنا وهناك ، ملاجئ مها قليل فيها ، لكنها قوارب النجاة أو جزر صغيرة في محيط واسع شاسع . لا يطمع الانسان منها إلا في الاستراحة وإمضاء أمور سفره الى الموضع الذي يريده ، واذا امتنع صاحب الخيمة عن أداء حق الضيافة ، عرض حياة ضيفه للخطر ، وعرض حياته نفسه الى ذلك الخطر ، فلا بد ان تتزل به في يوم ما حاجة ما ، ولا بد ان يقطع البادية مراراً في حياته بحثاً عن رزق ، فإذا بخل ولم يضيف غيره ، لم يستضيفه الآخرون فيقع في ضنك قد يكون به هلاكه وهلاك من معه .

والعرف ان الضيافة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ، فاذا انتهت المدة ، سقط حق الضيافة من رقبة (المضيف) إلا اذا جردها ، وزاد عليها . ويعبر عن منزلة الضيف عند المضيف بجمل وتعابير تعبر عن ترحيب المضيف بضيفه ، مثل جملة : (بيتي بيتك) ، وعلى الضيف بالطبع ان يتأدب بأدب الضيافة ، فيصون حرمة بيت مضيفه ، فلا يسرق منه ، ولا ينظر الى العائلة بسوء وألا يقوم بأي عمل يخل بعرف الضيافة ^١ .

ونظراً الى ما للمعابد من حرمت ، اعتبر الوافدون عليها لزيارتها والتقرب لأصنامها ضيوفاً لها ، وعدوا الذين يعتدون عليهم خارجين عن العرف مارقين بالنسبة لمجتمعهم . فمن كان يقد الى مكة يقال له (ضيف الله) ، وقيل للحجاج (ضيوف الكعبة) ، فلا يجوز الاعتداء عليهم ، ومن وقع اعتداء عليه ، يجد حتماً من بين أهل مكة من يدافع عنه ^٢ .

والجود ، وهو السخاء صفحة أخرى من صفحات الكرم . وهو ان يطر الرجل غيره بمعرفه ، وان يجود على غيره بما هو عنده ^٣ . وقد بالغ بعضهم بجوده حتى ضرب به المثل . ومن هؤلاء حاتم الطائي . وهو (حاتم بن عبد الله ابن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن أحزم) من قبيلة طيء .

١ Smith, Kinship, P. 70.

٢ Smith, Kinship, P. 41, Hastings, P., 427

٣ اللسان ، العقد الفريد (٣٣٧/١) ، نهاية الأرب (٢٠٨/٣) .

وقد ضرب به المثل في الجود والسخاء ، فقيل (أجود من حاتم) ، ورووا عنه قصصاً كثيراً في الجود والسخاء ، يرينا ان الجود فيه سجية ، نبت فيه مُدٌّ كان صغيراً ، فقد روي انه اختلف مع والده ، وهو صغير ، لأنه فرق إبله وغنمه وكان يرعى بها على قوم مروا به ، فيهم : عبّيد بن الأبرص ، وبشر ابن أبي خازم ، والنابعة الذبياني ، فطرده أبوه ، وقال له : إذن لا أساكنك بعدها أبداً ولا آويك ، فقال حاتم : إذن لا أبالي ^١ .

ويذكر : انه كان إذا أهل شهر رجب نحر في كل يوم عشرة من الإبل ، وأطعم الناس ، وانه كان يقول لغلّامه يسار ، اذا اشتد البرد وكلب الشتاء : أوقد ناراً في يفاع من الأرض : لينظر اليها من أضل الطريق ليلاً فيقصد نحوه ^٢ . وكان يوقد نار القري ، ليقصدها من يريد الضيافة من الناس . وذكروا انه كانت لحاتم قدور عظام بفنائها لا تنزل عن الأثافي ، الى غير ذلك من أخبار في كرمه وسخائه ^٣ .

وذكر عنه انه قسم ماله بضع عشرة مرة ، وانه مرّ في سفر له على بني عزة ولهم أسير في القدّ ، فاستغاث به ، ولم يحضره فكاكه ، فقاده وخلّاه ، وأقام مقامه في القدّ حتى أدّى فداؤه . ورووا انه ذبح فرسه ، ووزع لحمها على جيرانه ، لأن امرأة كانت بجارة له جاءت اليه مستغيثة به ، تقول له : أتيتك من صبية يتعاونون من الجوع ولم يكن لديه ما يعطيها ، فذبح فرسه ، مع انه وعائلته كانوا جوعاً مثل صبيته ، فلما مانعت زوجته في ذبح فرسه ، قال لها : إن هذا للؤم ان تأكلوا وأهل الحيّ جوعاً ^٤ .

وينسب أهل الأخبار اليه شعراً ، في جملته قصيدة تتعلق بالكرم وبمكارم الأخلاق وبالحكم ^٥ ، وقد جمعوا من شعره ديواناً ، وذكروا انه من الشعر

-
- ١ بلوغ الأرب (٧٢/١ وما بعدها) .
 - ٢ بلوغ الأرب (٧٣/١ ، ٧٧ وما بعدها) ، العقد الفردي (٣٣٢/١) .
 - ٣ ثمرات الاوراق للحموي (حاشية على المستطرف) ، (١٢٧/١) ، الشعر والسعراء (١٢٣ وما بعدها) .
 - ٤ النعاليبي ، ثمار العلوب (٩٧ وما بعدها) .
 - ٥ بلوغ الأرب (٧٩/١) .

البليغ الجيد^١ .

وضرب المثل بجود (كعب بن مامة الإيادي) . ويذكر أهل الأخبار أنه هلك بسبب جوده ، فقد مات عطشاً ، لأنه أعطى الماء غيره ، فمات هو من العطش^٢ . وقد فضله (الجاحظ) ورَّجَّحه على (حاتم الطائي) في الجود . ذلك لأن حاتم كان يجود على غيره بماله ، أما (كعب) ، فقد بذل النفس حتى أعطبه الكرم ، وبذل المجهود في المال ، فساوى حاتم من هذا الوجه وبأبائه ببذل المهجة . فهو على رأيه فوقه في الكرم بمنازل ودرجات^٣ . وذكر أن من عادة (كعب بن مامة) أنه إذا جاوره رجل قام له بكل ما يصلحه وعياله ، وحماه ممن يريد . وإن هلك له بغير أو شاة أو شاة أو عبد أخلف عليه ، وإن مات وداه ، فجاوره (أبو دواد الإيادي) الشاعر ، فكان يفعل به ذلك ويزيد في برّه ، فصارت العرب إذا حمدت جاراً بحسن جواره ، قالوا : كجار أبي دواد^٤ . وقد افتخرت به إياد . وعدّ من مفاخرها^٥ . وذكر (عبد الملك بن مروان) إياداً ، فقال : هم أخطب الناس لمكان قس ، وأسخى الناس لمكان كعب ، وأشعر الناس لمكان أبي دواد ، وأنكح الناس لمكان ابن الغز^٦ .

و (أوس بن حارثة بن لأم الطائي) . يذكرون أن (النعمان بن المنذر) حباه حلة نفيسة بحضور وفود العرب من كل حي ، وكانوا قد اجتمعوا عنده ، فقال لهم : (إني ملبس هذه الحلة أكرمكم) فألبسه النعمان الحلة^٧ . ويذكرون أنه تمكن من الشاعر (بشر بن أبي خازم) ، وكان (أوس) قد نذر لثن

١ بلوغ الأرب (٧٥/١) ، تاريخ الأدب العربي ، لـ (كارل بروكلمان) ، (١١١/١) ، (١١٢ ، ١١٣) .

٢ بلوغ الأرب (٨١/١) ، العقد الفريد (٣٣٧/١) ، نهاية الأرب (٢٠٨/٣) ، ثمرات الأوراق (١٢٧/١) ، (حاشية على المستطرف) .

٣ الثعالبى ، ثمار (١٢٦) .

٤ قال قيس بن زهير :

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى جـار كـجار أبى دواد

الثعالبى ، ثمار (١٢٧ وما بعدها) .

٥ الثعالبى ، ثمار (١٢٢) .

٦ الثعالبى ، ثمار (١٤٢) .

٧ الثعالبى ، ثمار (١١٨) .

ظفر به لِيَحْرِقَنَّهُ ، لأنه أسرف في هجائه ، حتى تجاسر فهجاً أمه (سُعدى) .
فلما ظفر به ، أشارت (سُعدى) على (أوس) بأن يمنّ على بشر ، فخطى
سبيله وأكرمه وأحسن كسوته وحمله على نجييه وحباه ، فصار (بشر) يمدحه^١
ويذكر أهل الأخبار ، ان أوساً وحاماً وفداً على (عمرو بن هند) ، فأراد
امتحانها ، والوقوف على رأي أحدهما في الآخر ، فما انتقص واحد منهما الآخر .
فقال عمرو : والله ما أدري أيكما أفضل ! وما منكما إلا سيد كريم^٢ .

و (هرم بن سنان المري) ، من أجواد الجاهلية أيضاً . وهو سيد غطفان .
وكان والده سيد غطفان كذلك . وقد مدحه الشاعر زهير بن أبي سلمى في
آيات لا يزال الناس يحفظونها ويذكرونها عن هرم وقد كان هرم أعطاه مالا كثيراً
من خيل ولابل وثياب وغير ذلك مما أغناه ، وفيه ورد المثل : (أجود من
هرم) . وقد أدركت بنت له أيام عمر فسألها عن أبيها وعن صلته بزهير^٣ .

قال (أبو عبيدة) : (أجواد العرب ثلاثة : كعب بن مامة ، وحاتم
الطائي ، وكلاهما ضرب به المثل ، وهرم بن سنان صاحب زهير) ^٤ .

وقد صرب المثل بجود (عبد الله بن حبيب العبدي) فقيل : (أقرى من
آكل الخبز) . ذكر انه سُمّي آكل الخبز ، لأنه كان لا يأكل التمر ولا
يرغب في اللبن . وأكل الخبز ممدوح عند العرب . وهو عندهم من علامات
الغنى والمال . وعرف (ثور بن شحمة العبدي) بالجود كذلك ، وقد كان
قومه (بنو العبدي) اذا افتخروا ، قالوا : (منّا آكل الخبز ، ومنّا مجير
الطير) ^٥ . وقد عرف (ثور بن شحمة) بـ (مجير الطير) لأنه كان يشفق على
الطيور فيطعمها ويشبعها لجوده وكرمه .

واشتهر (عبد الله بن جُدعان) بجوده كذلك ، وقد كان يسمى بـ (حاسي
الذهب) ، لأنه كان يشرب في إناء من الذهب ، وقيل : (أقرى من حاسي

- ١ بلوغ الأرب (٨٣/١) وما بعدها .
- ٢ الثعالبي ، ثمار (١١٨) .
- ٣ بلوغ الأرب (٨٤/١) وما بعدها ، ثمرات الأوراق (١٢٧/١) حاشية على المسطر ،
العقد العربد (٣٣٧/١) ، نهاية الأرب (٢٠٨/٣) ، الشعر والشعراء (١٢٣) .
- ٤ الشعر والشعراء (١٢٣) .
- ٥ بلوغ الأرب (٨٧/١) .

الذهب) . وكان يجود على (أمية بن أبي الصلت) ، ويقري أهل مكة ومن يأتي إليها ، وله جفنة كبيرة يأكل منها الناس ، ويصنع لهم (الفالوذج) ، ولم يكن معروفاً قبله بمكة ، فلما كان بالعراق ، أكله واستنوقه ، وجاء منه بطباخ ليطبخ له (الفالوذج) . وهو من (بني تيم) . وكان ممن حرم الخمر على نفسه بعد أن كان بها مغرى ، لما رأى فيها من ضرر واسفاف يلحق بشاربها . وذكر أنه لما كبر وهيرم ، أراد قومه أن يمنعوه من تبذير ماله ، ولاموه في العطاء ، فكان يدعو الرجل ، فإذا دنا منه ، لطمه لكمة خفيفة ، ثم يقول له : قم فانشدْ لطمتك واطلب ديتها ، فإذا فعل ، أعطته بنو تيم من مال ابن جدعان^١ . وقد ضرب المثل بفالوذج ابن جدعان في أطايب الأطعمة^٢ .

وقد عدت في (مطعمي قريش) ، وهم سادات قريش وأشرافها ممن كان يطعم الناس ويفتح بيته للضيوف ، ولا يمنع جائعاً من دخول داره . كهاشم بن عبد مناف . وكانت له جفان يأكل منها القائم والراكب ، إذا وقع في أحداها صبي غرق . فجرى بها المثل في العظم^٣ .

وللتعبير عن إسراف الأجواد في جودهم ، وفي قراهم الضيوف ، نعت أحدهم بـ (مطعم الطير) ، كناية عنكرمهم ، وعن كثرة طعامهم المهيأ ، حتى كانت الطيور تشارك الضيوف في أكل الزاد ، وهو كثير . وقد نعت (حسان ابن ثابت) عمه (خالد بن زيد) المعروف بـ (ابن هند) ، وهو من (بني النجار) ، بـ (مطعم الطير) ، كناية عن أنه كان ينحر الإبل للأضياف ، فيأكل منها الناس والطير^٤ . ونعت (ليلى بنت الخطيم بن عدي بن عمرو) ، وهي أخت الشاعر (قيس بن الخطيم) أباهاً بأنه (مطعم الطير ومباري الريح) ، وذلك أمام الرسول^٥ .

١ بلوغ الأرب (٨٧/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢١٧/٣) ، مجمع الاسمال (٧٢/٢) ، النعالي ، ثمار (٦٧٢) ، البسان والبيبين (١٢٤/٣) ، الأعاني (٣٣٤/٨) ، نسب قريش (٢٩١) .

٢ النعالي ، ثمار (١٢٣) ، الحيوان ، للجاحظ (٤٠٣/٣) ، عيون الإخبار (٢٦٨/٣) .

٣ النعالي ، ثمار (٦٠٩) ، البحلاء (٢١٠) ، سمط الججوم ، للعصامي (٢٠٠/١) .

٤ السرقوسي (ص ١١٧) .

٥ المحبر (ص ٩٦) .

ومن الأجواد من كان يجود في أوقات الشدة والحاجة بصورة خاصة ، في مثل حلول الجذب . وقد عرف نفر من العرب بـ (مطاعيم الرياح) ، وذلك لأنهم كانوا يطعمون اذا هبت ريح الصبا ، لأنها لا تهب إلا في جذب ، فمدحوا . ومن هؤلاء : (كنانة بن عبد ياليل الثقفي) عم أبي مِحْجَن^١ . وزعم (ابن الأعرابي) ان (مطاعيم الرياح) ، هم أربعة . منهم : كنانة ابن عبد ياليل الثقفي المذكور و (لبيد بن ربيعة)^٢ .

ويقال للرجل الذي يهتر للمعروف والعطية (الأريحي) ، وهو السخي . و (الأريحية) السخاء^٣ .

وقد ضرب المثل بجماعة من الجاهليين عرفوا بجودهم وكرمهم ، حفظ العرب ذكرهم لجودهم ، وما زالوا يحتفظون به حتى اليوم ، يتذكرونه ويروونه في كتاباتهم وفي أنديتهم وفي كلامهم . من هؤلاء ثلاثة سُمُوا (زاد الراكب) و (أزواد الراكب) ، لأنهم كانوا اذا سافروا مع قوم لم يتزودوا معهم . كانوا من أهل مكة هم : أبو عمرو بن أمية (مسافر بن أبي عمرو بن أمية) ، وأبو أمية بن المغيرة المخزومي ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى (زمعة بن الأسود بن المطلب) . وقد ضرب بهم المثل ، ف قيل : أقرى من زاد الراكب^٤ .

وقد كان (عبد الله بن أبي أمية) ، المعروف بـ (زاد الراكب) شديد الخلاف على المسلمين ، ثم خرج مهاجراً من مكة يريد النبي ، فلقه بـ (الصلوب) فوق العرج ، فأعرض عنه رسول الله ، ثم عفى عنه^٥ .

وفي معنى (زاد الراكب) معنى (جفنة الراكب) ، والجفنة : الرجل

- ١ بلوع الأرب (٩١/١ وما بعدها) .
- ٢ باوغ الأرب (٩١/١ وما بعدها) .
- ٣ اللسان (٤٦٠/٢ وما بعدها) ، (صادر) ، (روح) .
- ٤ مجمع الأمثال (٧٢/٢) ، اللسان (١٩٨/٣) ، (صادر) ، (زود) ، المحبر (١٧٧ ، ٤٥٧) ، ناج العروس (٣٦٦/٢) ، (زاد) ، نسب فرش (٣٠٠ ، ٣١٥) ، النعاليبي ، ثمار العلوب (١٠٣) .
- ٥ نسب فرش (ص ٣١٥ وما بعدها) .

الكريم . قيل له : (جفنة الركب) ، لأنه كان مطعاماً يضع جفنته ويطعم الناس فيها ، ومن يكون معه في ترحاله . فسمي باسمها ^١ .

وكانت العرب تقول : السفر ميزان القوم ، كأنه يزنهم بأوزانهم ويفصح عن مقاديرهم في الكرم واللؤم ^٢ . إذ يتبين الكريم من اللئيم في سفره . فاللثام اذا ما سافروا ضجروا ، لخوفهم من تقديم ما عندهم الى من هم دونهم من فقير ومحتاج ، أما الكريم ، فإنه لا يبالي في سفره فيعطي وينفق ويساعد من يسافر معه بما يجود به عليهم . فهو على عكس اللئيم فرح بسفره هذا مستبشر .

وزعم الأخباريون ان (سويد بن هرمي بن عامر الحمصي) ، كان أول من وضع الأرائك وسقى اللبن والعسل بمكة ^٣ . ومعنى هذا انه أول من وضع الأرائك لراحة الناس في الجاهلية ، ولعلتهم قصلوا أرائك وضعت في الحرم لجلوس الناس عليها . كما ذكروا ان (أبا أمية بن المغيرة المخزومي) و (أبا وادعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم) وكانا يسقيان العسل بمكة ، بعد سويد بن هرمي ^٤ . وقد كان (عدي بن نوفل) يسقي الحبيج اللبن والعسل على ما ذكره أهل الأخبار ^٥ . وقد عدت السقاية من مفاخر قریش .

وقد كان من عادة الأجواد ايقاد النار في الظلام ليراهم الغريب والمحتاج والجائع من مسافة بعيدة فيفد اليها ، فيجده له من يقره ويقدم له ما يحتاج اليه من طعام . ويقال لها (نار القرى) و (نار الضيافة) . وهي نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل . وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة ، لتكون أشهر . حتى زعم ان منهم من كان يوقدها بالمندي الرطب ، ليهتدي اليها العميان ، بشم رائحة الطيب التي تفوح منها عند الاحتراق . وهي من أجل الأعمال عند العرب . وقد ذكرت في الشعر الجاهلي ^٦ .

١ اللسان (١٣ / ٩٠ وما بعدها) ، (صادر) ، (جهن) .

٢ الدعالي ، ثمار القلوب (٦٨٨) .

٣ المحبر (ص ١٧٦ وما بعدها) .

٤ المحبر (١٧٧) .

٥ سب قریش (١٩٧) .

٦ بلوغ الأرب (١٦١ / ٢) .

ويعدّ الشتاء محكاً للأجواد ولكرام الأنفس . فالشتاء عدوّ الفقير ، يؤلمه ببرده ويوجعه بفقره ويضيف آلاماً على آلامه . فخيمته الممزقة البالية ، لا تقيه من رياح ولا من مطر ولا من برد . والصيد يختفي ويقلّ ، والأعشاب تزول ، فلا يجد الفقير أمامه سوى ما ادخره من قوت ليعيش عليه . فاذا أكله أو كان قليلاً ، فليس أمامه من ملجأ سوى الاستجارة بأهل الجود والسخاء . ممن كان إذا جاء الشتاء ادنوا اليهم الناس وأطعموهم ، فيقتلون بذلك جوع الشتاء . ولهذا عرف الواحد منهم بـ (قاتل الشتاء)^١ .

وغاية الجود أن يجود الإنسان بأعز ماله لغیره ، يقال : (انه لمنحار بوائكها ، اي ينحر سمان الإبل) ، وهو للمبالغة ، يوصف للجود^٢ . فهو ليس من أولئك الذين ييخلون بمالهم العزيز ، فينحرون الهزيل من الإبل ، حرصاً على العزيز ، بل يقدم أقصى ما عنده لضيوفه .

ويعدّ العرب (إقراء الضيف) و (الرفادة) : (رفادة الحج) في جملة (ارث ابراهيم واسماعيل) . ويدخل أهل الاخبار في جملة هذا الإرث : تعظيم الحرم ومنعه من البغي فيه وقع الطالم ومنع المظلوم^٣ . فالكرم اذن من السنن القديمة الموروثة عن سنة ابراهيم على أهل الاخبار .

ولا يعدّ الكريم كريماً اذا وهب ماله في سبيل غرض . فمن وهب المال لطلب نفع أو دفع ضرر أو خلاص من ذم فليس بكریم^٤ .

ويقال للعطية الجزيلة (الدسيعة) . ويقال للجواد ، هو ضخم الدسيعة ، اي كثير العطية . وقيل هي المائدة الكريمة والجفنة على سبيل المجاز^٥ ، لا عرف به الأجواد من تقديم الطعام للأضياف . ويقال للجواد المعطاء السيد الحمول : (الحضر) ، تشبيهاً بالبحر الحضر وهو الكثير الماء^٦ .

-
- ١ ناج العروس (٧٦/٨) ، (قتل) .
 - ٢ ناج العروس (٥٥٨/٣) ، (بحر) .
 - ٣ الكلاعي ، الاكثاء (١٥٠/١) .
 - ٤ ناج العروس (٤١/٩) ، (كرم) .
 - ٥ ناج العروس (٣٢٧/٥) ، (دسع) .
 - ٦ ناج العروس (٢٨٠/٨ وما بعدها) ، (الحضر) بكسر الخاء .

وقد يعبر عن غاية الجود بقولهم : (هو جبان الكلب) ، اي نهاية في الكرم وكثرته ، لانه لكثرة تردد الضيفان اليه يأنس كلبه فلا يهر ابدأ . قال حسان ابن ثابت :

يُغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون من السواد المقبل^١

ومن الجود والكرم : الرفادة . والرغد : العطاء واعانة المحتاج . ومن ذلك ما فعلته قريش من (الرفادة) ، حيث اتفقت ان يخرج كل انسان مالاً بقدر طاقته ، يشتركون به للحاج الجزر والطعام والزبيب للنبيذ ، فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي ايام موسم الحج . وذكر ان (هاشم بن عبد مناف) ، كان اول من قام بالرفادة ، وأول من هشم الثريد ، وقد سُمي هاشماً لهشمه الثريد^٢ .

وذكر علماء اللغة ان السخاء مراتب ثلاث : سخاء وجود وإيثار . فالسخاء اعطاء الاقل وامساك الاكثر . والجود اعطاء الاكثر وامساك الاقل ، والايثار اعطاء الكل من غير امساك شيء . وهو اشرف درجات الكرم^٣ .

ويعبر عن السخاء بـ (الندى) . ويقال (هو ندي الكف) ، اذا كان سخياً^٤ . و (طلحة الندى)^٥ ، اي السخي الكريم .

من شيم السادة :

ويعد حمل اثقال الديات من شيم السادة ، اذ لم يكن من الممكن للأسر الفقيرة دفع دية القتلى حين توزع في العشيرة او القبيلة ؛ لذلك يحملها السادة عن الضعفاء . وقد مدح « حسان بن ثابت » « حكيم بن حزام بن خويلد » ، فكان مما مدحه به انه (انه حمل اثقال الديات)^٦ .

- ١ . ناه العروس (١٥٩/٩) ، (حبن) .
- ٢ . اللسان (١٨١/٣) ، (صادر) (رغد) .
- ٣ . نهاية الأرب (٢٠٤/٣) .
- ٤ . ناه العروس (٣٦٣/١٠) ، (ندا) .
- ٥ . نسب قريش (٢٣٧) .
- ٦ . البرقوقي (ص ٧٠) .

ومن حمل الدماء ودفع أثمان دياتها : (عمرو بن عصم) ، الذي حمل الدماء التي كانت بين (بني سدوس) و (بني عترة) في الجاهلية ^١ ، وهم بن سنان ، والحارث بن عوف ، اذ تحمل ديات قتلى الحرب التي وقعت بين عيس وذبيان ^٢ .

كما يعد حمل ثقل المولودة التي يراد وأدها من الشيم ومن الاعمال الحميدة التي يُحمد القائم بها عليها . وقد ذكر اهل الاخبار اسماء جماعة دفعوا مالا لآباء كانوا قد هتموا بواد بناتهم لإملاقهم ولضعف حالهم ، فأبقوا بذلك على حياتهن . وهو عمل يقدر حقاً ، لأنه عن حس انساني ودافع خيري نبيل .

فك الأسر :

ومن شيم الرجال المن على الاسرى بفك رقابهم واعطائهم حريتهم . وقد أبت مروثة بعض السادات الا ان يقوموا بفك أسر الأسرى واعتاق رقبتهم ، ولو بشراء أسرهم بثمن . وقد ذكر العلماء اسماء رجال منهم عاشوا في الجاهلية عرفوا بعدم رضاهم عن الأسر ، فكانوا يدفعون مالا في مقابل فك رقبتهم . من هؤلاء (سعد بن مشمت بن المُخَيْل) ، وهو من رجال (بني المخيل) في الجاهلية . وكان آلى ان لا يرى اسيراً الا افتكه ^٣ .

ومن شيم الرجال العفو عند المقدرة والحلم والصفح عن المسيء ، وكان من عاداتهم في غفران الذنب ، حفر بئر ، ثم ينادي من يريد غفران الذنب والعفو عن المذنب : اشهدوا اني جعلت ذنبه في هذه البئر . ثم يرد فيها ترابها ، وبذلك يغفر الذنب ^٤ . وقد ضرب العرب المثل بحلم (قيس بن عاصم) ، وب (الأخنف ابن قيس) . و (قيس بن عاصم) ، هو من بني منقر من تميم . وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وذكر انه كان اول من وأد ، لأنه خشي ان يخلف على بناته من هو غير كفء لهن . وكان قد وأد ثمانى بنات ، ووفد في وفد

١ الاشتقاق (١٩٢) .

٢ الشعر والشعراء (٦١) ، (ليدن) .

٣ الاشتقاق (١٩٣) .

٤ (شر) ديوان حسان ، للبروفى (ص ١٠٧) .

(بني تميم) على الرسول فأسلم . وقد قال له الرسول لما دنا منه : (هذا سيد اهل الوبر)^١ .

وأما (الأحنف بن قيس) ، فهو تميمي كذلك . ادرك النبي ولم يجتمع به . وكان يضرب بحلمه المثل . وله قصص مع الخلفاء . وسكن البصرة ، وبها مات سنة سبع وستين^٢ .

وقد رجّح الجاحظ (الاحنف) على كل من عرف عند العرب واشتهر بينهم بالحلم ، حتى رجّحه على لقمان ولقيم وقيس بن عاصم ومعاوية بن ابي سفيان . وله قصص مع معاوية^٣ . ونسبوا له حكماً وشعراً^٤ . وذكر انه هو القاتل : (لا تزال العرب بخير ما لبست العمام ، وتقلدت السيوف ، وركبت الخيل ، ولم تأخذها حمية الأوغاد . قيل : وما حمية الأوغاد ؟ قال : ان يروا الحلم ذلاً ، والتواهب ضيماً)^٥ . وقيل للأحنف بن قيس : بماذا سدت ؟ فقال : بثلاث ، بذل الندى ، وكف الأذى ، ونصر المولى . وقال : انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم : أتني بقاتل ابنه فقال : رعبم الفتى . وأقبل عليه فقال : يا بني لقد نقصت عددك ، واوهنت ركنك ، وفقت في عضدك ، وأشمت علوك ، وأسأت بقومك ، خلوا سبيله ، وما حل حبوته ، ولا تغير وجهه^٦ .

وللعرب كلمة تقولها عند طلب العفو والحلم وفي مواطن الغضب والتشاجر ، هي : (اذا ملكت فاسجح) ، يقصد بها طلب العفو والحلم عند ثوران الغضب . ولهم كلمات اخرى كثيرة في الحث على التحلي بالحلم والصبر^٧ .

ومن خصال السادة : النخوة . وقد عرف بها العرب حتى ضرب بها المثل ، فقيل : نخوة العرب ، وورد : (لؤم النبيط ونخوة العرب) . وهم ينتخون لمن

-
- ١ الاصابة (٢٤٢/٣) ، (رقم ٧١٩٦) ، أمالي المرنضى (١١٢/١) .
 - ٢ الاصابة (١١٠/١) ، (رقم ٤٢٩) ، أمالي المرنضى (١١٢/١) .
 - ٣ الثعالبى ، ثمار (٨٩) ، أمالي المرنضى (٢٧٣/١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨) .
 - ٤ كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، من رسائل الجاحظ (١/٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٨١) ، عيون الأخبار (٩/٤) ، أدب الدنيا والدين (١٣٥) .
 - ٥ كتاب فصل ما بين العداوة (١/٣٦١) .
 - ٦ أمالي المرنضى (١١٢/١) وما بعدها .
 - ٧ بلوغ الأرب (١/١٠١) وما بعدها .

لمن ينتخبهم مع ترفع وتعزز^١ . فاذا نخبى شخص ، فعلى من انتخبى اجابة داعي النخوة والا عدّ جباناً وصار سبة للناس .

ولا يعني ان ما ذكرته كان يجب ان يتوفر حتماً في رجل ليستحق ان يكون سيداً . فقد رمي بعض الرؤساء بالبخل وبشدة الحرص وبامساك يدهم ، ووصف بعض السادات بالظلم وبالقسوة ، ومع ذلك ، فقد حكموا قبيلتهم وساد بعضهم وهم سُبتان ، والعادة عند العرب ان الرئاسة للمسن ، وانما الذي ذكرته يمثل رأي دوي الرأي في الرئيس المثالي الذي يعرف كيف يحكم قومه وكيف يوجه قبيلته . وهي ليست بالضرورة مؤهلات وصفات يجب ان تكون لازمة في الرجل الذي سيسود قومه ، لقد ذكرت ان السيادة بالوراثة ، وأن هذه الخلال اذا تحلى بها انسان آخر من رجال القبيلة عدّ ايضاً سيداً من ساداتها ، بمعنى انه صار شريفاً مقدماً فيها ووجهاً من وجوها . تماماً كما يكون لمدينة ما رئيس مدينة ، يحكمها بصفة رسمية ، ويكون لها في الوقت نفسه وجهاء وأشراف قد يكون من بينهم من هو اكثر ذكراً وأعلى مكانة وأشرف منزلة من رئيس المدينة ، ولكنه مع ذلك لا يمثل المدينة في الحفلات والمجتمعات ، لأنه ليس برئيسها العامل المعين . وهكذا هو شأن تلك الخصال ، خصال مثالية قد تتوفر في رئيس القبيلة ، وقد لا تتوفر فيه ، بل تتوفر في غيره من ابناء القبيلة ومن رؤساء فروعها ، ليكون لهم السيادة والشرف فيها ويشار اليهم على انهم سادة القبيلة ، ولكنهم لا يعنون بذلك رئاسة فعلية ، وانما رئاسة شرف ومكانة وتقدير في مجتمع . ومن هنا نجد اهل الاخبار يذكرون اسماء جملة سادات ، على انهم سادات قبيلة واحدة وفي وقت واحد ، فهم في الواقع سادات مجتمع وفروع قبيلة .

المدح والهجاء :

والمدح والهجاء شأن كبير عند الجاهليين اذ كان الجاهليون يقيمون وزناً كبيراً للقيم المعنوية . فربّ مدح يخلد الممدوح ويبقي ذكره ، ورب هجاء يفض من شأن المهجو ويحط من اسمه . ونحن هذا اليوم نقرأ ما ورد عندهم من المدح ، ونسمع اسماء الممدوحين وما حصلوا عليه من جاه وفخر بين الناس ، ونقرأ ما ورد في ذم أناس وما قيل فيهم من ذم وقذع . ولولا الاهمية التي اعطاها الماضون للمدح والهجاء لما بقي الذم والمديح حتى اليوم .

١ الثعالبي ، ثمار (١٦١) .

ومن أسباب المدح سخاء الممدوح أو شهرته ومجده وشجاعته وعفته وحلمه وصبره وتضحيته وما الى ذلك من صفات وخلال حميدة . فكان اذا جاءه ضيف يعرفه أو لا يعرفه قدم اليه واجب الضيافة ، وبالع في اكرامه وان كان فقيراً لا يملك شيئاً . ويقدمه على نفسه وعلى أهله ، لأن الضيافة حق وواجب ، وعلى من يقصد للضيافة أداء هذا الواجب .

وقد كان الملوك يهبون على المدح ويشيرون المادح على قدر ما جاء في مدحهم لهم من تفنن في المدح ومن اطراء زائد ومبالغة في المدح . ولما دخل (النابغة الذبياني) على (النعمان بن المنذر) ، وحيّاه بتحية الملوك ، ثم مضى مسترسلاً في مدحه ، تهلل وجه النعمان سروراً ، وأمر ان يقدم له الدرّ ، و (كسّي أثواب الرضى . وكانت جُبّات أطواقها الذهب بقصب الزمرد . ثم قال النعمان : هكذا فليمدح الملوك)^١ . وفي كتب الأدب والأخبار أشعار قيل عن كل شعر منها (انها أمدح بيت قالته العرب)^٢ . وفيها مبالغات وغلو في المدح ، تجعل الممدوح شمس والملوك كواكب ، اذا طلعت لم يبد منهن كوكب^٣ . وأمثال ذلك .

وهذا الشعر وشعر الفخر وأمثالها ، يجب ان يكونا موضوعين لدراسات نفسية ، لأنها يمثلان أعماق الأحاسيس النفسية للعرب ، ويتحدثان عن المواطن الرقيقة عند العرب ، التي تهتز أوتارها بسرعة عند سماعها هذا النوع من المدح . والنواحي العاطفية التي يمكن منها التأثير في العرب . ونحن لا نستطيع بالطبع ، ان نأخذ هذا الفخر أو ذاك المدح على انها يمثلان الواقع ويمثلان الممدوح تمام التمثيل . أو انها تعبير عن نفس صادقة مخلصة في كل ما قالته أو نظمته . فنحن نعلم ان من الشعراء من يمدح للعطاء ويهجو اذا حرم منه . وان الممدوح اذا قطع عطاءه عن الشاعر ، كف الشاعر عن مدحه ، وربما انقلب عليه فيغسل كل ما قاله في مدحه له ، بشعر يستمه فيه بأبشع أنواع الشتم وأمضه . فشعر مثل هذا ، وان كنا نرويه ونتحدث عنه ونحفظه ، ولكننا نرويه ونستلذ بروايته ، لأنه لليد من

١ نهاية الأرب (١٧٧/٣) .

٢ نهاية الأرب (١٨٢/٣) وما بعدها .

٣ نهاية الأرب (١٨٢/٣) .

ناحية الأدب ، ولأنه شعر قديم يمثل ضرباً من ضروب الحياة في ذلك الوقت .

وقد يمدح الشخص بنعته بنعوت مشرفة ، مثل (فلان أبيض) و (قوم بيض) ، و (البيض المناجيد) وهم لا يريدون من اللفظة بياض البشرة ، وإنما يريدون المدح بالكرم ونقاء العرض من الدنس والعيوب^١ . وقد ينعت قوم بالحضرة ، ويريدون بذلك ان المنعوتين قوم عرب خلص . والأنضر بمعنى الأسود ، والعرب تسمى الأسود أنضر ، يريدون بذلك سواد الجلد ، والمراد بسواد الجلد انهم عرب خلص^٢ .

ويمدح المحافظون على الوفاء بالعهد والمتمسكون بالود ، والمحامون على عوراتهم الذابتون عنها . ويعبر عنهم بـ (أهل الحفاظ)^٣ .

التفاخر :

والتفاخر ، وهو التعظيم ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية عند أهل الجاهلية^٤ . وفي الكتب العربية أمثلة كثيرة من تفاخر الجاهليين بعضهم على بعض ، وتباهيهم بالأشياء الخارجة عن الانسان والتمدح بالخصال . وتكون المفاخر بالآباء والأجداد ، وبالسيادة والشر ، وبالكثرة ، وبالحسب والنسب ، حتى انهم انطلقوا في بعض الأوقات الى القبور فكانوا يشيرون الى القبر بعد القبر ، ويقولون : فيكم مثل فلان ومثل فلان ؟ وفي ذلك نزلت الآية : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلاً سوف تعلمون ، ثم كلاً سوف تعلمون)^٥ . فذكر ان حين من قريش ، بني عدنان وبني سهم ، تكاثروا بالسيادة والأشراف ، فقال كل حي بهم : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) . وقيل : ان قبيلتين من قبائل الأنصار ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت احدهما : فيكم مثل فلان وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا الى القبور ، فجعلت احدى

١ البرقوقي (ص ١٣٤) .

٢ البرقوقي (ص ١٣٥) .

٣ اللسان (٤١٢/٧) ، (صادر) ، (حفظ) .

٤ اللسان (ف/خ/ر) ، (٤٨/٥ وما بعدها) .

٥ سورة التكاثر ١٠٢ ، الآية ١ فما بعدها ، بلوغ الأرب (٢٧٩/١) .

الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون الى القبر ، وقال الآخرون مثل ذلك .
فأنزلت : (ألهاكم التكاثر)^١ .

وتقع المفاخرات بحضور محكمين في الغالب ، أو طرف ثالث محترم ، وعلى الطرفين قبول الحكم واطاعته ، وسماع رأي الطرف الثالث في حجج وأقوال المتخاصمين المتفاخرين . وتكون المفاخرة بإظهار كل طرف ما عنده من خصال يفاخر بها ، ومن مناقب يستأثر بها ، ومن مجد يرى انه انفرد به دون خصمه ، ثم يذكر ما امتاز به على خصمه ، بكلام منشور ومنظوم ، منسق ومنمق ، وما قام به من أعمال فريدة ، وما حصل عليه في حروبه مع الناس . وبعد ان يفرغ المتفاخرون من إلقاء ما عندهم من حجج وبيان ، ينظر المحكمون في الحجج التي استمعوا اليها ، ليلدوا حكمهم بموجبها ويكون حكمهم أصعب شيء يواجهونه ، لما يتركه من أثر في نفوس المتخاصمين ، ولما سيكون له من تأثير في مكانة من سيخسر المفاخرة .

ويقال للمفاخرة (المنافرة) . و (المنافرة) المحاكمة في الحسب ، وان يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ، ثم يحكما بينهما رجلاً ، كفعل (علقمة بن علاثة) مع (عامر بن طفيل) حين تنافرا الى (هرم بن فطبة الفزاري) ، وفيها يقول الأعشى يمدح (عامر بن الطفيل) ويحمل على (علقمة ابن علاثة) :

قد قلت شعري فضي فيكما واعترف المنفور للنافر

وقد نافر (أنيس) أخو (أبي ذر الغفاري) شاعراً على شعره ، إذ كان يرى انه أجود منه شعراً^٢ . وتكون المنافرة في كل شيء ، يرى انسان انه يفوق به غيره ، كالمنعة والعز والجاه والكرم وما شاكل ذلك من خصال . قال (ابن سيده) : (وكأنما جاءت المنافرة في أول ما استعملت انهم كانوا يسألون الحاكم : أينما أعز نقرأ ؟)^٣ .

و (النفار) ان يتنافروا الى حاكم يحكم بينهم . و (النفورة) الحكومة .

١ بلوع الأرب (٢٧٩/١) .

٢ اللسان (٢٢٦/٥) .

٣ اللسان (٢٢٦/٥) ، العاموس (١٤٦/٢) .

وورد (يوم نقورة) : أي يوم حكومة ، حكم فيه بالنفار^١ .

ومن المفاخرات ، مفاخرة^٢ وفود ربيعة ومضر ابني نزار عند النعمان بن المنذر . فكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة (بسطام بن قيس) و (الحوفزان بن شريك) . وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس بن عيلان (عامر بن مالك) وعامر بن الطفيل . ومن تميم قيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس^٣ . ومفاخرة (آل حذيفة بن بدر) و (آل الأشعث بن قيس الكندي) عند كسرى . وهم من أعرق الأسر في أيامهم ، وأشرفها . وقد عَجِبَ (كسرى) بذكائهم وبحدة أذهانهم^٤ . ومفاخرات أخرى مدونة في الكتب .

ومن مفاخرات أهل الجاهلية ، منافرة (عامر بن الطفيل) مع (علقمة بن علاثة)^٥ المذكورة ، ومنافرة (بني فزارة) و (بني هلال)^٦ ، ومنافرة (الفقعسي) و (ضمرة)^٧ ، ومنافرة (جرير البجلي) و (خالد بن أرطاة الكلبي)^٨ ، ومنافرة (القعقاع بن زُرارة بن عدس) و (خالد بن مالك ابن رُبَيع بن سلم بن جندل بن نَهشل)^٩ ومنافرة (هاشم بن عبد مناف) و (أمية بن عبد شمس)^{١٠} .

ومن المنافرات ، منافرة (عامر بن أحيمر) عند (المنذر بن امرئ القيس ابن ماء السماء) . فقد ذكر ان (المنذر) أخرج بُردَيْن يوماً يبلو الوفود ، وقال : ليقيم أعز العرب قبيلة ، فليأخذها . فقام (عامر بن أحيمر) فأخذها وائتزر باحدهما وارتندي بالآخر ، فقال له المنذر : أنت أعز العرب قبيلة ؟ فقال : العز والعدد في معدّ ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خِندف ،

- ١ البيان والتبيين (١/٢٤٠ ، ٣٠٤ ، ٣٥١) .
- ٢ بلوغ الأرب (١/٢٨٠ وما بعدها) .
- ٣ بلوغ الأرب (١/٢٨١ وما بعدها) .
- ٤ بلوغ الأرب (١/٢٨٨) .
- ٥ بلوغ الأرب (١/٢٩٧) .
- ٦ بلوغ الأرب (١/٢٩٨ وما بعدها) .
- ٧ بلوغ الأرب (١/٣٠١) .
- ٨ بلوغ الأرب (١/٣٠٦) .
- ٩ بلوغ الأرب (١/٣٠٧ وما بعدها) .

ثم في تميم ؛ ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في عوف ، ثم في بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرن ، فسكت الناس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم ، فكيف أنت في أهل بيتك وفي نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، ونخال عشرة ، وعم عشرة ، وأما أنا في نفسي ، فشهد العز شاهدي ، ثم وضع قدمه على الأرض ، فقال : من أزالها عن مكانها ، فله مئة من الإبل . فلم يقم إليه أحد من الحاضرين ، ففاز بالبردين ، وعرف بـ (ذي البردين)^١ . وطالما كانت تؤدي هذه المفاخرات الى وقوع حروب وسفك دماء ، ولذلك أبطلها الاسلام ، ونهى عنها ؟ وعدتها من شعار الجاهلية^٢ .

والمساجلة في معنى المفاخرة ، بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي . وتساجلوا بمعنى تفاخروا . ذكروا ان أصل المساجلة : ان يستقي ساقيان ، فيخرج كل منهما في سجله مثل ما يخرج الآخر ؛ فأيهما نكل فقد غلب ، فضربته العرب مثلاً للمفاخرة ، فإذا قيل فلان يساجل فلاناً فمعناه انه يخرج من الشرف مثل ما يخرج الآخر ، فأيهما نكل فقد غلب^٣ .

وتعرف (المفاخرة) بـ (المباهاة) أيضاً . فيقال : تباهوا اذا تفاخروا . وأما اذا صاحبه ، فيقال هاباه^٤ . وذلك بأن يذكر كل متباه مناقبه ومناقب قومه ، يتفاخر بها على خصمه . وطالما أدت المباهاة الى وقوع خصومات ومعارك . ومن مفاخر العرب التفاخر بمن برز عندهم في عمل فذ في عمل خصال كريمة ، أو قام بفعل استحق الإعجاب . فكانت القبائل تتفاخر بذكر أسماء هؤلاء ، وتحفظ أسماءهم للتباهي بهم ، كما تفعل الدول في التباهي برجالها . ومن مفاخرهم : الفروسية ، فعند (الحوفزان) مثلاً وهو (الحوفزان بن شريك) فارس بكر بن وائل .

- ١ بلوغ الأرب (٧٦/١) .
- ٢ سورة لقمان ، ٣١ ، الآية ١٨ ، سورة الحديد ، ٥٧ ، الآية ٢٣ ، سورة النساء ، ٤ ، الآية ٣٦ ، العهد العربد (١٠١/٦) ، (طبعة العربان) ، بلوغ الأرب (٢٧٨/١) .
- ٣ قال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب :
من يساجلني يساجل ماجداً يملأ السدلو الى عقد الكرب
اللسان (٣٢٦/١١) ، (صادر) ، (سجل) .
- ٤ اللسان (٩٩/١٤) ، (بها) .

وافتنخروا بـ (الأصم عمرو بن قيس) ، ولقب عند المتأخرين به
بـ (صاحب رؤوس بني تميم) ، وافتنخروا بـ (مفروق بن عمرو) (حاضن
الأيام) والظاهر انه كان يحن على الأيتام ويعطف عليهم ، لذلك لقب بهذا
اللقب ، وافتنخر بـ (سنان بن مفروق) ، الذي عرف بـ (ضامن الدمن) .
كما افتنخر بـ (عمران بن مرة) لأنه أسر (يزيد بن الصعق) مرتين^١ .

الحيلاء :

وقد عرف بعض الجاهليين بالحيلاء والزهو والتغطرس . وقد اعتبرها الاسلام من
سمات أهل الجاهلية . وقد اشتهر (سماك بن خرشة الأنصاري) بمشية خاصة
به ، فيها تبخر وخيلاء ؛ حتى عرفت بـ (مشية أبي دجاجة)^٢ . والتبخر
هي مشية العجب والحيلاء . وكانت من مشية بعض المغرورين المترفين من أصحاب
الجاه والمال .

الهجاء :

والهجاء عكس المدح ، وهو ذم الشخص والانتقاص منه وشتمه . وقد نبغ
فيه بعض الشعراء ، وتخصص به ، ويجب ان نقف منه موقف الحذر الشديد ، لما
للعواطف والهوى من أثر فيه . وقد يهجو شخص شخصاً أو قوماً لسبب تافه ،
أو بسبب حادث وقع له لا يستوجب صدور ذلك الهجاء منه . وهناك أشخاص
جبلوا على ازدراء الناس وشتمهم والانتقاص منهم ، فهجوا أكثرهم ، بل بلغ
بهم الهجاء حدّاً حملهم على هجو أقاربهم وأهلهم ، بل أنفسهم في بعض الأحيان .
ويستحق الهجاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الأردال ،
والأنذال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاءه ودثاره . وقد حفظ
الرواة بعض الأشعار التي قيل فيها كانت من أهجى أشعار العرب في الجاهلية

١ العمدة (٢٢١/٢) .

٢ الثعالبى ، ثمار (٨٧ وما بعدها) ، ناج العروس (١٩٦/٩) ، (دجن) .

وفي الاسلام . وذكر ان من شعر الهجاء المرّ القاسي قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا^١

وقوله في الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^٢

وقول الطرمّاح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضللت^٣

الى غير ذلك من شعر ، يجب ان نأخذ به بحد . وان نعالجه دائماً على انه يمثل العواطف الشخصية والانفعالات النفسية ، والتهيج الآتي . وان شعراً من هذا القبيل لا يمكن ان يحمل حمل الصدق ، وان نقول عنه انه يعبر عن الواقع . بل نأخذ كما سبق ان ذكرت عن شعر المديح على انه تعبير عن نوع من أنواع الأدب في ذلك الوقت . وعلى انه باب يجب ان يدرس من الوجهة النفسية ، لأنه يفيد في الوقوف على النفسية العربية والعقلية الجاهلية في ذلك الوقت .

ولم يكن الهجاءون يراعون الصدق في كلامهم ، وكيف يراعونه وهم يريدون هجو خصومهم والإساءة اليهم والى سمعتهم بأية طريقة ووسيلة كانت ، حتى وان علموا ان سامعي الهجاء لا يصدقونه . ومن هذا القبيل رمي بعض القبائل أو الأسر بأنها من أصل أعجمي ، وفي كتب الأخبار أمثلة عديدة على ذلك ، وقد يكون ذلك بسبب وجود دم أعجمي من أم أو من أب بعيد أو قريب ، وقد لا يكون أي أثر من ذلك . شتم (عمرو بن الأهتم) (قيس بن عاصم) ، فقال له ولقومه :

إن تبغضونا ، فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب^٤

وقد عبر (حسان بن ثابت) (بني المغيرة) وسبهم بأنهم عبيد قيون ، أبوهم

١ نهاية الأرب (٢٧٢/٣) .

٢ نهاية الأرب (٢٧٥/٣) .

٣ نهاية الأرب (٢٧٦/٣) .

٤ دواو حسان (ص ٤٤) (هرشفلد) .

قن لدى (كبره) جاثم . يأخذون (الاهالة) ، وهو الدهن الذي يستخرج من اللحم ، ويبيعونه من الدبّاغين ^١ . فما ذكره فيهم هو من اعمال العجم والصعاليك ، لا العرب الأصلاء والأقحاح .

وذكر ان (الوليد) المعروف بـ (الوليد بن المغيرة) لم يكن عربياً ، وانما كان عبداً رومياً ، وكان اسمه (ديم) ، واسم ابيه (صقعب) ، فرغب فيه (المغيرة) ، فادّعاه ، والحق صقعباً بالسّام ، فاشتاق اليه ، فصوره في الحائط . وقد هجاه (حسان بن ثابت) ، فقال له ان والدك (صقعباً) كان قيناً ، وأما امك فهي (حباشة) ، وهي عبدة سوداء . وقد تباهيت اذ صرت غنياً ، وانما صرت ثرياً بـكلبتك هذه ، وهي آلة من آلات الحدادين ، يشير بذلك الى انه كان حداداً ، يعرف ضرب النصال ، وحسن الرقع للبرم ، وهي القدور ^٢ . ويظهر من شعر حسان ومن شرح الشراح ان (الوليد) كان مصوراً ماهراً متمكناً من فنه ، حتى صور اياه ، ان صح هذا الادعاء من (حسان) .

ولحسان بن ثابت هجاء شديد لثقيف ، قال في بعضه خلتوا (معداً) ولا تسبوا إليها ، واتركوا (خيندفاً) ، فما لكم من ولادة فيها ، وذلك على عاداته وعادة الشعراء والناس عند هجاء قوم ، حيث يرمونهم بكل قبيح ، ويجردونهم من كل مكرمة ، الا انه لم يصرح في شعره بأنهم من ثمود ، اذ كانوا وقت هجاء (حسان) إياهم من (قيس) . وقد نسبهم بعضهم الى (الفهود بن بني جائر بن إرم ، اخوة ثمود) ، ونسبهم آخرون الى (وحاطة) بن حمير ؛ وقال آخرون ان (ثقيفاً) ، هو عبد ^٣ . كل ذلك نكاية بثقيف .

وذكر اهل الاخبار ان (الازرق) ، وهو غلام رومي في الأصل كان للحارث ابن كلدة الثقفي . وقد ادعى نسله ان (الازرق) هو ابن (عمرو بن الحارث ابن ابي شمر الغساني) ، فهم من غسان . وذكر انهم ادعوا في اول امرهم انهم من تغلب ، ثم من بني عكب ؛ ثم افسدتهم خزاعة ، ودعوهم الى اليمن ، وزينوا لهم ذلك ، وقالوا : انتم لا يغسل عنكم ذكر الروم الا ان تدعوا انكم

١ البرقوقي (ص ٤٠٣) .

٢ البرقوقي (ص ٤٠٠ وما بعدها) .

٣ البرقوقي (ص ٣٤٦) .

من غسان . فانتسوا الى غسان بعد ^١ .

وقد عَيَّرَت العرب وسبَّت من كان ذا أصل خامل ، كأن يكون قينا ، والقين العبد والحداد . ولعلها جمعت هذا المعنى من الترابط بين الحرفة والمترلة ، فقد كان القيون من العبيد . وقد عَيَّر (حسان بن ثابت) (بني عوف بن عوف) بأنهم منتسبون الى قريش ، ولكن نسبهم ليس منهم ، بل من جذع قين لثيم العروق عرقوب والده اصهب ^٢ . فرماهم بأنهم ليسوا من قريش ، ولا من العرب ، بل من الروم ، ووالدهم اصهب به حمرة ، وليست الصهبية من لون العرب . وقال لهم : واذا اردتم الانتساب الى العرب ، فانتسبوا الى (تغلب) ، انهم شرّ جيل ، وليس لكم غيرهم مذهب ^٣ . ويبحث قول « حسان » هذا في « تغلب » على الظن بأن أقواماً من الغرباء دخلوا في تغلب ، وصاروا منهم . ولعله قصد ان من تنصر ، دخل في تغلب ، حتى دخل فيهم من ليس من العرب بسبب نصرانيته ، حتى دخل فيهم قوم اصلهم من الروم .

وعَيَّر بـ (اولاد درزة) ، ويراد بهم الغوغاء . وبنو درز : الخياطون والحاكّة ، والعرب تقول للدعيّ : هو ابن درزة وابن ترني . وذلك اذا كان ابن أمة تُساعي ، فجاءت به من المساعة ، ولا يعرف له أب ، . وقال : هؤلاء أولاد درزة وأولاد فرتي للسفلة والسقاط ^٤ .

والسب : الشتم ، والسباب : انشتائم والمشتامة . وأما (السبّة) فالعار ^٥ . وكانوا يتشائمون جماعات وفردى ، ويعير بعضهم بعضاً وقد يقذعون في السب ، ولا سيما في الامور التي تتغلب فيها العواطف على العقل .

ومن شتائم الجاهليين وسبابهم (عضضت بأير أبيك) ^٦ ، ويا ابن الزانية ،

١ طبقات ابن سعد (٢٤٧/٣) (دار صادر) .

٢ الى جنم فبن لثيم العرو في عرقوب والده اصهب البرقوقي (ص ٦٣) .

٣ الى تغلب انهم شر حيل فليس لكم غيرهم مذهب البرقوقي (ص ٦٣) .

٤ اللسان (٣٤٨/٥) ، (صادر) ، (درز) .

٥ ناج العروس (٣٤/٣) وما بعدها .

٦ البرقوقي (١٢١) وما بعدها .

ويا ابن الفاعلة ، و (يا عاض اير ابيه) ، و (يا مصفر أسته) ^١ ، و (يا ابن ملقي ارحل الركبان) ^٢ .

وعيرت العرب بالبخل . والبخل هو على تقيص الكرم . وقد ذمّ بعض الجاهليين لبخلهم ولحرصهم الشديد على مالهم وعدم مساعدتهم الفقراء والمحتاجين . وقد انتخبوا من بينهم رجلاً زعم انه ابخل الناس في الجاهلية اسمه (مادر) ، (ابخل مادر) و (ابخل من مادر) . وهو رجل من (بني هلال بن عامر) . ذكر انه كان اذا اتى ماءً روي وأروى مملأه مدرأً ضناً على غيره بوروده . وانه بلغ من بخله انه سقى ابله ، فبقي في الحوض ماء قليل ، فسلح فيه ومدر الحوض بالسلح ، اي لطحه ^٣ . وورد في الامثال : (الأم من مادر) ^٤ .

وعيرت بالغدر . قال بشر :

رَضِيْعَةٌ صَفْحٌ بِالْجِبَاهِ مَلْمَةٌ لَهَا بَلَقٌ فَوْقَ الرُّؤُوسِ مَشْهُرٌ

وصفح رجل من (بني كلب بن وبرة) ، جاور قوماً من (بني عامر) ، فقتلوه غدرأً . يقول غدرتكم ب (زيد بن ضباء الاسدي) ، اخت غدرتكم بصفح الكابي ^٥ .

وعيرت من ينكر الصنيع الجميل والفعل الحميد ، فينسى احسان من احسن له . وعيرت من لا يقي ، ولا سيما من أكل الخبز والملح ، وهما من موجبات الوفاء ، فقالوا : (ملحه على ركبته) ، في عدم الوفاء ^٦ .

واذا سبت العرب احد الموالي ، قالت : يا ابن حمراء العجبان ، اي يا ابن الأمة . كلمة تقولها في السب والذم . والعرب تسمي الموالي : الحمراء ^٧ . وكانوا يعمرون (الأناوي) ، وهو الغريب في غير موطنه ، ولا يعدلون احداً من

-
- ١ البعالي ، ثمار (٢١) .
 - ٢ ناج العروس (٣٤٢/٧) ، (رحل) .
 - ٣ النعالي ، ثمار (١٢٧) .
 - ٤ ناج العروس (٥٣٦/٣) ، (مدر) .
 - ٥ ناج العروس (١٨٠/٢) ، (صفح) ، اللسان (٥١٦/٢) ، (صفح) .
 - ٦ ناج العروس (٢٣٠/٢) ، (ملح) .
 - ٧ ناج العروس (١٥٨/٣) ، (حمر) .

الأثاوين بأصحاب المحلات . قال الشاعر :

لا تعدلن اثاوين قد نزلوا وسط الفلاة بأصحاب المحلات
وقالت امرأة من الكفار ، وهي تحرض الأوس والخزرج ، حين نزل فيهم النبي :
أطعمم أثاويّ من غيركم فلا من مُراد ولا مذحج
ارادت ان تؤلب وتذكي العصبية ^١ .

وكانوا اذا ارادوا الاستهزاء برجل جاهل سفيه ، قالوا له : هذا من اشد
سباب العرب ، أي ان يقول الرجل لصاحبه اذا استجهله يا حلیم ! اي انت عند
نفسك حلیم وعند الناس سفيه ^٢ .

ويعيّر الانسان بأبويه ، او بأحدهما ، اذا كان بهما او بأحدهما مثلبة ومنقصة
يؤاخذ عليها ، كأن يكون ابن أمة او ابن سي بيع في السوق . وقد رأينا أنهم
كانوا يزدرون الهجين ، ولا ينظرون اليه نظرهم الى اسان صريح ، كما كانوا
يزدرون مَنْ أمه او ابوه من اصحاب الحرف . وقد عيّر (النعمان بن المنذر)
لأن امه (سلمى) كانت ابنة قيسن ، على زعم بعض الرواه . وكانوا اذا شتموا
ابن أمة ، قالوا له : يا ابن استها ^٣ .

وقد كان للجاهليين اعراف في اهانات الناس ، من مثل سب الشخص على
ما ذكرت ، وتحريض الاطفال على العبث بمن يريدون اهانه ، ورميه بالحجارة
والركض خلفه ، وبأمثال ذلك ، او بتحريض السفهاء على التحرش بالشخص ،
او تحريض النسوة بسبّه ، وبالاقذاع في كلامهم معه ، وبما شاكل ذلك من وسائل
دنيئة لا تتم على قدرة المحرض ولا على جرأة عنده ، فيعمد الى امثال هذه الامور .
وأما المقتدرون المتمكنون ، فكانوا اذا ارادوا اهانة انسان اهانوه بأسلوب يدل
على قدرة المهين وتمكنه من مُهانته وازدراؤه ، فكان احدهم اذا تمكن من علوه ،

١ الحيوان (٩٧/٥) ، (هارون) .

٢ اللسان (١٤٦/١٢) ، (صادر) ، (حلم) .

٣ قال الأعشى :

أسفها أوعدت يا ابن أسفها لسب على الأعداء بالفادر
وقال حسان بن ثابت :
فما منك أعجب ما ابن استها ولكنني من أولى أعجب
الرفوفي (ص ٦١) .

عمد الى اهانتة بنتف لحيته . ونتف اللحية من الاهانات الشديدة عند العرب ، لأن اللحية من سماء الرجولة ، فاذا نتفت عدت نفها انتقاصاً من شأن ذلك الرجل وازدراءً شديداً به .

وما يقال عن الالهة التي توجه الى الرجل بنتف لحيته ، ينطبق كذلك على (جز الناصية) . فجزّ الناصية من وسائل التحقير والازدراء ، وفيه دلالة على ازدراء مَنْ جَزَّ الناصية بمن جُزّت ناصيته ، بعد ان تمكن منه . وقد كان في امكانه استرقاقه ، او المنّ عليه بفك أسره ، او بفك رقبته بفدية ، ولكنه لم يفعل كل ذلك ، ولم يطمح في الفدية امعائاً في ازدراء خصمه بافهام الناس ان ذلك الشخص لا يساوي شيئاً ، وان المتمكن ارفع من ان يقبل فدية عن رجل وضعي خامل .

وكانوا اذا ذكروا خصومهم ، تمنوا لهم الشرّ والأذى ، واستعملوا جملاً فيها هذه المعاني . مثل : أحس الله حظه ^١ ، وأبعده الله وقبحه ، او رضيع اللؤم ، او ابعده الله دار فلان ، وأوقد ناراً في أثره ^٢ ، وقد يذكرونهم بهزء وسخرية . ويكثر ذلك عند اهل القرار .

ومن معاني الشتم لفظة (لحي) ، التي تعني (شتم) . يقال (لحي الله فلانا) ، اي قبحه ولعنه . و (الملاحاة) المنازعة . وفي المثل من لاحاك ، فقد عاداك ^٣ .

وكان من دعاء بعضهم على بعض قولهم : (حبناً وقداداً) . والحين الاستسقاء ، والقداد ، وجع في البطن ^٤ .

وكان اذا دعا الرجل على صاحبه ، يقول : قطع الله ممالك . فيقول الآخر : بسلا بسلاً ، اي آمين آمين . وكان يحلف الرجل ثم يقول بسل ، أي : آمين . وكان (عمر) يقول في دعائه : آمين وبسلاً ، اي إيجاباً وتحقيقاً . وهي في معنى الويل ، يقال : بسلاً له اي ويلاً له ^٥ .

١ ناج العروس (١٣٨/٤) ، (خسس) .

٢ اللسان (٤٦٦/٣) ، (وقد) .

٣ ناج العروس (٣٢٣/١٠) وما بعدها ، (لحا) .

٤ ناج العروس (٤٦١/٢) ، (فد) .

٥ تاح العروس (٢٢٧/٧) ، (بسل) .

وكانوا اذا ما أرادوا التكنية عن الكذاب ، قالوا : (أبو بنات عبر) .
و (بنات عبر) الكذب والباطل ^١ .

الحسة والدناءة :

والحسة والدناءة ، والحسيس الدنيء والحقير ^٢ . والدنيئة القبيصة ^٣ . والدنيئة الحصلة المذمومة ^٤ . وهي من المثالب التي تكون في الانسان . فيزدري من شأنه ويحتقر بين قومه . ومنها الحسد واللؤم وعدم احترام العرض . والعرب تتنخى من الدنيا وتستنكف منها ^٥ .

والحسد من الصفات السيئة التي كرهها العرب . وقد كان الحسد إذ ذاك كثيراً ، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية وانتشار الفقر . فكان الفقير يحسد غيره على ما عنده ، مهما كان ما عنده قليلاً ، لأنه لا يملك حتى هذا القليل . وقد بحث (الجاحظ) في الحسد ، ووضع رسالة فيه دعاها : كتاب فصل ما بين العداوة والحسد . والحسد عنده شيء مألوف يقع لكل طبقة ولكل إنسان . ومن أسبابه . حب الرياسة ، ووجود النعمة ، وأمور أخرى ذكرها وتحدث عنها . كما تكلم عن مظاهر الحسد وأشكاله عند الجاهليين والاسلاميين ، وقد جعله فوق العداوة ، لأن العداوة تزول بزوال أسبابها ، أما الحسد ، فإنه دائم باق ^٦ .

و (الجبن) ، من الصفات التي يعير (الجبان) بها . وهو الذي لا يحب القتال ولا يستعمل سيفه . ولما كانت الحياة عند العرب حياة قتال صارت الشجاعة في الانسان صفة من صفات التكريم والتعظيم والتقدير ، عكس (الجبن) ،

- ١ اذا ما جئت جاء بنات عبر وان وليت أسرع الزهابا
تاج العروس (٣/٣٧٧) .
- ٢ تاج العروس (٤/١٣٧) ، (خس) .
- ٣ تاج العروس (١/٦٦) ، (دنأ) .
- ٤ تاج العروس (١٠/١٣٢) ، (دبو) .
- ٥ تاج العروس (١٠/٣٦٢) ، (بخا) .
- ٦ راجع رساله في رسائل الجاحظ (١/٣٢٥ وما بعدها) ، نخفيق (عبدالسلام محمد هارون) .

وينظر الناس الى (الجبان) نظرتهم الى النساء ، بل هو عندهم دونهن شأنًا . لأن المرأة ولدت وفي طبعها اللين والاستسلام ، أما الرجل فقد خلق للعراك والقتال ، وقد حفظ أهل الأخبار قصصاً عن الجبناء وعن تحاييلهم في سبيل تخليص أنفسهم من القتال ومن استعمال السيف . وقد اتهموا بتهم . منها : أنهم كانوا يتأهبهم (الضراط) عند شعورهم بخوف وبأصوات السيوف . حتى استخفّت النساء بهم من أجل ذلك . قيل في المثل : أجبن من المتزوف ضرطاً . ومن ذلك ان نسوة من العرب لم يكن لهن رجل ، فتزوجت احداهن رجلاً كان ينام الصبيحة ، فاذا أتيته بصبح ، قلن قسم فاصطبج ، فيقول : لو نهتني لعادية ، فلما رأين ذلك . قال بعضهن لبعض : إن صاحبتنا لشجاع ، فتعالين حتى نجربه ، فأتيته كما يأتينه ، فأيقظته . فقال : لو لعادية نهتني . فقلن هذه توأصي الخيل . فجعل يقول : الخيل الخيل ويضرط ، حتى مات . الى غير ذلك من قصص يرويه الأخباريون ^١ .

الشرف والحمول في قبائل العرب :

والقبائل كالأفراد والأُسُر ، فيها النابه المذكور المهاب ، وفيها الحامل الهزيل الضعيف الذي لا ينظر اليه نظرة تقدير وتبجيل . والقبيل الكثير الذرء والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثير السادات في العشائر ، وكثير الرؤساء في الأرحاء ، هو القبيل المقدر المعظم ، ذو الشأن بين القبائل ^٢ . وقد تقع أحداث وعوامل ، تؤدي الى خمول القبيل والى انفصام وحدته ، والى طمع غيره فيه ، فيهزل عندئذ ويخمل ، ويأخذ مكانه من هو أقوى منه . وقد ذكر (الجاحظ) ، ان القبيل الذرء والعدد ، والذي لا يكون فيه خير كثير ولا شر كثير ، يخمل ويدخل في غمار العرب ، ويغرق في معظم الناس ، وصار من المغمورين ومن المنسيين ، وسلم من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك ؛ وسلم من ان يضرب به

١ ناج العروس (١٧٦/٥) ، (ضرط) .

٢ الحيوان (٣٥٧/١ وما بعدها) ، (هارون) .

المثل في قلة ونذالة اذا لم يكن شرّ ، وكان محلتهم من القلوب محلّ من لا يغيظ الشعراء ، ولا يحسدوهم الأكفاء ... واذا تقادم الميلاد ولم يكن الذرء وكان فيهم خبير كثير وشرّ كثير ، ومثالب ومناقب ، لم يسلموا من ان يُهجموا ويضرب بهم المثل ... وقد يكون القوم حلولاً مع بني أعمامهم ، فإذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم ، وان تركوا شيئاً من انصافهم اشتدّ ذلك عليهم ، وتعاضلوا بأكثر من قدره ، فدعاهم ذلك الى الخروج منهم الى أعدائهم . فإذا صاروا الى آخرين نهكهم وحملوا عليهم ، فوق الذي كانوا فيه من بني أعمامهم ، حتى يدعوهم ذلك الى النّدَم على مفارقتهم ، فلا يستطيعون الرجوع ، حميّة واتقاء ، ومخافة ان يعودوا لهم الى شيء مما كانوا عليه ، والى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم ، ومن شدة الصولة عليهم)^١ .

وقد ذكر (الجاحظ) ، ان مما تبثلى به القبائل فيصيبها الحمول : الشعر ونبوغ الأقارب أو المنافسين . فالشعر عند العرب يرفع من قدر الناس ويحطّ من درجاتهم . فقد يقال بيت واحد يربطه الشاعر في قوم ليس لهم جاه ، فيرفع من شأنهم ، وقد يقال بيت واحد في قوم لهم النباهة والعسد والفعال ، فيغض من مكانتهم ، ويكون سبّة لهم . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغِزار من وقع الهجاء ، كما بكى مخارق بن شهاب ، وكما بكى علقمة بن علاثة ، وكما بكى عبد الله بن جُدعان . والبليّة الأخرى : ان يكون القبيل متقادم الميلاد ، قليل الذرء قليل السيادة ، وتبيهاً ان يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التام ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلّ من رآهم أو سمع بهم ، أضعاف الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم .

ومن شؤم الإخوة ان شرفهم ضعة لإخوتهم ، ومن يمن الأولاد ان شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم^٢ . ولذلك كانت القبائل تفخر بنبوغ الشعراء بها ، لانهم لسانها الذابّ عنها ، وسيفها المصلت على رقاب

١ الحيوان (٣٥٧/١) وما بعدها ، (هارون) .

٢ الحيوان (٣٦٥/١) .

الأعداء . وتباهي بما يقوم به ساداتها من فعال حميدة وأعمال مجيدة ترفع رأس أبناء القبيلة بين الناس .

ولأهمية الشعراء عند الجاهليين ، قال بعض العلماء : كلاب الحيّ شعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ، ويحمون أعراضهم . وفي هذا المعنى جاء قول عمرو بن كلثوم :

وقد هرتّ كلابُ الحيّ منّا وشدّ بنا قتادة من يلينا^١

الاسلام والجاهلية :

وقد أبطل الاسلام كل سمة من سمات الجاهلية وعلامة من العلامات التي كانت تعدّ من صميم حياة الجاهليين . وفي جملتها المثل الأعرابية والحياة البدوية ، فاعتبر الأعرابية بعد الاسلام ردة . ونهى عن الهجرة من المدن الى البوادي ، فكان الأعرابي اذا دخل في الاسلام ، لزم الحضارة ، وكلف بواجب الجهاد في سبيل نشر الاسلام ، لما في التبدي والأعرابية من ابتعاد عن الجماعة وترك للواجب الملحق على المواطن في الدفاع عن الاسلام وفي العمل على انهاض المجتمع والانتاج في سبيل الخير العام . لذلك لام الناس (أبا ذر الغفاري) ، حين لجأ الى (الربذة) فأقام بها وتعزب بذلك عن الجماعة^٢ .

وفي جملة ما حاربه الاسلام من أمور الجاهلية الأصنام والأوثان ، فطمست وأزيلت معالمها ، بل غير أموراً أقلّ منها شأنًا وخطراً ، مثل : خضرمة النوق . وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم ، فلما جاء الاسلام أمروا ان يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم منه أهل الجاهلية^٣ . وذلك منعاً من التشبه بالجاهليين ، وابتعاداً للمسلمين عن تذكر أيام ما قبل الاسلام . ونهى عن تسنيم القبور وعن لبس بعض الملابس ، وعن أمور أخرى ، لأنها كانت من صميم أعمال الجاهليين .

١ الحيوان (٣٥١/١) ، (هارون) ، (كلاب الجن) ، الثعالبي ، ثمار (٦٩) .

٢ ناج العروس (٣٨٠/١) ، (عزب) .

٣ ناج العروس (٢٨١/٨) ، (الخضرم) .

وحارب الاسلام العصبية التي كانت من أهم سمات الجاهلية ، والتي بقيت مع ذلك كامنة في نفوس الناس . عصبية القبائل وعصبية القرى والمواضع . من ذلك ما كان بين يمن وأهل مكة من نزاع ، تحول الى نزاع قحطان وعدنان . فغير أهل مكة اليمن بأنهم قيون ، وأجابهم أهل اليمن بكلام غليظ شديد . هذا (أمية بن خلف) يهجو حسان بن ثابت بقوله :

أليس أبوك فينا كان قيناً لدى القينات ، فسلاً في الحفاظ ؟
يمانياً يظلّ يشدّ كيراً وينفخ دائبساً هب الشواظ^١

وهذا (حسان) يجيبه ويرد عليه في شعر مطلعته :

أتاني عن أمية زورُ قولٍ وما هو في المغيب بذي حفاظ^٢

وطالما ظهرت هذه العصبية في أيام الرسول ، بتنازع الأنصار وقريش وتفاخرهم بعضهم على بعض . وذكر ان في جملة أسباب تحريم الخمر ، ان رجلاً من الأنصار صنع طعاماً ، فدعا جمعاً من الأنصار وقريش ، وشربوا الخمر حتى انتشوا ، فتفاخرت الأنصار وقريش ، فقالت الأنصار : نحن أفضل منكم . وقالت قريش نحن أفضل منكم ، وتخاصموا ، فبلغ ذلك الرسول ، فترل الأمر بتحريم الخمر^٣ .

وفي جملة ما نهى الاسلام عنه (دعوى الجاهلية) من التفاخر بالأحساب والأنساب والتباهي بالمال والبنين والأموات ، وتحريم بعض الطعام والشراب والعادات الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية على نحو ما رأينا فيما تقدم ، وما سنراه فيما بعد .

وقد ترك المسلمون أموراً كثيرة أخرى مما كان مستعملاً في الجاهلية ، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة ، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان : الحُمْلان والمكس . وكما تركوا : أنعم صباحاً ، وأنعم ظلاماً ، وصاروا يقولون : كيف أصبحتم ؟ وكيف أمسيتم ؟ كما تركوا ان يقولوا للملك أو السيد المطاع :

١ اللسان (٤٤٦/٧) ، (شوط) .

٢ ناج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) .

٣ مصدر الطبرى (٢٢/٧) .

أبيت اللعن ، وتركوا ان يقول العبد لسيده : ربي ، وان تقول حاشية الملك
والسيد للملك والسيد : ربنا . وكما تركوا ان يقولوا لقوام الملوك السدنة ،
وقالوا : الحجة . كما تركوا أشياء أخرى مثل المربع والنشيطه والصفايا ،
الى غير ذلك ، مما كان مستعملاً في الجاهلية . فكره لذلك استعماله
في الاسلام^١ .

١ الحيوان ، للجاحظ (٣٢٧/١) ، (ما ترك الناس من الفاظ الجاهلية) .

الفصل الثامن والأربعون

الحياة اليومية

لا نستطيع ان نتصور وجود حياة يومية صاخبة أو متغيرة عند أهل الوبر ؛ فحياة البادية في غاية البساطة ساذجة الى أقصى حد من السذاجة . تذهب وتأتي على وتيرة واحدة ونمط واحد . فليس للرجل في البادية من عمل سوى رعي الإبل والإشراف عليها . وهو عمل لا يستوجب مجهوداً ولا يتطلب بذل طاقة ، لذلك يعهد به الى الأحداث في الغالب ، أما الرجال ، فليس لهم عمل مهم يذكر . لذلك يقضون معظم وقتهم جلوساً بغير عمل ، أو في التحدث بعضهم الى بعض . وحياة على هذا النحو تجبل الانسان على الكسل والخمول . فصار الأعرابي خاملاً كسولاً على صحة جسمه وتوقد ذهنه وذكائه . يحسن الكلام ويجيد تنميق الحديث ويتلاعب في كلامه وفي إيجاد معانٍ وحيل ومخارج له ، ويسترسل في الخيال وفي التصور وفي شعوره الذي سبكه وصاغه في كلام موزون منظوم مقفى ، وفي كلام مسترسل غير مقفى ، وفي كل حرفة لسانية ، أو تعبير عن شعور ذاتي كالحب والبطولة وما شاكل ذلك مما لا يحتاج الى مجهود وعمل . أما النواحي العملية من الحياة ، النواحي التي تحتاج الى جهد وعمل ، فقد ترك أمرها لغيره ، بل ازدرأها وازدرى شأن من يعمل بها ، واحتقر الحرف والصناعات ، لأنها من عمل الأعاجم والعييد . ورأى ان من العار ان يصاهر أهل الصناعات والحرف والزراعة ، لأنهم دونه في المنزلة بكثير . وهو غير ملموم على نظرته هذه الى العمل اليدوي المجهد ، فالانسان عدو ما جهل معظم ما يكون عنده ، كاره لما لا يملكه ويكون عند غيره . فقد حرمنه الطبيعة من كل

ما يحمله على بذل الجهد للاشتغال في صناعة او حرفة او زراعة ، ولم تهتئ له البذور والمواد اللازمة لاقامتها ، لذلك جهلها فحاربها وازدراها وازدرى شأن من يشتغل بها . كما سأحدث عن ذلك في المواضع المناسبة لهذا البحث .

والبادية ارضون واسعة شاسعة جرداء في اغلب ايام السنة ، خلا مواسم نزول الغيث وهي قليلة ، وقد تنحبس . اذا امطرت السماء ظهر (الربيع) ، فتفرح الارض وتكسى بحضرة تتخللها اوراد وأزهار وشقائق ، ويضحك عندئذ وجهها ، بعد ييوس وعبوس ، ضحكاً يفهم الانسان الحضري عندئذ سرّ تعلق الاعرابي بباديته . ففي البادية على ما فيها من شقاء وجفاف ويوسة ؛ سحر ينسي الانسان صعوبة الحياة ، وحلاوة تنسيه مرارة الايام القاسية التي يعبشها البدوي في باديته . بعيداً عن الحضر وعن المجتمع المتكثف في مستوطنة او قرية او مدينة ، بل بعيداً حتى عن ابناء عشيرته . فمن طبيعة الصحراء ان قلبها لا يتقبل المجتمعات الكبيرة ، بل يفضل المجتمعات الصغيرة المتناثرة . فصارت البيوت فيها متباعدة منتشرة هنا وهناك انتشار النجوم في السماء . كل بيت مسؤول عن حماية نفسه وعن وقاية افراده من اذى الانسان والحيوان ، وعن حماية جاره وذوي رحمه وأبناء عشيرته . لأنه ان لم يفعل ذلك ، لم يجد من يدافع عنه ايام الشدة والعناء ، حتى صار الجار عنده بمنزلة الأهل والدار .

وحياة من هذا النوع هي حياة لا بد وأن تصبح بسيطة جداً ساذجة الى اقصى حدود السذاجة . احاديثها اليومية تكرر واعادة ، وأحاسيسها نسخة لأحاسيس اليوم الماضي والايام السابقة . وافق التفكير فيها محدود ضيق . اذ لا مجال فيها للفكر ان يتفتح وأن يتوسع . ومن هنا طبعت الحياة العقلية والاجتماعية بطابع الفطرة والبساطة . وهي لا يمكن الا ان تكون كذلك . وكيف تريد منها ان تكون غير ذلك ، ومحيطها وظروفها هي على هذا النحو من الحدود والقيود !

وفي وسع الرجل بفضل ما أوتي من قوة ومن بسطة في الجسم ، قطع المسافات لزيارة الاقارب والجيران ، لقتل الوقت بالكلام معهم ، او للتحدث عن غزو سابق او عن شؤون سيد القبيلة او عن اشراف العشيرة او للخروج الى صيد لاصطياد ما قد يجده من حيوان مسكين ، حتمّ عليه سوء طالعته ان يولد في هذه الارض الفقيرة ، فهو مثل الانسان تائه بهذه الحياة في هذه البادية الواسعة المكشوفة الشحيحة ، يشكو الى خالقه من ظلم طبيعة أنبتته في هذه الارض الفقيرة ، على

حين زرعت غيره في غابات كثيفة ذات ظروف حياتية غنية ، فيها من المأكول أشكال وألوان . بينما هو لا يكاد يجد امامه شيئاً ، حتى اذا اشتد عوده واستوى ، وقع في قبضة اناس جائعين ، لا يقل جوعهم عن جوعه ، فلا يخرج من قبضتهم ابداً . يتلذذون في اكله شواءً ، ويتحدثون عن صيدهم ويفتخرون به . وقد يكون الصيد ظيماً او ضيماً او يربوعاً . ويفتخرون بصيدهم لانهم محرومون من اللحم ، وكل ما تقع عليه عين المحروم من الأكل ، هو أكل لذيد دسم في نظر المحروم .

اما الاطفال فهم اطفال ايها وجدوا . لا يعرفون من اسرار الحياة وعنائها وشقائها شيئاً . همهم اللعب ، يلعب الذكور مع الاناث ، الأخوة مع الأخوات ، فهم اطفال البيوت . وقد يلعب معهم اطفال جيرانهم ، اذا كانت البيوت متقاربة . يلعبون العاباً هي من نتاج طبيعة ارضهم وخططهم . لا يعبأون بحر ولا برد ، ولا بريح او بأشعة شمس محرقة ، وما الذي يفعلونه تجاه طبيعة قوية قهارة لم تعطهم امكانيات بناء بيوت من مدر يأوون اليها لحماية انفسهم من اشعة الشمس لهم على الأقل . وانما مكنت آباءهم من صنع بيوت من وبر او صوف او شعر معز قد تقيهم من الأشعة بعض الوقاية ، بأن تمنحهم شيئاً من ظل . ولكنها عاجزة عن حمايتهم من البرد ومن الحر ومن الغيث اذا نزل عليهم مدراراً . لا سيما اذا طال عهد هذه البيوت ولعب بها العمر ، وصارت مهلهلة بالية ، ذات جيوب وشقوق كالغرايل ، تعبث بها الرياح ساخرة من جهل هذا الانسان القانع الراضي بحياته هذه على ما فيها من شظف وعسر وفقر ، بينما هناك مجال واسع له لتحسين حاله ، لو حرك نفسه واستخدم عقله وذراعه لتسخير الطبيعة في خدمته ، لتحسين وضعه والترفيه عن نفسه ولو الى حد .

الرجل :

والرجل بحكم تفوق بنيته على بنية المرأة ، وبفضل قوة عضلاته ومقاومته للطبيعة وللأخطار سيد الأسرة و (رب العائلة) و (بعل المرأة) ، اي سيدها . منح نفسه حقوقاً لم يعطها للنساء . وبني مفاهيم العدل والحق على اساس ان العدل هو القوة ، فاغتصب حق المرأة والبنات والولد والرجل العاجز لقوته ولأنه مقاتل ، اما غيره

من المذكورين فعاجز عن القتال ، فحرمهم من الحقوق . ومنها حقوق الإرث ، وأباح لنفسه حق الاستمتاع بملاذ الحياة ، وفي جملتها الاستمتاع بالنساء وبالحمور وبقية الأطايب . فله ان يتزوج ما يتمكن من النساء ، وجعل بيده حق الطلاق ، وجوز لنفسه الاتصال بأية امرأة شاء وان كان متزوجاً ، وله ان يتسرى ما يشاء ، وله غير ذلك من امتيازات وحقوق ، بسبب قوته وتفوقه على الجنس الآخر وعلى المستضعفين من المخلوقات ، لأن الحق للمخلوق القوي ، ولا حق عند القوي لإنسان ضعيف .

اللحية :

ومن الرجولة الشجاعة والاقدام وعدم المبالاة والمحافظة على مقومات الرجل وما مسحته الطبيعة اياه من ملامح ميزته عن المرأة ، وأهمها : اللحي . فاللحية عند العرب رمز الرجولة وزينتها وسياء تكريم الرجل وتقديره . واهانة اللحية عند العرب وعند الساميين هي من اعظم الاهانات التي لا تغتفر ، وتقييلها عندهم من علامات التقدير والاحترام والاجلال . ويعد نتف اللحية او جزها او حلقها اهانة كبيرة تنزل بصاحبها . يفعلها من يريد الازدراء بشأن الملتحي ، ويعد عدم الاكتراث بتسوية اللحية من سياء الحزن او الغيظ او المرض او الارتباك وتضعضع الحال . ونجد في التوراة ان في جملة الاهانات التي تلحق بالناس حلق انصاف لحاهم^١ . ويقسم باللحية ، ويعد القسم بها من الايمان المغلطة . يمسك بها الخالف بيده اليمنى فيحلف بحقها انه لا يكذب او انه سيفعل ، او ما شابه ذلك . ولكن العادة ان الخالف بها يكون بامساكها باليد ، واذا مدّ غريب يده على لحية رجل اكبر منه في المنزلة والدرجة وأقسم بها او استجار بها ، وجب على صاحبها الأخذ بنفسه والاهتمام بأمره ومساعدته . وقد يمسك غريب محتاج او مطارِد بلحية سيد قبيلة او شريف قوم ، ويبين له انه في حماه ومنعته ، وعلى الرجل بذل الحماية والمنعة له .

والعربي يكرم لحيته ، ولا يحلقها ، وتكون لحيته مدببة في الغالب على نمط

١ صموئيل الثاني ، الاصحاح العاشر ، الآلة ٤ ، ماموس الكتاب المقدس (٢٩١/٢) .

اللحي الفرنسية . ويصرف بعض الوقت لاصلاحها حتى لا تكون متناثرة بشعة ، وقد يعبر الانسان بلحيته ، فيقال : له لحية تيس . وتنسب عادة اكرام اللحي الى سنن ابراهيم . وقد تكون اللحية كثة كبيرة منتظمة . ويقال للرجل ذي اللحية الطويلة : (اللحياني) و (رجل لحيان) ^١ .

ويحلف العربي بشاربه ، فاذا اراد اعطاء عهد او جوار او اي عهد آخر واقسم بشاربه ، وجب عليه الوفاء بعهد . ومن عادة العرب تخفيف الشارب ، وقد تحف وتنسب هذه العادة الى سنن ابراهيم ، ومن السنن الاخرى تقليم الاظافر وحلق العانة ^٢ . وذكر ان الرسول كان يقص شاربه وأنه قال : قصوا الشوارب وأرخوا اللحي وخالفوا المجوس . وورد انه قال : (خالفوا المشركين ووفرو اللحي وأحفوا الشوارب) ^٣ .

ويعدّ قص الشارب من (الفطرة) . وهي عشرة او خمسة امور ^٤ . يذكرون انها من سنن ابراهيم ومن اتبعه من العرب . وفي جملتها الختان .

ويذكر العلماء ان الله ابتلى (ابراهيم) بسنن الفطرة ، وهي التي ذكرت في القرآن في قوله تعالى : (وإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) ^٥ ، وهي الكلمات العشر : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . فأما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب والفرق والسيواك . وأما التي في الجسد فالاستنجاء وتقليم الاظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان . فلما جاء الاسلام ، قرّرها سنة من السنن ^٦ .

والعرب من أصحاب الشعور السوداء . وهم مثل غيرهم يفاخرون بشعر

- ١ . ناج العروس (٣٢٤/١٠) ، (لحي) .
- ٢ . العسطلاني ، ارشاد الساري (١٦١/٢) .
- ٣ . راد المعاد (٤٥/١) وما بعدها .
- ٤ . راد المعاد (٤٤/١) وما بعدها .
- ٥ . البقره ، الآية ١٢٤ .
- ٦ . بلوغ الأرب (٢٨٧/٢) .

رأسهم ، ويتركونه ينمو ولا يحلقونه على نحو ما كان يفعل اليهود والمصريون ^١ . وكانوا يدهنونه ؛ ويمشطونه بالمشط . ويتركونه يتدلى على المنكبين . وقد يصفرونه صفائر . ومنهم من يصفره صفيرتين يجعلها تتدليان على جانبي الوجه . وذكر ان العرب تسمي الخصلة من الشعر أو الضفيرة قرناً . ولهذا عرف (المنذر ابن ماء السماء) جدّ (النعمان بن المنذر) بـ (ذي القرنين) لصفيرتين كانتا في قرني رأسه ^٢ . والعرب تكني عن العربي بالجمعد وعن العجمي بالسبط ^٣ . والجمعد من الشعر بخلاف السبط ، أو هو القصير منه . وهم يعنون بذلك ان سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب . وكانوا اذا قالوا رجلاً جعداً عنوا رجلاً كريماً ، كناية عن كونه عربياً سخياً ، لأن العرب موصوفون بالجعودة . وقد يقصدون بذلك رجلاً بخيلاً لثيماً ، فهو من الأضداد . وذكر ان العرب تقول : رجلاً جعداً ، اذا كان قصيراً متردداً الخلق . وإذا قالت جعد السبوطه ، فإنها تريد بذلك المدح ، إلا ان يكون مفقلاً كشعر الزنج والنوبة ، فهو حينئذ ذم ^٤ .

وكان الرسول يسدل شعره ، ثم فرقه . والفرق ان يجعل شعره فرقتين كل فرقة ذؤابة . والسدل ان يسدله من ورائه ولا يجعله فرقتين ^٥ . وذكر انه كان يصفره غدائر ، والغدائر الصفائر . وكان إذا طال شعره جعله غدائر أربعاً . وكان يكثر دهن رأسه ولحيته ويكثر القناع كأن ثوبه ثوب زيات . وكان يحب الترجل ، وكان يرجل نفسه تارة وترجله عائشة تارة ^٦ . وترجيل الشعر تسريحه .

- ١ أشعياء ، الاصحاح السابع ، الآية ٢٠ ، حزقيال ، الاصحاح الخامس ، الآلة الأولى ، فاموس الكتاب المقدس (٦٨/١ وما بعدها) .
- ٢ ناج العروس (٣٠٧/٤) ، (قرن) .
- ٣ تاج العروس (١٤٩/٥) ، (سبط) .
- ٤ ناج العروس (٣٢٠/٢ وما بعدها) ، (جعد) .
- ٥ زاد المعاد (٤٤/١) .
- ٦ زاد المعاد (٤٥/١) .

وقد تقوم به المرأة^١ . ويكون ذلك بالمشط . قال امرئ القيس :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنّاء بشيب مرجل^٢

وللعرب عادات بالنسبة الى شعرهم . فهم إذا غضبوا وأرادوا الأخذ بالثأر ، لم يغسلوا شعورهم وتركوا تدهينها حتى يأخذوا بثأرهم . كالذي روه من قصة امرئ القيس ، حينما جاءه خبر مقتل والده . وهم إذا أرادوا إذلال رجل واهنته كإذلال سيد قبيلة أو شريف قوم سقط أسيراً ، وأرادوا الإمعان في إذلاله جزّوا ناصيته وتركوه يذهب فذلك عندهم شرّ إذلال . والناصية مقدم الرأس^٣ .

ويستوي الرجل والمرأة في دهن شعر الرأس . ولا زال الأعراب يدهنون شعورهم على الطريقة القديمة . ويستعمل أغنياؤهم الدهون الجيدة المستوردة من الخارج . مثل (الزيت) المطيب بالعطور وبأنواع الطيب ، يدهنون به شعورهم ولحاهم في أيام الأفراح بصورة خاصة وفي الأعياد . وكان الرومان واليونان يدهنون الجسم كله بالزيت . وبعد دهن شعر الرأس من علامات الفرح والسرور ، وتركه من علامات الغم والحزن^٤ . وقد كان الصحابة يطلون شعر رأسهم ولحياتهم بالدهن ليزيلوا شعث رؤوسهم ولحاهم به^٥ .

ويضفر شعر الأولاد والبنات ضفائر ، تتدلى على جانبي الوجه ومؤخرة الرأس . وأما الرجال ، فكان منهم من يضفر شعر رأسه ضفيرتين يتركها تتدليان على جانبي وجهه ، ومنهم من يضفره جملة ضفائر ، قد تبلغ سبعا . وعادة يضفر شعر الرأس سبع ضفائر عادة معروفة عند غير العرب أيضاً . وكان شعر (شمشون) المشهور مضمفورا في سبع خصل^٦ . ولا زال الأعراب يضفرون شعورهم . ويقال للضفيرة (الذؤابة) . والذؤابتان اللتان تسقطان على الصدر .

١ شرح النووي على صحيح مسلم ، المطبوع حاشيه على إرشاد الساري ، القسطلاني (٣٣٨/٢) ، (باب حواز غسل الحائض رأس زوجها ورجيله) .

٢ ناج العروس (٣٣٧/٧) ، (رجل) .

٣ ناج العروس (٣٦٩/١٠) ، بصا .

٤ مرايم ٥٢٣ ، متى ١٧٠٦ ، صموئيل السابي الاصحاح ١٤ ، الآلة ٢ ، فاموس الكتاب المقدس (٥٢٢/١) .

٥ القسطلاني ، إرشاد الساري (١٦١/٢) .

٦ فاموس الكتاب المقدس (٦١٩/١) .

ويقال لها (غدירתان) . وكل عقيصة غديرة . قال امرؤ القيس :

غداثه مستشزرات الى العلى تفضل العقاصي في مثنى ومرسل^١

ولما قدم (ضيمام بن ثعلبة) من (بني سعد) على الرسول ، كان رجلاً جلدأ أشعر ذا غديرتين . فلما ولى قال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين^٢ . ويقال لها (القرنين) كذلك . والعرب تسمي الخصلة من الشعر القرن . والقرن الذؤابة عامة . ومنه : الروم ذات القرون ، لطول ذوائبهم^٣ .

وهم مثل غيرهم من الناس يعتبرون الشعر الأشيب أكليلاً مجد للشيخ ، والشعر الأبيض رمزاً للحكمة والجلالة^٤ . وذلك بسبب ان تقدم العمر بالإنسان يكسبه خبرة وحكمة ، لما يراه في حياته من تجارب وعظات . لذلك أقاموا للسن وزناً كبيراً في أخذ الرأي وفي التقدم في الدخول وفي الجلوس في المجالس .

ولم يكن شيوخ الجاهلية وشيبيها أقل عناية بمظهرهم وبمراهم من شيوخ هذا اليوم وشيبيه ، فحاولوا ما قدروا لإخفاء شبيهم وإطفاء لعب الزمان بشعرهم وبأوجههم بمختلف الوسائل والسبل ، ومنها إخفاء الشيب بصيغه وباستعمال الخضاب ، وبعضه أسود ، كما خضبوا بالعِظْم وبالحناء^٥ . وصبغوا لحاهم . ولم يهملوا العيون ، فاكتحلوا لتظهر براقه مؤثرة . ولا تزال « الوسمة » ، وهي خضاب أسود معروف ، ويستعملها بعض الناس اليوم .

وذكر بعض علماء اللغة ان الخضاب ، إخفاء الشيب بالحناء ، واذا كان بغير الحناء قيل : صبغ شعره ، ولا يقال خضبه . وذكر آخر ان أول من خضب بالسواد من العرب (عبد المطلب)^٦ . وقد تعلمه من أهل اليمن . إذ كان قد زارهم فوجد شبيبتهم يخضبون شعورهم بالسواد ، فأعطوه خضاباً ، فجاء الى مكة ، وعنه شاع الخضاب بين أهلها .

١ تاج العروس (٤٤١/٣) ، (عدر) .

٢ الطبري ١٢٤/٣ وما بعدها) ، (فدوم ضمام بن ثعلبة وافدا عن بنى سعد) .

٣ تاج العروس (٣٠٧/٩) ، (قرن) .

٤ دانيال ، الاضطاح السابع ، الآية ٩ ، فاموس الكتاب المقدس (٦١٩/١) .

٥ المعرب (ص ١٦) ، تاج العروس (٢٣٦/١) ، (خضب) .

٦ تاج العروس (٣٦٦/٢) ، (الكويت) ، (خضب) .

وقد استعملوا الزعفران في صبغ لحاهم وشعورهم . واستعملوا لون الزعفران في صبغ ثيابهم أيضاً . وذلك لغلاء ثمن (الزعفران) الطبيعي . كما استعمل (العصفور) في الصبغ ، وهو من نبات ينبت في جزيرة العرب ، اذا صبغ الثوب به قيل : عصفور الثوب به ^١ . كما استعملوا (الكتم) في تخضيب الشعر . وهو نبت يخلط بالحناء ويخضب بالشعر فيبقى لونه . وقد أشار اليه (أمية بن ابي الصلت) بقوله :

وسودت شمسهم اذا طلعت بالجلب هفأ كأنه كتم

والمكتومة : دهن من أدهان العرب أحمر . يجعل فيه الزعفران أو الكتم . وطبخوا الكتم بالماء واستخرجوا منه مداداً للكتابة ^٢ .

ويكون الخضاب بالحناء ، كما يكون بالحناء والكتم كما ذكرت ، وقد يكون بالحناء والوسمة . وتجعل الوسمة الشعر أسود فاحماً . وكل هذه من النباتات التي تنبت في الحجاز وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد استعملوا (السواد) ويكون بالوسمة في الغالب لتسويد شعر الجارية والمرأة الكبيرة والشيخ للغش والتدليس ، حتى اذا جاء سيد لشراء جارية ظن أن شعرها على هذه الصورة من السواد ، أو جاء رجل يطلب المرأة الكبيرة ظن أنها أصغر من عمرها ، أو عرض الرجل الشيخ نفسه للزواج ، ظهر أصغر من عمره . ونظراً الى ما في هذا العمل من غش نهي عنه في الاسلام ^٣ .

وخوفاً من أن يقمّلوا لبثوا شعر رؤوسهم بالخطمي والصمغ . وقد عرف من يفعل ذلك بـ (الملبد) . وقيل : ان « الملبد » المحرم ، الذي لبد شعره حتى لا يقمّل ، اذا دخله الغبار بعد العرق ^٤ . وقد كان القمل قد عشن في آباط كثير من الناس ، لا سيما الفقراء والاعراب منهم . وفي شعر رؤوسهم وفي المواضع المشعرة من أجسامهم ، نظراً لسوء وضعهم من الناحية الاقتصادية وفقيرهم : وعدم تمكنهم من غسل أجسامهم . وقد أشير الى القمل والتليد في الشعر . ذكر أن القمل

- ١ ناج العروس (٤٠٨/٣) ، (عصفور) .
- ٢ ناج العروس (٣٩/٩) ، (كتم) ، (٩٣/٩) ، (وسم) ، العهد الجديد (٤٩/٣) .
- ٣ ابن فبم الحورية ، راد المعاد (١٨٣/٣) وما بعدها .
- ٤ المعاني الكبير (٤٢٦/١) ، ناج العروس (٤٩١/٢) ، (لد) .

كان يتهافت من رأس (كعب بن عجرة بن عدي) على وجهه ، وكان محرماً ، فرآه الرسول ، فأمره أن يخلق رأسه وأن يطعم فرقاً بين ستة مساكين^١ . وذكر أن التليد ، أن يأخذ شيئاً من خطمي وآسٍ وسدر ، وشيئاً من صمغ ، فيجعله في أصول شعره وعلى رأسه ، كي يتلبد شعره ولا يعرق ويدخله الغبار ، فيختم^٢ ويقمل^٣ .

وتطيب الرجال بالطيب ، ودهنوا شعورهم بالدهن المطيب . وكانوا يتطيّبون إذا ذهبوا الى زيارة بيت ، وفي المجتمعات العامة كالمواسم والأفراح . وللرجال طيب يختلف عن طيب النساء .

وقد يرقن الرجل كما ترقن المرأة بالحناء وبالزعفران . يقال : أرقن الرجل لحيته ورقنها ، أي خضبها بالحناء وبالزعفران . قال الشاعر :

ومسمعة اذا ما شئت غنت مضمخة الترائب بالرقان^٤

والرقان والرقون الحناء والزعفران .

ويكثر العرب من حمل (العصا) معهم . اذ هي ضرورة بالنسبة لحياتهم . يستعينون بها في طرد الكلاب عنهم ، ورد الحيوانات المتوحشة التي قد تصادفهم ، كما يستعملونها في ضرب إبلهم حتى تطيع أوامرهم . حتى أنهم جعلوا العصا رمزاً لأمر عديدة . منها الطاعة والجماعة . ومنها (شق العصا) بمعنى مخالفة الجماعة . والعصا الجماعة . ومنها (القى المسافر عصاه) ، أي بلغ موضعه وأقام . وضرب مثلاً لكل من وافقه شيء فأقام عليه . ومنها (هو لين العصا) ، أي رقيق لين حسن السياسة ، و (هو ضعيف العصا) ، أي قليل ضرب الإبل . و (إن العصا من العصية) ، يقال ذلك اذا شُبه بأبيه ، أي : إن بعض الأمر من بعض^٥ .

كما حملوا القضب ، وهي من علائم السلطة والقوة والحكم والنفوذ عندهم . وقد ورد في خبر ارسال رسول الله (عباس بن أبي ربيعة المخزومي) الى

- ١ الحيوان (٣٧٧/٥) ، (هارون) .
- ٢ المصدر نفسه .
- ٣ ناج العروس (٢١٨/٩) ، (رفن) .
- ٤ ناج العروس (٢٤٤/١٠) وما بعدها ، (عصا) .

(الحارث) و (مسروح) و (نعيم) بني عبد كلال من حمير ، انهم . كانوا يحملون قضباً معهم . وهي من الأثل : قضيب ملمع بياض وصفرة وقضيب ذو عَجَر وكأنه خيزران ، وقضيب أسود بهيم كأنه من ساسم^١ . وكان أحدهم اذا جلس وفكر في أمره ، أو أراد الاجابة على سؤال يحتاج الى عمل روية تَنكَسَتْ الارض بالقضيب الذي يحمله بيده .

المرأة :

والمرأة في المحيط البدوي أنشط وأكثر عملاً من الرجل ؛ فعليها تهيئة الطعام وحلب النياق وغسل الملابس وغزل الصوف والوبر ، والعناية بالأطفال وتحضير مادة الوقود ، الى غير ذلك من أعمال لا يقوم بها الرجل ، لأنها من عمل المرأة ، ولا يليق بالرجل القيام بها .

ولم نقرأ في كتب اهل الاخبار ما يفيد سيادة النساء على القبائل ، في الجاهلية القريبة من الاسلام . ولم نقرأ في المسند ما يفيد بوجود ملكات حكمين اليمن . بينما قرأنا في الكتابات الآشورية وجود ملكات عرييات حكمين قبائل عربية ، كانت تنزل البوادي من بادية الشام . ووقفنا أيضاً على حكم الملكة (الزباء) لتدمير وذلك بعد الميلاد . ولكننا نقرأ في أخبار أهل الاخبار أخبار كاهنات ، كانت لهن مراكز خطيرة عند القبائل . وكذلك أخبار حاكمات حكمين فيما بين الناس في الحصومات . وقد كان منهن من يقرأ ويكتب كما سنرى فيما بعد .

وللمرأة الشريفة ذات السؤدد حظ في المجتمع لا يدانيه حظ المرأة الحرة الفقيرة . فسؤددها حماية لها ودرع يصونها . من الغض من منزلتها ومكانتها . وأسرتها قوة لها ، تمنع زوجها من اذلالها أو الحاق أي أذى بها ، وهي نفسها فخورة على غيرها لأنها من الأسر الكريمة . والعادة بالطبع أن الأسر الكريمة لا تزوج بناتها الا من أسر كريمة موازية لها في المنزلة والشرف . من ذلك قولهم : (استنكح العقائل ، اذا نكح النجيات)^٢ .

حال المرأة في الجاهلية :

وقد اختلف حال المرأة في الجاهلية عن حالها في الاسلام ، بسبب تغير الأحوال

١ ابن سعد (٢٨٢/١) وما بعدها .

٢ نكح العروس (٤١/٩) ، (كرم) .

وتبدل الظروف . (فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلته ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا في المناسمة والمثافنة ، ويسمى المولع بذلك من الرجال الزَّير ، المشتق من الزيارة . وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر اذا أمنوا المكر) ^١ . (فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء ، في الجاهلية والاسلام ، حتى ضرب الحجاب على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة) ^٢ . (ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهلية ، ولا حراماً في الاسلام) ^٣ .

وما نراه اليوم من اعتكاف النساء في بيوتهن ومن عدم اختلاطهن بالرجال ومن التشدد في الحجاب وأمثال ذلك ، هو بين أهل الحضر خاصة . وقد كان هذا التحفظ معروفاً نوعاً ما عند أهل الحواضر والقرى في الجاهلية ، الا أن التزمّت والنشدت في وجوب ابتعاد الرجل عن المرأة وانفصالها بعضها عن بعض انما نشأ في الاسلام ، بسبب تغير الظروف واختلاط العرب بالأعاجم ، وظهور حالات جعلت العوائل الكبيرة تحرص على حصر المرأة في بيتها . أما في البادية فإن المرأة لا تزال تشارك الرجل في أعماله وتجالسه وتكلمه ولو كان غريباً عنها ، لأن محيط البادية محيط بعيد عن مواطن الريّة والشبهات ، وينشأ البنات والأولاد فيه سوية ، ويلعبون سوية ويشبّون سوية ، ولذلك لم تنشأ عندهم القيود والحدود التي تفصل بين المرأة والرجل . وقد كان حال المرأة الأعرابية على هذه الحال في الجاهلية .

وقد عرفت المرأة بالكيد بين الجاهليين . ونظروا اليها نظرهم الى الشيطان . وليست هذه النظرة العربية الى المرأة هي نظرة خاصة بالجاهليين ، بل هي نظرة عامة نجدها عند غيرهم أيضاً . بل هي وجهة نظر الرجل بالنسبة للمرأة في كل العالم في ذلك الوقت . وهي نظرة نجدها عند الحضر بدرجة خاصة ، لما لمحيط الحضر من خصائص التجمع والتكتل ، والتصاق البيوت بعضها ببعض ، ولما لهم من حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وقد تجبر المرأة على دس أنفها ، والاتصال بالغرباء ، فنشأ من ثمّ هذا الرأي بين أهل الحضر أكثر من الاعراب .

١ كتاب الفيان ، من رسائل الجاحظ (١٤٨/٢) ، (تحقيق عبد السلام هارون)

٢ كتاب الفيان (١٤٩/٢) .

٣ كتاب الفيان (١٤٩/٢) .

وعرفت المرأة عندهم بالمكر والخديعة . إذ كان في وسعها استلراج الرجل والمكر به . وهم يتمثلون بمكر (الزبّاء) . واستلراجها (جذعة الأبرش) إليها ، ثم فتكها به . على نحو ما ورد من قصص عنها في كتب أهل الأخبار . غير أنهم يروون في الوقت نفسه قصة (قصير) معها ، وكيف تمكن من الأخذ بثأره منها ، في حيلة ومكر ومكيّدة ، حتى فتك بها في قصة من قصص المكر والخديعة ، ضرب بها المثل ^١ . وُعدّت المرأة كالحية في المكر .

ونظر الرجل الى رأي المرأة على ان فيه وهناً وضعفاً وانه دون رأيه بكثير ، وتصور ان مقاييس الحكم عندها ، دون مقاييسه في الدقة والضبط ، ولهذا رأى العرب ان من الحق الأخذ برأي المرأة . فكانوا اذا أرادوا ضرب المثل بضعف رأي وخطئه قالوا عنه : (رأي النساء) ^٢ و (رأي نساء) وقالوا : شاوروهن وخالفوهن ، لما عرف عن المرأة من تأثير بأحكام العاطفة عندها . حتى ذهب البعض الى عدم وجود رأي للمرأة ، ولهذا قالوا : يقال للرجل (الفند) إذا خرف وخف عقله لهرم أو مرض ، وقد يستعمل في غير الكبر وأصله في الكبر . ولا يقال (عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي أبداً فتفند في كبرها . وفي الكشف : ولذا لم يقل للمرأة مفندة لأنها لا رأي لها حتى يضعف . قال شيخنا : ولا وجه لقول السمين انه غريب ، فإنه منقول عن أهل اللغة . ثم قال : ولعل وجهه أن لها عقلاً وإن كان نافصلاً يشتد نقصه بكبر السن) ^٣ .

ويكني العرب عن المرأة ب (الدُّمية) . والدُّمية الصنم . وقيل : الصورة المنقشة : العاج ونحوه . وقيل هي الصورة . وفول الشاعر :

والبيض يرفلن في الدُّمى والريط والمذهب المصون

يعني ثياباً فيها تصاوير ^٤ .

ويقال للمرأة البديئة القليلة الحياء (العنفص) . وقال بعض علماء اللغة انها

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣١١) ، المبدائي (٢٧٢/٢) ، ناج العروس (٢٣٧/١) ، (خطب) .

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٦) .

٣ ناج العروس (٤٥٤/٢) ، (فند) .

٤ اللسان (٢٧١/١٤) ، (دمي) .

المرأة القليلة الجسم الكثيرة الحركة . أو الداعرة الخبيثة . وقيل هي القصيرة المختالة المعجبة . أو المرأة الكثيرة الكلام ، وهي المنتنة الريح^١ . وقد ذمت المرأة (الهامة) ، والبذينة التي تشتم الناس وتنطق بالبذاء . والسليطة اللسان التي تتناول على الناس ، ولا تبالي أحداً . وقد كان بعض الناس يحرضون أمثال هؤلاء النسوة لاهانة كرام الناس والتحرش بهم ، لما يعرفونه من ان في طبع الرجل الكريم عدم الرد على المرأة رداً قبيحاً والتعرض لها بسوء .

وتشائموا من بعض النسوة . وقالوا : (امرأة مشؤومة) ، و (عقرى حلقى) ، أي عقرها الله وحلقها ، بمعنى حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها ، أو أسها تعقر قومها وتحلقهم بشؤمها وتستأصلهم^٢ . وقد كانوا يطلقونها إذا تشاءم الزوج أو أهله منها ، لاعتقادهم الشديد بالشؤم . وتشاءموا من الفرس الأشقر ومن عتبة الباب ، ومن أشياء أخرى سأحدث عنها في موضوع التفاؤل والتشاؤم عند العرب . وجمال المرأة في حلاوة العينين ، وفي جمال الأنف ، والملاحة في الفم . قال الشاعر :

خزاعية الأطراف مرية الحشا فزارية العينين طائية الفم^٣

المرأة القبيحة :

وذكر بعض علماء اللغة ان العرب تصف بـ (السعلاة) العجائز والخييل . وقيل السعالي : النساء الصخابات البذنيات ، والمرأة القبيحة الوجه السيئة الخلق . ومن ذلك قول الأعشى :

ونساء كأنهن السعالي^٤ .

والعرب تكني عن المرأة بالعتبة والنعل والقارورة والبيت والدمية والغل والقيد والريحانة والقوصرة والشاة والنعجة^٥ .

- ١ تاج العروس (٤١٠/٤) ، (العنفص)
- ٢ تاج العروس (٤١٥/٣) ، (عقر) .
- ٣ الدينوري ، عيون الأخبار (٢٧/٤) ، (كتاب النساء) .
- ٤ تاج العروس (٣٧٦/٧) ، (سعل) .
- ٥ تاج العروس (٣٦٤/١) ، (عتب) .

وما قلته يمثل الفكرة العامة عن المرأة بين سواد الناس . غير ان هناك نسوة اشتهرن بالعقل والحكمة عند الجاهليين . وكنّ مرجعاً للرجال في أخذ الرأي . حتى ان منهن من تولين أمر الحكومات ، وقد سبق ان ذكرت فيما مضى ان قبائل بادية الشام كانت تحت حكم ملكات في أيام الآشوريين . ومنهن الملكات (شمس) و (زيبية) . كما أشرت الى الملكة (الزباء) . فلم يجد العرب قبل الميلاد ولا بعده غضاضة من تعيين النساء ملكات عليهم . وقد كن يصاحبن الرجال الى القتال لإثارة همهم عند اشتداد المعارك ولمداواة الجرحى ، وحمل الماء الى العطشى من المقاتلين . وقد كانت (ربيعة) تداوي جرحى المسلمين في مسجد الرسول بيثرب^١ . وكانت (زينب) طبيبة (بني أود) تعالج المرضى وحازت على شهرة بين العرب^٢ .

حتى الشعر ، برزت به شاعرات . مثل الخنساء ، وخرنق ، وجليلة ، وكبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وغيرهن . ومنهن من حكمن بين الشعراء المتنافسين في تفضيل شعر شاعر على شعر شاعر آخر . وكان من بينهن كاتبات ومتاجرات الى غير ذلك من حقول الأعمال التي تحتاج الى عقل وذكاء .

زينة المرأة :

والمرأة الحضرية أكثر تفتناً واعتناءً بنفسها من الأعرابية ، بسبب اختلاف المحيط والوضع الاقتصادي . ولها من أمور الزينة ما لا تعرفه الأعرابيات ، من وسائل تجميل وتحلية جسم وملبس . ولا سيما النساء الغنيات القريبات من مواطن الأعاجم . فقد تأثرن بالأعجميات وأخذن منهن ما راق لهن من ملبس وزينة وطيب وحلية .

والعادة ان المرأة تضر شعر رأسها ضفائر وغدائر ، أما الرجال فيتخذون لهم ضفيرتين ، تتدليان على طرفي الوجه الى المنكبين^٣ . ويقال للصفيرة :

١ نهاية الأرب (١٩١/١٧) .

٢ جرجي زبدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٤٠/١) ، (١٩٥٧ م) .

٣ ناح العروس (٣٥٢/٣) ، (صفر) .

العقيصة . وذكر ن (العقيصة) الذؤابة . وذكر بعض علماء اللغة ان كل عقيصة غديرة . والغديرتان الذؤابتان تسقطان على الصدر . وقيل الغدائر للنساء ، وهي المصفورة . والصفائر الرجال ^١ . وقيل العقص القتل ، أي قتل الشعر ، وهو ان يلوى الشعر حتى يبقى ليته ثم يرسل . وذكر بعض علماء اللغة ان العقص ان تأخذ المرأة كل خصلة من شعر فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها ، فكل خصلة عقيصة . وقد عرف (ضمام بن ثعلبة) أحد بني سعد بن بكر ب (ذي العقيصتين) ، وكان أشعر ذا غديرتين . وكان خصل شعره عقيصتين وارخاهما من جانبيه . وهو من الصحابة ^٢ .

ويعدّ شعر المرأة من أثمن الأشياء عندها لئلا تتركه وتحتفظ به ، وتسعى لاثارته وتنشيطه ، وهي لا تحلقه إلا إذا نزلت بها نازلة ، مثل موت زوجها أو عزيز آخر عليها ، ويعدّ ذلك غاية في التفضحية وفي اظهار حزنها على رجلها الراحل العزيز ^٣ . فإذا مات عزيز حلفت المرأة شعرها وذرت التراب أو الرماد على رأسها ، اظهاراً لشدة ألمها وحزنها على ميتها . ويقال لها (الحالقة) . وقد لعن الرسول من النساء الحالقة والصالقة والحارقة . والخالقة التي تحلق شعرها في المصيبة ^٤ . وقد ضرب بها المثل في الشؤم . لأن من عادة الناس في الجاهلية انهم إذا أصيبوا بمصيبة حلفت النساء شعورهن . وإلى ذلك أشير في شعر النساء :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق

وأصل ذلك ان المرأة كانت إذا أصيب لها كريم حلفت رأسها وأخذت نعلين تضرب بهما رأسها وتعفره . وفي هذا المعنى جاء في الشعر :

ألا قومي أولو عقرى وحلقى لما لاقت سلامان بن غنم

ولهذا السبب اعتبرت الحالقة علامة من علامات الشؤم ونذيراً من نذر الفاقة

١ قال امرؤ القيس :

غدائره مسشدرات الى العلى بضل العقاص في منى ومرسل

تاج العروس (٤٤١/٣) ، (غدر) .

٢ تاج العروس (٤٠٨/٤) ، (عقص) .

٣ Hastings, A Dictionary of the Bible, II, p. 283

٤ تاج العروس (٣٢٠/٦) ، (حلق) .

بضرب بها المثل . وفي الحديث : (دبّ اليكم داء الأمم : البغضاء والحالقة) .
(هي قطيعة الرحم والتظالم والقول السيء) ^١ .

ويسرح الشعر بـ (المشط) . وقد عرفه الجاهليون ، وهو من آلات التجميل القديمة . . وقد أشير إليه في الحديث . كما أشير إليه في الشعر . ورد قول عبد الرحمن بن حسان :

قد كنت أغني ذي غنى عنكم كما أغنى الرجال عن المشاط الأقرع ^٢
وتمشط شعر العرائس (الماشطة) ، فتقوم بترجيله وتجميله لخبرتها فيه ^٣ .
ويكون المشط من خشب في الغالب ، وقد يعمل من ذهب أو فضة أو من معدن آخر ، وقد يتخذ من (العاج) .

وتغسل المرأة رأسها بطينٍ وأشنان وخطمي ونحوه لتنظيفه . وقد تغتسل بالطيب ، وذلك بالنسبة للغنيات . وإذا انتهت من غسله استعملت (الغسلة) ^٤ ، وهو ما تجعله المرأة في شعرها عند الامتشاط من طيب وورق الآس يطرى بأفأويه من الطيب ويمشط به ^٥ . والطين أنواع ، يختلف باختلاف طبقات الأرض . واجوده الحرّ النقي الخالص بعد رسوب الماء ، ويستعمل في تنظيف الشعر .

وقد كانت القبائل إذا أرادت الصبر في القتال ، والوقوف في الحرب الى النهاية وحتى النصر ، حلقت نساؤها شعورهن ، لبث الشجاعة في نفوس المقاتلين وإذكاء نار الشجاعة فيهم . وذكر ان (يوم تملأق اللّسم) ، إنما سمي بذلك ، لأن شعارهم كان الحلق . وكان لتغلب على بكر بن وائل ^٦ .

وتجملت المرأة الجاهلية وتزينت على قدر حالها وامكانها ، لتظهر بذلك جاهلها وأنوثتها على سنة الطبيعة ، وعلى عادة المرأة بل والانسان : رجلاً كان أو امرأة

-
- ١ تاج العروس (٣٢٠/٦) ، (حلق) .
 - ٢ قد كنت أحسبني عباً عنكم
ان الغني عن المشط الأقرع
 - ٣ تاج العروس (٢٢٣/٥) ، (مشط) . اللسان (٤٠٣/٧) .
 - ٤ تاج العروس (٢٢٤/٥) ، (مشط)
بالكسر
 - ٥ تاج العروس (٤٥/٨) ، (غسل)
 - ٦ تاج العروس (٣٢٠/٦) ، (حلق) .

في كل وقت وزمان ، من حبه في إظهار الزينة وحسن المظهر . جمّلت نفسها بالاعتناء بالنظافة وبالثياب وبالحلية ، كالخلخال والسوارين والخاتم والقُلبين والقلب والفتحة والمسكة والقرطين والقلائد الأخرى ، وبالتجميل بالكحل وبالمساحيق التي توضع على الوجه والدهن الذي يدهن به الشعر ونخضاب الكف والقدم ، وبالوشم وما شاكل ذلك من أمور تجميل وتحلية كانت معروفة في ذلك العهد .

ومن وسائل الزينة : الوشم . غرز إبرة ونحوها في عضو حتى يسيل الدم ثم يحشى بنؤور أو بالكحل أو بالنيلج أو نحوها فيزرق أثره أو يخضر^١ . وكانوا يقصدون بذلك التزين فينقشون به غالب أبدانهم ، أنواعاً من النقوش من صور حيوانات أو نبات أو صور انسان وكذلك الشفاه ، فترى غالب شفاه نسائهم زرقاً . والأطفال منهم يوشمون في بعض المحال من وجوههم لقصد الزينة . وكذلك الرجال . وذكر ان الرسول قد نهى عن ذلك في حديث : لعن الله الواشمة . أو لعن الله الواشمة والمستوشمة^٢ .

وكانوا يعتنون بتجميل حواجبهم وإزالة الشعر من وجوههم بـ (الناص) وهو (المنقاش) . وعرفت مزينة النساء بـ (النامصة) . وهي مزينة بالنمص . وذكر ان النمص نتف الشعر . وان المشط ينمص الشعر وكذلك المحسنة لأن لها أسناناً كأسنان المشط . ويقال ان الناص مختص بإزالة الشعر من الحاجبين ليرققها أو ليسويهما . وفي الحديث : لعنت النامضة والمتنمصة^٣ .

وعنوا بالأسنان فاستعملوا المبرد لبرد ما بين الثنايا والرابعيات ، لتجميلها . وقد لعنت المتفلجات في الحديث . والمتفلجات جمع متفلجة التي تفلج بين الأسنان^٤ . وعنوا بتبييض الأسنان باستخدام (المسواك) ، وهو ما يدلك به الفم . ويكون من عيدان بعض الأشجار ذات الرائحة الطيبة . وقد أشير إليه في الحديث^٥ .

- ١ تاج العروس (٩٤/٩) ، (وشم) .
- ٢ تاج العروس (٩٤/٩) ، (وشم) ، بلوغ الأرب (١٠/٣) وما بعدها .
- ٣ تاج العروس (٤٤٣/٤) ، (نمص) ، بلوغ الأرب (١١/٣) .
- ٤ بلوغ الأرب (١١/٣) .
- ٥ تاج العروس (١٤٦/٧) ، (سوك) .

ويقص الشعر والظفر بالمقص ، أي المقراض وهما مقصان^١ . يقص به الرجل شعره ، كما تقص به المرأة . وتتخذ المرأة (القصبة) في مقدم رأسها تقص ناصيتها ما عدا جبينها^٢ .

وذكر ان من نساء الجاهلية من كنّ يقمحن لثَّهن بـ (النور) ، حصة كلِّممد تدق فتسفعها اللثة . وكن يتسمن بـ (الثور) . وهو دخان الشحم أو دخان الفتيلة ، يتخذ كحلاً أو وشماً ، وخصصه بعضهم بالوشم^٣ .

ولم تنس المرأة الجاهلية زينتها ، فزينت نفسها بـ (الحلي) من ذهب وفضة ومعادن أخرى ومن أحجار كريمة وأحجار تلفت النظر وبالعظام أيضاً وبالخرز . ومن الحلي (الأساور) المصنوعة من الذهب ، بالنسبة الى المرأة الموسرة ، والحلي المطعمة باللؤلؤ . ومن الحلي ؛ ما يزين به الرأس والعنق ، ومنه ما يزين به الأيدي أو الأرجل^٤ . وسأحدث عنها في القسم الخاص بالحرف ، بشيء من التفصيل .

و (الكرم) : القلادة . وقيل هي القلادة من الذهب والفضة ، وقيل تكون من لؤلؤ أيضاً^٥ .

ويضفر شعر رأس الأطفال ذوائب ، أي ضفائر تتدلى على رأسه وعلى ناصيته . ومتى كبر الطفل وبلغ سنّ الرشيد ، أو شعر برجولته ، ضفرت له ذؤابتان ، وهي علامة الشباب والرجولة عندهم . وقد كان الساميون يحتفلون بحلق الذوائب ، لأن هذا الحلق معناه إنتهاء مرحلة من الحياة ودخول الطفل مرحلة الرجولة ، وهي مرحلة الحياة الصحيحة . وكانوا يرمون الذوائب أمام الأصنام . والعادة انهم يصفرون للأطفال سبع ضفائر . وهي عادة معروفة عند الجاهليين أيضاً ، ولا تزال متبعة عند الأعراب وأشباه الحضرة . وقد يعلقون حلياً على

١ تاج العروس (٤٢٢/٤) ، (فصوص)

٢ تاج العروس (٤٢٣/٤٠) ، (فصوص) .

٣ تاج العروس (٥٨٩/٣) ، (نور) .

٤ تاج العروس (٩٧/١٠) ، (حلي) .

٥ تاج العروس (٤٢/٩) ، (كرم) .

كل ضفيرة ، وذلك إمعاناً منهم في تدليل الطفل وفي إراءة جماله . فالزينة وتعليق الحلي من مظاهر التدليل والتجميل .

نساء شهيرات :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نساء ذكروا أنهن عشن في الجاهلية . منهن : صحر بنت لقمان بن عاد . وكان أبوها لقمان وأخوها لقيم خرجا مغيرين ، فأصابا إبلاً كثيرة فسبق لقيم إلى منزله ، وعمدت صحر إلى بعض ما جاء به لقيم ، فصنعت منه طعاماً يكون معداً لأبيها لقمان إذا قدم ، وقد كان لقمان حسد لقيماً في تبريزه عليه ، فلما قدمت صحر إليه الطعام وعلم أنه من غنيمة لقيم ، لطمها لكمة قضت عليها ، فصارت عقوبتها مثلاً لكل من لا ذنب له ويعاقب^١ (فقيل : مالي ذنب إلا ذنب صحر) ، ولم يكن لها ذنب^٢ .

وقد حصلت (الزبَاء) على شهرة بين العرب ، ووضعوا حولها القصص . ذكروا أنها امرأة من العماليق ، وأمها من الروم . وكانت تغزو بالجيوش ، وهي التي غزت مارداً والأبلى فاستعصيا عليها ، فقالت : تمرد مارداً وعز الأبلى ، فذهبت مثلاً . ويروي أهل الأخبار لها أمثلة أخرى^٣ . ورموها بالغدر ، فقالوا : (قال عدي بن زيد يذكر قصة جذيمة الأبرش لخطبة الزبَاء :

لخطبي التي غدرت وخانت وهن ذوات غائلة لحينا

أي لخطبة زباء . وهي امرأة غدرت بجذيمة الأبرش حين خطبها فأجابته وخاست بالعهد فقتلته^٤ .

واشتهرت (البسوس) بالبطش والشؤم حتى قالوا (شؤم البسوس) . وهي بنت منقذ التميمية ، زارت أختها أم جساس بن مرة ومع البسوس جار لها من جرّم ، يقال له سعد بن شمس ، ومعه ناقة له ، فرماها كليب وائل لما رآها

١ الثعالبى ، ثمار القلوب (٣٠٧) .

٢ ناج العروس (٣٢٧/٣) ، (صحر) .

٣ الثعالبى ، ثمار القلوب (٣١١) .

٤ ناج العروس (٢٣٧/١) ، (حطب)

في مرعى قد حماه ، فأقبلت الناقة الى صاحبها وهي ترغو وضرعها يشخب لبناً ودماً ، فلما رأى ما بها انطلق الى البسوس فأخبرها بالقصة ، فقالت : واذاً ! واغربتاه ! وأنشأت تقول أحياناً تُسمّيها العرب آيات الفناء . فسمعها ابن اختها جستاس فثار الدمُ في رأسه ، وخرج معقياً كلياً حتى وجده فطعنه طعنة قضت عليه . ووقعت الحرب بين بكر وتغلب ودامت أربعون سنة . وسار شؤم البسوس مثلاً ، ونسبت الحرب اليها لكونها سببها ، فقليل : حرب البسوس^١ . وهكذا فسر أهل الأخبار سبب وقوع حرب البسوس .

وقصّ أهل الأخبار قصة امرأة أخرى ، قالوا إن رغيّف خبز لها صار سبباً في وقوع شرّ بين حيين ، وأدى الى وقوع قتلى . حتى قيل : أشأم من رغيّف الخولاء . والخولاء خبّازة في (بي سعد بن زيد مناة) ، فمّرت وعلى رأسها كارة خبز ، فتناول رجل عن رأسها رغيّفاً ، فاشتكت الى رجل كان جاراً لها . فثار وثار معه قومه الى الرجل الذي أخذ الرغيّف وقومه فقتل بينهم ألف نفس ، وسار رغيّف الخولاء مثلاً في الشيء اليسير يجلب الخطب الكبير^٢ .

وذكر أهل الأخبار اسم امرأة أخرى اشتهرت بعطرها ، حتى ضرب به المثل ، فقليل : (عطر منشم) . ولهم أقوال في سبب ضرب هذا المثل . وخلصتها ان (منشم) امرأة عطارة تبيع الطيب ، فكانوا إذا قصدوا حرباً غمّسوا أيديهم في طيبها ، وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا ، فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس : قد دقوا بينهم عطر منشم ، فلما كثر هذا القول صار مثلاً . فمن تمثّل به زهير حيث قال :

تداركنا عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم^٣

واختار أهل الأخبار من بين النساء امرأة جعلوها مثلاً للحمق ، حتى قالوا : (حمق دغه) . وهي دغة بنت منعج . روي لها حماقات كثيرة . وجعلوها مثلاً

١ التعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٧ وما بعدها) ، المبدائي ، الأمثال (٣٧٢/١) .

٢ التعالبي ، ثمار (٣١٠) .

٣ التعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٨ وما بعدها) ، ديوان زهير (١٥) ، اس فيبه ، المعارف (٦١٣) .

سائراً بين الناس في الحق^١ .

وضرب المثل بـ (أم خارجة) في السرعة ، فقال أسرع من نكاح أم خارجة . وهي (عمرة بنت سعد بن عبد الله بن بجيلة) . كان يأتيها الخاطب فيقول : خطب ، فتقول : نكح . ولدت أم خارجة في نيف وعشرين حياً من آباء متفرقين ، وكانت إذا تزوج منها الرجل فأصبحت عنده كان أمرها إليها ، إن شاءت أقامت ، وإن شاءت ذهبت ، وكانت علامة ارتضاؤها للزوج ان تصنع له طعاماً كلما تصبح^٢ .

وضربوا المثل بـ (عز أم قرفة) ، فمن أمثالهم إذا أرادوا العزّ والمنعة قالوا : انه لأمنع من أم قرفة . وهي بنت (مالك بن حذيفة بن بدر) : وكان يحرس بيتها حمون سيفاً بخمسين فارساً ، كلهم لها محرم^٣ .

كما ضربوا المثل بـ (برد العجوز) . ولهم قصص في سبب ضربه . وهم متفقون على أن المثل جاهلي ، وليس بإسلامي . ذكر بعضهم ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها برد يقع في أواخر الشتاء وأوائل الربيع ، فبسوء أثره على المواشي ، فقالوا : هذا برد العجوز ، يعني العجوز الذي أنزلت به . وذكر بعض آخر ؛ أن عجوزاً كانت بالجاهلية ولها ثمانية بنين فسألتهم ان يزوّجوها ، وألحت عليهم ، فتأمروا بينهم ، وقالوا لها : إن كنت تزعمين أنك شابة فابري للهواء ثمان ليال ، فإننا نزوجك بعدها ، فوعدت بذلك ، وتعرضت تلك الليلة والزمان شتاء كلب ، وبرزت للهواء ، وبقيت تفعل ذلك سبع ليال ، ثم ماتت في الليلة السابعة . فضرب بها المثل : وقيل برد العجوز^٤ .

أهل الحضر :

وما ذكرته يتناول حياة الاعراب ، وحياتهم الاجتماعية هي حياة أخرى تختلف

١ الثعالبى ، ثمار القلوب (٣٠٩)

٢ الثعالبى ، ثمار (٣١١ وما بعدها) .

٣ الثعالبى ، ثمار (٣١٠ وما بعدها) .

٤ الثعالبى ، ثمار (٣١٣ وما بعدها) .

عن حياة أهل الحضرة . ففي حياة الحضرة تجمع وتكتل . وإذا تجمع الإنسان وتكتل في موضع وكوّن جماعة ، ظهرت عنده خلال ، لا يمكن ظهورها عند الاعراب . تتسع وتكبر كلما بعدت الشقة بين البداوة والحضارة . لذا فإن بين حياة أهل الحيرة أو يثرب أو مكة أو المستوطنات الحضرية الأخرى المنتشرة في جزيرة العرب وبين حياة أهل البادية فروقاً كبيرة ، تختلف في الدرجة والسدة ، بدرجة تكاثف السكّان في المستوطنة الحضرية ، وبدرجة قربها أو بعدها من الأعاجم ، وبدرجة اتصالها بالعالم الخارجي . فالمستوطنات التي تقع على سواحل البحر يكون لها اتصال خاص بالعالم الخارجي ، لا يمكن أن يتوفر لأهل البواطن ، ويؤدي هذا الاتصال الى التلاحم في الأفكار والى الاختلاط والامتزاج والى توسع أفق أهل الساحل بالنسبة الى من وراءهم في الباطن ، بسبب هذا الاختلاط في الموقع .

لقد تأثر أهل الحواضر من عرب العراق بأخلاق أهل النبط وغيرهم من أهل العراق ، حتى بان ذلك على لسانهم وعلى طراز معاشهم كما بان ذلك على عرب بلاد الشام لاختلاطهم بالروم وبأهل بلاد الشام . فعرفوا عنهم أكل الأعاجم وأحبوا غناء الفرس وغناء الروم . ودخل من دخل منهم في النصرانية . وقلّد ملوك الحيرة ملوك الفرس في بعض شؤون حياتهم ، وتشبه ملوك عرب الشام بملوك الروم ، حتى في أمور دينهم حيث اعتنقوا النصرانية ، وجاؤوا الى قصورهم بقيان يغنين بغناء الروم وبقيان يغنين بغناء الفرس . وزار سادات عرب العراق (المدائن) ، ووقفوا على حياتها ؛ وعاش سادات عرب الشام بدمشق وبمصر بلاد الشام الأخرى ، وجلبوا الى قصورهم وبيوتهم شيئاً مما أعجبهم ونال حبهم . فصارت حياتهم من ثم حياة تختلف عن حياة الاعراب من هذه النواحي .

وكان لأهل قرى العربية الشرقية اتصال دائم بالعراق وبسواحل الهند الغربية ، وبإيران وبالتجار الروم ، فأخذوا منهم وتأثروا بهم ، كالذي يظهر من الآثار التي عثر عليها ويعثر عليها المتقنون في مواضع العاديات . وتأثر أهل العربية الغربية بأهل بلاد الشام والعراق لما كان لهم من اتصال تجاري دائم بهم . ولما كانوا يجلبونه من هذه البلاد من رقيق . كما كان لهم ولأهل العربية الجنوبية اتصال بأهل افريقية ، سكان السواحل المقابلة لبلاد العرب ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم . ومن آيات هذا التأثير الملامح الافريقية التي ظهرت في العربية الجنوبية بصورة خاصة ، لا سيما باستيلاء الألباش مراراً على السواحل العربية المقابلة لافريقية ، وظهور جيل أخذ

من ملامح الجنسين ، نتيجة للازدواج الذي صار بين العرب والافريقيين .
ونجد أثر هذا الاختلاط في اللغة كما نجده في الغناء وفي آلات الطرب . اذ
يختلف غناء أهل سواحل جزيرة العرب عن غناء القبائل الساكنة في الباطن ، بعيدة
بعض البعد عن السواحل وعن التأثير بمؤثرات الأعاجم الذين يقصدون المواني
الساحلية للتجارة .

الزواج :

والزواج هو من أهم الافراح في حياة الانسان ، وهو ما زال وسيبقى من
أهم الافراح في حياته ، لما له من علاقة سعيدة به . ولهذا يحتفل الناس به عادة ،
بإقامة المآدب فيه وبدعوة ذوي القرابة والاصدقاء اليها لمشاركة الزوجين أفراحهما .
وقد صنف (روبرتسن سمث) زواج العرب ثلاثة أصناف : زواج يكون
في حدود القبيلة فلا يتعداه ، ولا يسمح لرجال القبيلة الا بالزواج من بنات
القبيلة نفسها ، وهو ما يسمى بـ (Endogamous) ، وزواج يفرض فيه على الرجل
أن يتزوج امرأته من قبيلة أخرى ، وهو ما يعرف بـ (Exogamous) أي
(زواج خارجي) . وزواج يجمع الطريقتين المذكورتين ، أي الزواج في داخل
القبيلة والرواج من خارجها ^١ .

ويظهر من دراسة كل ما ورد في كتب أهل الاخبار وفي كتب التفسير والحديث
عن الزواج والطلاق عند الجاهليين أن أهل الجاهلية لم يكونوا يسرون على سنة
واحدة في عرف الزواج والطلاق ، ولكن كانوا يسرون على أعراف مختلفة اختلفت
باختلاف الأماكن وباختلاف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية واتصالها بالخارج .
وقد وردت لنا مسميات بعض تلك الأنواع ، مثل (الخدن) و (المتعة)
و (البدل) و (الشغار) و (البعولة) وزواج ذوات الرايات وغير ذلك مما
ورد وصفه وشرحه ، ولكنه لم ينعت باسم معين .

وأنواع الزواج هذه ، ليست خاصة بالجاهليين ، وإنما هي معروفة عند غيرهم
أيضاً ، ولا سيما عند الشعوب السامية ، وهي مراحل مرت بها جميع البشر ، ولا

١ Kinship and Marriage, p., 60.

يزال الكثير منها قائماً في أنحاء متعددة من العالم . وهي في الغالب مرآة صافية للظروف التي يعيش فيها الناس . وبعض هذه الأنواع رضاء معيب في عرفنا ، غير أننا يجب أن نفكر دائماً ان اولئك القوم كانت لهم مقاييس دينية وخلقية خاصة بهم ، وهي سليمة صحيحة بالقياس اليهم ، وأنهم عاشوا قبل الاسلام وفي ظروف تختلف عن ظروفنا ، وأن ما نسميه عيباً لم يكن عيباً بالقياس الى المراحل التي كانوا فيها والى عرف ذلك العهد .

ويقال للرجل العزب الذي لا زوج له (الخالي) ، قال امرؤ القيس :
أَلَمْ تَرْنِي أَصْبِي ، عَلَى الْمَرْءِ عَيْرَسَهُ وَأَمْنَعُ عَيْرَسِي أَنْ يُزَنَّ بِهَا الْخَالِي^١
والرجولة عند العرب أثر بارر ، لما في طبيعة بلادهم من الحرّ وعدم وجود أمور مسئلية لديهم تصرف ذهنهم عن التفكير فيه وتلهيهم بعض الشيء عن الغريزة الجنسية . ونجد في الأدب العربي شيئاً كثيراً مما يتعلق بهذا الموضوع . وللغلمة المفرطة صار العربي مزواجاً ، يتشعب بالنساء ويتغزل ، والتشبيب من أمارات الرجولة عند الجاهليين .

ونجد في القصص المنسوب الى الجاهليين وفي شعرهم شيئاً كثيراً يتعلق بالحب : حب الرجل للمرأة ، وليس العكس ، ذلك لأن في طبع الرجل التباهي والتفاخر بحبه للنساء . أما المرأة فإن في طبعها الخجل الذي يمنعها من اظهار حبها وتعلقها برجل ما ، ثم ان المجتمع لا يسمح لها بذلك ، وهو يردعها عن أن تبوح بحبها لرجل ما ، ويعد ذلك نوعاً من الخروج على الآداب العامة وجلب العار الى البنت والى الأسرة . ويعبر عن النسب بالنساء ، أي بذكرهن في ابتداء القصائد ، ب (التشبيب) . ويعد ابتداء القصيدة بالتشبيب من العرف الجاهلي ، ويقولون ان في ذلك ترقية للشعر^٢ .

والسبب في الشعر ، التشبيب بالمرأة والتغزل بها ، وذلك في أول القصيدة ، اذا ذكرها في شعره ووصفها بالجمال والصبا ، ووصف أعضاء جسمها وغير ذلك . ثم يخرج الشاعر بعد ذلك الى المديح . ويدخل في السبب ، ووصف مراتب الأحباب ومنازلهم واشتياق المحب الى لقائهم ووصالهم وغير ذلك^٣ .

١ اللسان (٢٣٩/١٤) ، (خلا) ، ناح العروس (١١٨/١٠) ، (خلا)

٢ ناح العروس (٣٠٨/١) ، (شب) .

٣ ناح العروس (١٨٣/١) ، (نسب) .

والغزل في نظر بعض العلماء كالتشبيب والنسيب ، كلها بمعنى واحد . وهو وصف الأعضاء الظاهرة من المحبوب ، أو ذكر أيام الوصل والهجر أو نحو ذلك . وافرقت بعض آخر بينها ، بأن جعل التشبيب ذكر صفات المرأة وهو القسم الأول من النسيب ، فلا يطلق التشبيب على ذكر صفات الناسب ولا على غيره . والتغزل بمعنى النسيب ذكر الغزل . فالغزل غير التغزل ، والنسيب والغزل في رأي بعض آخر هو الأفعال والأقوال والأحوال الجارية بين المحب والمحبوب نفسها . وأما التشبيب فهو الإشادة بذكر المحبوب وصفاته واشتهار ذلك والتصريح به . وأما النسيب فذكر حال الناسب والمنسوب به والأمور الجارية بينهما . وقال بعض : الغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء^١ . وإلى غير ذلك من آراء لا صلة لها بهذا الموضوع .

والعادة أن يتغزل الرجل بامرأة فيجعلها بطله غزله . يلف ويدور في غزله حولها ويلج ويلهج بذكرها . وقد يذكر اسمها وقد لا يذكره . وهي قد تكون امرأة حقاً ، رآها الشاعر فأعجب بها ، وقد لا تكون امرأة معينة خاصة ، وإنما امرأة تخيلها ذهن الشاعر ، فصار يتغزل بها ويلهج بذكرها ويلج في اظهار وصفها وصفاتها وما قالت له وما قال لها إلى غير ذلك . وسبب ذلك هو أذواق أهل ذلك العهد ، وعاداتهم في وجوب الابتداء بالقصيدة بهذا النوع من المقدمات ، حتى يكون شعراً رقيقاً مرموقاً ، وقد أدى تغزل بعض الشعراء بنساء رجال معروفين أو بيناتهم إلى وقوعهم في مهالك . ومن أمثلة ذلك ما زعم من تغزل (النابغة الذبياني) بالمتجردة زوج الملك (النعمان بن المنذر) ، وما كان من غضب الملك عليه وتهديده له بالقتل ، مما اضطر النابغة إلى الهرب إلى الغساسنة أعداء النعمان ، ليسلم بريثه من سيد الحيرة وما ورد في قصة الشاعر (طرفة بن العبد) .

والطابع العام في هذا الغزل البراءة والعفة ونقاء الألفاظ المؤدبة ، لا يتطرق فيه الشاعر إلى ما وراء اظهار الوجد والحب والتلهف إلى زيارة معشوقته له ، أو زيارته لها ، وذكر الأيام الجميلة وأحلام الحب الصافية الخالصة القية ، وقلما نجد في الشعر الجاهلي اقذاءً وفحشاً . فالشاعر متأدب في شعره ، يعرف حدوده في الغزل فلا يتجاوزها ، لأنه يعلم حقاً أنه إذا ذكر الفحش في شعره وتعرض بامرأة معينة ، فأصابها بسوء قول ، فإنها لن تسكت عنه ، وإذا سكنت هي ، فلن يفلت من عقاب اسرتها وآلها له . وقد يكون ذلك العقاب القتل .

١ تاح العروس (٤٣/٨) ، (غزل) .

وقد ضرب العرب المثل ببعض الرجال في شدة النكاح وكثرته . ومن هؤلاء (حوثة) رجل من بني عبد القيس ، ضربت به العرب المثل في ذلك فقالت (أنكح من حوثة)^١ ، و (خوات بن جبير الأنصاري) ، وكان يأتي أحياء العرب يتطلب النساء ، فإذا سئل عن حاجته قال : قد شرد لي بعير فخرجت في طلبه . وأدرك الاسلام ، ورأى الرسول ، فقال له : ما فعل بعيرك الشرد ؟ فقال : أما منذ قيده الاسلام فلا^٢ . وكان يحسن العناء . وكان إذا رأى النساء ليس حلتة وجلس اليهن . وذكر انه (صاحب ذات النجيين)^٣ .

ويقال : (اغتلم الرجل) إذا هاج من الشهوة ، وكذلك الجارية وفي الحديث : « خير النساء الغلّمة على زوجها » . والغلّمة : شهوة الضراب ، (وفسره جماعة بالشبق واشتهاء الغلمان)^٤ . و (الشبق) شدة الغلّمة وطلب النكاح ، يقال : رجل شبق ، وامرأة شبقه^٥ . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال عرفوا بالشبق والغلّمة ، ومن هؤلاء (ابن الغز) . فذكر ان عبد الملك ابن مروان ذكر إياداً ، فقال : « هم أنخطب الناس لمكان فس ، وأسعى الناس لمكان كعب ، وأشعر الناس لمكان أبي دؤاد ، وأنكح الناس لمكان ابن الغز »^٦ .

وفي المثل : « أنكح من ابن الغز » ، وهو من بني إياد ، واسمه سعد أو عروة أو الحارث بن أشيم . وذكروا أنه كان نكاحاً عظيم الأير ، زعموا ان عروسه زفت اليه ، فأصاب رأس أيره جنبها ، فقالت : أتهددني بالركبة^٧ .

وقد عرف من يحب محادثة النساء ومجالستهن ومخالطتهن بـ (الزير)^٨ ، ومن هنا قيل : (زير نساء) . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من المشهورين بذلك .

-
- ١ الثعالبى ، ثمار (١٤١) .
 - ٢ الثعالبى ، ثمار (١٤١) .
 - ٣ الاصابة (٤٥١/١ وما بعدها) ، (٢٢٩٨) .
 - ٤ اللسان (٤٣٩/١٢) ، (غلم) ، تاج العروس (٤/٩) ، (علم) .
 - ٥ اللسان (١٧١/١٠) ، (شبق) ، تاج العروس (٣٩٠/٦) ، (شبق) .
 - ٦ الثعالبى ، ثمار (١٤٢) .
 - ٧ تاج العروس (٧٨/٤) ، (لغز) .
 - ٨ تاج العروس (٣٤٧/٣) ، (زير) .

ويقال لمن لا يأتي النساء عجزاً أو لا يريدهن (العنين) . كما يقال للمرأة التي لا تريد الرجال ولا تشتهيهم (العنينة) على بعض الآراء^١ . ويقال امرأة مساحقة . وامرأة سحاقة . لمن تشتهي النساء . ويقال انها لفظة مولدة^٢ .

وقد عرف (التبتل) عند بعض الجاهليين ، ممن تأثر بآراء الرهبان . ويراد به ترك النكاح والزهد فيه ، ويكون ذلك للرجال كما يكون للنساء . وتعرف المرأة المقطعة عن الرجال بـ (البتول) . وقد نهى الرسول (عثمان بن مظعون) عن التبتل . وورد في الحديث : (لا رهبانية ولا تبتل في الاسلام)^٣ . ويقال لمن لم يأت النساء ولم يتزوج (الصارور) . و (الصارورة) ، المتبتلة ، فلم تزوج ولم تتصل برجل . ومن ذلك : (لا ضرورة في الاسلام)^٤ . و (الصارورة) عند الجاهليين أرفع الناس في مراتب العبادة ، وقد أطلقت على الراهب المتعبد ، كما جاء ذلك في شعر (ربيعة بن مقروم) الضبي ، من مخضرمي الجاهلية والاسلام :

لو أنها عَرَضَتْ لاشمط راهب عبد الإله ضرورة متبتل
لدنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من تآموره بتزل^٥

وقد عيب العازف عن اللهو والنساء ، والذي لا يطرب للهو ويبعد عنه . ولا يقرب النساء ، ولا يحدثهن ولا يريدن ولا يلهو . فإن مثل هذا الرجل هو كالحجر الصلد الجلمد ، وفيه غفلة . ويقال له (العزهاة)^٦ .

عدد الزوجات :

ومن حق الرجل في الجاهلية ان يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد ولا

- ١ ناج العروس (٢٨١/٩) ، (عن)
- ٢ ناج العروس (٣٧٨/٦) ، (سحق) .
- ٣ ناج العروس (٢٢٠/٧) ، (بتل) ، (رد النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان اس مطعون التبتل) ، الاصابة (٤٥٧/٢) ، (رقم ٥٤٥٥) .
- ٤ ناج العروس (٣٣١/٣) ، (صرر) .
- ٥ الحيوان (٣٤٧/١) ، (هارون) .
- ٦ اللسان (٥١٤/١٣) وما بعدها ، (عره) .

حصر . إذ لم تحدد شرائعهم للرجال عدد ما يتزوجونه من نسائهم . فلما جاء الاسلام ، حدد العدد وجوّز للرجل ان تكون له أربع زوجات في وقت واحد ، ومنعه من تجاوز العدد في حالة الجمع ، بمعنى انه لا يسمح له ان يجمع بين خمس زوجات أو أكثر من ذلك في وقت واحد بشرط العدالة بينهن ، فإن خاف الزوج ألا يعدل بينهن فواحدة .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الحرم أول من اتخذ الضرائر^١ ، والضرائر زوجات الرجل الواحد ، وكل منها ضرة للأخرى .

والغاية الأولى من الزواج هي النسل ، لذلك قالت العرب . من لا يلد لا ولد^٢ . وكرهت العاقر وعدتها شؤماً . واتخذ العقر من الأسباب الشرعية للطلاق ، إذ كان الرجل يأبى البقاء مع امرأة لا تلد . لذلك كان يطلقها في الغالب ، لانتفاء الفائدة منها مع انقائه عليها ، أو يتزوج عليها ليكون له عقب ، وعندهم ان المرأة الفيحة الولود ، خير من الحسنة العاقر ، وان (سوداء ولوداً خير من حسنة عاقر)^٣ . وليست هذه العادة من عادات العرب وحدهم ، ولكن يشاركون فيها أكثر الشعوب الأخرى ، ومنها الشعوب السامية .

ولسادات القبائل والأشراف والملوك غرض آخر من الزواج ، هو غرض كسب الألفة واجتذاب البعلاء ، والنصرة ، حتى يرجع المنافر موالياً ، ويصير العدو مؤلفاً ، فهو زواج (سياسي) . يتزوج الملك أو سيد قبيلة ابنة سيد قبيلة أخرى ، فيشدّ بزواجه هذا من أزر ملكه أو من قوة قبيلته . لا سيما اذا كانت البنت من قبيلة كبيرة . وقد عمل بهذا الزواج كثيراً في الجاهلية ، كما عمل به في الاسلام . فقد استفاد معاوية كثيراً من زواجه من قبيلة (كلب) ، إذ ساعدته وأيدته . وروعي هذا الزواج في المواضع التي تغلبت عليها الحياة القبلية بصورة خاصة للتغلب على طباع البداوة ، المائمة على النفرة من الخضوع لحكم حاكم غريب عنها . وبهذا الزواج تخف هذه النفرة ، فتشعر القبيلة انها من أصحاب هذا الحاكم ، وعليها واجب مساعدته بحكم عصبية المصاهرة .

١ اللسان (١٢ / ١٢١) ، (حرم) .
٢ بلوغ الأرب (٩ / ٢) .
٣ بلوغ الأرب (١٠ / ٢) .

وكثرة الاخوة عزة ، فمن كثرت اخوته استظهر بهم . فلا يتمكن أحد من النيل منه بسوء ، ولا من ابتزاز حق من حقوقه ، ولا من الاعتداء عليه ^١ .

وحظ الرجل العقيم خير من حظ المرأة العاقر . فهو يتزوج عدة زوجات فإن لم يلدن منه ، آمن عندئذ بعقمه . أما المرأة ، فتبقى قانعة راضية في بيت الزوجية ، إن أراد زوجها ذلك ، لأن من الصعب عليها الحصول على زوج آخر إن طلقت ، إذ كان الرجال يفضلون الأبنكار على المطلقات ، وإذا طلقت المرأة العاقر ، بقيت بين أهلها من غير زواج في الغالب .

ويرغب العرب في الزواج بالأبنكار ، ويفضلون الأبنكار الصغار على الأبنكار الكبار ، والبنكار من الشروط التي يجب توافرها في الزواج ، وإذا تبين أن البنت ليست بكرًا ، ^٢ عدّ ذلك نكبة ^٣ وعير أهلها بها ، ولذلك يكون مصيرها القتل تخلصاً من عارها . أما الزواج بالثيب ، فلا يشترط فيه البكار . لأن المرأة كانت قد تزوجت من قبل ، ثم طلقها زوجها أو مات عنها ، فهي مما لا يتوافر فيها شروط البكار ، وهو زواج يعزف عنه الشباب ويعير به من يقدم عليه ، إذ يتهم بالوهس الجنسي وبالطمع في مال الزوجة ، فليس يجمل بالشباب أن يتزوج امرأة أعطت بكارتها غيره . ومن صارت ثيباً من النساء ، صار نصيبها الثيب من الرجال في الغالب ، وإن كانت لا تزال شابة صغيرة السن .

ويكره العرب الجمال البارع ، لما يحدث عنه من شدة الإدلال ، ومن الخوف من شحنة الرغبة وبلوى المازعة وشدة الصبوة وسوء عواقب الفتنة ، لكنهم كانوا يراعون حسن الصورة وجمال الجسم وتناسق أعضائه . ولهم صفات ونعوت ذكروا أنها تمثل جمال المرأة ، تختلف باختلاف الأذواق ^٤ ، كما أن لهم رأياً في محاسن أخلاق المرأة وفي الحصول التي يجب أن تتحلّى بها في معاشره زوجها وفي العناية ببيتها وفي تربية أولادها ^٥ . من ذلك أن تكون حريصة على إرضاء زوجها وخدمه أولادها والعناية ببيتها .

١ النعالي ، ثمار (١٤٣) .

٢ تاج العروس (٥٦/٣ وما بعدها) ، (بكر) .

٣ بلوع الأرب (١٣/٢ وما بعدها) .

٤ باوغ الأرب (١٤/٢ وما بعدها) ، عون الأخبار (١/٤ وما بعدها) .

والعرب نعوت رأوا انها ان وجدت في المرأة عابتها ، منها ان تكون بذينة اللسان ، نمامة كذوباً ، عابسة قطوباً ، كثيرة الانتباه والتدخل ، طويلة مهزولة ، ظاهرة العيوب ، سبابة وثوبة ان ائتمنها زوجها خائنه ، وان لان لها أهانته ، وان أرضاها أغضبته ، وان أطاعها عصته ، الى غير ذلك من نعوت رويها عن الجاهليين في ذم المرأة المتخلقة بها^١ . وقد نعتت المرأة التي تلبس درعها مقلوباً ، وتكحل إحدى عينيها وتدع الأخرى بـ (القرثع) ، وهي المرأة الجريئة القليلة الحياء البذينة الفاحشة^٢ .

ويرغب العرب في الزواج بالنساء الشقراوات البيض البشرة ، ورد ان بعض العرب قالوا لبعض الملوك : هل لكم في النساء الزهر ، والحيل الشقر ، والنوق الحمر^٣ .

والعادة ان أمر الزواج بيد الأبوين ، وليس للبنت معارضة وليها الشرعي في الزواج ، غير ان بعض بنات الأسر الشريفة لم يكن يقبلن بالزواج بأحد إلا بموافقتهم ، فإلى البنت يكون حق قبول الزوج أو رفضه^٤ . كما اشترطت بعض النسوة أنهن ان أصبحن عند زوجهن ، كان أمرهن اليهن ، ان شئن أقن معهم ، وان شئن تركنهم ، أي ان حق الطلاق بيدهن . وذلك لشرفهن وقدرهن . ومن هؤلاء (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خدش) ، وهي أم عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ، و (فاطمة بنت الحرشب الأنمارية) ، وهي أم الكملة من بني عباس ، وهم : الربيع الكامل ، وعمارة الوهاب ، وقيس الحفاظ ، وأنس الفوارس ، بنو زياد^٥ .

ومنهن (عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة) ، وهي أم هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب بن عبد مناف . و (السوا بنت

- ١ بلوغ الأرب (٢٢/٢ وما بعدها) .
- ٢ عيون الأخبار (٣/٤) .
- ٣ كتاب البغال من رسائل الحافظ (٣٤٢/٢) .
- ٤ ابن سعد ، طبقات ج ١ قسم ١ ص ٤١ ، ابن هشام ، سيرة (١٤٨/١) ، القالي ، أمالي (١٩٨/١) .
- ٥ المحرر (٣٩٨) .

الأعيس) من عنزة ، وكانت تحت خالد بن جعفر بن كلاب^١ . و (مارية بنت الجعيد بن صنبرة بن الديل بن شن بن أفصى) من لكيز^٢ .

وقد اشتهرت (أم خارجة) وهي - (عمرة بنت سعد بن عبد الله بن قداد ابن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن انمار) من بجيلة - بأنها كانت قد اشترطت ان يكون طلاقها بيدها ، فكانت كما يقول أهل الأخبار تتزوج وتطلق . وقد أكثرت من الولد في العرب ، وبها ضرب المثل فقيل : « أسرع من نكاح أم خارجة »^٣ . كان يقال لها : خطب ، فتقول : نكح وخارجة ابنها ، ولا يعلم ممن هو^٤ . وولدت لـ (بكر بن عبيد مائة) : الليث والدؤل ، وعريجا ، وهي أم العبر . والمهجم ، وأسيّد . وولدت أيضاً في (بني القين) من اليمن ، قوم يقال لهم : بنو الحرة ، وولدت في بهراء^٥ . وللعداوات بين القبائل أنر بليغ في احتلاق أمثال هذا القصص ، كما لا يخفى .

وذكر أهل الأخبار أسماء نساء تزوجن ثلاثة أزواج فصاعداً . منهن (مارية بنت الجعيد) ، ذكر (ابن حبيب) أنها تزوجت من عشرة رجال . ونسوة آخر ذكر أسماءهن (محمد بن حبيب)^٦ .

تخفيف غلظة النساء :

وقد أمر بعض الجاهليين بختان النساء للحدّ من طغيان الشهوة ، فإن البظراء تجدّ من اللذة ما لا تجده المختونة ، وفي حديث : يا ابن مقطعة البظور . دعاه بذلك ، لأن أمه كانت تختن النساء . والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض النّم ،

- ١ المحبر (٣٩٩) .
- ٢ المحبر (٣٩٨) .
- ٣ المحبر (٣٩٨) ، (وهي أم خارجة بنت قراد) ، الدينوري ، (المعارف) ، (ص ٦٠٩) .
- ٤ ناج العروس (٢٩/٢) ، (حرج) .
- ٥ الدينوري ، المعارف (٦٠٩ وما بعدها) .
- ٦ المحبر (٤٣٥) ، (أسماء من تزوج ثلاثة أزواج فصاعداً من النساء) .

وان لم تكن أم من يقال له هذا خاتنة^١ . وذكر ان الرسول قال لأم عطية الخاتنة : « أشميه ولا تنهكيه ، فإنه أسرى للوجه ، وأحظى عند البعل » . كأنه أراد انه ينتص من شهوتها بقدر ما يردّها الى الاعتدال ، فإن شهوتها اذا قلت ذهب التمتع ، ونقص حب الأزواج ، وحب الزوج قيد دون الفجور^٢ .

وذكر ان العرب اتخذت بعض الطرق لتضييق فرج المرأة ، من ذلك استعمال عجم الزبيب . وذكروا ان نساء ثقيف فعلن ذلك ، ويظهر ان أعداء ثقيف في أيام الحجاج قد أشاعوا قصصاً من هذا النوع نكايه به . ويقال لذلك التفريب^٣ والتفريم^٤ .

حق التقديم في الزواج :

ويقدم ابن العم على غيره في الزواج ، فإذا جاء رجل يريد خطبة ابنة رجل ، سُئل ابن عمها ان كان لها ابن عم عن رأيه في ابنة عمه ، فإن أظهر رغبته في الاقتران بها قدّم على غيره ، وزوّجت منه ، وان أظهر انه غير راغب فيها زوّجت من غيره . ذلك لأن ابن العم مقدم على كل أحد في الزواج من ابنة العم ، وقد يأبى ابن العم من تزويج ابنة عمه من غيره ويصر على ان تكون له ، ولكنه يأبى ان يحدد موعداً للزواج منها ، ويتركها أمسداً طويلاً تنتظر حتى يرى رأيه ، وقد تأبى ابنة العم الزواج من ابن عمها ، ويأبى ابن عمها إلا الزواج منها ، فتنشأ من ذلك منازعات وخصومات قد تصل الى اراقة الدم .

- ١ تاج العروس (٥٢/٣) ، (بطر) ، وهو حديث مافض لما عرف عن الرسول من عدم النطق بمثل هذا الهجر . وفي تاج العروس احاديث ضعيفة او موضوعة ذكرها من غير روية ولا ثبوت .
- ٢ النعالي ، ثمار (٣٠٣/١) .
- ٣ (فرّج المرأة تفرياً) ، (ضيف فلهمها ، أي فرحها بالأدوبة . وهي عجم الزبيب وما أشبه ذلك) ، تاج العروس (٤١٧/١) ، (فرّج) .
- ٤ الفرام . ككتاب . . . دواء سضيّق به المرأة قبلها . فهي فرماء ومستفرمة . وقد استفرمت ، اذا احنشت بحب الزبيب وسجوه) ، تاج العروس (١١/٩) ، (فرم) .

ومع وجود عرف ان القريب أولى بالبنت من البعيد ، فإن العرب تراعي في الغالب إنكاح البعدهاء والأجانب . يرون ان ذلك أنجب للولد وأبهي للخلقة ، وأحفظ لقوة النسل ؛ لأن إنكاح الأهل والأقارب يضر بالمولود ويسمه بالضعف والهزال ، ويزعمون ان تقارب الأنساب مدح في الإبل ، لأنه انما يكون في الكرائم يحمل بعضها على بعض حفظاً لنوعها ، وذم للناس لأنه فيهم سبب الضعف . وبهذا المعنى ورد الحديث : « اغربوا ولا تضرخوا » أي ان تزوج القرائب يوقع الضوى في الولد ، والضوى : الضعف والهزال ^١ . وقد أوصى (حصن بن حذيفة بن بدر) قومه ان (ينكحوا الكفاء الدريب ، فإنه عز حدث ^٢ . وقال (عمر) مخاطباً آل السائب : « يا بني السائب ، انكم قد أضويتم ، فانكحوا في الترائع » . أي تزوجوا في البعاد الأنساب ، لا في الأقارب ، لثلاث ضوى أولادكم . والترائع جمع نزيعة ، وهي المرأة التي تزوج في غير عشيرتها . وأضوى : ولد له ولد ضاو أي ضعيف ^٣ .

وروي ان رجلاً قال : بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن أعجمية ^٤ . وقد أدركوا أثر العرق في الولد . قال رجل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدي منها ، قيل له : كيف ذلك ؟ قال : أنظر الى أبيها وأمها ، فإنها تجر بأحدهما ^٥ . وقال بعض الشعراء :

إذا كنت تبغي أيماً بجهالة من الناس فانظر من أبوها وخالها
فإنهما منها كما هي منها كقدك نعلان ان أريد مثالها
فإن الذي ترجو من المال عندها سيأتي عليه شؤمها وخبالها ^٦

ويراعى التكافىء في الزواج ، فالأشراف لا يتزوجون إلا من طبقة مكافئة لهم ، والسواد لا يتجاسرون على خطبة ابنة سيد قبيلة أو ابنة أحد الوجهاء ، ويعبر السيد الشريف ان تزوج بنتاً من سواد الناس ، ولا سيما اذا كانت ابنة

- ١ بلوغ الأرب (١٠/٢) .
- ٢ امالي المريضي (٥٣١/١) .
- ٣ الدينوري ، عيون (٣/٤) .
- ٤ عيون الأخبار (٣/٤) .
- ٥ عيون الأخبار (٣/٤) .
- ٦ عيون الأخبار (ص ٦) .

صائع أو نجار أو ابنة رجل يشتغل بحرفة من الحرف اليدوية لأنها من حرف العبيد . وقد عيّر (النعمان بن المنذر) بأمه ، لأنها كانت ابنة يهودي صائع ، على ما يزعمه أهل الأخبار . ولم يكن من المستساغ عرفاً تزويج ابنة رجل حرّ من عبد مملوك أو مفكوك الرقبة ، ولم يكن من الممكن تزويج البنت الأصلية الحرة من ابن عبد أو من حفيد عبد ، أو من حفيد حفيد عبد ، وهكذا لأن سمة العبودية والضعّة تلازم الأسر ، وإن تحررت وحسن حالها وصارت غنية ، وما زال هذا العرف قائماً في جزيرة العرب .

ويقدم العرب البيت على الجمال . فليت أثر في أخلاق المرأة وفي نجابة الأولاد ، وهو أثر دائم . والجمال صورة زائلة . فكانوا يهتمون بالبيت الطيب المسجّب ، ليكون النسل نجيباً صحيح البنية والعقل^١ . لقد علمتهم الطبيعة ، وتبين من تجارب الحياة أن لبيت البنت أثراً كبيراً في مستقبل الأسرة وفي نجابة الأولاد وصحة أجسامهم وسلامتهم من المرض . لذلك فضلوا أصالة البيت على جمال المرأة . لما للأصالة من أثر في الوراثة التي تنتقل من الأبوين إلى الأولاد . ونجد هذا المسلك عند غير العرب من الساميين أيضاً ، ورد في التلمود : « لا تحمل بجمال المرأة . وانظر إلى أسرتها »^٢ . وروي أن رجلاً شاور حكيماً في الزواج ، فقال له : لا فعل ، وإياك والجمال الفائق ، فإنه مرعى أنيق . فقال : ما نهيتني إلا عما أطلب ، فقال : أما سمعت قول القائل :

ولن تصادفَ مرعىً مُمرّعاً أبداً إلا وجدتَ به آثارَ منتجع^٣

وورد في الحديث : (إياكم وخضراء الدمن ، قيل : يا رسول الله ، وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء »^٤ . فللمنبت شأن كبير في الزواج وفي أخلاق الولد ، فلا قيمة للمرأة الحسناء إذا كانت من بيت سوء .

١ إذا تزوجت فكن حاذفاً . . . أسأل عن الغصن وعن منبته

وأول خبث الماء خبث برابه وأول خبث القوم خبث الماكح

(لا تسرّضوا الحمفاء ولا العمشاء ، فإن اللبن بعدي) ، المستطرف (٢١٨/٢) .

Taan, IV, 8, Everyman's Talmud, p. 175. ٢

٣ عيون الأخبار (٩/٤) .

٤ ثمار القلوب (٣٠٢/١) وما بعدها .

المنالك الكريمة :

وقد روي عن (أكم بن صيفي) قوله : « المنالك الكريمة مدارج الشرف »^١ . ولهذا حرصوا على تطبيق قاعدة التكافؤ في الزواج ، واختيار كرائم البنات لكرائم الرجال . وروي ان جملة ما أوصى به (الحارث بن كعب) سيد مدحج قومه ان « تزوجوا الأكفاء ، وليستعملن في طيهن الماء ، وتجنبوا الحمقاء . فان ولدها الى أفن ما يكون ، إلا انه لا راحة لقاطع القرابة »^٢ . وقد عرفت هذه القاعدة بـ (الكفاءة في النكاح) . وهي ان يكون الزوج مساوياً للمرأة في حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك^٣ .

والمرأة في نظر العرب وعاء للولد . هذه نظرهم اليها في الجاهلية وفي الاسلام . قال (عروة بن الزبير) : « لعن الله فلاتة ، ألفت بني فلان ييضاً طوالاً ، فقلبتهم سوداً قيصاراً » . وفي هذا المعنى جاء في الشعر :

وأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المنالك^٤

وللأم أثر خطير في الولد . وقد ذكر (الجاحظ) ان العرب تقول : « عرق الخال لا ينم » . وان كثيراً من العلماء يزعمون ان عرق الخال أنزع من عرق العم . ومن دلائل ذلك تباهي الناس بأخوالهم ، واعتبار الخال بمنزلة الوالد . وقول العرب : « لثيم الخال » ، واحتماء الأولاد بأخوالهم ولجوؤهم اليهم أكثر من لجوئهم الى أعمامهم^٥ . ودعوتهم لهم عند العvisية . وقول العرب « العرق دساس » و « عرق الخال » .

ولكننا لا نستطيع القطع برأي العرب في موضوع (دس العرق) . وفي ان أيّاً هو أكثر أثراً ووضوحاً في الولد : عرق الخال ، أم عرق العم ؟ فهناك أمثلة في التاريخ الجاهلي تظهر ان من الجاهليين من كان يقدم العم على الخال ،

- ١ ثمار العلوب (٦٩١) .
- ٢ أمالي المرتضى (٢٣٣/١) .
- ٣ ناج العروس (١٠٨/١) ، (كفا) .
- ٤ عيون الأخبار (٢/٤ وما بعدها) .
- ٥ الثعالبي ، ثمار (٣٤٣ وما بعدها) .

ويرى ان العم مقام الوالد . ولما كان الوالد هو الأصل في النسب عند الجاهليين ، وهو الولي وصاحب الحق الشرعي الأول في ولده ، يكون هذا الحق في إخوته بعد وفاته . كما أننا نجد ان بعض الأولاد كانوا يتزعمون الى أعمامهم أكثر من نزوعهم الى أخوالهم . وموضوع نزع العرق عند العرب ، اعتباري اصطلاحي بالطبع ، يمثل وجهة نظرهم في النسب ، ولا يقوم على أسس (بيولوجية) أي من ناحية أثر الدم وانتقال الخصائص الدموية من الوالد ، او من الأم الى الولد . وهو موضوع علمي ، يختلف عن هذه النظرة الاعتبارية ، من حيث انه يقوم على الدراسات العلمية ، ولا يأخذ بالاعتبارات والآراء الميينة على اعتبارات أهل النسب في خصائص الولد .

والظاهر ان الوثام لم يكن واقعاً دائماً بين أبناء العم ، إذ نجد ان الخصومات طالما كانت تحدث بينهم . ولعل ذلك بسبب ما ألقاه المجتمع على عاتق العم من تبعات أولاد إخوته حين وفاة الأخ ، فانه يكون بحسب العرف القبلي الوصي الشرعي على أولاد المتوفى ، وله حق في إرثه بحسب قانون (العصبية) عند وفاة الأخ عن بنات ومن غير أبناء ، أو لطمع الأعمام في أموال اليتامى ، الى غير ذلك من أمور سببت حدوث خصومات أحياناً بين الأعمام وبين أبناء الاخوة ، أو بين أبناء الأعمام . ولعل هذه الخصومات هي التي جعلت (الجاحظ) ينصور ان أبناء العم محسودون ^١ .

ونجد العرب يقولون : « عرق فيه أعمامه وأخواله » ^٢ ، فقدموا الأعمام على الأخوال ، واعترفوا بأثر عرق الاثنين في الولد ، من كرم أو لؤم ، إذ يكون دس العرق في اللؤم والكرم ^٣ .

ولاحظ العرب ان الأبوين قد يلدان ولداً يكون لونه مغايراً للونهما ، فيحدث نزاعاً بين الرجل وزوجته في هذه الولادة الغريبة ، وتتهم المرأة أحياناً باتصالها برجل غريب جاء منه هذا المولود ، إلا ان منهم من أدرك (دس العرق) في هذه الولادة ، واحتمل انتقال هذا اللون من آباء أحد الوالدين . وقد اختصم رجل

١ كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، من رسائل الجاحظ (٣٤٤/١) .

٢ ناج العروس (١٠/٧) ، (عرق) .

٣ المصدر نفسه .

مع زوجته في مولود ولد له ، فجاء الى رسول الله وقال له : ان امرأتي قد ولدت غلاماً أسود ، فقال له الرسول : « لعل عرقاً نزعته »^١ . فاعتقاد العرب ان الولد قد يتزعه عرق من الأب . وفي هذا المعنى أيضاً قول (ابن الزبير) : « لا يمنعكم من تزوج امرأة قصرها ، فإن الطويلة تلد القصير ، والقصيرة تلد الطويل ، وإياكم والمذكّرة فانها لا تنجب »^٢ . والمذكّرة المتشبهة بالذكر .

وقد حرص العرب لما تقدم على التزوج في الأسر الصحيحة السالمة من الأمراض والعيوب ، ليكون النسل صحيحاً نجيماً . قال أعرابي لصاحب له : (اذا تزوجت امرأة من العرب فانظر الى أخوالها ، وأعمامها ، وأخوتها ، فانها لا تخطيء الشبه بواحد منهم)^٣ .

لسن الأم :

وللبن الأم شأن كبير عند العرب ، لما يتركه من أثر في طبيعة الولد ، ولذلك كانوا يرون ان تكون الأم مرضعة الولد ، إلا اذا تعذر ذلك لسبب ، فترضعه مرضعة قريبة من أهل المولود او من المرضعات السليمات من المرض ، ومن ذوات العرق الطيب . لأن اللبن دساس يؤثر في شاربته .

واهتم العرب باختيار المرضعات . لما يكون للبان الرضاع من أثر في الرضيع ، ولما يكون للرضعة وليبتها من أثر فيه ، كما اهتموا باختيار من يتأبط المولود ويحمله ، لتسليته وتلهيته ، لما يتركه ذلك من أثر في تربيته وخلقه . وفي حديث عمرو بن العاص : « ما تأبطتني الإمام ولا حملتني البغايا في غبرات المآلي » أراد انه لم تتول الإمام تربيته . وغبرات المآلي : بقايا خرق الحيض^٤ .

واذا أراد مدح انسان والثناء عليه ، ذكروا مرضعته وصفاء لبنه الذي رضعه ، فقالوا : « نعمت المرضعة » ، و « نعمت المرضعة مرضعته » . واذا أرادوا

١ الدمي ، حياة الحيوان (٤/١) .

٢ عيون الأخبار (٣/٤) .

٣ الحيوان (١٦٥/٣) ، (هارون) .

٤ ناج العروس (٤٣٦/٣) ، (غبر) .

ذمّ انسان قالوا : « بثت المرضعة مرضعته » ، كناية عن انها هي التي أرضعته ، فخرج رضيعها على شاكلتها . وفي الحديث حين ذكر الامارة ، فقال : « نعمت المرضعة وبثت الفاطمة » ، ضرب المرضعة مثلاً للامارة وما يوصله الى صاحبها من الأحلاب ، يعني المنافع ، والفاطمة مثلاً للموت الذي يهلم عليه لذاته ويقطع منافعها^١ .

وتعدّ الرضاعة بمنزلة الأخوة بين المراضعين ، ويمتخر ويتعزز الواحد منهم بالآخر ، خاصة اذا كان من السادات والأشراف . والعرب تقول : « هذا رضيعك » أي أخوك من الرضاع^٢ ، وتقول : « استرضع في بني فلان »^٣ . ويصير كأنه واحد من القوم الذين استرضع فيهم . وتكون المراضع بمنزلة الأم للرضيع .

ويبدأ الزواج برغبة يديها الرجل لوالديه ، او برغبة من والديه ، أو من أحدهما تقدم الى الولد تطلب اليه ان يتزوج ، فإن حصلت الموافقة اختيرت له زوجة ، وقد يكون الرجل قد اختار خطيبته وعينها ، فاذا وافق أهله خطبوها الى ولي أمرها ، واذا أبوا فعليه ان يختار أخرى زوجاً له ، واذا أبى أهل البنت عليه ذلك تركها ، وقد يصير على الزواج بها ، ويصر أهله أو أهلها على رفضهم ذلك ، وقد يزداد الرجل أو البنت إصراراً على الاقتران معاً حتى يتحول ذلك الى هرب من مكانهما الى مكان آخر . وقد تقع بغضاء بين أهلي الرجل والبنت من وقوع هذا الزواج .

الخطبة :

واذا استقر الرأي على البنت ، يذهب ولي أمر الرجل او أقرب الناس اليه الى ولي أمر البنت ، كالأب أو الأخ أو العم أو بني عمها أو غيرهم ممن هم أقرب الناس اليها ، يخطب البنت بعد ان يكونوا قد مهدوا لذلك وحددوا الصداق .

-
- ١ ناج العروس (٣٥٦/٥) ، (رضع) .
 - ٢ ناج العروس (٣٥٦/٥) ، (رضع) .
 - ٣ المصدر نفسه (ص ٣٥٧) .

وكان الخاطب اذا دخل بيت أهل البنت حياتهم ومن كان حاضراً بتحية أهل الجاهلية ، مثل : انعموا صباحاً ، او عموا صباحاً ، او أمثال ذلك ، فاذا استقر به المقام ، تكلم فيما جاء فيه ، كأن يقول : نحن اكفأؤكم ونظراؤكم ، فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة واصبتمونا وكنّا لصهركم حامدين ، وان رددتمونا لعله نعرفها رجعنا عاذرين . ثم يجيب ولي أمر البنت جواباً مناسباً يضمنه الرضى والقبول ، وبذلك تكون البنت قد خطبت لذلك الرجل ^١ .

ووصف بعض أهل الأخبار طريقة من طرق الخطبة عند بعض الجاهليين ، فقال : كان الرجل في الجاهلية يأتي الحي خاطباً ، فيقوم في ناديتهم ، فيقول : خطب ، أي جئت خاطباً . فيقال له : بعد الموافقة نكح ، أي قد انكحناك إياها ، ومن ذلك ما قدمت من خبر أم خارجة ان صحّ . وذكر ان (نكحاً) هي كلمة كانت العرب تتزوج بها ^٢ .

ويرتدي أهل الخاطب وأهل المخطوبة خير ما عندهم من ملابسهم ويزينون أنفسهم عند مجيء أهل الرجل الى بيت البنت لخطبتها . واذا تمت الخطبة ضمخ والد الخطيبة بالبعير وخلّق بالطيب ونُحر بعير او أكثر على حسب منزلة أهل البنت . والعادة عند العرب ان ينحروا بعيراً او شاة في المناسبات المفرحة المبهجة ، فلا بد لمثل هذه المناسبات من (ذبيحة) وإسالة دم . ولما خطب النبي (خديجة) واجابته ، استأذنت أباها في ان تتزوجه وهو ثمل ، فأذن لها في ذلك ، وقال : هو الفحل لا يقرع أنفه . فنحرت بعيراً ، وخلّقت أباها بالبعير ، وكسته برداً أحمر ^٣ .

وكان الجاهليون يقولون للإبل تساق في الصداق : النوافج . وكانوا يقولون عند تقديمها : تهنتك النافجة . على ان بعضهم من كان يكره ذلك . وقد بطل هذا القول في الاسلام ^٤ .

١ بلوغ الأرب (٣/٢) .

٢ ناج العروس (٢٣٧/١) ، (حطب) ، (٢٤٣/٢) ، (نكح) ، المحبر (٣٩٨) .

٣ ناج العروس (١١٨/٣) ، (حبر) .

٤ قال الشاعر :

وليس بلادي من وراثة والدي ولا شان مالي مستفاد النوافج
الصاحبي (ص ٩٢)

وتلبس العروس ثوباً يجعل له ذيل تسجبه حين تمشي . لأنه يكون طويلاً ،
وقد أشير إليه في شعر لامرء القيس . إذ قال :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجها من دبر

كما أشير إليه في شعر لخداش بن زهير . إذ قال :

لها ذنب مثل ذيل الهديّ الى جؤجؤٍ أيسر الزافر^١

والهديّ : العروس التي تهدي الى زوجها .

واستعملت المرأة الغنية المسك والطيب في تطيب جسمها وثيابها . حتى كان
المسك يفوح من أردانها . قال قيس بن الخطيم :

وعمرة من سروات النساء تنفحُ بالمسك أردانها^٢

و (الصَّدَاق) هو مهر المرأة ، أي ما يدفعه الرجل الى أهل البنت عند
عقد الزواج ، ويقال له الصَّدَاقَة والصَّدُوقَة والصَّدُوقَة والصَّدَاق . وترادف هذه
الكلمة كلمة أخرى هي « مهر » ، وهي من المصطلحات الجاهلية كذلك^٣ .

وطريقة العرب من جاهليين وإسلاميين في دفع الرجل (المهر) للزوجة ،
تناقض المألوف عند اليونان والرومان ، حيث جرت عادتهم ان تقدم المرأة صداقها
الى زوجها نقوداً أو عيناً . وهي الطريقة المألوفة عند الغربيين حتى الآن . وكان
الرومان يستغربون طريقة الجاهليين هذه في دفع المهر^٤ .

ويروي (روبرتسن سميت) ان ترادف معنى (الصداق) و (المهر) انما
حدث في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان هناك فرق بين مدلول الكلمتين .
فان المراد من كلمة الصداق عند الجاهليين هو ما يقدم الى العروس . أما المهر ،
فهو ما يقدم الى الوالدين^٥ .

١ أمالي المريضي (٩٤/٢ وما بعدها) .

٢ اللسان (١٧٧/١٣) ، (رذن) .

٣ اللسان (٦٥/١٢) ، النهاية (١٢٢/٤) ، جامع الاصول (٥٧٩/٧) ، عمدة

العاري (١٣٦/٢٠) ، ناح العروس (٥٥٠/٣) ، (مهر) .

٤ Ency Relligl , 8, p 447.

٥ Kinship, p. 76, Ency., III, p 137.

والرجل إما ان يكون من ذوي قرابة البنت وإما ان يكون من الأبعاد ، أي غريباً عنها . فان كان من ذوي قرابتها ، قال لها ولي أمرها اذا حلت اليه : أيسرت وأذكرت ولا اشت ، جعل الله منك عدداً وعزاً وخلداً . أحسنى خلقك ، وأكرمي زوجك ، وليكن طيبك الماء ... ومثل ذلك من كلام . واذا زوجت في غربة قال لها : لا أيسرت ، ولا ذكرت ، فانك تدنين البعداء ، أو تلدين الأعداء . أحسنى خلقك ، وتنجبي الى أحائك ، فان لهم عيناً ناظرة اليك ، وأذنأ سامعة اليك ، وليكن طيبك الماء ^١ .

واذا كان العرس أولموا وليمة ، ودعوا اليها ذوي قرابة الزوجين وأصدقاءهم . وتتناسب الولائم مع مكانة العريس وأهلها ، للهو ، فإن كان غنياً كانت وليمته ضخمة ، وربما دعوا اليها أهل الطرب ، وقدّموا فيها المأكولات الشهية والخمر . ويقال للوليمة التي تقام « الملاك » ويقال « الإملاك » ، ويقال للطعام الذي يقدم في « الإملاك » « الشندخ » لأنه يقدم الدخول . واما ما يصنع للدخول بالمرأة ، فيقال له : « وليمة » و « وليمة العرس » ^٢ . وكانوا يعدون ولائم العرس من الأمور اللازمة ، ويفعل ذلك حتى القفير الضعيف الحال . وقد حث الاسلام عليها ، فورد في الحديث ان الرسول قال لعبد الرحمن بن عوف : « أولم ولو بشاة » ^٣ .

وتزف العروس الى زوجها ، ومعها أصدقاؤها وأهلها : وقد يقترن ذلك بضرب الدفوف والغناء . وقد كان الأنصار يعجبهم اللهو ، ولهذا كانوا يهتبلون هذه المناسبات للهو فيها . ومما كان يقال في زف العروس :

أتيناكم	أتيناكم	فحيانا	وحياتكم
ولولا الذهب الأحمر	ما حلت بواديكم		
ولولا الخنطة السمرا	ما سمحت عذاريتكم		

ويقال لليلة التي تزف فيها العروس الى زوجها ليلة الزفاف . ويعرف موكب

- ١ بلوغ الأرب (٣/٢) .
- ٢ بلوغ الأرب (٣٨٦/١) .
- ٣ البخلاء (٢٤٦) ، المخصص (١٢٠/٤) .
- ٤ ارشاد الساري (٦٧/٨) .

الزفاف وبـ (الزفة) ويزف (العروس) الى بيته أيضاً ، فقد كان من عادة ذوي القرابة والأصدقاء إقامة وليمة له ، اذا انتهت رافق المدعوون العريس الى بيته في موكب يغنى فيه ويضرب بالدفوف . وقد يبقى المدعوون الى الصباح ، حيث يحيون ليلتهم ، وهي ليلة العرس ، بالشرب والغناء واللعب .

وتخلق العروس بالعبير وبأنواع الطيب بحسب سعة حالها وأحوال أهلها المعاشية . وذكر ان (العبير) الزعفران وحده عند أهل الجاهلية . وذكر انه أخلاط من الطيب يجمع بالزعفران ، ، وورد ان العبير غير الزعفران . وقد اشتهر رداء العروس بطيب رائحته ، لما فيه من العبير . قال الأعشى :

وتَبَرَّدُ بَرْدَ رِداءِ العرو سِـ في الصيف رَقَرَقَتْ فيه العبيراً^١

وتزف العروس الى زوجها ليلاً : تزف على قدر حال العروسين ، وقد تزف في النهار ، ويرافق العروس (موكب) موكب من نساء ورجال على الإبل المزينة يسير والنيران بين يدي العروس . وقد توضع الأنماط على هودج العروس وفي بيتها . وقد منع استعمال النيران في الاسلام ؛ لما في ذلك من التشبه بالمشركين ، كما نهى عن استعمال أنماط الحرير^٢ .

وقد تزف العروس في محفة يقال لها (المزفة) ، ومعها أصحاب (الزفة) . وذكر ان (الزفة) ، الزمرة . « ومنه الحديث : انه صلى الله عليه وسلم ، قال لبلال حين صنع طعاماً في تزويج فاطمة ، رضي الله عنها : « أدخل الناس عليّ زفةً زفةً » أي : فوجاً بعد فوج ؛ وطائفةً بعد طائفة^٣ .

وفي المثل : « لا عطر بعد عروس » أول من قال ذلك امرأة اسمها : أسماء بنت عبد الله العُذْرِيَّة ، واسم زوجها - وكان من بني عمّتها - (عروس) . ثم مات عنها ، فتزوجها رجل من قومها أعسر أنجر نخيل دميم ، يقال له (نوفل) . فلما أراد ان يظعن بها ، قالت : لو أذنت لي ، رثيت ابن عمّي ، وبكيت عند رومته ؟ فقال : إفعلي . فقالت : أبكيك يا عرس الأعراس ،

١ ناج العروس (٣٧٧/٣) ، (عبر) ، اللسان (٥٣١/٤) ، (عر) .

٢ عمدة القارئ (١٤٨/٢٠ ، ١٥٨) .

٣ ناج العروس (١٢٨/٦ وما بعدها) ، (رقف) .

يا ثعلباً في أهله ، وأسداً عند الباس ، مع أشياء ليس يعلمها الناس ! فقال : وما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان من الهمة غير نَعَّاس ، ويعمل السيف صبيحات الباس . ثم قالت : يا عروس الأغر الأزهر ، الطيب الحليم ، الكريم المحضر ، مع أشياء لا تذكر ! فقال : وما تلك الأشياء ؟ قالت : كان عيوفاً للخنا والمكر ، طيب النهكة غير أنجر ، أيسر غير أعسر . فعرف الرجل أنها تعرض به . فلما رحل بها ، قال : ضمتي عطرك . وقد نظر الى قشوة عطرها مطروحة . فقالت : « لا عطر بعد عروس » فذهبت مثلاً . أو « لا نجياً لعطر بعد عروس »^١ .

وتحمل العروس معها أدوات زينتها وموادها الأخرى تضعها في قشوة : قفة من خوص يجعل فيها مواضعها للقوارير بحواجز بينها لعطر المرأة وقطنها ، قال الشاعر :

لها قشوة فيها ملاب^٢ وزنبق^٣ إذا عزب^٤ أسرى إليها تطيبا^٥

ويقال للبنت العذراء التي لم تفتض (البكر)^٣ . ويقال ذلك للرجل الذي ، لم يقرب امرأة بعد^٤ . وزوجها الأول هو الذي يفتض بكارتها . وإذا كانت لسلامة بكاره البنت مكاة عند العرب ، كانوا يعرضون دم البكاره على الأقارب ، ليكون شهادة على سلامة بكارتها . ويكنى عن البكاره والبنت البكر بـ (بنت سعد)^٥ .

والرواج حادث مهم في حياة الانسان ، ولذلك يعلن عنه بفرح وسرور ، ويقال لذلك (بشاشة العرس)^٦ . يعلن عنه بدعوة (وليمة) تولم لذوي القربى والأحباء والجيران والأصدقاء ، تقترن بالغناء وبالضرب على الدفوف أحياناً ، وبارتداء ملابس نظيفة مناسبة ، أو ملابس مصبوغة بصفرة ، والصفرة عند أهل

-
- ١ ناج العروس (١٨٨/٤) ، (عرس) .
 - ٢ ناج العروس (٢٩٤/١٠) ، (فشا) .
 - ٣ بالكسر .
 - ٤ ناج العروس (٥٧/٣) ، (بكر) .
 - ٥ ناج العروس (٣٧٩/٢) ، (سعد) .
 - ٦ عملة العارء (١٣٨/٢٠) وما بعدها .

الحجـاز في ذلك العهد علامة العرس والفرح والسرور ، كما كانوا يصـبغون أيديهم ولحاهم بالزعفران ، ويكحلون عيونهم ، والكحل عندهم من الزينة أيضاً^١ . ويقال للطعام يصنع لعرس : (الوليمة) . وقد ذهب بعض علماء اللغة الى ان اسم الوليمة مختص بطعام العرس . وقد حث الاسلام عليها . ورد في الحديث قوله لعبد الرحمن بن عوف : أولم ولو بشاة^٢ .

ويقابل الزوج على تفضله بالدعوة الى الوليمة بكلمات فيها خير وشكر وتمنيات للحياة الزوجية الجديدة ، ويقال له عند الانتهاء والانصراف : على الطائر الميمون ، وبالرفاه والبنين . وقد كره في الاسلام القول : بالرفاه والبنين لأنه من أقوال الجاهلية ، ولما فيه من الإشارة الى بغض البنات ، لتخصيص البنين بالذكر^٣ ، وإحياء سنن الجاهلية^٤ .

المال والبنون :

واذا ولد مولود ذكر ، 'سراً' أهله بميلاده . والعرب مثل غيرهم من الشعوب القديمة كانوا يفرحون بميلاد ولد ذكر ، ويغتمون اذا ولدت لهم أنثى ، ويقسمون وليمة لميلاده ، وكثرة البنين من المفاخر التي يفتخر بها أهل الجاهلية . ان كثرتهم نعمة وعزة . والبنون والمال زينة الحياة الدنيا . بالبنين يدافع الرجل عن نفسه وعن بيته ، وبهم ينال المال والحق والأخذ بالتأر ، فهم الحماية ورأس المال . ونقرأ في أخبار أهل الأخبار افتخار الآباء والأمهات بكثرة ما أنجبوا من أولاد ، ولا سيما اذا كان الأولاد حازوا شهرة بالجدود أو بالشجاعة أو بأمثال ذلك ، أو سادوا قومهم ورأسوهم . ورد في القرآن : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)^٥ . صحيح ان اعالتهم مسألة صعبة عسيرة ، ولا سيما إعالة الفقراء أولادهم ، غير ان الحياة الاجتماعية في ذلك العهد لم تكن على مستوى عال من المعيشة تطلب مالا

١ عمدة القاري (١٤٣/٢٠ وما بعدها) ، (٢٢/٢٢) .

٢ تاج العروس (٩٦/٩) . (أولم) .

٣ عمدة القاري (١٤٥/٢٠ وما بعدها) .

٤ اللسان (٨١/١) ، (رفا) ، تاج العروس (٧١/١) ، (رفا) .

٥ الكهف ، الآية ٤٦ .

يضمن الوالد به عيش أولاده ، انما كانت المعيشة سهلة لا تتطلب حاجات كثيرة ، ولم تكن بالناس حاجة شديدة الى التقود ، فما يقوم به المرء من مجهود بدني هو أصيلة^١ كل انسان ، وبه يعيش ، وبه يحصل على ما يحتاج اليه من وسائل معيشة محدودة . فاذا كثر الأولاد ، ازدادت وسائل المعيشة ، وعاش الوالد عيشة ناعمة طيبة ، وحصل بفضلهم على قوة ومنعة .

وقد ذكر أهل الأخبار عدداً من الرجال عرفوا بينن حصلوا على شهرة وذكر ، فكانوا يفتخرون بهم بين الناس . من هؤلاء (سعد العشيرة) ، قيل له (سعد العشيرة) لأنه كان يركب في عشرة من أولاده الذكور ، فكأنه منهم في عشيرة ، فصار مثلاً للرجل يستكثر بأبنائه وعشيرته ويتعزز بهم^٢ . و (الحارث بن سدوس) . وكان له واحد وعشرون ولداً ذكراً^٣ .

ويكون الذكور فخراً للأمهات وقوة لهن ، ويقال للمرأة التي تلد الأولاد الكرماء الأشراف منجبة ومنجاب . (ولم تكن العرب تعد منجبة من لها أقل من ثلاثة بنين أشراف)^٤ . وتعرف بـ (أم البنين) كذلك . ومنهن (أم البنين بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) ، و (عمرو بن عامر) هو (فارس) . ولدت (أبا براء) ملاعب الأسنه ، و (طفيلاً) فارس قرزل و (ربيعة) ربيع المقترين ، و (معاوية) معوذ الحكماء ، (سلمى) نزال المضيق ، بني مالك بن جعفر بن كلاب^٥ .

وقد أشار القرآن الكريم الى نفرة العرب من البنات ، وما كان يصاب به الرجل من ضيق صدر ومن همّ اذا بلغ ان مولوده أنثى ، قال تعالى : (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم)^٦ . ويزداد كربّه اذا زاد عدد بناته ، وقد يعمدون الى (الوأد) ، أي دفنهن أحياء للتخلص منهن .

- ١ الأصيلة : رأس المال .
- ٢ ثمار القلوب (١٠٤) .
- ٣ ثمار القلوب (١٤٢) .
- ٤ المحبر (ص ٤٥٥) ، ناج العروس (٤٧٧/١) ، (نجب) .
- ٥ المحبر (٤٥٨) ، ناج العروس (٤٦٣/٣) ، (عمر) .
- ٦ النحل ، الآية ٥٨ .

قيل : « إنهم كانوا يقتلونهم خوف العار »^١ . وإلى ذلك أشار القرآن الكريم :
(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق . نحن نرزقهم ولياكم)^٢ ، (ولا تقتلوا
أولادكم من إملاق نحن نرزقهم ولياكم)^٣ .

وقد افتخرت (بنو عبس) بـ (زهير بن جذيمة بن رواحة) العبسي ،
لأنه كان أبا عشرة ، وعم عشرة ، وأخا عشرة ، وخال عشرة ، ورأس
غطفان كلها في الجاهلية ولم يجمع على أحد قبله^٤ . فكثرة البنين من موجبات
الفخر والاعتزاز والتباهي عند الجاهليين .

العقيقة :

وإذا كانت نهاية الإنسان عند الجاهليين مفترنة بالدم ، فإن مبدأ حياته مقترن
عندهم بالدم كذلك . لقد كان من عاداتهم ذبح شاة عند ميلاد مولود وتعليق
شيء من دمها برأس المولود ، ويقال لهذه الذبيحة « العقيقة » ، وهي كلمة
جاهلية وردت في الشعر الجاهلي^٥ . وتذبح عادة في اليوم السابع من ميلاد
المولود^٦ . وقد أقر الإسلام ذلك ، فوردت الكلمة في الحديث . ويذكر علماء اللغة
أن معنى العقيقة هو شعر كل مولود يخرج على رأسه في بطن أمه ، وأنه قيل
للشاة المذبوحة لذبحها عند الاحتفال بخلق هذا الشعر . وقد كانوا يعيرون من لم
تخلق عقيقته ، إذ يرون في ذلك منقصة لا تليق بالرجل الكامل^٧ .

ويستقبل المولود بذلك حنكه بالتمر المضغ ، أو الحلو مثل عسل النحل ،

١ المسطر (٧٧/٢) -

٢ الأسراء الآية ٣١ .

٣ الانعام ، الآية ١٥١ .

٤ الإصباح (٢٦٦/٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٣٥٢) .

٥ ناج العروس (١٥/٧) ، اللسان (١٢٩/١٢) .

٦ فهارس البحاري (ص ٣٣٣) -

٧ في شعر منسوب إلى امرئ القيس :

يا همد لا تنكحي بوهة عليه عقيقته أحسبا

ناج العروس (١٥/٧) ، البحاري « كتاب العقيقة » حديث (١) ، عمدة الماري

(٨٢/٢١) .

وكل ما لم تمسه نار من الخلو^١ . وكان العبرانيون يفركون المولود بالملح . واستقبال المواليد يمثل هذه الأمور من العادات الشائعة عند كثير من الأمم القديمة ، وهي عادات وشعائر دينية أيضاً . فإن الشعوب القديمة لم تكن تفرق كثيراً بين العادات والشعائر بخلاف الحال في الزمن الحاضر^٢ . ولاستقبال المولود بذلك جسمه بالخلو أو بالملح أو بما شابه ذلك ، معنى التفاؤل . فالخلو رمز السعادة والفرح . واما الملح ، فانه عنصر مهم من عناصر الحياة عند الأمم القديمة . والخبز والملح هما رمز الصداقة والمودة حتى اليوم .

ويسلى الأطفال باعطائهم العرائس والتماثيل الصغيرة يلعبون بها ويقضون وقتهم بالتسلي بها وبمكالمتها على نحو ما يفعل أطفال اليوم . كما يتسلون باللعب معاً بألعاب خاصة بالصبيان .

الختان :

ويعدّ الختان من العادات الجاهلية القديمة ، والعرب في ذلك كالعبرانيين . وهو أمر لم يرد ذكره في القرآن الكريم ، انما ورد ذكره في الحديث . وترجع الكلمة الى أصل سامي شمالي قديم^٣ . والختان في الأصل نوع من أنواع العبادة الدموية التي كان يقدمها الانسان الى أربابه ، وتعدّ أهم جزء من العبادات في الديانات القديمة^٤ . فقطع جزء من البدن وإسالة الدم منه ، تضحية ذات شأن خطر في عرف أناس ذلك العهد ، كما كان حلق الشعر كله أو جزء منه نوعاً من أنواع التقرب الى الآلهة^٥ . والختان في الاسلام معدود من سنن الفطرة التي ابتلى الله ابراهيم بها ؛ وهي الكلمات العشر . وفي جملتها الختان^٦ .

وقد كان الجاهليون يسمون من لم يختن : أqlف وأغلّف وأغرل ، ويعيونه ،

١ عمدة الفارسي (٨٣/٢١) ، اللسان (٢٩٨/١٢) ، « حنك » .

٢ Rosta, S., 173.

٣ Shorter Ency , p., 254, Ancient Israel pp , 46

٤ Rosta, S , 174.

٥ Smith, p., 328.

٦ بلوغ الأرب (٢٨٧/٢) ، الحيوان (٢٧/٧) ، (هارون) .

ويعدّونه ناقصاً^١. وذكر انتشار هذه العادة عند العرب بعض الكتبة « الكلاسيكيين » مثل : « يوسفوس » المؤرخ اليهودي و « أوسيبيوس » و « سوزومينوس » (Sozomenius)^٢ ويظهر انه كان معروفاً عند العرب الجنوبيين وعند الحبشة كذلك^٣. وقد طبق على النوعين الذكور والإناث. وكانت العرب تزعم ان الغلام اذا ولد في القمراء قسحت قلفته فصار كالمختون ؛ قال امرؤ القيس وقد كان دخل مع قيصر الحمام فرآه أقلف ، على ما يزعمه أهل الأخبار :

إني حلفت يميناً غير كاذبة لأنت أقلف إلا ما جنى القمر^٤

وذكر « يوسفوس » ان العرب يختنون أولادهم عند بلوغهم عشرة من سنهم^٥. ومن الضعف قبول خبره ، ويظهر من موارد أخرى ان الجاهليين لم يعينوا عمراً معيناً للاختتان^٦ وأحسب ان هذا الكاتب اعتمد على ما جاء في التوراة عن اختتان اسماعيل وهو في الثالثة عشرة من عمره ، أو انه اعتمد على ما سمعه من بعض القبائل الاسماعيلية الساكنة في المناطق الشمالية الغربية من جزيرة العرب ، فظن ان الاختتان عند جميع العرب هو في هذه السن .

وقد ورد في بعض الأخبار ان الروم حاولوا منع العرب من الاختتان^٧.

والاختتان من المناسبات المفرحة المبهجة في حياة الأسرة ، لهذا كان من عادة العرب يدعون ذوي القرابة والأصدقاء الى الولائم ويلبسون الأطفال أحسن ما عندهم من لباس ابتهاجاً وفرحاً بذلك .

الرجولة :

واذا بلغ الطفل ، صار رجلاً ، وجاز له حينئذ ان يفعل فعل الرجال .

١ Reste, S., 174.

٢ Josephus, Antl., I, XII, 2, Eusep., VI, II,

٣ Ency. Religl., 3, p 679.

٤ تاج العروس (٢٢٦/٦) ، (فلف) . Sozomen, Hist. Eccl , VI, 38.

٥ Josephus, Antlq., XX, II, 4.

٦ Ency Religl., 3, P. 679.

٧ Ancient Israel, p 47.

واحتفل أهله بذلك عند الصنم (Oratal) ، الذي يقابل الإله (باخوس) (Bacchus) عند اليونان ، ويبلغ الاحتفال غايته عند قص الضفائر ورميها أمامه ، لأن ذلك معناه عندهم دخول الشاب في مرحلة الرجولة ، ودخوله في عبادة هذا الإله ^١ .

والبلوغ ادراك الغلام والجارية . وقد كان أهل مكة اذا بلغت عندهم الجارية أخذوها الى (دار الندوة) فدرعوها بها ، علامة على بلوغها .

ومن امثال العرب : (ولدك من دمتى عقيبك) ^٢ ، أي من نقيست به ، وصير عقيبك ملطخين بالدم ، فهو ابنك حقيقة ، لا من اخذته وتبنيته وهو من غيرك ^٣ . والابن الشرعي ، من ينسب الى ابيه بنسب صحيح ، وعزي الى والده . ويقال : انه لحسن العزوة ، اي صحيح النسب حسنه ^٤ .

والعادة عند اكثر الساميين نسبة الاولاد الى الآباء . ونجد اكثر اسماء الجاهليين على هذا النحو . وهناك اشخاص عرفوا بأسماء امهاتهم ، وللانباريين في تفسيرها آراء ، الغالب انهم اشتهروا بأمهاتهم لما كان لأمهاتهم من كفايات وصفات خاصة جعلت لهن صيتاً بعيداً طغى على اسم الرجال ، فنسب أبناؤهم اليهن لهذا السبب تمييزاً عن بقية الابناء الذين قد يكونون للرجل من زوجة اخرى . ومن هذا القبيل اشتهار (عمرو) ملك الحيرة بـ (عمرو بن هند) . واشتهار (المنذر) ، وهو احد الملوك بـ (المنذر بن ماء السماء) على رأي من يجعل (ماء السماء) اسم والدة الملك .

ولم يكن للجاهليين قواعد ثابتة معينة في تسمية المواليد ، ففي بعض الروايات ان الاجداد او الآباء هم الذين كانوا يقومون بتسمية المولود ، وفي روايات اخرى ما يفيد قيام المرأة بهذه المهمة . والذي يتبين من غرابة الروايات ان الرجال هم يسمون الاولاد ، فيضعون لهم الاسماء . اما تسمية البنات فكانت في الغالب من اختصاص النساء . وقد ثبت اسم المولود ويحدد في اليوم السابع من مولده ، اي

Hastings, I, p. 283, Herodotus, III, 8.

١ محرقة وكصر الكاف فيهما بناء على انه خطاب للانثى .

٢ ناج العروس (٥٤٠/٢) ، (ولد) .

٣ ناج العروس (٢٤١/١٠) ، (عزا) .

في يوم (الحقيقة) . وتذكر كتب السير ان (عبد المطلب) هو الذي سمي الرسول محمداً ، في يوم سابعه ، اخذه فدخل به الكعبة ، ثم خرج به الى أمه فدفعه اليها ، وفي هذا اليوم عتق له على عادة العرب في ذلك العهد . وتذكر ايضاً ان قريشاً « قالوا لعبد المطلب ما سميت ابنك هذا ؟ قال سمّيته محمداً »^١

وتختلف التسميات في جزيرة العرب ، كما تختلف معانيها ، فالأسماء المشهورة عند العرب الجنوبيين والواردة في نصوص المسند لا ترد في قوائم اسماء الجاهليين الذين كانوا يعيشون قبيل الاسلام في نجد والحجاز . وأسماء أكثر ملوك العرب الجنوبيين ولا سيما الذين عاشوا منهم قبل الاسلام هي اسماء مركبة ، ولها صلة بالآلهة . اما اسماء الملوك الشماليين فأكثرها مفردة مثل المنذر والنعمان والحارث وعمرو وأمثال ذلك . والأسماء الشمالية المركبة لها صلة بالأصنام ، ولكن بأصنام العرب الشماليين ، مثل عبد مناة ، وعبد العزى ، وامرئ القيس ، وعبد ود . وأما اسماء سواد الناس ، فتختلف كذلك في العربية الجنوبية عنها في الشمال ، وفي المواضع الاخرى من جزيرة العرب . وقد احدث الاسلام تغييراً كبيراً في الاسماء ، فاجتث منها كل ما له صلة بالوثنية وبالأوثان ، وجاء بتسميات لم تكن شائعة بين الجاهليين ، مثل : محمد وعلي وأمثال ذلك من اسماء لها صلة بالرسول وبالصحابة وبتأريخ الاسلام .

ما كان العرب يسمّون به اولادهم :

وقد بحث (الجاحظ) في علل التسميات عند العرب وفي اسبابها ، فقال : (والعرب انما كانت تسمّى بكلب ، وحمار ، وحجر ، وجعل ، وحنظلة ، وقرد ، على التفاؤل بذلك . وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والقمل ، فان سمع انساناً يقول حجراً ، او رأى حجراً ، سمّى ابنه به وتفاءل فيه السدة والصلابة والبقاء والصبر ، وأنه يحطم ما بقي . وكذلك ان سمع انساناً يقول ذئباً او رأى ذئباً ، تأول فيه الفطة والحِيب والمكر والكسب . وان

١ الاشفاق (٦) ، المواهب (٢٤١) ، الحليبه (٩٤/١ وما بعدها) ، الروض الاسف (١٠٦/١ وما بعدها) ، ابن هشام ، سره (١٦٦/١ وما بعدها) ، تأريخ الاسلام ، للذهبي (٢٣/٧ وما بعدها) ، تفسير روح المعاني (٧٣/٤) .

كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد . وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبُعد الصوت والكسب وغير ذلك) . وجاء بآراء آخرين على هذه التسميات وعلى آرائهم فيها ^١ .

وتعرض (الجاحظ) الى اسماء الحيوان التي تسمى بها الناس . فذكر منها : غراب ، وُصرد ، وفاختة ، وحمامة ، ويمام ، ويمامة ، وعقاب ، وقطامي ، وحجل ، وصقر ، وصفير ، وطاووس ، وطويس ، وحيقطان ، والغرائيق ، والغرنوق ^٢ .

المعمرون :

وقد عمر بعض اهل الجاهلية عمراً طويلاً ، فعُدوا من المعمرين في الجاهلية . وروى اهل الاخبار اخبارهم وألف بعضهم كتباً فيهم . فلأبي حاتم السجستاني مؤلف في المعمرين ^٣ . والعادة عند العرب ان المرء اذا شاخ وكبر بالغوا في تقدير عمره ، وزادوا في سني حياته . حتى جعلوا المعمر من عاش فوق المئة عام . ولا يعد المعمر معمرأ عندهم الا اذا عاش مائة وعشرين سنة وصاعداً ^٤ . ولهذا ، فلا نستغرب ما يرويه اهل الاخبار عن بعضهم من انهم عاشوا فوق المئة بكثير .

ومن المعمرين : الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد المذحجي . يزعمون انه عاش مائة وستين سنة . ورووا له وصية في الاخلاق والآداب والمواعظ والحكم . بيّن فيها انه على دين شعيب النبي ، وما عليه احد من العرب غيره ، وغير أسد بن خزيمه ، وتميم بن مُرّة . وأنه لم يصفاح غادراً ، ولم يتخلق بأخلاق فاجر ، ولا صبي بابتة عم له ولا كنة . ولا جاءته مومسة . وأوصى اولاده بالتجمع ، وبالموت في سبيل العز ، وبالحنذر من الناس ، وبترّوج الاكفاء وتجنب الزواج من المرأة الحمقاء ، لانتقال الحمق منهن الى من يلدن . وأوصى بوصل

١ الحيوان (٣٢٥/١ وما بعدها) ، (هارون) .

٢ الحيوان (٥٣/٧ وما بعدها) ، (هارون) .

٣ أخبار المعمرين .

٤ أمالي المرنضى (٣٣٦/١) .

الرحم ، وبلزوم اطاعة الوالدين ، ونبذ الحقد والضغينة ^١ .

ومنهم : المستوغر : وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة .
ذكروا انه عاش ثلاثمائة وعشرين ، وأدرك الاسلام او كاد يدرك اوله . ونسبوا
له شعراً وحكماً ^٢ .

وحشروا في المعمرين : (دويد بن ريد) من قضاعة . ذكروا انه عاش
اربعمائة سنة وستاً وخمسين سنة ونسبوا له وصية فيها : (اوصيكم بالناس شراً ،
لا ترحموا لهم عبرة ، ولا تقيّلوا لهم عثرة) الى آخر ذلك من وصية فيها شدة
على الناس وحث لأهله على عدم الرحمة بهم ، وألا يرحموا احداً ، والا يهينوا ^٣ .
وهي تمثل وضعاً خاصاً ورأياً لواضع هذه الوصية ولراويها من اناس زمانه ، فيها
سوء ظن ، ووجوب الحذر والاعتماد على النفس ، حيث لا ينفع الانسان في
حياته الا نفسه .

ومن المعمرين زهير بن جناب . عاش مائتي سنة وعشرين سنة . وأوقع مائتي
وقعة ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه . فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره
من اهل زمانه ، كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم
الى الملوك ، وطيبهم ، وحازي قومه ، وكان فارس قومه وله البيت فيهم .
وقد نسبوا له وصية ، على عاداتهم في نسبتهم الوصايا الى المعمرين . ذكروا انه
اوصى بنيه فيها بوجوب التجمع ومقاومة النوائب وترك التخاذل والاتكال ، وبعدم
الغرور في هذه الدنيا ، فانما الانسان في هذه الدنيا عَرَضٌ " تعاورهُ الرماة فمَصَّر
دونه ، ومجاوز موضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لا بد انه مصيبه . ورووا
له شعراً وحكماً .

وذكر انه كان على عهد (كليب وائل) ، ولم يكن في العرب انطق من
زهير ولا أوجه منه عند الملوك ، وكان لسداد رأيه يسمى كاهياً ، ولم تجمع قضاعة
لا عليه وعلى رزاح بن ربيعة ^٤ .

واختلف في عمر (ذو الأصبع العدواني) يوم مات . فذكر بعضهم انه

- ١ أمالي المرتضى (٢٣٢/١ وما بعدها) .
- ٢ أمالي المرتضى (٣٣٤/١ وما بعدها) .
- ٣ أمالي المرتضى (٢٣٦/١ وما بعدها) .
- ٤ أمالي المرتضى (٢٤٠/١ وما بعدها) .

عاش مائة وسبعين سنة . واستقل (أبو حاتم السجستاني) هذا المقدار ، فجعله ثلاثمائة سنة . وهو من (عدوان) . وأحد حكّام العرب في الجاهلية . ونسبوا له على عادتهم بالنسبة للمعمرين حكماً وشعراً^١ .

ومن المعمرين الذين ذكرهم أهل الأخبار (معد يكرب الحميري) ، من آل ذي رعين ، و (الربيع بن ضبع الفزاري) . ذكر انه عاش أكثر من مائتي سنة . وانه لما بلغ مائتين وأربعين سنة قال شعراً في ذلك . وقد عاش في الاسلام أيضاً وأدرك أيام معاوية^٢ .

وجعلوا عمر (أبو الطحان القيني) مائتي سنة ونسبوا له حكماً وشعراً^٣ . وأبى (الكلبي) ان يجعل عمر (عبد المسيح بن ببيعة الغساني) ، وهو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن ببيعة ، أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة . وجاراه في ذلك (أبو مخنف) وآخرون . وذكروا انه عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام فلم يسلم ، ومات نصرانياً . وذكروا ان (خالد بن الوليد) لما نزل على الحيرة ، وتخص منه أهلها أرسلوا اليه (عبد المسيح بن ببيعة) ليكلّمه فسأله خالد أسئلة عديدة . منها : أعرب أنتم أم نبط ؟ قال عبد المسيح : عرب استنبطنا ونبيط استعربا . ثم سأله : كم أتى لك ؟ قال : ستون وثلاثمائة سنة . ثم عاد الى قومه فنصحهم بمصالحة خالد . ورووا له شعراً في دخول المسلمين الحيرة ، وكيف صار أمر (آل المنذر) ، وقد تحسّر فيه على الأيام الماضية ، التي ولت حتى آل الأمر بهم ان يؤدوا الخراج الى (معد) التي اقتسمتهم علانية كأقسام الجزور ، يؤدون لهم الخراج ، بعد خراج كسرى وخراج من قريظة والنضير . ثم خلص الى ان الدهر هو كذلك لا يدوم على حال . فيوم من مساء ويوم من سرور^٤ .

وذكر ان بعض سادات أهل الحيرة خرج الى ظاهرها يخطّ داراً ، فلما احتضر

-
- ١ أمالي المرتضى (٢٤٤/١ وما بعدها) ، الأغاني (٩٤/٣ وما بعدها) ، الكامل ، للمبرد (٩٤/٥ وما بعدها) .
 - ٢ أمالي المرتضى (٢٥٣/١ وما بعدها) .
 - ٣ أمالي المرتضى (٢٥٧/١ وما بعدها) .
 - ٤ أمالي المرتضى (٢٦١/١ وما بعدها) .

موضع الأساس ، وأمن في الاحتفار أصاب كهيئة البيت ، فدخله فإذا رجل على سرير من رخام ، وعند رأسه كتابة : أنا عبد المسيح بن بقبلة .

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المني بُلغَ الزيد
وكافحت الأمور وكافحتني فلم أحفل بمعضلة كئود
وكدت أنال في الشرف الثريا ولكن لا سبيل إلى الخلود^١

وأدخلوا (النابغة الجعدي) ، واسمه (قيس بن عبد الله بن عدس) في المعمرين . ولكنه لم ينل من أهل الأخبار عمراً يستحق الذكر . إذ منحوه أقصر ما يمكن من العمر بالنسبة للمعمرين . وهو عشرون ومائة سنة . وفضل (أبو حاتم السجستاني) عليه فنحه مائتي سنة^٢ . وأبو حاتم من الكرماء جداً بالنسبة لمنح الأعمار إلى المعمرين . وقد أدرك الإسلام فأسلم . ومدح الإسلام بشعر . ويذكر أنه جاء الرسول وأنشده من شعره^٣ .

وذكر (الجاحظ) نقلاً عن المتقدمين عليه ، أنهم (ذكروا أنهم وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع : أولها سرو حير ، ثم فرغانة ، ثم الهمالة ، وإن في الأعراب لأعماراً أطول ، على أن لهم في ذلك كذباً كثيراً)^٤ .

أصحاب العاهات :

والعمى من العاهات المعروفة بين الجاهليين . منهم من ولد أعمى ، أو أصيب بالعمى في طفولته ، ومنهم من أصابه وهو على كبر . وذكروا أن من أشرف العميان (زهرة بن كلاب) و (عبد المطلب بن هاشم) و (العباس بن عبد المطلب) ، وغيرهم .

و (العور) من العاهات التي كان الجاهليون يعيرون من أصيب به . وكانوا

-
- ١ أمالي المرتضى (٢٦٣/١) .
 - ٢ أمالي المرتضى (٢٦٣/١ وما بعدها) ، جمهرة أشعار العرب (٣٠١ وما بعدها) .
 - ٣ أمالي المرتضى (٢٦٥/١ وما بعدها) ، أخبار المعمرين (٦٤ وما بعدها) ، ابن فنيبة ، الشعر والشعراء (٢٤٧ وما بعدها) ، الإصابة (٢١٨/٦ وما بعدها) ، الأغاني (١٢٧/٤ وما بعدها) .
 - ٤ الحيوان (١٥٧/١) ، (أطول الناس أعماراً) ، (عبد السلام محمد هارون) .

يرمون العوران باللؤم والخبث . وقد أصيب به بعضهم في الحروب . (كأبو سفيان) فقد أصيب يوم الطائف بالعمّور ، وأصيب غيره في معارك أخرى ^١ .

وأصيب بعض الناس بالبرص . وقد ذكر (السكري) أسماء جماعة من (البرص الأشراف) ^٢ ، ومن هؤلاء : (جذيمة الأبرش) ، الملقب بـ (الوضّاح) ، وذكر ان (الوضّاح) كناية عن (البرص) ^٣ ، وكانت قريش تخاف البرص خشية العدوى . فأخرجت (أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب) عنها ، مخافة العدوى . فكان يكون بالليل في شُعب الجبال ، وبالنهار يستظل في الشجر ، وُسقي بطنه ، فأخذ مدية فوجأ بها في معدته . فسال ذلك الماء ، فبرأ برصه ، ورجع الى مكة ^٤ .

ومن العاهات (الفقم) ، وهو تقدم الثنايا العليا ، فلا تقع على السفلى ، اذا ضم الرجل فاه . ثم كثر حتى صار كل معوج أفقـم ^٥ و (العرج) ، ومن أشهر (العرجان الأشراف) (الحارث بن أبي شمر الغساني) ، و (عبد الله ابن جُعدعان) ، و (الحوفزان بن شريك الشيباني) ، و (النابغة الذبياني) ، وغيرهم ^٦ .

ومن المعيبات في الانسان ، ألا يكون للرجل شعر في وجهه . ويقال لمن عرى وجهه من الشعر (الكوسج) . وذكر انه الذي عرى وجهه من الشعر إلا طاقات في أسفل حنكه ، كالأنث والئط . والئط هو القليل شعر اللحية والحاجبين . ويقال : رجل ثَطَّ ، وامرأة ثطة الحاجبين ^٧ . ومن الثُّط (الحارث بن أبي شمر الغساني) ، و (المنذر بن النعمان بن ماء السماء اللخمي) ، و (عبد الله ابن جُعدعان) و (قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري) ^٨ .

-
- ١ المحبر (٣٠٢) ، (العوران الأشراف) .
 - ٢ المحبر (٢٩٩) .
 - ٣ تاج العروس (٢٤٧/٢) ، (وضّاح) .
 - ٤ المحبر (٣٠١) .
 - ٥ المحبر (٣٠٤) تاج العروس (١٤٧/٩) .
 - ٦ المحبر (٣٠٤) .
 - ٧ تاج العروس (٩١/٢) .
 - ٨ المحبر (٣٠٥) .

حياة الشبان :

ومن الشبان من كان يقضي وقته بالشراب ، وبمصاحبه القيان ، وهم أولاد اليسار والمجان . وكان منهم من يأوي الى منزل أحدهم فيعكفون على اللهو والشرب ، لا يعبأون ولا يكثرثون^١ ومنهم شباب مكة قبل الاسلام . وكان منهم قوم مستهترون لم يبالوا بحرمة ولا بأحد ، حتى ان شباباً من شباب مكة سرق من خزانة الكعبة لينفق مما سرقه على شربه وقيانه . وقد عرف هؤلاء بـ (الفتيان) . وكانوا يقضون أوقاتهم بالشرب ولبس الملابس النظيفة ، وبالسماح الى القيان كما عرفوا بالسخاء على من حولهم وعلى من يجتمع معهم من الفتيان . وكانوا شجعاناً ، يخرجون الى القنص والصيد . وقد أشار أهل الأخبار الى أسماء بعض هؤلاء الفتيان^٢ .

وشباب الجاهلية مثل شباب أهل كل زمان ، لا يختلفون عنهم بشيء ، في تأثق بعض منهم وفي محاولته اظهار شبابه تجاه البنات . فكان شباب القرى والمدن ولا سيما الوضيئون منهم وأهل الجمال يتسكعون في الأسواق وفي مواضع التجمع ، بل وحتى في المعابد ليعبثوا في كلامهم مع البنات وليتحدثوا اليهن ، شأن أي شاب في هذه الدنيا بالنسبة الى الشابات . وقد اضطر آباء وأقرباء بعض هؤلاء الشباب على تقريع أبنائهم لتجاسرهم على بنات الحي . حتى منع البعض من الشباب الجميل من التأثق في الملبس حتى لا يلفتوا اليهم أنظار البنات ، فيثرون فيهم عاطفة الجموح نحو التشيب والحب .

وذكر (محمد بن حبيب) أسماء رجال من مكة كانوا يتعممون مخافة النساء على أنفسهم من جاهلهم^٣ . ويظهر انهم كانوا يرخون العائم حتى تنزل على الوجه فتحضي معاله ، ولا يبدو عندئذ شيء من معالم جمال ذلك الشخص . ولم يذكر فيما اذا كانوا قد فعلوا ذلك من أنفسهم ضبطاً للنفس من الوقوع في غوى الشيطان ، وتحت تأثير سحر العيون ، أم انهم أجبروا على ذلك إجباراً ، على

١ المحبر (١٧٣ وما بعدها) ، ناج العروس (٢٧٥/١٠ وما بعدها) ، (فسى) ساح

العروس (٣٤١/٩) ، (مجن) .

٢ المحبر (١٧٣ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ٢٣٢)

نحو ما كان يفعله أهل مكة بالنسبة الى المستهترين من شبابهم ، ليكون التعميم أحد الحواجز التي تحول دون سقوط عين المرأة على الشاب الجميل أو الرجل الجميل . أو أنهم فعلوه هم ، على انه (موضحة) وذِيَّ من أزياء الشباب . ومن الرجال الذين ذكر (ابن حبيب) أنهم تعمموا مخافة النساء ولم يكونوا من أهل مكة ، (امرؤ القيس بن حجر الكندي) ، و (قيس بن الخطيم) الأوسي ، و (ذو الكلاع الحميري) ، و (زيد الخيل بن مهلهل الطائي) . ولم يذكر السبب في اقحام مثل هذه الأسماء في موضوع التعمم بمكة . هل ذكرهم بمعنى أنهم كانوا اذا قدموا مكة تعمموا ، خشية الوقوع في هوى النساء ، فيجلب عليهم صداعاً وصداماً مع أهل أولئك النسوة ، أو انه ذكرهم بمعنى أنهم كانوا يتعممون مثل أهل مكة حذر الوقوع في الحب ، فدرج أسماءهم في هذا الموضع لهذه المناسبة .

وقد ذكر (ابن حبيب) ان (الحضر) ، وهو أحد من كان يتعمم مخافة الوقوع في حب النساء ، لم يكتف بالتعمم ، بل تبرقع أيضاً^١ . ولعله فعل ذلك بتأثير ديني . أخذ ذلك عن الرهبان والمتزمطين بدينهم من أهل الجاهلية الذين حجبوا أنفسهم عن الناس وآووا الى الغار أو قمم الجبال للتبصر والتأمل والابتعاد عن الملاء ، ولا سيما عن النساء .

الفتيان :

وُعرف شباب أبناء الأغنياء والجساه بـ (الفتيان) . وأحدهم (قتي) . ويراد به الشاب . وقد تطلق على السخي الكريم ، وهو من (الفتوة)^٢ . وكثيراً ما تقرأ في كتب أهل الأخبار جملاً تشير الى (الفتوة) في الجاهلية ، مثل (وهو من فتيان قريش أيضاً)^٣ . يريدون بذلك جماعة من أبناء الأسر عاشت عيشة شباب وعبث ، تلهو وتشرب ، وتنفق وتعطي ، وتغيث ،

١ المحبر (٢٣٢) .

٢ تاج العروس (٢٧٥/١٠) ، (قتي) .

٣ المحبر (ص ١٧٦) .

وتتسابق ، وتقتل وقتها في اللذة والاستمتاع وفي الانفاق على الجسد ، على نحو ما يفعله أبناء الطبقة المترفة في كل وقت . وقد كانت لها نجدة وشهامة ، اذا استنجد بأحدها هبّ لنجدة المستنجد ودافع عنه .

الأحامرة :

والحياة عند بعض الناس : خمر ولحم وخلوق . فهي متع الحياة عندهم .
قال الأعشى :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالي وكنت بها فديماً مولعاً
الخمر واللحم السمين وأطلي بالزعفران فلن أزال مبقعاً^١

والحياة عند البعض خمرٌ ونساء . واهتمت المرأة بحبها الحلي والطيب . ورد :
(أهلك النساء الأحمران . يعنون الذهب والزعفران ، أي أهلكهن حب الحلي والطيب) . وورد (الأحمران : اللحم والخمر) . ويقال للذهب والزعفران : الأصفران ، وللماء واللبن الأبيضان ، وللمر والماء الأسودان . وفي الحديث : أعطيت الكتزين الأحمر والأبيض . والأحمر الذهب والأبيض الفضة . والذهب كنوز الروم ، لأنها الغالب على تقودهم . وقيل أراد العرب والعجم . وقيل : الأحامرة : اللحم والخمر والخلوق . وورد الأحمران : الخمر والبرود^٢ .

الخمر :

وفي مجتمع الحياة فيه على وتيرة واحدة ، والفراغ فيه أكثر من العمل ، ومرافق اللهو والتسلية فيه قليلة أو معدومة ، والفقر فيه أكثر من الغنى ، وتشغيل الفكر فيه محدود ضيق - في مجتمع كهذا المجتمع لا بد وان يقبل الناس فيه على قتل فراغهم بالبحث عن شيء ينسبهم فراغهم وفقيرهم وشدة حاجتهم ، ويلهيهم عن قساوة الطبيعة عليهم ، ويبعث فيهم الأمل والطرب والنشوة ، والشعور بأنهم

١ ناح العروس (١٥٤/٣) ، (حمر) .

٢ ناح العروس (١٥٤/٣) ، (حمر) ، العجوان (٢٤٩/٣) ، (هارون) .

سادة ملكوا الدنيا ، وان كل واحد منهم هو (رب الخورنق والسدير) ^١ ، فكان اقبالهم على الخمر شديداً ، حتى أفرطوا في شربه وأذى بعضهم نفسه من شدة إقباله عليه ، فصار آفة من الآفات ، حتى ضحى شاربه بمركزه وماله في سبيله ، فكان ذلك من عوامل تحريمه في الاسلام .

وقد كان الخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب . والمتع الثلاث : الخمر والقمار والنساء ^٢ . فاذا أضيفت الشجاعة اليها صار الفتي من خيرة الفتيان ، لذلك كان الشباب يفتخرون اذا جمعوا بين هذه المتع ويتباهون على غيرهم بها . وربما ارتكبوا المعاصي والمخالفات في سبيل الحصول على المال للاتفاق على متعهم هذه وعلى ملذاتهم وملاهيهم في هذه الحياة .

ومن أسماء الخمر : العقار ، سُميت لعاقرتها أي للملازمة لها الدن . والمعاقرة الإدمان ومعاقرة الخمر إدمان شربها . وقيل سميت عقاراً لأن أصحابها يعاقرونها أي يلزمونها أو لعقرها شاربها عن المشي ، وقيل هي التي لا تلبث ان تُسكر ^٣ . والسكران نقيض الصاحي . والسكر حالة تعترض بين المرء وعقله . وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب المسكر . و (السكر) الكثير السكر ^٤ . و (المدمن) هو الملازم للشراب وغيره ، لم يقلع عنه ، فهو يلزمه ولا يقلع عن شربه أو شرب الخمر ^٥ .

وقد أدمن كثير من أهل الجاهلية على شرب الخمر ، وهلك قسم منهم بسببها . وقد حذر من ذلك الاسلام فورد : « ملعن الخمر كعابد الوثن » ^٦ ، و « لا يدخل الجنة مدمن خمر » ^٧ .

١ واذا سكرت فأنني رب الخورنق والسدير واذا صحوت فأنني رب الشويهة والبعير وقال حسان بن ثابت :

ونشربها فتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنها اللقاء

٢ البريزي ، شرح القصائد العشر (٤٣) .

٣ تاج العروس (٤١٧/٣) ، (عقر) .

٤ تاج العروس (٢٧٣/٣) وما بعدها ، (سكر) .

٥ اللسان (١٥٩/١٣) ، (دمن) .

٦ اللسان (١٥٩/١٣) ، (دمن) .

٧ المستطرف (٢٢٩/٢) .

وعرف علماء اللغة (الخمر) بما أسكر من عصير العنب ومن عصير كل شيء يُسكر . ولما نزل الأمر بتحريم الخمر ، كان شرابهم بالمدينة يومئذ الفضيخ ، البُسْر والتمر في الغالب ^١ . غير أن الجاهليين كانوا يصنعون الخمر من أي شيء يقع في أيديهم مما يمكن تخميره للحصول على مادة مسكرة منه مثل الحبوب الأعشاب وغير ذلك ، بل كان منهم من يخمر اللبن ، ولا سيما البان الإبسل ، للانتشاء بها . و (النشوة) السكر ^٢ .

وكان أهل المدينة يسقون ضيوفهم شراباً من الفضيخ . فإذا جاءهم ضيف سقوه منه . كانوا يضعونه في قِلال وجِرار وهو خليط من بسر وتمر ، ومن تمر وزَهْو . والزَهْو ^٣ هو البسر الملون الذي ظهرت فيه الحمرة والصفرة ^٤ ، كما كانوا يصنعونها من خلط الزبيب والتمر ^٥ أيضاً . وكانوا يجلسون مجلسهم ، ويسقيهم أحد أبناء صاحب الدار أو خادم من خدمه ، من قِلال أو كؤوس يدور بها عليهم قليلاً قليلاً ^٦ .

واستخرج أهل اليمن من الشعير شراباً عرف عندهم باسم (المزر) ^٧ . وذكر أن (المزر) نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل : نبيذ الذرة خاصة . وذكر أبو عبيد أن ابن عمر فسّر الأنبذة ، فقال : البِتْع نبيذ العسل ، والجة نبيذ الشعير ، والمزر من الذرة ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب ^٨ .

وورد أن أهل اليمن كانوا يتخذون شراباً مسكراً من القمح يستعينون به على برد بلادهم ويتقوّون به على عملهم . وقد منعوا عن ذلك في الإسلام حين نزل الأمر بتحريم الخمر ^٩ .

- ١ . ناج العروس ١٨٦/٣ وما بعدها ، (خمر) ، صحيح مسلم (٨٥/٦) ، (باب تحريم الخمر) .
- ٢ . ناج العروس (٣٦٨/١٠) ، (نشي) .
- ٣ . بفتح الزاي وسكون الهاء وبالواو ، وقد يضم الراي .
- ٤ . صحيح مسلم (٨٧/٦) وما بعدها .
- ٥ . صحيح مسلم (٨٩/٦) .
- ٦ . ناج العروس (٥٤١/٣) .
- ٧ . صحيح مسلم (٩٩/٦) .
- ٨ . ناج العروس (٥٤١/٣) ، (مرر) ، الاصابة (٤٦٦/١) .
- ٩ . الاصابة (٤٦٦/١) ، (رقم ٢٤٠٩) .

ومن الخمر نوع اشتهر في العراق باسم (الخمر الصريفية) تُنسبت الى قرية (صريفون) عند (عكبراء) في العراق ، وإياها عني الأعشى بقوله :
وتجبي اليه السيلحون ودونها صريفون في أنهارها والخور تنق
ووصف الأعشى في شعر آخر الخمر الصريفية فقال :

تعاطي الضجيع اذا أقبلت بُعَيْدَ الرقاد وعند الوسن
صريفية طيب طعمها لها زبد بين كؤب ودن

وذكر بعض العلماء انها إنما عرفت بصريفية ، لأنها أخذت من الدن ساعتئذ
كاللبن الصريف^١ .

وكانوا يضعون خمرهم في زيقٍ يحملونه معهم ، فأينما يكون الانسان يكون خمره معه . وقد كانوا يكثرّون من استعماله كما يظهر ذلك من روايات أهل الأخبار مع فقر شاربها وعدم وجود طعام عنده . أما في المدن والقرى والخواضر ، فهناك خمرات ، جمعت الى الخمر وسائل المتع الأخرى ، يقصدها أهل المكان والغرباء للاستمتاع بها ، والترفيه عن خاطرهم . وقد هيأت بعض الخمرات المغنين فيها وجلبوا الى حاناتهم أنواع الخمر .

وكانت الخمرات منتشرة في كل مكان ، ولا سيما على الطرق . حيث ينزل بها المسافرين للاستراحة واستعادة النشاط بعد تعب ونصب . وكان بمكة وبساتر القرى خمرات كذلك . أصحابها نصارى ويهود في الغالب . ومعظمهم من غير العرب ، وفدوا من الخارج للتكسب والعيش فامتهنوا مهنة بيع الخمر وإسقاؤها للناس . وقد عرفت (الخمارة) بالخانوت . يذكر علماء اللغة ان (الخانوت دكان الخمر) . وقد أشير الى بالخانوت في الشعر الجاهلي . وكانت العرب تسمي بيوت الخمارين الخوانيت . وأهل العراق يسمونها المواخير . وورد ان الخليفة (عمر) أحرق بيت (رويشد الثقفي) ، وكان خانوتاً يعاقر فيه الخمر وبيع^٢ . وعرفت (الخمارة) بالدكة أيضاً^٣ .

١ تاج العروس (١٦٤/٦) ، (صرف) .

٢ تاج العروس (٥٣٩/١) ، (خانوت) .

٣ تاج العروس (٢٠١/٩) ، (دكن) .

وقد يجتمع فتیان من مواضع شتی للشرب ، فيقال لهم (الأندرون) .
يتنادرون فيما بينهم بما شدّ وخرج من الجمهور . وذكر ان قول عمرو بن كلثوم :
ألا هي بصحنك فاصبحنا ولا تبقي خمور الأندرينا
هو في هذا المعنى ^١ .

وقد تاجر اليهود بالخمير ، وفتحوا لهم الخمارات في الأماكن التي أقاموا بها
من جزيرة العرب ، فقصدوها الناس للشرب . ومن جملةهم الشاعر الأعشى الذي
كان كلفاً بشرب الخمر حريصاً على تعاطيها ، قيل انه عزم على الدخول في
الاسلام وأراد الذهاب الى الرسول لينشده ويعلن أمامه دخوله في الاسلام ، ونظم
شعراً في مدحه ، فأدرك (أبو سفيان) ما في شعر (الأعشى) في مدح الرسول
والاسلام من أثر في تصرفه وفي إضعاف فريش ، فلفيه وحادثه وكلمه وجاءه
من ناحية نقطة الضعف التي كانت فيه . وهي حبه للخمر . فهيّج أشجانته
فيها ، وأظهر له كيف ان الاسلام حرّمها على المسلمين ، وجعل في شربها الحدّ ،
فهو سيُحرّم من متعته الوحيدة التي بقيت له في حياته ان دخل في الاسلام . وأثار
فيه الحنين اليها ، ورغبه في الذهاب الى قومه والمكوث هناك سنة يشربها ، ثم
يرى رأيه بعد ذلك ، فإما ان يستمر على شربها ، وإما ان يعافها ويدخل في
الاسلام ، على ان يأخذ مقابل ذلك مائة من الإبل . فأثر كلام (أبو سفيان)
فيه ، وأخذ الإبل وذهب بها الى قومه وأقام بـ (منفوحة) حتى مات بها
قبل الحول ^٢ .

وذكر (بلينيوس) ان العرب كانوا يصنعون الخمر من النخيل ، وذلك كما
يفعل سكان الهند ^٣ . ويقصد بذلك التمور بالطبع . وقد ذكر ذلك من باب التنويه
بالأمور الغريبة . فليس استخراج الخمر من التمور مألوفاً عند اليونان والرومان .

-
- ١ ناج العروس (٥٦٠/٣) ، (ندر) .
 - ٢ جمهرة أشعار العرب (٥٦) ، الشعر والشعراء (١٣٥) ، الأعاني (٧٧/٨) ،
(١٤٣/١٠) ، (٥٢/١٥) ، (١٦٠/١٦) ، المجبر (٣٢١) .
 - ٣ مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث ، الجزء الاول ، (ص ١٣٩) ، (١٩٥٤م) ،
(بلاد العرب : من تاريخ بلينيوس) .

ولهذا السبب أشار إليه ، ليقف عليه قومه . غير ان العرب كانوا يستخرجون النبيذ من الكروم أيضاً ، وذلك في الأماكن التي توفرت فيها الكروم ، مثل الطائف واليمن . وقد أشار (سترابون) الى صنع الخمر من التمر^١ .

أما خمور العرب فن البتّع ، وهو نبيذ العسل ، وهو خمر أهل اليمن . ومن التمر ومن البرّ والشعير والزبيب . ولأهل اليمن شراب من الشعير ، يقال له المزر ، أشرت قبل قليل إليه^٢ .

وشرب الجاهليون أشربة استخرجوها من الذرة ومن مواد أخرى . فقد صنع أهل اليمن (المزر) من الذرة أيضاً . فلما أسلم قوم منهم سألوا الرسول عنه . فقال لهم : أله نشوة ؟ فلما قالوا له : نعم ، قال : فلا تشربوه^٣ .

وانتبدوا في (النقيير) : أصل النخلة ينقر فينبذ فيه ، فيشتدّ نبيذه . وذكر ان أهل اليمامة كانوا ينقرون أصل النخلة ثم يشدّخون فيها الرطب والبسر مم يدعونه حتى يهدر ثم يموت^٤ وانتبدوا في (الحنم) : الجرار الخضر ، وفي (الدباء) ، اليقطين ، وفي (المزفت) أي ما طلي بالمزفت^٥ .

ومن الخمور (المقدى) . يتخذ من العسل على بعض الروايات . يقال انه من قرية تسمى (المقدة) بالأردن ، وقيل هي في طرف حوران قرب أذرعات^٦ .

وللخمر أسماء عديدة ، ذكرها علماء اللغة . منها ما هي معربة . عربت عن اليونانية ، أو الفارسية ، أو السريانية ، لأنها استوردت من بلاد الشام ، أو العراق^٧ .

ومن الخمور خمر يقال له : (الاسفنت) . وهو المطيب من عصير العنب .

١ مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني ، (١٩٥٢ م) ، (ص ٢٦٧) .

٢ العقد الفريد (٣٥٦/٦) .

٣ الاصابة (١٣٣/١) .

٤ تاج العروس (٥٨١/٣) ، (نهر) .

٥ القسطلاني ، ارشاد الساري (١١/٦) .

٦ تاج العروس (٤٦٠/٢ وما بعدها) ، (قد) .

٧ راجع كتب اللغة والأدب .

وقيل هي خمر فيها أفاويه ، أو أعلى الخمر وصفوتها . وذكر ان اللفظة (رومية) . قال الأعشى :

وكان الخمر العتيق من الا سفنط ممزوجة بماء زلال
باكرتها الأغراب في سة النو م فتجرى خلال شوك السيال^١

واستعمل الجاهليون أواني الشرب المصنوعة من الزجاج والباور ومن الذهب والفضة ، واستعملوا أواني أخرى تتناسب مع منزلة الشارب ومكانته . وقد كان ملوك الحيرة ومارك الغساسنة يشربون بالآنية الغالية ، وبعضها منموش . وكذلك تفنن أغنياء مكة في الشرب ، فاستعمل عبد الله بن جُدعان الأواني المصنوعة من الذهب في شربه ، حتى ضرب به المثل ، فقليل : (أفرى من حاسي الذهب) ، وعرف بـ (حاسي الذهب) . وشرب غيره من أصحاب الثراء بأواني غالية استوردوها من الخارج ، على حين كان أكثر سكان مكة فقراء لا يملكون شيئاً . ولهذا ورد في الحديث النهي عن الشرب بآنية الذهب والفضة^٢ . وقد ذكر ان النابغة الذبياني ، وهو من شعراء الجاهلية الكبار ، كان لا يأكل ويشرب إلا في آنية الذهب والفضة ، من عطايا النعمان وأبيه وجدّه ، ولا يستعمل غير ذلك^٣ .

وحرم قوم من الجاهليين الخمر على انفسهم ، وأكثرهم ممن يسمّون الأحناف ، ومنهم من كان يشربها ويقبل عليها ، ولكنه وجد نفسه وقد قام بأعمال لم يرتضيها ، جعلته يشعر بالحجل منها ، فتركها وحرّمها على نفسه . ويذكر اهل الاخبار ان اول من حرّمها على نفسه وامتنع منها في الجاهلية ، هو (الوليد بن المغيرة) . وهو رجل ينسب اليه اهل الاخبار جملة امور ، منها انه اول من خلع نعليه لدخول الكعبة في الجاهلية ، فخلع الناس نعالهم في الاسلام ، وأول من قضى بالقسامة في الجاهلية فأقرها الاسلام ، وأول من قطع في السرقة في الجاهلية ، فأقرها

١ باج العروس (١٥٤/٥) ، (الاسمط) .

٢ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩٣) ، بلوغ الأرب (٨٧/١) .

٣ بلوغ الأرب (٢٢/٣) .

الاسلام . ويذكرون ان الجاهليين كانوا يقولون : « لا وَثُوْبِيّ الوليد ، الخلق منها والجديد »^١ .

ومن ترك الخمر في الجاهلية (عبد الله بن جدعان) ، وسبب تركه لها انه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي ، فلطم وجه (أمية) بعد ان ثمل ، فأصبحت عينه مخضرة فخاف عليها الذهاب ، فسأله عبد الله : ما بال عينك ؟ فقال : انت اصبتها البارحة . قال : وبلغ مني الشراب ما ابلغ معه من جليسي هذا المبلغ ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام ، لا أذوقها ابداً^٢ . وذكر ايضاً انه سكر فجعل يساور القمر . فلما أصبح أخبر بذلك ، فحرمها^٣ . الى غير ذلك من قصص .

ومن حرمها في الجاهلية ، قيس بن عاصم المتقري ، وعامر بن الظرب العدواني ، وصفوان بن أمية بن محرث الكناني ، وعفيف بن معديكرب الكندي ، والاسلوم ابن اليامي من همدان ، ومقيس بن عدي السهمي ، والعباس بن مرداس السلمي ، وسعيد بن ربيعة بن عبد شمس ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة . ، وأبوه أمية بن المغيرة ، والحارث بن عبيد المخزومي ، وزيد بن عمر بن نفيل ، وعامر ابن جذيم الجمحي ، وأبو ذر الغفاري ، ويزيد بن جعونة الليثي ، وأبو واقد الحارث بن عوف الكناني ، وعمرو بن عبسة ، وقس بن ساعدة الإيادي ، وعبيد ابن الابرص ، وزهير بن أبي سلمى المزني ، والتابختان الدياني والجعدي ، وحنظلة الراهب بن أبي عامر ، وقبيصة بن اياس الطائي ، واياس بن قبيصة بن أبي غفر ، وحاتم الطائي ، و (سويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي)^٤ . وذكر ان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية : (بشير الثقفي) . وكان نذر في الجاهلية الا يأكل الجزور ولا يشرب الخمر^٥ .

-
- ١ المعارف (ص ٢٤٠) .
 - ٢ نهاية الأرب (٨٨/٤) .
 - ٣ المحبر (٢٣٧) .
 - ٤ المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٨٨/٤ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (٢٩٤/٢ وما بعدها) ، الأمالي ، للقاتلي (٢٠٤/١ وما بعدها) ، الأغاني (٩/٥) ، (بيروت) .
 - ٥ الاصابة (١٦٠/١) .

وروي ان (عفيف بن معديكرب الكندي) ، عم الأشعث بن قيس ، كان قد طلق الخمر وحرّمها على نفسه وحرّمَ معها القمار والزنى ، والثلاثة من اهم وسائل التلهي والتمتع بالحياة عند الجاهليين ^١ . وكان قيس بن عاصم يأتيه في الجاهلية تاجر خمر فيبتاع منه ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفد ما عنده . فشرب قيس ذات يوم فسكر سكرأ قبيحاً ، فجذب ابنته وتناول ثوبها ، ورأى القمر فتكلم بشيء ثم نهب ماله ومال الخمار . فلما صبحا اخبرته ابنته بما صنع وما قال فألى لا يذوق الخمر ^٢ .

وبعض هؤلاء هم من الخنفاء ، وبعضهم من السادة الأشراف الذين لم يتذوقوها ، او انهم تعاطوها ثم رأوا ضررَها فتركوها وحرّموها على انفسهم . ويظهر ان بعضهم قد حرّمها على نفسه وعلى آله ايضاً ، فذكر مثلاً ان الوليد بن المغيرة ضرب فيها ابنه هشاماً على شربها ، ولعلّ منهم من كان يستعمل الخمر ، وهو الجزاء الذي قرره الاسلام على شاربي الخمر .

وقد اشار اهل الاخبار الى وقوع حوادث لأكثر من ذكرتهم دفعت بهم الى تحريم الخمر على انفسهم ، كالذي ذكرته من امر عبد الله بن جدعان ، وكالذي اشار اليه اهل الاخبار من تحرش بعضهم بمحارمهم تحرشاً لا يفعله انسان سوي ، او تخليطهم اثناء سكرهم وقيامهم بأعمال مضحكة صيرتهم سحرة للحاضرين ، فلما صبحوا وسمعوا بما فعلوا ندموا على ما بدا منهم ، وقرروا اجتنابها وتحريمها على انفسهم منذ ذلك اليوم ^٣ .

وكان الجاهليون يشتدون على النساء في شرب الخمر حتى لم يحفظ ان امرأة سكرت ^٤ .

المخدرات :

لم اعثر على نص جاهلي جاء فيه ذكر لاستعمال اهل الجاهلية للمخدرات ، ولم

-
- ١ بلوغ الأرب (٢٩٤/٢) .
 - ٢ بلوغ الأرب (٢٩٧/٢) .
 - ٣ المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) .
 - ٤ بلوغ الأرب (٢٩٧/٢ وما بعدها) .

اعثر في اخبار اهل الاخبار على خبر يفيد تعاظم الجاهليين لها . ولكن هذا لا يعني نقي معرفة عرب الجاهلية بالمخدرات ، ويظهر ان إفراطهم في تناول الخمر ووجود الخمر الرخيصة لديهم ، وتحضيرهم لها بطرق بدائية رخيصة ، وتحذيرهم بها ، كانت من الأمور التي صرفتهم عن استعمال المخدرات الاخرى التي ربما زاد ثمنها على ثمن الخمر .

الانتحار بشرب الخمر :

وقد قتل بعض الجاهليين انفسهم بشرب الخمر صرفاً ، ذكر (السكّري) منهم (عمرو بن كلثوم الثعلبي) . وكانت الملوك تبعث اليه بحبائه وهو في منزله من غير ان يفد اليها . فلما ساد ابنه الأسود بن عمرو ، بعث اليه بعض الملوك بحبائه كما بعث الى ابيه ، فغضب (عمرو) وقال : (ساواني بولدي) ، وحلف لا يذوق دسماً حتى يموت ، وجعل يشرب الخمر صرفاً على غير طعام ، فلم يزل يشرب حتى مات ^١ .

وأهلك (البرحُ بن مسهر الطائي) نفسه بشرب الخمر الصرف كذلك ، في قصة ذكرها (السكري) ^٢ .

و (زهير بن جناب بن هبل) ، هو ممن أتلف نفسه بشرب الخمر ايضاً ، لما خالفه ابن اخيه عبدالله بن عليم بن جناب ، فانزعج من ذلك وغضب ، وأما نفسه بشرب الخمر . ذكر انه قال في ابن اخيه : (عدو الرجل ابن اخيه ، غير انه لا يدعُ قاتل عمه) ^٣ .

ودكر ان (ابا براء بن مالك بن جعفر) ، قتل نفسه بشرب الخمر ايضاً ، انتحر لمخالفة قومه امره . فدعا قَيْنَتَيْنِ له ، فشرب ، وغنّاه ، ثم دعا بالشاعر (ليبد) ، وطلب منه ان يقول ما يقول فيه من المراثي ، فلما اثقله الشراب ، اتكأ على سيفه حتى مات ^٤ .

١ المحبر (٤٧١) .

٢ المحبر (٤٧١) .

٣ المحبر (٤٧١) ، الاصابة (٢٤٩/٢) ، (رقم ٤٤٢٣) .

٤ المحبر (٤٧٢ وما بعدها) ، الاصابة (٢٤٩/٢) ، (رقم ٤٤٢٣) .

الاغتيال :

الغيلة : هي الخديعة وايصال الشر او القتل الى انسان من حيث لا يعلم ولا يشعر^١ . وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، شجع على ظهوره وانتشاره بينهم 'عرف' الأخذ بالثأر ، والتنافس الذي كان بينهم على الرئاسة والوجاهة ، وقواعد مجتمع ذلك الوقت التي كانت تقيم وزناً كبيراً للكلمة ، وللمدح والهجاء ، ولتقديم شخص على شخص في الجلوس في مجلس من المجالس ، فكانت هذه الامور وأمثالها تدفع من يتعرض لها على الانتقام ممن اهانته والتربص به وتتبع آثاره حتى يتمكن من قتله او اغتياله .

وقد اتبع المعتالون اساليب شتى في الاغتيال . منها الطعن بالرمح او بالخنجر او بالسكين ، ومنها الذبح ، والحقن ، ومنها اللجوء الى الحيلة بدس السم في الشراب او الطعام ، الى غير ذلك من اسباب الغيلة .

والغيلة غير الفتك . 'ذكر ان الفتك ان يقتل الرجل الرجل مجاهرة . وهو ان يأتي الرجل صاحبه وهو غار' غافل حتى يشد عليه فيقتله ، وان لم يكن اعطاه اماناً قبل ذلك ، ولكن ينبغي له ان يعلمه ذلك .

قال المخبل السعدي :

وإذ فتك النعمان بالناس محرماً فمن لي من عوف بن كعب سلاسله
وكان النعمان بعث الى (بني عوف بن كعب) جيشاً في الشهر الحرام ، وهم آمنون غارون فقتل فيهم وسبا^٢ .

ولمحمد بن حبيب السكري ، كتاب ذكر فيه اسماء المعتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام ، وأسماء من قُتل من الشعراء^٣ . بدأ فيه بـ (جذيمة الأبرش)

١ ناج العروس (٥٣/٨) ، (غبل) .

٢ ناج العروس (١٦٦/٧) ، (فك) .

٣ بؤادر المخطوطات ، (القاهرة ١٩٥٤ م) ، المجموعة السادسة (تحقيق عبد السلام هارون) .

الذي غدرت به (الزباء) ملكة (تدمر) ، فأجلسته على نطع ، وسقته الخمر ، ثم أمرت بقطع رواشه ، حتى مات . ثم ثنى به (حسان بن تبع) ، فزعم ان اخاه قتله غيلة وهو نائم على فراشه ، طمعاً في ملكه ، ثم تكلم عن (عمليق) ملك طسم ، وكانت منازلهم (عذرة) في موضع اليمامة ^١ . وذكر في جملة من ذكرهم اسم (عمرو بن مسعود) و (خالد بن فضلة) من بني (أسد) . وكانت أسد وغطفان حلفاء لا يديون ويغيرون عليهم ، فوفدا سنة من السنين ومعهما (سيرة بن عمير الفقعسي) الشاعر ، على (المنذر) الأكبر اللخمي ، فكلّمهما في أمر دخولهما في طاعته والذب عنه كما ذبت (تميم) و (ربيعة) ، فلم انهم لا يدينون له . فقرر الكيد بهما ، فأوماً الى الساقى فسقاها سماً ، فأتا ، ثم ندم على ما فعل ، فأمر فحفر لهما قبران ودفنا فيهما ، ونى عليهما منارتين ، وهما (الغريان) وعقر على كل قبر خمسين فرساً وخمسين بعيراً ، وغرأهما بدمائهما ، وجعل يوم نادمهما يوم نعيم ، ويوم دفنها يوم بؤس ^٢ .

وقد كان خنق الأشخاص في جملة وسائل الاغتيال والتخلص من الأعداء ، وقد ذكر ان الملك (النعمان بن المنذر) ، أمر بخنق (عدي بن زيد العبادي) ، فأت منه . ويكون الخنق بالضغط الشديد على الرقبة باليد ، وباستعمال الحبل او قطع الفماش . ويقال للحبل الذي يخنق به (الخناق) ^٣ .

وذكر ان (الحكم بن الطفيل) ، لما انهزم في نفر من أصحابه يوم (الرقم) (حتى انتهوا الى ماء يقال له المرورات ، فقطع العطش أعناقهم فأتوا ، وخنق ابن الطفيل نفسه مخافة المثلة ، فقال في ذلك عروة بن الورد :

عجبت لهم اذ يخنقون نفوسهم ومقتلهم تحت الوغى كان أعلنرا ^٤

الصيد :

والصيد في جزيرة العرب رغبة وحاجة . رغبة للملوك والرؤساء والاثرياء للأنس

١ (ص ١١٧) .

٢ (ص ١٣٣ وما بعدها)

٣ ناج العروس (٣٣٩/٦) ، (خنق) .

٤ ديوان عروة (١٣٥) ، نهاية الارب (٣٦٤/١٥) .

والترويح عن النفس ، وحاجة عند السواد وهم فقراء في الغالب لا يملكون شيئاً ،
فلحمت الصيد نعمة كبرى لهم وغذاء طيب لا يصل اليهم دائماً .

اما اصطياد الرؤساء والاثرياء فبالاستعانة بالصقور في الغالب ، حتى اذا قيل
كُنَّا نتصقر ، انصرف الذهن في الحال الى الصيد ، لاستعمال الطيور في الصيد ،
حيث تُدرَّب تدريباً خاصاً وتعلم تعليماً متقناً ، فاذا رأت الحيوان انقضت عليه ،
فلا تتركه يستطيع الحركة والهرب الى ان يصل الصياد الى الفريسة المسكينة . ويدعى
قيّم الصقور ومعلمها « الصقّار » . وتستعمل كلاب الصيد كذلك ، وهي كلاب
سريعة مدربة تدريباً خاصاً ، فاذا رأت الصقر فوق الفريسة عدّت خلفها لتساعد
الصقر في القبض على الحيوان فلا يهرب ويولي . ومنها ما تفتش عن مواضع اختفاء
الحيوانات ، فاذا شعرت بوجود حيوان في كهف او مغارة تدخل اليها او تقوم
بحركات تضطره الى الخروج فيصطاده الصياد . وقد تستعمل الخيل كذلك . وهي
لم تكن كثيرة في الجاهلية ، ولا يملكها الا المتمكنون .

وقد ذكر الصيد في آيات من القرآن الكريم ، مما يدل على اهميته ومكانته في
حياة العرب يومئذ . ويقال للصياد القانص كذلك . وأما استئثاره الصيد واخراجه ،
فيعبر عن ذلك بلفظة « النجش » ، والمنجاش والنجاش هو المثير للصيد . ويقال :
هَبِص الكلب اذا حرص على الصيد وقلق نحوه ، ويقال ايضاً : غَرَبَت الكلاب ،
اذا امعنت في طلب الصيد .

وكانت العرب تعيش في الغالب بلحوم الصيد ، وكانت خيلهم تسهل عليهم
نيل صيدهم ، وتعينهم على الوصول الى غايتهم . فكانت عندهم من اعز الأموال
وأثمن الأشياء يُعْتنى بها اعتناء الرجل بنفسه ، ولولاها حُرْم من لذة أكل اللحوم .
وكانت اذا اغارتها على صيد ، خضبوا نحر السابق بدم ما يمسكونه من الصيد ،
علامة على كونه السباق الذي لا يدرك في الغارات ^١ .

ولأهل الجاهلية عناية خاصة بـ (الصقور) . يربونها تربية خاصة . وذكر
علماء اللغة ان كل شيء يصيد من البزاة والشواهي ، صقر . وقد اشير الى صيد
(الصقور) في الحديث ^٢ .

١ بلوغ الأرب (١٨/٣) .

٢ ناج العروس (٣٣٩/٣) ، (صقر) .

وقد استعانوا بالكلاب السريعة الجري في الصيد كذلك . وقد عُنُوا بتربية أنواع ذكية سريعة الجري منها لمطاردة الفريسة ، اذا ادركتها نهشتها او قبضت عليها ، فيأتي الصياد ، فيأخذها منها .

ويتحایل الصيادون في الاصطياد ، فيحفرون حفرة تلجف من جوانبها ، اي يجعل لها نواحي ، وتعرف عندهم بالقُرْمُوص ، وذلك للتمويه على الحيوان . وقد يتخذ الصياد او اي شخص آخر موضعاً فوق اطراف الشجر والنخل خوفاً من الأسد ، فيقال لذلك « العرزال » . وأما « الزُبيسة » فحفرة تحتفر للأسد ، وكذلك « الزونة » ، و « القُترة » حفرة يحفرها الصائد يكمن فيها حتى لا يشعر به الصيد . وقد يدخن الصائد في قترته لكيلا تجد الوحش ريحه ، ويقال لذلك « المُدَمَر » . و « الروق » موضع الصائد ، و « الدُجبة » قتره الصائد . وهناك ألفاظ اخرى من هذا القبيل يراد بها الحفر التي يستتر بها الصيادون في الصيد . ويستخدم الصيادون جملة ادوات في الاصطياد ، منها آلة تسمى « الجرة » ، وهي خشبة نحو الذراع يحمل في رأسها كفة وفي وسطها حبل ، فاذا نشب فيها الظبي ناوصها واضطرب ، فاذا غلبته استقر فيها . و « الحباله » الحبل الذي يصاد به . و « الأحبول » حباله الصائد . وأما « الشرك » فحبال الصائد والواحدة « شركة » و « المصلاة » شرك ينصب للصيد ، و « الكصيصه » حباله الظبي التي يصاد بها . وهناك آلة تشبه المنجل تشد بحباله الصائد ليختطف به الظبي يقال لها « الخاطوف » . وأما « الرداعة » فمثل البيت تجعل فيه لحمه يصيد الصياد به الضبع والذئب . ويتخذ الصيادون بيتاً يبنونه من حجارة ، ثم يجعلون على بابه حجراً يقال له السهم . والمليسن يكون على الباب ، ويجعلون لحمه السبع في مؤخر البيت فاذا دخل السبع لتناول اللحمه ، سقط الحجر على الباب فسدّها ، وبذلك يحبس ، فلا يستطيع الخروج . ويقال لذلك البيت « الرواحه » . وأما « الجريئة » ، فانها بمعنى « الرداعة » . ولعرقه الحمير الوحشية تستعمل آلة خاصة تشبه الهلال يقال لها « هلال الصيد » .

وتستعمل الشباك في الصيد كذلك . تستعمل في صيد البحر والبر . ويغدف الصياد بالشبكة على الصيد ليأخذه . وأما القصبه التي تصاد بها العصافير ، فيقال لها الغاية . والغاية الراية كذلك . وأما « الرامق » و « الرامج » فبمعنى الملوّاح الذي يصاد به البُزاة والصقور ، وهو أن يؤتى بيومه فيُشدّ في رجلها شيء أسود ،

ويخاط عيناها . ويشدّ في ساقها خيط طويل ، فاذا وقع عليها البازي صاده الصياد من قترته . ويقال انها لفظة عجمية . وقد تُعشى الطيور بالليل بالنار ليصيدها ، ويعبرون عن ذلك بجملة : قمر القوم الطير .

و « المفقاس » عودان يشدّ طرفاهما بخيط ، كالذي في وسط الفخ ، ثم يُلوى أحدهما ، ثم يجعل بينهما شيء يشدهما ، ثم يوضع فوقها الشركة ، فاذا اصابها شيء ، وثبت ، ثم اغلقت الشركة في الصيد . والعطوف والعاطوف مصيدة فيها خشبة منعطفة الرأس ، والمقلة والقلة عود يجعل في وسطه حبل ، ثم يدفن ، ويجعل للحبل كفة فيها عيدان ، فاذا وطىء الظبي عليها عضت على اطراف اكارعه . وأما الدواهيل فخشبات على رؤوسها خرق ، كأنها طرادات قصار ، تركز في الارض لصيد حمر الوحش . وأما البُجة ، فإنها « الرداحة » . وأما « اللُجة » ، فإنها حديدة ذات شعب كأنها كفّ بأصابعه تنفّرج ، فيوضع في وسطها لحم ثم يُشدّ الى وتد ، فاذا قبض عليها الذئب ، التبجت في خطمه ، فقبضت عليه ، وصرعته . و « النامية » مصيدة تربط فيها شاة للذئب .

وقد يستتر الصياد بحيوان او غيره ليخفي نفسه عن الصيد ، ويقال لذلك « اللريثة » ، وبهذا المعنى « اللريعة » و « الرقية » و « السيفة » ، واذا استتر الانسان بالبعير من الصيد فيقال لذلك « المسوق » .

وفي جزيرة العرب حيوانات وحشية ، وقد قلّ فيها الأسد الآن . اما في الجاهلية ، فقد كان معروفاً في مواضع عديدة عُرفت عندهم بالأسد، جمع مأسدة^١ ، وقد كانوا يصطادونه بطريقة اسقاطه في حفر تغطي ، فاذا سار عليها الأسد سقط فيها ، وبطرق اخرى . وهناك الفهود والنسور وانضباع والذئاب ، وتكثر القردة في المناطق الجبلية وفي النجود ، وهي لا تزال موجودة في نجد الحجاز واليمن والعربية الجنوبية .

ويقال لماوى الأسد في نخيسه : (العريس) (والعريسة) . ويصعب صيده وهو في مكمنه ، وضرب المثل بذلك فقيل :

« كمتغني الصيد في عريسة الأسد »

١ (وأرض مأسدة : كثره الأسود) ، اللسان (٧٢/٢) ، (أسد) .

وقال طرفة :

كليوث وسط عريس الأجم^١

ومن الحيوانات الوحشية المعروفة في جزيرة العرب الحمار الوحشي . ويظهر ان بعض الناس كانوا يأكلونه ، بدليل ما ورد في كتب الفقه من النهي عن أكل لحوم الحمر الوحشية . ويذكر علماء اللغة ان الحميريين كانوا يطلقون على الحمار لفظة « العُكسوم » و « الكسوم »^٢ .

ويكثر الظبي في جزيرة العرب ، ويطمع فيه الصيادون . وقد كان الجاهليون يلجأون الى حوره فيسدّون ابوابها ويحفرون من موضع آخر للوصول اليه ، كما كانوا يضربون بحجر على الحجر ليفزع الظبي ، فاذا فزع تهبأ للقتال ، وتهبأ الصياد للقبض عليه ، ويتحایل عليه فيقبض عليه من ذيله . وهو ما زال كثيراً في مواضع عديدة من جزيرة العرب ، وقد استعملت السيارة في الزمن الحاضر في صيده وذلك في باب التجديد في الصيد^٣ .

والنعام من الحيوانات المعروفة في جزيرة العرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً كثيرة قالوا ان العرب اطلقوها على النعام ، على ذكر النعامة وعلى انثاها وعلى صغار النعام . ومنها « الجعول » ويراد بها ولد النعام ، وهي يمانية . وكذلك لأصوات النعام وجماعاتها^٤ . وورود هذه الألفاظ دليل على كثرة النعام في جزيرة العرب ووقوف العرب عليها .

وأما اهل السواحل ، فقد اضطرتهم طبيعة بلادهم على الاصطياد في البحر ، على اصطياد سمكه ، للاعتياش عليه ولبيع الفائض منه . او لتجفيف الزائد منه لأكله وقت الحاجة او لتقديمه علفاً لحيواناتهم . وقد اشتهر سكان الخليج في الجاهلية ايضاً بالغوص لاستخراج اللؤلؤ من الصدف الكامن على قاع البحر . وقد كان يؤتيهم ذلك ارباحاً طائلة . اما اهل باطن جزيرة العرب والأماكن البعيدة عن السواحل فقد قلّ علمهم بالسمك ، لعدم وجود انواع منه في البوادي . وعدم امكان ايصاله طرياً اليهم . فقلّت اسماء انواعه في لهجاتهم . بينما نجد له اسماء عديدة في لغات اهل السواحل لوجود انواع عديدة منه في البحار كانوا يصطادونها . فتكون القسم الغالب من اللحم عندهم .

١ اللسان (١٣٦/٦) ، (عرس) .

٢ المخصص (٤٧/٨) .

٣ فؤاد حمزة : في بلاد عسير (ص ٢٣) .

٤ المخصص (٥١/٨ وما بعدها) .

وذكر علماء اللغة ان (السمك) الحوت من خلق الماء^١ . وذكر ان الحوت
ما عظم من السمك^٢ . ومن أنواع سمك البحر : (القرش)^٣ . وهو من
الأسماك العظام .

ومن وسائل صيد السمك (العروك) ، خشب يلقي في البحر ، يركبون
عليه ، ويلقون شباكهم ، يصيدون السمك^٤ . و (العركي) صياد السمك .
ولهذا قيل للملاحين عرك ، لأنهم يصيدون السمك . (وفي الحديث في كتابه الى
قوم من اليهود : ان عليكم ربع ما أخرجت نخلكم ؛ وربع ما صادت عروكم ،
وربع المغزل) . والعروك هم الذين يصيدون السمك^٥ .

ومن عادة ملوك الحيرة والغساسنة أنهم كانوا يتبدون في المواسم الطيبة من
السنة ، بعد هطول الأمطار واكتساء البادية بسطّ الربيع ، وتعيد الطيور والماشية
بالمناخ السعيدة . كانوا يخرجون الى البوادي للاستمتاع بالمناظر الجميلة وللصيد
والقنص ، ومن الأماكن التي كان ملوك الحيرة يقصدونها منزل (معاوية) ،
وهو منزل بين مكة والبصرة^٦ . ذكر ان الملك (النعمان) كان اذا أراد
الاستئناس برؤية حلال الربيع والماء ، خرج الى (النجف) والى البادية ، فتنصب
له ولأصحابه القباب ويمضي أياماً هناك يتصيد ويستمتع بمنظر الشقائق ذوات الألوان
الأنحاذة الجاذبة للقلوب ، حتى زعم ان (شقائق النعمان) انما سميت بذلك نسبة
اليه . جاء الى موضع وقد اعتم نبتة من أصفر وأحمر واذا فيه من هذه الشقائق
ما راقه ولم ير مثله ، فقال : ما أحسن هذه الشقائق ! إجموها ! وكان أول
من حماها ، فسميت شقائق النعمان بذلك^٧ .

ويظهر من حديث جرى بين يدي (النعمان) ان من العرب من كان يسمّى
الصيّاد ، ويفضل صاحب الإبل عليه . فقد روي ان (معاوية بن شكل) ذمّ

- ١ تاج العروس (١٤٤/٧) ، (سمك) .
- ٢ تاج العروس (٥٣٩/١) .
- ٣ تاج العروس (٣٣٧/٤) ، (قرش) .
- ٤ ابن سعد ، طبقات (٢٧٧/١) .
- ٥ تاج العروس (١٦١/٧) ، (عرك) .
- ٦ الاشفاق (١٩١) .
- ٧ تاج العروس (٣٩٨/٦) ، (شق) .

(حجل بن فضلة) بين يدي النعمان ، إذ قال فيه : « انه مقبل النعلين ، منتفخ الساقين ، قعو الأليتين مشاء بأقراء ، قتال نلباء ، بياع إمساء » . فقال له النعمان : « أردت ان تديمه ، فمدحته » ، وصفه بأنه صاحب صيد ، لا صاحب إبل^١ . ولعله قصد بذلك انه كان صياداً عتقاً ، اتخذ الصيد حرفة له . فقد كان بين الصيادين قوم اتخذوا الصيد لهم حرفة . فاذا اصطادوا باعوا صيدهم ، ولم يستفد منه ، فهو مثل الجزار ، الذي يبيع اللحم ولا يطعم أهله منه ، ولذلك نظروا اليه نظرة استصغار .

سباق الخيل :

والتسابق على ظهور الخيل رياضة الأثرياء والفرسان القديمة . وهي لا تزال معروفة ، وان كانت قد أخذت تلفظ أنفاسها بسبب اقبال الأثرياء على ركوب السيارات الفخمة التي لفت أنظارهم وجرتهم اليها ، فلم يبق من يمارس تلك الرياضة القديمة إلا أولئك الذين لم تصل السيارات اليهم بكثرة ، لوعورة الطرق وامعائهم في البوادي وابتعادهم عن المواطن التي أخذت تعروها منتجات العرب .

ويذكر أهل الأخبار ان أول من ركب الخيل (اسماعيل) ، ولذلك سميت بـ (العراب) ، وكانت قبل ذلك وحشية كسائر الوحوش . خرج الى موضع (أجياد) ، فنادى بالخيل ، فلم يبق علي وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا أجابته فأمكنه من نواصيها وتذلت له . ولذلك قال النبي : (اركبوا الخيل فانها ميراث أبيكم اسماعيل)^٢ .

وراهن أهل الجاهلية على الخيل . فكانوا يخرجون الى السباق ويقال : مجتمع الناس للرهان ، ثم يتراهنون هنالك على الخيل المتجمعة و (السابق) من الخيل ، وهو الأول ، هو الذي يأخذ الجائزة الأولى ، ويتلوه « المصافي » وهو الفائز الثاني^٣ . و « الحلبة » الدفعة من الخيل في الرهان خاصة ، وقيل : خيل تتجمع

١ اللسان (١٧٩/١٥) ، (قرا) ، تاج العروس (٢٩٠/١٠) ، (فري) ، (و) د . وجدنا العرب يستدلون الصيد وبحفرون الصباد ، الحيوان (٣٠٩/٣) ، (عمارون) .
٢ الدميري ، حياة الحيوان (٣١١/١) .
٣ العقد الفريد (٢٠٦/١) وما بعدها .

للسباق من كل أوب^١ . ومجمع الخيل .

ويقال للحبل الذي يمدّ في صدر الخيل عند الإرسال الحلب . والمنصبه الخيل حين تنصب للإرسال . ويقال للسابق من الخيل : الأول ، والمصليّ الثاني الذي يتلوه . وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع وكذلك الى التاسع ثم السكيت . فما جاء بعد ذلك لا يعتدّ به . والغسكل الذي يجيء آخر الخيل . وذكر : ان : أسماء خيل الحلبة عشرة لأنهم كانوا يرسلونها عشرة عشرة ، وسمي كل واحد منها باسم . فالأول منها السابق . وهو المُجَلّي لأنه كان يجلي عن صاحبه ، والثاني المُصلي لأنه يضع جحفلة على صلا السابق ، والثالث المسلي ، والرابع والخامس المرتاح ، والسادس العاطف ، والسابع المؤمل ، والثامن الحظي ، والتاسع اللطيم ، والعاشر السكيت ، والغسكل الذي يجيء آخر الخيل في الحلبة . ويقال للحبل الذي يجعل في صدور الخيل يوم الرهان المقبض والمقوس . وقيل في أسماء خيل الحلبة ان أولها المجائي ثم المصلي ثم المسلي ثم العاطف ثم المرتاح ثم الحظي ثم المؤمل . هذه السبعة لها حظوظ ، ثم التي لا حظوظ لها . اللطيم ، ثم الوغد ، ثم السكيت^٢ .

وكانوا يضعون عند نهاية الحدّ الذي يقررونه للسباق قصبة فمن يصل إليها قبل غيره من المتسابقين ، يعد السابق لقصبة السبق ، ويكون قد أحرز القصب لأن الغاية التي يسبق إليها تُندرّع بالقصب . وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية ، فمن سبق إليها حازها واستحق الخطر^٣ .

و (الخطر) الذي يوضع بين أهل السباق ، وقيل الذي يوضع في النضال والرهان في الخيل فمن سبق أخذه . والسابق اذا تناول القصبة ، علم انه قد أحرز الخطر^٤ . وكانوا يقلدون السابق من الخيل ؛ ولا يقلّد من الخيل إلا سابق كريم . ويقولون للسابق من الخيل : المفلّد^٥ .

١ ناج العروس (٣١١/٢) ، (الكونت) .

٢ نهاية الأرب (٦٠٢/٢) وما بعدها ، ناج العروس (١٥١/٢) ، (روح) .

٣ اللسان (٦٧٧/١) ، (فصب) .

٤ اللسان (٢٥١/٤) ، (حطر) ، (١٥١/١٠) .

٥ ناج العروس (٤٧٥/٢) ، (قلد) .

وقد سبق الرسول بين الخيل التي قد ضُمَّرت من موضع « الحفياء » الى « ثنية الوداع » والمسافة بين الموضعين خمسة أميال أو ستة ، وقيل ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التي لم تضمر من « الثنية » الى مسجد « بني زريق » والمسافة ميل أو نحوه . وسابق بين الخيل على حلق أتمه من اليمن ، فأعطى السابق ثلاث حلق والمصلي حلتين ، والثالث حلة ، والرابع ديناراً ، والخامس درهماً ، والسادس قصبة . وقد ساهمت خيله في السباق .

وراهن رسول الله على الخيل ، وذكر ان أول مسابقة كانت في الاسلام سنة ست من الهجرة . سابق رسول الله بين الخيل ، فسبق فرس لأبي بكر فأخذ سبق . والمسابقة مما كان في الجاهلية ، فأقرها الاسلام^١ .

وفي الحديث : أحاديث عن الرسول في السبق ، منها : لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر ، فالحف للإبل ، والحافر للخيل ، والنصال للرمي^٢ وبقية الأحاديث في كتب الحديث والفقه .

ولم يقتصر السباق عند الجاهليين على السباق بين الخيل ، بل سابقوا بين الإبل ، وجعلوا للسابق خطراً ، كما سابقوا بين الكلاب والحمير والحيوانات الأخرى .

ومن سباق أهل الجاهلية والاسلام ، سبق بالنصل ، أي المراماة بالسهم . وذلك بأن يوضع خطر ، ويذكر عدد الرمي والهدف ، فمن أصاب الهدف أكثر من غيره نال السبق . وقد عرف نفر من الجاهليين بإصابتهم الهدف ، وبقوة رميهم ، وجعلوا لقوة الرمي وشدة أو لرخاوته وللمكان من إصابته الهدف درجات هي : الخاضل ، والخازق ، والخاسق ، والحابي ، والمارق ، والخارم ، والمزدلف . والخاضل الذي يقرع الشن ولا يخذشه ، والخازق الذي يخذشه ولا يثقبه ، والخاسق الذي يثقبه ويثبت فيه ، والحابي ان يدني الرامي يسه من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض فيصيب الهدف ، والمارق الذي يمرق الشن

١ نهاية الأرب (٣٦٨/٩ وما بعدها) ، الفسطاطي ، ارشاد (٧٨/٥ وما بعدها) .

٢ اللسان (١٥١/١٠) ، (سبق) .

أي يثقبه وينفذ فيه ، والخارم الذي يحرم طرف الشن أي يقطعه ، والمزدلف الذي يسقط بقرب الغرض ثم يشتن فيصيب الهدف^١ .

ومن السباق : المناضلة ، وهي المباراة في الرمي . والنضيل هو الذي يرامي ويسابق . والمناضلة المفاخرة والتسابق بالأشعار^٢ . وتكون المباراة في الرمي بثلاثة أنواع : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة . فالمبادرة ان يشترطاً إصابة عشرة من عشرين ، فيبتدر أحدهما الى العشرة فينضل صاحبه ، والمحاطة ان يقولوا نرمي عشرين رشقاً على ان من فضل صاحبه بخمس إصابات فقد نضله ، فإذا اشترطاً ذلك ، ورمى كل واحد منهما عشرين رشقاً وأصابا إصابات نظر ان استويا في الإصابة لم يحصل النضل ، وان تفاوتا في الإصابة حط الأقل أو الأكثر ، فإن بقي لصاحب الأكثر الخمس المشروطة فقد نضل صاحبه ، وان بقي له أقل من الخمس المشروطة لم يحصل النضل . والمناضلة ان يشترطاً عشرة من عشرين على ان يستوفيا جميعاً ، فإرميان معاً جميع ذلك ، فإن أصاب كل واحد منهما عشرة أو فوقها أو دونها لم يحصل النضل ، وان أصاب واحد منهما دون العشرة والآخر عشرة فما فوقها ، فقد نضل صاحبه^٣ .

وللعرب عناية خاصة بالخيال ، وما زالوا يعتنون بها الى اليوم ، حتى لقد حفظوا أنسابها حفظهم لأنساب الناس ، وألقوا الكتب فيها . ويجد في كتب الأدب واللغة أسماء خيل اشتهرت في الجاهلية . وذكر (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) أسماء كتب ألفت في الخيل ، ذهب أكثرها ، وبقي بعض منها . ونجد في (تاج العروس) أسماء خيل اشتهر أمرها في الجاهلية ذكرت في مواضع متناثرة من أجزاء الكتاب^٤ . وذكر معها أسماء أصحابها ، كما أشار الى مؤلفات رجع اليها في هذا الموضوع مثل كتاب الخيل لابن الكلبي^٥ ، وقد طبع ،

- ١ بلوغ الأرب (٣٥٤/٣) .
- ٢ تاج العروس (١٣٨/٨) ، (نضل) .
- ٣ بلوغ الأرب (٣٥٥/٣) .
- ٤ تاج العروس (٦٠/٩) ، (لطم) .
- ٥ وقد طبع ببولاق بمصر ، (أنساب الخيل) ، (لندن) .

وكتاب الخيل لأبي عبيدة وقد طبع كذلك ، ومؤلفات أخرى لم تطبع حتى الآن^١ .

ولائم العرب :

الوليمة كل طعام يصنع لعرس وغيره ويدعى إليه . وأما الدعوة : فهي أعم من الوليمة ، وأما المأدبة ، فكل طعام صنع لدعوة أو عرس . والآدب الداعي إلى الطعام^٢ . وولائم العرب ست عشرة وليمة . هي : وليمة العرس ، وهي ما يصنع للدخول بالزوجة ، و (الملاك) (الأملاك) وهي ما يصنع للخطبة ، و (الخرس) وهي طعام يصنع للنساء لسلامة المرأة من الطلق ، وقيل : هي طعام الولادة . و (العقيقة) وهي ما يصنع للطفل بعد ولادته وتختص باليوم السابع ، و (الأعذار) وهي ما يصنع للختان ، و (الشندخ) وهي أيضاً طعام الأملاك ، و (الوكيرة) وهي ما يصنع للبناء يعني للسكن المتجدد ، و (التحفة) وهي ما يصنع للزائر ، و (الشندخ) وهي طعام الأملاك كما ذكرت ، وما يصنع عند وجود الضالة ، و (النقيعة) وهي ما يصنع للقدوم من السفر ، وقيل : النقيعة التي يصنعها القادم والتي تصنع له تسمى (التحفة) ، و (القرى) وهي ما يصنع للضيف ، و (الوضيعة) وهي ما يصنع للميت ، أي لأهل المصيبة .

ويقال للدعوة التي تعم دعوتها (الجفلى) ، وأما (النقرى) فهي التي تخص دعوتها . قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدبَ فينا ينتقر

- ١ أسماء الخيل ، لابن الأعرابي ، وقد طبع ب (ليدن) ، ولأبي اسحاق إبراهيم بن اسماعيل المعروف بابن الأجدابي ، كتاب كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ على الوان الخيل ، مطبوع ، نهاية الأرب (١٤/١٠) .
- ٢ اللسان (٢٠٦/١) ، (ادب) ، المخصص ، لابن سيده (١٨٨/٤) وما بعدها ، البخلاء ، للجاحظ (٢٤٦) ، (دار بيروت ، بيروت ١٩٦٠) ، النهاية ، لابن الأثير (٣٤/٢) .

يفتخر بقومه وانهم اذا صنعوا مآدبة دعوا اليها عموماً لا خصوصاً ، وخصّ
أيام الشتاء لأنها أيام الشدّة والضيق^١ .

ويقال للطعام المستعجل ، وهو الذي يقدم للراكب : (العُجل) و (العجيل) ،
وهو من السويق والتمر في الغالب . واذا أكرم رجل رجلاً آخر بتقديم (اللبن)
اليه ، قيل لذلك الكرم (القفي) . ويقال لما يرفع للانسان من المرق (العفارة) .
وهناك أسماء تجدها في كتب اللغة لأنواع المأكول والأطعمة^٢ .

١ بلوغ الأرب (٣٨٥/١) ، البخلاء ، للجاحظ (٢٤٦) ، المخصص (١٢٠/٤) .
٢ المخصص (١٢٠/٤) وما بعدها .

الفهرس

٥	٤٢. مكة المكرمة
١٢٨	٤٣. يثرب والطائف
١٥٨	٤٤. مجمل الحالة السياسية في جزيرة العرب عند ظهور الاسلام
٢٧١	٤٥. المجتمع العربي
٤١٤	٤٦. أنساب القبائل
٤٦٧	٤٧. القبائل العدنانية
٥٤١	٤٨. الناس منازل ودرجات
٦٠٦	٤٩. الحياة اليومية